لجنة التأليف والترجمة والنشر

شرح ديوان الحماسة

لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

... — ٤٢١

نشره

أحمد أمين

القسم الثالث

الطبعة الثانية

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م

الجزء الثانى

من شرح الاختيار المنسوب إلى أبى تمام الطائى

المعروف بكتاب الحماسة

صنعة

الشيخ الإمام أبى على أحمد بن محمد بن الحسن

المرزوقى الإصفهانى

٠٠٠ — ٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

٣٥٣

وقال حَرَّان بن عَمْرو بن عَبْدِ مَنَاةَ[١] ،

يرثى زيد الفوارس[٢] وغيرَه من أبناء عُمومته :

١ — تَبْكِى على بَكْرٍ شربتُ بِهِ ... سَفَهًا تَبَكِّيها عَلَى بَكْرِ

٢ — هَلَّا عَلَى زيدِ الفَوارسِ زَيْـ ... ـدِ اللَّاتِ أو هَلَّا على عَمْرِو

٣ — تَبْكِين لا رَقَأَتْ دُمُوعُكِ أَوْ ... هَلَّا على سَلَفَىْ بنى نَصْرِ

هذه امرأة ضايقَت الشَّاعر — وهى من بطائنه[٣] — فى بَكرٍ باعَهُ واشترى بثَمَنه خَمْرًا ، فبكت ، فأخذ يذكُر حالها ويُنكر بكاءها ، فقال : تبكى هذه المرأةُ على بَكرٍ شربتُ به ، أى شربتُ خمرًا سبأْتُ بثمنه . ويروى « شَرَيْتُ به » ، ويكون أظهر .

ثم قال ، بعد أن أخبَرَ عنها بما أخبر ، كالمتلفِّت إلى إنسانٍ بحضرته : سَفَهًا تبكِّيها على بَكر . فانتصب سفهًا على المصدر ، وهو المفعول له . وتبكِّيها فى موضع رفعٍ بالابتداء ، وعَلَى بكر فى موضع الخبر ، أى لسفهها فَعَلَتْ ذلك ، لأنَّه لم يبلغ

---

(١) كذا ورد اسمه فى النسختين . وفى المبهج ٤٦ والتبريزى : « حزاز بن عمرو ، أخو بنى عبد مناة » . وقال ابن جنى : « حزاز : جمع حزازة ، وهى هبرية الرأس ، وهو ما ينتثر منه كالنخالة إذا سرحته » . ويبدو أنه شاعر جاهلى .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٨٠ ص ٥٥٧ .

(٣) جمع بطانة . وفى ل : « بطانته » .

من قدر بَكْرٍ ما تكلَّفَتْهُ . ولو روى : سَفَهٌ تبكِّيها على بكر ، فجُعِل التبكِّيَ هو السَّفه لم يمتنع ، وكان خبرًا مقدَّمًا ، وعلى بكرٍ يكون لغوا .

وقوله « هَلَّا على زيدِ الفوارس » إلى آخر البيت ، هَلاَّ حرف تحضيض وهو يطلب الفِعل ، وذلك الفعل هو تبكين . يخاطبها ، أى هَلّا تبكين على هؤلاء الجبال التى انهدّت ، والبُحورِ التى غاضت بزيد الفوارس أو عمرو . ثمّ دعا عليها فقال : لا أرقأ اللهُ دمعَك ، أمْ هلَّا تبكين على سَلَفَىْ بنى نصر . وإنَّما ثنَّى السَّلَف لأنّه أراد العمومة والخُؤولة .

٤ — خَلَّوْا عَلَيَّ الدَّهْرَ بعدَهُمُ فبَقِيتُ كالمنصوبِ للدَّهْرِ

٥ — إنَّ الرَّزِيئةَ ما أُولَاكَ إذا هَـزَّ المُخَالِعُ أقدُحَ اليَسْرِ (١)

٦ — أهْلُ الحُلُومِ إذا الحلومُ هَفَتْ والعُرْفِ فى الأقوامِ والنُّكْرِ

يقول : مضوْا لسبيلهم ، وانتقلُوا إلى جوارِ مَنْ هو أملكُ بهم ، وتركوا أعباء الدَّهرِ على ظهرى ، فهى تثقُل علىَّ وتعرِّضنى لنوائبه وأحداثه ، فأنا كالغرض المنصوب له ، ليس لى من يتحمَّل عنِّى ، ولامن يؤازرُنى أو يشدُّ أزرى . ومعنى « خَلَّوْا علىَّ الدَّهر » أى صرتُ فريسةً للدَّهر ، فكأنَّهم هم الذين أغرَوْه بى لمّا ذهبوا عنِّى وأفردونى . وهذه اللَّفظةُ تُستعمَل فى إغراء الجوارح على الصَّيد .

وقوله « إنَّ الرزيئة ما أُولاكَ » إلى آخر البيت ، يريد : المصيبة كلُّ المصيبةِ هم أُولاك إذا اشتدَّ الزَّمان وأَسْنَتَ النّاس ، واحتِيج إلى مجامِـع الأيسارِ ، لإصلاح أمر الفقراء والأيتام ، فلم يُوجَدْ من يُرجَع إليه أو يُعتَمَدُ على إفضالِه وتفقدِه . وقوله « ما أولاك » ما صِلةٌ . ومعنى هَزَّ أجالَ . والمخالِـعُ : المقامر .

(١) التبريزى : « هر » بالراء المهملة . وقال : « ورواية من روى هر بالراء أجود من رواية من روى : هز ، لأنها أبلغ فى المدح » .

والمخالعة : القِمار . وقيل إنما سُمِّيَ مخالِعاً لأنه هو المولع باليَسْر ، فهو الذي يَخلع مالَ غيره وينخلع هو أيضاً من ماله ، مُنافسةً وحِرصا على الميسر واكتساب الحمد فيه وله . وقوله « إذا هزّ » هو ظرف لما دل عليه « ما أولاكَ » . يريد أنّ الرَّزيئة افتقارُ النَّاس إلى أولئك فى مثل هذا الوقت فلا يُنالون . وقوله « أهل الحلوم إذا الحلوم هَفَت » يصفُهم بالرَّزانة فيقول : إذا دَهِمَ من الأمر ما تهفو فيه العُقول وتزِلُّ فيه الأقدام ، فهؤلاء لأصالة آرائهم يثْبتون عند المزاولة ، ويُداوون الأمورَ بدوائها من غير طَيشٍ ولا سَفَهٍ ، ولا تجاوُزِ حَدٍّ وعَنَت . وقوله « والعُرْف فى الأقوام » أراد : وهم أهل العُرْف والنُّكر فى الأقوام . يعنى أنّهم يُنزِلون الأقوامَ منازِلَهم من المُوالاة والمُداجاة ، فمن دَاجَى كان له النُّكر منهم ، ومن وَالَى كان له العُرْف .

٣٥٤

وقال زُوَيْفِر[1] بن الحارث بن ضِرَار :

١ — أَلَمْ تَرَ أنِّى يومَ فارقْتُ مُؤْثِرًا أتانى صَرِيخُ الموت لو أنّهُ قَتَل[2]

يروَى « صريخُ الموت » بالخاء المعجمة « لو أنه قَبِل » بالباء . ومعنى ألم تَرَ : اعلَمْ ذلك . ألا ترى قولَه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ﴾ . والنبى عليه السلام لم يَرَ ذلك . فيقول : اعلمْ أنى يوم فارقتُ هذا الرجلَ وَرَدَ علىّ ما يجرى مَجرى الموت الصريح الخالِص لو أنه قتَلَنى وأتَى علىّ ، ولكنَّ القدَرَ ثبَّتَ قدمى فى الأحياء ، فلم يُخَلِّنى للموت . ومن رَوَى « صريخ » بالخاء و « قَبِل » بالباء فالمراد : أتانى داعى الموت . والصَّريخ يكون المستغيثَ

(١) التبريزى : « زويهر » .

(٢) صريح ، كتبت فى الأصل لتقرأ بالمهملة والمعجمة ، مقرونة بكلمة « معاً » .

والمُغيث جميعاً ، والمراد أتانى داعى الموت لو أنّه قَبِلنى لـكُنتُ لا أمتنع من إجابته لمّا استَدعَى ، وإغاثتِه لمّا استغاث ، لـكنه لمّا بَقّانى ولم يأخذْنى فـكأنّه لم يقبلنى .

٢ — وكانت عَلَيْنا عِرْسُهُ مِثْلَ يوْمِهِ غَدَاة غَدَت مِنّا يُقادُ بها الجَمَلْ

تقدير البيت إذا أُزيلَ ما فيه من هُجْنة التقديم والتأخير : وكانت علينا عِرْسُه غداةَ غَدَت منّا يُقادُ بها الجمـل مثلَ يومِه . والمعنى : كانت مفارقةَ عِرْسُه لنا غداةَ انتقالِها عنّا ، وقد حُمّلت الجِمالُ وقِيدَ بها ظعينتُها مثلَ يوم فقده ، أى كان ذلك اليومُ مثل ذلك اليوم . كأنّهم كانوا أَلِفُوا من مُقامِها أيّامَ عِدَّتها أُنْسًا بها ، وببقاء دارها على ما كانت تُعْهَدُ من قبل ، فلمّا رأت من التنقُّل ما رأت ، وخَلَت الديارُ منها ومن أسبابها وتغيَّرت ، عادت المصيبةُ على أحيائها جَذَعاً ، والشَّرُّ مستفحِلاً .

٣ — وكان عَميدَنا وبَيْضَةَ بيتِنا فـكلُّ الذى لاقيتُ من بَعْدِه جَلَلْ[1]

أى كان رئيسَنا والمصمودَ بالحاجات فينا ، وأصلَ بيتِنا وأساسَ فخرِنا . وقد تقدم القول فى بيضة البلد[2] ، وأنه يُستعمَل فى المدح والذم . فأما بيضة الخِدر وبيضة البيت فلا يستعملان إلاّ فى المدح . وقد صيغ من البيضة هـذا فعلٌ ، حكى ابن الأعرابىّ قال : يقال اجتاحوهم وابتاضوهم ، إذا استأصـلوهم . وقوله « فـكل الذى لاقيت من بَعدِه جَلَل » أى صغيرٌ هيِّنٌ فى جَنب ما لاقيناه فيه . والجلل يُستعمَل فى الصغير والـكبير . وقال بعضهم : المراد ببيضة البلد أنه المعروف الموضِـع ، المرجوعُ[3] إليه فى كلِّ مُهِمّ ، كما يرجع صاحبُ الأُدحِىّ إلى

(١) فى الأصل : « الذى حملت » ، صوابه فى ل والتبريزى .

(٢) انظر ما سبق فى ص ٥٠٥ ، ٨٠٤ .

(٣) فى الأصل : « للرجوع » ، صوابه فى ل .

أُدحيِّهِ[1] كيف توجَّه في المرعى ، وأنَّى انتجعَ ورَعَى . والأجود أن يكون المراد به وقد أضيف إلى البيت ، وهو بيت الفخر والعز ، أنه الأصلُ والجُرثومة ، كما حكى عن أبى بكر رضى الله عنه أنَّه قال : « نحنُ عِتْرَةُ رسول الله التى خَرَجَ منها ، وبَيضتهُ التى تفقَّأَتْ عنه » .

٣٥٥

وقال ابن عَنَمة الضَّبِّىُّ[2]

فى مَقتلِ بِسطامَ بنِ قَيْسٍ[3] :

١ ـ لِأُمِّ الأرضِ وَيْـلٌ ما أَجَنَّت   بحيثُ أَضرَّ بالحَسَنِ السَّبيلُ

يعظِّم شأنَ الأرض كيف ترشَّحَت لستر[4] بِسطامَ فيها ، ومن أين صارت يتَّسع بطنُها له ميِّتاً وهى تضيق عن أفعاله وذِكْرِه حيًّا . وقال الأصمعى فى تفسير وَيْلٍ إنه قُبُوحٌ[5] . ولك أن تقول « لِإِمِّ » فتتبـع حركة الهمزة حركة اللام . وارتفع وَيْلٌ بالابتداء وإن كان نكرة ، لأنه عُلِم أنه دعاء ، فحصل به مثلُ فائدة المعارف . ومعنى « لِامِّ الأرض وَيلٌ » ثبتَ لأمِّ الأرض ويل ، فهو فى لفظ ما وقع . وقوله « ما أجنّت » ما استفهام ، وموضعه مفعول أجنّت . يقول :

---

(١) هذا ما فى ل وهو الأوفق ، وفى الأصل : « أدحيته » ، والأدحى والأدحية والأدحوة ، كلها بمعنى ، وهو مبيض النعام فى الرمل .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٨٩ ص ٥٨٢ .

(٣) هو أبو الصهباء بسطام بن قيس بن مسعود الشيبانى . شروح سقط الزند ١٩٧٢ . وقال ابن دريد فى الاشتقاق ٢١٥ : « وبسطام اسم فارسى ، وبسطام أحـد الفرسان الثلاثة المذكورين : عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبسطام هذا » . التبريزى : « قتله عاصم بن خليفة : وكان ابن عنمة مجاورا فى بنى شيبان ، فخاف على نفسه لما تتل بسطام ، فرثاه يستميل بذلك بنى شيبان ، وهو من بنى السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة » . وعاصم ابن خليفة ضبى .

(٤) فى الأصل : « لسير » ، صوابه فى ل .

(٥) يقال قبح الله فلاناً قبحاً وقبوحا ، أى أقصاه وباعده .

سَتَرَتْ رجلاً وأىَّ رجل ، أى سترَتْ جليلاً من الأملاك رفيعَ بناءِ العِز ، واسعَ باعِ الفخر . وقوله « بحيثُ أَضَرَّ » جعل حيثُ اسماً . ومعنى أَضَرَّ : دنا . والحَسَن : جَبَلٌ[1] . والمعنى بمكانٍ أضرّ السَّبيلُ بالحَسَن فيه ، أو أضرّ السبيلُ بالحسَن ، حتى نكونَ مثَّلناه على المذهبين جميعاً .

٢ – نُقَسِّم مالَه فينا ونَدْعُو أبا الصَّهْبَاء إذ جَنَحَ الأَصيلُ

يقول : نقسِّم فواضلَ ما عندنا من غنائمِ غَزَواته وما بَقّاه ولم يَقسِم فينا لوقتٍ يختاره له ، فبقىَ بعده . وفى اقتسام تلك الأموال ما يهيِّج الحَسَرات ، لأوقات الغارة فى البُكَرات . ثم قال « وندعو أبا الصَّهباء إذ جَنَح الأصيل » يُشير إلى وقت الأضياف ، وأن الحىَّ فى ذلك الوقت يصير ضَجَّةً واحدة ، تلهُّفاً فى إثر الفائت ، وتذكراً له ، وتوجعاً لما فُقِدَ من المستأنَف من تلك الرُّسوم واستمرارها . ومعنى ندعوه نندُبه ونقول : وابِسطاماه ! وإنَّما قال « مالَه » لأنَّ ما اجتمع بسعيه وحَدِّه ، وبأسِه وسَطوته ، كان له . ومعنى جَنَح مال . والأصيل العشيَّة . وأبو الصَّهباء : كنية بِسطام .

٣ – أَجِدَّكَ لن تَراه ولَنْ تَرَاه تَخُبُّ به عُذافِرَةٌ ذَمُولُ[2]

ألمَّ فى هذا بقول النابغة :

* يقولون حِصْنٌ ثم تَأْبَى نفوسُهُم[3] *

كأنه لشدة الأمر عليه يكذِّب المشاهدة ويدع التَّصديق بها فى الوقت

(١) ياقوت : « الحسنان . . . . : كثيبان معروفان فى بلاد بنى ضبة ، يقال لأحدهما الحسن ، وللآخر الحسين » .

(٢) التبريزى : « لا تراه ولن تراه » ، ثم ذكر رواية المرزوقى .

(٣) يرثى حصن بن حذيفة بن بدر ، كما فى شروح سقط الزند ٨١٣ . وعجزه فى ٨١٣ ، ٢٦٢ :

* وكيف يحصن والجبال جنوح *

بعد الوقت ، إما استعظاماً للحال ، وإما لآفةٍ تلحق العقلَ ، وضعفٍ يتخلَّل التحصيل ، فكأنه بعد ما اقتصَّ من الحال ما اقتصَّ ، وشَرَح من الفَجْع ماشَرَح عاودَتْه تلك الحالة وعادته ، فأقبَلَ على نفسه يستثبتها وقال : أعلى جِدٍّ منك ، وأتَجِدُّ جِدَّكَ ، أنَّك في مستقبل الأوقات لا تراه متمكِّنا منه قريباً ، على عادتك في حال الأمن معه ، ولا تراه أيضاً من بعيدٍ في الغَزْو وتسير به الخَبَبَ راحلةٌ قوية خفيفة .

وقد ظهر بما ذكرتُه فائدةُ تكرار حرف النفي في كلامه ، لأنَّ لن نَفْيُ قول القائل أسيفعل كذا زيد؟ فيقول : لن يفعل . فقوله لن تراه نفي الرُّؤْية في حال السِّلم ، ولن تراه نفيٌ لها في حال الغَزْو . وتخُبُّ به في موضع الحال .

٤ ــ حَقيبةُ رَحْلِهَا بَدَنٌ وسَرْجٌ تُعَارِضُها مُرَبَّبةٌ دَؤُولُ[(١)]

٥ ــ إلى ميعادِ أرعَنَ مُكْفَهِرٍّ تُضَمَّن في جوانِبِها الخُيولُ[(٢)]

يقول : تَخُبُّ به ناقة بهذه الصِّفة وقد شُدَّ في الحقيبة التي ارتَدَفها درعٌ قَدْرُ ما يستر البذن ، وسَرجٌ لِمَا جُنِب معه من فرسٍ تعارض هذه النَّاقةَ في السَّير ؛ وهي لعزِّها وكرمها على رَبِّها[(٣)] ، رُبَّت في البيوت ولم تُتْرَكْ هَمَلًا ، وسيرها الذميل . ويقال ربَبْتُهُ وربَّبته بالتشديد بمعنى . والدَّألانُ : ضربٌ من السَّير . والاحتقاب : شَدُّ الحقيبة مِن خَلْف ، وكذلك الاستحقاب .

وقوله : « إلى ميعادِ أرعَنَ » يعني به جيشاً كأنه رَعْنُ جَبَلٍ . وقيل : جيشٌ

(١) في النسختين : « دؤول » بنقطة فوق الدال ونقطة تحتها مقرونة بكلمة « معاً » . لتقرأ بالإعجام والإهمال ، واقتصر التبريزى على رواية الدال المهملة .

(٢) في الأصل : « في جوانبه » ، وهي مطابقة لرواية التبريزى في الصلب ، لكن التفسير هنا يقتضي ترجيح ما أثبتنا من ل وتفسير التبريزى .

(٣) في الأصل : « أنها » صوابه في ل .

أرعن : له فُضُول . والرَّعْن : أنف يتقدَّم من الجبل ، والجميع الرِّعان والرُّعون . مكْفَهِرٌّ ، أي مرتفعٌ عالٍ . وقوله « تُضَمَّنُ في جوانبها الخيول » أي تُقْرَن الخيلُ بالإبلِ في جوانبها ، إذْ كان لكلِّ رجلٍ راحلةٌ وفرسٌ يقودُه معه . ومثل هذا قولُه :

* خَصَفْنَ بآثارِ المَطِيِّ الحوافرا(١) *

يقول : تسير به راحلةٌ معها جَنيبَةٌ ، إلى ميعادِ أرعَنَ ، أي جيش كثير ضمِّنَ جوانبُ رواحلها الخيول . ويروى : «تُضَمَّر في جوانبها» بالراء ، والمعنى تُصْنَعُ الخيولُ وتُعدَى في القَرَّتَيْنِ(٢) في جوانبها . والمراد أنّ فُرسانَ هذه الكتيبة دأبُهم ذلك .

٦ — لَكَ المِرْبَاعُ منها والصَّفَايا وحُكْمُكَ والنَّشِيطَةُ والفُضولُ

أقبَلَ يخاطِبُ المرثيَّ بعد الإخبار ، على عادتهم في الكلام .

وقال أبو عبيدة : كان رئيسُ القوم في الجاهليَّة إذا غزا بهم فغَنِمَ أخَذَ من جماعةِ الغنيمة ومن الأسرَى والسَّبيِ على أصحابه المِرباعَ ، وهو الرُّبع ، فلذلك قال « لَكَ المِرباعُ منها » فصار هذا الرُّبع الذي كان في الجاهليَّة للرَّئيس في الإسلام خُمُسًا . وكان له الصَّفِيُّ : واحد الصَّفايا مِن جماعةِ الغنائم والأسلاب والكُرَاع قبل القِسْمة ، وهو أن يصطفِيَ لنفسه شيئاً : جاريةً أو سيفاً أو فَرَساً أو ما شاء ، وبقي الصفيُّ على حالِه في الإسلام : اصطفى النبيُّ صلى الله عليه وسلم سيفَ مُنَبِّه ابن الحجَّاج ذا الفَقَار يومَ بدر ، واصطفى جُوَيْرِيَةَ بنتَ الحارث من بني المُصْطَلِق

(١) البيت لمقاس العائذي ، كما في اللسان (خصف) . وهو أول المفضلية ٨٥ . وصدره :

* أولى فأولى يا امرأ القيس بعد ما *

(٢) القرتان : الغداة والعشي .

يومَ المُرَبْسِيع ، فجَعَلَ صَدُقتَها[١] عِتقَها وتزوَّجَ بها ، واصطفى صَفِيّةَ بنت حُيَيٍّ ففعَلَ ذلك بها .

وقال أبو عُبَيدة : وكان له النَّقيعة أيضاً ، وهو بعير ينحَره قبلَ القِسمة فيُطْعِمُه الناسَ كذلك . قال :

إنّا لنضرِبُ بالسُّيوف رءوسَهم ضَرْبَ القُدَارِ نقيعةَ القُدَّامِ[٢]

قال : وسَقَط فى الإسلام النَّقيعة .

قال : وله حُكْمُه ، وهو أن يبارزَ الفارسُ فارساً قبلَ التقاء الجيشَين فيقتُله ويأخُذُ سَلَبَه . والحُكم فيه إلى الرئيس ، إن شاء نفَّله وإن شاء رَدَّه إلى جُملة المَغْنَم . وهذا باقٍ فى الإسلام .

وله أيضاً « النَّشيطة » وهو ما انتُشِط من الغنائم ولم يُوجِفوا عليه بخيلٍ ولا رِكابٍ . فبقيت فى الإسلام . وفَدَكُ[٣] من ذلك ، لم يُوجِفوا عليه فكان للنبيِّ صلى الله عليه وسلم خاصّةً .

قال : وكان للرَّئيس البَسيطة[٤] ، وبعضهم يُسمِّيها البِسْط[٥] ، وهى الناقةُ

(١) كذا ضبطت فى النسختين . والصدقة بالفتح ، والضم ، وبفتحتين ، وبضمتين ، وبفتح فضم ، كلها بمعنى واحد ، وهو المهر ، كالصداق بفتح الصاد وكسرها .

(٢) البيت لمهلهل ، كما فى اللسان (قدر ، نقع ، قدم) .

(٣) كان ذلك فى السنة السابعة ، لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر قذف الله الرعب فى قلوب أهل فدك حين بلغهم ما حل بأهل خيبر ، فبعثوا يصالحون على النصف من فدك ، فقبل منهم ذلك . السيرة ٧٧٦ – ٧٧٧ . وفدك : قرية بالحجاز ، بينها وبين المدينة يومان .

(٤) الذى فى المعاجم المتداولة لفظ « البسوط » ، ولم ينص فيها كذلك على المعنى الذى ذكره أبو عبيدة فيها وفى البسط .

(٥) فى الأصل : « وبعضهم قال البسيط » ، صوابه فى ل ، وقد ضبطت فيه بكسر الباء ، وهى تقال بالكسر والضم وبضمتين .

أو الحِجْرُ معها ولدُها ، فتُجعل هي وولدها في رُبْع الرئيس ولا يُعتَدُّ عليه بالوَلَد .
وقال : وسَقَطَ البسيطةُ في الإسلام .

وكان له « الفُضُول » وهو ما فَضَل بعد القِسمة ويَعجِز عن عَدَد الغُزاة ، أوْ لا يتناوله القَسْمُ ، وهذا سَقَطَ أيضاً في الإسلام . قال أبو عبيدة : غيرَ أني حُدِّثت عن مجاهد أنّه قال في قوله تعالى : ﴿ يَسْألونك عَنِ الأنفالِ قلِ الأَنْفَالُ لِلّهِ والرسُولِ ﴾ ، قال : هو ما شَذَّ من الغنائم ، كالفضول . وقيل إنّها منسوخة .

٧ ــ أفاتَتهُ بنو زيدِ بنِ عَمْرٍو ولا يُوفِي بِبِسْطامٍ قَبيلُ
٨ ــ فخَرَّ على الألاءَةِ لم يُوَسَّدْ كأنَّ جبينَه سَيفٌ صَقيلُ[1]

قوله « أفاتته » فات يتعدَّى إلى مفعول . تقول : فاتَني الشيءُ ، فإذا أَدخَلْتَ عليه حرفَ التَّعدية تعدَّى إلى مفعولين . فإذا كان كذلك فأحدُ المفعولين محذوف ، كأنه قال : أفاتت الناسَ بنو زيدِ بن عمرٍو بِسطامًا ، أي الانتفاعَ ببِسطام . وقوله « ولا يُوفِي ببسطامٍ قبيل » بالباء يروى ، والمعنى لا يُوفِي بدمه قَبيلٌ ، كأنَّ القبيلةَ بأَسرِها مطالَبون بدمه ووافُون به إذا أُتِيَ بهم كلِّهم . وهذه الرِّوايةُ أقرب إلى ما يدلُّ عليه صدرُ البيت وأشبه . ويروى « قتيلُ » بالتاء ، ويكون الكلامُ تحسُّرًا ، والمعنى لا يُوفِي بدَمِ بِسطامٍ دمُ قتيل . ويقال وَفَى وأوفَى بمعنًى واحد .

وقوله « نخرَّ على الألاءة » ، [معناه[2]] سقط . والألاءة : شجرة . ولم يُوَسَّد ، يستعملونه كثيراً في القتيل ، وليس ذلك لأنَّ القتلَى بعضُهم يوسَّدون . وقد يقال « وُسِّــد فلانٌ يمينَه في ضريحه » ، وهذا أيضاً مثَلٌ ؛ لأنَّ الميت

(١) التبريزي : « وخر » .
(٢) هذه من ل ، وقبلها في ل كلمة مطموسة أيضاً .

لا يوسَّد يمينَه ، وإنما يُرادُ : تجافَى المكانُ به فى حالتَيِ الدَّفن والقتل . وقوله « كأنَّ جبينَه سيفٌ صقيل » يريد وجهَه وإشراقَ لونِه .

٣٥٦

وقال الهُذْلولُ بن هُبَيْرَة(١) :

١ — أَلِكْنِي وفِرْ لابنِ الغُرَيْرَةِ عِرْضَهُ ... إلى خالدٍ من آلِ سَلْمَى بنِ جَنْدَلِ

٢ — فما أَبتَغِى فى مالكٍ بَعْدَ دَارِمٍ ... ولا أَبتَغِى فى دارِمٍ بَعْدَ نَهْشَلِ

٣ — وما أَبتَغِى فى نَهْشَلٍ بَعْدَ جَنْدَلٍ ... إذَا ما دَعا الدَّاعِى لأمرٍ مُجَلَّلِ

٤ — وما أَبتَغى فى جَنْدَلٍ بَعْدَ خالدٍ ... لِطَارِقِ لَيْلٍ أَوْ لِعَانٍ مُكَبَّلِ

قوله « أَلِكْنِي » أى أعنِّى على أداء أَلُوكَتِى ، وهى الرِّسالة . وقد تقدَّم القولُ فى هذه اللفظة ؛ وأن أصلها آلِكْنى ، فقُلِبَ وقُدِّم اللام على الهمزة فصار أَلْئِكْنِي ، ثم حُذفت الهمزة استخفافاً وأُلقيت حركتها على اللام فصار أَلِكْنِي .

وقولُه « وفِرْ لابن الغُرَيرة عِرضَه » معناه اترُكْ عِرضَه وافرًا . يقال وَفَرْتُهُ أَفِرُهُ وَفْرًا ، وهو موفور . والمراد : خُصَّ برسالتى خالداً واترُكْ ابن

(١) كذا ورد فى النسختين . وعند التبريزى : « الهذيل بن هبيرة أحد بنى حرقة بن ثعلبة بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب » . قال ابن دريد فى الاشتقاق ٢٠٣ : « ومن رجالهم الهذيل بن هبيرة ، قد رأسهم فى الجاهلية ، وكان جراراً للجيوش » . وكان من خبر الأبيات فيما روى التبريزى ، أن الهذيل أغار على بنى كوز وهاجر من بنى ضبة ، فأصاب ثلاثين امرأة أطلق سراحهن ، إلا منصورة بنت شقيق أخت عامر بن شقيق ، واحتمل بها حتى أتى أرض قومه ، فخرج أخوها وزوجها لاستنقاذها ، فتمكنا من ذلك بعد لأى ، ثم إن الهذيل تبعتها نفسه فأغار ثانية على بنى ضبة فاستصرخ بنو ضبة ببنى سعد بن زيد مناة فالتقوا وقتل من بنى تغلب ناس وهزموا أسوأ هزيمة ، ووقع ابن الهذيل — واسمه مشول — أسيراً ، أسره عبد الله وعبد الحارث ابنا ناشرة . ثم أتاهم الهذيل فى ابنه وطلب من ابن الغريرة — وهو أحد جندل بن نهشل — أن يفادى ابنه أو يمن عليه ، فوعده أن يفعل ، فلما طال عليه ذلك قال هذه الأبيات ، وأتى خالداً فأنشده ، فأعطى ابن ناشرة مائة من الإبل وأطلقه للهذيل .

الغريزة جانباً ، لا تذكر له قبيحاً ولا تُولِهِ مكروهاً . والرِّسالة ابتداؤها : « فما أبتَغى فى مالك » . والشاعر رتّب أفخاذاً وبطوناً ، وذكر أنّ كل واحدٍ منها كان له رئيسٌ يدور أمرُه عليه ، ويعتصم بأمره فى الملمّات . وأنه بعد افتقادِ ذلك فيهم فلا طائلَ ولا خيرَ عند واحدٍ منهم . ألا تَراه قال : فما أبتغى فى بنى مالكٍ بعد خُروج بنى دارمٍ منهم ، وما أَبتَغى فى بنى دارمٍ بعد خروج بنى نهشل منهم ، وما أبتغى فى بنى نهشلٍ إذا صَرخ الصارخُ لأمرٍ عظيمٍ بعد خروج جَندلٍ منهم ، وما أبتَغى فى بنى جندلٍ لِسَارٍ يسرى بليلٍ يطلُب الضِّيافة ، أو أسيرٍ مكبَّل يطلُب مَن يفكُّ أسْرَهُ بعد افتقادِ خالد . كأنه [كان[1]] يأخذ بعضَهم بما يتماسك به البعضُ الآخر ، وذلك البعضُ يتماسَك بآخرَ إلى آخِر القصة . وهذا على ما رتَّبه فى نهاية الحُسن . وقوله « أمرٌ مُجَلَّلٌ » أى معظّم . والكَبْلُ : القَيْد ، ورجُلٌ مكبَّلٌ .

٣٥٧

وقال إياسُ بنُ الأَرَتِّ[2] :

١ — وَلَمَّا رأيتُ الصُّبْحَ أقبَلَ وَجْهُهُ   دَعَوْتُ أبا أَوْسٍ فَمَا إنْ تَكَلَّمَا

٢ — وَكَانَ فِرَاقٌ مِنْ أخٍ لَكَ ناصحٍ   وكانَ كثيرَ الشَّرِّ للخيرِ تَوْءَمَا

---

(١) هذه من ل .

(٢) ذكره ابن دريد فى الاشتقاق ٢٣٠ فى رجال طيئ ، من بنى شمجى . وفى القاموس (رتب) : « وإياس بن الأرت كريم شاعر » . وأنشد له الجاحظ شعراً فى الحيوان (٤ : ٣٥٩) . ابن جنى فى المبهج : « هو مصدر أسته أؤوسه أوسا ، إذا أعطيته . وظنه السكرى مصدر أيست من كذا ، وليس كذلك ، ولا لأيست مصدر ، لأنه مقلوب من يئست ، ولو كان له مصدر لم يكن كذلك مقلوباً ، ولكان أيضاً تعتل فاؤه وعينه ، فيقال إست وأآس . والأرت : الذى فى لسانه عجلة ، والأنثى رتاء » . ونظير إست أآس : هبت أهاب . التبريزى : « وقال أبو العلاء : الأرت : الذى فى لسانه حبسة ، وهى الرتة . واسم الأرت خالد » .

لمَّا عَلَمٌ للظَّرف ، وهو لتوقُّع الشيء لوقوع غيره ، ولذلك احتاجَ إلى الجواب ، وجوابه هنا دَعَوْتُ . فيقولُ : لمَّـا دنا الصُّبح وأقبَلَ وجهه يَنفلِقُ ويُقْبِل ، دعوتُ هذا الرَّجلَ — يعنى المرثىَّ — فما أجاب . وإنَّما خصَّ وقتَ تَنَشُّم[1] الصُّبح ، لأنَّ المريض يخفّ فيه ، فـكأنَّه على عادته فى تمريضِهِ ، وتعرُّف خَبره ، وتحدُّبِهِ عليه فى العارض له ، دَعاه فوجده ثقيلاً ، لا يُجيب ولا ينطلق لسانُه ، فتيقَّنَ منه قُرب المفارقةِ ، والبِعادَ بعدَ المقارَبة ، فلذلك قال : « وحانَ فراقٌ من أخٍ لك ناصح » . ومعنى حانَ : قَرُب . والنَّصاحة : صَفاء الوُدِّ ، وخُلوصُ العقيدةِ من الغِلّ . وقوله « وكان كثيرَ الشَّرّ » يعنى مع منابذيه ومُشاقِّيه . ولن يكمل الفتى حتى يكون مُستصلَحًا للخير والشَّرّ ، فيُحِلّ النَّاسَ مَحالَّهم ، ويوفِّيَهم مُسْتَحَقَّاتِهم ، إنْ خيرا فخيرا ، وإنْ شرًّا فشرًّا .

وقد عَمِلَ لطيفةً فى الصفة الثانية فقال « للخير توءما » فجَعَلَ الخير وُلِد معه فنشأ[2] بنشئه . يقال : غلامٌ توءم ، للذى وُلِدَ معه غيره . وأتأمت المرأةُ فهى مُتئِمٌ . واشتقاقه من الوَأْم ، والتاء فيه بدلٌ من الواو ، كالتاء فى تُـكَأةٍ وما أشبَهها ، والجمع تُؤَامٌ ، وفُعَالٌ[3] فى الجمع قليل . كأنّ الولدَ واءم غيره فى الإتيان ، أى وافقَ وفى المثل : « لولا الوِئامُ هلَكَ اللِّئام[4] » . وقد استقصيتُ القولَ فيه فى شرح كتاب الفصيح .

٣ — تتابع قِرْوَاشُ بن لَيلَى وعامِرٌ   وكانَ الشُّرورُ يومَ ذاكَ مُدَمْدَمَا[5]

---

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « تبسم » . (٢) ل : « ينشأ » .

(٣) فى الأصل : « ويقال » ، صوابه فى ل . وقد اختلف اللغويون والنحاة القدماء فى صيغة فعال ، هل هى جمع أو اسم جمع . وقد صنع الأديب جبران النحاس بحثاً عنوانه « صيغة فعال ليست جمعاً » طبع فى الإسكندرية سنة ١٩٤٧ بمطبعة البصير . وانظر ليس فى كلام العرب لابن خالويه ص ٢٣ .

(٤) انظر تحقيقه مسهباً فى حواشى مقاييس اللغة (٦ : ٨٠) .

(٥) كذا فى ل . وفى الأصل : « ما خص للبعض » .

يريد : أنّهم قد تداعَوْا فى الذَّهاب ، وتقاطرُوا فى الموت ، فمات الواحدُ بعقِبِ الواحد ، كأنَّهم دُعُوا بلسانٍ واحد فأجابوا ، وكان السرور يوم ماتَ مُلقًى مُهلكا غير باقٍ ، لأنّ كلَّ مَن سمِع بموتِهِ أخذَ قسطاً من الجزع له فخفِيَ سرورُ النّاس وظهرَ جزعُهم . وقوله « يومماتَ » يعنى أبا أوس . هذا من باب ما خُصَّ البعضُ بشىءٍ من دون الجملة ، فأُعيد ذكره . والدَّمدمة : الإهلاك والاستئصال . وفى القرآن : ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾ . ويروى : « وكان السُّرُورُ يومَ ذاكَ مُذَمَّا[1] » :

٤ – هَمَمْتُ بأنْ لا أَطْعَمَ الدَّهرَ بَعْدَهُمْ   حَياةً فكانَ الصَّبْرُ أبقَى وأَكْرَمَا

قوله : « بأن لا أطعمَ الدهرَ بعدهم » انتصب أطعم بأن ، ولو رُفع لجاز على أن يكون أنْ مخففة من الثّقيلة ، ويكون اسمه مضمراً ، والفعل مع ما بعده خبرٌ كأنّه قال : هممت بأنى لا أطعمُ حياةً بعدهم ، أى كنت وطَّنْتُ نفسى على الزُّهد فى الحياة ، وجعلتُ قَتْلَ نفسى من هَمِّى ، ثم نظرت فكان الائتساء بالناس فى مصائبهم ، والصَّبْرُ على مقاساة البلاء مَعَهم ، أبقَى فى الذِّكر ، وأحسنَ فى الأُحدوثة ، وأكرمَ عند عدِّ الأفعال وعَرضها على العُقول . وروى : « أتقى » بالتاء المعجمة ، والمعنى أوْقَى ، لأن التاء مُبدلةٌ من الواو ، أى أصْون للدِّين والعِرض .

٣٥٨

وقال قَبِيصة بن النَّصرانىّ الجرمىّ[2]

١ – ألا يا عيْنُ فاحتَفِلِى وبَكِّى   على قَرْمٍ لِريْبِ الدّهرِ كافِ

(١) كذا على الصواب فى ل . وفى الأصل : « مدمدما » . وروى التبريزى رواية ثالثة : « مدما » بالدال المهملة ، وقال : « مدم من دممت الشىء ، إذا طليته وغطيته » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٩٩ ص ٦١٠ .

٢ – وما للعَينِ لا تبْكى لِحَوْطٍ وزيدٍ وابنِ عَمِّهما ذُفافِ

٣ – وعَبْدِ اللهِ يا لَهْفِى عليه وما يَخْفَى بزَيدٍ مَنَاةَ خافِ

٤ – وجدْنا أهْوَنَ الأموالِ هُلْكاً وجَدِّكَ ما نَصَبْتَ له الأثافِى

يقول : يا عينِ جاء وقتُ البكاء فتهيَّئى له ، واجْمَعى دموعَكِ ثم فرِّقيها ، ولا مَساغ لتقصير ، ولا مَجالَ لتعذير . والحافِلُ من الغنَم : التى جَمعت اللَّبَنَ فى ضَرعها . ومعنى بَكِّى : أكثِرى البكاءَ أو كرِّريه(١) . والقَرْمُ : الكريم من الرجال ، وأصله فى الفحول ، وكذلك المُقْرَم ، وقد تقدَّم ذكرُه(٢) .

وقولُه « لِرَيْبِ الدَّهر كافٍ » قد حذف أحد مفعولى كَفَى ، كأنَّه كافٍ الناسَ ريبَ الدَّهر ، أى ما رابَ من أحداثه .

ثم عَدَّدَ مَن فُجِع به من أعِزّته فوجبَ البكاء له ، ليُعلِمَ عظيمُ شقائه وما أصيب به فى أوِدّائه .

وقوله « يا لَهْفَى عليه » يجوز أن يكون المُنادَى محذوفاً كأنَّه قال : وعبدِ الله لَهْفَى عليه يا قوم . ويجوز أن يكونَ نادَى اللَّهْفَ ليُرِى عظيمَ حسرته ، وكمالَ شِقوته فى فَجْعَته .

وقولُه « وما يَخفَى بزيدٍ مَنَاةَ خافٍ » ، يجوز أن يكون موضعه رفعاً على أنَّه يرتفع بيخفى ، فكأنَّه قال : ما يخفى خافٍ بزيد ، أى زيدُ مناة لا يخفى ، لأن الخافى هو زيد ، وهذا كما تقول : لقيتُ بزيدٍ أسدًا . ويجوز أن يكون قوله « بزيد » هو الفاعل والباء فيه مثل الباء فى قول الله تعالى : ﴿ وكَفَى باللهِ

---

(١) ل : « وكرريه » .

(٢) انظر ما مضى فى ص ١٠٠٦ .

شَهِيدًا ﴾ . والمعنى ما يخفى زيدُ مَناةَ خفاءً ، وخافٍ فى موضع خفاء ، لكنَّه لم ينصبه كما لم يُنْصَب قوله :

* كأَنَّ أيدِيهنَّ بالقاعِ القَرِقْ[١] *

ومثله :

* كَفَى بالنَّأْيِ مِن أسماءَ كافِ[٢] *

وقمتُ قائما ، وعُذْت بالله عائذا[٣] . وقد مضى مثله .

وقولُه « وجَدْنا أهونَ الأموال هُلْكًا » كأنّه نبّه[٤] به على ما كانوا يُقيمونه من الضِّيافة ، ويُنفقونه من الأموال فى العُفاة وأبواب البِرِّ والإحسان ، وأنّ أهونَ الأموالِ هَلاكاً على نفوس الكرام وأخفَّها فى الصُّدور والقلوبِ ما وُقِف على الأضياف ، وصُرِف إلى مآكلهم ، وكذلك مَن أشبه الأضياف . وانتَصَب « هُلْكا » على التمييز . ومعنى « وجَدِّك » وحقِّ جَدِّك .

وقولُه « ما نَصَبْتَ له الأثافى » فى موضع المفعول الثانى لوجدنا . والأثافِى ، واحدتها أُثْفِيَّة . ويقال : ثَفَّيت القِدر وأثْفيتها . فأُثْفِيَّة أُفعولة . ومن قال أثَّفتُها فأُثْفِيَّة عندى فُعْليّة ؛ لأن الهمزة أصليّة . من ذلك قول النابغة :

* وإنْ تَأَثَّفَكَ الأعداءُ بالرِّفَدِ[٥] *

---

(١) سبق قريباً فى ص ٩٧٠ كما مضى فى ص ٢٩٤ .

(٢) سبق مع قرينه فى ص ٩٧٠ كما مضى فى ص ٢٩٤ . وهو لبشر بن أبى خازم . وعجزه :

* وليس لحبها إذ طال شاف *

والشاهد فيهما ترك إعراب المعتل المنصوب .

(٣) يعنى وضع اسم الفاعل موضع المصدر .

(٤) ل : « ينبه » .

(٥) صدره فى الديوان ٢٦ :

* لا تقذفنى بركن لا كفاء له *

٣٥٩

وقال أَبو صَعْتَرَةَ البولانىّ(١) :

١ ـ زُكَيرَةُ وابنا أُمِّهِ الهَمُّ والمُنَى وفى الصَّدْرِ منهم كُلَّما غِبْتُ هاجِسُ
٢ ـ أَوَدُّهُمْ وُدًّا إذا خامَرَ الحَشَا أضاءَ على الأضلاعِ والليلُ دامِسُ
٣ ـ بنى رَجُلٍ لو كان حَيًّا أعانَنى على ضَرِّ أعدائى الذينَ أُمارِسُ(٢)

يعنى بزُكَيرَةَ وأخويهِ أولاد أخيه، وكان تُوُفِّىَ والدُهم فصارَ هو كافِلَهم. فيقول: هم الذين أهتمُّ لهم، وأتمنَّى خيرَهم وبقاءَهم، وأَقصُرُ همِّى على ماتستقيم به أحوالُهم، وتستتِبُّ له أمورُهم، ومَتَى(٣) غبتُ عنهم كان فى صدرى هاجسٌ من الفِكرِ فيهم، وسانحٌ من التوفُّر عليهم، يحُولانِ بينى وبين الذَّهاب عنهم؛ فجسمى غائبٌ عنهم، وهوَاىَ حاضرُهم. فهذه التى أشار إليها نتائجُ العِناية بهم، ومسبِّبات الرِّعاية فى النِّيابة عن أخيه فيهم. ثم أخَذَ يذكر ما غَرَسَه الحبُّ فى قلبه لهم، ورعاه صدرُه من التحنُّن والشَّفَقة فى بابهم، فقال: أَوَدُّهم وُدًّا إذا خالَطَ الحشا فى ظُلْمة الليل أضاء على الأضلاع. وإنما قال هذا لأنّ الشىء إذا أشرَقَ بالليل وعند التباس الظَّلام، فهو بالنهار أوْلى بالأشراق. فكأنَّ المعنى أنّ طلائعَ حبِّهم فى مكامِنِ صدره مضيئةُ الأرجاء، نيِّرة الأكنافِ، فى كلِّ حالٍ ووقت.

وقولُه «بنى رجلٍ» يعنى أخاه، كأنّه ذكَر ما يقتضيه فى أمرهم بما يأتيه،

---

(١) عبارة الإنشاد مطموسة فى نسخة الأصل. وفى ل: «أبو صميرة»، صوابه فى التبريزى وشروح سقط الزند ١٢٤٣ حيث أنشد البيت الثانى، والقاموس (صعتر). وبولان، بالفتح: حى من طيىء.
(٢) التبريزى: «بنو رجل».
(٣) فى الأصل: «ومعنى»، صوابه فى ل.

فأشارَ إلى الدّواعى القائمةِ بينه وبين أولادِ الأخ ، فقال : أذكُرُ بنى رجلٍ لو كان فى جُملة الأحياء لأعاننى على الأعداء ، وأنصفَنى من الزّمان ، ودفع عنى مِن مضرّاتهم ومُنا كَداتهم مايخفُّ معه ظَهرى ، ويقوَى فيه نُهوضى وجذابى .

٣٦٠

وقال الغَطَمَّشُ(١) :

من بنى شَقِرَةَ بن كعب بن ثَعْلبة(٢) :

١ — أَلاَ رُبَّ من يغتابُنى وَدَّ أَنّنى أبوهُ الذى يُدْعَى إليـــه ويُنْسَبُ

٢ — على رِشْدَةٍ من أُمِّهِ أو لِغَيَّةٍ فيَغْلِبَها فَحْلٌ على النَّسْلِ مُنْجِبُ

قولُه « مَن يغتابنى » مَن نكرة ويغتابنى فى موضع الصِّفة له ، و« وَدَّ أَنَّنى » جواب رُبَّ . فيقول : رُبَّ إنسانٍ يأكلُ لحمى بظهر الغَيب ويتنقَّصنى ، ومع ذلك يتمنَّى أن أكون أباه الذى يُسَمَّى به ويُنْسَبُ إليه ، وإنما يبعثُه على ذلك الحسدُ والبَغْضاء .

وقوله « على رِشدةٍ من أمِّهِ أو لغَيّة » فإنّ على يتعلّق بقوله أننى أبوه ، كأنّه يريد : وَدَّ أبُوَّتى سواءً كان ولدَ حلالٍ أوحرام . والرِّشْدة : اسم الهيئة فى الرَّشاد . والغَيّةُ : الفَعلة الواحدة من الغىّ . وهكذا يُختار أن يقال هو لرِشْدة بكسر الراء ، ولغَيَّةٍ بفتح الغين . وقوله « فيغلبَها » نصب جواب التمنى بالفاء ، والعامل فيه أنْ مضمرة . وهذا شرح الغَيَّة ، كأنّه قال: تمنَّى أن يكون ولدى على رِشدةٍ ، أوْ يغلبَها فحلٌ منْجِب على النَّسل فتأْتى به لغَيَّةٍ . وأراد بالفحل المنجِب نفسَه ،

(١) سبقت له الحماسية ٢٩٩ ص ٨٩٣ .

(٢) التبريزى : « بن ثعلبة بن سعد بن ضبة » . وقد كرر أبو تمام فى هذه الحماسية البيتين ٤ ، ٥ وهما بيتا الحماسية ٢٩٩ . وقد سبق نظير هذا التكرار فى الحماسية ٣٣ حيث كررت فى رقم ٢٠٩ .

ويعنى بيغلبُها على النَّسل غلبةَ الشَّبَه ليبرّئَه من هُجْنتِها . وإذا قال القائل ودِدْت أنّى أجيئك فتكرمَنى ، فقوله فتكرمَنى انتصب ولم يعطف على أجيئك ، لمخالفة آخر الكلام أوّلَه ، وذلك أنَّ قوله أننى أجيئك متمنًّى غيرُ واجب ، وفتُكْرِمَنى ليس من التمنِّى[1] بل هو واجبٌ ، فلمّا خالَفَه نَوَى بالأوّل الاسمَ ، وأضمر بعد الفاء أنْ ، لتكون الفاء عاطفةً لاسمٍ على اسم ، فكأنّه قال : ودِدْتُ مجيئى إليك فإكرامَك لى . وكذلك إذا قال : ألاَ ماءَ فأشْرَبَه ، يراد : لو كان لى ماءٌ لشربتُه ، تقديره : ألا ماءَ فشُربَه .

٣ ــ فبالخيرِ لا بالشَّرّ فارْجُ مَوَدَّتِى وأىُّ امرِئٍ يُقْتالُ منه التَّرهُّبُ

كأنّه أقبَلَ على هذا المغتابِ له ، الناحتِ أثلتَه ، المداجى له بعداوةٍ كامنةٍ مستحكِمة فى الصدرِ فقال له : هذه المودّةُ التى تُظهِرها من نفسك لى ، أرْجُ انتفاعَكَ بالخير لا بالشَّرّ ، لأنك إن فعلتَ غير ذلك فإنما تحتاج إلى إصلاحِهِ من نفسك[2] ، فأما إذا كانت المودةُ صافيةً ، والعقيدةُ خالصة ، فإنّ صاحبَها لا يرجو بها إلاّ خيراً ، وكيف يرجو غيرَه من ثمارِه وهو يغرِس الخيرَ لا الشَّرَّ . وقولُه « أرْجُ مودّتى » أى ارْجُ مودَّتَكَ لى ، والمصدر يُضاف إلى المفعول كما يضاف إلى الفاعل . وقولُه «أىُّ امرِئ يُقتالُ منه الترهُّب» فمعنى يُقتال يُحتكَم ، وهو يُفتَعَلُ من القول ، يريد أىُّ رجلٍ يُحتكَم عليه ومنهُ الترهُّب ، التخوّف ، وتَرْكُ السُّكون والأَمَنةِ إليه . أى كيف يُطلب وُدُّه على الرَّهبةِ منه .

٤ ــ أقولُ وقد فاضَتْ بعينَىَّ عَبرةٌ أَرَى الأرضَ تَبقَى والأخِلاّءُ تذهَبُ

---

(١) ل : « من المتمنى » .

(٢) كذا وردت العبارة فى النسختين .

٥ــ أخِلاّءِ لو غَيْرُ الحِمَامِ أصابَكُم   عَتَبْتُ ولـكنْ ما عَلَى الدَّهرِ مَعْتَبُ

قولُه « وقد فاضت بعينيَّ عبرة » اعتراض بين الفعل ومعموله . وقولُه « أرى الأرض تبقَى » متّصل بقوله « وقد فاضت بعينيّ عبرة » ، وهو من جملة الاعتراض . ومفعول أقولُ البيت الثانى . فيريدُ : أقول وقد اتَّصل البكاء منِّى ، وسالت العَبَرَاتُ من عينِى ، إذْ كنتُ أرى الأرضَ باقية ، والإخوان الخُلَّص ذاهبة ، وأنا لا أملِكُ شيئاً : أَخِلاَّىَ إنى مَغيظٌ مغلوب ، مأخوذٌ عن عَزَائى لِمَا أتاه الدَّهر ، ولـكنى إذا أفْـكَرتُ[1] وكان سببَ اختراِمكم الموتُ الذى تتساوى فيه الأقدامُ فلا يُبقِي على شريفٍ ولا وضيع ، ولا صغير ولا كبير ، صَدَّنى ذلك عن العَتْب ، لأنَّ الموتَ لا مَعْتَب عليه ؛ ولو كان الجانى فيكم ، والسالبُ لـكم غير الموت لمتَبْت على الدهر ، وقلتُ وأكثرتُ فى موضع القول ، وانتصَفْت وأسرفت فى موضع الفِعل . ويقال عَتَبْتُه فأعْتَبَ ، أى لُمْته فأَرضَى . ويروى « أخِلاَّىَ » بالقصر وإثبات ياء الإضافة ، و « أخِلاَّءِ » بالمدّ وحذف ياء الإضافة ، وهذا أجوَد .

٣٦١

وقالت امرأة[2] :

١ــ ألاَ فاقِصرِى من دَمْعِ عينيْكِ لَنْ تَرَىْ   أبًا مثلَه تَنْمِى إليه المَفاخِرُ

---

(١) ل : « فكرت » . والإفكار والتفكير بمعنى .

(٢) قال أبو رياش : « والذى عندى أن هذه الأبيات لمحمد بن بشير ، أحد بنى الخارجية ، يرثى بها أبا عبيدة بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب » . وأبو عبيدة هــذا والد هند أم محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن حسن ، وجده زمعة كان أحد « أزواد الركب » . فذكر أبو رياش أن عبد الله بن حسن دعاه فقال ! إن هذا قد جزعت على أبيها فقل أبياتاً تسليها بهن عنه . فقال : قد قلت ، فقال : قم فادخل . فدخل إليها وهو معه فقال :

٢ — وقد عَلِمَ الأقوامُ أنّ بناتِه صَوَادِقُ إذْ يَنْدُبْنَه وقَواصِرُ

تقول متسلِّيةً ورافعةَ الطَّمعَ من أن يكون الجزعُ يَرُدّ فائتاً ، فقالت كُفِّي من دمع عينيك ، ونَهْنِهِي عَبَرَاتِك ، فإنَّكِ لن تَرَىْ مَن تعتاضينَه من أبيكِ الذى كان إليه ينتمى المَفاخر . ومعنى « تَنْمى إليه المَفاخر » أنه غاية المَفاخر ، فهى إليه تنتمى . ويُرْوَى : « ينمو إليه المُفاخِرُ » بضم الميم ، والمعنى يَرتقى إليه المُفاخر إذا نافَرَ خَصمَه وجاذَبَه .

وقولها « وقد عَلِمَ الأقوامُ أنّ بناتِه صوادِقُ » استشهدَتْ بطوائفِ الأقوام على اختلافها ، وذكرت أنَّهم قد عَلِموا أنّ بناتِ هذا المتوفَّى فيما ينْدُبْن به أباهنّ ويذكرنه من فضائله وإفضاله ، آتياتٌ بالصِّدقِ غيرِ الكذب ، وعاجزاتٌ عن بلوغ الغاية التى يستحقُّها أبوهنَّ المرثىّ ، فإنّ القول لا يُحيط بحدِّه ، والوصف لا يَنظِم كُنهَ حَقِّه .

٣٦٢

وقال آخر(١) :

١ — سَقَى جَدَثاً وارَى أُرَيبَ بنَ عَسْعَسٍ مِنَ العَيْنِ غَيْثٌ يَسْبِقُ الرَّعدَ وابلُه

= إذا ما ابن زاد الركب لم يمس بائتا قفا صفر لم يقرب الفرش واتر
فقومى اضربى يا هند عينيك لن ترى أبا مثله تنمى إليه المفاخر
وكنت إذا ما شئت سنيت والداً يزين كما زان اليدين الأساور
وقد علم الأقوام أن بناته صوادق إذ يندبنه وقواصر

فقامت فصاحت هى وجواريها وجعل يصيح معهن ، فقال له عبد الله : يا عدو الله دعوتك تعزيها فهيجتها على البكاء . فقال : وبما كنت عسى أن أعزى بنت [ابن] زاد الركب ، من يعزينى أنا عنه ، لا والله لا أعزى عنه ولكنى آمر بالحزن عليه وأحض على ذلك .

(١) التبريزى : « وقال القلاخ . قال أبو هلال : فى الشعراء ثلاثة يقال لهم القلاخ . أحدهم القلاخ الراجز بن حزن بن جناب بن منقر ، القائل :

* أنا القلاخ بن جناب بن جلا *

٢ — مُلِثٌّ إذا أَلْقَى بأرضٍ بَعَاعَهُ تَغَمَّدَ سَهْلَ الأرضِ منه مَسَايِلُهْ

دَعَا لقبر المرثيِّ بالسُّقيا ، وهو أريبُ بن عَسعَس . ومعنى « من العين » من السَّحابات التي تنشأُ من عين القِبلة[1] وهي أغْزَر ، فلذلك خَصَّها . وقوله « يسبق الرّعدَ وابله » يطلُب به الكثرة . والوابل : المطر الضَّخْم القَطْر ، وإذا سبَقَ المطرُ الرعدَ كان النَّوء أغزر .

وقوله « مُلِثٌّ » لم يرض بأن يكون سُقياه عارضاً ، ولكن جعل الغيث مُلِثًّا ، وهو [بمعنى[2]] مقيم . وقولُه « إذا ألقى بأرضٍ بَعَاعَه » يريد إذا جاء مطرُه على أرضٍ فوضَع أثقالَه بها امتلأت الوِهاد ، وتغمَّدت المسايل بطونَ الأباطح السهلة . والبَعَاعُ : الثِّقْل ، والجَهَاز . يقال : بَعَّ السَّحابُ بَعًّا وبَعَاعًا ، إذا ألحَّ بمكانٍ فألقى بَعَاعَه فيه .

٣ — فما مِن فتًى كُنَّا من الناسِ واحدًا به نَبتَغِي منهم عميدًا نُبادِلُهْ

٤ — ليومِ حِفَاظٍ أو لدَفْعِ كَريهةٍ إذَا عَيَّ بالحِمْل المعضِّل حامِلُهْ

قولُه « فما من فتًى » بيتٌ فيه تقديم وتأخير ، وتلخيصُه مُبيَّناً مُعاداً كلُّ شيءٍ إلى موضعه : ما مِنْ فتًى من الناس كُنَّا نبتغي به واحداً منهم عميداً نبادله[3] . فعلى هذا قوله « من الناس » مِن صفة الفتى ، وبه يعود الضمير إلى الفتى . والمعنى : كُنَّا بسببه نبتغي واحداً منهم — أي من الناس — عميداً ، من صفة

= والآخر القلاخ بن زيد أحد بني عمرو بن مالك ، وهو القائل :

ولا يستوي يا زيد درج ومجمر وصدر سنان في الحروب محرب

والقلاخ العنبري ، ذكره دعبل في شعراء البصرة . وهذا هو : قلاخ بن حزن » . وانظر المؤتلف ١٦٨ والاشتقاق ١٥٣ واللآلئ ٦٤٧ والشعراء ٦٨٨ .

(١) هذا ما في ل . وفي الأصل : « من السحاب التي تنشأ عن القبلة » ، وفيه تحريف .

(٢) بمثلها يلتئم الكلام .

(٣) انظر معاهد التنصيص (١ : ١٦) . وهو في تعقيده شبيه بقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

الواحد ، لأنَّا جعلنا واحداً مفعولا لنبتغى . نُبادلُه ، أى نُبادِل به الناسَ ، فحذَف الجارَّ وقال نبادله . على هذا قول عارقِ الطائىّ :

* وليس من الفَوتِ الذى هو سابقُه[1] *

أى سابقٌ به . وخبر ما محذوف ، كأنَّه قال : ما فتًى ذا صفتُه بموجودٍ فى الدنيا ، وما أشبهه .

وقوله « ليوم حِفاظِ » اللام تعلَّق بقوله نبادله ، [أى نُبادِل[2]] به لهذا الشأن ، وهو أن يحافظ على حسبِهِ محافظةَ الكرام ، أو يدافعَ الكرائهَ والشدائدَ لدى الجدَلِ والخصام ، فى وقتٍ من الزَّمان يعزُّ مِن العَشير مَن يَكفيه المضيمة ، وتَرى الناهضَ بالأثقال لتَضاعُفِ المُؤَن والبلايا يَعيا بما يحمِله فيعدُّه داءٍ عُضَالا . وأصل العضل : المَنْع والتضييق . ويقال عَضَلت المرأةَ وعَضَّلْتها ، إذا منَعْتَها من التَّزويج . وعَضَّلَت ، إذا عَسُرَ وِلادُها[3] .

٥ ــ وذِى تُدْرَإٍ مَا للَّيْثُ فى أصْلِ غابَةٍ بأشْجَعَ مِنْهُ عند قِرْنٍ يُنازِلُهْ[4]

٦ ــ قَبَضْتَ عَلَيهِ الكَفَّ حَتَّى تُقيدَهُ وحَتَّى يَفِى للحقِّ أخْضَعَ كاهِلُهْ

قوله « وذى تُدْرَإٍ » الواو عاطفة ، والجرّ ذى بإضمار رُبَّ . وتُدْرأٌ : تُفعَل من الدَّرْء ، وهو الدَّفعُ بشِدّة . فيقول : رُبَّ رجلٍ هكذا ما الأسدُ فى خِدره بأقوى قلباً منه نظيرٍ له فى بأسه وشِدّته ينازلُه . فقوله « ما الليث » إلى آخر البيت ، من صفة ذى تُدْرَإٍ . والغابة : الأجمة . وإنَّما قال « فى أصل غابةٍ »

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « من الموت » من حماسية تأتى فى الرابع . وصدره :
* إلى المنذر الخير بن هند ترودُه *

(٢) التكملة من ل .

(٣) الولاد : الولادة . وفى الأصل : « ولدها » ، صوابه فى ل .

(٤) التبريزى : « فى أصل غابه » .

إشارة إلى دخولِه وتمكُّنِه من غايَتِها . والمنازَلة إنما تكون عند تضايُقِ المجال وتَدانِى [أطراف[١]] موضع الالتقاء ، عن الإقدام والإحجام .

وقولُهُ « قبضْتَ عليه الكفَّ » يقول : جَمعتَ عليه قبضَتَك فمنعتَه عن الانفصال عند الخروج من إسارِكَ ، حتى أمكنَك من الاقتياد منه ، وحتى عاد كاهلُه خاضعاً للحق راضياً به . والخطاب بجميع هذا للمرثىّ . وإنما يصفُه بحُسْن الثَّبات فى معاركة الُخصوم ومزاولتهم ، وأنّه باقى الصَّبرِ فى استيفاء الحقوق عليهم . وقوله « كاهلُه » يجوز أن يرتفع بقوله يَنِى[٢] . ويجوز أن يرتفع على البَدَل من المضمر فى يَنِى ، وحينئذ يحتمل ضميراً لذى تُدرإٍ . وأخضعَ ينتصب على الحال فى الوجهين جميعاً ، ويجوز أن يرتفع أخضَعَ فيكون خبرًا مُقَدَّما ، وكاهِلُه يكون مبتدأ . والأَخْضَع : الذى فى عنُقه انخفاضٌ وتطأطؤ .

٧ ــ فَتًى كان يَسْتَحْيِى ويَعْلَمُ أنه سَيَلْحَقُ بالمَوْتَى ويُذْكَرُ نائلُهْ

[راجَعَ الإخبارَ عنه ثانياً[٣]] فيقول : هو فَتًى كان الحياء يملِكه فلا يتعاطَى ما يقبُح فى الأحدوثة ، ولا يَسمعُ منكَراً إلَّا ألْغاه ، ولا رأى مستشنَعاً إلَّا رفضَه وأقصاه ، ليطيبَ مَسْمَعُ ما يُرْوَى عنه ، ومنظَرُه فيما يُشاهَدُ منه . وقوله « ويعلم أنَّه سيلحق بالموتى » يقول : تيقَّن أن الخلودَ لا مطمعَ فيه ، فإنَّ الذى له من المال ما يقدِّمه لِمَثُوبة ، وادِّخاراً لأُكرومة ، إذا تُحُدِّث عنه بها كان ذِكرُه حَيًّا وإن كان الشَّخص فينا مغيَّبا .

---

(١) التكملة من ل .

(٢) ابن جنى : « أراد ينِىء ، أى يرجع ، فحذف الهمزة البتة ، كما حكى عنهم : جا يجى ، وسا يسو » .

(٣) التكملة من ل .

٣٦٣

وقال الضَّبِّيُّ :

١ ــ أأُبَىَّ لا تَبعَدْ وليس بخالدٍ　　حَىٌّ ومن تُصِبِ المَنُونُ بعيدُ

٢ ــ أأُبَىَّ إن تُصْبِحْ رَهِينَ قرارةٍ　　زَلَجِ الجوانبِ قَعرُها مَلحودُ[1]

٣ ــ فلَرُبَّ مكروبٍ كَرَرْتَ وراءَهُ　　فمَنَعتَه وبنو أبيـــهِ شُهُودُ

٤ ــ أنفًا ومَحْمِيَةً وأنك ذائدٌ　　إذْ لا يكادُ أخُو الحِفاظِ يَذُودُ

٥ ــ ولَرُبَّ عانٍ قد فَكَكْتَ وسائلٍ　　أَعطيْتَهُ فغَدَا وأنتَ حميـــدُ

٦ ــ يُثْنِي عليكَ وأنتَ أَهْلُ ثَنائه　　ولَديْكَ إمَّا يَسْتَزِدْكَ مَزِيدُ

البيت الأول يشتمل على أنواع ثلاثة من الكلام: فقوله «لا تَبْعَدْ» ما يُندب [به[2]] الموتَى على إظهارِ الفاقة إلى حياته ، وقد مرَّ القول فيه[3] . وقوله « وليس بخالدٍ حَىٌّ » تَسَلٍّ[4] وإيمانٌ بمحتوم القدَر ، وأنَّ ذلك يوجب على المُصَاب الصَّبرَ والائتساءَ بفِرَق الخلق . وقوله « ومَن تُصبِ المَنُونُ[5] بعيد »

---

(١) التبريزى : « زلخ » . والزلخ ، بالفتح : الدحض المزلة ، وهو وصف بالمصدر . ويقال مكان زلخ أيضاً بفتح فكسر . وكتبت فى ل لتقرأ « زلج » و « زلخ » بنقطة فى الأعلى وأخرى فى وسط الجيم ، وهما بمعنى .

(٢) هذه من ل .

(٣) انظر ما مضى فى ٨٩٢ ، ٩٠٥ .

(٤) فى الأصل : « تشلك » ، صوابه فى ل .

(٥) التبريزى : « قال أبو العلاء : قوله ومن تصب المنون جزم بمن ، ولم يأت للشرط بالجواب . وهذا على إرادة الفاء ، كأنه قال : ومن تصب المنون فهو بعيد . ومثله :

من يفعل الحسنات الله يشكرها　　والشر بالشر عند الله مثلان

أراد : فالله يشكرها . ومثله قول أبى ذؤيب :

فقلت تحمل فوق طوقك إنها　　مطبعة من يأتها لا يضيرها » .

تبرُّؤٌ من الجرى على عادة الناس فى المصائب واعتراف بأن الموت يبعّد الالتقاء بين الأحياء والأموات ، فلا تزاوُرَ ولا تراسُل ، ولا تخاطُب ولا تكاتُب . فكلُّ هذا تحسُّرٌ وتوجُّعٌ .

وقوله « أَأَبَىَّ إن تُصْبِحْ رهين قرارةٍ » جواب الشَّرط أوّل البيتِ الذى يليه ، وهو قوله « فلربَّ مكروبٍ » . والمعنى : إنْ خلَّيتَ مكانَك من الدُّنيا وصِرْتَ مرهونًا فى قرارة قبرٍ زَلِقِ الجوانب ، صريعُه لا يُنعَشُ ، ورهينُه لا يُفَكّ ، وأسيرُه لا يُتخلَّص بمنٍّ ولا فِداء ، ولَزِيمُه لا يَتملَّسُ[1] لوقتٍ وعِدَادٍ ، فلربما فعلتَ كذا وكذا . وقوله « قعرُها ملحود » ، تصويرٌ للقبر بلحده .

وقوله « فلرُبَّ مكروبٍ كررتَ وراءه » يريد : رُبَّ مُضَيَّقٍ عليه أسْلَمه بنو أبيه لمَّا امتُحن به حتى تمكّن العدوُّ منه ، أنتَ تَعَطَّفتَ عليه ، وصرفت عنايتك إليه ، فخففت ثِقْلَه ، وألقيتَ عنه وِزرَه ، ودفعتَ من فَوْرَتِهِ[2] دونَهُ ، ومواليه من بنى الأعمام وغيرهم حضورٌ لا يَرعَون له إلاًّ ، ولا يحفظون له عهدا .

وقوله « أنفًا وتَحْمِيَةً » انتصب على [أنه[3]] مفعول له ، وما بعده معطوفٌ عليه وفى معناه ، كأنه ذكر العِلَّةَ الموجِبة لما أتاهُ فقال : فعلتَ ذلك حَمِيَّةً وأنفَةً ، وأنَّ عادتَك المدافَعةُ عن كلِّ مَن يتعلّق بحبلك ، أو يتمسَّكُ بعُروَةٍ من عُرَى عنايتك ، غريبًا كان أو نسيبًا ؛ وهذا تفعله فى وقتٍ يزهدُ

---

(١) التملص والتفلت . فى الأصل : « التمكس » ، صوابه فى ل .

(٢) المألوف فى التعبير « من فوره » أى قبل أن يسكن . لكنه أراد المرة من الفور .

(٣) التكملة من ل .

الناس فى الإحسان ، لشدَّةِ الزمان ، ويُرَى المُحافِظ ممسكاً والمُرَاعِى مُهمِلا .

وقوله «ولَرُبَّ عانٍ قد فككْتَ» فالعانى : الأسير ، وأصله مِن عنا يعنو ، إذا خَضَع . على ذلك قولُه تعالى : ﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَىِّ القَيُّومِ﴾ . فيقول : رُبَّ مأسورٍ أخرجتَه من ضِيق الإسارِ إلى سَعَة الأَمانِ ، فأطلقْتَ كَبْلَهُ ، ونزعتَ غُلَّه ؛ ورُبَّ سائلٍ اجتداك فأغنيتَه ، وعن التَّجوال أقعدتَه ، فانصرفَ عنكَ وهو يُثنِى عليك ويتشكَّرُ(١) نِعمتك ؛ وقد استحققتَ عليه ذلك بما أسديتَه إليه ، ولو عادَ إليك لوجد مَعاداً لا ضَجَر منك يلحقُه ، ولا سآمةَ فيك تمحقُه ، وإن استزادَ زِدتَه ، لا يُمنَع من موجود ، ولا يُحالُ على مفقود .

٣٦٤

وقال عِكْرِشَةُ أبو الشَّغْبِ(٢)

يَرْثِى ابنَه شَغْبًا :

١ ـ قد كان شَغْبٌ لوَ أنّ اللهَ عَمّرَهُ عِزًّا تُزَادُ بهِ فى عِزِّها مُضَرُ

٢ ـ فارَقتُ شَغْبًا وقد قوّسْتُ مِن كِبَرٍ لبِئْسَتِ الخَلّتانِ : الثُّكلُ والكِبَرُ

يعظِّمُ شأنَ ابنِه ، وذلك أنه كان قد برع فى فضله ، وورد أبوابَ الملوكِ فقبِلته العيونُ والقلوبُ نَباهةً وحَلاوةً ، وتوجُّهًا وتقدُّمًا . فقال : لو أنَّ القضاء أمهَلَ ابنى شَغْبًا ولم يُعاجِلْه(٣) عن استكماله ، وعن الاستمتاع بما توحَّد به من فضائله ، لكان بقاؤه عزًّا مُستجَدًّا لقبائلِ مُضَر كلِّها ، تُضِيفُهُ إلى عزِّها ، وتتبجّح باستقرارها .

---

(١) هذا ما فى ل . والتشكر : الشكر . وفى الأصل : «ويشكر» .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣١٤ ص ٩٢٧ .

(٣) فى الأصل : «يعالجه» ، صوابه فى ل .

وقوله « فارقْتَ شَغْبًا » عاد إلى ما يخصُّ نفسَه من الفَجْع بموته ، والجزع لفراقه ، فقال : فارقْته والـكِبَرُ قد صالحنى ، وحَنَى ظهرى ، وانتقصَ جَلَدِى ، وأوهَنَ قُواى ، ولا أملَ فى إدراك مِثلِه ، ولا استقلالَ بالنُّهوض بأعباء أهله . ثم قال متحسِّرًا : بئست الخَلَّتان المجتمِعتان لى : ثُـكلُ مَن لا يُعتاض منه أبَدَ الدَّهر ، والـكِبَرُ المقصِّر للأمل ، المقرِّب ليوم الأجَل .

٣٦٥

وقال آخر يرثى ابنَه :

١ — لله دَرُّ الدّافنيك عَشِيَّةً أَمَا راعَهُمْ فى القَبْرِ مَثْواكَ أَمرَدَا

٢ — مُجاوِرَ قومٍ لا تَزاوُرَ بينَهُمْ ومَن زارَهم فى دارِهم زار هُمَّـدا

قوله « للهِ دَرُّ الدّافنيك » ، فدَرٌّ ، وإن كان فى الأصل مصدراً فقد لَزِمَ هذا الموضعَ وجرى الـكلمةُ به لـكثرةِ الاستعمال مَجرى : للهِ خَيْرُك ، فلا يَعمل فى ظرفٍ ولا فى حالٍ ؛ ولا فى شىءٍ مما يعمل فيه أمثالُه من المصادر . فيقول على وجه التعجُّب مِن الذين تولَّوْا دفْنَه فى عشيَّةِ يومِه : لله دَرُّهم ، أَمَا أفزَعَهُم مُقامُك فى القبرِ على استقبال شَبابِكَ ، ونضارة غُصنِكَ وقُرْبِ ميلادِك ، حين لم تجتمع نفسُك ، ولا توجَّه وَجْهُك . وفى طريقته قولُ الآخر(١) :

أيَا شَجَرَ الخـابورِ مالكَ مُورِقًا كأنك لم تَحزن على ابنِ طريفِ(٢)

---

(١) هو الفارعة ، أو فاطمة ، أو ليلى بنت طريف ، أخت الوليد بن طريف . حماسة البحترى ٤٣٥ ووفيات الأعيان فى ترجمة الوليد بن طريف .

(٢) أنشد القالى أربعة أبيات من قصيدة البيت فى الأمالى (٢ : ٢٧٤) وفى العقد (٣ : ٢٧٩) ستة أبيات منها ، على حين أنشد ابن خلكان القصيدة بأجمعها .

وأبلغ منهما قول الآخر(١) :

أبَعْـدَ قتيلٍ بالمدينة أظلمَتْ ... به الأرضُ تهتزُّ العِضَاهُ بأَسْؤُقِ

وانتَصَب « أمرد » على الحال ، وأصل التمرُّد التملُّس والانجراد . يقال : صَخرةٌ مَرداء ، إذا لم ينبُت عليها شيء .

وقوله « مُجاورَ قومٍ لا تَزَاوُرَ بينهم » هذا حالُ الأموات فيما بينهم ، يتجاورون ولا يتزاوَرُون ، ومَن زارهم من الأحياء منّا انصَرَفَ عنهم بالخَيبة ، والزِّيادةِ فى الغُمَّة والحَسرة . والهُمَّد : جمع هامد ، وهو الميِّت ؛ وأصله من هُمُود النار . ويقال للثَّوب إذا بَلِيَ : قد هَمَد .

٣٦٦

وقال لبيد(٢) :

١ — لَعمرِى لئن كان المُخَبِّرُ صادقاً ... لقد رُزِئَتْ فى حادثِ الدهرِ جَعْفَرُ(٣)

٢ — أخاً لِيَ أمّا كلَّ شيء سألتُه ... فيُعطِي وأمَّا كلَّ ذَنْبٍ فيَغفِرُ

يرثى بهذا أربدَ أخاه . وقوله « إن كان المخبِّر صادقاً » فهو قد عَلِمَ صِدقَ الحديث ، لـكنَّه لاستعظامه للنَّبأ ، وفخامة أمر المتوفَّى فى النفوس وعِندَه ، يَرجع على المخبِّر بالتكذيب ، ويُدْخل الشَّكَّ على المشهود والمسموع ، كما قال الآخر(٤) :

(١) هو الشماخ بن ضرار . وسيأتى فى الحماسية ٣٨٨ .

(٢) هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر العامرى ، الشاعر المشهور ، وأحد مخضرمى الجاهلية والإسلام . ابن سلام ٤٨ والشعراء ٢٣١ — ٢٤٣ والأغانى (١٤ : ٩٠ — ٩٨) والخزانة (١ : ٣٣٤ — ٣٣٩) وطبقات ابن سعد (٦ : ٢٠) وأسد الغابة والإصابة والاستيعاب .

(٣) الأبيات فى ديوان لبيد ٣ طبع ١٨٨١ .

(٤) هو النابغة يرثى حصن بن حذيفة بن بدر ، كما فى شروح سقط الزند ٨١٣ .

* يقولون حِصْنٌ ثم تأبَى نُفوسُهم[١] *

واللام من « لَعَمْرِى » لام الابتداء ، ومن قوله « لئن » هى الموطِّئة للقسم ، ومن قوله « لقد » هى جواب القسم .

والمعنى : وبقائى لئن ورَدَ هذا الخبرُ من صادقٍ برىء من الحسد والتزيُّد مؤَدٍّ لما تحققه سماعًا أو عِيانًا . لقد أصيبت قبيلةُ جعفر بن كلابٍ فيما حدث من رَيْب الدهر بمَرْزِئةٍ عظيمة فظيعة .

وقوله « أخًا لى » انتصب عن « رُزِئَتْ جعفر ، أى رُزِئَتْ شقيقًا لى هذا صفتُه ، وهو أنَّ سماحَتَهُ وتكرُّمَه كانا يبعثانِه على بذلِ كلِّ حَسنة تُقترَح عليه ، وأنّ سلاستَه وسُهولتَه تَدْعوانِه إلى التَّجَافى عن كلّ سيِّئة تَبدُرُ إليه .

٣٦٧

وقالت زينب بنت[٢] الطَّثْرِيَّة[٣] ترثى أخاها :

١ — أَرَى الأَثْلَ مِنْ بطنِ العقيقِ مجاوِرِى ... مُقيمًا وقد غالَتْ يَزيدَ غوائلُه[٤]

الأَثْلُ : شجر . وإنما قالت ما قالت منكِرةً ومستوحِشة ، إذ كان الحكمُ

---

(١) عجزه : * فكيف بحصن والجبال جنوح *

(٢) كلمة « بنت » ساقطة من النسختين .

(٣) الطثرية أمها ، وهى من الطثر ، بالفتح : حى من اليمن . قال ابن خلكان : « الطثرية بفتح الطاء المهملة وسكون الثاء المثلثة » . وضبطها صاحب القاموس بالتحريك . وهى ترثى بهذه الأبيات أخاها يزيد بن سلمة بن سمرة بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر ، وكان يزيد جميلا شريفاً متلافا ، توفى سنة ١٢٦ . وروى أبو الفرج فى الأغانى (٧ : ١١٦) أن الأبيات لأم يزيد ، وهى من الأزد . قال : ويقال إنها لوحشية الجرمية .

(٤) الأبيات فى حماسة البحترى ٤٣٣ والبيان للجاحظ (١ : ٢١٦) والأغانى وأمالى القالى (٢ : ٨٥) . والبيتان ٢ ، ٣ من هذه المقطوعة قد رويا فيما مضى فى الحماسية ٣١١ للعجير السلولى . قال القالى : « وفيها أبيات تروى للعجير السلولى ولها » .

عندها أن تتغيَّر الأمورُ عن مقارِّها لموت أخيها، فتتحوَّلَ الأحوالُ وتتبدَّلَ الأبدال، وتَتخشَّع الجِبالُ، وتتقلَّع الأشجار؛ فلمَّا جرَى الأمرُ بخلافه أَخبرَتْ متوجِّعة ومتحسِّرَة، فقالت: إنَّ بطنَ العقيقِ ومنابتَ أَثلِه بما تحويه أرى مقيما في جِوارى على ما كان عليه، وأخى يزيدُ قد دَعَاهُ محتومُ القضاء فذهَبَ به غوائلُه. ويقال: غالته الغوائل، أى أهلكَتْه المُهلِكات، وهذا كما يقال: عَلِقَتْ به العَلُوقُ. وانتصب «مقيما» على أنَّه مفعول ثانٍ لأرى، ومُجاورِى فى موضع الجرّ على أنّه صفة لبطن العقيق.

٢ — فتًى قُدَّ قَدَّ السيفِ لا متضائِلٌ وَلا رَهِلٌ لَبَّـاتُهُ وَأَباجِلُهْ(١)

وصَفه بأنَّه فى خِلقة السيف تجرُّدًا واقتضاباً، وعلى خُلُقه مضاءً ونفاذاً. وقوله «لامتضائلٌ» يريد أنّه شهمٌ حيُّ النَّفْس والقلبِ، جرىءُ المُقْدَم، لايتخاشَعُ لشىءٍ ولا يتماوَتُ على حَدَث. والضُّؤولة، أصلُه الدِّقَّة. والرَّهِل: المُسترخى. يصفُه بقِلَّةِ اللَّحْم على الصَّدر والسَّاق. والأباجل: جمع أَبْجَل، وهو عِرْقٌ(٢). وذكَرَ الأباجِل وهو يريد مواضعها. وجمَعه كما يقال هو ضَخم العثانين، كأنه أراد ما حَولَه.

٣ — إذا نزَلَ الأضيافُ كانَ عَذَوَّرَا عَلَى الحَىِّ حتَّى تستقلَّ مراجِلُهْ

العَذَوَّرُ: السَّيِّئُ الخُلُق، القليلُ الصَّبر فيما يطلبُه ويُهمُّ به. وإذا ظرفٌ لقوله «كان عَذَوَّرَا». وصفَه بأنّه يجمع الحىَّ لأمره فيُطَاعُ، لسيادته وجَلَالة محلِّه، وأنَّه إذا نَزلَ به الأضيافُ قام بنفسه فى إقامة القِرَى لهم، غيرَ معتمدٍ على أحدٍ فيه، وأنَّه يعرِض له وفى خُلُقه عَجَلَةٌ يركبها، وتشدُّد فى الأمر والنَّهْى على جماعة الحىّ به يصرِّفُها، حتَّى تُنصَبُ المراجل، وتُهيَّأَ المطاعم؛ فإذا ارتفع

(١) التبريزى: «وبآدله»، وهى رواية البحترى والقالى أيضاً.

(٢) هو عرق فى باطن الذراع، أو هو عرق غليظ فى الرجل.

ذاكَ على مُرَادِهِ عاد إلى خُلُقِهِ الأوّل . والمراجل : جمع مِرْجَل ، وهى القِدْر العظيمة النُّحاسية ، واستقلالُها : انتصابُها على الأثافىّ . وحتَّى تَسْتقلّ ، أراد لتستقل وكى تستقلّ . أى كان عَذَوَّرًا لذلك الشأن .

٤— مَضَى ووَرِثْناهُ دَرِيسَ مُفَاضَةٍ وَأَبْيَضَ هِنْدِيًّا طَوِيلًا حَمَائِلُهْ

يقول : أجاب دَاعِيَهُ فمضى لوجهه ، وورِثْنَاهُ دَرِيس مُفَاضَة . فانتصب دريسَ على أنّه مفعول ثانٍ . ويقال : ورِثْتُه كذا وورثتُ منه كذا . فعلى هذه اللُّغة كان أصله وَرِثنا منه ، فحَذَفَ الجارّ ، ووصل الفعلَ فعمِل . والدَّرِيس : الخَلَق من الدِّرع وغيره ، لأنّه كأنّه فعيلٌ بمعنى مفعول . والجمع الدِّرْسان . والمُفاضة : الدِّرْع الواسعة . وأبيض ، أى وسيفًا أبيضَ . وجعله طويلَ الحمائل لطول قَوَامِه . والمعنى أنَّه أنفقَ مالَهُ فى ما ادَّخَر له أجْرًا ، ونَشَرَ لهُ حَمْدًا وشُكرا ، فلم يكن إرْثُهُ إلّا ما ذَكَر من السِّلاح .

٥— وقد كان يُرْوِى المشرفىَّ بكفِّه ويَبلُغ أقصَى حَجْرَةِ الحىِّ نائلُهْ[(١)]

وصَفه بأنه كان غزَّاءً شديدَ النكايةِ فى الأعداء ، فكان يُعطِى السيفَ حقَّه إذا أعملَه ، ويُرويه من دِماء مُشاقِيه ومُنابِذِيه إذا جرَّده ، ويبلغُ أبعد ناحيةِ الحىّ عطاياه . وإنما قالت « يُروِى المشرفىَّ بكفِّه » لأنها تريد أنَّ نهضتَه فى ذلك بنفسه خاصَّةً من غير اعتمادٍ على حميم أو غريب ؛ لأنه كان لا يجرُّ الجرائرَ على ذويه ثم يتركهم لها ، ولكن كلُّ ما أتاه أو تجشَّمَه فبنفسه لا بغيره .

٦— كريمٌ إذا لاقيتَهُ متبسِّمًا وإمّا تَوَلَّى أشْعَثُ الرَّأسِ جافلُهْ

قولها « كريم » ارتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . أرادت : هو كريم إذا لاقيتَه متبسِّما . فانتصب « متبسِّما » على الحال . وجواب إذا يدلّ عليه كريم .

(١) هذا البيت وتاليه وتفسيرهما ساقط من نسخة الأصل ، وإثباتهما مع تفسيرهما من ل .

فتقول : إذا لقيتَه راضياً ساكناً متبسِّما لاقيتَ منه طَلْعَةَ الكرام وأفعالَهم ، وإن أعرضَ عنك وولَّى وجدتَه أغبرَ الرأس كثير الشعر ، لا يهمُّه أمرُ نفسِه فى اللِّباس والطَّعام ، وإنَّما به الغزْوُ والسَّعْى فى إصلاح أمر العشيرة ، وما يَكسِبُه الجمالَ والشَّرف .

وقولها « أشعث الرأس » أى اغبرَّ شعرُه وتلبَّد . والفعل منه شَعِثَ شَعَثاً وشُعوثةً ، وهو أشعثُ وشَعِث . وقولها « جافله » من قولهم : أخذتُ جُفْلةً من الصوف ، أى جُزَّةً منه . وفى كلامٍ لهم عن الضائنة : « أُجَزُّ جُفَالًا[1] » . ويقال : جافل ، ومُجْفِل .

٧ – إذا القومُ أَمُّوا بيتَه فهو عامِدٌ ... لِأَحْسَنِ ما ظَنُّــوا به فهو فاعِلُهْ

يجوز أن يريد بالقوم رجالَ الحىِّ خاصَّة ، ويجوز أن يريد به طوائفَ الرِّجال ، ويكونَ المرادُ به الكثرة . وإنما وصفَتْهُ بأنه مدبِّر العشيرة عند ما يَدهَمهم ، والمشيرُ عليهم فيما يَحزُبُهم ، فإذا قَصَدوا حضرتَه قائلينَ ما نأتمرُ وكيف نَصْنع ؟ أرشَدَهم وهَداهم ، وتحمَّل عنهم ما يَثقُل عليهم . ثمَّ بعدَ ذلك تعَمَّدَ إلى أحسنِ ظنونهم به فيأتيه معهم لا متبرِّمًا ولا مُتكرِّهًا ، بل باسطاً من آمالهم ، وجامعاً الحسنَ[2] فى كل بابٍ لهم .

٨ – ترَى جازِرَيْهِ يُرْعَدَانِ ونارُهُ ... عَلَيْها عَدَامِيــلُ الهَشِيمِ وصامِلُهْ

٩ – يَجُرّانِ ثِنْيًا خَيْرُها عَظْمُ جارَةٍ ... بصيراً بها لم تَعْــدُ عنها مشاغِلُهْ[3]

(١) هو مما وضعوه على لسانها . وفى اللسان : « أولد رخالا ، وأحلب كثباً ثقالا ، وأجز جفالا ، ولم تر مثلى مالا » . قوله جفالا ، أى أجز بمرة واحدة ، وذلك أن الضائنة إذا جزت فليس يسقط من صوفها إلى الأرض شىء حتى يجز كله ويسقط أجمع .

(٢) ل : « الحسنى » .

(٣) التبريزى : « عظم جاره » .

جعلتْ له جازِرَيْنِ على عادتهم في جعلهم أصحابَ المِهَنِ فيهم اثنين اثنين ، كالبائن والمُسْتَعْلِي في الحَلَب ، والماتح والقابل في الاستقاء . وجَعلَهما يُرْعَدانِ لشدّة البرد ، وإنما تَعنِي وقتَ الجَدْبِ وعند إمحالِ الناس . والعدَاميل : العَتيق من الخشب الغليظ ، واحدها عُدْمُولٌ على القياس وعُدْمُلِيٌّ . والصاملُ : اليابس . والمعنى : إذا اشتدَّ الزّمانُ وشَمِلَ القَحْطُ واشتدَّ البرد ، كان له جازِرَان يَنحران ، ونارُه عظيمةٌ وَقودها من الحطب الغِلاظ العُتُق ؛ وترى العُفاةَ والمَضْرُورِين[1] بالفِناء نازلين ، وذَوِي الحاجة من جوانب الحيِّ يَعتَرُّون ، وهو يقتَسِم فيها ما يُرضيهم .

وقولُها « يَجُرّان ثِنْيًا » يعنى الجازِرين . والثِّنْي : التى ولدت بطنَيْن ، وهى مما يُضَنُّ بها . وقولها « خَيرُها » تريدُ : خيرُ أبدانُها ومفاصلِها البَدْء الذى يُجعل لجارةٍ له قد عَرَفها ، فهو بصيرٌ بها وبحالها . وليست تعنى جارةً بعينها ، إنما المراد الكثرة ، فالجاراتُ على ذلك لا تتخطَّاها أشغالُه المزدحمة ، ولا يغُضُّ العنايةَ بها الأسبابُ المتراكمة ، بل قد وصَّى بها وبأمثالها فيُتفقَّدْنَ بأوفر الأنصباء عند قسمة الجزور . وقالت « بصيراً بها » والفعل للمرثيِّ ، فجرى على غَير من هوله ، لأنه تبع الجارة ، وإذا كان كذلك فالواجب كان عليها أن تظهر ضميره فتقول بصيراً بها هو ، لأن اسم الفاعِل والصفة المشبّهة إذا جرَى واحدٌ منهما على ما قبلَه صفةً أو صِلةً أو حالا أو خبراً لم يَحتمل الضمير كما يحتمله الفعل ، لِضَعفه وانحطاطِ منزلته . وأكثرُ أصحابنا على أنه لا بدَّ من ذلك ، حتى أن أبا الحسنِ كان يلحّن الكلامَ إذا لم يَجرِ على هذ السَّنَن . والكوفيُّون وبعض أصحابنا يُجوِّزون تركَ إظهاره . وهذه الشاعرةُ دعتْها الضرورةُ إلى وَضْع المتصل موضعَ المنفصِل ، فترَكت التغيير . وقولها « لم تَعْدُ

---

(١) المضرور : الذى أصابه الضر . فى الأصل . « المصرودين » صوابه فى ل .

عنها » أى لم تَصرِف . يقال : عَدَت بيننا عَوَادٍ ، أى صَرَفَتْ صوارف .

٣٦٨

وقال أبو حكيمٍ المُرِّىّ[(١)] :

١ – وكنتُ أُرَجِّى من حَكيمٍ قِيامَهُ ... علىّ إذا ما النّعْشُ زَالَ ارتدانيا

٢ – فَقُدِّمَ قَبْلِى نَعْشُه فارتَدَيْتُهُ ... فياويحَ نَفْسِى من رِدَاءٍ عَلَانيا

النعش : شَبيهٌ بالمِحَفَّة ، كان يُحمَل عليه الملكُ إذا مرِض ؛ ثمّ كثُر حتّى سُمِّى النّعشُ الذى فيه الميِّت نَعْشاً . يقول : كنتُ أؤمِّل فى حكيمٍ ابنى أن يُمْهَل وينفَّس مِن عمره ، فيقومَ علىّ إذا مُتُّ ، ويرتَدِىَ نَعْشِى إذا حُمِلْتُ ، ثمّ بعد ذلك يَقضِى فيما أخلِّفه عليه ، وأعتمد على كفايته وخلافته ، فخابَ أملى وكَذَبنى ظَنِّى ، وقُدِّم قبلى ، فارتديت أنا نعشَه ، فوا بَلاء نفسى مِن رداء علانى بنعشِه . وقوله « ارتدانيا » تفسيرٌ لقيامه عليه[(٢)] . وقد وَضَع الماضىَ موقع المستقبل ؛ أى يرتدينى فى ذلك الوقت . ولو ساقَ الكلامَ على تلاؤمٍ لقال : قيامَهُ علىّ وارتداءه إيّاىَ إذا ما النّعش زال ارتدانيا ، أى يرتدينى ، فيكون إذا ما النّعش زَال ظرفاً ، وارتدانى مفعول أُرَجِّى . أىْ أرجوه يرتدينى إذا ما النّعش زال .

---

(١) قال التبريزى : وكان أبو حكيم قد قال :

يقر بعينى وهو يقصر مدتى ... مرور الليالى أن يشب حكيم

مخافة أن يغتالنى الموت دونه ... ويغشى بيوت الحى وهو يتيم

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « على » .

٣٦٩

وقال مُنْقذُ الهِلَالِىُّ[1] :

١ – الدَّهْرُ لَاءَمَ بينَ أُلْفَتِنَا وكَذاكَ فَرَّقَ بَيْنَنا الدَّهْرُ

٢ – وكذاكَ يَفْعَلُ فى تَصَرُّفِهِ والدَّهرُ لَيْسَ يَنَالُهُ وِتْرُ

نَسَبَ ما اتَّفق عليه وعلى مُحِبِّيه إلى الدَّهر، فقال : الدَّهر جَمَّع بيننا وسوَّى أُلفتَنا، فلمَّا أراد كُلٌّ منَّا أن يفرحَ بصاحبِه كما يَهواهُ، ويتمتَّعَ به ويتملاَّه، فرَّق بيننا وشتَّت شملنا، فعاد ما كُنا نأْمُلُه من التَّملِّى والاستمتاع تباينًا وتوجُّعًا[1] .

ومعنى وكذاك فرَّق بيننا : ومثلُ ذاك . وأشار إلى ما دلَّ عليه لاءم من التَّأليف . يريد : وكتأليفه فرَّق أيضاً . وكرَّر لفظ الدَّهر تفخيما . وموضع كذاك نصبٌ على الحال مِن فرَّق بيننا . وقوله « وكذاك يفعل فى تصرُّفه » يريد أَن الدهر فى مصارفه فَعَّال لمثل ما فَعَلَ بنا، يهَبُ ويَرتجع، ويؤلِّف ويفرِّق، ولا يترك شيئا على حاله إلَّا رَيْثَ ما يُسَلِّطُ عليه التَّغيير . وقوله « والدهر ليس ينالُه وِتْرٌ » يريدُ أنَّهُ يَتِرُ غيرَه فلا يُوتَر، ويَنكِى فلا يُجازَى، فليس معَه إلاّ الاستسلامُ لحكمه، والرِّضا بمحتومه . وهذا الذى جعلَه للدَّهر، الفاعلُ له القادرُ على كلِّ شىء، تَعالى عن الأشباه .

٣ – كُنْتُ الضَّنِينَ بِمَنْ أُصِبْتُ بِهِ فَسَلَوْتُ حِينَ تقادَمَ الأَمْرُ

٤ – ولَخَيْرُ حظِّكَ فى المُصيبةِ أنْ يَلْقَاكَ عِنْدَ نُزُولِهَا الصَّبْرُ

---

(١) هو منقذ بن عبد الرحمن بن زياد الهلالى . قال المرزبانى فى المعجم ٤٠٤ : « بصرى خليع ماجن، متهم فى دينه، يرمى بالزندقة، كان فى صدر الدولة العباسية » . وأنشد له هذه الأبيات ما عدا الثانى منها . وكان من أصحاب والبة ومطيع وبشار وابن المقفع وأبان . الأغانى (١٦ : ١٤٣) .

قوله « كنتُ الضَّنِينَ » تشكٍّ[1] من الفِراق الواقع بينه وبين مَن يرثيه ، وإظهارٌ لضنِّه كانَ به ، وتنافُسه فيه . فيقول : كنت لا أصْبِرُ عنه ، وأعُدُّ الأوقاتَ التى لا أراه فيها كَثُلْمَةٍ فى العَيش ، ونَقِيصةٍ من زَاكِى الحظّ ، إذْ كنتُ لا أرى طِيَب العيش إلاَّ معه ، ولا أعرف طعمَ الحياة إلا فى صُحبته فلما افترقْنا وتقادَمَ العهد بيننا سَلَوْتُ عنه ، حتَّى كأنّنى لم يَجمعْنى وإيَّاه حَالٌ . وهذا الكلامُ منه استقصارٌ لجزعه ، واعترافٌ بأنَّه لم يَفْعَل كُنْهَ الواجبِ عليه عند الرَّزِيئة .

وقوله : « والخيْرُ حَظِّك » يريد : خير أنصبائك فيما تُصاب به وتَعْنو له ، أن يتلقاك الصَّبرُ عندالصَّدمة الأولى لتصونَ به دينكَ ونفسك وعقلك ؛ لأنَّ المرجع إليه ، فَألاّ يتسلى الإنسانُ تَسَلِّيَ البهائم أحسَنُ . وفى هذه الطريقة قول الخُرَيْمِىِّ :

وإنِّى وإن أظهرتُ صَبْرًا وحِسْبَةً ... وصانَعْتُ أعدائى عليكَ لَمُوجَعُ

ولو شئتُ أنْ أبْكى دَمًا لبَكَيْتُهُ ... عليك ولكن ساحةُ الصَّبرِ أوسَعُ

٣٧٠

وقالت ابنةُ ضِرَارٍ الضبِّيَّة[2]

تَرْثى أخاها قَبِيصَةَ بن ضِرَار[3] :

١ ــ لا تَبْعَدَنَّ وكُلُّ شَىءٍ ذَاهِبٌ ... زَيْنَ المجَالِسِ والنَّدِىِّ قَبِيصا

« لا تبعدن » لفظة قد مَرَّ القولُ فيها فيما تقدَّم[4] . وقوله « وكلُّ شىء ذاهِبٌ »

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « تسل » .
(٢) التبريزى : « مية ابنة صرار الضبية » .
(٣) كان قبيصة بن ضرار أحد فرسان ضبة . وكان قد شهد الكلاب الثانى حين اجتمعت مذحج لقتال تميم ، فهزمتهم تميم وقتلوا قائدهم عبد يغوث بن صلاءة . وكان هذا الكلاب قبل الإسلام بقليل . الأغانى (١٥ : ٧٠ ــ ٧٢)
(٤) انظر ص ٨٩٢ ، ٩٠٥ .

تَسَلٍّ . كأنّها قالت متوجِّعةً : لا تَبْعَد ، ثم عَقَّبْته[1] بالتَّسلِّي فقالت : وكل حيّ منا ميِّتٌ ، وكلُّ أمرٍ فينا متغيِّر يا زينَ المجالس والنَّدِيِّ يا قبيصة . وقولها «وكلُّ شيء ذاهب» اعتراض بين المنادى وبين الدُّعاء له . والجمل المعترضة بين أنواع الكلِم تفيد فيها التَّأكيدَ وتحقيقَ معانيها . وقولها « زينَ المجالسِ والنَّدِيّ » ، إنَّما ذكرتْهما وهما واحد لأنّها أرادت بالمجالس مجالسَه خاصةً إذا قُصِدَ لإنزال الحاجاتِ به ، واستخراج المطالب منه ، وأرادت بالندِيِّ نادىَ الحيّ . وانتصَبَ قبيصةُ على أنّه عَطف البيان ليا زَيْن . ويجوز أن يكون على تكرير النِّداء وقد رَخَّمه ، فكأنّه قال : يا زينَ المجالس يا قبيصة .

٢– يَطْوِى إذا ما الشُّحُّ أبْهَمَ قُفْلَهُ بَطْنًا من الزّادِ الخَبيثِ خَمِيصَا

يصفه بقِلّةِ الشَّرَه ، وأنّه لا يَرغَب من أعراض الدُّنيا إلا فيما يَزِين ولا يَشِينُ ، ويُستطاب ولا يُستخبَث . وقوله « إذا ما الشُّحُّ أَبْهَمَ قُفْلَهُ » ، يريدُ إذا اشتدّ الزمان فصار كلُّ مالكٍ لشيء يبخَل به حتّى لا يمكنَ انتزاعُه منه . وإذا رَوَيْتَ « أُبْهِمَ قُفْلُه » على ما لم يسمَّ فاعله ، فالمعنى أحكم أمرُه وجُعِل كالفَرض الذى لا يَحتمل التجوُّز . وإذا رويت «أَبْهَمَ قُفلَه» جَعَل الفعل للشُّحّ ، كأنّ له قُفلا يُبهِمه . وإبهامُه : أن يَجعلَه على وجهٍ لا يُدرَى كيف يُفتح . فيقول : هذا الرّجُل يطوى بطنًا له صغيراً مضطمِراً من الزّاد السَّيِّئ ، إذا تملّك البخلُ النّاسَ لشِدَّة الزَّمان ، فجعلهم كذلك .

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « علقته » .

٣٧١

وقال عِكْرِشَةُ الضَّبِّيُّ(١) يَرْثِي بَنِيه :

١ ـ سَقَى اللهُ أَجْدَاثًا ورائى تركْتُها بحاضِرِ قِنَّسْرِينَ من سَبَلِ القَطْرِ (٢)

٢ ـ مَضَوْا لا يريدون الرَّوَاحَ وغَالَهُم من الدَّهْرِ أسبابٌ جَرَيْنَ على قَدْرِ (٣)

الأجداث : القبور ، وكذلك الأجداف بالفاء . ويَعنى بالأجداث قبورَ بنيه . ودَعَا لَهَا بالسُّقيا وجعل موضعَها بحاضر قنّسْرين ، إجلالاً لها وتنبيهاً عليها . وقوله « من سَبَلِ القَطْرِ » مفعول ثان لسَقَى الله . والمعنى : سقى اللهُ هذه القبورَ التي وصفْتُها من ماء السَّحاب ما سالَ على عَجَلةٍ وبشِدّة . وخَصَّ ذلك لأنّها أعذبُ المياه عندهم . والقَصْد في طَلَب السُّقيا لها أن تبقَى عهودُها غَضَّةً محميّةً من الدُّروس ، طريّةً لا يتسلّط عليها ما يُزيل جِدَّتَها ونضارتَها . ألا ترى أنّه لمّا أراد ضدَّ ذلك قال :

* فلا سَقَاهُنّ إلّا النّار تضطرمُ(٤) *

وقوله « مضوا لا يُريدون الرَّواح » يريدُ : ساروا لا يعرّجون على شيء ، فلا يريدون لُبثاً ولا مُقاما ، بل استُعجلوا فتَعجَّلوا ، وأهلَكَهم مِن أحداث

---

(١) التبريزى : « عكرشة العبسى » ، وهو الصواب ، وهو أبو الشغب العبسى الذى ترجم في ص ٩٢٧ .

(٢) البيت ١ ، ٢ ، ٥ في مجالس ثعلب ٢٤٢ . والبيت ٥ وقبله بيت آخر لم يروه أبو تمام في اللآلئ ٤٢٨ . وهذا البيت هو :

غطارفة زهر مضوا لسبيلهم ألهفى على تلك الغطارفة الزهر

ورواية ثعلب : « فتياناً ورائى تركتهم » .

(٣) ثعلب : « ثووا » .

(٤) صدره كما سبق في ص ١٠١ :

* إذا سقى الله أرضاً صوب غادية *

الدَّهرِ أسبابٌ جاءت على قَدَرٍ ، فكأنَّهم كما دُعُوا أجابوا ، وكما تهيَّئُوا أُخِذوا ، لا تَلوُّمَ ولا اختلاف ، ولا قُصور[1] ولا امتناع .

٣ ـ ولو يَستطيعونَ الرَّواحَ تَرَوَّحوا   مَعِى وغَدَوا فى المُصْبِحِين على ظَهْرِ

يقول : ولو قَدَروا فيما هَمُّوا به من سَيْرهم على النُّزولِ رَوَاحًا لتروَّحوا معى ، ولغَدَوا[2] فى صباح اليوم الثانى على ظهر الأرض ولم يَصِيروا مع الأموات فى بطنها مأخوذِينَ عن حظوظهم ، لكنَّهم استمرُّوا فى المفارقة فِعْلَ مَن لا يملِكُ إلَّا ذاك ، ولا اختيارَ له فيما يركبه .

وهذا الكلامُ منه توجُّعٌ وتحسُّر ، حين أُتُوا من حيثُ لم يَشعُروا ، وطُولِبوا بما لا رَجعةَ فيه ولا استبقاء وإن استُنظِروا .

٤ ـ لَعمرِى لقد وارَتْ وضَمَّتْ قُبُورُهم   أكُفًّا شِدَادَ القَبْضِ بالأَسَلِ السُّمْرِ

٥ ـ يُذَكِّرُنِيهِمْ كلُّ خَيْرٍ رأيتُه   وشَرٍّ فما أَنفَكُّ مِنْهم عَلَى ذُكْرِ

يقول : وبقائى ، لقد اشتملت قبورُهم على فُرسانٍ شُجْعانٍ[3] يملكون بالطَّعن أكُفًّا شدادَ القَبْض على الرِّماح . وإنما قال « وارَتْ وضَمَّتْ » لأنَّ المُوَارِيَ هو السَّاتِر ، وساتِرُ الشَّىءِ يكون ضامنًا وغير ضامن[4] . وإنَّما أراد أن يجعل القبور مُواريةً وضامنة ، فلذلك جمع بينَ اللَّفظين . ثم عقَّبَ هذا بأن قال : يذكِّرُنيهم الأمورُ التى أنتهى إليها على اختلافها ، فإنَّها لا تخلو من أن تكون نافعَةً أو ضارة ؛ فإن كانت نافعةً كانت خيراً ، وكانت عَمَلَهُ

(١) فى الأصل : « تصور » ، صوابه فى ل .

(٢) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « وأخذوا » .

(٣) ضبطت فى الأصل بضم الشين ، وفى ل بكسرها . وهذه اللغة الأخيرة حكاها اللحيانى .

(٤) اتفقت النسختان فى التعبير عن الضام بالضامن ، ومعناهما متقارب .

دِيمةً(١) مع مَن يتسبَّب إليه بحُرمة ، أو يُدِلّ بآصِرةٍ . وإن كانت ضارّةً كانت شَرًّا ، وهو الذى يَشْقَى به من يُشاقُّه ويعانِدُه ، حتَّى لا يُخْلِيه منه أو من تَرَقِّيه(٢) ساعةً ، فلا أزال ذاكراً له بما أعتبِرُه من أمور الدُّنيا وأحوالها ، وأنتهِى إليه فأتأمَّله من مسبَّباته فى طوائف النَّاس بعده . ويقال : ما انفكَّ يفعل كذا ، بمعنى ما زال . والذُّكْر ، بضم الذال ، يكون بالقلب ؛ والذِّكر بكسر الذال ، يكون باللِّسان .

٣٧٢

وقال رجلٌ من بنى أسَدٍ(٣) ،

يرثى أخاه وكان مَرِض فى غُربة ، فسأل الخروجَ به هرَباً من موضعه ، فماتَ فى الطريق :

١ — أبْعَدْتَ مِنْ يَوْمِكَ الفِرارَ فما جاوَزْتَ حَيْثُ انتَهَى بك القَدَرُ

٢ — لو كان يُنْجِى من الرَّدَى حَذَرٌ نَجَّاكَ مِمّا أَصابَكَ الحَذَرُ

يُروى : «أبعطتَ» ، والإبعاط والإبعاد متقاربان . فالإبعاط : الإسراع فى السَّير . ويقال : أبعطتُ من الأمر ، إذا أبيْتَه وهَرَبْتَ منه . ويُرْوَى : « أسرعْتَ من يومك الفِرار » والأوّل أشهر وأجود ، لأن مِن يتعلّق فيها بأبعدتَ .

(١) أى دائما : وفى حديث عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان عمله ديمة » ، شبهته بالديمة من المطر فى الدوام .

(٢) كذا فى النسختين . والترق : التدرج ، وليس من الحتمى أن تكون « ترقبه » .

(٣) التبريزى : « ويقال إنها لابن كناسة » . وقد نسبه كذلك ابن خلكان فى ترجمة حماد الراوية ، وذكر أن محمد بن كناسة يرثى حماداً الراوية بهذا الشعر . وسبقه بهذه النسبة ابن النديم فى الفهرست ١٣٥ . أما الجاحظ فى البيان (١ : ٢٥٧) فأتى بذلك مبهماً ، إذ قال : « وقال بعض الشعراء فى بعض العلماء » . والبيت الرابع من هذه المقطوعة ينطق بتصحيح هذه النسبة .

والمعنى : فَرَرتَ مِن أجلكَ فِرَاراً بعيداً . ومعنى « من يومك » من آخر أمَدِك . وإذا رويت « أسرعت » احتجت إلى إضمار فعلٍ يتعلَّق به من ، ولا يجوز تعلُّقه بأسرعتَ ، ولا بالفرار لأنه يكون من صلته وقَدْ قُدِّم عليه . وقوله « فما جاوزتَ حيث انتهى بك القَدَرُ » يريد أنَّ الحَذر لا يُغنى من القَدَر ، وأنَّك وإن تحزّمتَ[1] فى تغيير الأماكن تَباعُدًا من المحذور ، وتنقَّلتَ فى المنازل هَرَبًا من القدر المحتوم ، فما وجدتَ فيه واقيةً لنفسك ، ولا جاوزتَ الوقت المُرْصَدَ لحينك . وجعل قوله « حيث انتهى » اسماً ، فهو فى موضع المفعولِ لجاوزت . ومثلُه فى القرآن : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ[2] ﴾ . ومن مَحْكِيِّ كلامِهم وفصيحه : « هى أحسن الناس حيث نظر ناظرٌ » ، يعنى وجهها .

وقوله : « لو كان يُنجِى » جواب لو قولُه « نجاك » . والمعنى : إنَّكَ لم تُؤتَ من تضجيعٍ وقَعَ منك ، أو إغفالٍ اعترض دون طالبك ؛ فلو كان يخلِّص من الموتِ تَوَقٍّ لوقاكَ ما أخذت به نفسك من الحَذَر الشَّديد ، والهرب البعيد ؛ ولكن هو الموت الذى لا منجَى منه ولا مَهرَب عنه . وكلُّ هذا النوع توجُّعٌ وتحسُّر ، واعترافٌ بالقصور والعجز لدَى مُبْرَم القضية .

٣ – يَرْحَمُكَ اللهُ من أخى ثقةٍ لم يَكُ فى صَفْوِ وُدِّهِ كَدَرُ
٤ – فهكذا يَذهبُ الزَّمانُ ويَفْـ ـنَى العِـلْمُ فيه ويَدْرُسُ الأَثَرُ

قوله « يرحمك الله » استسلام . والرَّحمة من الله : الإحسانُ والعفو . ومعنى

(١) التحزم : اتخاذ الحزم . وهذه رواية ل . وفى الأصل : « حرمت » وهذه محرفة من « حزمت » .

(٢) هذه هى قراءة جمهور السبعة ، وقرأ ابن كثير وحفص : « رسالته » بالتوحيد . انظر ما سبق فى حواشى ١٤١ ، وكذلك ص ٥٧٣ .

« من أخي ثقةٍ » دخل مِنْ للتَّبيين ، أى من أخٍ يُوثَق بودِّه ، ويُؤْمَن غِلُّه ووبَالَ حَسَدِه ، وإذا صَافى الوِداد وافَقَ باطنُه ظاهرَه ، ولم يك ذا وجهين يُعطيك حَضْرَتُهُ خِلاف ما يُعطيك غَيبَتُه .

وقوله « فهكذا يَذهَبُ الزَّمان » يريد أنَّ ما رآه وأصابَه ليس بمستبدَعٍ من حَدَثان الدهر ونوائبه ، بل استمراره قديماً وحديثاً على وجهٍ واحد ينقرضُ أهلُه كما أتاه ، ويفنى فيه كلُّ معلومٍ حَوَاه ، ويدرُس كلُّ أثرٍ اقتفاه ووَعَاه . وهذا الكلامُ إظهارُ اليأسِ من المفقود ، وتضعيفُ الطَّمع فى بقاء الموجود .

٣٧٣

وقالت أمُّ قَيْسٍ الضَّبِّيَّة :

١ ــ مَنْ للخُصُومِ إذا جَدَّ الضَّجاجُ بهم بعد ابن سَعْدٍ ومن للضُّمَّرِ القُودِ

قوله « إذا جَدَّ الضجاج بهم » أى صار ضَجاجُهم جِدًّا . ويقال : ضَجَّ يضجُّ ضجيجاً ، والاسم الضَّجاج ، قال العجّاج يصف حرباً :

وأغْشَتِ النَّاسَ الضَّجاجَ الأضْجَجَا وصاح خَاشِى شرِّها وهَجهَجا[1]

وقوله «مَن للخصوم» لفظه استفهام ، والمعنى التوجع والاستفظاع . فيقول : مَن يَفصِل بين الخُصوم إذا اشتدَّ بهم النِّزاع ، وطال الجِدالُ والدفاع ، فاحتِيج إلى من يردُّ الجامح ، ويُلين الكامح ، حتَّى إذا رجع كلٌّ منهم إلى ما يقرب مَسْمَعه ، ولا يبعد عن الفَحص مُستنزعه ، أنفذ قضيَّتَه فقطعها ، لا يلفِتهم عن القَبول مراجعةٌ ، ولا تَخلِجهم عن الالتزام مماتَنةٌ ومدافَعة بعد ابن سعد . ومَن للضمَّر القود بعده ، أى مَن أصحابُ الخيلِ المضمَّرة . وتريد : من يدفَعُهم عن اشتطاطِهم إذا جاءوا

(١) سبق فى ص ٧٤٩ .

واترِينَ أو موتورين . ويجوز أن تريد أنَّه كان غزا بها فمَنْ لها بعده . والضمَّر : جمع ضامر . والقُودُ : الطِّوال الأعناق .

٢ — ومَشْهَدٍ قد كَفَيْتَ الغائبين به   فى مَجْمَعٍ من نَواصِى الناس مَشْهُودِ

٣ — فَرَّجْتَهُ بلسانٍ غيرِ مُلتَبِسٍ   عِنـــدَ الحِفاظِ وقَلبٍ غيرِ مَزْءودِ

يقول : ورُبَّ مشهدٍ عظيمِ الشأن يُسأَلُ عن حال حاضريه ، ويُستمع إلى ما يُنْشَر عنه من حِجاجِ منافريه ، تكلَّمتَ فيه عن نفسِكَ ونُبْتَ عن الغائبينَ من مُغْتَلِقِي حَبْلِكَ ، واليومُ يومٌ مشهود ، ورؤساءُ الناسِ وأماثلُهم فيه شهود ؛ ثم كَشَفْتَ الغُمَّة ، وأثبَتَّ الُحْجَّةَ بكلامٍ فصيحٍ لا يلتبس ، وجدالٍ راجحٍ لا يُخِيل ولا يَغتمِض ، وقلبٍ ثابت لا يرتَدِع إذا استُنْهِض ، ولا يَنتكس إذا استُقدِم . وقوله « نواصى الناس » أى أشرافهم والمقدَّمين منهم . وهذا كما وَصفُوا بالذَّوائب ، يقال : فلانٌ ذُؤابةُ قومِه ، وناصيةُ عشيرتِه . وقوله « بلسانٍ غيرِ ملتبس » يريد بكلام . وفى القرآن : ﴿ وما أَرْسَلْنا مِن رسولٍ إلا بلِسانِ قوْمِهِ ﴾ ، وتُسمَّى الرِّسالةُ لسانًا . وقال :

* إنِّى أَتَتْنى لِسَانٌ لا أُسَرُّ بها[1] *

وقوله « غير مَزءود » فالزُّؤْد[2] : الذُّعْر ، والفِعل منه زُئِد فهو مزءود . وقوله « عند الحفاظ » أى فعلت ذلك كلَّه عند المحافظة على الشَّرَف ، والاحتماء من عار الهَضِيمة والعَنَتِ .

٤ — إذا قَناةُ امرئٍ أَزْرَى بها خَوَرٌ   هَزَّ ابنُ سَعْدٍ قَناةً صُلْبَــةَ العُودِ

(١) لأعشى باهلة ، يرثى المنتشر بن وهب الباهلى ، من قصيدة فى الخزانة (١ : ٩٢ — ٩٧) ، وهذا البيت أولها . وعجزه :

* من علو لا عجب منها ولا سخر *

(٢) يقال بضمة وبضمتين ، ومثله الزأد ، بالفتح والتحريك .

ذِكر القناة مَثلٌ للإباء والامتناع ، وأنّ المُكْرَه[1] لا يُخرِج منهم الخضوعَ والانقياد . ألاَ ترى قول سُحَيْم بن وَثِيلٍ :

وإنَّ قَنَاتَنَا مَشِظٌ شَظَاهَا ... شَدِيدٌ مَدُّهَا عُنُقَ القَرِينِ

ويقال : مَشِظَتْ يدُه تَمْشَظُ مَشَظًا . والشَّظِيَّة والشَّظا من العصا كاللِّيطَةِ منها ، تَدخُل فى اليد فَتَمْشَظُ منها . ومثل هذا قولُ عمرو بن كُلْثوم :

عَشَوْزَنَةً إذا غُمِزَتْ أَرَنَّتْ ... تَشُجُّ قَفَا المُثَقِّفِ والجَبِينَا

وقال أيضاً :

وإنَّ قَنَاتَنَا يا عَمْرُو أَعْيَتْ ... على الأعداءِ قَبْلَكَ أن تَلِينَا

وزاد الآخَر عليهم فقال :

ولَنَا قَنَاةٌ من رُدَيْنَةَ صَدْقَةٌ ... زَوْراءُ حامِلُها كذلك أَزْوَرُ

٣٧٤

وقال الجَعْدِىُّ[2] :

١ — أَلَمْ تَعْلَمِى أنِّى رُزِئْتُ مُحَارِبًا ... فَمَا لَكِ منهُ اليومَ شىءٌ ولا لِيَا[3]

٢ — ومن قَبْلِهِ ماقَدْ رُزِئْتُ بِوَحْوَحٍ ... وكان ابْنَ أُمِّى والخليلَ المصافِيَا

يخاطب صاحبتَه أُمَّ مُحَارِبٍ ، ومحاربٌ ابنُه . وقوله « ألم تعلمى » ظاهره تقرير ، وإنما هو تحسُّرٌ وتوَجُّعٌ . لذلك قال : « فما لك منه اليومَ شىءٌ ولا ليا » أى قد فُجِعْنا به فأصبحنا خِلْوًا من الاستمتاع بحياته ، والانتفاعِ بمكانه . ثم

---

(١) ل : « الكره » .

(٢) هو النابغة الجعدى . سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٣٣ ص ٩٦٨ .

(٣) البيتان ٣ ، ٤ سبقا فى الحماسية ٣٣٤ ص ٩٦٩ ، فيكون مما كرره أبو تمام فى الاختيار . انظر مثيله فى الحماسية ٣٣ كررت فى ٢٠٩ ، و ٢٩٩ كررت فى ٣٦٠ .

ذكر أنه قد فُجِـع قبله بأخيه أيضاً ، وكان نسيباً قريباً ، وصديقاً مُصافياً حبيباً .

٣ – فَتًى كَمَلَتْ خيراتُه غـيرَ أنَّهُ جَوَادٌ فما يُبْقِي من المالِ باقِيَا

٤ – فَتًى تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صديقَهُ على أنّ فيه ما يَسُـوءُ الأعادِيا

قوله « فتًى كملت خيراته » يجوز أن يكون فتًى فى موضـع النَّصب على المدح والاختصاص ، أى أَذْكُرُ فتًى هذه صفتُه . ويجوز أن يكون فى موضع رفعٍ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : هو فتًى . وقوله « غير أنه جَوَادٌ » استثناء منقطع ، وقد تقدم الـكلام فى مثله ، وأن من كان عيبُه والمستثنَى مِن خصاله المحمودة ما يُذكَرُ بعد غير فناهيك به رَجُلاً كاملا . وقوله « فتًى تَمَّ فيه ما يسرُّ صديقه » مثله ، وقد تقدَّم فى مواضِـعَ وشرَحْناه .

٣٧٥

وقال رَجُلٌ من بَنى هِلالٍ(١)

يَرْثِى ابن عَمٍّ لَهُ :

١ – أبَعْدَ الذى بالنَّعْفِ من آلِ مَاعِزٍ يُرجِّى بمَرَّانَ القِرَى ابنُ سَبيلِ

٢ – لقد كان لِلسَّارِينَ أىَّ مُعَرَّسٍ وقد كان للغَادِينَ أىَّ مَقِيلِ

٣ – بَنِى المَحْصَنَاتِ الغُرِّ من آل مَالِكٍ يُرَبِّيْنَ أولاداً لِخَيرِ خَلِيلِ

يقولُ على وجه الإنكار : أيُرَجِّى ابنُ السبيلِ القِرَى بمَرَّانَ بعدَ المدفون بالنَّعفِ من آل ماعِزٍ . أى لا يكون ذلك ، لأنَّ من كان يشمَلُ خيرُه(٢) ويُرْتَجَى النزولُ به مُـكْرَمًا ضيفُه قد مات . والنَّعْفُ : ما ناعَفَكَ من الجَبَل ،

(١) كذا عند التبريزى ، ول . وفى الأصل : « من بنى هذيل » .
(٢) كذا فى ل . وفى نسخة الأصل : « يشتمل » .

أى استقبلك ، وقيل : هو ما انحدَرَ عن السَّفْح وغَلُظَ ، فكان فيه صَعودٌ وهَبوطٌ . ذكره الدريدىُّ ، قال : وجمعُه نِعَافٌ .

وقولُه « لقد كانَ للسَّارِينَ » جوابُ قَسَم محذوف . والتَّعريس : النُّزول عند الصُّبح . والمَقِيل : موضع القَيلولة ، فيقول : مَن أسرى ليلةً ثم طلب من ينزلُ به ، كانَ هذا الرَّجلُ مَعرَّساً له كريماً ، وأىَّ مُعَرَّسٍ . وهذا الكلام فيه تعجُّبٌ وتفخيم . وكذلك مَن ارتحل غُدُوًّا ثمَّ أرادَ الرَّواحَ كان فِناؤه له مَقيلاً طيِّباً وأىَّ مَقِيلٍ .

وقوله « بَنِي المُحْصَنَاتِ » جَمَع إلى ذِكْرِهِ ذِكرَ إخوته ، فقال : أذكُرُ قوماً كرامَ الأطراف ، أمَّهاتهن من الحَصَانةِ والطَّهارة فى أعلى محَلّ ، وأبعدِ رُتبة ، ويرْبُبْنَ(١) أولادًا ابعولٍ لا يُوازَى بهم ، عُلوَّ مَنصِب ، وزَكاء مَنْسِبٍ ، وتقدُّماً فى الشَّرف والإفضال ، وبَراعةً فى جميع الأحوال .

٣٧٦

وقال كَبِدُ الحَصَاةِ العِجلىُّ(٢) :

١ ــ أَلَا هَلَكَ المُكَسَّرُ يَالَ بَكْرٍ ... فأوْدَى البَاعُ والحَسَبُ التَّليدُ

٢ ــ أَلا هَلَكَ المُكَسَّرُ فاستراحَتْ ... حَوافِي الخيل والحيُّ الحَرِيدُ

(١) ل : « ويربين » .

(٢) يرثى يزيد بن حنظلة بن ثعلبة بن سيار ، ولقبه « المكسر » . وقد ضبط بكسر السين المشددة عند التبريزى ، وبفتحها فى الأصل ، ل . والمكسر هو الذى يقول يوم ذى قار :

أنا ابن سيار على شكيمه ... من فر منكم فر عن نديمه

وجاره وفر عن حريمه ... إن الشراك قد من أديمه

وكانت طائفة من طيىء أغارت على بكر بن وائل فأخذوا منهم أخائذ ، فأغار المكسر على طيىء فاكتسح أموالهم وأصاب منهم سبايا ، فأغار زيد الخيل على بنى تيم الله بن ثعلبة ، وقال :

إذا عركت عجل بنا ذنب غيرنا ... عركنا بتيم الله ذنب بنى عجل

افتتح كلامه بألاَ ، ثمّ أخذ يُعظِّم الخَطْبَ ويفظِّع الشَّأن ، فقال : مات هذا الرّجلُ فمات بموته الكَرَمُ العميم ، والشَّرف الصميم .

وقول « يالَ بَكرٍ » استغاثة ممّا دهاه . وقد مرّ القولُ فى هذه اللام والفَصلُ بينها وبين لام التعجُّب من قولك يالَبَكرٍ . ومعنى أَوْدَى : هَلكَ . والباعُ هاهنا الكَرَمُ . ويقال : باعَ الرّجُل يَبُوعُ بَوْعاً ، إذا مَدَّ باعه ، وتَبَوَّعَ . وكذلك تَبَوَّعَ البعير ، إذا مَدَّ ضَبْعَهُ . والحَسَبُ : الشَّرَف ، وأصله من الحِساب ، لأنَّ الحسيبَ يَعُدُّ لنفسه مآثر فتلك المآثر حَسَبٌ . كما يقال نَفَضْتُ نَفْضًا ، ثم يسمَّى المنفوضُ نَفَضًا . والتَّليد والتَّالد : ضدُّ الطَّريفِ والطَّارف . والتِّلاد : ما وُلِدَ عندك من مالِك . قالوا : وأصلُ هذه التَّاء الواو .

وقوله « ألاَ هَلَكَ المكسَّرُ » كرَّره لتفظيع الأمر . ومعنى « استراحت حَوَافى الخيل » وصفه بأنَّه يُبْعِد الغَزْو فلا يبقى على الخَيل وإن حَفِيت ، فلمَّا مَضَى نالت الرّاحةَ وتودَّعَتْ . وقال « حَوَافِى الخيل » على أن يصفَها بما كان آل أمرُها إليه بعد الغَزْو . وكذلك قوله « الحَىُّ الحريدُ » ، هو المنفرِد والمتباعد عن غيره . كأنَّه لا يَسْلَمُ عليه وإن حَذِر وتباعَد . ويقال : كوكبٌ حَرِيدٌ ، إذا طَلَعَ فى أفْق السَّماء متنحّيًا عن الكواكب . ورجلٌ حَرِيدُ المحلِّ ، إذا لم يُخَالِطِ النَّاس ولم ينزلْ معَهم . وقال :

* أمَّا بكلِّ كوكب حَرِيدِ[1] *

وقال آخر[2] :

* حَرِيدَ المحَلِّ غَوِيًّا غَيُورَا[3] *

(١) لذى الرمة ، كما فى ديونه ١٥٧ واللسان (حرد) .

(٢) هو الأعشى . ديوانه ٦٨ واللسان (حرد) .

(٣) صدره : * إذا نزل الحى حل الجحيش *

٣٧٧

وقال ابنُ أُهبانَ الفقعَسى (١)

يرثى أخاه :

١ ـ عَلَى مِثْلِ هَمّامٍ تَشُقُّ جُيُوبَهَا وتُعْلِنُ بالنَّوْحِ النِّسَاءُ الفــواقِدُ

٢ ـ فَتَى الحَىِّ أَنْ تَلقاه فى الحىِّ أو يُرَى سِوَى الحَىِّ أو ضَمَّ الرِّجَالَ المَشَاهِدُ

يقول : عَظُم الرُّزءُ بموت هَمَّامٍ فلا مخبأً للجزَع ولا مصطَبَر، ولا إسْرَارَ للالتياع ولا مُدَّخَر . وأنَّى يكون للسَّامع به مَعْدِلٌ إلى التجمُّل والتجلُّدِ ، وقد فُقِدَ به مَن يُستباح فى نُدْبته كلُّ محظور ، ويُستَجاز فى الرثاء له كلُّ مَذكور ، فلا مَنْعَ مِن شق الجيوب ، وصَدْع الأكباد والقُلوب ، وإعلان النِّياحة ، وامتداد المآتم فى الإعوال إلى كل غاية . وقوله « على مِثل هَمَّامٍ » يذكر المِثْلَ والمقصودُ نفسه لا غَيْرُ صيانة له ونزاهة . على ذلك قولُ القائل : مثلُك لا يَحْسُن به كذا معناه : أنت لا يَحْسُن بهِ ذلك ؛ ولكنَّ الغرض ما ذكرتُه ، وقوله « بالنَّوحِ » يراد به مصدر ناحَ . وقد يُراد بهِ فى غير هذا المكان النِّساء النائحات .

وقوله « فَتَى الحىِّ أن تلقاه » جعلَ له الفتوَّة والرِّياسةَ مسلَّمةً له فى كلِّ حال ، وعلى كلِّ وجه . ألاَ ترَى أنه قال : هو الفتى بينَ رجالِ الحىِّ وعند لقائك إيَّاه فيهم . فمعنى أنْ تلقاه ، هو الفتَى لأنْ تلقاه فى الحىِّ ، ووقتَ تلقاه فى الحىِّ . وقوله « أو يُرَى سِوَى الحىِّ » أى فى مكانٍ آخَر وفى قومٍ آخَرين .

(١) كلمة « الفقعسى » من ل والتبريزى .

بدلاً من الحىّ . لأنك إذا قلت : عندى رجل سِوَى زَيْدٍ ، معناه : عنـــدى رجلٌ مكانَ زيد ، وبدلاً من زيد .

وقوله « أو ضَمّ الرّجالَ المَشاهِدُ » معناه وهو الفتَى إذا حصَلَتْ وفودُ القبائلِ وألسنتُهم ورؤساؤهم فى مَجامع الملوك الأعاظم ، ومَشاهد السادة الأكابر .

وقوله « أو ضمّ » محمولٌ على المعنى . يريد : وهو الفتَى لأن ضَمّ الرّجال . والقِسمةُ بما رتّبه قد استوفت الأحوالَ كلَّها .

٣ — إذا نازَعَ القومَ الأحاديثَ لم يكُنْ عَيِيًّا ولا عِبْئًا على مَن يُقاعِدُ

٤ — طويلُ نِجادِ السيفِ يُصْبِحُ بَطْنُهُ خَمِيصاً وجادِيهِ على الزّادِ حامِدُ

وصفَه بالبَراعة وتمامِ الآلة ، وأنه سَهلُ الخُلق ، سهل الجانب ، يباسِطُ مفازِعَهُ فى الأحاديث ويطاوِلُه ، لا عِيَّ يقصِّرُ حديثَه ، ولا كِبْرَ يُنفِّرُ قَعيده ، فهو طيِّب المجلس ، خفيفُ الملتزَم ، وإذا تأمّلت خِلقتَه كان حسَنَ القَوام ، تامّ الجسم ، طويلَ حمائل السيف . هذا فى الحىّ ما أقام ، وفى السَّفَر تراه يُؤْثِر غيرَه بالزاد ، فبَطنُه خميص ، ومُجْتَديه والمعوِّلُ عليه حامدٌ له شكور . وأبلغُ مِن قوله « طويل نِجَاد السيف » قول مُسْلِمٍ :

يَطُولُ مع الرُّمْحِ الرُّدَيْنِيّ قامةً ويَقْصُرُ عنه طولُ كلِّ نِجَادِ

٣٧٨

وقال ابنُ عمّارٍ الأسَدِيُّ يرثى ابنَه :

١ — ظَلِلْتُ بجِسْرِ سابُورٍ مُقِيمًا يُؤَرِّقُنِى أَنينُـك يا مَعِينُ[١]

(١) رواه التبريزى : « بخُسْرِ سابور » وقال : « خسر سابور : من بلاد العجم نسب إلى خسر وسابور ، وهما ملكان من الفرس . ويصحف هذا فيقال جسر سابور » . وفى معجم البلدان : « خسرو سابور . والعامة تقول خسابور : قرية معروفة قرب واسط بينهما فراسخ ، معروفة بجودة الرمان » .

٣ — وناموا عَنْكَ واستيقَظْتَ حتَّى   دَعاكَ الموتُ وانقطعَ الأنينُ

أصل الظُّلول المُكْث فى النهار ، ولكنه يُتوسّع فيه فيُجعل للأوقات كلِّها . على ذلك قولُه تعالى : ﴿ وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ وذلك لا يختصُّ بالنهار دونَ الليل . وهذا الكلامُ اقتصاصُ حالِهِ معه فى تمريضه ، وتولِّيه منه ما تفرَّد به ، وفيه التشكِّى مما قاساه وتجرَّعَ الغُصَص عنه ، فيقول : بَقِيتُ مقيما بذلك المكانِ يُسهِرنى تألُّمك وأنينُك ، ونامَ كلُّ مَن صحِبتُه[1] فاستيقظتُ أنا متجرِّدًا فيك ، ومتحمِّلا ما أمكن تحمُّلُه عنك ، إلى أن أجَبْتَ داعيَك ، وأطلقْتَ من أَسْر الانتظار ناعيَك ، فانقطَعَ الأنين ، وجَدَّ منِّى لفقدك العَويل .

٣٧٩

وقال أبو وهبٍ العبسى[2] يرثى ابنَه :

١ — أرابِعَ مَهْلاً بَعْضَ هذا وأَجْمِلِى   ففى اليأسِ ناهٍ والعَزاء جميلُ

٢ — فإنَّ الذى تبكِينَ قد حالَ دُونَه   تُرابٌ وزَوراء المَقامِ دَحُولُ

سلك فيما قاله مسلكَ أوسِ بن حَجَرٍ ، حين قال :

أيَّتُها النَّفْسُ أَجْمِلِى جَزَعا   إنَّ الذى تحذَرِينَ قد وَقَعا

والمرأةُ المخاطَبة فيما نظن[3] أمُّ المَرْثِىّ . وقوله « مهلاً بعضَ هذا » انتصب بعضَ بإضمار فعل ، كأنه قال : رِفْقاً كُفِّى بعضَ ما تأتينَه ، وأحسِنِى العَزاء ، ففى اليأس ممَّن قد مضَى ناهٍ لكِ عن الإسراف فى الجزَع ، والإفراطِ فى الالتياع

(١) ل : « صحبنا » .
(٢) التبريزى : « وقال طريف بن أبى وهب العبسى » .
(٣) ل : « فيما أظن » .

والهَلَع ؛ والصبرُ جميلٌ كيفَ كان ، فإنَّ مَن تبكينه حجَزَ بينه وبيننا تُرابٌ مَهِيلٌ ، ولَحْدٌ قَعِيرٌ ، وحفرةٌ معوجَّة ، وهُوَّةٌ مَهُولة ، فلا طَمَع فى الالتقاء ، ولا فى الرُّجوع والانكفاء .

وقوله « وزَوراء المَقَام » أى معوجَّة الموضع الذى يُقام فيه منها . وقوله دَحُولُ ، يقال بئر دَحُولٌ ، أى ذاتُ تَلَجُّفٍ .

٣ — نَحَاهُ لِلَحْدٍ زِبرقَانٌ وحارِثٌ وفى الأرضِ للأقوامِ قَبْلَكِ غُولُ

٤ — فأىُّ فَتًى وارَوْهُ ثُمَّتَ أقبلَتْ أَكُفُّهُمُ تَحْثِى مَعًا وتَهِيلُ(١)

اللَّحد : ما حُفِر فى عُرْض القبر . ويقال لَحدتُ القبرَ وألْحدتُه ، وقبرٌ ملحود ومُلْحَدٌ ولاحِدٌ ، أى ذو لَحْدٍ . يقول : وَلَّاهُ للَحْدِ قبرِه هذان الرَّجُلان ، والعادةُ مستمرَّةٌ فى فَناء الأُمَمِ السالفة قبلَنا ؛ لأنَّ الأرض لا تخلو مما يَغتالُ الأحياءَ ويُهلِكُهم . والغُولُ : الهَلَكة ، ويقال : غالَهُ الموت . وقال الشاعر :

وما مِيتَةٌ إنْ مِتُّها غيرَ عاجزٍ بعَارٍ إذا ما غالتِ النَّفسَ غُولُها

والكلام فيه تأسٍّ وتَعَزٍّ ، بعد أن اقتصّ دفنَه ومَن تولَّى ذلك منه .

ثمَّ قالَ على وجه التعجُّب : أىُّ فتًى غَيَّبُوهُ ودفنوه ؟! يعظِّم أمرَهُ ويُفخِّم شأنه . وقوله « ثمَّتَ أقبلَت » التَّاء من ثُمَّتَ علامة التَّأنيث ، وهو تأنيث الخصْلَة . وكما تتَّصل هذه العلامةُ بالاسم نحو امرئٍ وامرأةٍ ، وبالصفة نحو قائمٍ وقائمة ، تتَّصل بالفعل ، والاسمُ والفعل هما موضعُها ، إلاَّ أنَّها فى الاسم يُبْدَل منها الهاء فى الوقف ، وينتقل الإعرابُ عن آخر الاسم إليها . وفى الفعل يُسكَّن إلَّا أن يُلاقِيَهُ ساكنٌ آخر ، ويكون تاءً فى الوصل والوقْف جميعاً . وفى الحرف

(١) التبريزى : « وأى فتى واروه » .

يقلُّ دخولُه ، وإذا دَخَل حُرِّك بالفتح ، نحو رُبَّتَ وثُمَّتَ ، وتبقى تاءً في كلِّ حال .

وقوله « تَحْثِي مَعاً » انتصب معاً على الحال . والحَثْيُ : أن تَرفع يدَك بالتُّرابِ أو غيرِه فتفرِّقَه في الجوّ . قال :

الحُصْنُ أَدْنَى لو تَأَيَّيْتِه مِنْ حَثْيِكِ التُّرْبَ على الرَّاكِب[1]

والحاثياء : تُراب يجمعُه اليربوع ، مِن هذا . والهَيْلُ : أن تجرُفَه من غير أن تَرفَع اليَدَ به . ويقال : هِلْتُ التُّرابَ وأَهَلْته . وفي المَثَل « مُحْسِنَةٌ فَهِيلِي[2] » ويقال : « جاء بالهَيْلِ والهَيْلَمَانِ[3] » أي بالشَّيء الكثير ، ويجوز أن يكون من هذا ، لأنَّ المعنى جاء بما اجتمع هَيْلاً لا كَيْلاً .

وفي الطريقة التي سَلَكها مِن اقتصاص الحال في الدَّفْن والحَثْي ، قد أحسنَ مَن قال :

ألم تَرَنِي أبني على اللَّيث بيتَه وأَحْثِي عليه التُّرْبَ لا أتَخَشَّعُ
كأنِّي أُدَلِّي في الحَفِيرةِ باسِلاً عَقيراً يَنُوء لِلقيامِ ويُصْرَعُ
تَخَالُ بَقَايَا الرُّوحِ فيه ، لقُرْبِهِ بعَهْدِ الحياةِ ، وهو مَيْتٌ مُقَنَّعُ

ألا تَراه كيف صَوَّرَ التَّهَيُّبَ منه والإعظامَ له في تلك الحالة .

٥ — وظَلَّتْ بِيَ الأرضُ الفضاءُ كأنَّما تَصَعَّدُ بي أركانُها وتَجُولُ

---

(١) ل : « لو تأييته » . ويروى : « من حثوك الترب » . انظر المقاييس (٢ : ١٣٧).

(٢) قال الميداني : « أصله أن امرأة كانت تفرغ طعاما من وعاء رجل في وعائها ، فجاء الرجل فدهشت ، فأقبلت تفرغ من وعائها في وعائه ، فقال لها : ما تصنعين ؟ قالت : أهيل من هذا في هذا ، فقال لها : محسنة — أي أنت محسنة — فهيلي . ويروى : محسنة ، بالنصب على الحال ، أي هيلي محسنة . ويجوز أن ينصب على معنى أراك محسنة . يضرب للرجل يعمل العمل يكون فيه مصيباً » .

(٣) « الهيلمان » بفتح اللام وضمها .

٦ – وشَدَّ إلىَّ الطَّرْفَ مَن كان طَرْفُه بِعَهْدِ عُبيــد الله وَهْوَ كَليلُ

يقول : دِيرَ بى لمَّا شاهدتُ من أمره ما أنكرت ، واسودَّت الأرضُ فى عينى فصارت عَلَى سَعتها كأنَّما جُمِعت جوانبها ، فأُصَعِّدُ فيها وهى تَجُولُ فلا تَهْدأ ، وتدور فلا تَقِرُّ .

وقوله « وشَدَّ إلىَّ الطَّرفَ » أى نظرَ إلىَّ بشِدَّةٍ وتحديق . وفى الحديث : قيل لأبى محذورة[1] وشَدَّ أذانَهُ : « أمَا خَشيتَ أن تنشقَّ مُرَيْطَاؤك[2] » . ويقال : شدَدْنا على يدِ فلان وشددنا يَدَهُ ، أى قوّيناه . والطَّرْفُ : تحريك الجَفن فى النَّظر . يقول[3] : شَخَص بصرُه فما يَطْرِفُ . وقوله « من كان طَرْفُه » كانَ هذه هى التَّامَّة . والمعنى مَن وقع طَرْفُه وحدَثَ طرفُه فى زمن عُبيد الله وبعهده وهو كليلٌ ، يريد : مَن كان لا يملأُ عينَه منّى فى حياته تَهَيُّباً صارَ ينظُر إلىَّ شَزْرًا ونظراً شديداً . وإنَّما قوّاه تَجاسُرُه وما حَدَث له وفى تقديره ، من مُنَّةٍ استَجَدَّها[4] ، وقُوَّةٍ عاوَدَتْهُ واسْتَظْهَرَ بها . وقولُه « وهو كليلُ » ، الواو واو الحال .

٧ – لَئِنْ كانَ عبدُ اللهِ خَلَّى مَكَانَهُ على حِينِ شَيْبِى بالشَّباب بَدِيلُ[5]

---

(١) هو أبو محذورة المؤذن ، واسمه أوس – أو سمرة – بن مِعيَر . علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم الأذان بالجعرانة . توفى سنة ٥٩ وقيل سنة ٧٩ ، الإصابة ١٠٠٨ من باب الكنى . والذى قال له هذا القول هو عمر بن الخطاب ، كما فى اللسان (مرط) .

(٢) المريطاء : ما بين السرة إلى العانة .

(٣) كذا فى ل . وفى الأصل : « يقال » .

(٤) المنة ، بالضم : القوة .

(٥) التبريزى : « قوله على حين شيبى . قال أبو هلال : لا يجوز إلا الخفض فى حين ، لأن الذى أضفت إليه حين معرب ، فإن أضفته إلى الفعل جاز الفتح والكسر . أما الكسر ، فلأنه مجرور وهو اسم منصرف ، وأما الفتح فلإضافتك إياه إلى شىء غير معرب ، فبنيته على الفتح لأن المضاف والمضاف إليه شىء واحد فبنيته لذلك » . وهذا المذهب مذهب البصريين ، وذلك أنهم يوجبون الإعراب فى الظروف المبهمة إذا أضيفت إلى جملة صدرها معرب . وأما الكوفيون فيرون الإعراب فى ذلك راجحاً والبناء مرجوحاً . انظر همع الهوامع (١ : ٢١٨) .

٨ ــ لقد بَقِيَتْ مِنّى قناةٌ صَلِيبَةٌ وإنْ مَسَّ جِلْدِى نَهْكَةٌ وذُبُولُ
٩ ــ وما حَالَةٌ إلا سَتُصْرَفُ حَالُها إلى حَالَةٍ أخرى وسوفَ تَزُولُ

اللام من « لَئِن » موطِّئة للقَسَم المضمَر ، وجوابُه « لقد بَقِيَت » . وخلّى مكانَه ، أى ترَكَ مكانَه من العُيون والقُلوب خاليا . ويجوز أن يريدَ ترَكَ مكانَه من دنياه لمَنْ شاء . على حينِ شَيْبِى ، أى فى وقتٍ استَبدلتُ بالشَّباب شَيبًا ، وبالقوَّة ضَعفًا ، لقد بَقِىَ منِّى إباءٌ شديد ، ولَجَاجٌ على مَنْ يقصِد اهتضامى بليغ ؛ فقَناتى صُلبَةٌ على غامِزِهَا ، ممتنِعةٌ على مُثَقِّفِها ، وإن كانت المصيبةُ نالت منّى فنَحَل جِسْمى ، وذَبُلَ جِلدى ، وحالَ لَوْنى ، وتَحَوَّلَ عمّا كان عليه أمرى وشأنى . وقد تقدَّم القولُ فى القَناة وطريقتِهم فى استعارتها وجَعْلِها مثلا . وقوله « وما حالَةٌ إلا سَتُصْرَفُ حَالُهَا » يُريدُ : وما خُطّةٌ إلا سَتَحُولُ صورتُها إلى صورةٍ أخرى ما بقيت وأُمْهِلَتْ ، ثمَّ مِن بَعْدُ سوفَ تَزُول فلا تَبْقَى ، وتَحُولُ عن المعهود فتَفْنَى . والمعنى : إنَّ شيئًا من أسباب الدُّنيا وأعراضها لا يدوم على حَدٍّ ، ولا يستمرُّ على طريق ووجه ، لكن يتسلَّط عليه التغيُّر والتبدُّل ، فيزداد عمَّا يكون عليه ، أو يتراجع هذا إذا سَلِم ، ومِن بَعدُ سوف يكون مُغيِّره مُهْلِكَهُ ، ومدَبِّرُهُ مُدَمِّرَهُ .

٣٨٠

وأنشد أيضاً[(١)] :

١ ــ وقاسَمَنِى دَهْرِى بَنِىَّ بِشَطْرِهِ فَلَمَّا تَقَضَّى شَطْرُهُ عَادَ فى شَطْرِى[(٢)]

(١) كذا فى النسختين . وعند التبريزى : « وقال العتبى » . والعتبى هذا هو محمد ابن عبد الله ، من آل عتبة بن أبى سفيان ، أديب أخبارى من أهل البصرة ، له شعر جيد وتصانيف حسان . قال ابن النديم : « كان العتبى وأبوه سيدين أديبين فصيحين » . توفى سنة ٢٢٨ . ابن النديم ١٧٦ .
(٢) التبريزى : « بنى مشاطراً » .

٢ — أَلاَ لَيْتَ أُمِّى لم تَلِدْنى ولَيْتَنِى ... سَبَقْتُكَ إذْ كُنَّا إلى غايَةٍ نَجْرِى

كانت رواية الناس بُرهةً « وقاسَمَنى دهرى بَنِىَّ بشَطرِهِ » مضافا ، « فلما تقضَّى شَطْرُه » بالضاد ، وارتفاع الشَّطر به ، فجاء شيخٌ لنا فرواه :

« بِشِطْرَةٍ * فلما تقضَّى شَطْرَهُ »

وكان يقول : هذه ضالّةٌ أنا وجدتُها ، وهو مِمّا حكاه أبو زيد من قولهم : بنو فلانٍ شِطْرَةٌ ، إذا كان ذكورُهم بعدد إناثِهم . يريد : ناصَفَنى . ومعنى « تَقَضَّى شَطْرَهُ » بلغ أقصاه واستوفاه . والذى أختارُه أن يُرْوَى « بشَطْرِهِ » على الإضافة . ومن الظاهر أن تقضَّى أحسَنُ من تَقَضَّى فى اللَّفظ ، وأبلَغُ فى المعنى . ومعنى بشَطرِهِ كأنَّ الدَّهرَ ادَّعَى أنَّه قَسيمُهُ فى بَنِيه وأنَّ له منهم الشَّطْر ، وهو النِّصف ، فقاسمه على ذلك ، فلمَّا استوفى حَظَّه أقبَلَ يأخذ من نصيبه الذى كان أقرّ له به ، وساهَمَهُ عليه . وإنّما اخترتُ بشَطْرِهِ على « شِطْرَةٍ » ، لأنَّ شِطْرَةً لم يُستعمَل فى الأنصباء والسَّهْم ، والشَّطْر فى النِّصف معروفٌ ومستعمَل ، ومنه شاة شَطُورٌ ، إذا يَبِسَ أَحَدُ ضَرْعَيها . وكذلك قولهم : حَلَبَ الدَّهرَ أشْطُرَهُ ، إذا جَرَّبَ الأمور ، وأصله من الحَلَب ، أى حَلَبَ شَطْرًا من الخيْر وشَطْرًا من الشَّرّ ، حتَّى تبصَّر وعَرَفَ مواضعَ النَّجاة من مواضع العطب والهَلَكَة .

وقوله « ألاَ ليت أُمّى لم تَلِدْنى » تمنَّى السلامَةَ بأن كان لا يُخلَقُ ولا يُخترَع فينجو من الابتلاء ، وملابَسة أنواع البلاء ، والتردُّدِ بينَ السعادة والشقاء ؛ وتمنَّى بعد أن أُوجِد وخُلِق ألاَّ يكون فاقِدَهُ والمُعزَّى فيه ، بل كان السابقَ له والمقدَّمَ عليه ، سيَّما[1] وهما جاريانِ إلى غايةٍ من العطبِ لا محيصَ عنها ، ولا مَفرّ منها .

(١) كلمة « سيما » ساقطة من ل .

٣— وكنتُ به أُكْنَى فأصبحتُ كلَّما كُنِيتُ به فاضَتْ دُموعى على نَحْرِى

٤— وقد كنتُ ذا نابٍ وظُفْرٍ على العِدَى فأصبحتُ لا يَخشَوْنَ نابى ولا ظُفْرِى

جَرَى على افتنانهم فى تحويل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب ، وصَرفِه عن العموم إلى تخصيص بعضهم بالذِّكر . ألاَ ترى أنه أخبَرَ فى قوله « وقاسمنى دَهْرِى بَنِيَّ » ثم قال « ليتنى سبقتُك » فرجع إلى خطابِ واحدٍ منهم ، ثم قال « وكنتُ به أُكنَى » فأخبَرَ به عن أحدِ بنيه . والمعنى : كنت اكتنيتُ به حُبًّا لذِكره واسمِهِ ، وتفاؤلاً ببقائه ودوامِه ، فبقى الاسمُ والشخص مفقودٌ ، فلا جَرَمَ أنِّى متى كُنيتُ به تَجَدَّد لى حُزنٌ أفاضَ عَبْرَتى ، وأغاض ماء عِيشتى .

وقوله « وقد كنتُ ذا نابٍ وظُفر على العِدَى » يُريد : إنِّى كنتُ تامَّ السِّلاح بهم ، موفور العَدَد والعُدَدِ بمكانِهم ، مخشيَّ الجانبِ ، لا يُطْمَعُ فى استنزالى عن حُجَّةٍ أركبُها ، أو شُبهةٍ أتعلَّقُ بها . وذِكْر النابِ والظُّفر مَثَلٌ ضرَبَه لسلاحه وآلاته التى كان يدفع الخصومَ بها ، ويَقهر الأعداء باستعمالها .

وقوله « لا يَخشَوْن نابى ولا ظُفرى » يريد لا ناب لى بعدهم ولا ظُفْر فيُخْشَى . فهو مِثْل :

* ولا تَرَى الضَّبَّ بها ينْجَحِرْ[1] *

١٣٨

وأنشد لامرأة ترثى أباها :

١— إذا ما دَعَا الداعى عليًّا وجدتُنِى أُرَاعُ كما رَاعَ العَجُولَ مُهِيبُ

٢— وكم من سَمِىٍّ ليسَ مثلَ سميِّهِ وإنْ كانَ يُدْعَى باسمه فيُجيبُ

---

(١) البيت لابن أحمر ، كما سبق فى حواشى ١٢٠ ، ٢٤٠ ، ٥٩٩ . وصدره :
* لا تفزع الأرنب أهوالها *

يقول: متى فَزِعَ أذنى دعاء داعٍ باسمٍ ولَدِى أُذعَر وأُقلق، كما يَذعَر الثَّكالَى مُهِيبٌ، وهو الداعى. والثَّكالَى تفزع لأدنى صيحةٍ ترْهَقُها، أو قَرْعةٍ تَصْدِمُ قلبَها. ويجوز أن يريدَ بالعَجُول ناقةً فقدَتْ ولدَها بنحرٍ أو موتٍ، فهى فى حنينها تَنفِر مِن أخفَض إهابة، وأدنى بَعْثٍ وإزعاجةٍ. ويقال لأمثالها من النُّوق: المعاجيلُ أيضاً. ووجدُهنَّ يَزيد على كلِّ وَجْدٍ. لذلك قال:

فما وَجْدُ أظْآرٍ ثلاثٍ رَوائمٍ ... رَأَيْنَ مَجَرًّا من حُوارٍ ومَصْرَعا[1]

يُذَكِّرْنَ ذا البَثِّ الحَزِينَ بِبَثِّهِ ... إذا حَنَّت الأُولَى سَجَعْنَ لها مَعا

بأوْجَدَ مِنِّى . . . . [2]

وقوله «وكم من سمىّ» يقول: ليس التوافُق فى الأسماء مما يوجب التَّعادلَ والتَّشابُهَ فى المسمَّيات، لأنَّ الأعلامَ لا تُفيدُ فى المسمَّيْن شيئاً، لكنَّ التَّشابه إنما يكون بالأوصاف الحاصلة، والمعانى المتماثلة. وإذا كان كذلك فالتشاركُ فى الأسماء وإن حصلَتْ به الإجابةُ عند الدُّعاء لا يوجِب تقارُبَ المسمَّيْنَ ولا تباعُدَهم.

٣٨٢

وقال رجلٌ من كَلْب[3]:

١ – لَحَى اللهُ دَهْرًا شَرُّهُ قَبْلَ خَيْرِهِ ... وَوَجْدًا بصَيْفِيٍّ أَتَى بَعْدَ مَعْبَدِ

(١) الأبيات لمتمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك، من قصيدة فى المفضليات رقم ٦٧، وأنشدها المبرد فى الكامل ٧٥٦ – ٧٥٧ ليبسك.

(٢) البيت بتمامه:

بأوجد منى يوم قام بمالك ... منادٍ بصيرٌ بالفراق فأسمعا

(٣) سبق البيت الثالث والرابع من هذه الحماسية فى الحماسية ٣٠١ ص ٨٩٥ – ٨٩٦. وقد سبق التنبيه على مثل لهذا التكرار فى الحماسية ٣٦٦.

٢ – بَقِيَّةُ إخوانى أتَى الدَّهْرُ دُونَهُمْ فما جَزَعى أمْ كيفَ عَنْهُمْ تجلُّدِى
٣ – فلو أنَّها إحـدَى يَدَىَّ رُزِيتُها ولـكنْ يَدِى بَانَتْ على إثْرِها يَدِى
٤ – فآليتُ أسَى بَعْدَهُمْ إثْرَ هَالِكٍ قَدِى الآنَ من وَجْدٍ على هَالِكٍ قَدِى (١)

لَحَى اللهُ : دعاء على الدَّهر الذى وصفه ، وقد تقدَّمَ القولُ فى حقيقته . ومعنى « شَرُّه قَبْلَ خَيْرِهِ » أى ما كان يُخْتَشَى من شرِّه فى الأحِبّة سبَقَ ما كان يُرتجَى مِن خيره بهم . ثمّ دعا على وَجْدٍ تَعجَّلَ له بصيفيٍّ بعد وجدٍ تقدَّمَ فى مَعبد ، كأنه كان لا يأمَن مِن أحداث الدهر فيما حُبِيَ وأُنعِمَ عليه فى إخوةٍ كرامٍ تناسَقُوا فى الوِلاد والوِداد ، وتَقابلوا فى جَوَازِ تعليق الرَّجاء بهمْ عند الحفاظ ، فيَخاف . وعلى ذلك كان يَغلبُ فى نفسه وعلى قلبه سلامتُهم وبقاؤهم ، حُسنَ ظنٍّ بالواهب ، وشِدَّةَ طمعٍ فى الموهوب ، فيسكن ولا يهاب . فلمَّا جرى الأمرُ على خلافِ ما ظَنَّ زَعمَ أنَّ شرَّ الدَّهرِ سبقَ خيرَه ، فدعا عليه . وقوله « ووَجدًا بصيفيٍّ » ، يقول : ولَحَى أيضاً جَزَعاً تجدَّدَ بصيفيٍّ بعد مَعْبَدٍ . وهذا تبرُّمٌ منه بمـا قاسَى من الدَّهر ، وكابَدَ من جَزَعٍ بعد جَزَعٍ . وفيه إشارة إلى معنى قولِ الآخَر (٢) :

* نُوَكَّلُ بالأَدْنَى وإنْ جَلَّ ما يَمْضِى (٣) *

وقوله « بقيَّةُ إخوانى » يجوز أن يكون المرادُ به خيارَ إخوانى ، كما يقال : فلانٌ من بقيّةِ الناس . ويجوز أن يريدَ به أنَّه كان فى إخوانه وُفورٌ ففَقَد منهم عِدَّةً ، وجعلَ يأنَس ببقيَّتهم ، فأتَى الدَّهرُ عليهم أيضاً . وقوله « فما جَزَعِى أم كيفَ عنهمْ تجلُّدى » كأنَّه كان لا يَعتدُّ بالجزعِ الواقع لهم ومِن أجلِهم ، لقُصوره عن الواجب ، ووقوعِه دونَ اللازم ، ولا يَطمع مِن نفسه فى مُسْكَةٍ

(١) فيما سبق : « فأقسمت لا آسى على إثر هالك »
(٢) هو أبو خراش الهذلى . انظر الحماسية ٢٦٢ ص ٨٧٦ .
(٣) صدره : * على أنها تعفو الكلوم وإنما *

يَتَعَلَّقُها ، أو سَلوةٍ يتكلَّفُهَا ، إذْ كان الخَطْبُ أعظمَ ، والرُّزءُ أمْلَكَ .

وقوله « فلو أنَّها إحدى يدىَّ رُزِيتُها » جواب لو محذوف ، يريد : لو أُصِبْتُ ببعضهم لسَهُل ما تَعذَّر أو خَفَّ ما ثَقُلَ ، ولكنهم تجاوبوا للدَّعوة ، وتَتابعوا فى النُّقلة ، ففَدَحتِ المُصيبة ، وجَلَّت الرَّزيئة[(١)] .

وقوله « فآليتُ آسى بعدَهم » يريدُ : حلفت لا آسَى بعدهم فى إثْرِ هالك ، فحذف لا ولم يَخَفِ التباسَه بالواجب ، إذْ كان للواجب صِيغَةٌ مفرَدة باللَّام وإحدى النُّونين الثَّقيلة أو الخفيفة ، وقد مرَّ مثله . والمعنى أنَّ خوفى كان فيهم ، وإذْ قد أُصِبْتُ بهم فإنِّى لا أجْزَعُ لفائتٍ ، فحسبى على الهُلاَّك ما بى حَسْبى . وقال « قَدِى » ولو قال : قَدْنى ، فأتَى بنون العماد ليَسْلم سكونُ قَدْ ، لجاز . قال الشَّاعر[(٢)] :

* قَدْنِىَ من نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِى *

فأتَى بهما جميعاً .

وقوله « إثْرَ هالك » انتصَبَ على الظَّرف .

٣٨٣

وأنْشَدَنى لأعرابىّ[(٣)] :

١ — لَحَى اللهُ دَهْرًا شَرُّه قَبْلَ خَيْرِهِ تَقاضَى فلم يُحْسِنْ إلينا التَّقاضيا

٢ — فَتًى كان لا يَطْوِى على البُخْلِ نَفْسَهُ إذا ائْتَمَرَتْ نَفْسَاهُ فى السِّرِّ خاليا

قد مرَّ القولُ فى بيان الدُّعاء على الدَّهر وشرحِه ، وفى معنى « شرُّه قبل

(١) ما سبق من شرح البيت فى ص ٨٩٦ أقوى وأشمل مما هنا .
(٢) هو حميد الأرقط . الخزانة (١ : ٤٥٣) . وقد سبق فى ٨٩٦ .
(٣) كذا فى ل . وفى الأصل : « وأنشد لابن الأعرابى » ، وهو تحريف . وعند التبريزى : « وقال أعرابى » .

خيره[1] » فأمّا قوله « تقاضَى فلم يحسِنْ إليَنا التَّقاضيا » فالمعنى طالبَنا بردِّ ما مَنَحَنا فلم يُحْسِنْ فى التقاضى ، لإسرافه فى الفعل ، واستعجالِه فى الرّدّ ، واعتسافِه فى الأخذ ، ولأنَّ العَوارِيَّ قد تُرْتَجَعُ ، والمَنائحَ قد تُسْتَرَدّ ، على وجْه لا يُخَلُّ فيه بالإجمال ، ولا يُفْسَدُ بهِ ما تقدّم من الإفضال .

وقوله « فتًى كان لا يَطوِى على البُخل نفسَه » يريد أنَّه إذا اجتـداه المُجتَدِى لا يَرَى لنفسه أن تطوِى على البُخل والإمساك ، والضَّنِّ بما فى يده عليه ، إذا ائتمرت نفساه ، أى تشاوَرَتْ فيما بينه وبينهما، فأقبلَتْ واحدةٌ تأمُرُ بالبَذْل ، والأخرى تُشير بالإمساك . ففى ذلك الوقتِ يصمِّم على ترك الائتمار للآمِرِ بالبُخل ويَخرُج من طاعته إلى العطاء والبذل . والائتمار : التَّشاوُر هاهنا . فأمّا قوله :

* ويَعدُو على المرء ما يأتمِرْ[2] *

فالمراد به ما يجعله من أمره وهمه ، فيقول : إذا ائتمر المرء لغيره ماليس برشاد فإنه يعدو عليه فيهلكه . وهذا كما قيل : من حَفَر مَهْوَاةً وقع فيها .

٣٨٤

وقال الأُبَيْرِد اليَرْبُوعِىّ[3] :

١ — ولمّا نَعَى الناعِى يَزِيدَ تَغَوَّلَتْ بِىَ الأرضُ فَرْطَ الحزنِ وانقطع الظَّهْرُ[4]

---

(١) انظر الحماسية السابقة .

(٢) لامرئ القيس فى ديوانه ٣ . وصدره :

* أحار بن عمرو كأنى خمر *

(٣) هو الأبيرد بن المعذر بن عبد بن قيس بن عتاب بن هرمى بن رياح بن يربوع بن مالك ابن حنظلة التميمى . شاعر بدوى من شعراء صدر الإسلام وأول دولة بنى أمية . الأغانى (١٢ : ٩ – ١٥) .

(٤) يزيد ، كذا وردت فى النسختين . والصواب « بريدا » كما فى الأغانى ورواية التبريزى . وبريد هذا هو أخو الأبيرد ، كما فى شرح التبريزى والأغانى ، وأمالى القالى (٣ : ٢) وتنبيه البكرى ٦٦ .

يقول : لمَّا خبَّر المخبِّر بموت يزيدَ تلوَّنت الأرضُ فى عينِى فابيضَّت تارةً واسودَّتْ أخرى ، لشِدَّة حُزنى ، وانقطَعَ ظهرى ، وتساقطت قُواىَ ، وقوله « تغوَّلت » اشتقاقُه من الغُول . وهم يعتقدون فى هذا القبيل من الجنِّ أنَّهم يتَصوَّرون بما شاءوا من الصُّوَر . ويقال : غوَّلَتْهُم الغُولُ وتغوَّلَتْهم ، إذا تَوَّهَتْهم . وانتَصب « فرطَ الحزن » على أنّه مفعول له . والكلام تَسَلٍّ مِن غِيَرِ الدَّهر وتأثير المصيبة فيه ، حتَّى انكسر قناةُ ظهرِه ، واختلَّ ما كان قويمًا من أمرِه .

٢ – عَسَاكِرُ تَغْشَى النَّفسَ حتَّى كأننى أَخُوسَكرةٍ دارَتْ بهامَتِه الخَمرُ[١]

العساكر : جمع عَسْكَرَةٍ ، وهى الشِّدَّة . قال :

* ظَلَّ فى عَسْكَرَةٍ من حُبِّها[٢] *

فيقولُ : غَشِيَتْ نفسى أنواعُ البلاء ، فزالَ عقلى لها ، حتَّى صرتُ كأنِّى سكرانُ دبَّت الخمرُ فى عَقْلِه ودِماغه ، حتى دارت هامتُه ، وزال تماسُكُه وقوَّتُه . ولك أن تروى : « دارَتْ بهامَتِيَ الخمر » لأنّه لمَّا كان أخو السَّكرَة نَفْسَه جاز أنْ يُجْعَل الضَّميرُ الراجع إليه ضميرَ نفسه . وهم يفعلون فى الصِّفات والصِّلات هذا . على ذلك قولُه :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ[٣] *

ولم يقل أمُّه ، وإن كان وجهَ الكلام . وإن رويتَ « دارت بهامته الخمرُ » فهو الصَّواب المختار .

(١) فى الأمالى : « أخو نشوة » .
(٢) البيت لطرفة فى ديوانه ٦٥ واللسان (عسكر) . وعجزه :
* ونأت شحط مزار المدكر *
(٣) لعلى بن أبى طالب ، كما سبق فى حواشى ١١٥ ، ٢٩٧ ، ٤٠٧ ، ٦١١ ، ٦٤٢ .

٣— فتًى إنْ هو استغنَى تخرَّق في الغِنَى وإن قَلَّ مالٌ لم يَضعْ مَتْنَه الفقْر[١]

٤— فتًى لا يَعُدُّ الرِّسْلَ يَقْضِي ذِمامَهُ إذا نزَل الأضيافُ أو تُنْحَرَ الجُزْرُ

البيت الأول يشبهه قولُ الهذلي[٢] :

أبو مالكٍ قاصرٌ فقْرَهُ على نَفْسِهِ ومُشِيعٌ غِناهُ

وقوله « تَخَرَّق في الغنى » أى تكرَّمَ في غِناه وتوسَّع . وهو تَفَعَّلَ من الخِرْق : الكَريم من الرِّجال ، الذى يتخرّق بالمعروف .

وقوله « وإن قَلَّ مالٌ » أراد مالُه . ومعنى « لم يَضَع مَتْنَه الفقر » أى لم يورِثْهُ إقلالُه تَخَضُّعاً وتَخَشُّعًا حتَّى تطأطأَ ظهرُه وانخفضَ شخصُه . وإن رويت « وإن قلّ مالاً » بالنَّصب جاز ، ويكون فاعِلُ قَلَّ ما استكنَّ فيه من ضمير الفتَى ، وانتصب مالاً على التمييز ، كقوله عزّ وجلّ : ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ .

وقوله « فتًى لا يَعُدُّ الرِّسْلَ يَقْضِي ذِمَامَهُ » يريدُ إذا نزل الأضيافُ به لا يَعُدُّ اللَّبَن قاضياً ذِمامَ قِرَاهم ، ولا كافياً فيما يجبُ عليه لهم ، حتى ينحَرَ جُزرَه ، ويوسِّع مطاعِمَهُ . وقوله « أو تُنْحَرَ » أو بدَلٌ من إلاّ ، وانتصب الفعل بإضمار أنْ[٣] .

(١) القالى : « وإن كان فقر لم يؤد متنه الفقر » . الأغانى : « فإن قلّ مالا لم يؤد متنه » . وبين هذا البيت وتاليه عند التبريزى :

وَسَامَى جَسِيماتِ الأمورِ فنالَها على العُسْرِ حَتَّى أَدْرَكَ العُسْرَ اليُسْرُ

(٢) هو المتنخل الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ٣٠) . وقد سبق هذا البيت فى ٥٥٢ .

(٣) أنشد التبريزى بعده هذا البيت :

أحقًّا عِبادَ اللهِ أنْ لستُ لاقياً بُرَيداً طَوالَ الدَّهرِ ما لَألأَ العُفْرُ

وقال : العفر الظباء التى تعلو بياضها حمرة . ولألأ الظبى : حرك ذنبه . ومنه تلألأ البرق ، إذا تحرك . ولما استعملوا ذلك فى البرق وكان مع إضاءة اشتقوا منه اسم اللؤلؤ .

٣٨٥

وأنشد لِسَلَمَةَ الجُعْفِىّ يرثى أخاه لأمِّه[1] :

١ — أقولُ لنفسى فى الخلاءِ أَلُومُها   لَكِ الوَيلُ ما هذا التَّجَلُّدُ والصبرُ

٢ — ألم تَعْلَمى أن لَسْتُ ما عِشْتُ لاقِيًا   أَخِى إذْ أَتَى من دُونِ أوصالِهِ القَبْرُ

يقول : إنّى أتسخَّط ما أقيمُه من الهَلَع فيمن أُصبْتُ به ، حتى أرجعَ إلى نفسى إذا خَلَوْتُ بها باللَّوم والتَّعنيف ، وأقولَ حَلَّ[2] بكِ الويلُ ، ما الذى يَظهَرُ منك من تكلُّف الجَلَد والصبر فيما بُليتُ به . أمَا علمتِ أنّى مدَّةَ عيشى لا أُلاقِى أخى وقد حَجَزَ بينى وبينه الثَّرَى ؟ !

وقوله « ألومُها » فى موضع الحال ، « ولكِ الويلُ » فى موضع المفعول لأقول ، و « ما هذا التجلُّد » استفهامٌ على طريق التقريع والتوبيخ . وارتَفَع التجلُّد على أنه عطف البيان . وقوله « ألم تعلمى » تقرير فيما هو واجب ، لأنّ حرف الاستفهام قد ضامَّهُ حَرفُ النَّفى ، والاستفهام غيرُ واجب فهو كالنَّفى ، ونفى النَّفى إيجاب .

وقوله « أن لَسْتُ » أنْ مخفَّفة من الثَّقيلة ، واسمه يجوز أن يكون ضمير الرّجل ، أراد أنّى لستُ ، ويجوز أن يكون ضمير الأمر والشأن . و« ما عشت » فى موضع الظَّرف . و« لاقيا » خبر ليس . و« إذ أتى » ظرفٌ له . والأوصال :

---

(١) هو سلمة بن يزيد بن مشجعة بن المجمع بن مالك بن كعب بن سعد بن عوف بن جريم بن جعفى . وجعفى : حى من مذحج نزل الكوفة . وكان ممن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدث عنه . الإصابة ٣٣٩٨ . وذكر ابن حجر أنه يرثى أخاه شقيقه قيس بن يزيد . وذكر القالى فى الأمالى (٢ : ٧٣) أنه أخوه لأمه كما قال أبو تمام ، واسمه عنده : « قيس بن سلمة » ، وصحح البكرى فى التنبيه ٩٧ أن أخاه لأمه هو « مسلمة بن مغراء » .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « جل » بالجيم المعجمة .

جمع وَصْــلٍ ، وهو اسمٌ للأعضاء المتّصلِ بعضُها ببعض . ويقال : وِصْلٌ ووَصل ، بالفتح والـكسر .

٣ــوكنتُ أرى كالموْتِ من بينِ ليلةٍ فـكيفَ ببَيْنٍ كان ميعادَه الحَشْرُ

٤ــوهَوّنَ وَجْدِى أنّى سوفَ أغتَدِى على إثره يوماً وإن نُفِّسَ العُمْرُ

قوله « كالموت » جعل الـكاف وحدَه اسماً . وكان أبو العبّاس يتبع أبا الحسنِ الأخفشَ فى جواز وُقوعه اسماً فى غير الضّرورة ، وأنشَدَ :

أتَنْتَهُونَ ولن يَنْهَى ذَوِى شَطَطٍ كالطَّعْنِ يَهلِكُ فيه الزَّيتُ والفتُلُ[(١)]

ويجعل الـكاف فى موضع فاعل يَنْهى . وسيبويه لا يَرَى ذلك إلاّ فى الضرورة ، كأنه قال : أرى مثل الموت . ولا يمتنع أن يكون « كالموت » صفةً لموصوف محذوف ، كأنه قال : وكنتُ أرى شيئاً أو أمراً مثلَ الموت .

وقوله « مِن بين ليلةٍ » مِن دَخَل للتبيين[(٢)] ، والمعنى : كنتُ أَعُدُّ مفارقتى له فى ليلةٍ كالموت ، أو أقاسى مثلَ الموت مِن أجلِ مفارقةِ ليلةٍ منه ، فـكيف يكون حالى وقد فرّق بينى وبينه بَيْنٌ موْعِدُ الالتقاء بعدَه يومُ القيامة . ومثل قوله « من بين ليلةٍ » قوله تعالى : ﴿ فاْجتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ . ولك أن تجعل مِن بين ، فى موضع المفعول لأرى ، وتجعل مِن زائدةً على طريقة الأخفَش فى جواز دخوله زيادةً فى الواجب ، فيكون التّقدير : كنتُ أرى بينَ ليلةٍ ، أى فراقَ ليلةٍ ، كالموْت . فيكون كالموت فى موضع المفعول الثانى . وقوله « كان ميعاده » وَضَع الماضى موضعَ المستقبل أى يكون ميعاده ، والهاء يرجع إلى البَين ، كأنه وعَدَهُ الزّوالَ والالتقاءَ معه مِن بعده فى يوم الحشْر .

وقوله « وهَوّن وَجْدِى أنّى » موضع أننى رَفْعٌ ، لأنه فاعل هَوّن

---

(١) البيت للأعشى من لاميته المشهورة . ديوانه ص ٤٨ .

(٢) فى الأصل : « للتنوين » . صوابه فى ل .

والمعنى : خَفَّفَ وجْدِي وقَلَقِي أنني ذاهب في إثْرِه ، ومُخَلٍ مكانى فى الدنيا بَعْدَه يوماً ، وإن أُطِيل عُمْرِى ، ونُفِّسَ فى أَجَلِي .

٥ — فتًى كان يُعْطِي السَّيفَ فى الرَّوْعِ حَقَّهُ   إذا ثَوَّبَ الداعى وتَشْقَى به الجُزْرُ

٦ — فتًى كان يُدْنِيه الغِنَى مِن صَدِيقِهِ   إذا ما هو استَغْنَى ويُبْعِدُه الفَقْرُ

يريد أنّ المرثىَّ كان إذا حضر الوَغَى تصوَّر للسيف عليه حَقًّا ، فجاهَد نفسَه فى توفير ذلك الحقِّ عليه إذا أعاد الداعى وكرّر : يال فلان !! مراراً . والتَّثويب فى الأذان معروف . وقوله « وتَشْقَى به الجُزْر » يريد وقتَ نُزول الأضياف ، وأنه كان لا يُرْضيه أقربُ المنازل فى نُزْل الضَّيف[1] ، بل كان يرتقى إلى أعلاها .

وهذا المعنى قد مضى قريباً ، وكذلك البيت الثانى قد مضى مثلُه[2] . ومعنى يُدْنيه الغِنَى من صديقه أنَّه كان يَعُدُّ التفرُّد بالغِنَى لُؤماً ، وكان يُشْرِك أصدقاءه فيه ، كما يَعُدُّ فى حال الإضافة والفَقر ملابسَةَ الأصدقاء كالتَّعرُّض لخيرهم ، فيَبْعُدُ عنهم .

٣٨٦

وقالت عَمْرَةُ الخَثْعميّة ، ترثى ابنَيْها :

١ — لقَدْ زَعَمُوا أنِّى جَزِعْتُ عليهما   وهَلْ جَزَعٌ أَنْ قلتُ : وا بأباهما

الزُّعْم يُستعمَل كثيراً فيما لا حقيقةَ له ، لذلك قالت فيما حكَتْ عن القوم : زعموا . كأنَّها لما استَشْرف[3] النّاسُ جزَعَها وهَلَعَها ، فتذاكروا أمْرَها فيما بينهم أظهرَت الإنكارَ والتَّكذيبَ فيما توهّموه ، فقالت : وهل جزَعٌ أنْ قلتُ وا بأباها ،

(١) النزل بضمة وبضمتين : ما يهيأ للضيف أن ينزل عليه .

(٢) انظر الحماسية السابقة .

(٣) فى النسختين : « استشرف » بالشين المعجمة بعد التاء ، والوجه ما أثبت .

تُرِى أنَّ ما تكلَّفَتْه من التَّوجُّع لهما على قدر قول القائل : وا بأباها . ولفظةُ « وا » تألُّم وتَشَكٍّ ، وهي حَرْفٌ للنُّدْبة . و « بأباها » أرادت : بأبى هما ، ففرَّ من الكسرة وبعدها ياءٌ إلى الفَتحة فانقلبَتْ ألفاً . على ذلك قولهم : بادَاةٌ وناصَاةٌ ، في باديةٍ وناصيةٍ . وقولها « وهل جَزَعٌ » ارتفع جزَعٌ على أنَّه خبرٌ مُقدّم ، و « أَنْ قلتُ » في موضع المبتدأ ، تقديره هل جزَعٌ قولى وا بأباها ، وارتفع هما من وا بأباها على المبتدأ ، وبأبا خبره . هذا على طريقة سيبويه ، وعلى مذهب الأخفش يرتفع بالظَّرف . ورواه بعضهم : « بأنا هما » ، أى أفديهما بنَفْسى وأنا هو ضمير المرفوع ، وقد وقع موقعَ المجرور ، وكقولهم : هو كَأَنَا ، وأنا كَهُوَ .

٣ ــ هُما أَخَوَا فى الحرْبِ مَنْ لا أَخَا لَهُ إذا خَافَ يَوْمًا نَبْوَةً فَدَعَاهُمَا

ألمَّتْ فى هذا بقوله[1] :

* إذا لم أجْنِ كنتُ مِجَنَّ جانِ[2] *

تقول : كانا يَنْصُران مَن لا ناصر له من القوم إذا خَشِىَ نَبوة من نَبَوات الدهر يَوْماً فاستغاثَ بهما . وقولها « أخوَا فى الحرب مَن لا أخا لَهُ » فَصَلَتْ فيه بين المضاف إليه والمضاف بالظرف ، فلذلك حذفتِ النون من أَخوانِ ، فهو كقوله :

كأنَّ أصواتَ مِنْ إيغالِهنَّ بنا أَوَاخِرِ المَيْسِ أصواتُ الفراريجِ[3]

ففَصَل بقوله « من إيغالهن بنا » . وقولُها « مَن لا أخَا له » نَوَتِ الإضافة ثم أدخلت اللام تأكيداً للإضافة التى قصدَتْها ، لذلك أثبتت الألفَ من

(١) هو سوار بن المضرب السعدى . الحماسية ١٨ ص ١٣٣ .

(٢) صدره : * وأنى لا أزال أخا حروب *

(٣) البيت لذى الرمة فى ديوانه ٧٦ واللسان (نقض) . ويروى : « إنقاض الفراريج » .

لا أخا ، لأنّ هذه الألفَ لا تثبُت إلاّ فى الإضافة إذ كان فى الإفراد يُقالُ أخٌ . وخَبَر لا محذوف كأنها قالت : لا أخا موجودٌ أو فى الدنيا . ولو قالت : لا أخَ له ، لكان له خَبراً للا ، على قولهم : لا أبَ لك ، ولا أبَا لك . وإنما قلت أدخَلَتِ اللامَ لتوكيد الإضافة التى قصدَتْها ، لأن الإضافةَ غيرُ معتدٍّ بها هنا ، فلا تُعَرِّفُ الأخَ ، واللام تُبْطِلُ الإضافةَ فى الأصل . وهذه اللام لا تدخل إلاّ فى بابَيْنِ : أحدهما باب النفى ، وهو ما نحن فيه ، والثانى باب النِّداء فى مثل قولهم :

* يا بُوسَ للحَرْب(١) *

لأنّ المراد : يا بُوسَ الحربِ .

٣ — هُمَا يَلبَسانِ المَجْدَ أحْسَنَ لِبْسَةٍ   شَحِيحانِ ما اسطَاعَا عليـهِ كِلاهُما

وصفتهما بأنهما يكتسبان المجد ويستمتعان به أحسنَ استمتاعٍ وأجملَ اكتساب ، وأنهما يَضِنَّان به حيثُ ظهر وطَلَع فلا يترُكانِه لأحدٍ ما داما يستطيعان كَسبَه والفوزَ به . وانتصب « أحسنَ لِبْسة » على أنه مصدر . وارتفع « شحيحان » على أنه خبر مقدم ، والمبتدأ « كلاهما » ، و « ما اسطاعا » فى موضع الظَّرف واسم الزَّمان محذوف معه . واسطاعَ منقوص عن استطاع . وتقدير الكلام : كلاهما شحيحان به ما اسطاعا عليه ، أى ما قدَرا عليه . ومعنى « يلبسان المجد » ، أى يتملَّيانِه ويُمتَّعانِ به . قال :

لبِسْتُ أبى حتّى تَملَّيْتُ عيشَه   وَبَلَّيْتُ أعمامى وبلَّيتُ خاليا

٤ — شِهابانِ مِنَّا أُوقِدَا ثُمّ أُخْمِدَا   وكانَ سَـنًا لِلْمُدْلِجِينَ سَنَاهُما

ارتفع « شهابان » على أنه مبتدأ ، وجاز الابتداء به لكونه موصوفاً بمنّا ،

(١) قطعة من بيت فى الحماسية ١٦٧ . وهو بتمامه :

يا بوس للحـرب التى   وضعت أراهط فاستراحوا

وأُوقِدَا فى موضع الخبر . والمعنى : أنهما لم يُمْهَلَا للتَّمام والكمال ، بل كانا كنارين أُوقِدَتا ثم أُتبعتا بالإخماد . والكلام توجُّعٌ وتلهُّف . وقولها « وكانَ سَنًا للمدلجين سَناها » تريد نارها الموقَدَةَ للضِّيفان وللطُّرّاق بالليل ، وأنهم كانوا يستضيئون بها فيرِدُون فناءه مستمسكِين أرماقَهم به ، ومتخلِّصين من سلطان البَرد والجوع ومشقَّة السَّفرِ إليه . ولا يمتنع أن يرتفع شِهابان على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هما شهابان .

٥ – إذا نزَلَا الأرضَ المَخُوفَ بها الرَّدَى يُخَفِّضُ من جأشَيْهِمَا مُنْصُلَاهُمَا

تصفهما بالصبر فى دار الحِفاظ ، وأنَّهما إذا نزلا مكانًا مَخُوفًا لا يُؤْمن الردَى فيه يُسكِّن من قلقهما سيفاهما . وهذا فيه إعلامٌ بأنَّهما كانا لا يعتمدان فى الشِّدة تنزل بساحتهما على غيرهما ، وأنَّهما كانا يتحمَّلان الأثقالَ بأنفسهما ، فلا صاحب لهما يُتَّكَل عليه ، ولا مُعين يُسْكَن إليه ، إلاَّ السيف . فهو كقول الآخر[1] :

* ولم يرْضَ إلا قائمَ السيف صاحبًا[2] *

٦ – إذا استَغْنَيا حَبَّ الجَمِيعُ إليهما ولم يَنْأَ عن نَفْعِ الصَّـديقِ غِناهُمَا

تقول : وإذا نالا الغِنَى وسَاعَدهما الحالُ حَبَّبَ جماعةَ الحىِّ والمتعلّقين[3] بحبلهما ، فازداد توفرًا عليهم ، وتفقدا لهم ، ولم يَبْعُد غناهما مِن انتفاع الغرباء والأجانب ، ومن ينتسب بودٍّ وصداقة إليهما . فقولها « حَبَّ الجميع إليهما » مقصورٌ على النَّسب ، وآخر البيت مصروف إلى الصَّديق الغريب . وسَاغَ أن يُرَاد بالجميع الحىُّ كلُّهم لاجتماعهم حولَه . والجميع والجمع : المجتمِعون . والجُمَّاع : المتفرِّقون . قال :

---

(١) هو سعد بن ناشب . الحماسية ١٠ ص ٧٤ .

(٢) صدره : * ولم يستشر فى أمره غير نفسه *

(٣) ل : « والمعتلقين » .

* من بين جَمْعٍ غَيْرِ جُمَّاعِ (١) *

٨— إذا افتَقَرا لم يَجْثُما خَشْيَةَ الرَّدَى ولم يَخْشَ رُزْءًا منهما مَوْلَيَاهُما

تريد أنَّهما إذا مسَّهما الفقر، وضاقَ بهما الأمر، لم يَلزما بيوتَهما تاركَين للغزوِ والتَّجوال فى طلب المال، خَوْفاً من الهَلاك، ومَيْلاً إلى الرَّاحة عن التَّسيار لـكنَّهما يَسْعيان للاكتساب، ويتحمَّلان من المشاقّ ما ينالان به مُنَاهُمَا، أو يقيان به العُذْر [عند(٢)] مَن رَاعَى أحوالَهما. وقولها «ولم يَخْشَ رُزْءًا منهما مولياها» تريد أنَّهما لا يستحملان مَوْلَيَيْهما عِبْئًا من فقرهما، ولم يَضَعا أنفسَهما فى موضع الارتزاء منهما، وجَبْرِ الحالِ بمالهما ويَسارِهما. وهذا كقول الآخر(٣):

أبو مالكٍ قاصِرٌ فقـــرَه على نفسه [ومشيعٌ غِناه(٤)]

وقولُها «لم يجثُما» مِن جَثْم الطائر. وهم يُسَمُّون مَن رَضِيَ بفقره وصار لبيته كبعض أحلاسه: الضاجع والضُّجْعِيّ(٥)؛ لأنَّ الضَّجْعَةَ خَفْضُ العيش. وإلى هذا المعنى يشير القائلُ فى ذمِّه قوماً:

أولئكَ مَعْشَرٌ كبنات نَعْشٍ ضواجِـعُ لا تَسِيرُ مع النُّجومِ(٦)

يُرْوَى: «رَوَاكد». وانتَصَب خشيةَ الرَّدَى على أنَّه مفعول له. وقولها «مولياها» ليس يراد به التَّثنية، بل المراد به الـكثرة. وعلى ذلك قولهم: لبَّيْك وسَعْدَيك.

(١) لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى فى المفضلية ٧٥. وصدره:

* حتى تجلت ولنـــا غاية *

(٢) التكملة من ل.

(٣) هو المتنخل الهذلى. ديوان الهذليين (٢ : ٣٠).

(٤) التكملة من ل وديوان الهذليين.

(٥) بضم الضاد وكسرها.

(٦) انظر الأزمنة والأمكنة للمرزوقى ٣٧٢. وفى اللسان (ضجع):

أولاك قبائل كبنات نعش ضواجع لا يغرن مع النجوم

٨ ــ لَقَدْ سَاءَنِى أَنْ عَنَّسَتْ زَوجتاهما ✻ وأَنْ عُرِّيَتْ بَعْـدَ الوَجَى فَرَساهُما

٩ ــ ولَنْ يَلْبَثَ العَرْشانِ يُسْتَلُّ منهما ✻ خِيَارُ الأَواسى أن يَمِيلَ غَمَاهُمَا

يقال : عَنَسَتِ المرأة وعنَّست بالتشديد ، إذا قعدتْ بعد بلوغ النِّكاح أعواماً لا تُنْـكِح . ويستعمل فى الرَّجُل أيضاً . قال :

✻ حتَّى أنْتَ أشْمَطُ عَانِسُ ✻

كأنَّهما كانا تزوَّجا بامرأتين ولم يحوِّلاها[1] ، ولمَّا اتَّفق عليهما ما اتَّفق بقِيَتا على حالِها زُهْداً فى النِّكاح بَعْدَهما ، وعِلْماً بألاّ اعتياضَ منهما . فتقول : زاد ذلك فى مَسَاءَتى ، وزاد فيها أيضاً تَعْرِيَةٌ من الإسراج والإلجام ، بعد أن كانا يُستعمَلان على ما يَعترِضُ لهما من الحَقِّ فى غَزْو الأعداء وغيره . وإنَّما ساءها ما حَصَل من الأَمَنَةِ فى الجوانب التى كانا يقصدان ويُوقعان بها بعد الرِّقبة الشَّديدة ، وما عُلِمَ[2] أنَّهم وجَدُوه ولَزِموه من الشَّماتة وإظهار الفَرَح والمسرَّة .

وقولُها : « لَن يلبثَ العَرشانِ » جعلَتْ لِـكلٍّ واحدٍ عَرْشاً به كان يثبت ويقوم ، فيقول : العَرش إنما بقاؤه بعُمُده ، فإذا انتُزِع خيارُها منه فَلَنْ يلبثَ أن يميل سَقفُه فَيسقُط . وهذا مَثَلٌ ضربَتْهُ لعِزِّ ذويهما ، وإذْ قد مَضَيا فيُوشِك أن يتثلَّمَ وينخفض . والأواسى : جمع آسِيَة ، وهى الأساطين . والغِماء ، بكسر العين والمَدّ : سَقف البيت . والغَمَا بالفتح والقصر لغة .

---

(١) كذا وردت هـذه الكلمة فى النسختين وعند التبريزى ، ولم يتضح لى ما المراد بالتحويل .

(٢) ل : « وما علمت » .

٣٨٧

وقال الآخر :

١ ـ صَلَّى الإِلٰهُ على صَفِيٍّ مُدرِكٍ   يومَ الحسابِ ومَجمعِ الأشهادِ

٢ ـ نِعمَ الفتَى زَعَمَ الرفيقُ وجارُهُ   وإذا تَصَبْصَبَ آخِرُ الأزوادِ

يُرْوَى : « ومَجْمَعِ الأشهاد » تجرُّه وتعطفه على الحساب ، ويكون مَجْمَعٌ في معنى جَمْعٍ . ويُرْوى « ومجمعَ » بالنصب ، ويكون ظرفَ مكانٍ ومعطوفاً على يومَ الحساب . والصَّلاة من الله تعالى : الرَّحمة . والمراد : رَحِمَ اللهُ مُدْرِكاً صفيًّا في الودّ ، رحمةً تأتي مِن وَرَاءِ ذنوبه ، وتُعَفِّي على سَوَابِق فَرَطاتِه يومَ القيامة ، إذا حَضَر الشُّهودُ ووُضِعَ الحسابُ على تحَاكُمِ الخصوم ، وقامَ الجزاء من الثَّواب والعِقاب على المطيعين والعُصَاة .

وقوله : « نعم الفتى» الممدوح محذوف ، كأنَّه قال نِعمَ الفتى مدرِكٌ . قال : وليست هذه الشَّهادة مِنِّى ومن جهتى ، ولا من جملةِ مَدْحِي ، على عادة الناس فى تأبين الهُلَّاك ، ولكنَّها مما أدَّاه وكثَّره رفقاؤه فى السَّفَر ، وجيرانُه فى الحَضَر ؛ فهي حكايةُ ألسنتهم ، ومُؤَدَّاة قضيَّتهم . وقولُه « وإذا تَصَبْصَبَ آخِرُ الأزواد » معنى تصبصب قَرُبَ من النَّفاد . يريد : ونِعْمَ الفتى هو فى ذلك الوقت ، لأنَّه يؤثِر غيرَه بالطُّعْم على نفسِه . وتلخيص الكلام : نِعم الفتى مُدْرِكٌ فى المُرَافَقةِ والمجاوَرَة ، وعند نفادِ الزَّاد . والأشهادُ : جمع الشُّهود . واكتفَى زَعَمَ بالفاعل فى اللفظ ، لأنَّ مفعوليه دَلَّ الكلام عليهما .

٣ ـ وإذا الرِّكابُ تروَّحتْ ثم اغْتَدَتْ   حتّى المَقيلِ فلم تَعُجْ لِجِيَادِ

يريد : ونعم الفتى هو إذا وَصَلت الرِّكابُ السَّيرَ بالسُّرَى ، فلم تَعْطِفْ لانحرافٍ وازورار ، ولم تعرِّج لإصلاح شأن ، لكنَّها استمرَّتْ وجَدَّتْ لِمَا أَزْعَجَهم وبَعَثَهم على استدامة التَّشمير ، وتعجيل الحركةِ وتَرْكِ التَّقصير ، وطىِّ المنازل ، واستقصار المَرَاحل . ومعنى تَرَوَّحَتْ راحتْ . والرَّوَاحُ : العَشِىُّ . وراحَتِ الإبلُ رَوَاحًا . والإراحة : رَدُّ الإبلِ عَشِيًّا من المَرْعَى . يقال : سَرَحْتُها بالغَداة(١) وأَرَحْتُها بالعشىّ . ومعنى اغتدَتْ حَتَّى المقيلِ : سارت غُدُوًّا إلى وقت القيلولة . أىْ كانَ فى هذه الحالةِ يأتى بما يستحقُّ به المَدْحَ من أصحابِه ورُفقائه ، لكرمِ صَحَابتِه ، وحسن رِفَاقَتِه . ومعنى « لم تَعُجْ » لم تَعْطِف . يقال : عاجَ عَوْجًا وعِيَاجا . والحِيَاد : الإعراض عن السَّير للنُّزولِ . والفعل منه حَادَ . ويقال : مالكَ عن هذا مَحِيدٌ وحَيَدانٌ وحِيَادٌ .

٤ — حَثُّوا الرِّكابَ تَؤُوبُها أنضاؤها فَزَهَا الرِّكابَ مغنِّيانِ وحادِ(٢)
٥ — لَمَّا رأَوْهُم لم يُحِسُّوا مُدْرِكاً وَضَعُوا أناملَهم على الأكبادِ

وصَفَ وُرَّاد فِنائه بعد فَنائه ، وزُوّارَ قبرِهِ طلباً لِحبائه ، فيقول : استَعجلوا رواحلَهم وحضُّوها على قَصْدِه والوصول إلى بابِه ، ومهازيلُها التى قد أثَّر بُعدُ الشُّقَّة فيها فأنضاها ، تؤوبُ إليها إذا نزلت ، أى تسير النهار كلَّه حتى يتصل سيرُها بالليل ، طلباً للتَّلاحُقِ معها ، فاستخَنَّها ونَشَّطَها مغنِّيانِ بالحُداء ، وسائقٌ يحدوها ، حتى وصلوا ، فلمّا رأوا أنفسَهم قد فَقَدَتْ مُدْرِكاً ، يعنى المرثىّ ، أمسَكوا على أكبادهم خوفاً من تصدُّعها ، إذْ لو أدركوه حيًّا لم يكن بينهم وبين الغِنَى إلا ما لا يُعَدّ حاجزاً ولا مانعاً .

(١) سرحت الماشية تسرح سرحا وسروحا ، وسرحتها أنا سرحا ، يتعدى ولا يتعدى .
(٢) التبريزى : « تؤمها أنضاؤها » . قال : « ويروى : تؤودها »

إن قيل: لِمَ جاز لمَّا رأوهم، والفاعلون هم المفعولون، وأنت لا تقول ضَرَبْتُنى ولا ضَرَبْتَك، بل تأتى بدل ضمير المنصوب بالنّفس، تقول: ضربتُ نفسى وضربتَ نفسَك؟ قلتَ: إنّ أفعالَ الشكِّ واليقينِ جُوِّز فيها ذلك. تقول: حسِبْتُنى ورأيتَكَ وعلمتُنى، لمخالفتها سائرَ الأفعال فى دخولها على المبتدأ والخبر.

وقوله «تَؤُوبها أنضاؤها» فى موضع الحال من الرِّكاب.

٣٨٨

وقال الشَّمَّاخ[١]

فى عمرَ بنِ الخطَّاب رضى الله عنه[٢]:

١ – جَزَى اللهُ خَيْرًا من أَميرٍ وَبارَكَتْ ... يَدُ اللهِ فى ذاكَ الأديمِ الممزَّقِ[٣]

٢ – فَمَنْ يسْعَ أَوْ يَرْكَبْ جَنَاحَىْ نَعَامَةٍ ... لِيُدْرِكَ مَا قَدَّمْتَ بالأَمْسِ يُسْبَقِ

يقول: جزَاه الله عن الرَّعيَّة خيراً من بين الأُمراء، وباركتْ نعمةُ الله — تعالى جَدُّهُ وإحسانُهُ — فى أديمِه الممزَّق، يعنى جلدَ عُمَرَ رضى الله عنه، حينَ طعنه أبو لؤلؤة فَتَى المُغِيرةِ بْنُ شُعْبَة. وأصل البَرَكة النَّماء والثَّبات. ومنه بَركَ البعيرُ بُرُوكاً. وبَرَاكاءُ القِتال: حيث يَبْترِكون، أى يَجْثُون على رُكَبِهم.

(١) هو معقل بن ضرار بن سنان بن أمية بن عمرو بن جحاش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة ابن سعد بن ذبيان. والشماخ لقب له. والشماخ مخضرم ممن أدرك الجاهلية والإسلام. وهو أحد من هجا عشيرته وأضيافه ومن عليهم بالقرى. الأغانى (٨ : ٩٧ – ١٠٤) والمؤتلف ١٣٨ واللآلئ ٥٨ – ٥٩ والخزانة (١ : ٥٢٦) والشعراء ٢٧٤ والاشتقاق ١٧٤، وكتب الصحابة.

(٢) يزعمون أن الجن ناحت على عمر قبل أن يقتل بهذه الأبيات. الأغانى. وقال التبريزى: «وقال أبو رياش: الذى عندى أنه لمزرد أخيه. وقال أبو محمد الأعرابى: هو لجزء ابن ضرار أخيه». وقد نسبها الجاحظ فى البيان (٣ : ٢٦٤) إلى مزرد بن ضرار.

(٣) البيان: «عليك السلام من إمام». الأغانى: «عليك سلام من أمير».

وقوله : « فمن يَسْعَ » يريد أنّ شأوَه فى الإيلة واستصلاح الرّعيّة وتفقُّد مصالِحِهم لا يُدْرَك ، فمن أرادَ بلوغه والارتقاء إلى غايته بقىَ حسيراً مسبوقاً ولو ركبَ جَناح النعامة . يريد : لو أسرع إسراعها . وقوله « بالأمس » ذكَرَه على طريق تقريبِ الأمَد . وقوله « يُسْبَق » هو جوابُ الجزاء .

٣ ــ قَضَيْتَ أموراً ثم غادَرْتَ بَعْدَها بوَائجَ فى أكمامِها لم تفتقِ[1]

يقول : أحكمتَ أموراً بصائب نظرِك ، وجميلِ رأيك ، وحسن تألُّهِكَ[2] ثم أعْجِلْتَ فتركتَ بعدها دواهِىَ وخُطوباً عظيمة ، هى فى أغطيتها لم تظْهَر ولم يُكشَف عنها . والفَتْق : ضدُّ الرَّتْق ، وكلُّ متّصلٍ مُسْتوٍ رَتْقٌ ، فإذا انفصَلَ وانكشف فهو فَتْقٌ . والبوائج : الدَّواهى العامَّــة . ويقال : بَاجَهُم الشَّرُّ ، أى عَمَّهم . قال الشاعر :

* فَبُجْته وأهْلَهُ بشَرٍّ *

والأكمام : الأغطية ، منه كِمُّ الثمرة . ويقال : لـكلِّ شجرة مُثْمِرةٍ كِمٌّ وهو بُرْعُومَتُها .

٤ ــ أبَعْدَ قَتيلٍ بالمدينةِ أظْلَمَتْ له الأرضُ تَهتَزُّ العِضَــاهُ بأسْؤُقِ

قوله « أبعد قتيلٍ » لفظه استفهام ، ومعناه التفظيع والإنكار . وحرف الاستفهام يطلُبُ الفعل ، فكأنّه قال : أتهتزُّ العِضَاهُ على أسؤُقِها بعد قتيل بالمدينة أظلمتْ له الأرض . هذا عَجَبٌ .

وقوله « أظلمَتْ له الأرض من صفة قتيل . والمعنى أن حصولَ هذا الأمرِ

(١) البيان : « بوائق فى أكمامها » . والبائقة : الداهية .

(٢) التأله : التنسك والتعبد .

وجَرَيانَه على ما كان مُنكَرٌ فظيع ، بَعدَ ما اتّفق على قتيلٍ هذا صفتُه . والعضاهُ : شجرٌ ، واحدتها عِضَةٌ . قال :

* ومن عِضَةٍ ما يَنْبُتَنَّ شَكيرُها[1] *

وقد مضى القول فى مثل هذا البيت . ويشبهه قول الآخر[2] :

أيَا شَجَرَ الخابُورِ ما لَكَ مُورِقًا   كأنّكَ لم تَحْزَنْ على ابن طَريفِ

٥ ــ تَظَلُّ الحَصَانُ البِكْرُ يُلْقِى جنينَها   نَثَا خَبَرٍ فوقَ المَطِىِّ مُعَلَّقِ

٦ ــ وما كنتُ أَخْشَى أن تكونَ وفاتُهُ   بكَفَّىْ سَبَنْتَى أزرقِ العَيْنِ مُطرِقِ

الحَصَان : العفيفة وقد أحصنَتْ وحَصُنَتْ . والبِكر : التى حَمَلَتْ أوّلَ حَمْلِها ، فهى بِكرٌ والولد بِكرٌ والأب بكرٌ . والنَّثا ، يستعمل فى الخير والشّر . يقال : نَثَوْتُ الكلامَ أنْثُوهُ نَثْوًا ، إذا أظهَرْتَهُ . فيقول : ترى الحامِلَ يُسقِطُ حَمْلَها ما يُنْثَى من خَبَرٍ سار به الرُّكبان ، وتقاذفتهُ الأقطار ، استفظاعاً لوقوعه ، واستشعاراً لكلِّ بَلاَءٍ وخوفٍ منه .

وقوله «وما كنتُ أخشى» يقول : إنّى وإنْ لم آمن الحَدَثانَ عليه ، وصرتُ أرقبُ جميعَ أسباب الرَّدَى فيه حتّى ظننتُ ظُنُونَ المُشفِقَات ، مستدفِعًا للآفات عنه ، فإنّه لم يَخْطُر ببالى أن يكون فى جلالتِه وارتفاع مَحَلِّه يُرديه عَبْدٌ جَسُورٌ لئيمٌ جَرِىء ، أزرق العين ، مسترخى الأجفان . وإنما حَلَّى قاتِلَهُ بهذه الحِلْيَة تنبيهاً على حقارته فى نفسِه وجنسه ؛ وذَمًّا لأصلِه وفرعه ، وإعلاماً بأنَّ الصَّغير من الرِّجال يجْنى الكبيرَ من الأمور ، وأنَّ ما لا يَقَعَ فى الوهم استبعاداً لكونه ، يشاهده الإنسان أقربَ من كلِّ قريب ، ثم لا يملك إلا استغرابَه وقضاءَ العجبِ

(١) انظر اللسان (شكر) وشروح سقط الزند ١٥١١ .

(٢) هو ليلى بنت طريف ، كما فى حماسة ابن الشجرى ٨٩ وحماسة البحترى ٤٣٥ . وقيل إن الشعر للفارعة بنت طريف . والمرثى بهذه القصيدة هو الوليد بن طريف الشارى . وقد روى ابن خلكان فى ترجمته القصيدة كاملة ، وهى نادرة .

منه والتزامَ الجزع فيه . والسَّبَنْتَى والسَّبَنْدَى ، أصله فى النمر ، ويُستعمَل فى الجرىء المُقْدِم . وقال الدُّريدى : المُطْرِقُ : الغليظ الجِنن الثَّقيلُهُ .

٣٨٩

وقال صَخْرُ بن عَمْرٍو[١] أخو الخنساء :

١ — وقالوا ألا تَهْجُو فوارسَ هَاشِمٍ ... ومَالِى وإهْدَاءَ الخَنَا ثمّ مَالِيَا

٢ — أَبَى الهُجْرَ أَنِّى قد أصابوا كريمتى ... وأنْ لَيْسَ إهداءُ الخنَا من شِمَالِيَا[٢]

يريد : قال النّاسُ باعثِين لى على هِجاء مَن أصابنى فى أخى معاويةَ ونَحتِ أثْلتِهم ، وذكر أعراضِهم : ألا تنتقمُ منهم بالقول إلى أن يتسهَّلَ الفِعل فتذكُرَ معايبَهم ، وتكشِفَ عن مستور مَخازيهم ، ومجهولِ مقابحهم ومساويهم؟ فأجبتهم وقلت : مالى وذكرَ القبيح وإهداءَ الفواحشِ ثمّ مالى ؟ أما تعلمون أنّ ما بينى وبينهم أقْذَعُ من الهِجاء ، وأنّ جزاءَ مَن أصاب كريمتى أفْظَعُ من الإهجار ، وأنه ليس قولُ القبيح وتنقُّصُ النّاس من عادتى وطبيعتى ، إذْ كنتُ أربأُ بقدرى عن الوقوف موقفَ المغتابين والطّاعنينَ فى الأنساب والأعراض . وقوله « ومالى وإهداءَ الخنا » انتصَبَ إهداء بفعلٍ مُضمَرٍ ، وتكريره لِمَالِى دلالةٌ على استقباحه لما بُعِث عليه ، ودُعِىَ إليه . والخَنَا هو الفُحْشُ ، كأنه قال : مالِى أُلابِسُ الخَنَا وأتكلّفُه . وقوله « أصابوا كريمتى » فالكريمة أُخرِجَ إخراجَ

---

(١) هو صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد ، من أشراف بنى سليم ، أخو الخنساء الشاعرة الصحابية ، وقد مات قبلها فرثته رثاء صادقا ، وضرب بحزنها عليه المثل ، ويبدو أنه مات قبل الإسلام . وفى ذلك تقول الخنساء : كنت أبكى لصخر من القتل ، فأنا أبكى له اليوم من النار . انظر ترجمته مع الخنساء فى الأغانى (١٣ : ١٢٩ — ١٤٠) والخزانة (١ : ٢٠٧ — ٢١١) والشعراء ٣٠١ — ٣٠٦ .

(٢) التبريزى : « أبى الهجو » .

المصادر . وعلى ذلك ما رُوِىَ على النبىِّ صلى الله عليه وسلم « إذا أتاكُمْ كريمةُ قومٍ فأكرِمُوه (١) » .

ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة . وقوله « وأنْ ليسَ إهْدَاءُ الخَنَا » أن مخفَّفة من الثّقيلة ، واسمُه مضمَر ، والجملة التى بعدَه فى موضع الخبر ، وموضع أن رَفْعٌ بكونه معطوفاً على أنِّى قد أصابوا ، وأنِّى فاعلُ أبَى الهُجْرَ .

٣ــ إذَا ما امْرُؤٌ أَهْدَى لميْتٍ تَحِيَّةً فَحَيَّاكَ رَبُّ النَّاسِ عَنِّى مُعَاوِيَا

٤ــ لَنِعْمَ الفَتَى أَدَّى ابنُ صِرْمَةَ بَزَّهُ إذا رَاحَ فَحْلُ الشَّوْلِ أَحْدَبَ عَارِيَا (٢)

يقول : إذا رَجُلٌ حَيًّا مَيِّتاً فتولّى الله تعالَى عنِّى تحيَّتَك يا معاوية . والتَّحيَّة من الله تعالى : الإكرام والإحسان ، والتفضُّلُ عليه بما هو أهلُه .

وقوله « لنعم الفتى » المحمود بهذا الكلام محذوف ، كأنه قال : لنعم الفتى الذى ذا صفته . وقوله « أدَّى ابنُ صِرْمَةَ بَزَّهُ » أرادَ سلاحَهُ وسَلَبَهُ . وقوله « إذا راح » ظرفٌ لما دلّ عليه نِعم الفَتَى . أى يُحمَدُ فى هذا الوقت إذا اشتدَّ الزَّمان وأُجدَبَت الأرضُ ، وانصرَفَ فَحْلُ الشَّوْلِ من مَرْعاهُ عارِياً من اللَّحم مهزولاً ، لكثرة أفضالِهِ ، وحُسْنِ تفقُّده واتِّصالِ بِرِّهِ بمن يجمَعُه إليه نَسبٌ أو سببٌ . والشَّوْل : النُّوق القليلة الألبان ، واحدتها شائلة . وابن صِرْمَةَ المذكورُ يجوز أن يكون القاتلَ لمعاوية أو المعينَ عليه .

٥ــ وطَيَّبَ نَفْسِى أنَّنى لم أَقُلْ لَهُ كَذَبْتَ ولم أَبْخَلْ عليه بماليَا

٦ــ وذى إخْوَةٍ قَطَّعْتُ أقْرَانَ بَيْنِهِم كَمَا تَرَكُونى واحِداً لا أخاليَا

---

(١) هو حديث أنه أكرم جرير بن عبد الله لما ورد عليه ، فبسط له رداءه وعممه بيده وقال : « إذا أتاكم كريمة قوم فأكرموه » .

(٢) بعده عند التبريزى :

إذا ذُكِرَ الإخوانُ رَقرقتُ عَبرةً وحيَّيتُ رَمْساً عند لِيَّةَ ثاويا

تَسَلَّى فيما أوجَعَه من الرُّزْءِ بأن لم يكن جفَاهُ وهو حَيٌّ قولا ولا فِعْلاً ، ثم تسَلَّى أيضاً بأنَّه كما فُرِّق بينه وبين إخوته وتُرِكَ فريداً وحيدا ، قد تولّى مِثلَ ذلك من مُعَاديه ، فرُبَّ إخوَةٍ متناصِرِينَ صارت كلمتهم واحدةً ، وأهواؤُهم متَّفِقة ، وهم فى تألُّفهم وتشابههم ، وتلاؤمهم وترافُدِهم ، كالحَلْقة المُفْرغة لا يُدْرَى أين رأسُها ، أنا قطعتُ علائق بينهم ، ووُصَلَ نظامهم ، فتفرَّقوا وتفاقَدُوا حتى صاروا فى التشتُّت مثلا ، كما كانوا فى التجمُّع مَثَلا . وهذا بإزاء ما فُعِلَ بى ، وفى مُقابَلَةِ ما نيلَ منّى . والدَّهرُ تاراتٌ ، و « مَنْ يَرَ يَوْماً يُرَ به » . وقد مرّ القول فى قوله « لا أخاليَا » . وانتصب « واحداً » على الحال من تركونى ، ولا أخاليا صفة له ، كأنه قال : تركونى وحيداً فريداً . وقوله « أقرانَ بينهم » أى وُصَلَ بينهم . وأصل الأقران الحبالُ ، والواحد قَرَنٌ . يريدُ : إنِّى قطَّعْتُ الأسبابَ الجامعة بينهم بقتلهم وتفريقِهم . و « بين » جعلَهُ اسماً . وفى القرآن : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ ﴾ .

٣٩٠

وقالت أختُ المُقَصَّص(١) :

١ — ياطُولَ يَوْمِى بالقَلِيبِ فلم تَـكدْ شَمْسُ الظَّهيرة تُتَّقَى بحجابِ

(١) اسمها « ميسون » كما ذكر التبريزى . وروى من خبر هذه الأبيات أن المقصص أخا بنى الصموت ، من بنى عبد الله بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، خرج فى أيام فتنة ابن الزبير يصدق من مر به من الناس ، حتى أتى بنى قنفذ من بنى سليم ، بناحية هضب القليب ، فصدقهم ، ثم بعث إلى هلال أخى بنى سمال بن عوف : أن ابعث إلى بابنتك . فقال هلال : إن كان تزويجا فليأتنا فإنه كفء . قال : إنما أردت أن تمشط رءوسنا وتتحدث معنا . فضرب هلال الرسول ، فركب المقصص فى فرسان ثلاثة حتى هجم على الحى ، فثاروا إليه ، وكان فى الذين ثاروا إليه مع هلال فتيان من بنى قنفذ ، يقال لأحدهما المستوضح وللآخر الحسن بن الأسود ، فناوشوه قليلا . ثم إن المقصص حمل على هلال فخاف هلال أن يطعنه وليس معه سلاح ، فوجد =

٢ ـ ومُرَجِّمٍ عَنْكَ الظُّنونَ رأيتَهُ ورآكَ قبلَ تأمُّـلِ المُرْتابِ

قوله « يا طُوَل يومى » لفظه نداء، ومعناه تعجُّبٌ واشتكاء، وإنَّما استطالَهُ لأنَّه كان يومَ نَحْسٍ ومكروه. فيقول: يومى بالقَليب امتدَّ وطال حتَّى كادت الشمس لا تحتجب عن الأبصار بحجابها المعلوم؛ فياله مِن يومٍ ما أطوَله. والقليب: موضع(١). وأضاف الشَّمسَ إلى الظَّهيرة كأنَّه لما قامَ قائمُ الظَّهيرة وقفَتْ حيرَى فلم تكنْ تَجنحُ إلى المَغِيب، ولا كانت تسير فتهوِى للغُروب.

وقوله « ومرجِّمٍ عنكَ الظُّنون » وصَفَه بأنَّ الآفاق على بُعدها كانت قريبةً عليه لِمَا أُيِّدَ [به] من العَزم وتَسَهَّلَ له وفى نفسه مِن وُعورة السَّير، فيقول: ربَّ مُكاشحٍ لك كان على تنائيه عنك، وتحزُّمه معك، واستظهاره بإبعاد الدَّارِ منك، يرجِّم الظَّنَّ فيك، ويُوَسْوِس إليه ما يَعرِفه من إبعادك فى الغَزْو، وقلّة احتفالك فيما تركبه بلَواحق التَّعَب، وعَوارضِ الخَطَر — أَنَّك تَقصِده وتُوقِـع به آمَنَ ما كان منك، وهو فى وَسْواسِهِ لم يحدِّثْ نفسَه بتأمُّلِ ما وَقَع فى خَلَده، ولا بالكشف عمَّا ارتاب له، إذْ أنتَ أتيتَه من حيثُ لا يحتسِبُه، واستَبَحْتَ حريمَهُ، واستَغنمتَ مالَه. وقوله « قَبلَ تأمُّل المرتابِ » يجوز أن يريد به قبل تأمُّلِه، فيكون المرتاب هو المُرَجِّم المكاشِح. ويجوز أن يكونَ جعَلَه مثلًا.

= أثفية مرتزة فى الرماد فاقتلعها ورماه بها، فركب ردعه ومات، وانهزم أصحابه ومروا على جعدة بن عبد الله، أخى بنى غيظ بن مالك، فقتلوه فقال هلال:

أعددت للهيجا ويوم المشهد وللأحاديث التى بعد الغد

* مستوضحاً والحسن بن الأسود *

فركب أولياء المقصص حين هدأت الفتنة إلى الحجاج فذكروا أمر صاحبهم وأمر الغيظى، فأهدر دم المقصص وأقادهم بالغيظى، فقالت أخت المقصص هذه الأبيات.

(١) فى معجم البلدان: « هضب القليب بنجد. والهضب: جبال صغار. والقليب فى وسط هذا الموضع يقال له: ذات الإصاد، وهو من أسمائها. وعنده جرى داحس والغبراء ».

وقد ألمّ بهذا المعنى أبو تمّام في قوله :

أَسْرَتْ لَكَ الآفاقَ عَزْمَةُ هِمَّةٍ جُبِلَتْ على أنَّ المَسِيرَ مُقَامُ

٣ ــ فَأَفَأْتَ أُدْمًا كالهِضابِ وجامِلًا قَدْ عُدْنَ مِثْلَ علائِفِ المِقْصَابِ[1]

٤ ــ لَكُمُ المُقَصَّصُ لا لَنَا إن أَنْتُمُ لم تَأْتِكُمْ خَيْلٌ ذوو أَحْسَابِ

يقول : غَزَوْتَهُ فجعلتَ مالَه فَيْئًا وغنيمةً : نُوقًا كالجبال سِمانًا ، وذكورةً عِظامًا ضِخَامًا ، عُدْن كالّتى يسمِّنُها الجزّار للنَّحر .

وقوله : « لكُم المقصَّص لا لنا » يقول : إنْ لم تأتكم خيلٌ إذا طلبوا الثَّأر طلبوه عن امتعاضٍ وشدةِ أنفَة ، وجِدٍّ في الأمر واجتهادٍ ، فِعْلَ الحسيبِ الكريم الذى لا يغمِّض على قَذًى ، ولا يصبر فيما يحق له على أذًى ، فأنتم أولياءُ دَمِهِ مِن دوننا ، والمالكون له سوانا . وقد تَرَكْناهُ لكم ، وفُزْتم بما أصبتموه ، واستمرأتم ما طَعِمتموه . وقوله « أفأْت » من الفيء : الغنيمةِ ، لا من الفيء الرُّجوع . والجامل موحَّدُ اللَّفظ مَصُوغٌ للجمع ، ويراد به الإبل ، لكنَّه مشتقٌّ من لفظ الجمل ، كالباقِرِ من البَقَر . والعلائف : جمع العَلُوفة ، وهو ما يسمَّن في البيوت . ويقال : شاةٌ مُعَلَّفَةٌ ، أى مسمَّنةٌ . والمِقصابُ ، بناؤُهُ بناءَ ما يكون آلةً ، فهو كالمفتاح ، لا بناءَ ما يكون للحِرْفةِ والمزاوَلة . والواجب أن يكون « القَصَّاب » ، وهو من القَصْب : القَطع والفَصْل ، لأنَّه يقصِّب الشَّاةَ أى يقطِّعها .

---

(١) رواية التبريزى : « المقضاب » ، وقال فى تفسيره : « المقضاب : المزرعة الّتى تنبت القضب ، وهو القت . فأرادت أنهم امن لخصب فى روضة مستكة كاستكاك نبات القضب . وقيل : المقضاب شبه منجل . تريد كأنها علائف سمنت للنحر . والمقضاب أيضاً : الرجل الكثير القطع . والقضاب : الذى صناعته ذلك . فإذا روى القضاب فعناه مثل علائف الذى ينحرهن كثيراً . ومن روى المقصاب بالصاد نسبه إلى القصب . ويحتمل أن يكون المقصاب : الموضع الكثير القصب ، كما أن المعشاب الموضع الكثير العشب » .

٥ — وأبُو اليَتَامَى يَنْبُتُونَ ببابِهِ نَبْتَ الفِراخِ بِمُكْلِئٍ مِعْشَابِ[1]

٦ — فَكِهٌ إلى جَنْبِ الخِوانِ إذا غَدَتْ نَكْباءُ تَقْلَعُ ثابِتَ الأَطْنَابِ

قوله « وأبو اليتامى » أى كان يكفُلهم وَيعُولهم ، ويُشفِق عليهم ويتحدَّب ، حتَّى كأنَّه أبوهم . وارتفع « أبو » كأنَّه خبر ابتداء محذوف كأنَّها قالت : وهو لليتامى أبٌ . ومعنى « ينبتون ببابه » يُروى « فناءه » ، وانتصابُه على أنَّه أخرجَه إلى باب الظُّروف ، كما فُعِلَ ذلك بمَقْعَدَ القابلة ، ومَنَاطَ الثريَّا وما أشبههما . والمعنى أنَّهم يتربَّون فى فنائه ويتنعَّمون ، تَرَبِّيَ فِراخِ الطَّير بمكانٍ كثير العُشْب والكلأ . ويقال : أَكْلَأ الموضِعُ ، إذا صار ذا كَلإٍ وعُشْب . والمِعشاب : الكثير العُشْب .

وقوله « فَكِهٌ إلى جَنْب الخِوان » فالفَكِه : الكثير المِزاح واللِّعْب[2] ، تأنيساً للضَّيف وبَسْطاً منه ، كما قال الآخر[3] :

* أُحَدِّثُهُ إنّ الحديثَ من القِرَى[4] *

وقوله « إذا غَدَتْ » ظَرْفٌ للفَكِه . يريد : يفاكه الضَّيف عند الأكل بمُلَح الكلام ، كى يستأنسَ ويتَّسِع الوقتُ له فيستوفىَ . وإلى من قوله « إلى جنب الخوان » تعلَّق بفعلٍ مضمَر دَلَّ عليه فَكِهٌ ، كأنَّه مع قُرب الخوان يَفْكَهُ . و « إذا غَدَتْ نكباء » يريد وقت البَرْدِ وهبوبِ الرِّيح الباردةِ المزعزِعة للبُيوت ، القالعةِ لأوتادها وحبالِها . وأطناب البيوت : حبالها . ومنه إطنابَةُ الحُزَم والقِسيّ . والجميعُ الأطانيب . قال :

---

(١) روى التبريزى هذا البيت بعد تاليه .

(٢) اتفقت النسختان فى هذا الضبط .

(٣) هو عتبة بن بجير ، أو مسكين الدارمى ، كما سيأتى فى القسم الرابع من الحماسة .

(٤) عجزه : * وتعلم نفسى أنه سوف يهجع *

* يَرْكُضْنَ قد قَلِقَتْ عَقْدُ الأطانيب[1] *

٣٩١

وقالت عَمْرَةُ بنتُ مِرداسٍ[2] تَرثى أخاها عبّاساً :

١ ـ أَعَيْنَىَّ لم أَختِلْكُمَا بخيانةٍ أبَى الدَّهْرُ والأيّامُ أن تَتَصَبَّرا
٢ ـ وما كُنْتُ أَخْشَى أنْ أكونَ كأنَّنى بَعِيرٌ إذا يُنْعَى أخِىَّ تَحَسَّرَا
٣ ـ تَرَى الخَصْمَ زُوراً عن أخِىّ مَهابةً وليسَ الجليسُ عَنْ أخِىَّ بأزْوَرَا

تقول : يا عينىّ لا أقول إنكما لم تَجْزَعا ولم تذرِفا ، ولم تَخلِطا بدمعٍ دماً ، فأكونَ قد خدعتُكما بخيانةٍ استعملتُها معكما. وكيف لا تكونان كذلك والأيّامُ واللّيالى امتنعَتْ عليكما أن تتصبّرا فيها ، إذْ كانت حَمَّلتكما من أعباء الرزّية ما استنفدَ وُسْعَكُمَا ، واستغرق طوقَكُما ، حتى نُزِفَتْ دموعُكما ، وتوقّفت عن الإجابة شُؤُونكما ، فما بَقِى منكما إلاّ شفاً .

وقولها: « وما كنتُ أخشى » يقول : كنتُ قبل هذه الرَّزيئة واثقاً بقوّتى وصبرى ، ومُسكَتِى وعقلى ، حتى لا أخشى ـ إذا أخطرتُ ببالِى أحداثَ الدّهر وتأثيرَها فى الأحبّة والأهل ـ سوءَ احتمالٍ فيها ، وضعف مُنَّةٍ عنها ، إلى أن نُعِىَ أخِىّ فورَدَ له على نفسى ما أبدلنى بالتَّماسُك تهالُكا ، وبالتثبُّت تساقُطا ، حتى صرتُ كأنّى بعير أُلِحَّ عليه فتحسَّرَ ورَزَح ، وعُقِل فى مَبْرَكِه بالعَجْز فما بَرِح .

---

(١) البيت لسلامة بن جندل ، ولم يرو فى ديوانه ولا فى المفضليات . لكن نسب فى الأساس إلى النابغة ، ومع ذلك لم يرد فى ديوان النابغة فى قصيدته التى على هذا الروى . وصدره فى اللسان :

* حتى استغثن بأهل الملح ضاحية *

(٢) سبقت ترجمة أخيها فى الحماسية ١٤٩ ص ٤٣٣ .

وقولها « ترَى الخَصْمَ زُورًا » جعلت الخَصْمَ للجمع فلذلك قالت زُوراً . والمصدرُ إذا وُصِفَ به بُقِّيَ على حالِه فلم يُثَنَّ ولم يُجمَع . وقد قيل : خَصمان وخُصُوم ، لَمَّا غلبت عليه الوصفيّة وكثُر في الاستعمال أُجرِيَ عليه حكمُ الصِّفة . والمعنى : ترَى مُنابِذِي أُخَيّ منحرفين عنه وعن كلِّ متَّصلٍ به ، مسالِمِين له ولمن أَعلَقَ حبلَه بحبله ، إعظامًا له وتهَيُّباً ، وإكباراً وتخَوُّفاً . وترى جُلَسَاءه ونُدماءه مباسِطِين له ومستأنسين به ، لا يتداخَلُهم منه رُعْبٌ ، ولا يقبضهم عنه تجبُّرٌ وكِبر . والخَتْلُ : المَكْر . وقال الخليل : هو تَخَادُعٌ عَن غَفلَةٍ . وإنما قال الدَّهر والأيّام ، لأنَّه أرادَ بالأيّام الأحداثَ . وهذا كما قيل للوقعات : الأيّام . وإنما صَغَّرت الأخَ لتلطيف المحلّ . هذا على قولهم صُدَيقِي . والتحسُّر : الضعف عن الإعياء . ويقال : الحَسْر والحُسُور أيضاً . وحَسَرَت النّاقةُ فهي حسيرٌ والجمع الحَسْرَى . ولك أن تروى : « أُخَيِّ » وهو الأصل ، و « أُخَيّ » فتحذف ياءً استثقالاً لاجتماع الياءات ، وتبنيه على الفتح لأنّه أخفُّ الحركات . وانتصَب « مهابةً » لأنّه مفعول له .

٣٩٢

وقالت رَيطةُ بنتُ عاصمٍ :

١ – وقفْتُ فأبكَتْنِي بدارِ عَشِيرَتِي ... على رُزْئِهِنَّ الباكياتُ الحَوَاسِرُ

٢ – غَدَوْا كسُيوفِ الهِنْدِ وُرَّادَ حَوْمَةٍ ... من المَوْتِ أعْيَا وِرْدَهُنَّ المَصَادِرُ

٣ – فوارسُ حَامَوْا عن حريمٍ وحافَظُوا ... بِدَارِ المنايا والقنَا مُتَشَاجِرُ(١)

٤ – ولو أنَّ سَلْمَى نَالَها مِثْلُ رُزْئِنا ... لَهُدَّتْ ولكن تَحْمِلُ الرُّزْءَ عامِرُ

تقول : دعاني ما أُصِبْتُ به في عشيرتي إلى الوُقوف بدارهم ، فشجِيتُ

(١) التبريزى : « عن حريمى » .

بِشَجَى النِّساء النَّوادب الحواسر ، حتَّى بكيتُ لبكائهنَّ على حادثِ الرُّزء ، واقتفرت آثارَهن فى الهَلَع والحُزْن .

وقولها « غَدَوْا كسيوف الهند » أخذَتْ تصفُ حالَ عشيرتها فقالت : ابتكروا وهم فى خِلَقهم وتجرُّدهم ، وصَفائهم ونفاذهم ، كسُيوف الهند ، فوَرَدُوا حَومةً من الموت أعجزَهم الصَّدَر عنها . والحومة : مُعظَم الحرب وغيرِها . وحومة البحر : أكثَرُ موضعٍ منه ماء ، وكذلك حَومة الحوض . ويقال : حامَ الطائرُ على الماء يَحُومُ حَوْمًا ، إذا دارَ عليه فى الطَّيَران .

وقولها « فَوارسُ حامَوا عن حريمٍ » وصَفَتْهم بأنَّهم حَفِظوا ماوجَبَ عليهم حِفظُه من حُرَمِهم . وفى المثل : « لا بُقْيَا للحَمِيّة بعد الحُرَام » أى عند الحُرْمة ، والحُرمة : ما لا يَحِلُّ لك انتهاكه ، وكذلك المَحارم ، واحدتها مَحْرَمَةٌ . قال :

* ومَحْرَماتٌ هَتَكُهَا بُجْرِئٌ[1] *

ومن ذلك قيل : حَرِيم الدَّار ، لِما كان من حقِّها .

وقولها « وحافَظوا بِدارِ المَنايا » أى ثبَتوا فى دار الحِفاظ ، ودافَعُوا وصبروا ، ولم ينتقلوا عنها طلباً للسَّلامة ، وحِرْصاً على نَيل الخصب والأَمَنَةِ .

وفى هذه الطريقة قولُ الآخر[2] :

وتَحُلُّ فى دارِ الحِفاظِ بُيُوتُنا زَمَنًا ويَظْعَنُ غَيْرُنا للأَمْرَعِ

وقولها « والقَنا مُتشاجِر » الواو منه واو الحال . وأشار بذلك إلى قيام الحرب

(١) البيت للعجاج فى ديوانه ٦٨ . وقبله :
* وجارة البيت لها حجرى *

(٢) هو الحادرة الذبيانى . المفضلية ٨ .

بينهم ، وانتصابِ الشَّرِّ فيهم ، وأنَّ للطَّعن تَلاحُقاً كما أنَّ للقنا فى الاختلاف تداخُلا .

وقولها « ولو أنَّ سَلمَى » فسَلمَى : أحدُ جبلَيْ طيِّئ . والمعنى : لو أنَّ ما نَزل بنا من الرُّزء مثلُه نَزَلَ بهذا الجبلِ لانهدَّ ، ولكنَّ الإنسانَ صَبورٌ شديد ، يتحمل كلَّ ما حُمِّل ؛ وإنْ ضُوعِفَ على وُسْعِهِ وثُقِّل . وعامرٌ : قبيلتُهم .

٣٩٣

وقالت عاتِكةُ بنت زيد بن نُفَيل[1] :

١ – آلَيْتُ لا تَنفكُّ عينى حَزينَةً ... عَلَيْكَ ولا ينفكّ جِلْدِىَ أَغْبَرَا

٢ – فَلِلَّهِ عَيْناً مَن رَأَى مِثْلَهُ فَتًى ... أَكَرَّ وأَحْمَى فى الهِياجِ وأَصْبَرَا

٣ – إذا أُشْرِعَتْ فيه الأَسِنَّةُ خَاضَها ... إلى المَوت حَتّى يَتْرُكَ الموتَ أَحْمَرَا

روى بعضُهم أنّ عليًّا عليه السلام استأذَنَ عمر رضى الله عنه فى مُكالمة عاتكةَ بنتِ زيدٍ ، وهى يومئذٍ زوجته ، فقال عمر رضى الله عنه : لا غَيْرَةَ منكَ يا أبا الحسن ! فقال علىٌّ عليه السلام مازحاً : آنتِ القائلة :

آلَيْتُ لا تنفكُّ عينى قَريرةً ... عليكَ ولا ينفكُّ جلدِى أصفرا[2]

---

(١) هى عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل العدوية ، أخت سعيد بن زيد أحد العشرة . وقد أسقط المرزوقى هنا اسم جدها « عمرو » . وهى صحابية كانت زوج عبد الله بن أبى بكر الصديق ، ثم عزم عليه أبوه أن يطلقها لما شغلته عن مغازيه ، فطلقها ثم تبعتها نفسه ، فسمعه أبوه يوما يقول :

ولم أر مثلى طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها من غير جرم تطلق

فرق له أبوه وأذن له فارتجعها ، ثم لما كان حصار الطائف أصابه سهم فكان فيه هلاكه ، فمات بالمدينة فرثته بهذه الأبيات . ثم تزوجها زيد بن الخطاب فاستشهد باليمامة ، ثم تزوجها عمر ، فاستشهد فرثته بأبيات ستأتى فى الحماسية ٣٩٦ . انظر الإصابة ٦٩٢ من قسم النساء ، ونوادر المخطوطات ٦١ .

(٢) أصفر ، من استعمال الطيب والخلوق . وهو كناية عن السرور واطراح الحزن .

فقالت : لم أقُلْ كذا . وعاودَتْ حُزنها وجزَعها . ومعنى « لا تنفك » لا تزال .

وقولها « فَلِلّٰه عَيْنَا » تعجُّبٌ ، وهي في تعظيم الشَّيء ينسُبونه إلى الله عزّ وجلّ ، وإن كانت الأشياء كلُّها له تعالى وفي ملَكته .

وقولها « أكرّ » أي أكثر كرًّا . و « أحْمَى » يجوز أن يكون من الحماية ويجوز أن يكون من الحَمِيَّة . والمعنى : لِلّٰه عينَا رجلٍ رأى فتًى مثلَه أكرَّ منه وأحْمَى . وقولها « من » نكرةٌ تريد رجلاً أو إنسانا . و « رأى مثله » صفة لِمَنْ . وقولها « إذا أشْرِعَتْ فيه الأسنَّة » ، تريد : في الهِياج . ويجوز أن تريد في المرثيّ ، أي قِبَلَهُ . والهياج يجوز أن يكون مصدر هائج ، ويجوز أن يكون جمع هَيْجٍ ، والمراد به الحربُ وقد هاجت . فتُريد : إذا هُيِّئَت الرِّماحُ لطعنةٍ اقتحمَهَا وتلقَّاها ، لا يَحيد عنها حتَّى يَخُوضَ الموتَ بها ، فيتركَه أحمر ، أي شديداً .

ويقال : مِيتةٌ حمراء ، وسَنَةٌ حمراء ، وسِنُونَ حَمْرَاوات . ويقولون : « الحُسْنُ أحمر » ، أي طلَبُ الجمال تُتجشَّم فيه المشاقّ .

٣٩٤

وقالت امرأةٌ من طيِّئ :

١ — تَأَوَّبَ عَيْنِي نُصْبُها واكتئابُها ورجَّيْتُ نَفْسًا رَاثَ عَنْها إيابُهـا

٢ — أُعَلِّلُ نفسِي بالمُرَجَّمِ غَيْبُهُ وكَاذَبتُهَا حــتَّى أبانَ كِذَابُها

أصل التأوُّب والتَّأويب : سَيْرُ النَّهار كلِّه حتَّى يتَّصلَ باللَّيل . وقد فسَّر ابن الأعرابيّ قولَ النابغة :

* وليس الذي يَتلو النُّجومَ بآيبِ (١) *

(١) صدره : * تطاول حتى قلت ليس بمنقض *

على أنَّه من هذا لا من الأَوبة الرُّجوع . والنُّصْب ، من قولهم أنْصَبَه المرضُ والحُزْنُ ، إذا أثَّر فيه . قال :

* تَعنَّاكَ نُصْبٌ من أُمَيْمَةَ مُنْصِبُ *

وقال الدُّريدى : يقال نَصَبَهُ أيضاً . والاكتئاب : الحُزْن . والمعنى أنَّه نابَ عينى ، وواظبَ عليها من السَّهرِ والكَآبة والهمِّ النَّاصبِ ، ما أثَّر فيها ، وعلَّقْتُ رجائى بنفسٍ غائبةٍ عنِّى قد استعجمَتْ أخبارُها علىَّ ، فأبطأَ رجوعها إلىّ .

وقولها « أعلِّل نفسى بالمرجَّم غَيْبُه » تريد : أُزَجِّى وقتى وأُرضى نفسى بظَنٍّ مَرْجُومٍ وأملٍ مرجُوّ ، وحديثٍ مؤلَّف ، وتمنٍّ مُزَخرَف فيما لا حقيقةَ يعتمد عليها ، ولا أَمارة يتأكَّد الطَّمَع فيها . ويقال : رَجَمَ الرَّجُلُ بالغَيب ، إذا تكلَّم بما لا يَعلم .

وقولها « وكاذَبتُها حتَّى أبانَ كِذابُها » أى استعملتُ ملفَّقَ الأحاديث ومُموَّهَ الأباطيلِ معها ، إلى أنْ بَرِح الخفاء ، وانكشَفَ عن جاليَّة الأمرِ الغِطاء ، وتَعلَّى رُغْوة الكذب عن مصدوقَةِ الخَبَر . والمكاذَبة تكون من اثنين ، كأنَّه كان يكذِّب نفسه فتَقتريه[٢] وتزيد عليه .

٣ — فَلَهْفِى عليكَ ابنَ الأشَدِّ لبُهْمَةٍ أفزَّ الكُماةَ طَعْنُها وضِرابُها[١]

٤ — مَتَى يَدْعُهُ الدَّاعى إليــه فإنَّهُ سَمِيعٌ إذَا الآذان صَمَّ جَوابُها

٥ — هو الأبيضُ الوَضَّاحُ لو رُمِيَتْ به ضَوَاحٍ من الرَّيَّان زَالَتْ هِضَابُهَا

تتلهَّفُ على ما فاتَ عشيرتَه منه مِن حسن الدِّفاع ، والثَّباتِ فى وجه الشُّجاع الذى لا يُدْرَى كيف يُدْفَع ، وأنَّى يؤتَى ويُقدَعُ ، وقد طَرَدَ الشُّجْعان وطَرَّقهم

(١) التبريزى : « أفر الكماة » بالراء المهملة ، قال : « ويروى أفز الكماة بالزاى » ثم قال : « وأفر الكماة — يعنى بالراء — طردهم » .

(٢) تقتريه : تتبعه . وفى النسختين : « فتغتر به » .

ذُعْراً، شِدَّةُ مُطاعَنَتِه، وقُوَّةُ مضارَبَته. وقال الخليل: أفزَّهُ: أفزَعَه. واستفزُّوه: أخرَجوه من دارِه وخَدعوه حتّى ألقَوْه فى الجهل. وفى القرآن: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخرِجُوكَ مِنْهَا﴾. والبُهمة تقع على الواحد والجماعة، وهاهنا هى للواحد، بدلالة قولها «متى يَدْعُه الدَّاعِى إليه» فلم تقل إليهم، فأمّا قولها «طعنُها وضِرابُها» فالضَّمير جاء فيه على لفظ البُهْمة.

ومعنى «متى يَدعُه الدَّاعى إليه»، أنَّه إذا دَعا الدَّاعى لمُبارَزَة هذه البُهمة ومنازَلتِه، فإنَّه كانَ يَسمع ويُجيب، فى وقتٍ تستكُّ فيه المسامع لشدَّة الأمر، وإلباس الخوف. وجعل الصَّمَم للجواب مجازاً، وإنما تَصَمّ الآذانُ عن السَّماع فينقطعُ الجواب.

وقولها «هو الأبيضُ الوَضَّاح» تريد خُلوصَ النَّسَب وزَكاءَ المَنصِب، واشتهار الذِّكر فى الأُفق.

وقولها «لو رُمِيَتْ به ضَواحٍ» تريد نَفاذَه وحُسنَ خُروجِه ممّا يَدخُل فيه وشدَّةَ صَدمَتِه[1] للأمور، ولَجاجَه فى إبرامها. فيقول: لو رُمِيَتْ بَوارِزُ هذا الجبل به لزَعْزَعها، وهَدَّ جوانبَها.

٣٩٥

وقالت العَوراءُ ابنةُ سُبَيْع:

١ — أَبْكى لعبدِ اللهِ إذْ حُشَّتْ قُبَيْلَ الصُّبْح نارُه

٢ — طَيَّانَ طاوِى الكَشْحِ لا يُرْخَى لِمُظْلِمَةٍ إزارُه

٣ — يَعْصِى البَخِيلَ إذا أرادَ المَجْدَ مَخْلُوعًا عِذارُه

(١) كذا على الصواب فى ل. وفى الأصل: «مذمته».

تريد أنها إذا تذكَّرتْ حالَ المرثيّ فيما كان تجرى أمورُه عليه ، ويأخُذُ نفسَه به ، عاوَدَها البكاء والنَّحيب . ومعنى « حُشَّتْ نارُه » ضُمّ ما تفرّقَ من الحَطَب إليها وأوقِدت . وإنما تريدُ نارَ الضيافة .

ومعنى « طَيَّانَ » صغير البَطْن ، مهضومُ الجنبَيْنِ ، قليلُ الطُّعْم . وقولها « طاوِى الكَشْح » أى يَمضِى فى الأمور لوَجهِه لا يُعرِّج على شىء ولا يَنْثَنِى . ويقال : انطوَى كَشحاً ، فيصير من باب تصبَّبَ عرَقًا . قال :

* أخٌ قد طوَى كَشحاً وأبَّ لِيَذْهَبا[1] *

وقولها « لا يُرخَى لمُظلمةٍ إزارُه » تريد أنه إذا نابَتْه النَّوائبُ تجرَّدَ لها وفيها وهو مشمِّرُ الإزار ، مقلَّص الذَّيل ، فداوَاها بدوائها ، ونهض فيها نَهْضَ المقتدِر عليها ، الفاصلِ لها .

وقولُها « يَعصِى البخيل » تقول : وإذا أراد اكتسابَ المجد أهانَ مالَه للفُقراء والعُفاة ، وفى إصلاحِ أمرِ العشيرة ، وعَصَى المُشيرَ عليه بالإمساكِ والبُخل ، نخلَعَ رِبقةَ طاعتِه ، وعذارَ احتشامِه .

٣٩٦

وَقالت عاتكة بنت زيد[2] :

١ – مَنْ لِنَفْسٍ عادَها أحزانُها وَلِعَيْنٍ شَفَّها طُولُ السَّهَدْ[3]

(١) كلمة « أخ » ساقطة من ل . وكلمة « قد » ساقطة من الأصل . وإثباتهما من مجموع النصين ومن ديوان الأعشى ٨٩ ومقاييس اللغة واللسان والجمهرة . وصدره :

* صرمت ولم أصرمكم وكصارم *

(٢) سبقت ترجمتها فى الحماسية ٣٩٣ ص ١١٠٢ .

(٣) ضبطت فى النسختين وكذا عند التبريزى « السهد » بضمتين ، والأوفق لمراعاة الشعر أن تضبط بفتحتين ، وهى لغة فى الأول .

٢ — جَسَدٌ لُفِّفَ فى أكفانِهِ رحمةُ اللهِ على ذاكَ الْجَسَدْ
٣ — فِيهِ تفجيعٌ لِمَوْلًى غارِمٍ لَمْ يَدَعْهُ اللهُ يَمْشِي بِسَبَدْ

قولها « مَن انفسٍ » توجُّعٌ وتَشَكٍّ واستغاثة . وعادَها ، أى اعتادَها . قال :

* عادَ قلبى من اللطيفة عِيدُ *

والمعنى مَن يُؤْمِن نفساً مما اعتادَها من الأحزان ، واجتمَع عليها فى رُزْئها من الأوصاب والآلام ، ومَنْ لعينٍ آذاها طُولُ الأرَق ، ودَوامُ السَّهَر .

وقولها « جَسَدٌ لُفِّفَ فى أكفانه » لُفِّفَ بما بعده صفة للجسَد ، ورحمة الله بما بعده ، اعتراضٌ بين الأوصاف ، لأنّ قولها « فيه تفجيع » صفةٌ أيضا . والكلام تحسُّر وتلهُّف . فتقول : رحمَ اللهُ جَسَدًا جُهِّزَ بما يُجَهَّز به الموتى ، وفُجِع به مواليه الذين كانوا يعيشون فى فِنائه ، فإذا لَحِقَ أحدَهم غُرْمٌ وقد ضاقت حالُه عن احتمالِه وَسَّعَ له فى جَنابِه ، وأعانَه على دهره بمالِه . وقولها « لم يدعهُ الله يَمشِي بسَبَد » تريد أفقرَه فلم يُبقِ له شيئاً . ويقال : « ما لَه سَبَدٌ ولا لبَد » ، فالسَّبَد : الشَّعَر ، واللَّبَد: الصوف .

٣٩٧

وقالت امرأةٌ من بنى الحارث(١) :

١ — فارِسٌ ما غادَرُوه مُلْحَمًا غَيْرَ زُمَّيْلٍ ولا نِكسٍ وَكَلْ(٢)

(١) من بنى الحارث بن كعب ، كما فى الخزانة (٥ : ٥٢٢) وأمالى ابن الشجرى (١ : ١٨٧ ، ٣٣٣) .

(٢) ويروى أيضا كما فى الخزانة : « فارساً » ، بالنصب : قال ابن الشجرى : « الرواية نصب فارس بمضمر يفسره الظاهر . وما صلة ، والمفسر من لفظ المفسر ، لأن المفسر متعد بنفسه إلى ضمير المنصوب ، ولكن لو تعدى بحرف جر أضمرت له من معناه دون لفظه ، كقولك : أزيداً مررت به ، التقدير : أجزت زيداً . لأنك إن أضمرت مررت أضمرت الجار ، وذلك مما لايجوز . فالتقدير إذن : غادروا فارساً . ويجوز رفع فارس بالابتداء والجملة التى هى=

٢ – لو يَشَا طارَ به ذو مَيْعَـةٍ لاحِقُ الآطالِ نَهْـدٌ ذو خُصَلْ(١)

٣ – غيرَ أنّ البَأْسَ منهُ شِيمَةٌ وصُروفُ الدَّهرِ تجرى بالأَجَلْ

قولها « فارسٌ ما غادروه » ماصلة ، والكلام فيه تفخيمٌ لأمر المرثىّ وتعظيمٌ لشأنه . تريد : تركوا فارساً رفيعَ المحل مُلْحَمًا ، أى طُعمةً لِعَوافِى السِّبَاع والطير . قال :

* قد أُلْحِمَتْنِى المَنَايَا السَّبْعَ والرَّخَمَا *

وقولها « غيرَ زُمَّيل » فالزُّمَّيل والزمَّال والزمَّل : الضعيف ، كأنه زُمِّل فى العَجز كما يُزَمَّلُ الرَّجلُ فى الثَّوب . وقولها « ولا نِكس وَكَلْ » فالنِّـكس : المقصِّر عن غاية النَّجدة والـكرامة ، وأصله فى السِّهام ، وهو الذى انكسرَ فجُعِل أسفلُه أعلاه ، فلا يزال ضعيفاً . والوَكَل : الجَبان الذى يتَّـكل على غيرِه فيضيِّع أمرَه .

وقولها « طارَ بِهِ ذو مَيعةٍ » حَـكى الحالَ ، والمراد لو شاء أنجاهُ فرسٌ له ذو نشاط . وقال الخليل : مَيعة الحُضْر والنَّشاط : أولُهما وجِدَّتهما . وقولها « لاحِقُ الآطالِ » تريد : ضامرَ الجنبَين . نَهْدٌ ، أى غليظٌ . ذو خُصَلٍ ، أى من الشَّعَر .

وقولها « غيرَ أنَّ البأسَ منه شِيمة » : تقول ثبَتَ ولم يَرَ لنفسه الانقباضَ والإحجام ، لأنَّ الصَّبرَ فى الشِّدَّةِ والبأْسِ عادةٌ منه وطبيعة ، ولأن صُرُوف

= غادروه وصف له ، وغير زميل خبره ولا موضع من الإعراب فى وجه النصب للجملة التى هى غادروه ، لأنها مفسرة فحكمها حكم الجملة المفسرة . وحسن رفعه وإن كان نكرة لأنه تخصص بالصفة . واذا نصبته نصبت غير زميل وصفاً له . ويجوز أن يكون وصفاً للحال التى هى ملحماً » .

(١) لو يشأ ، ضبطت فى ل بالجزم ، وهى رواية وشاهد فى أن « لو » قد تجزم الفعل . انظر الخزانة وأمالى ابن الشجرى .

الدَّهرِ تجرى إلى النفوس بآجالها ، ولـكل حَيٍّ وقتٌ من يومٍ معـلوم ، فإذا انتهى العُمر به إلى ذلك الوقتِ انقطعَ .

٣٩٨

وقال جَريرٌ ، يرثى قيسَ بن ضِرَارٍ[1] :

١ — وباكِيَةٍ من نَأْيِ قَيْسٍ وقد نَأَتْ بقَيْسٍ نَوَى بينٍ طويلٍ بِعَادُها

٢ — أظنُّ انهمالَ الدَّمْع ليس بمُنْتَهٍ عن العينِ حتَّى يَضْمَحِلَّ سوادُها

٣ — وحُقَّ لقيْسٍ أن يُباحَ له الحِمَى وأن تُعْقَرَ الوَجْناء إن خَفَّ زَادُها

قوله « وباكيةٍ من نأيِ قيسٍ » أَلَمَّ فيه بقول الآخر[2] :

وكنتُ أَرَى كالموْتِ من بينِ ليلةٍ فـكيفَ ببَيْنٍ كان ميعادَه الحَشْرُ

فيقول : رُبَّ امرأةٍ باكية لبُعدِ قيس عن مقرِّ عزِّه ، ومَسكَنِ نخرِه ، ونأيُ قيسٍ الساعةَ لمُنتوًى بُعدُه طويل . والنَّوَى : وِجهة القَوم التى ينوونها ، وهى مؤنَّثة . وأضاف النَّوَى إلى البَين — وهو الفِراق — لأنَّ الغرضَ فى تلك النَّوَى كان مفارقةَ الأحياء ، والتنقُّلَ إلى دار القرار ، فالبَينُ سبَبُها ومقتضِيها . وارتفع « بعادُها » بطويلٍ ، والضمير منها يعود إلى النوى . والواو من قوله « وقد نأت » واو الحال .

وقوله « أظنُّ انهمالَ الدَّمع » يريد أنَّ أوقاتَ البكاء متَّصلة ، وآمادَ سيلان الدُّموع غيرُ منقطِعة ، والعين وشُؤونَها لا تثبت لذلك ولا تَقوَى به ، فلا شكَّ

---

(١) التبريزى : « قيس بن ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة » . وهذه المرثية آخر المراثى عند المرزوقى ، لكن التبريزى روى بعدها ثلاث مرات ، سنثبتها فى الحواشى فى نهاية هذا الباب .

(٢) هو سلمة الجعفى . وقد مضى فى الحماسية ٣٨٥ ص ١٠٨١ .

أنّ سوادَها يَبطُل . وذلك أنّ مسبّبات الأشياء إنما تقوى وتدومُ بقوّةِ أسبابِها ومقتَضِياتها ، فما دامَ سببُ البكاء — وهو الحزنُ والهلَع — يملِك الباكى ويقودُ زِمامَه ، فالدّمعُ سائل ذارف ، وسوادُ العين مُشْفٍ على البُطُول هالك[1] .

وقوله « وحُقَّ لقيسٍ أن يُباحَ له الحِمَى » الأصل فى الحمى الماء والكلأ ، ولمّا كان العزيزُ منهم يَستبيح الأحمِيَة ويحفظُ حِمَى نفسِه ويمنعُ منه كلَّ أحد ، ، وإذا قال أحمَيْتُ هذا المكانَ ، أى جعلته حِمًى ، كان يُتَجَنَّب ويُتَحامَى إجلالاً وخوفاً منه — استُعِير من بَعْدُ للقلب وما يمتلك منه الحبُّ أو الحزنُ أو غيرهما وما لا يُمتَلك منه ، فيصير كأنه حِمَى العقل . فيقول : حُقَّ لقيسٍ والمصاب به أن يُباحَ له من القلوب ما كان حِمًى ، فلا ينزلَ به غمٌّ ، ولا يمتلكه سرور ، أى حُقَّ للجزَع به أن يَبلغ من القلب حَدًّا لم يبلغْ منه شىء . وقد أخرجوا هذا المعنى فى مَعارضَ لأنه معنًى صحيح حكيم شريف ، فقال كُثيِّر فى الحُبِّ يصف امرأة :

أباحَتْ حِمًى لم يَرْعه الناس قبلها ... وحَلَّتْ تِلاعاً لم تكنْ قبلُ حُلَّتِ

يريد : بلغَتْ من القلب هذا المبلغ .

وأخذَه منه عبدُ الله بن الصِّمَّةِ القُشَيرىّ ، فقال :

فَحَلَّتْ مَحَلاًّ لم يكُنْ حُلَّ قَبْلَها ... وهانَتْ مَرَاقِيها لِرَيّا وذَلَّتِ

وأخذه أبو نُواسٍ فقال :

مُباحةٌ ساحةُ القُلوبِ لهُ ... يَرْتَعُ فيها أطايبَ الثَّمرِ[2]

وأخرجه على وجهٍ آخر فقال ينفِي[3] :

---

(١) يقال : بطل يبطل بطلا ، بالضم ، وبطولا ، وبطلانا : ذهب ضياعاً وخسراً .

(٢) ل : « يرتع منها » .

(٣) هذه الكلمة من ل .

بصَحْنِ خَدٍّ لم يَغِضْ ماؤُهُ ولم تَخُضْهُ أعيُنُ الناسِ[١]

فنقَل إلى الخدِّ وغَمَضَ كما ترى .

وقال آخر يصف ناقة :

* حمراءُ منها ضَخمةُ المكانِ[٢] *

يريد عظيمة المكانِ من القلب . ذكره الأصمعى . يريد أنها محببة . وقد قيل فيه غير هذا .

وقولُه : « وأن تُعقَر الوجناء إن خَفَّ زادُها » كان الواحد منهم إذا مرَّ بقبر رئيسٍ وهو فى صُحبةٍ أحبَّ أن ينوب عن المقبور فى الضيافة ، فإذا لم يساعدْه من الطعام ما يَدْعو الناسَ إليه عقَرَ ناقتَه ؛ إكراماً له . لذلك قال « وأن تُعقر الوجناء إنْ خَفَّ زادُها » . والوجْناء : الناقة الصُّلبة ، أُخِذ من الوجين ، وهو الأرض الصُّلبة . فمن رَوَى « أنْ خَفَّ زادُها » بفتح الهمزة ، فالمراد لِأنْ خَفَّ زادُها . ومن رَوَى « إنْ خَفَّ » بكسر الهمزة فهى للشرط . وقد اعتذر بعضُهم[٣] من ترك ذلك فقال :

لولا السِّفارُ وبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ لَتَرَكْتُها تَحْبُو على العُرقوبِ

يعنى ناقته .

وقد حكى ابنُ الأعرابى حكايةً مليحة ، قال : كان رجلٌ يُواصِلُ امرأة فخرج فى سفرٍ له وعاد وقد استَبْدَلَتْ به ، فأتاها لِعادته[٤] ، فقالت :

ألم تَرَ أنّ الماء بُدِّلَ حاضِرًا وأن شِعابَ القَلْبِ بَعْدَكَ حُلَّتِ

(١) تخضه ، بالياء فى الأصل ، وبالتاء فى ل .
(٢) الرجز لابن ميادة ، كما فى أمالى القالى (٣ : ٢٠٢) . وانظر مجالس ثعلب ٥٠٦ .
(٣) هو حفص بن الأحنف الكنانى . سبق فى الحماسية ٣٠٦ ص ٩٠٦ .
(٤) لعادته ، باللام ، كما فى الأصل و ل والتبريزى .

فأجابها :

فإنْ تَكُ حُلَّتْ فالشِّعابُ كثيرةٌ   وقد نَهِلَتْ منها قَلُوصى وعَلَّتِ

تم باب المراثى بحسنِ توفيقِ الله وجَميلِ صُنْعه ، وله على تواتُرِ نِعَمِه ، وتتابع أياديه ، أجزَلُ الحمد(١) .

---

(١) بعده فى ل : « وأكثر الشكر ، وعلى النبى المصطفى ، محمد المجتبى خير الورى ، أوفى صلواته ، وأنمى بركاته ، وعلى آله الطيبين الظاهرين ، وسلم » .

هذا . وقد روى التبريزى بعد هذه المقطوعة ثلاث مقطوعات أخرى آثرنا إثباتها هنا ، وهى :

وقال آخر :

إنَّ المَساءةَ للمسرَّةِ موعدٌ   أُخْتانِ رَهْنٌ للعشيَّةِ أَوْ غَدِ

فإذا سمعْتَ بهالكٍ فتيقَّنَنْ   أنّ السَّبيلَ سَبيلُه وتَزَوَّدِ

وقال آخر يرثى أخاه :

أَخٌ وَأَبٌ بَرٌّ وَأُمٌّ شَفِيقةٌ   تَفَرَّقَ فى الأبرارِ ما هُوَ جامعهُ

سَلوتُ به عن كلّ من كان قبلَهُ   وأذهلَني عن كلِّ ما هو تابعُه

وقال آخر يرثى ابنه :

ذهبتَ عَلَى حِينَ أَعْجَبْتَنِي   وَوَلَّى الشَّبَابُ وجاءَ الكِبَرْ

فإنْ أَبكِ أبكِ على فاجعٍ   وإنْ يكُ صَبْرٌ فمثلِي صَبَرْ

بَابُ الأَدَبِ

بابُ الأدَبْ

٣٩٩

قال مِسكينٌ الدارِمىّ[(١)] :

١ — وفتيانِ صِدْقٍ لستُ مُطْلِعَ بعضِهم   عَلَى سِرِّ بَعْضٍ غيرَ أَنِّى جِمَاعُها

قوله : « وفتيانِ صِدْقٍ » أضافَ الفتيانَ إلى الصِّدق ، كما يقال فِتيانُ خير . والمعنى أنَّهم يصدُقون فى الوُدّ ولا يخونون . وقال الخليل : يُقال رَجُلُ سَوْء وإذا عرَّفتَ قلتَ الرَّجل السَّوْء ، ولم تُضِفْ ، بل تجعلُه نَعْتاً . وتقول : عَمَل سَوْءٍ وعَمل السَّوْء ، وقولُ صِدْقٍ وقول الصِّدق ، ورجل صِدقٍ ، ولا تَقُل الرَّجل الصِّدْق ، لأنّ الرجل ليس من الصِّدْق .

فيقولُ : رُبَّ فِتيانٍ هكذا استنامُوا إلىّ واستودَعونى أسرارَهم ، فكنتُ أنا نِظَامَها لا يَفوتُنى من خَبيئاتِ صُدورهم شىءٌ ، ثمَّ أفرَدْتُ كلاًّ منهم بالوفاء له ، وكتمانِ ما أودَعَنى من سِرِّه ، ولا أُطْلِعُ بعضَهم على ما يَستكتِمنى البعضُ الآخَر ، بل أصونُه من الإذاعة ، وأَحْفَظُهُ من النَّشر بالطَّىّ والصِّيانة . وذاك لأنَّ حِفظَ السِّرّ يجرى مَجرى أداءِ الأمانات ، فهو فى الدِّين والدُّنيا مأخوذٌ به ومبعوثٌ عليه . وقوله « جِمَاعُهَا » ، هو كما يقال نِظامٌ ، لأنّ النِّظام اسمٌ لما يُنظَمُ به الشَّىء فهو كالوِثاق والرِّباط . وكذلك الجِماعُ : اسمٌ لما يُجمَعُ به الشَّىء . والضمير من

---

(١) مسكين لقب له ، واسمه ربيعة بن أنيف الدارمى ، شاعر إسلامى هاجى الفرزدق ثم كافه ، وكان له أثر ظاهر فى ترشيح يزيد بن معاوية للخلافة . انظر ترجمته فى الأغانى (١٨ : ٦٨ — ٧٢) والخزانة (١ : ٤٦٥ — ٤٧٠) واللآلى ١٨٦ — ١٨٧ ومعجم الأدباء (٤ : ٢٠٤ — ٢٠٦) مرجليوث ، والشعر والشعراء ٥٢٩ — ٥٣٠ .

جِماعُها يرجع إلى الفِتْيان ، ويجوز أن يرجعَ إلى ما دلَّ عليه الكلام من ذِكر الأسرار . وانتصب « غَيْرَ » على أنّه استثناء منقطِع .

٢— لِكُلِّ أمرِئٍ شِعْبٌ من القَلبِ فارِغٌ ومَوضِعُ نَجْوَى لا يُرَامُ اطِّلاعُها

٣— يَظَلُّونَ شَتَّى فى البِلادِ وسِرُّهُمْ إلى صَخْرةٍ أَعْيا الرِّجالَ انصداعُها

قوله « لكلّ امرئٍ » يريد لكلّ رجلٍ منهم جانبٌ من القلب ، وشِقٌّ قد فُرِّغَ له وخُصَّ بموضع سرِّه ونجواه ، لا يُطلَبُ الاطِّلاع عليه والكشف عنه ، لما عُرِف من محافظتى ووفائى . والنَّجْوَى يجرى على أحكام المصادر : الدَّعوى ، والعَدوَى ، وألِفُه للتأنيث ، ويوصفُ به الأمر المكتوم . ويقال : نَجَوتُه فهو نجىٌّ[(١)] . وقد وُصِفَ بالنَّجْوَى والنَّجىّ الواحد والجمع . [وفى[(٢)]] القرآن : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ ، و ﴿ إذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ ، و﴿ ما يَكُون مِنْ نَجْوَى ثَلاثةٍ ﴾ . ويقال : تَنَاجَوْا وانْتَجَوْا .

وقوله « يَظَلُّونَ شَتَّى فى البِلاد » يريد أنهم يُفارِقونَهُ فيتغيَّبون فى أقطار الأرض ، وسِرُّهُمْ مكتوم مُحصَّن ، كأنه أودِع صَخْرَةً أعْجَزَ الرجالَ صَدْعُها . ويقال : شَتَّ الأمرُ شَتًّا وشَتَاتًا ، وهو شَتِيتٌ وشَتٌّ ، وهم أشتاتٌ وشَتّى . فأشتاتٌ جمع شَتٍّ ، وشَتّى : جمع شَتِيتٍ . ويُروى « أعيا الجبالَ اتِّضاعُها » . والمعنى أنّ هذه الصَّخرةَ لإشرافِها وثُبوتِها فى موضِعِها لو رام الجبالُ حَطَّها لأعجزها ذلك . وقوله « إلى صخرة » أى مضمومٌ إلى صخرة . فتعلَّق إلى بفعل مضمرَ دلَّ عليه الكلام .

(١) ل : « نجيى » .
(٢) التكملة من ل .

٤٠٠

وقال يحيي بن زياد[(١)] :

١ – لمّا رأيتُ الشّيبَ لاحَ بياضُهُ بمَفرقِ رأسي قلتُ للشّيبِ مَرحَبا[(٢)]

٢ – ولو خِفتُ أنّي إن كففتُ تحيّتي تنكّبَ عنّي رُمتُ أن يتنكّبا

٣ – ولكن إذا ما حلّ كُرْهٌ فسامَحَتْ به النّفسُ يوماً كان للكُرهِ أذهبا

قوله « لمّا رأيتُ الشيب » لمّا عَلَمٌ للظّرف ، وهو لوقوع الشّيء لوقوع غيره . وجوابه « قلتُ للشّيب مَرحَبا » . وكان الواجب أن يقول : قلتُ له مَرحَباً ولكنّهم يكرّرون الأعلامَ وأسماءَ الأجناس كثيراً ، والقَصد بالتّكرير التّفخيم . والمعنى : لمّا وجَدت الشّيبَ اشتَعَل رأسِي ببياضه ، طيّبتُ نفسي بطُلوعه وقلتُ له : أتيتَ رُحباً وسَعَةً . وقولُه « مَرحَباً » انتَصَب على المصدر . ويقال : رَحُبَتْ بلادُكَ رُحباً ورَحابَةً . وحُكى رَحِبَتْ بلادُك بكسر الحاء تَرحَبُ رُحْباً . والرَّحْبَةُ والرَّحَبَة ، واحدٌ وهما ساحةُ المسجدِ .

وقوله « ولو خِفتُ » يريد بخِفْت رجَوت ، وهم يَضَعون كلَّ واحدٍ من الرّجاء والخَوفِ موضعَ الآخَر . ألا ترى قوله تعالى : ﴿ إنّهم كانُوا لا يَرجُونَ حِسَاباً ﴾ ، أى لا يخافون . وقول الآخر ، وهو الهذَلىّ : « يَرجُونَ لَسْعَهُ[(٣)] » . يعني النّحل . فيقول : لو رجوتُ أنّي إذا تكرّهتُ الشّيب وتسخّطتُه ،

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٨١ ص ٨٦٠ .

(٢) كذا جاء البيت بالخرم فى النسختين ، وجاء تاما فى التبريزى : « ولما رأيت الشيب » .

(٣) كذا فى النسختين . والمعروف كما عند التبريزى : « لم يرج لسعها » . وهذا قطعة من بيت لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ١٤٣) ، وهو بتمامه :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نوب عواسل

وكففت عن إظهار الرِّضا به والسُّرورِ لطَلْعتِه فارقَنى وانحرَفَ عنِّى ، لَرُمْتُ ذلك ، ولكنْ إذا حلَّ ما يكرهه فطاوعَتْ نفسُه به ، وتلقَّاه بالصَّبر عليه ، كانَ ذلك أعْوَنَ على زَوال الكراهة فيه ، وإلَّا اجتمعَ وجهانِ مما يشق نُزولُه به ، واغتمامُه له . وقوله « فسامَحَتْ به النَّفس » أى ساهَلَتْ . ومنه قيل : عُودٌ سَمْحٌ أى لا أُبَنَ فيه[1] . ومما يَجرِى مَجرَى المَثَل : « إذا لم تَجد عِزًّا فسمِّحْ » أى لِنْ وهِنْ . وقولُه « كان للكُره أذْهَبا » كان الحُكْمُ أن يقول أشدَّ إذهاباً ، لأنّ الفعل منه ليس بثلاثىّ . ولكنْ على طريقة سيبويه يجىء أن يُبنَى فِعل التعجُّب مما كان على أفعَلَ أيضاً ، وإن كان البابُ على الثُّلاثىّ . وقد يمكن أن يقال : إنَّما قال « أَذْهَبا » على حذف الزَّوائد . ألا ترى قولَه :

فإنَّا وَجَدْنا العِرضَ أفقَرَ ساعةً إلى الصَّوْنِ من بُرْدٍ يَمانٍ مُسَهَّمِ[2]

والفعل لم يجئْ إلَّا افتقَرَ ، فكأنَّه نَوَى حذفَ الزَّوائد وردّه إلى فَقُرَ ، وعليه جاء « فقيرٌ » وإن لم يُستعمَل الفعل .

وقوله « ولكن إذا » لكنْ جاء فى هذا المكان لتَرك قِصّةٍ إلى قصّةٍ ، وهى إذا جاءت عاطفةً كانت لاستدراكٍ بعد النَّفى . وجواب « لو » فى قوله : لو خِفْتُ « رُمْتُ أن يتنكّبا » ، وجواب إذا من قوله « إذا ما حَلّ كرهٌ » : « كان للكُره أذهَبا » . ويوماً انتصَبَ على الظَّرف ، والعامل فيه حَلّ ، واسم كانَ ما دلّ عليه قولُه سامحت ، كأنَّه قال : كانَ المسامحةُ أذهَبَ للكره .

---

(١) الأبن : جمع أبنة ، بالضم ، وهى العقدة فى العود ، والعيب .

(٢) البيت لأوس بن حجر فى ديوانه ٢٧ واللسان (سهم) ، والرواية فيهما : « أحوج ساعة » .

٤٠١

وقال المرّار بن سعيد[١] :

١ــ إذا شئت يَوْماً أن تَسُودَ عَشِيرَةً فبالحِلْمِ سُــدْ لا بالتَّسَرُّعِ والشَّتْمِ

٢ــ ولَلْحِلْمُ خَيْرٌ فاعْلَمَنَّ مَغَبّــةً مِنَ الجَهْلِ إلّا أن تَشَمَّسَ مِنْ ظُلْمِ

جواب وقوله « إذا شئت » قوله فبالحلم . والمعنى أنَّ السِّيادة لها آلاتٌ ، وإليها مَرَاقٍ ودرجات ، فمَنْ أتاها من وَجهها ومأتاها تمَّتْ له ؛ وذاك أنَّ منها استعمالَ الحِلْمِ ، وتركَ التعجُّل ، وكَظْمَ الغيظِ ، وتسهيلَ الجانبِ ، والاحتمالَ في النَّفس والمال والجاه ، إلى غير ذلك مما يَطولُ ذِكرُه . فمَنْ صبَرَ في طلب الرِّياسة وحُصول سيادةِ العشيرة ، على هذه الخصال ، فهو حقيقٌ بإدراكها ، فإنْ أخَذَ يُخَشِّنُ جانبَه ويقطِّب وجهه ، ويغلِّظ كلامَه ، ويوسِّعُ غَيظَه ويُفَظِّظ قلبَه ، ويعجِّل الطَّاعةَ له ، نفرت العشيرةُ منه ، وبانوا عنه . لذلك قال مَنْ قال :

فإنْ كنتَ سيِّدَنا سُــدتَنا وإن كنتَ للخالِ فاذْهبْ فَخَلْ[٢]

وقوله « ولَلحِلمُ خيرٌ فاعلَمَنَّ مغبّةً » انتَصب مغبّةً على التمييز . وقوله « فاعلمَنَّ » حَشْوٌ . فإن قيل : كيف اختِيرَ هذا البيتُ بهذا الحَشْو ، والمتكلمُ إذا استَعملَ في كلامِهِ مع المخاطب اعْلَمْ واسمَعْ وما يجرى مجراها ، عُدَّ ذلك منه عِيًّا ؟ قلتَ : إنَّ هذه اللَّفظةَ في هذا المــكان مُحتاجٌ إليها في عُمدة المعنى المقصود ،

---

(١) هو المرار بن سعيد بن حبيب الفقعسي الأسدي ، وهو من مخضرمي الدولتين ، وقيل : إنه لم يدرك الدولة العباسية : الأغاني (٩ : ١٥١ – ١٥٤) والخزانة (٢ : ١٩٣ – ١٩٧) والمؤتلف ١٧٦ والمرزباني ٤٠٨ – ٤٠٩ والشعر والشعراء ٦٨٠ – ٦٨٣ .

(٢) البيت ٤ من الحماسية ٦٧ ص ٢٥٢ .

وإنَّ ما أشرْتَ إليه إنَّما يكون زوائدَ وفُضولًا لا يُحتاج إليه ، فإذا وَصَل المتكلم بها كلامَه مستعيناً بها عُدَّ منه خطَلًا وعيًّا ، وهو فى هذا المكان وصَّاه بالفِكْر فيما أوردَه والتبيُّنِ له ، وبمعرفةِ الحِلْم ووقتِه حتَّى يَدْرِيَ كيف يأخذُ به . فقولُه : فاعلمَنّ ، فاعرِفنّ ، ومفعوله محذوف ، والمراد فاعلمَنّ الحِلمَ ومغبَّتَه ، فأطلَقَ . رجع فيما أشار به مطلقاً ، واستثنى فى كلامه فقال : إلَّا أن تَنْفِرَ من ظُلْمٍ يَرْكَبُك ، وهضيمةٍ تَنالُك ؛ فإنَّ الجهلَ فى ذلك الوقتِ أرجحُ فى الاختيار من الحِلْم ، إذ كان صَدْمُ الشَّرِّ بالشَّرِّ أقرب ، ودفعُ الجهلِ بالجهل أحْلَمَ . ويقال : غَبَّت الأمور ، إذا صارتْ إلى أواخرها . وإنَّ لهذا الأمرِ لَمَغَبَّةً محمودة ، أى عاقبة . وقوله « تَشَمَّسَ » ، يقال إنَّه لَذُو شِماسٍ شديد ، إذا كان عَسِرًا . وشَمَس لى فلانٌ إذا تنكّرَ وهمَّ بالشَّرّ .

٤٠٢

وقال عِصَامُ بنُ عُبيدِ الله(١) :

١ — أَبْلِغْ أبا مِسْمَعٍ عَنِّى مُغَلْغَلَةً وفى العِتابِ حياةٌ بينَ أقوامِ

٢ — أَدْخَلْتَ قَبْلِيَ قَوْمًا لم يَكُنْ لَهُمُ فى الحقِّ أن يَدْخُلُوا الأبوابَ قُدَّامِى(٢)

قوله « مغَلغلة » أى رسالةً يُغلغِلها إلى صاحبها . وهو من قولهم : تغلغل الماء ، إذا دخَلَ بين الأشجار ، وغلغلتُه أنا(٣) . وقال الدُّريدىُّ : الغَلغلة : دُخول الشىء فى الشىء . وقال الخليل : الغَلغلة : سُرعة السّير . يقال تَغلغَلوا ومَضَوْا . ورسالةٌ مُغلغَلة : محمولة من بلدٍ إلى بلد . وقوله « وفى العِتاب حياةٌ

(١) التبريزى : « عصام بن عبيد الزمانى » . على أن الأبيات رواها الجاحظ فى البيان (٢ : ٣/٣١٦ : ٤/٣٠٢ : ٨٥) منسوبة إلى همام الرقاشى .

(٢) الجاحظ : « أن يلجوا الأبواب » .

(٣) فى الأصل : « وغلغله إياه » ، صوابه فى ل .

بينَ أقوام » اعتراضٌ ، وقد مرَّ القول فى فائدة الاعتراضات . والمعنى أنَّهم ما داموا يتعاتَبُون فإنَّ نيَّاتِهم تُعاوِد الصَّلاحَ وتُرَاجِعه ، وإذا ارتفع العتابُ من بينهم انطوتْ صدورُهم عن الإحَن والضغائن ، وظهَرَ الشَّرُّ على صَفَحات أقوالهم وأفعالهم ، فاهتاجت الحميَّات ، وأنتجت مِن سُوء عقائدهم البَلِيَّات . وفى طريقته قال أبو تمَّام :

* إن الدَّمَ المُغْتَرَّ يحرسُهُ الدَّمُ[(١)] *

وقال غيره : « القَتْلُ أقَلُّ للقَتْل »[(٢)] . فأمَّا قولُ الله تعالى : ﴿ ولَكُمْ فى القِصَاصِ حياةٌ ﴾ فإنَّ بلاغةَ القرآنِ لا تُدانيها بلاغةٌ ، وكلُّ كلامٍ وإن علا ينحطُّ دونه . والرِّسالة قولُه : أدْخَلْتَ قبلىَ قوماً . والمعنى أنَّك قدَّمْتَ علَىَّ فى الإذن والدُّخول قوماً لم يكن من حقِّهم أنْ يتقدَّموا علىَّ إذا وردْنا الأبواب ، ولا بلَغَتْ من محالِّهم ورُتَبهم أن تُرفَع على ما يُقسم لى فى مجالس الكِبار . وقوله « أنْ يَدخُلوا الأبوابَ » حقُّه عند سيبويه أن يقال أنْ يَدْخُلوا فى الأبواب ، يجعلُه مما يتعدَّى فى الأصل بحرف الجرِّ ثم يُحذف الجارُّ من اللفظ تخفيفاً . ومسألة الكتاب[(٣)] : دخلْتُ البيتَ . وغيرُه يذهب إلى أنه مما يتعدَّى تارةً بنفسه وتارة بحرف الجرّ ، وفى أنَّهم يقولون دخلت فى الأمر فيُعدَّى بفى لا غير ، وأنَّ ضدَّه وهو خرجت يتعدَّى بحرف الجر ، بيَانٌ لصحَّةِ قولِ سيبويه .

(١) فى الأصل : « المغنى » ، صوابه فى ل . والمغتر ، بالغين المعجمة : الغافل . وفى ديوان أبى تمام ٢٧٤ : « المعتر » بالعين المهملة . وصدر البيت :

* وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم *

وقبل البيت بيت سائر ، وهو :

فقسا لتزدجروا ومن يك حازما   فليقس أحياناً على من يرحم

(٢) كذا فى النسختين . ويروى : « القتل أنفى للقتل » .

(٣) أى كتاب سيبويه .

٣– لَوْ عُدَّ قَبْرٌ وَقَبْرٌ كنتُ أَكرمَهمْ مَيْتًا وأبعدَهمْ مِن منزلِ الذّامِ[١]

٤– فقدْ جعلتُ إذا ما حاجتى نَزَلَتْ ببابِ دارِكَ أَدْلُوها بأقوامِ[٢]

[قوله[٣]] : « لو عُدّ قبرٌ وقبرٌ » المراد به والأصل فيه : لو عُدَّت القبورُ قبراً قبراً ، إلّا أنّه اختصر الكلامَ وحذَفَ القبورَ ورَفَعَ قبراً على أن يقوم مقامَ الفاعل ، فلما رفعه وأزالَهُ عن سَنَن الحالِ فى نحو قولهم : بِعْتُ الشّاءَ شاةً شاة ، وقَبَضْتُ المالَ دِرهماً درهما ، وصُمت رمضان يوماً يوما ، ردَّ حرفَ العطف ، وإنما قلتُ هذا لأنَّه من مواضع العطف ، لـكنَّهم اتَّسَعُوا فى الحال لعلم المخاطب . وقال سيبويه : إنّ الغالب على هذا البابِ كلِّه أن يكون انتصابُه من إحدى الجهتين : الحالِ أو الظَّرف ، لأنّ الاتِّساع منهم على هذا الحدِّ والجواز لم يكنْ إلّا فيهما . والظَّرفُ كقوله : لقيتهُ يومَ يومَ ، وصباحَ مساء ، وما جانسهما . قال : والإفراد فى هذا الباب لا يجوز حمايةً على المعنى الذى يتضمَّنه التَّـكرار .

وإن قيل : هل يجوز على مابيَّنتَ : لو عُدَّت القبورُ قبر وقبر ، على البدل ، وكذلك بُيّن حسابُه باب وباب ؟ قلتَ : لا يجوز ذلك ، لأن القصدَ والغرضَ من الـكلام ، وقد أُجرِىَ على ما تقدَّم ، التفصيلُ والتتابع ، ومن الإبدال على ما ذكرتَ لا يتبيَّن ذلك . ومع ذِكر القبور يُحذَف الواو من الاسمين المترجِمين عن الحال بعدَه . لا يجوز بعتُ الشاء شاةً وشاةً ؛ فـكذلك هذا ، على أن بابَىِ الحالِ والظَّرف يحتملان من التوسُّع ما يَضِيق عنه أكثرُ أبواب لإعراب

(١) البيان : « كنت أكرمهم قبراً » .

(٢) البيان : « إذا ما حاجة عرضت » .

(٣) التكملة من ل .

ويَعجِز ، وإذا كان كذلك لم يجزْ تجاوزُهما بالاتِّساع فيهما إلى غيرهما . ألاَ ترى أنه لو قال : لو عُدَّ قبرانِ كنتُ أكرمَهما مَيْتاً ، لم يجُزْ ، ولم يتبيَّن منه ذلك المعنى ، وإن كان المعطوف والمعطوف عليه إذا قلت جاءنى رجلٌ ورجلٌ بمثابة جاءنى رجلان .

ومعنى البيت : لو عُدَّتِ القُبورُ مُنوَّعةً مفصَّلة — وإنما يعنى أسلافَ مَن قُدِّمَ عليه فى الإذن والدُّخول خؤولةً وعمومة — لكنتُ أكرمَهم أباً ، وأشرفَهم بيوتاً . فكَنَى عن البيت والمَنصِب بقوله « وأبعدَهم من منزل الذَّامِ » أى من منزل العَيب ، لأنَّ الذَّامَ والذّمَّ بمعنًى . يقال : ذامَه يَذِيمُه ، كما يقال ذَمَّه يَذُمُّه ، وحيث يحصُل العيبُ يحصُل الذّمُّ ، أُظهِر أو لم يُظهَرْ .

وقوله « فقد جَعَلْتُ إذا ما حاجَتِى نَزَلَتْ » يريد بجعَلْت طَفِقْت وأقبلت . يقال : جعَلَ يفعل كذا . والمعنى : أنِّى قَعدتُ عنك وتركتُ زيارتَك ، وإذا اتّفق ما لا بدَّ لى منك ومن مَعُونتك من حاجةٍ أو عارضِ سببٍ فإنِّى معتمدٌ على غيرى فى التَّنجُّز والاستسعاف . ومعنى « أدلوها » من قولك دلَوت الدَّلوَ ، إذا أخرجتَها من البئر ، أى أتسبَّب بغيرى ، وأصونُ من التبذُّل عِرضِى .

٤٠٣

وقال شَبيبُ بن البَرْصَاء[1] :

١ — وإنِّى لَترَّاكُ الضَّغِينةِ قَدْ بَدَا ثَرَاها مِنَ المَوْلَى فَمَا أستَثِيرُها[2]

٢ — مَخَافَةَ أنْ تَجْنِى عَلَىَّ وإنَّمَا يَهِيجُ كَبِيراتِ الأُمورِ صَغِيرُها

(١) هو شبيب بن يزيد بن جمرة المرى . والبرصاء أمه . وشبيب شاعر إسلامى بدوى من شعراء الدولة الأموية ، وكان يهاجى عقيل بن علفة . الأغانى (١١ : ٨٩ — ٩٤) .

(٢) التبريزى : « فلا أستثيرها » .

يقول : إنّى أصابرُ مُوَالِيّ وأحتملُ أذاهُم ، وأعفِّى على فرَطاتهم ما وجدتُ سبيلًا إلى الصَّبر ، فأتركُ ضَغائنهم تبدو أوائلُها ، وتَظهر مَخايلها ، ولا أكشفُ عنها ولا أطلب ثَوَرانَها ، مخافةَ أنْ يَستفحِلَ الشّرُّ ويرجعَ الصَّغيرُ منه كبيراً ، وسهلُه عسيراً ؛ فإنّ أوائلَ الأمور كلِّها ضعيفةٌ ضيِّقة ، فإذا اتّفقَ لها مَن يَهيجُها ويَزيد فى موادِّها قويَتْ واتّسعت . والتَّرّاك : بناء المبالغة ، وهو الكثير التَّرك للشّىء ، وليس هو باسم الفاعل من تَرَكَ . والضّغينة والضَّغَن والضِّغْن[١] واحد ، وهى الحقد والعَداوة . ويقال : ضَغِن علىّ واضطَغَن . وقال الخليل : الضِّغن فى الدَّابّة : عَسَرهُ والتواؤُه . ودابّةٌ ضَغِنَةٌ ، إذا نَزَعتْ إلى وطنها . والثَّرَى : النَّدَى ، والفعل منه ثَرِى . والمراد به هاهنا ما يُستدَلُّ به على كامن الحِقْد . ويقال : ثار الأرنبُ من موضِعِها ، واستثَرْتُها أنا .

وقوله «مخافةَ» انتصَبَ على أنّه مفعول له ، و «أن تَجْنِى» فى موضع المفعول منها ، وقد أضافها إليه . وقوله « صغيرها » يراد به الكَثْرة ، أى صغائرها .

٣ — لَعَمْرِى لَقَدْ أشْرَفْتُ يَوْمَ عُنَيْزَةٍ على رَغْبةٍ لو شَدَّ نَفْسِى مَرِيرُها

٤ — تَبَيَّنُ أعقابُ الأُمورِ إذا مَضَتْ وتُقبِلُ أشباهًا عَليك صُدُورُها

قوله « على رغبة » أى على مرغوبٍ فيه ، كأنّه كان ظَهَرَ له من الفُرَص فى صاحبه ما لَو انتهَزها ولم يَغفُل عنها لكان فيها الاشتفاء منه ، ودَرَكُ المطلوب فى بابه ، فلمَّا لمْ يفعلْ وأصرَّ صاحبُه على مَسَاءته أخذ يتحسَّر . وقوله « لو شَدَّ نفسى مريرُها » يريد : لو قوّى نفسى عَزيمُها ، وحصيفُ رأيِها . والمَرير : المُمَرّ المحكَم . ووُصِفَ الحبل به لذلك . ويقال : استمَرَّ مريرُ فلانٍ ، إذا استحكَمَ رأيُه واستحصَفَ . وعُنيزة : مَوضع[٢] .

(١) هذه الكلمة ساقطة من ل .

(٢) موضع بين البصرة ومكة ، كما فى معجم البلدان .

وقوله « تَبيَّنُ أعقابُ الأمور إذا مضت » مثلُه قول القطاميّ :

ولا يَعْلَمُ الغيب امرؤٌ قبل ما يَرَى ولا الأمْرَ حَتَّى تَسْتَبِين دوابِرُه

وأ كشَفُ منه قول حُميدِ بن ثَور :

أُشَبِّهُ غِبَّ الأَمْرِ ما دَامَ مُقْبِلاً ولـكنَّما تِبْيَانُهُ فى التَّدَبُّرِ (١)

وأعقاب الأمور : أواخرها . ويروى : « تبيّنُ أدبار الأمور إذا انقضَتْ » يُراد به تَتبيّنُ . وانتصَب « أشباها » على الحال .

٥ — إذا افتخَرَتْ سَعْدُ بنُ ذُبيانَ لم تَجِدْ سِوَى ما ابتَنَيْنَا ما يَعُدُّ فَخُورُها

٦ — ألم تَرَ أنَّا نُورُ قَوٍّ وإنَّما يُبيِّنُ فى الظَّلْماءِ للناسِ نورُها

يقول : مَفاخِرُ سعدٍ ومَبانى مكارمِها على ما أسَّسه قديمًا ، وعَمَّره حديثًا ، فمتى استُعرِضَتِ المساعِى فى منافرة الخُصوم لم تجدْ بنو سعدٍ مايعتمده فَخُورُها ، ويُكاثِر به خَصِيمُها ، إلاّ ما شيَّدناه على مرِّ الأيام ، وتعاقُب الأحوال . فقوله « سوى ما ابتنينا » استثناء مقدَّم . و« ما » يعد فى موضع مفعول لم تجد .

وقوله « ألم ترَ » تقرير لمن تصوَّره مخاطَباً فيقول : أمَا علمت أنَّا لأهلِ قوٍّ (٢) بمنزلة النُّور للأبصار ، فهم بنا يهتدون ، وبمعالمنا يقتدون ، ولمراسمنا يقتفرون (٣) ، وبسنا رأْينا يستضيئون ، ولولا ذلك لكانوا يتوقَّفون (٤) فى مَرَاشدهم فلا يَقضُون ، ويتحيَّرون فى آرائهم (٥) فلا يَمضُون ، كما أن الناسَ لولا ما يُمِدُّ به النورُ أبصارَهم فى رَواكدِ الظُّلَمِ حتى يتبيَّنوا المرئيَّات ، ويتميَّزوا أشباحَ المدركات على حقائقها ، لوقَفوا حَيارَى لا يتقدَّمون ولا يتأخَّرون .

(١) البيت لم يرو فى ديوان حميد ، ولا فى ملحقات ديوانه .
(٢) قو : منزل للقاصد إلى المدينة من البصرة .
(٣) الاقتفار : التتبع ، وأصله فى تتبع الأثر .
(٤) ل : « يتوقعون » ، صوابه فى نسخة الأصل .
(٥) فى الأصل : « مراشدهم » ، صوابه فى ل .

ومفعول « يُبيِّن » محذوف ، والضمير من نورُها يعود إلى الظَّلماء لما كان يتعقّبها . وهم يُضِيفون الشيءَ إلى الشيء لأدنى تناسُب بينهما .

٤٠٤

وقال مَعْن بن أَوْس (١) :

١ — لَعَمْرُكَ ما أَدْرِي وإنِّى لَأَوْجَلُ ... على أيِّنا تَعـــدُو المنيَّةُ أوّلُ

لعمرك مبتدأ ، وخبره مضمر ، وفيه معنى القسم ، وقد تُقُصِّيَ القولُ فيه . وقوله « إنِّى لأوجَلُ » ممـا جاء فيه أَفْعَلُ ولا فَعْلاءَ له ، كأنَّهم استغنَوا عن وَجْلاء بوَجِلةٍ . ويقال : وَجِلتُ أَوْجَلُ وآجَلُ وَجَلًا ، وهو وَجِل وأَوْجَلُ . وقلبي من كذا أوجَلُ وأَوْجَر ، بمعنًى . ويروى : « تَعدُو المنيَّة » و « تغدو » ومعناها ظاهر . وأوّلُ ، بُنِى على الضَّمّ ، كما فُعِـلَ ذلك بقَبْلُ وبَعْدُ ، وذاك أنه لمّـا كان أصله أفعلَ الذى يتمُّ بمن ، وأُضيف مِن بعد ، وجُعل الإضافةُ فيه بدلا مِن من ، والمضاف إليه من تمامه ثم حَذف المضاف إليه لِعلم المخاطَب به ، وجُعل فى نفسه غايةً ، وكان معرفةً كما كان قبلُ وبعد كذلك وجَبَ أن يُبنَى كما بُنيا . وموضعه نصبٌ على الظَّرْف . ومعنى البيت : وبقائك ما أعلم أيُّنا

(١) معن بن أوس : شاعر فحل من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، له مدائح فى جماعة من الصحابة ، وعمر إلى زمان ابن الزبير ، وهو القائل له : « لعن الله ناقة حملتنى إليك » . الإصابة ٨٤٤٥ والأغانى (١٠ : ١٥٦) . وفى الأغانى (١٠ : ١٦٢ — ١٦٣) أن القائل هو عبد الله بن فضالة . وفى الخزانة (٢ : ١٠٠) أن قائلها عبد الله بن الزبير الأسدى ، وكذا فى زهر الآداب (٢ : ١٦٤ — ١٦٥) . وانظر العقد (٦ : ١٧٦) . وروى التبريزى من سبب الشـــعر أن معن بن أوس كان له صديق وكان معن متزوجاً بأخته ، فاتفق أنه طلقها وتزوج غيرها ، فآلى صديقه ألا يكلمه أبداً . فأنشأ معن يقول يستعطف قلبه عليه ، ويسترقه له . وفى الأبيات ما يدل على القصة ، وهو قوله :

فلا تغضبن أن تستعار ظعينة ... وترسل أخرى كل ذلك يفعل

يكون المقدَّمَ فى عَدْوِ الموت عليه، وانتهاء الأجل إليه[١]، وإنِّى لخائفٌ مترقِّب. فوضع «على أيِّنا» نصب لأنَّه مفعول ما أدرى، والذى لا يدريه هو مقتضَى هذا السُّؤال. وقوله «إنِّى لأوجل» اعتراض.

٢ — وإنِّى أخُوكَ الدَّائمُ العَهْدِ لم أَحُلْ إنْ ابْزَاكَ خَصْمٌ أو نَبَا بِكَ مَنْزِلُ[٢]

٣ — أُحارِبُ مَن حاربتَ مِن ذِى عداوةٍ وأحْبِسُ مالى إن غَرِمتَ فَأَعْقِلُ

يقول: إنِّى وَدِيدُك الذى يدومُ عهدُه، ويتَّصل على تقلُّب الأحوالِ وتبدُّلِ الأبدال، ولا يَحُول [إن تَطاوَلَ[٣]] عليك خصم، أو بطَشَ بك عدوّ، أو ضاق عنك منزل، فاحتجتَ إلى التحوُّل عنه والاستبدال به. وقال الخليل: يقال أبْزَيْتُ بفـلانٍ، إذا بَطَشتَ به وقَهرتَه. وحكى الدُّريدىُّ: بَزَاه يبزوه بزواً، إذا قهرَه. وأنشد:

جارِى ومولاىَ لا يُبْزَى حريمُهُما وصاحبى من دَواء السِّرِّ مُصْطَحَبُ[٤]

ويُبزَى يكون مستقبَل بُزِىَ وأُبْزِى جميعاً. والله أعلم. ويجوز أن يكون أبزى منقولاً بالألف عن بَزِى يَبْزَى بَزًى فهو أبْزَى، وامرأة بَزْواء؛ وهو دُخول الظهر وخُروج البَطْن. ويكون المعنى: إن خَفَض منك خَصْمٌ، أو طأطأ من إشرافك عَدُوٌّ، وحمَّلك من الثِّقْل ما يَبزَى له ظهرُك، فلا تُطيق الثَّباتَ تحته، والنهوض به.

وقوله «أحاربُ من حاربْتَ» هو تفسيرُ دوامِ عهده وثباتِ ودِّه. والمعنى تجدُنى ذَابًّا عنك واقعاً معك، أرصد الشَّرَّ لأعدائك، وأدافعهم دونك، وإن

(١) ل: «به».
(٢) التبريزى: «لم أخن»، ونبه فى شرحه على الرواية هنا.
(٣) تكملة يفتقر إليها الكلام.
(٤) مصطحب، بالحاء المهملة المفتوحة. وفى اللسان (بزا): مُصْطَخِب، بالخاء المعجمة المكسورة.

أصابك غُرْمٌ حَبَسْتُ مالى عليك ، واحتملت فيه الثِّقل عنك . وكان الواجب أن يقول : فأعقِلُ عنك ، لأنه يقال عَقَلْتُه إذا أعطيتَ دِيَتَه ، وعقلتُ عنه إذا غرمت ما لَزِمه فى ديته . وقال الخليل : الغُرْم لزوم نائبةٍ فى مالٍ من غير جناية . والمالُ إذا أُطلق يراد به الإبل . ويجوز أن يكون معنى فأعقِلُ : أشدُّها بعُقُلِها بفِنائك ، لتَدفعها فى غَرامتِك .

٤ ـ كأنك تَشْفِى منكَ داءً مَساءتِى وسُخْطِى وما فى رَيْثَتى ما تَعجَّلُ[1]

قوله « مساءتى » يريد مساءتَك إلىَّ ، وكذلك « سُخْطى » يريد سُخطَك علىَّ ، فأضافهما إلى المفعول . ويُقال : مساءة ومسائِيَة . والسُّخط والسَّخَط لغتان ، ومثله السُّقْم والسَّقَم ، والعُدْم والعَدَم ، وهو نقيضُ الرِّضا . ويقال : سخِطْتُه وتسخَّطته ، إذا لم تَرْضَ به ، وإن كان فى التفعُّل فضلُ تكلُّف . ومعنى البيت أنك تستمرُّ فى إساءتك إلىَّ وسُخطِك علىّ ، حتى كأنّ بك داءً ذاكَ شفاؤه ، وما تطلبُه من عَجَلتى لا تجدُه فى بطئى ، أى ما تقدِّره يَتعجَّلُ لك من المكاشَفة بينى وبينك ، واستثارةِ الحِقد الكامِن فيك ، لا يحصُل لك منِّى متباطئاً أيضاً . والمعنى أنِّى أصابرُك وأتركُك على مداجاتك .

٥ ـ وإنْ سُؤْتَنى يومًا صَفَحْتُ إلى غَدٍ لِيُعْقِبَ يومًا منك آخَرُ مُقْبِلُ

٦ ـ ستَقْطَعُ فى الدُّنيا إذا ما قطعْتَنى يمينَك فانظُرْ أىَّ كَفٍّ تبدَّلُ

قوله « وإنْ سؤتَنى يومًا » يقال : سُؤْت فلانًا ، وسؤت [له[2]] وجهَه

(١) ترتيب سائر القصيدة عند التبريزى يخالف ترتيب المرزوقى . فالتبريزى يروى هذا البيت بعد البيت الخامس ، ويروى التبريزى بعد الخامس بيتاً لم يروه المرزوقى . وهو :

وإنِّى على أشياء منك تريبُنى قديمًا لذو صفح على ذاك مُجمِلُ

ثم يروى بعده البيت السادس فالسابع إلى آخر المقطوعة .

(٢) هذه من ل .

مَساءةً ومسائِيَة . والمعنى : أنّي لا أؤاخِذك بما يَظهر من مَساءتك ، بل أقابله بصفحٍ جميلٍ عنك ، انتظاراً لفيئةٍ تَظهرُ منك فى مُقتَبَل أمرك ، ومراجعةٍ تعفى على قبيحك ، فإن لم يتّفقْ منك عُقبَى حسنةٌ تُنسِى زَلاَّتك ، بل تتابع بين مسبَّبات القطيعةِ وموجِباتها بما تُظهرهُ من الجَفاء والعُقوق فيما يجمعنى وإياك ، فإنك تقطعُ أخاً هو فى مُظاهرتك ، والانطواءِ على مساعدتك ، والدُّخول تحت طاعتك فى كلّ ما يعِنُّ ويعرض لك ، بمنزلةِ يَدِكَ اليمنى ، فانظُرْ مِن بَعْدُ مَن تعتاضُ منه ، وعلى مَن تعوِّل إذا صارمته . وانتصب « أيَّ كَفٍّ » بـ « تَبدَّل » . وقوله « ليعقِبَ يومًا منك آخر » يجوز أن يكون مِن قولهم أعقب هذا ذاك ، أى صار مكانَه ، ويكون المعنى : ليصيرَ مكانَ يومٍ من أيّامك مذمومٍ يومٌ آخرُ منها مقبلٌ محمود . وهذا حسن . ويجوز أن يكون أعقبَ غيرَ متعدٍّ ، ويكون من أعقب الأمرُ عُقباناً وعُقْبَى ، أى صار له عاقبة . ويرتفع « آخرُ » بيعقب ، ويكون قوله يومًا منك ظرفاً . والمعنى : ليصير ما يُقبِل من أمرك يومًا ذا عاقبةٍ محمودة . ويجوز أن يكون من أُعْقِبَ فلانٌ عزًّا ، أى أُبدِل ، ويكون المعنى : ليُعْقِبَنا يومًا منك محموداً أمرٌ آخرُ مؤتَنَفٌ . ورأيت من يرويه : « ليَعْقُبَ يومًا منك آخَرُ » بفتح الياء ، ويكون من قولهم عَقَبَ فلانٌ فلاناً إذا خلَفه ، وهما عَقيبان ، وقد اعتَقبا وتعاقَبا . ويكون المعنى : ليَخلُفَ يومًا منك يومٌ آخرُ مقبِل .

٧— وفى الناسِ إن رثَّتْ حبالُكَ واصِلٌ وفى الأرضِ عَن دار القِلَى مُتَحَوَّلُ

٨— إذا أنْتَ لم تُنْصِفْ أخاكَ وجدتَهُ على طَرَفِ الهِجرانِ إن كان يَعْقِلُ

٩— ويركَبُ حدَّ السيفِ مِن أن تَضيمَهُ إذا لم يكُن عن شَفْرَةِ السَّيفِ مَزْحَلُ

قوله « وفى الناس إن رثَّتْ حبالُك واصل » إظهارٌ للزُّهد فى ودِاده إذا

لم يستقمْ معه . ويقال : رثَّ الثّوب يَرِثُّ رُثُوثًا ورَثاثةً . وقال أبو زيدٍ وأبو عبيدة : رَثَّ المتاعُ وأرَثَّ جميعاً . وأنشد لعَدِيّ[1] :

* أَرَثَّ جديدُ الوَصْلِ من أُمِّ مَعْبَدِ[2] *

وفى طريقة ما قاله قولُ لبيد :

واحْبُ المُجامِلَ بالجزيلِ وصُرْمُهُ باقٍ إذَا ضَلَعَتْ وَزَاغَ قِوَامُها[3]

وقولُ أوس :

وإن قالَ لى ماذا ترى يستشيرنى يجدْنى ابن عمٍّ مِخْلَطَ الأمرِ مِزْيَلَا

فيقول : إذا رغبتَ عن مواصلتى ، وتقطَّعت حبالُ الوُدِّ بينى وبينَك ففى الناس واصلٌ غيرُك ، وإذا نَبَا بى جِوارُك ، وضاقَ عنِّى أرضُك وديارُك ففى جوانب الأرض سَعة ومَزْحل عنك ، سيَّا والتحوُّل عن دار البُغْض والنُّبُوِّ لى عادةٌ أعتادُها ، وسُنَّةٌ أسيرُها ولا أعدِلُ عنها . واعلم أنَّك إذا لم تُعطِ أخاك النَّصَفة ولم توفِّرْ حقوقَه متوخِّيًا المعدلة ، ولم يوجبْ له عليك مِثلَ ما توجِبه لنفسك عليه ، ألفيتَه هاجراً لك ، مشارفاً قطيعتَك ، مُستبدلاً بك وبمؤاخاتك إن كانت به مُسْكَةٌ ، أو يمتلكه عقلٌ ومعرفة ، ثم لا يُبالى أن يركب من الأمور ما يقطعه تقطيعَ حدِّ السيف ويؤثر تأثيرَه فيه ، مخافة أن يَدخلَ عليه ضَيمٌ ، أو يلحقَه عارٌ واهتضام ، متى لم يجد عن رُكُوبه مَبْعَدًا ومَعْدِلاً . وكما قال هذا « دار القِلَى » قال غيره[4] :

(١) كذا . والصواب أنه دريد الصمة ، كما فى اللسان (رثث) . وقصيدة دريد هذه فى الأصمعيات ٢٣ ليبسك وجمهرة أشعار العرب ١١٧ .

(٢) عجزه كما فى المراجع السابقة ومقاييس اللغة (عقب) :

* بعاقبة وأخلفت كل موعد *

(٣) كذا جاءت الرواية فى النسختين ، وضلعت بمعنى مالت . والرواية المعروفة فى المعلقات « ظلعت » بالظاء .

(٤) هو عبد قيس بن خفاف البرجمى . البيت ٩ من المفضلية ١١٦ والأصمعية ٨٧ طبع المعارف ، وشواهد العينى (٢ : ٢٠٢ – ٢٠٣) وشواهد المغنى ٩٥ وحماسة البحترى ١٧٩ .

* دارُ الهَوانِ لمن رآها دارَه(١) *

وقوله « مِن أن تضيمه » معناه بدلاً مِن أن تضيمَه . ويجوز أن يريدَ بركوب السَّيف الصَّبرَ على الحربِ والموت . وشفرة السَّيف : حدُّه . والشَّفير : حرفُ كلِّ شيء ، منه .

١٠ـ وكنتُ إذا ما صاحِبٌ رَامَ ظِنَّتى وبدَّل سُوءًا بالذى كُنتُ أفعَـلُ

١١ـ قَلَبْتُ لَهُ ظَهْرَ المِجَنِّ فلم أَدُمْ على ذاكَ إلاَّ رَيْثَ ما أتحـوَّلُ

١٢ـ إذا انصرَفَتْ نَفْسِى عن الشىء لم تكَدْ إليه بوجْـهٍ آخِرَ الدَّهرِ تُقْبِلُ

يقول : وإذا رأيتُ صاحبى يتجنَّى على ويتجرَّم ، ويتطلَّب علىّ ما يُنْتِج ظِنَّةً ويولِّدُ تُهْمة(٢) ، وطفِقَ يقبِّح آثارى ، ويبدِّل حسناتى ، اتَّخذتُه عدوًّا ، وقلبتُ له ظَهرَ التُّرس متَّقياً منه ، ومُدَّفِعًا له ، ولم أدُمْ على تلك الحال المتقدِّمة معَهُ إلاّ قدرَ ما أتحوّل ، وبُطْءَ ما أتنقَّل . فقوله « رَامَ ظِنَّتى » أى رام ارتفاع التُّهْمة علىَّ . وقوله « بالذى كُنتُ أفعل » أى أفعلُه ، فحذف الضَّميرَ استطالةً لصلة الذى .

وقوله « إذا انصرفَتْ نفسى » يريد أنِّى أمُدُّ نفَسَ التصبُّر ما أمكن ، فإذا أعجزَتْنى الحالُ العارضةُ عن الاحتمال انصرفتُ مالـكاً عِنانى ، ثم لا يَثنينى على ما أعرضت [عنه](٣) شىءٌ أبَدَ الدَّهر . « وقوله بوجهٍ » الباء تعلق بقوله تُقبل أى لم تكدْ تُقْبِل إليه بوجهٍ من الوجوه ، وعلى لون من الألوان .

---

(١) عجزه : * أفراحل عنها كمن لم يرحل *

(٢) جاء فى اللسان (وهم) : « التهمة فعلة من الوهم ، والتاء بدل من الواو ، وقد تفتح الهاء » .

(٣) هذه من ل .

٤٠٥

وقال عَمْرو بن قَمِيَّة[1] :

١ — يا لَهفَ نَفْسِى على الشباب ولم ... أَفْقِد بِهِ إذْ فَقَدْتُه أَمَمَا
٢ — إذْ أسحَبُ الرَّيْطَ والمُروطَ إلى ... أَدْنَى تِجَارِى وأَنْفُضُ اللِّمَمَا
٣ — لا تَغْبِطِ المرءَ أنْ يقالَ له ... أَضْحَى فلانٌ لعُمرِهِ حَكَمَا[2]
٤ — إنْ سَرَّهُ طولُ عَيْشِهِ فَلَقَدْ ... أَضْحَى على الوَجهِ طُولُ ما سَلِمَا

يتحسَّر على ما فاته من الشَّباب وحُسنِ أيَّامه ، ونَضارة العَيش به ، فقال : يا حسرةَ نفسِى على متقضِّى الشَّباب ومتولِّيه ، فإنَّ ما فاتنى منه لم أفارقْ به أمراً قريبا ، وشيئاً هيِّنا ، لـكنِّى فقدت به صِحَّة بدنى ، ورَوعةَ وجهى ، وطيبَ عَيشى ، وقُوَّةَ رُوحى ، حين كنت أجُرُّ رَيطتى (وهو الإزار الذى ليس بملفَّق) ومُروطى (وهو جمع مِرْط ، وهو مِلحَفَة يُؤتزَر بها) إلى أقرب الخَمَّارين إلىَّ وأنفضُ شعَرَ رأسى إعجاباً به ، واستحساناً له ، وطرباً يُداخِلُنى فى جميع أسبابى معه . ثمّ قال مُزْرِيًا بالشَّيب وبما يكتسِبه المرء إذا علاه ، مِن إكبار النَّاس له ، وتقديمِهم فى المجالس إيَّاه ، ومن الرُّجوع إلى قولِهِ ، واستشارتِهم فيما يعِنُّ من الخطوبِ رأيَه ، فقال : لا تَغبطنَّ الرَّجلَ ولا تَرْمُقنَّ ولا تَجعَلَنَّ[3] مُحَسَّدًا إذا

---

(١) قمِيَّة : مسهل قميئة . وقميئة أمه ، وهو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل ، وهو جاهلى أقدم من امرئ القيس ، ولقيه امرؤ القيس فى آخر عمره فأخرجه معه إلى قيصر لما توجه إليه ، فمات معه فى طريقه ، وسمته العرب عمراً الضائع ، لموته فى غربة وفى غير أرب ولا مطلب . الأغانى (١٦ : ١٥٨ — ٦٠) والخزانة (٢ : ٢٤٧ — ٢٥٠) والمعمرين ٨٩ والمؤتلف ١٦٨ والشعراء ٣٣٦ — ٣٣٨ .

(٢) ل : « لا يغبط المرء » بالبناء للمفعول . التبريزى : « أضحى فلان لسنه » .

(٣) ل : «لا يغبطن الرجل ولا يرمقن ولا يجعلن» بالياء والبناء للمفعول .

قِيلَ فيه : صار فلان حَكَمًا فى عشيرتِهِ لكثرة تجاربه ، وامتدادِ عُمره ، ودوام مُزَاوَلته للأمور ، واتِّصال لقائه للنَّاس وممارسته لهم وفيهم ، لأنَّهُ إن سَرَّه امتداد عُمْره ، وتنفُّسُ عَيشِه فلقد ظَهَرَ فى نفْسه من ضعفٍ وانحناء ، وعلى وجهه من ذُبولٍ وسُهوم إلى غيرِها مما يدلُّ على طولِ سَلامتِه التى هى الدَّاء الذى لا دواءَ له . ومثل هذا قول الشاعر(١) :

* وَحَسْبُكَ دَاءً أن تَصِحَّ وتَسْلَمَا(٢) *

وقول الآخر(٣) :

فَدَعوتُ رَبِّى بالسَّلامة جاهِداً ليُصحِّنى فإذا السَّلامةُ داء

وقوله « أن يقال له » أراد لا يُغبَط لأنْ يقال له ، ومن أجل أن يقال له . وقوله « أدنى تجارِى(٤) » إظهارٌ لغلوِّه فى سِباء الخمر وسَرفِه ، ثم تبجُّحٌ بإضافتهم إلى نفسه .

٤٠٦

وقال إياسُ بن القائف(٥) :

١ — يُقيم الرِّجالُ الأغنياء بأرضِهِمْ وتَرْمِى النَّوَى بالمُقْتِرِين المَرَاميا(٦)

(١) هو حميد بن ثور الهلالى . ديوانه ٧ والبيان (١ : ١٥٣) والحيوان (٦ : ٥٠٣) .

(٢) صدره : * أرى بصرى قد رابنى بعد صحة *

(٣) من شعراء الجاهلية ، كما فى الكامل ١٢٥ ليبسك .

(٤) كذا ورد تفسير هذه الكلمة هنا مع أنها فى البيت السابق ، فيبدو أن المرزوقى أضافها مؤخراً .

(٥) التبريزى : « هو من قاف يقوف إذا اتبع ، مثل يقفو . قال الشاعر :

كذبت عليكم لا تزال تقوفنى كما قاف وآثار الوسيقة قائف

وجمعه قافة ، ومن ذلك قيل للقوم الذين ينظرون إلى الولد فيحكمون من أبوه : القافة ، لأنهم يتبعون الشبه فى الأعضاء » .

(٦) التبريزى : « تقيم الرجال » .

يفضّل الغِنَى على الفَقر ويبعثُه على طلبه وارتياده . فقال : تَرى المُوسِرين يتودَّعون ، وتطول إقامتُهم فى دُورهم وأرَضِيهم يُمتَّعون ، والفقراء تراهم ترتمِي بهم البُلدانُ النّائية ، وتَقذِف النَّوَى بهم المَقاذِف البعيدة ، والمهالكَ المُستصعَبة ، فلا يهدؤون ولا يَقرّون . والنَّوى : وِجهةُ القوم التى يَنوُونَها . والمَرامى : جمع مَرمًى ، وهو المكانُ لا غَيْرُ هُنا ، لأنَّه قابَلَ الأغنياء بالمُقْتِرين ، وأرضَ الأغنياء بمَرامى الفُقَراء ، لأنَّهم لا تَدنُو بهم دارٌ أبدا ، فمجالُ تَسيارِهم لِكَسْبهم وتصرُّفهم كدُور أولئك لهم . ومَفْعَلٌ يكون اسماً للحدَثِ ، وزَمانِه ، ومكانِه .

٢ – فأكرِمْ أخاكَ الدَّهْرَ ما دُمْتُما مَعاً   كَفَى بالمَماتِ فُرْقَةً وتنائيا

٣ – إذا زُرْتُ أَرْضاً بعدطُولِ اجتنابِها   فَقَدْتُ صديقى والبلادُ كما هِيَا

يقول : أحسِنْ صُحبَةَ أخيك وصاحبِك . وتناوَلْه بالإكرام طُولَ الدَّهرِ ومُدَّةَ العمر ، فإن المنايا كفَتْك مفرِّقةً ومبعِّدةً . وقوله «الدَّهرَ» انتصب على الظرف ، وما دمتما انتصب على أنه بدل من الدَّهر . وانتصب « معاً » على أنَّه خبر ما دمتما . ومعنى ما دُمْتُما مَعًا : مدَّةَ بقائِكما ودوامِكما مجتمِعَين . وقوله « كفَى بالمنايا » موضع بالمنايا رفعٌ على أنَّه فاعلُ كَفَى . وانتَصَبَ « فُرقَةً » على التمييز ، أو يكون فى موضع الحال ، كأنه قال : كفى بفُرقة المنايا فُرقةً . والتقدير : كفى فُرقَةً بالمنايا مِن فُرقةٍ ، أو كَفَى المنايا مفرِّقة ومتنائية .

وقوله « إذا زُرتُ أرضا بعد طُول اجتنابها » هذا الكلام توجُّعٌ وتشكٍّ من نوائب الدَّهر . يقول : أرى الإخوانَ تَختَرِمُهم المنايا فهم يتَفاقَدون ، وبلادُهم وأُروضهم على ما كانت عليه ، فمتى زُرْتُ مكاناً بَعد طول العهد به وجدتُ أصدقائى مفقودين ، وأما كنهم كما كانت . وقد تقدَّم القول فى إعراب « كما هِيَا[1] » . وقوله صديقى يرادُ به الكثرةُ لا الواحد .

(١) انظر الحماسية ٦٢ ص ٢٤٣ .

٤٠٧

وقال ربيعةُ بن مَقْروم[(١)]:

١– وكَمْ مِن حامِلٍ لى ضَبَّ ضِغْنٍ   بَعيــدٍ قَلْبُهُ حِلْوِ اللِّسانِ

٢– ولو أَنِّى أشاء نَقَمْتُ منه   بِشَغْبٍ أو لِسَانٍ تَيِّحَانِ

كَمْ لفظةٌ وُضِعَت للتَّكثير، كما أن رُبَّ وُضِعَ للتَّقليل، إلا أنّه اسم ورُبَّ حرف وله موضعان: الاستفهام، والخبر، وهو من باب الخبر هنا. والضَّبّ: الحِقْد. قال:

فَما زَالَتْ رُقاكَ تَسُلُّ ضِغْنِى   وتُخْرِجُ مِنْ مَكامِنِهَا ضِبابِى[(٢)]

وأضافه إلى الضِّغْن لأنّ الضِّغن العَسَر، فكأنّه حِقْدُ عَسَرٍ ولجاج. فيقول: كثيرٌ من الرِّجال يحملون لى الضَّغائن، ويُسِرُّون لى البغضاء، وقد حلا مَنطِقُهم لى جَرْياً على سُنَّتهم فى المداجاة، وبَعُدَ قلبهم منِّى استمراراً فى طريق الشَّنآن لى والمعاداة، ولو شئت لانتقمتُ منه بالفعل أو بالقول، فإن لسانى عِرِّيضٌ ويَدِى عالية، يتأتَّى له مكافأةُ كلِّ النّاس على مقدار فعلِهِ، وبمثل ما ينطوى لى من خيرٍ أو شرّ. ويقال: نَقَمت عليه أى أنكرت عليه فِعْلَه، ونَقَمت منه بمعنى انتقمت. ونَقَمِ ونَقِم لغتان. والتَّيَّحان لا يُكسر ياؤه، وقد مضى القولُ فيه[(٣)].

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٩ ص ٦١، وساق نسبه التبريزى: ربيعة بن مقروم ابن خالد بن عمرو بن غيظ بن السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة.

(٢) ويروى: «من مضابئها». والبيت لكثير عزة، كما فى الحيوان (٤ : ٢٥٠، ٦/٣٠٣ : ١٠١) والموشح ١٤٣ والصناعتين ٧٢ وزهر الآداب (٢ : ٦٣) وابن سلام ١٢٥ ليدن ١٨٥ مصر.

(٣) انظر ما سبق فى الحماسية ١٨ ص ١٣١ – ١٣٢.

٣ – ولـكِنّى وَصَلتُ الحبـلَ منِّى مُوَاصَلَةً بِحَبْـلِ أَبِى بَيانِ

٤ – وَضَمْرَةَ إنّ ضَمْرَةَ خَيْرُ جَارٍ عَلِقْتُ لَهُ بأسبابٍ مِتَانِ

٥ – هِجَانُ الحىِّ كالذَّهَبِ الْمُصَفَّى صَبِيحةَ دِيمَةٍ يَجْنِيــهِ جَانِ

قوله « ولـكنّى وَصَلْتُ الحبل منِّى » يقول : أبقَيت على من يعادينى ولم أعَجِّلْ مؤاخذتَه بإساءته وإصراره . وتمـاديه فيما أكرهه ولجاجِه ، لأنِّى قد واصلتُ أبا بيانٍ وعَلَّقْتُ حَبْلِى بحبـله ؛ وكذلك احتَشَمْتُ ضَمْرَةَ لأنه خيرُ جار ، ، وقد استحكمَتْ بينى وبينه أواصرُ حفظُها عن القطيعة واجبٌ ، ولأن العِصَمِ المَتينة التى تجمعُنا تُلزِمنى الوقوفَ فيما يكرهانِه ، وتَرْكَ ما لا يؤمننى استيحاشَهما ، وهما مع ذلك كرامُ الحىّ لا غائلة لهما ، ولا شُبهَةَ فى مصافاتِهما وحُسنِ عقيدتِهما ، فما وُدُّهما إلّا كإبريز الذَّهَب المصفَّى ، وما يَظهر من مَعادن الذَّهب صبيحةَ مَطْرَةٍ تنكشف عن عُروق الذَّهب ، فيجتنيه الُمجتنون ، أى يلتقطه الملتقِطون . وهذا الذى وَصَفه يقال إنّها تكثُر فى نواحى اليَمَن واليمامة ، وتسمَّى تلك المعادن معادن اللّقط ، فإذا مُطِرتْ وانكشَفت الهَبَوات والغُبار عن وُجوه حجارتها يظهَرُ من عروق الذهب فى صفائحها مثلُ ما وصفه أو أحسن .

وقوله « هِجان الحىّ » ارتفَعَ على أنّه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : هم هِجان الحىّ . وهِجانٌ جَمْعٌ ، وواحده هِجَانٌ أيضاً ، لأن فعيلا وفِعالًا يشتركان فى الجمع كثيراً ؛ فهِجَانٌ جاء من هِجَانٍ واحداً كظِراف من ظريف . وقوله « كالذّهب » فى موضع الحال ، وكذلك قوله « يَجْنِيهِ جان » حال من الذَّهب المصفى . وقوله «مواصلةً » يجوز أن يكون مصدراً فى موضع الحال ، أى مُواصلا ، ويجوز أن يكون موضوعاً موضعَ صِلةٍ فيكونَ مصدراً من غير لفظه ، مثل قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾ : وقوله « يجنيه جان » وضعَه موضع يلقطه .

٤٠٨

وقال سَلْمُ بنُ ربيعة[1] :

١– إنّ شِـــواءً ونَشْوَةً وخَبَبَ البَـــازِلِ الأَمُونِ
٢– يُجَشِّمُها المرءُ فى الهوَى مَسَافَةَ الغـــائطِ البَطِينِ
٣– والبيضَ يَرْفُلْنَ كالدُّمَى فى الرَّيْطِ وَالْمُذهَبِ المَصُونِ
٤– والـكُثْرَ والخَفْضَ آمِنًا وشِرَعَ المِزْهَـرِ الْحَنُونِ
٥– مِن لَذّة العَيْش والفتى للدَّهرِ والدَّهرُ ذُو فنونِ
٦– والْيُسْر كالعُسْر والغِنَى كالعُـدْمِ والْحَىُّ لِلمَنُـونِ

هذه المقطوعة خارجةٌ عن البحور التى وضعها الخليل بن أحمد ، وأقرب ما يقال فيها أنها تجىء على السادس من البسيط[2] ، وليس هذا موضعاً لبسط الكلام فيه .

والنَّشْوة : الخمْر والسُّكْر[3] . والخَبَبُ والخبب : ضَرْبٌ من السَّير . والبازِلُ : التى قد استَكمَل لها تِسعُ سنين فتناهى قُوَّتُها . والأَمُون : الموثَّقَةُ الخَلْقِ . وخبر إنّ فى قوله « من لذّة العيش » .

وقوله « يُجَشِّمُها المرءُ » من صفة البازل ، والمعنى يكلِّفها صاحبُها قطْعَ المسافةِ البعيدة فيما يهواه . والمَسافة مأخوذةٌ من السَّوف ، وهو الشمّ . وكان الدَّليلُ إذا اشتَبَهَ عليه الطَّريق يفعلُ ذلك . والغائطُ : المطمئنُّ من الأرض . والبَطِين : الواسع الغامض .

---

(١) كذا فى النسختين ، وصوابه كما فى التبريزى : « سلمى بن ربيعة » . انظر ما سبق من التحقيق فى حواشى ص ٥٤٦ .
(٢) يعنى ما يسمى مخلع البسيط .
(٣) الخمر ، هنا : مصدر خمر الرجل خمراً ، فهو مخمور .

وقوله « والبِيض يَرْفُلْنَ كالدُّمَى » يعني به النِّساء . ويَرْفُلْن : يَتبخترن في الرَّيْطِ ، وهي المُلاءة الواسعة[١] . والمُذهَبُ المَصُون ؛ يُرَاد به الثِّياب الفاخرة المطرَّزة بالذَّهب . وتَعلَّق في من قوله « في الرَّيط » بيَرْفُلن ، وكالدُّمَى في موضع الحال . والمعنى : والنِّساء البيضَ يتبخترنَ في المَصونات من الثِّياب الكريمات وهنَّ مُشبِهاتٌ للصُّوَر .

والكُثر انعطَفَ على البيض ، كما أنّ البيض انعطف على « وخَبَبَ البازلِ الأَمُون » . والمراد بالكُثرِ كثرةُ المالِ ومساعدةُ الحال ، وضِدُّه القُلُّ . وقال الخليل : كُثْر الشَّيء : أكثَرُه ، وكذلك قُلُّه أقلُّه . والخَفَضْ : التَّودُّع . وانتصب « آمِناً » على الحال ، وانعطف « وشِرَعَ » على الخفض . فيقول : إنَّ لذَّات الدُّنيا من مأكولٍ ومشروب وملبوسٍ ، ومركوب وقد استعمَلَه صاحبُه فيما يهواه ، وكَلَّفَه قطْعَ المسافاتِ فيما تدعوه إليه نفسُه ، والنِّساءَ البيضَ بالصِّفة التي ذَكَرها ، والغِنى والرَّاحةَ في الأمن والملاهي ، جميعَ ذلك مِن لذَّة العيش . وقوله « وشِرَع المِزْهر » أي الأوتار ، واحِدُها شِرْعَةٌ . والمِزْهَر : العُود . والحَنُون : يُريد به الصَّيِّتَ مِن الحنين ، فكأنّه أشار إلى المِزْهَر منقوراً يَنْقُره المُلْهِي[٢] . فانظُرْ فإنَّه جَمَع كلَّ ما يلتذ به النَّفْس ، وجعلَها تامَّةً بما قَرَن به من حال الأَمْن ، لأنّ جميعَ ذلك إذا عَرِي من الأَمن لم يُستطَب ولم يُستَمرأ .

ثم قال : « والفَتَى للدَّهرِ والدَّهرُ ذو فنونِ » الواو واو الحال ، وذو فنون أيْ ضروب . يريد : أنّ كلَّ ذلك مما يلتذُّ العائش به ، لكنّ الفَتى مُهَدَّفٌ للدهر ، والدَّهر ذو تاراتٍ : كما يَهَبُ يرتجِع ، وكما يُسَلِّم يُعِلّ ، وكما يُوَدِّع يُتْعِب ، وكما يُصَفِّي يكدِّر . وبعد ذلك قال :

(١) كذا في النسختين . والوجه « الملاء الواسعة » إذ أن « الريط » جمع لا مفرد .
(٢) الملهي : المشتغل بسماع الغناء .

واليُسْرُ كالعُسْر والغِـنى كالعُدْمِ والحىُّ للمَنُـونِ

يريد أنّ شيئاً من هذه الأحوالِ لا يدومُ إلّا ريثَ ما يُسلَّط عليه القواطعُ والمغيِّرات ، فاليَسَار إذا حَصَل كالإعسار ، فى أنّ واحداً منهما لا يبقَى ، وغِنَى النفس كفقرها ، ثم انتهاء كلٍّ ذلك للحىّ منا إلى المَوتِ الذى لا غاية وراءه ، وليس يُتَخلَّص منه بحيلةٍ تَنفُذ ، أو رويّة تُعمَل .

٤٠٩

وقال آخر (١) :

١ — وأنت امرُؤٌ إمَّا ائتمنْتُك خالِياً فَخُنْتَ وإمّا قُلْتَ قولاً بلا عِلْمِ
٢ — فأنتَ مِن الأمرِ الذى كان بَيْنَنا بمنزلةٍ بينَ الخيانةِ والإثمِ (٢)

يقول : أنت رجلٌ إمّا وثِقتُ بك فى شىء يُحتاج إلى أداء الأمانة فيه ، وقد خلَوت معك وأظهرت السُّكونَ إليك فخنتَنى ، وإمّا أستَنيمُ إلى ناحيتك فى الخير فكذَبتَ علىَّ ، وخبَّرت بما لا علمَ لك به ، فأنت ممَّا بينى وبينك واقفٌ فى محلٍّ بَيْنَ الخيانة فيما ائتُمِنْتَ فيه . والإثمِ فيما رجَعَ إليك فى الكشف عنه . وقوله « ائتمنتك » هو افتعل من الأمانة ، ولك أن تخفف الهمزة وتُبدِلَ منها ياء ، ولك أن تعوِّض من الهمزة تاء فتُدغِمَه فى التاءِ التى بعدها فتقول : اتَّمَنْتُكَ .

(١) التبريزى : « هو عبد الله بن همام السلولى من بنى مرة بن صعصعة ، من قيس عيلان . وبنى مرة يعرفون ببنى سلول ، وسلول أمهم ، وهى بنت ذهل بن شيبان بن ثعلبة ، وكان عبد الله مكيناً عند آل مروان ، وهو الذى بعث يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية فى قوله :

تعزوا يا بنى حرب بصبر فمن هذا الذى يرجو الخلودا
خلافة ربكم حاموا عليها ولا ترموا بها الغرض البعيدا
تلقفها يزيد عن أبيه فخذها يا معاوى عن يزيدا »

وقد روى القالى فى الأمالى (٢ : ٤٦) هذين البيتين وقصتهما .

(٢) رواية الأمالى : « فأبت » بالباء . وذكر محققه أنها فى نسخة : « فأنت » . والمعنى على كل صحيح .

وخاليًا انتصَبَ على الحال ، وذو الحال يجوز أن يكون الشَّاعرَ . والمعنى : جعلتُك موضعًا للأمانةِ وقد خلوتُ بك لئلاّ يتجاوزَنا السِّرُّ الذى أودعتُك . ويجوز أن يكون حالاً للمخاطَب ، والمعنى منفردا .

وروى أنّ رجلًا أتى عُبيدَ الله بن زيادٍ فأخبرَه أنّ عبـدَ الله بن همّامٍ السَّلولىَّ سَبَّهُ وأسرف جِهارًا ، لا حِشمةَ تردَعُه ، ولا رِقْبَةٌ تمنعُه . فأرسـل عُبيدُ الله إلى ابن همامٍ واستحضَرَه ليقابلَه بالرَّجُل ، ويَتَبيَّنَ مِن حضورهما صِحَّةَ الخبر ، فأتاه ابن همَّامٍ ، فلما استقرَّ به المجلسُ قال عُبيدُ الله : يا ابنَ همام ، إنّ هذا يَزعُم أنَّك قلتَ كذا وكذا . فأقبلَ ابنُ همام على الرجُل وخاطَبه بقوله : « أنت امرؤٌ إمَّا ائتمنتُك خاليا » . . . البيتين .

فإن قيل : ما موضعُ « إمّا ائتمنتُك » من الإعراب ؟ قلت : هو فى موضع الرَّفْع على أن يكون صـفةً لامرئٍ . وإمَّا هذه هى التى تُعَدّ فى حروف العطف ، والكلام خبرٌ . يريد : أنتَ رجلٌ لا تخلو مما تَصُكّ به وجهى من أحد الأمرين اللذين أذكُرها . فهو كما تقول : أنت رجلٌ إمّا صالحٌ وإما طالح . وقوله « فخُنْتَ » انعطف على ائتمنتك ، كأنه قال : أنت رجلٌ إما مؤتَمَن نخائنٌ ، وإما قائلٌ قولاً لا عِلمَ لك به . وقوله « وإمَّا » الواو هى العاطفة . وإمَّا كأَوْ فى أنه لأحد الأمرين ، إلاّ أنّ « أوْ » يُبنَى الـكلامُ فيه على اليقين ، ثم يَعترِض ما يخرُج به عنه ؛ و « إمَّا » يُبنَى الكلام فيه على عين اليقين . ولهذا الذى قُلناه قال حُذّاقُ أصحابنا : إنه ليسَ من حروف العطف ، وكيف يكونُ منها وهو يجىء قبلَ ما يُعطَف عليه أو مع حَرف العطف . تقول : رأيتُ إمّا زيداً وإمّا عَمْراً . فإمّا الأولى سابقٌ المعطوفَ عليه وهو زيد ، وإمّا الثانية معها الواو العاطفة .

وقوله « فأنتَ من الأمر الذى كان بيننا » مبتدأٌ وخبره « بمنزلة » ، وبينَ الخيانة صفةُ المنزلة . والمعنى : أنت مِمَّا[1] بيننا فى موقف يُشفِى بك إما على الخيانة فيما ائْتُمِنْتَ فيه ، وإما على الإثم فيما تُستشهَدُ فيه ، فتقولُ بمـا لا عِلْمَ لك به .

٤١٠

وقال شَبيبُ بنُ البَرصاء[2] :

١ – قلتُ لِغَلاَّقٍ بِعِرْنانَ ما تَرَى فمـا كاد لى عن ظَهْرِ واضحةٍ يُبْدِى

عِرْنانُ : اسم وادٍ[3] . وقوله « عنْ ظهر واضحة » يجوز أن يريد عن ظهر خَصلة بيِّنة والمراد : لمـّا استشرتُه وقد حصَلْنا بعِرنان ارتبَكَ فلم يكَدْ يَكشِف لى عمَّا يصح المرادُ به ، ويمكن الاعتمادُ عليه . ويجوز أن يريد بالواضحة السِّنّ . والمعنى : لم يكَدْ يتهلَّلُ أو يكشِف عن أسنانه به ضاحكا أو كاشراً . ويكون استعمال الواضحة كما قال طرَفة :

كلُّ خليلٍ كنتُ عاهدتُه لا تَرَكَ اللهُ له واضِحَهْ

وقوله « تبسَّمَ كَرْهًا » يدلُّ على الوجه الثانى .

٢ – تبسَّمَ كَرْهًا واستَبَنْتُ الذى به من الحَزَنِ البادِى ومن شِدّةِ الوَجْدِ

٣ – إذا المرء أعرَاهُ الصديقُ بَدَا لَهُ بأرْضِ الأعادى بعضُ ألوانِها الرُّبْدِ

انتصب كَرْهًا على أنه مصدرٌ فى موضع الحال . يقول : بَسَمَ لى كارهًا فتبيَّنْتُ الذى به من حُزْنٍ ظهَرَ عليه ، ومن وَجْدٍ استكنَّ فى قلبه . ويقال استبنْتُ وتبيَّنْتُ بمعنًى واحد . وبَسَمَ وابتسم وتبسَّم بمعنًى واحد ، إلاّ أنّ فى

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « فيما » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٠٣ ص ١١٢٣ .

(٣) وعن السكونى أنه جبل بين تيماء وجبلى طيىء . معجم البلدان .

تبسَّم زيادةَ معنى التكلف ، كأنه تكلَّف منه ما تكلَّف على كراهيَة .

وقوله « إذَا المرء أعراه الصديق » يريد به : إذا الرجُل خذَلَه صديقُه وقَعَد عن نُصرته ، وتَرَكه بالعَراء ، فى أرضِ الأعداء ، بدا لَهُ من ألوان الأرض إذا اسودَّت بعضُها . وهذا التفصيل والتبعيض دلَّ على أنّ اسودادَ الأرض يكون من وجوهٍ عِدّة ، وللحالة التى أشار إليها ما يختصُّ بها ، ويجب أن يكون أشدَّها . وهذا لأنّ ما يَرِد على النفس من المكاره مَراتبُ ، فاسوِداد الأرضِ عليه لها على حسَبِ مقاديرِها فى أنفُسها .

٤١١

وقال سالم بن وابِصَة[(١)] :

١ ـ أُحِبُّ الفتَى يَنفِى الفواحِشَ سَمْعُه ... كأنّ به عن كلِّ فاحشةٍ وَقْرَا

٢ ـ سَلِيمُ دَوَاعِي الصَّدْرِ لاباسطٌ أذًى ... ولا مانعٌ خيْرًا ولا قائلٌ هُجْرَا[(٢)]

يقول : أُحِبُّ من أخلاق الفتى أن يكون متكرِّمًا إذا طرقَ أذنَه ذِكرُ الفواحش ، فلا يَعِيها ولا يجعلها من نفسه ببالٍ ، حتى كأنّ به صَمَمًا عن أنواع الفواحِش كلها .

وقوله « سَليمُ دَواعِى الصدر » ، ارتفع سليمُ لأنه خبر مبتدإٍ محذوف ، كأنه قال : هو سليم ، ويكون ما بعدَه صفاتٍ له . ويريد بالدواعى ما يتعلق بالأغيار منه لا ما يخصُّه فى نفسه . ألا تَرَى أنه فسَّره بقوله « لا باسطٌ أذًى ولا

(١) التبريزى : « سالم بن وابصة الأسدى » . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٤٤ ص ٧١٠ . والأبيات فى أمالى القالى (٢ : ٢٢٤) .

(٢) التبريزى : « لا باسطاً ... ولا مانعاً ... ولا قائلا » . ومثله القالى ، لكن روايته فى آخر البيت : « ولا ناطقا هجرا » .

مانعٌ خيرًا ولا قائلٌ هُجْرًا » وكلٌّ ذلك للغَيْرِ لا للنفس . ويَكشِفُ هذا أنه إذا بَسَطَ أسبابَ الأذى عادَ الضَّرر منها على المتأذِّى لا عليه . وإذا مَنَع خيرَه كذلك عاد الضرر على المنتفِع به وعلى هذا إذا قال هُجْرًا . والهُجْر : الفُحْش . ويقال : أهْجَرَ الرجُل ، إذا أتَى به . وقد كان من فلانٍ هاجرةٌ . على ذلك قوله :

* إذا ما شِيتَ نالَكَ هاجِرَاتى[1] *

ولك أن تنصِبَ « سليمَ » بما بعده ، فيكون فى موضع الحال ، وما يتبعه صفات له ، وهو لا باسطًا أذًى ولا مانِعًا خَيْرًا ولا قائلا هُجْرا .

٣ — إذا ما أتَتْ من صاحبٍ لكَ زَلَّةٌ فَكُنْ أنْتَ مُحْتَالاً لِزَلَّتِهِ عُذْرَا[2]

٤ — غِنَى النَّفْسِ ما يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ حَاجَةٍ فإن زَادَ شيئاً عادَ ذَاكَ الغِنَى فَقْرَا[3]

يقول واعظا ومُهذِّبًا : إذا اتَّفَقَتْ من صديقٍ لك زَلّةٌ ، أو وُقوفُ موقفَ تُهمة ، فحسِّنْ أمره فى ذلك واحمله على ضُروبٍ ممَّا يَبْسُطُ عُذْرَهُ فيه ، بل كُنْ أنتَ المحتالَ لعُذْرِه ، فلا تُحْوِجْه إلى تكلُّف الاعتذار .

وقوله «غِنَى النَّفس ما يكفيك من سَدِّ حاجةٍ» يقول: خُذْ من دنياك ما تسدُّ به فقرَك ، فإنَّ غِنَى النفس ما يضمَن الكفاية ، فإن زاد قليلا عاد ذلك بزيادتك فيه الفقر ، وذاك أنَّ الدواعىَ إنما تكثُر وتتوسع بتوسُّع الأسبابِ وكثرتها ، وما يَفْضُل عن الكفاية يمتُّ كلُّ جزءٍ منه بمَاتَّةٍ صاحِبه فلا يكاد يَكتفى ببعضه

(١) عجزه فى اللسان (هجر) :

* ولم أعمل بهن إليك ساقى *

(٢) قبله عند التبريزى : ولم يروه القالى :

إذا شئت أن تُدعى كريماً مكرَّمًا أديبًا ظريفاً عاقلا ماجداً حُرًّا

(٣) التبريزى : « ما يكفيك من سد خلة » . القالى : « ما يكفيه من سد خلة وإن زاد » .

إلاَّ وما عَدَاهُ يَمُتُّ بمثل ماتَّتِه . وإذا صار الأمر على ذلك فكلُّ منزلةٍ ينتهى إليها طلبُ الفَضل تدعوه إلى ما فوقَها ، فيبقَى أبداً مُتْعَبًا فقيراً . وقوله « فإن زادَ ، شيئاً » انتصَبَ شيئاً على المصدر ، لأنَّه واقعٌ موقعَ زيادة . وزاد هاهنا بمعنى ازداد ، فلا يتعدّى . وانتصب فقراً على الحال .

٤١٢

وقال آخر (١) :

١ — وكَمْ مِنْ لئيمٍ وَدَّ أنى شَتَمْتُه وإنْ كانَ شَتْمِى فيه صَابٌ وَعَلْقَمُ

٢ — ولَلْكَفُّ عَنْ شَتْمِ اللئيم تكرُّمًا أَضَرُّ لَهُ مِنْ شَتْمِهِ حِينَ يُشْتَمُ

اللَّئيم : الذى اجتمَعَ فيه خصالٌ مذمومةٌ فى نفسه وأبويه . فيقول : كم من رجل دنىّ النفسِ والأصلِ ، يتمنى أن أتَّخذه نظيراً لى أكايله وزناً بوزن ، وأكافيه لفظاً بلفظ ، وإن كان فى هَجْوى له وشتمى إيَّاه ما يَجرى مَجرَى الصَّاب والعَلقم فى المرارة . والصَّابُ : شجرةٌ لها لبنٌ فإذا أصاب العينَ حلَبَها . والعَلقم : الحنظَل . وقال الخليل : يقال : عَلْقَمَ الحنظلُ ، إذا اشتدَّت مرارته .

ثم قال : لَإمساكى عن مُشاتَمة اللِّئام آخِذاً بالكَرم ، أَصْوَنُ لِعِرْضى ، وأَعْوَدُ عليهم بالضررِ من كلِّ ذمٍّ وهَجْو . وانتصب « تكرُّما » على أنَّه

---

(١) التبريزى : « وقال المؤمَّل بن أُمَيل المحاربى » . والمؤمل ، كذا ضبط بالميم المشددة المفتوحة عند التبريزى . وهو المؤمل بن أميل بن أسيد المحاربى ، نسبة إلى محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر . شاعر كوفى من مخضرمى شعراء الدولتين ، وكانت شهرته فى العباسية أكثر ، لأنه كان من الجند المرتزقة معهم . وانقطع إلى المهدى فى حياة أبيه . وكان يهوى امرأة من أهل الحيرة يقال لها هند ، وفيها يقول قصيدته المشهورة :

شف المؤمل يوم الحيرة النظر ليت المؤمل لم يخلق له بصر

فيقال إنه رأى فى منامه رجلا أدخل إصبعه فى عينيه وقال : هذا ما تمنيت . فأصبح أعمى . الأغانى (١٩ : ١٤٧) ومعجم الأدباء (٧ : ١٩٥ مرجليوث) والخزانة (٣ : ٥٢٣) ونكت الهميان ٢٩٩ وسمط اللآلى ٥٢٤ .

مصدرٌ في موضع الحال ، أى متكرما ، ويجوز أن يكون مفعولاً له ، أى للتكرُّم .

٤١٣

وقال عَقِيلُ بنُ عُلَّفَةَ(١) :

١ــ وَلِلدَّهْرِ أَثْوابٌ فَكُنْ فى ثِيابِهِ كَلِبْسَتِهِ يَوْمًا أَجَدَّ وَأَخْلَقَا

٢ــ وكُنْ أَكْيَسَ الكَيْسَى إذا كُنْتَ فِيهِمُ وإنْ كنتَ فى الحَمْقَى فكُنْ أنتَ أَحْمَقَا

ذِكر الأثواب مثَل ، وإنَّما يُريد تلوُّنَ الدهر بأهله ، وتصرُّفَه بأحداثه وتاراته وغِيَرِه . واللِّبْسَةُ : اسمُ حالة اللابس . أى البَسْ ثيابه لبستَه مُجِدًّا أوْ مُخْلِقًا ، وإنْ أَجَدَّ أَوْ أَخْلَقَ ، لأنَّ الحالَ يتضمن معنى الجزاء . والقصدُ إلى توصيَة المخاطَب بأن يطلبَ موافقةَ النَّاسِ فى دهرهم ، ويتخلَّقَ بأخلاقهم . ومعنى أَجَدَّ : جعَلَ ثوبَه جديداً . وكذلك أخلَقَ الثَّوبُ نفسُه فهو مُخْلِق ؛ وهذا أشهَرُ من الأوّل . وقد قيل فى الدعاء لِلاَبسِ الجديد : « أَبْلِ وَأَجْدِدْ » يراد به فِعْلُ مثلِه فى المستأنف ، واتِّصالُ عمره . وقد صرَّح عن المعنى فيما بَعْدَه ، لأنّه قال : وكنْ أكيسَ الكَيْسَى إذا كنتَ فيهم . والمعنى : تكيَّسْ مع الأكياس ، بل اجتهدْ أن تفوقَهم فى كَيْسهم وإن ابتليت بحَمْقَى فتحامَقْ معهم . وقوله « كن أنْتَ » أنْتَ توكيدٌ للمضمر فى كنْ . و« أحمقا » يجوز ألاّ يريد به أفْعَلَ الذى يتمُّ بمِنْ ويكون المعنى تحامَقْ . ويجوز أن يكون أفعَلَ الذى يتمُّ بمِنْ ، وقد حذف منه مِنْ لأنَّه خَبَرٌ فجاز ذلك فيه . ويَدُلّ على هذا أنه قال : كنْ أكيسَ الكَيْسَى . وقد قيل : ما أَحْمَقَهُ ، لأنه ليس من الخَلْقِ فى شىء . ألا ترَى

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٦ ص ٤٠٠ . التبريزى : « وقال عقيل بن علفة المرى ، مرة بن عوف بن سعد بن بغيض ، ويصحف بابن علقة . وعلقة تيمى لم يعرف اسمه ونسبه » .

أنّ صاحبه يُوَبَّخ على ما يأتيه منه . فأمّا قوله « الحَمْقى » فَفَعْلَى جَمعٌ فيما يكون بلاءً وزَمانةً . على ذلك الجرحى والمَرْضَى ، فشُبِّهت الحماقة به ، ثمَّ حُمِلَ الكَيْسى عليه ، لأنّهم يَحملون النَّقيض على النَّقيض كثيراً .

٤١٤

وقال بعضُ الفَزَاريِّين :

١ — أُكْنِيهِ حِينَ أُنادِيهِ لِأُكْرِمَهُ ولا أُلَقِّبُهُ والسَّوْءَةَ اللَّقَبَا(١)

٢ — كذاكَ أُدِّبْتُ حتَّى صارَ مِنْ خُلُقِي إنِّي وَجَدْتُ مِلَاكَ الشِّيمةِ الأَدَبَا

يصف حُسنَ عِشرته لصاحبه وجليسه ، ومؤاخذةَ نفسه بصيانته وإكرامه فيقول : إذا خاطبتُه خاطبتُه بأحبِّ أسمائه إليه ، وهو الكُنْيَةُ ، وأعدِلُ عن نَبَزِه ولَقَبِه(٢) ؛ لأنى على هذا أُدِّبْتُ ، حتَّى به تَطَبَّعْتُ ، فصار خُلُقاً ثانياً لى وإن كان أصله تخلُّقا ؛ إنى وجدت الأدب مِلَاكَ الأخلاق . والمِلاك : اسمٌ لما يُمْلَكُ به الشيء ، فهو كالرِّباط والنِّظام وما أشبههما . وقوله «ولا أُلقِّبه والسَّوءة اللَّقبا» بنصب السوءة ، فتنصب اللَّقَب من أُلقِّبُ ، وينتصب السَّوءةَ على أنَّه مفعول معه ، فيكون من باب : جاء البَرْدُ والطَّيالِسَةَ . والتَّقدير : لا أُلقِّبه اللَّقَبَ مع السَّوءة . ويَجرى هذا المَجرى قولُه تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ ، لأنّ المعنى مع شركائكم . ويكون المراد : لا أجمعُ بين اللقب وما يسوءه من فُحش الكلام . فهذا وجهٌ للنصب . ويجوز أن يكون انتصاب السَّوءة على

(١) يروى : « والسوءة اللقب » على الابتداء والخبر ، كما يروى تاليه « ملاك الشيمة الأدب » ، على جعل الجملة مفعولا ثانياً لوجدت ، ومفعوله الأول ضمير الشأن المحذوف ، أو على أن « وجدت » معلق عن العمل فى اللفظ بلام الابتداء المقدرة ، والجملة بعدها من المبتدأ والخبر سدت مسد مفعولى وجد . انظر الخزانة (٤ : ٥ — ٧) .

(٢) النبز ، بالتحريك : اللقب ، وجمعه أنباز .

المعنى ، كأنَّه قال : ولا آتى السَّوءة ، فعمل فيه معنى لا ألقبه ، فيكون على هذا من باب :

يا ليتَ بعلَكِ قد غدا   متقلِّدًا سَيفاً ورُمْحا(١)

و : * عَلَفْتُها تِبنًا وماءً بارداً(٢) *

ويجوز أن يكون السَّوءة مفعولاً به ، وقد عمل ما قبل الواو فيه ، كما تقول : ما زلتُ وزيداً حتَّى فَعَل كذا ، أى ما زِلتُ بزيدٍ حتَّى فعل . وتقدير الباب فى هذه أَكْشَفُ من تقدير مَعَ وإنْ تقارَبَ معنياهما ، كأنَّه قال : لا ألقبه اللقبَ بالسَّوءة . ويقال : سمَّيته كذا وبكذا ، ولقَّبته كذا وبكذا . قال الله تعالى : ﴿ ولا تَنَابَزُوا بالألْقَابِ ﴾ . وإن رُفع فارتفاعه يجوز أن يكون بالابتداء ويكون الخبر مضمَرًا ، كأنَّه قال : والسَّوءةُ ذاك ، يعنى إنْ لقَّبته فالفحش فيه(٣) . ويجوز أن يكون مبتدأً وخبره اللَّقَبا ، ويكونُ مَصدرًا كالجَمَزَى والوَكَرَى وما أشبههُما . والمراد : والفحش استعمال اللَّقب معه ، ويكون تفظيعاً للأمر لو فَعل . ويجوز أن يكون خبرَ مبتدإٍ محذوف ، كأنَّه قال : لا ألقِّبه اللقبَ ، وهو السَّوءة . وهذا أقربُ . والسَّوءة : الفَعَلَةُ القبيحة . قال الشَّاعر :

---

(١) ويروى : «يا ليت زوجك» . ويروى : « ياليت بعلك فى الوغى » . والبيت لعبد الله بن الزبعرى كما فى حواشى ابن القوطية على الكامل ١٨٩ . وانظر الكامل ٢٠٩ ، ٤٠٣ وأمالى المرتضى (٤ : ١٧٠) والإنصاف لابن الأنبارى ٣٥٧ ، وأمالى ابن الشجرى (٢ : ٣٢١) والخزانة (١ : ٣٣٠) والمخصص (١ : ١٣٦ / ١٤ : ٢٣٢) .

(٢) أى وسقيتها ماء بارداً . والبيت لم يعرف قائله . وهو عند العينى (٤ : ١٨١) والمرتضى (٤ : ١٧٠) وابن الشجرى (٢ : ٣٢١) وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٣١٤ والخزانة (١ : ٣٣٠ ، ٤٩٩) . قال البغدادى : « وأورد له العلامة الشيرازى ، والفاضل اليمنى ، صدراً وجعل المذكور عجزاً هكذا :

لما حططت الرحل عنها واردا   علفتها تبناً وماء باردا

وجعله غيرهما صدراً وأورد عجزاً هكذا :

علفتها تبناً وماء بارداً   حتى شتت همالة عيناها » .

(٣) كذا فى ل ، وفى الأصل : « به » .

(٤) هو أبو زبيد الطائى ، كما فى مقاييس اللغة واللسان (سوأ) .

* يا لقَوْمِ للسَّوءةِ السَّوْآءِ[١] *

ويسمَّى الفَرْج السَّوْءَةَ، لقبحه. وفى القرآن: ﴿ فبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾. ويقال: سَوْءةً لِفلانٍ[٢]! دعاءٌ عليه.

٤١٥

وقال رجلٌ من بنى قُرَيع[٣]:

١ ـ مَتَى ما يَرَ النَّاسُ الغَنِيَّ وجارُه ... فقيرٌ يَقُولُوا عاجزٌ وجَلِيدُ

٢ ـ ولَيسَ الغِنَى والفَقْرُ مِنْ حيلةِ الفَتَى ... ولكن أَحاظٍ قُسِّمَتْ وجُدودُ

أخرج هذا الكلام مَخرج الإنكارِ لما تعوَّدَه النَّاس فى الحكم على الأغنياء والفُقراء. فيقول: ممَّا يَقضِى به النَّاسُ على الغنيِّ وإلى جنبه فقيرٌ، أنْ يقولوا: هذا من عَجْزِه أُتِىَ، وهذا لجلادَتِه أُغْنِىَ. وهذا خطأٌ، لأنَّ الغنَى والفقرَ مما قَدَّر الله تعالى وأجْرَى به قَسْمَه فى خلْقه، وليس المعتمَد فيه على احتيالهم، وسَعيهم واجتهادهم، لكنها جدود وحظوظ دُرِّجوا عليها، وخُلِقوا لها، على ما عَرَفَ الله تعالى من صالح خَلْقه.

وجوابُ «متى ما يرَ» قوله «يقولوا». وارتفع عاجزٌ على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، كأنَّه: هذانِ عاجزٌ وجليدٌ.

٣ ـ إذَا المَرءُ أعْيَتْهُ المُرُوءَةُ ناشئاً ... فَمَطْلَبُهَا كَهْلًا عَلَيْهِ شَدِيدُ[٤]

(١) صدره: * لم يهب حرمة النديم وحقت *
(٢) فى الأصل: «سوءة فلان»، صوابه فى ل، واللسان (سوأ ٩١).
(٣) هو المعلوط السعدى القريعى، كما فى عيون الأخبار (٣: ١٨٩). وقريع، من بنى كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. الاشتقاق ١٥٥، ١٥٠. وقد صرح به ابن جنى فى التنبيه حيث قال: «قال المعلوط بن بدل القريعى: إذا المرء أعيته»، وأنشد البيت الثالث.
(٤) ابن جنى: «أعيته السيادة».

٤ — وكائِنْ رَأَيْنا مِنْ غَنِيٍّ مُذَمَّمٍ وصُعْلوكِ قومٍ ماتَ وهو حَميدُ

قوله « إذا المرء أَعْيَتْهُ » بعثٌ وتحضيض على النُّهوض فى طلب المعالى فى ابتداء النّشء، وحين كان فى القُوَّة فَضلَةٌ، وفى العمر مُهلَةٌ، حتى تتلاقَى أوائلُ عُمره وأواخرُه فى طلب الرِّياسة، وإقامة المروءة، وأنَّه إن دافَعَ بما عليه فى ذلك وماطَلَ انتظاراً لأحوالٍ تجتمع [له[1]]، فاكتهلَ ولمّا تساعدْه تلك الأحوال فإنّه يتعذّر عليه طلبُها، ويشتدُّ عليه إدراكها. وانتصب « ناشئاً » على الحال، والعامل فيه أَعْيَتْهُ. ويقال: فَتًى ناشئٌ، أى شابٌّ. قال الخليل: ولا يوصف به الجارية. والنّاشئة: أوّلُ الوقت[2]، من هذا. وينتصب « كَهْلًا » على الحال أيضاً، والعامل فيه مطلبُها، لأنَّ المعنى مطلبُه لها وهو كهلٌ، فالمصدر مضافٌ إلى المفعول، أو مطلبه لها إذا كان كَهْلًا، ومثله: هذا تَمْرًا أطيبُ منه بُسرًا.

وقوله « وكائنْ رأَينا » كائنْ بمعنى كَمْ. وكأنَّه أخذ يفضِّل الفقرَ إذا جرى صاحبهُ فى محمود الطَّرائق من التجمُّل، والاكتفاء والتَّعَفُّف، على الغِنَى وصاحبُه يَبْطَر، ويطغَى ويأشَر، ثم لا يؤدِّى حقَّ النِّعمة عليه، فقال: كم من غَنِيٍّ ساعدَتْه الدُّنيا والأقدار، ثم أصبح مذمَّمًا حينَ لم يلتزمْ شُروطَ محمودِ الغِنى، وكم من فقيرِ قوم لما جَرى فى مَيدان العَفاف والتجمُّل، والرِّضا بحاله والتشكُّر، مات وهو حميدُ الطريقة، رضىُّ السَّريرة. والصُّعلوك: الفقير. ويقال: صعلكْتُه، أى ذهبتُ بماله كلِّه.

(١) التكملة من ل.

(٢) أى فى نحو قوله تعالى: « إن ناشئة الليل ».

٤١٦

وقال بعضهم[١]:

١ — وأَضْحَتْ أمورُ الناسِ يَغْشَيْنَ عَالِمًا ... بِمَا يُتَّقَى منها وما يُتَعَمَّدُ

٢ — جديرٌ بأَلّا أَسْتَكِينَ ولا أَرَى ... إذَا الأمرُ وَلّى مُدْبِرًا أَتَبَلَّدُ

قوله « يغشَين عالمًا » أى يغشين منّى عالمًا ، لأن العالِم هو هو ، فحذف منّى. والمعنى : إنّى باشَرت الأمورَ العظيمة ، ولابَست الخطوبَ الجليلة ، فصرتُ بطُول تجربتى ، واتّصال ممارستى ، عالما من أمور الناس إذا وردتْ أخبارها[٢] علىّ بما يُتحامى منها ويُحذَر ، وما يُتمنَّى منها فيُطلب . فلا جَرَم أنّى خليقٌ بألا أَضرعَ عند نوائب الدّهر ولا أخضع ، ولا أَرى إذا فاتَنى أمرٌ أتحسَّرُ فى إثْره وقد وَلّى ، وأَضربُ بَلْدَةَ إحدى كفَّىّ بالأخرى[٣] ، توجُّعاً وتلهُّفا ، إذا كنتُ واثقًا بأنّ الأمور يملِكها التغيُّر ، وأن الفائت يُتلافَى ، فلا يدومُ شىءٌ على حالٍ إلا ريثَ ما يتسلَّط عليه انتقال .

وقال الدُّريدى : تَبلّدَ الرَّجلُ ، إذا تحيّر فى أمره فأقبل يضرب بَلْدَةَ نحره بيده . وبَلْدةُ النَّحر : الثُّغرة وما حَوَاليها . وقال الخليل : التبلُّد : نقيض التجلُّد وهو استكانةٌ وخُضوع . وبَلُدَ الرجلُ ، إذا انكسَرَ[٤] فى العمل وضَعُفَ .

---

(١) التبريزى : « وقال آخر » .

(٢) ل : « أخبارهم » .

(٣) البلدة ، بالفتح : راحة الكف .

(٤) كذا فى ل ، وفى الأصل : « إذا نكس » .

٤١٧

وقال آخر :

١ ـ وإنَّكَ لا تدْرِى إذا جاء سائلٌ ... أَأَنتَ بما تُعطيهِ أم هُوَ أَسْعَد

٢ ـ عَسى سائلٌ ذُو حاجةٍ إن منعتَهُ ... من اليوم سُؤْلًا أن يكونَ له غَدُ

٣ ـ وفى كثْرَةِ الأيدِى لِذِى الجهْلِ زاجرٌ ... ولَلْحِلْمُ أبقَى لِلرِّجالِ وأعْوَدُ

هذه الأبياتُ تشبه قولَ الآخَر :

وأكرِمْ كريمًا إن أتاكَ لحاجةٍ ... لعاقبةٍ إن العضَاهَ تَرَوَّحُ[١][٢]

وقول الآخر[٣] :

لا تُهِينَ الفَقيرَ علّكَ أنْ ... تَركعَ يومًا والدّهرُ قد رَفَعَهْ

وقوله « أأنت بما تعطيه أم هو أسعدُ » تقديره أأنت أسعد بما تُعطيه أم هُوَ . وأمْ هذه هى المتّصلة المعادِلة لألف الاستفهام ، فانعطَف هو به على أنت . وقد يجىء الخبرُ فى مثله مكرَّرًا ، كقول الشاعر[٣] :

باتَ يقاسى أمْرَهُ أمُبرَمُه ... أَعْصَمُهُ أم السَّحيلُ أعْصَمُهْ

فيكون التّكرار فيه على طريق التأكيد . ويجرى « بين » هذا المجرى فى نحو قولهم : بينَ زيد وبين عمْرٍو خلاف ، ولو لم يكرَّرْ بينَ لكانَ الوجهَ . والشّاعر يقول : إذا زارَك سائلٌ فتوفرْ عليه ، وليّنْ قولك وجانبك له ، فإنك لا تعلم أأنت أسعدُ بما يناله منك أم هو ، واعلمْ أنَّ المحتاجَ إليك إن منعتَه سُؤْلَهُ وطَلِبتَه فهو حقيقٌ بأن ينال ما منعته فى غده . وقوله « أن يكون له غَدٌ » فى

---

(١) تروح النبت والشجر : طال . اللسان (٣ : ٢٩٤) .

(٢) هو الأضبط بن قريع السعدى . البيان (٣ : ٣٤١) والمعمرين ٨ ومجالس ثعلب ٤٨٠ والأمالى (١ : ١٠٧) والأغانى (١٦ : ١٥٤) وحماسة ابن الشجرى ١٣٧ والخزانة (٤ : ٥٨٩) والمثل السائر (١ : ٢٦٠) .

(٣) هو الراجز العجاج . ديوانه ٦٤ .

موضع خبر عَسى ، والضمير من له يعود إلى السّائل ، والمعنى : عساه إن منعتَه سؤلَه من يومٍ كان عليه ، أن يكون غدُ ذلك اليوم له ، ولهذا قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وتِلْكَ الأيّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ النّاسِ ﴾ ، فغَدٌ يرتفع بيكون ، وله فى موضع الخبر.

وقوله « وفى كثرة الأيدِى لِذِى الجهل زاجِرٌ » يريد استَبقْ إخوانَكَ وذَوِيك ، واعلم أنّ فى التكاثُر بهم مَزْجَرةً للجاهل ، ولتعاوُنِ أيديهم مدفَعةً لأذَى المغلَّب الخامل . ومع ذلك فالحِلم أبقى شأنًا وأمرًا للرجال ، وأردُّ عليهم وأنفعُ لهم . وهذه الوَصاةُ اشتملَتْ على أمرين : أحدُها اكتسابُ مودّات الإخوان لكى يكونوا إذا احتِيجَ إليهم عَونًا . والثانى استعمالُ الحِلم مع الأعداء ، والجرىُ معهم على حدٍّ لا يُخرجهم إلى المكاشفة ، ولا يُحْوِجُهم إلى خرق الهَيْبة . وقوله « من اليوم سُولا » ، يقال : أُعطِىَ فلانٌ سُولَه ، فيهمز ولا يهمز .

٤١٨

وقال آخر :

١ — إيّاكَ والأمرَ الذى إن توسَّعَتْ ... مَدَاخِلُه ضاقَتْ عليك المصادِرُ[1]

٢ — فما حَسَنٌ أن يَعذِرَ المرءُ نفسَه ... وليس له من سائر الناسِ عاذِرُ

انتصب « والأمرَ » بفعلٍ مضمر . وإيّاك ناب عن أحذِّرك ، فكأنه قال : أحذِّرُك أن تُلابِسَ الأمرَ الذى إن توسَّعَتْ موالِجُه ضاقت عليك مخارجُهُ . والمعنى : تأمَّلْ كلَّ ما تُلابسه ، واعرِفْ أواخرَه وإن اشتَبَهتْ ، كما تَعرفُ أوائلَهُ وإن تَبيَّنَتْ ، لأنه يَقبُح بالمرء أن يكون فيما يقتحمُه عند نفسه معذوراً ، وعند الناسِ مَلومًا .

---

(١) التبريزى : « إن توسعت موارده ».

وقوله « فما حسنٌ أن يَعذِر المرء نفسه » في إعراب « أن يَعذِرَ » وُجوهٌ : أحدها أن يرتفع بالابتداء وخبره متقدّم عليه ، وهو حسنٌ ، لأنّ ما النافية إذا قُدّم خبرهُ على اسمه يبطُل عمله . ويجوز أن يكون موضعه رفْعًا بفعله وفعلُه حسنٌ، ويرتفع حسنٌ بالابتداء ، ويستغني بفاعِلِه عن خبره ، وجاز الابتداء بحَسَنٍ وإن كان نكرةً لاعتماده على حرف النفي . والمعنى : ما يحسُنُ عذرُ المرء نفسَه فيما يتولاّه وليس له من الناس عاذِرٌ . ويجوز أن يرتفع « أن يَعذِر » بأنّه خبر المبتدإ الذى هو حسَنٌ ، وهذا أضعَفُ الوجوه . ويُروَى: « إن توسَّعَتْ مواردُه ضاقت عليك المصادرُ » . وقوله « من سائرِ الناس » أى من باقي الناس ، وهو من السُّؤْر . ومَن وضَعَه موضع الجميع فقد أخطأ .

٤١٩

وقال العباس بن مِرداس[1] :

١ — تَرَى الرَّجُلَ النَّحيفَ فتزْدَريهِ وفى أثوابِهِ أسدٌ مَزيرُ[2]

٢ — ويُعْجِبُكَ الطَّريرُ فتَبْتَليهِ فيُخْلِفُ ظَنَّكَ الرَّجُلُ الطَّريرُ

ينبِّه بهذا الكلام على أنّ الرجال ليسوا بجُزُرٍ يُطلَب عِظَمُها وسِمَنُها ، لأنّ المرء بأصغريه : قلبِه ولسانِه . فيقول : تَرَى الرَّجلَ النحيفَ المهزولَ الدَّقيق ، فتستحقرُه لضؤولته ، وإذا فتَّشت عنه واستشفَفْتَ ما وراء ظاهِره وجدتَه أسداً مزيراً . والمَزيرُ هو الجَلْدُ الخفيف النافذ في الأمور . ويُروَى : « يَزيرُ » وليس بجيِّدٍ من طريق المعنى ، فكأنّ أصله يَزْئرُ فنُقلت الحركةُ إلى الزاء وأُبدِل من الهمزة ياءٌ ، كما يقال المَرَاةُ والكَمَاةُ ، في المرأة والكَمْأة . وإنما ضَعُف من طريق

---

(١) سبقت ترجمته في الحماسية ١٤٩ ص ٤٣٣ . قال التبريزي : « وقال أبورياش : هذا الشعر لمعاوية بن مالك معود الحكماء الكلابي » .

(٢) التبريزي : « ويروى : مرير ، أى قوى القلب شديده » .

المعنى لأنَّ تشبيهه إيَّاه بالأسد لا فائدةَ لذكر الزَّئير معه، إذ لا تدومُ حالُه على ذلك. ووجهُه على ضَعْفِه أن يكون مَوْرِدُ «يَزْئِرُ» تأكيداً للتشبيه، كما يُستعارُ صفةُ المشبَّهِ به للمشبَّه وإن كان حصولُه لو حصَلَ ذمًّا فيه، تأكيداً للتشبيه. على ذلك قوله:

* أزَلُّ إنْ قِيدَ وإنْ قادَ نَصَبْ *

والزَّلَلُ من صِفة الذئب. ومثله قول الآخر(١):

* صَكَّاء ذِعْلِبَةٍ إذا استدبرتَها(٢) *

والصَّكك من صِفة النَّعام.

وقوله «فيُعجبك الطَّرير» فالطرير: الشابُّ الناعم ذو الكِدْنة. فيقول: ويتَّفق في الرجال مَن يُعجبك خِلْقتُه، فإذا بلوْتَهُ وامتحنتَ أخلاقَه وجدتَه لا يصدِّق ظنَّك فيه، بل يُخلِف ويُخالِف في كل ما تعتمد عليه، أو تَكِلُه إليه.

٣ — فما عِظَمُ الرِّجال لهم بفَخْرٍ ولكن فَخْرُهُمْ كَرَمٌ وخِيرُ

٤ — ضِعافُ الطَّيرِ أطوَلُها جُسُومًا ولم تَطُلِ البُزَاةُ ولا الصُّقورُ

٥ — بِغَاثُ الطيرِ أكثرُها فِراخًا وَأُمُّ الصَّقرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ(٣)

صَرَّح عن الغرض المقصود فيما تقدَّم فقال: إنما يُحمَد من المرء كرمُه وفضلُه وكثرة محاسِنه وخِيرُه، وكلُّ ذلك يرجِعُ إلى الأخلاق لا إلى الخَلْق، فلا اعتبار بالعِظَم، ولا فَخْرَ في البَسْطَة إذا حَصَلَتْ في الجسم خاصَّةً من دون العلم. ثم أخذ يمثِّل فقال: تَرَى الطير ضعافُها كالكَرَاكيّ وطيور الماء أطولُها جُسوماً، وأمَدُّها أعناقاً وسُوقاً، ثم كرائمُها كالبُزاة والصُّقور، وهي تَصِيد

(١) هو المسيب بن علس. المفضلية ١١.

(٢) عجزه: * حرج إذا استقبلتها هلواع *

(٣) نسب هذا البيت في اللسان (قلت) إلى كثير عزة. والبغاث بتثليث الباء.

ما وزنُه يتضاعَف على وزنها . وما طولُه وعَرضه يتزايَدُ على طولها وعرضِها ، ثمّ بغاثُها وهى صغارُها ومصطادها أكثر فِراخاً وأوسع نَسْلًا ، وأمُّ الصقر قليلة الفراخ مِقلاتٌ لا يَبقَى لها أيضاً ما تُفَرِّخه . وانتصب « جُسوماً » و« وفِراخاً » على التمييز . والمِقلاتُ : مِفعال من القَلَت ، وهو الهلاك . والنَّزُور : القليلة الأولاد ، من النَّزْر ، وهو القَليل .

٦ ــ لقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ فلم يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البعيرُ

٧ ــ يُصَرِّفُه الصبيُّ لكلِّ وَجْهٍ ويَحْبِسُه على الخَسْف الجَرِيرُ(١)

٨ ــ وتَضْرِبه الوَليدةُ بالهَرَاوَى فلا غِيَرٌ لَدَيْهِ ولا نَكيرُ

لمّا ضَرَبَ المَثَل بذوات الأجنحة والماشيةِ على رجلين ، عادَ يذكر من ذوات الأربع مثلَ ذلك فقال : ترى البعير مع عِظَمه وقُوّته ، وصبره على النُّهوض بالأعباء الثقيلة ، والأحمال العظيمة ، لمّا لم يَصْحَبْ عِظَمه اللُّبُّ ، وقُوّتَه التمييز ، لم يستغْنِ بما أُعْطى من ذلك ، بل تراه مسخَّراً لأنْ يُدِيرَه الصبيُّ على وجهٍ من وجوه التذليل ، ويَحبِسَه زِمامُه على كل خَسْف وهَضْمٍ ، حتى أن الوليدةَ تضربُه أوجَعَ الضرب ، فلا إنكارَ منه ولا ذَهابَ عنه ، ولا تغييرَ إليه ولا نكير لَدَيه .

وقوله « الهرَاوَى » جمع هِرَاوَةٍ ، ووزنُه فعائل هَرَائى ، لأنّ فَعِيلة وفِعَالة يشتركان فى هذا البناء من التكسير ، تقول : صحيفةٌ وصحائف ، ورسالة ورسائل ، إلا أنهم فرُّوا من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة ، فصار هَرَاءا ، فاجتمع همزةٌ وألفان فكأنه قد اجتمع ثلاثُ ألفات أو ثلاث همزات ، فأبدَلوا من الهمزة واواً فصار هَرَاوَى . فإن قيل : هَلَّا أبدَلْتَ منه الياء ، كما فعلتَه فى مطايا وما أشبهَها ؟

(١) التبريزى : « بكل وجه » .

قلتَ : أرادوا أن يَظهَر فى الجمع الواوُ كما ظهر فى الواحد ليتميَّز بنات الياء عن بنات الواو .

٩ – فإنْ أَكُ فى شِرَارِكُمُ قليلاً فإنِّى فى خيارِكُمُ كثِير

يقول : إنْ كَثَرَنِى شرارُكم وأراذلُكم ، لوفور عددِهم وكونى واحداً فيهم ، فإنى أكْثُر خيارَكم وأغلبُهم لقلَّتهم وكثرتى ، وذلك أنى أنُوب عن جماعةٍ إذا عُدَّ الأخايرُ . ويجوز أن يريد أنه لا خيارَ لكم ، فأنا وإنْ كنتُ واحداً من حيثُ العدد ، كثيرٌ إذا طُلِبَ الخيار منكم ، إذْ لم يكن لكم خيار .

وقد مَضَى القول فى غير موضع فى حذف النون من لم أَكُ وإن أَكُ .

٤٢٠

وقال بعضهم :

١ – أعَاذِلَ ما عُمْرِى وهَلْ لِى وقد أتَتْ لِدَاتى على خَمْسٍ وستِّين من عُمْرِى

٢ – رأيتُ أخَا الدُّنيا وإن كان خافضاً أَخَا سَفَرٍ يُسْرَى به وهو لا يدرى

٣ – مُقِيمينَ فى دَارٍ نَرُوحُ ونغتدى بلا أُهْبَةِ الثَّاوِى المقيمِ ولا السَّفْرِ

وقوله « ما عمرى » استفهامٌ على طريق التَّحقير والاستقلال ، فكأنَّ العاذلةَ كانت عتبَتْ عليه فى تبذيرٍ وإنفاق ، وخوَّفته العواقبَ وما تؤدِّى إليه بالتِّفاق ، فأخذ يُجيبُها ويقول : يا عاذلةُ ، أىُّ شَىْءٍ عُمْرِى ، وكيف يدوم بقائى حتَّى أخوَّفَ بالفقر ، وهل لى عُمْرٌ وأقرانى يَعُدُّون خمساً وستين سنة . ثم أخذ يَذُمُّ الحريصَ على الدنيا وأعراضها ، ويَقُصُّ ما تَستَوِى فيه أقدامُ الخلائق من إرصاد الفَناء لها فقال : رأيتُ صاحبَ الدنيا وإن كان متودِّعاً مقيما ، كالمسافرِ يُسار به وهو لا يعلم ؛ وذلك لأنَّ له أجَلاً يُسَاق إليه ، ومُنْتَهًى من العمر يحال عليه ، فالأيام تأخذ

منه ، وتنقص من عمره ، فهو كالمسافر وقد انتوى نِيّةً فما يقطعه من المسافة يُقرِّبه من مَقْصَده ، ويُعجِّل وصولَه إلى أمده .

وقوله « مقيمين فى دارٍ » انتصب على الحال من قوله « أخا الدنيا » ، لأنَّه أراد به الكثرة ، فهو كأسماء الأجناس . وقال : « نَروح ونَغتدى » لأنَّه من إخوان الدُّنيا ، فأدخل نفسه فيهم . وقوله « بلا أُهْبةِ الثَّاوى المقيمِ ولا السَّفْرِ » يريد : لا نأمُل البَقاءَ فى هذه الدنيا ، ولا نأمَن الفَناء ، فلسنا كالثَّاوى فنتأهَّبَ أهبتَه ، ولا كالمسافر فنُعِدَّ عُدَّتَه . وأراد بالثّاوى المقيم الكثرةَ لا الواحد . وقد تقدَّم القَول فى حقيقة العُمْر[1] .

٤٢١

وقال بعضُهم[2] :

١ــ لا تَعترِضْ فى الأمرِ تُكفَى شُؤونَه ولا تَنْصَحَنْ إلَّا لِمَنْ هُوَ قَابِلُهْ

٢ــ ولا تَخْذُلِ المَوْلَى إذا ما مُلِمَّةٌ ألمَّتْ ونازِلْ فى الوَغَى مَنْ يُنَازِلُهْ[3]

يوصِى مخاطَبَه بأن يُعرِضَ عن الأمر الذى لا يَعنيه ، ويترُكَ الاعتراضَ فيه ، وألاَّ يتنصَّحَ إلاَّ لِمَنْ يرجو قبول[4] النُّصح منه ، وبألاَّ يَخذُلَ ابنَ عمِّه إذا

(١) كذا وردت هذه العبارة فى هذا الموضع ، وحقها أن تكون تعليقا على البيت الأول لا الأخير .

(٢) هو عبيد بن أيوب العنبرى ، كما فى مجموعة المعانى ١٤ . وعبيد بن أيوب : أحد بنى العنبر بن عمرو بن تميم ، وكان جنى جناية فطلبه السلطان وأباح دمه : فهرب فى مجاهل الأرض وأبعد ، لشدة الخوف . وكان يخبر فى شعره أنه يرافق الغول والسعلاة ، ويبايت الذئاب والأفاعى ، ويأكل مع الظباء والوحش . الشعر والشعراء ٧٥٨ واللآلئ ٣٨٣ .

(٣) بعده عند التبريزى ومجموعة المعانى :

ولا تَحرم المولى الكريم فإنه أخوك ولا تدرى لعلك سائله

(٤) فى الأصل : « تبرك » ، صوابه فى م .

نزلت به نازلة ، بل يُنازِل مَن ينازله ، ويناوئ مَن يناوئه . وهذا على طريقتهم في قولهم : « انصُر أخاكَ ظالماً أو مظلوماً » . وأصل الوغَى هو الجَلَبة والصَّوت . وقوله « في الأمرِ تُكفى شؤونَه » يريد تُكفى أسبابَه وجوانبه . والضمير من « قابِلُه » لما دلَّ عليه قوله لا تَنْصَحَنْ ، وهو النُّصْح .

٤٢٢

وقال مَنظور بن سُحَيم[1] :

١– ولَسْتُ بِهاجٍ في القِرى أَهْلَ مَنْزِلٍ   على زَادِهِمْ أَبْكي وأُبْكي البَوا كِيا

٢– فإمَّا كِرَامٌ مُوسِرُونَ أَتَيتُهُمْ   فَحَسْبِيَ مِنْ ذِي عِنْدَهُمْ ما كَفانيا[2]

٣– وإمَّا كِرَامٌ مُعْسِرُونَ عَذَرْتُهُمْ   وإمَّا لِئامٌ فادَّكَرتُ حَيَائِيا

يصف نفسَه بالتعفُّف عن المطامع الدنيَّة ، والمطاعم الذَّميمة ، فيقول : لا أهجو بسَبَبِ القِرَى ، وهو ما يُقدَّم إلى الضَّيف ، ولا أشكو أهلَ دارٍ فأبكي على ما يفوتُني مِن زادهم وأُبكي غيري معي . وقوله «أَبكي وأُبكي البوا كيا» لا بُكاءَ ثَمَّ ، وإنَّما أرادَ تفظيعَ التأسُّف . فيريد : لا آسَفُ لما أرى من الحِرمان أسفَ مَن يَبكي ويُبكي غيرَه تهالُكاً على مالِ غيره ، وتوجُّعاً لشدَّة نَهْمته .

وقوله « فإمَّا كِرامٌ » فصَلَ بين حرف الجزاء والفِعل بقوله كرام ، فارتفع بفعلٍ مضمر دَلَّ عليه الفعل الذي بعده ، كأنَّه قال : فإما يُقْصَدْ كِرَامٌ موسرون أتيتُهم . وقوله «فحسبي» في موضع الابتداء ، و « ما كفاني » في موضع الخبر ،

(١) منظور بن سحيم الفقعسي الكوفي ، إسلامي ، ذكره المرزباني في معجمه ٣٧٤ – ٣٧٥ . وفي الإصابة ٨٤٦٣ : « منظور بن سحيم بن نوفل بن نضلة بن الأشتر ابن جحوان بن فقعس الأسدي الفقعسي ، ذكره المرزباني في معجم الشعراء ، وقال إنه مخضرم » .

(٢) التبريزي والمرزباني : « من ذو عندهم » .

والفاء مع ما بعدَه جواب الشرط . وقوله « مِن ذِى عندَهم » أراد من عندهم . والعرب تقول : هذا ذو زَيْدٍ ، يريدون : هذا زَيْدٌ . وهذا من إضافة المُسمَّى إلى الاسم . قال الكميت :

* إليكم ذَوِى آلِ النَّبىِّ تَطَلَّعَتْ[1] *

يريد يا أصحاب ذا الاسم . وقال الأعشى :

فكذَّبوها بما قالَتْ فصَبَّحَهُمْ ذو آلِ حَسَّانَ يُزْجِى الموتَ والشِّرَعا

أى العسكر الذى يقال له آل حسّان .

ويروى : « مِن ذو عِندَهم » ويكون ذو بمعنى الذى ، وعندهم فى صلته ، وذو هذه طائيّة . والمعنى : لا يخلو مَن أقْصِدُهُ وأنزلُ بهِ من وجوه : إمَّا أن يكونوا قوماً يرجعون إلى كَرَمٍ ويَسَار ، فيتوفّرون علَىَّ حسَبَ مايقتضيه كَرَمُهم وأَكتفِى مِن الذى عندهم لى بما يَكفينى ، وإمَّا أن يكونوا كِراماً مُضِيقِينَ[2] أثَّر الدهر فيهم ، فأعذِرَهم لإضاقتهم ، وعلى بحالهم . فقوله « وإمَّا كرام معسرون » بيانُه : وإمَّا قُصِدَ كرامٌ مُضِيقُون عذرتُهم فى تقصيرهم ، وإمَّا أن يكونوا قوماً لئاماً فى أخلاقهم دناءةٌ ، وفى أعراقهم نَذَالة ، فتذكّرتُ حيائى وصيانَتى لنفسى ، فلم أبذلْ لهم وجهى ، ولم أبتذلْ بتقاضيهم ومُطالبتهم جاهى .

٤ — وعِرْضِىَ أبْقَى ما ادَّخَرْتُ ذَخيرَةً وبَطْنِىَ أَطْوِيهِ كَطَىِّ رِدائِيا

قوله « أبقَى ما ادّخرتُ » ما فى موضع الجرّ ، كأنّه قال : عِرْضِى أبقى شىء أدَّخره ذخيرة ، أى اكتسبه ذخيرة . فعلى هذا ينتصب « ذخيرة » على الحال

(١) عجزه كما فى الهاشميات ٣٩ :

* نوازع من قلبى ظماء وألبب *

(٢) مضيقين ، بالقاف من الإضاقة ، وهى العسر . وفى الأصل : « مضيفين » بالفاء صوابه فى ل .

المؤَكِّدة لما قبله . وادَّخَر : افتعَلَ من الذُّخر لكنه أُبدل من التاء دالاً فأدغم الدَّال فيه ، فلك أن تقول ادَّخر ولك أن تقول اذَّخَر .

وهذا الكلام بيانُ ما يأخذ به نفسَه من الصيانة والقَناعة ، وسُلوكِ طرائق الانقباض عمَّا يَشِين ولا يَزِين من الانبساط إلى اللئام . فكأنه قال : أُبَقِّى على عِرضِى ، لأنَّه أعزُّ الذخائر لى ، وأطوى بطنى عن المآكل المُردِية كما أطوى ردائى ، إذْ كان التزهُّد فيما يُخزِى أولَى عِندى .

٤٢٣

وقال سالم بنُ وابصة[1] :

١ — ونَيْرَبٍ مِن مَوالى السَّوءِ ذى حَسَدٍ يَقتاتُ لَحْمِى وما يَشْفِيهِ من قَرَمِ

٢ — داوَيتُ صَدْرًا طويلا غِمْرُه حَقِداً منهُ وقَلَّمْتُ أظفارًا بِلاَ جَلَمِ

النَّيرب : النميمة والعداوة وقوله « ونَيربٍ » أراد وذى نيرب ، والمصدر وما يجرى مَجراه إذا وُصِفَ به إمَّا أن يكون على حذف المضاف ، وإما أن يُجعَل الموصوفُ نفسَ الحدَثِ لكثرة وُقوعه منه . فيقول رُبَّ ذى نيربٍ حَسودٍ من موالى السَّوء ، يَغتابُنى بظَهر الغَيب ، ويأكل لحمى ولا يَشفيه ذلك من قَرَمٍ . والقَرَم : شَهوة اللحم . والمعنى أنه لا يَكفيه ما يتناول منِّى وإن كان لا يألو جُهداً فى ثَلْبِى . وجواب رُبَّ قوله « داويت » من البيت الثانى . ويقتات : يفتعل من القُوت ، وهو فِعل المطاوَعة . ويقال : قاتَه كذا فاقتاته .

ومعنى « داويتُ صدراً طويلا غِمْرُه » أى صابرتُه على مُداجاته وانطوائه على حقدى ، فدفعتُ شرَّه عن نفسى بطول مداواتى ، وفَلَلت حدَّه بترك

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٤٤ ص ٧١٠ .

مكاشَفتِه حتَّى لم يجد إلى إثارة كامِن غِمْرِه طريقاً ، فاحتاج إلى الإمساك عن أذاتى ، لدوام تمسُّكى بمجاملته شاءَ أو أبى . وقوله حَقِداً هو اسم الفاعل من حَقِد ، وهو لغةٌ فى حَقَد . يقال حَقَد يَحقِد فهو حَقُود ، وحَقِد يَحْقَدُ فهو حَقِدٌ .

٣ — بالحَزْمِ والخِيرِ أَسْدِيه وأُلحِمُه ... تَقْوَى الإلٰه وما لَمْ يَرْعَ من رَحِمِى[1]

٤ — فأصبحَتْ قوسُه دُونى مُوَتَّرَةً ... يَرْمِى عَدُوِّى جِهارًا غيرَ مُكْتَتِمِ

الباء من قوله « بالحزم » تعلَّق بقلَّمتُ أو داويتُ من البيت المتقدِّم . والخِيرُ : الكرَم ، وقيل : هو الهيئة والطبيعة ، يقال : هو كريم الخِيم والخِير جميعاً . وقوله « أَسْدِيه وأُلحِمه » خبرَانِ لُفَّ أحدُهما بالآخر . فقوله « تقوى الإلٰه » يرجع إلى أُسديه ، و « ما لم يَرْعَ من رَحِمِى » رجع إلى أُلحِمُه . والمعنى : داويتُ صدرَه أى مكنونَ صدرِه ، وقلَّمْتُ ظُفرَه باستعمال الحزم والخِير معه ، ثم جعلتُ تقوَى الله تعالى سَدَى ما بينى وبينه ، وألحمتُه رعايةَ ما ضَيَّعَه من الرَّحِم ، فلا جَرَمَ أنه كفَّ من شأوِ شرِّه وغَرْب عداوته ، وأقبَلَ فى الظاهر يُعادى من يُعادينى ، فقوسُه الآن موتَّرةٌ دونى يرمى منها أعدائى بأسهم النُّصرةِ . ، مجاهَرةً لا مكاتَمةً .

٥ — إنّ من الحِلْمِ ذُلاًّ أَنتَ عارِفُه ... والحِلْمُ عن قُدْرَةٍ فضلٌ من الكَرَمِ

نبَّهَ بهذا الكلام على أن تَحلُّمَه عن أدانيه كان عن قُدْرَةٍ لا عن عجز ونَقيصة ، ولو شاء لانتقَمَ منهم . وأنه لم يُكسِبْه إمساكُه عن مجاذبتهم ذُلاًّ ، ولو كان يُفضِى به الحالُ إلى ذلك لما فعَلَ ، فتحلُّمه كرَم ، وإبقاؤه على ما يَجمعه وإيَّاهم من قُربَى وقرابةٍ تُقًى وتفضُّل . وقوله « فضلٌ من الكرم » يريد أنه نوعٌ من الفضل يُعَدّ فى خصال الكَرَم . ومثل هذا قول الآخر :

---

(١) التبريزى : « من رحم » .

جَهُولٌ إذا أَزْرَى التَّحَلُّمَ بالفَتى حَليمٌ إذا أزرى بذى الحَسَبِ الجهلُ

٤٢٤

وقال بعضهم :

وأُعْرِضُ عن مَطاعِمَ قد أَرَاها فأَتْرُكُها وفى بَطْنِى انْطِوَاءُ

فلا وأَبِيكَ ما فى العَيْشِ خَيْرٌ ولا الدُّنيا إذا ذَهَبَ الحَيَاءُ(١)

يماثل هذا قول الآخر :

ولقد أَبِيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّه حتى أنال بِهِ كَريمَ المَطْعَمِ(٢)

قوله « وأَظَلُّه » يريد أظلُّ عليه ، فحذف حرف الجر ، كما قال :

* لولا الأُسَى لَقَضانِي(٣) *

أى لقضى علىّ .

٤٢٥

وقال نافعُ بن سعدٍ الطائى :

١ – ألم تَعْلَمِي أَنّى إذا النَّفْسُ أَشْرَفَتْ على طَمَعٍ لَمْ أَنْسَ أَنْ أَتَكَرَّما

٢ – ولَسْتُ بلَوّامٍ على الأمرِ بَعْدَما يَفوتُ ولكنْ عَلَّ أن أتقدَّما

(١) بعده عند التبريزى :

يَعِيشُ المرءُ ما استحيا بخَيرٍ ويبقَى العُودُ ما بَقِيَ اللِّحاءُ

(٢) المعروف فى الرواية : « كريم المأكل » . وهذه الرواية المعروفة فى بيت عنترة ، فى اللسان (ظلل) وديوان عنترة ١١٩ . وانظر مقاييس اللغة (٣ : ٤٣٠) .

(٣) البيت لأعرابى من بنى كلاب ، كما فى الكامل ٢١ ليبسك واللسان (غرض ، قضى) . وصدره :

* تحن فتبدى ما بها من صبابة *

يقول : أمَا علمتِ من أخلاق الكفَّ عن كثيرٍ من المَباغى الجالبة لقالَة الناس وتصرُّفهم فى الحكم عليه وله ، وأنّى إذا أمكننى الفوزُ بالمطامع القريبة والمآكلِ الهنيئة ، فأشرفتُ منها على تحصيلها لم أنْسَ أخذَ النَّفس بالنظر فيها ، واستعمالَ الكرَم فى تركِ ما يَجمع علىّ عاراً منها . وقوله « على طَمَعٍ » أى على مطموع فيه ، ومنه قيل لأرزاق الجند : أطماعهم .

وقوله « ولَسْتُ بلوّامٍ » يقول : إذا فاتنى أمرٌ لا أرجِعُ على نَفْسى باللّوم الكثير تحسُّرًا فى إثْرهم ، لكننى حقيقٌ أن أتقدَّم فى تحصيله قبلَ فواته إن كان مما يُهِمّ . وقوله « ولكنْ عَلَّ » هو أصل لَعَلَّ ، وهو حرفٌ موضوعٌ للطمع والإشفاق ، واسمه مضمر كأنه قال ولكن لعلنى أن أتقدم . وهو يجىء بأنْ وبغير أن ، فإذا كان معه أن أفاد فائدة عَسَى ، وإذا جاء بغير أن كان الفعل أقرب وقوعاً ، لأنّ أنْ للاستقبال ، ولعلّ وإنْ كان حرفاً يُعدّ مع أفعال المقاربة وهى عسى وكاد . ولَوّام بناء المبالغة ، وليس بمبنِيّ على لَوَّم لأن المبنى عليه هو مُلَوِّمٌ .

٤٢٦

وقال بعض بنى أسد[(١)] :

١ ـ إنّى لأستغنِى فما أبْطَرُ الغِنَى وأعْرِضُ مَيْسورِى على مُبْتَغِى قَرضِى

٢ ـ وأعْسِرُ أحياناً فتَشْتَدُّ عُسْرَتِى فأُدْرِكُ مَيْسورَ الغِنَى ومعى عِرضى

٣ ـ وما نالَها حتى تجلَّت وأسفَرتْ أخُو ثِقَةٍ منِّى بقَرْضٍ ولا فَرْضِ[(٢)]

(١) هو الحكم بن عبدل الأسدى ، كما فى أمالى القالى (٢ : ٢٦٠) ، وقال : « اجتمع الشعراء بباب الحجاج وفيهم الحكم بن عبدل الأسدى ، فقالوا : أصلح الله الأمير ، إنما شعر هذا فى الفأر وما أشبهه . قال : ما يقول هؤلاء يا ابن عبدل ؟ قال : اسمع أيها الأمير . قال : هات . فأنشده » . وروى هذه القصيدة .

(٢) روى بعده التبريزى :

وأبذُلُ مَعروفى وتصفو خليقتِى إذا كَدِرتْ أخلاقُ كلّ فتًى محض

يعدّد فى هذه الأبيات عاداته فى حالتى الغِنى والفقر ، فقال : إنِّى أنالُ الغِنى فلا يَكْسِبنى أشَرًا ولا بَطَرًا ، لـكنى أشكر الواهبَ وأَبقَى على حالتى الأولى ، بل[1] يقرّبنى ما أنالُه من المتَّصلين بى ، والمنضمِّين إلىَّ بسبب من الأسباب ، فأعرِضُ ما يتيسر لى على طُلّاب قرضى ، وأُشرِكُ مَن يمتُّ إلىَّ فى الخير المُتاح . وقد يتعقَّب الإيسارَ إعسارٌ فى الوقت بعد الوقت ، فأصبرُ وإن اشتدَّ عُسْرى ، وأُسْبِلُ على نفسى جَناحَ[2] تحمُّلى وتعفُّفى حتى أدركَ ميسورَ الغِنَى ونفسى معى ، لم أبتذِلْها ولم أدنِّسْها بتعريضٍ أو تصريح لمُفْضِلٍ أطلُب بهما عنده مَطْمَعا ، وأجتلب مرغَبا .

وقوله : « وما نالها » يريد وما نال تلك العُسرةَ أخٌ لى يُوثَقُ بودّه لا بعاريَّة ولا بعطيَّة ، إلى أن انكشفَتْ وفارقت .

وقوله « أبْطَرُ الغِنى » معناه أبطَرُ فى الغنى حتَّى أذهبَ عن سَنَنَ الشُّكر فأتجاوزَه وأخلِّفَه ورائى ، غَمْطًا للنِّعمة ، أوجهلا بحقِّ الصَّنيعة . وقال الله تعالى : ﴿ وكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَت مَعِيشَتَها ﴾ . وقوله « أعرِضُ ميسورى » وضَعَه بلفظ المفعول للمصدر ، يريد اليُسر . ومثله ماله معقولٌ . وضدّه حُمِل عليه وهو العُسر ، فقيل معسور . وإنما قال «ومعى عِرضى» لأنّه إذا صانَه عن القبائح ولم يُسلِّطْ عليه من يتملَّكه بهبَة أو صلَة ، فكأنَّه معه لم يفارقْه . ولو أجراه على غير هذا لـكان مفارقًا له ، وداخلًا فى مَلَكة غيره .

٤ — ولـكِنَّهُ سَيْبُ الإلٰهِ ورِحْلَتِى وشَدِّى حَيازِيمَ المَطِيَّةِ بالغَرْضِ

الهاء من قوله « ولـكنّه » يعود إلى ميسور الغنى . واستدركَ النَّفى من قوله « ما نالها حتَّى تجلَّت » بقوله لـكنّ ، يريد : لـكنّ الغنى المتجدِّد ، وهو عطيّة

(١) فى الأصل : « فلو » ، صوابه فى ل .
(٢) فى الأصل : « جزاء » ، صوابه فى ل .

الله تبارك وتعالى ، وتقلُّبي وارتحالى ، وشدى حيازيمَ المطايا بالغُروض . كأنّه ذكَرَ الأسباب التى يسَّرت له الغِنى ، وأنّها لم تخرُجْ من تفضُّل الله تعالى واجتهاده . وقوله « المطيَّة » أراد بها الجنس ، لذلك قال « حيازيم » وجمعها . والسَّيْب : العَطاء والمعروف ، وكثُر فى الاستعمال حتَّى سُمِّى الكنوزُ سُيُوباً ، وقيل لما تخرجه المعادِن سُيوب . والغَرْضُ والغُرْضَة : البِطان ، وهو للبعير بمنزلة الحِزام للدَّابَّة . والمَعرِض منه كالمَحْزِم .

٥ ــ وأستَنْقِذُ المَوْلى من الأمْرِ بَعدما يَزِلُّ كما زَلَّ البَعِيرُ عن الدَّحْضِ

٦ ــ وأمْنَحُه مالِى ووُدِّى ونُصْرتى وإن كانَ محنىَّ الضُّلوع على بُغْضِى (١)

يقول : إنِّى أتعطَّف على أبناء عمِّى ، فأُخلِّصهم من الشَّدائد ، وآخُذ بأضباعهم إذا زلّتْ أقدامُهم ، فأقيمُهم بعد أن كانت زلَّتهم كزَلَّة البعير عن المَزْلَقَة . وإنَّما خَصَّ البعير لأنَّ سقطتَه أفظع وأسرَعُ فى المَزَالّ . يقال : مكانٌ دَحْضٌ ومَدْحَضَةٌ . ودَحَضَتْ رِجلُ البعير ، إذا زَلِقَتْ . قال :

* وحِدْتُ كما حَادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ (٢) *

(١) بعده عند التبريزى :

ويغمرُه حِلمى ولو شئت نالَه قوارعُ تَبرِى العظمَ عن كَلِمٍ مَضّ

وأَقضِى على نفسى إذا الأمرُ نابنى وفى الناسِ من يُقضَى عليه ولا يَقضِى

ولستُ بذى وجهين فيمن عرفتُه ولا البخلُ فاعلم من سمائى ولا أرضى

وإنى لسهلٌ ما تغيِّرُ شيمتى صُروفُ ليالى الدهر بالفَتْل والنَّقْض

(٢) البيت لطرفة فى ديوانه ٤٨ واللسان (دحض) . وصدره فى الديوان :

* أبا منذر رمت الوفاء فهبته *

وفى اللسان :

* رديت ونجى اليشكرى حذاره *

ومنه : ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ أى لا تثبت . ودَحضت الشَّمسُ عن كَبِد السماء : زالَتْ .

وقوله « وأمنحه مالى » يريد : أنِّى بعد استنقاذى إيَّاه أتوفَّر عليه ببذل المال ، وإخلاصِ الود ، وتقريب النُّصرة ، وإن كان منطوياً على العَداوة والبغضاء .

وقوله « محنىّ الضُّلوع » أى معطوفها . ويقال : حَنَيْتُ الشيء وحَنَوْته حَنْياً وحَنْوًا ، فهو مَحْنِيٌّ .

٤٢٧

وقال حاتِمٌ الطَّائى[١] :

١ — وما أنَا بِالسَّاعِي بِفَضْلِ زِمَامِها ... لِتَشْرَبَ مَاءَ الحَوْضِ قَبْلَ الرَّكائِبِ[٢]

٢ — وما أنَا بِالطّاوِى حَقِيبةَ رَحْلِها ... لِأَبْعَثَها خِفًّا وأَتْرُكَ صاحِبِي[٣]

يقول : لا أجتذب إلى نفسى الفضلَ مع خلطائى وشركائى فى الشُّربِ وغيرِه فلا أتسرّع فى الوُرود مستعجِلاً براحلتى لتشرب ماءَ الحَوضِ قبل وُرود ركائبهم . ومعنى قوله « بالسَّاعِي بفضل زمامها » السَّابقُ بما أُعْطِى راحلتى مِن زمامِها .

---

(١) هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائى . وكان من شعراء الجاهلية ، وبه كان يضرب المثل فى الجود ، وأخباره فى ذلك كثيرة مشهورة . انظر الأغانى (١٦ : ٩٢ – ١٠٥) وشرح شواهد المغنى ٧٥ والخزانة (١ : ٤٩٤ – ٤٩٥) والشعراء ١٩٣ – ٢٠٣ . والبيتان من أبيات فى ديوانه ١١٨ .

(٢) فى الديوان : « ما فى الحوض » .

(٣) فى الديوان : « لأركبها خفا » . وبعده عند التبريزى :

إذا كنتَ ربًّا للقلوص فلا تدَعْ ... رفيقَك يمشى خلفَها غير راكبِ

أَنِخْها فأردفه فإنْ حَملتكُما ... فذاكَ وإن كان العقابُ فعاقبِ

العقاب : أن يتناوب المسافران الدابة يركب كل منهما عقبته . والعقبة ، بالضم : النوبة .

وهذا مثَل . والرّكائب : جَمع رَكوبٍ ، وهو اسمٌ يجمَعُ ما يُرْكَب ، ويقال : رَكُوبة ، فهى كالحلوبة والحَمُولة ، وتقع للواحد والجمع .

وقوله « وما أنا بالطَّاوِى حقيبةَ رحلِها » ، يقول : وإذا كان لى رفيقٌ فى السَّفَر وسّعت جَنَابى له ، ولا أتركه يمشِى وقد خفّفْتُ حقيبةَ رحلِ ناقتى طلباً للإبقاء عليها ، ولكنِّى أُردِفُه أو أُرْكِبُه . والحقيبة : ما يُشَدُّ خلفَ الرّحْلِ . قال :

* والبِرُّ خيْرُ حَقيبةِ الرّحْلِ[1] *

والفعل منه احتقَبَ واستَحقَب . واستُعير فقيل : احتَقَب إثْمًا . قال :

فاليومَ فاشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إثْمًا من الله ولا واغِــلِ[2]

٤٢٨

وقال آخر :

١ ــ وإنِّى لَأَنْسَى عِنْدَ كلِّ حَفيظَةٍ إذَا قِيلَ مَوْلاكَ ، احتمالَ الضغائنِ

٢ ــ وإنْ كانَ مَوْلًى ليسَ فيما يَنُوبُنِى مِن الأمرِ بالكافِى ولا بِالمُعاوِنِ

يصف نفسَه بأنَّ الحقد ليس من طَبْعه ولا عادته ، فيقول : إنِّى أُشفِقُ على مَوَالِيَّ حتَّى إذا اتفَق لواحدٍ ما يحتاج منى إلى مَعونةٍ نَسِيت سيِّئته ، ولم أحتمِلْ فى صدرى له ضِغْنهُ ، فأخذْتُ بيده وأعنتُه على دهره ، وإنْ كانَ فيما ينوبُنى ليس بكافٍ لى ولا مُعين ، إذ كنتُ أوجِبُ له بكونه مَوْلًى ما يُنسِى تباغُضَه وجفاءَه . والحفيظة : الخَصْلة يُحفَظُ لها الإنسانُ ، أى يُغضَب . ويقال : « أهلُ

(١) البيت لامرئ القيس بن حجر ، كما فى الشعراء ٦١ .

(٢) وهذا أيضا لامرئ القيس فى ديوانه ١٥٠ . ويروى : « فاليوم أسق » . ويروى أيضاً : « فاليوم أشرب » ببناء الفعل على السكون ، أو بتقدير علامة الإعراب . انظر الخزانة (٣ : ٥٣٠ ــ ٥٣٢) .

الحفائظ أهل الحِفاظ » ، لأنَّهم يُحامونَ من وراء إخوانهم . وانتصب « احتمالَ » بِأَنْسى . والضَّغائن : جمع الضَّغينة ، وقد مرَّ ذِكرُها .

٤٢٩

وقال آخر (١) :

وإنِّى لَعفٌّ عن مَطَاعِمَ جَمَّةٍ إذا زَيَّنَ الفَحشاءَ للنَّاسِ جُوعُها

قد مضى له نظائر .

٤٣٠

وقال آخر :

١ — ومَوْلًى جَفَتْ عَنْهُ المَوَالى كأَنَّهُ مِنَ البُوسِ مَطْلِىٌّ به القَارُ أَجْرَبُ

٢ — رَئِمْتُ إذا لم تَرْأَمِ البازِلُ ابنَها ولم يَكُ فيها للمُبِسِّينَ مَحْلَبُ

يقول : رُبَّ ابنِ عمٍّ زهِد أقاربُه فى الإحسان إليه فاطَّرحوه واثنَوْا عن الفِـكر فيهِ والتوفُّر عليه ، نُبُوًّا عنه وعن اصطناعه ، فأثَّر فيه البؤس ، وأحاطَ بجوانبه الشَّقاء والضُّرّ ، حتى صار كالبعير الجرِب وقد طُلِىَ بالقار ، هيئةً ولوناً ، وضُؤولةً وانخزالا ، وتباعداً عن الناس وتجافياً ، أنا عَطَفْتُ عليه ، وأشركتُه فيما وهَبَ الله لى فى وقتٍ من الزَّمان لا يُؤْوِى (٢) أحدٌ من أهله غيرَه ، لِشُمول القَحط ، وغَلَبة الضُّرّ والفقر ، حتى أنّ النُّوقَ تؤْثِر التباعُدَ عن أهلها فلا ترأَمُها ، وترَى الذين يُبِسّون بذوات الألبان عند الحَلَب ، لا يجِدُون فى ضَرعها خيراً . ويقال : بَسَّ بالناقة وأبَسَّ ، إذا دَعاها للحَلَب . ومن أمثالهم : « لا أفعلُ

(١) هذه الحماسية ذات البيت الواحد لم يروها التبريزى .

(٢) فى الأصل : « يروى » ، صوابه فى ل .

كذا ما أَبَسَّ عَبْدٌ بناقةٍ[١] » ، أى دعاها للحَلَب . ويقال : رَئِمَتِ الناقةُ رِئْماناً ، إذا عطَفَتْ .

٤٣١

وقال عروة بن الورد[٢] :

١ – دَعِينى أُطَوِّفْ فى البِلادِ لَعلَّنى أُفِيدُ غِنًى فيه لِذِى الحقِّ مَحْمَلُ

٢ – أليسَ عظيمًا أنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ وليسَ علينا فى الحقوقِ مُعَوَّلُ

يُخاطب عاذلةً له فيما همَّ به من التَّرحال فى طلَب المال ، فقال : اترُكينى وما أختارُه من التَّجوال ، والتنقُّل فى البُلدان ، طَمَعاً فى خيرٍ أستفيدُه ، وغِنًى أستجدُّه ، لكىْ إذا نابَنا ذو حَقٍّ وجَدَ على مالِنا مَحْمَلا ، وعلينا فى الْتزام واجِبه مُتَّكَلاً ؛ لأنَّ مَن جالَ نال ، ومن قَرَع باباً وجَدَ وُلُوجاً ، وأوَّلُ دَرَج الحِرمان الوقوفُ عند أدنى الهِمَّتين ، وآخرها الرِّضا بأوْدَع العَيشَين .

وقوله « أليس عظيما » يريد تقريرها على فَظاعةِ الفقر والفاقَة ، وقَباحة إمساكِ الناس عن تعليق الرَّجاء بهم والطَّاعة ، فقال : ألا تستعظم[٣] أن تَنوبَ الحيَّ نائبةٌ فلا يُعوِّلون علينا فى الاحتمال عنهم ، ولا يرتجون منّا تعطُّفاً عليهم ، لاتِّضاع حالِنا ، وتأكُّد اليأْسِ من نَيلنا . وقوله «أُفيد» بمعنى أستفيد . وأليس يقرَّر به فى الواجب الواقعِ ، وأن تُلمَّ فى موضع الرَّفع بليس .

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « بناقته » .
(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٤٥ ص ١٢١ . والبيتان فى ديوانه ١٠٦ .
(٣) هذا على الالتفات . والوجه « ألا تستعظمين » .

٤٣٢

وقال آخر :

تثَاقَلْتُ إلا عن يَدٍ أستَفيدُها   وخُلَّةِ ذى وُدٍّ أشُدُّ به أَزْرِى

هذا فى طريقةِ ما تقدَّم . والمعنى : أنِّى أتباطأ عن المطالب والمَباغى كلِّها إلا إذا اتفق مَصنعٌ عند حُرٍّ ، فإنى أتسرَّع إليه ، وأتخفَّف فى تحصيله ، مخافةَ أن يفوز به غيرى ، لأن اعتقاد المِنَن فى أعناق الرِّجال أعُدُّه غنيمةً تُغْتَنَم ، وفائدةً تُدَّخَر ؛ وإلاَّ صَداقةَ أخٍ وَديدٍ أعتمدُها فى مدافعةِ شَرّ ، ولاشتدادِ أَزْرٍ ، فإنى أجمعُ يَدِى عليها ، ولا أصبرُ على المزاحمة فيها . ويقال : شَدَّ فُلانٌ أَزْرَه ، إذا شد مَعقِدَ إزارِه . ويقال : آزَرَه على أمره ، إذا ظاهرَهُ وعاونَه عليه .

٤٣٣

وقال عبدُ الله بن الزَّبِير (١) :

١ ـ لا أحسِبُ الشَّرَّ جاراً لا يُفارِقُنى   وَلاَ أَحُزُّ على ما فاتَنى الْوَدَجا

٢ ـ وما نزَلْتُ مِن المكروهِ مَنْزِلَةً   إلاّ وَثِقْتُ بأن أَلْقَى لها فَرَجا

يصف حُسنَ ثقتِه بربِّه ، وجميلَ ظنِّه بتفضُّله ، وأنه قد جَرَّب وتَبصَّر ، وعَرَف من أعقاب الأمور ما جعلَه لا يَذِلُّ لنائبة ، ولا يتخشَّع لنازلة ، فلا يظنُّ الشَّر إذا بُلِيَ به ضربةَ لازِمٍ (٢) لا يُخالِف ، وجارَ سَوء لا يُفارِق . قال : وإذا فاتَنى أمرٌ وإن جَلَّ لا أَهْلِك أسًى فى إثْرِه ، ولا أقتلُ نفسى جَزَعًا

---

(١) التبريزى : « عبد الله بن الزبير الأسدى » . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٢٢ ص ٩٤١ .

(٢) ل : « ضربة لازب » ، وهما سيان .

لقَوته ، ولا أنزِلُ من مَظانِّ المكارِه منزلةً إلاّ وثقتى بتلقّى الفرَج وتعجُّله على أقرب مسافةٍ منى . والوَدَجان : عِرْقانِ يقطعُهما الذابح . ويقال : وَدَجْتُ الدّابّةَ ، إذا أصبْتَ وَدَجَها .

٤٣٤

وقال مالكُ بن حَزِيم[1] :

١ ـ أُنْبِيتُ والأيّامُ ذاتُ تجارِبٍ … وتُبْدِى لكَ الأيّامُ ما لَسْتَ تَعْلَمُ

٢ ـ بأنَّ ثَرَاءَ المَالِ يَنْفَعُ رَبَّهُ … ويُثْنِى عليه الحَمْدَ وهو مُذَمَّمُ

٣ ـ وأنَّ قَلِيلَ المالِ للمرءِ مُفْسِدٌ … يَحُزُّ كما حَزَّ القطيعُ المُحَرَّمُ

٤ ـ يَرَى دَرَجاتِ المَجْدِ لا يَسْتَطِيعُهَا … ويَقْعُدُ وَسْطَ القومِ لا يتكلَّمُ

قوله « والأيّامُ ذاتُ تجارب » اعتراضٌ وقعَ بين أُنْبِيت ومفعولَيه ، وهما فى قوله « بأنّ ثَراء المال ينفع ربه » لأنَّ أنبيت ونُبِّيت وأخواتها كلٌّ واحدةٍ منها تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل . وقوله « وتُبدِى لك الأيّامُ » اعتراضٌ ثانٍ وإن عُطِفَ على ما قَبْلَهُ . والمعنى أنَّ الأيّامَ والليالىَ تفيد أربابَها تجارِبَ بما يَحدُثُ فيها من الحوادث ، ويتحوّل من الأحوال ، وتُعْلِمهم بما ينكشف عنها ويشتمِل

---

(١) هذا ما فى الأصل . وفى ل : « خريم » . وفى شرح التبريزى والقاموس (حرم) ونوادر أبى زيد ٩٦ وأمالى القالى (٢ : ١٢٣) : « حريم » ، وهو مظهر من مظاهر اختلاف الرواة فى اسمه . وفى سمط اللآلئ ٧٤٨ : « واختلف فى مالك بن حريم الهمدانى ... فقال ابن النحاس : قال لى نفطويه : هو مالك بن خزيم بالزاى . قال : وقرأت على أبى إسحاق فى كتاب سيبويه فى بيت أنشده له : مالك بن خريم بالخاء المضمومة المعجمة والراء المهملة المفتوحة . . . . وكذلك كان محمد بن يزيد يقول مالك بن خريم . وقال الهمدانى : هو مالك حريم » . ومالك بن حزيم : شاعر جاهلى إسلامى : كما فى اللآلئ . وهو مالك بن حزيم بن مالك بن حزيم بن دالان الهمدانى .

عليها من غوامض الأمور وخفيّاتها ، ما لا يَخطُر لهم ببال ، ولا يؤدّيه إليهم رَسْمٌ ولا مِثالٌ . فيقول : أُخْبِرْتُ والأيّام هذه حالها أنّ كَثرةَ المال ، والتّوسُّع في الحال ، يَرجِعان بالنّفع على صاحبِهما فيصوِّرانه بصورة المشكور والمحمود ، وإن كان عند التّحقيق والتحصيل مشكوًّا مذموما ؛ وأنّ في قِلّة المال مَفْسَدَةً لحالِ المُقِلّ وجاهِهِ ونفسه ، حتّى يبريَه ويقطعه بَرْيَ السّوط الجديد الذي لم يليَّن بَعْدُ ، المضروبَ به ، فتراه يَبخَعُ نفسَه ، ويتخشّع لِلاقِيهِ والنّاظرِ إليه ، ويَلزَمُ السُّكوتَ في نادي الحيِّ فلا يَنبِسُ تَماوُتًا وتصاغراً ، إذْ كان قد عَلِمَ من نفسه أنّه لا يستطيع التّرقّيَ في مدارج الفَضْل والإفضال ، وأنّه تَقْعُدُ الحالُ به عن النّهوض بما ينهض به أماثلُ الرِّجال ، فهو يُسَلِّم الأمرَ لهم ، ويَبرأ من التّدبير إليهم .

وقوله « بأنّ ثراء المال » تَعلّق بأُنبيت بأنّ الأمر كذا وأنّ الأمر كذا . والقَطِيع : السَّوْط . والمُحرَّم : الذي لم يُمَرَّن بَعْدُ .

٤٣٥

وقال محمد بن بَشِير (١) :

١ — لَأَنْ أُزَجّيَ عِنْدَ العُرْيِ بالخَلَقِ ... وأَجْتَزِي من كثيرِ الزّادِ بالعُلَقِ

٢ — خَيْرٌ وأَكْرَمُ لي من أنْ أَرَى مِنَنًا ... خَوَالدًا لِلئام النّاسِ في عُنُقِي (٢)

يصفُ رضاهُ بيسيرِ الحظِّ من الدُّنيا ، وعَفافَهُ عن كثير ما يَسْتَغْنِي عنه فيتوقّى ، فيقول : لَأَنْ أتبلّغ عند التّعرّي باكتساء الخَلَق ، وأكتفي من الزّاد الكثير بما يمكن به سدُّ الفاقة — أصْوَنُ لي وأَرَدُّ عليّ من أن أرى مِنَنًا معقودة في عُنُقي ، مُثْقِلةً لظَهري ، باقيةً على أعقاب الزمان لِلئامِ الناسِ عندي . والعُلَق :

(١) سبقت ترجمته في الحماسية ٢٦٩ ص ٨٠٨ .

(٢) التبريزي : « مننا معقودة » .

جمع العُلْقَة ، وهى اليسير من الشيء يُتَبَلَّغُ به ويَعتَلِقُه المحتاجُ إليه . ويجوز أن يكون من عَلِق يَعْلَق، إذا رَعَى . ومنه الحديث : « إنَّ أرواحَ الشُّهداء لَتَعْلَقُ فى الجنة » وتكون العُلْقة كالغُرفة والطُّعْمة وما أشبههما . وقوله «لأن أزجِّىَ» اللام لام الابتداء ، وأن أزجِّى مبتدأ وخبره قوله «خَيْرٌ وأكرمُ بى» .

٣ ـ إنِّى وإنْ قَصُرَتْ عن هِمَّتِى جِدَتى   وكانَ مَالِىَ لا يَقْوَى على خُلُقِى

٤ ـ لَتَارِكٌ كلَّ أمْرٍ كانَ يُلزِمُنِى   عَارًا ويُشْرِعُنِى فى المَنْهلِ الرَّنِقِ

نَبَّهَ على تمام الظَّلَف والعفاف إذا أَخَذَ به الإنسان ، فيقول : أنا وإنْ عَجَزَتْ غُنْيَتِى عمَّا توجبه همَّتى ، وكان فى حالى قُصُورٌ عما يدعو إليه خلُقى ، مُعْرِضٌ عن كلِّ أمْرٍ إذا نلتُه رجع منه عارٌ علىَّ أُذْكَرُ به ، ويوردُنى مشارعَ الكدر ، فإذا صدَرْتُ عنها لم أتهنَّأْ بشربى منها . ولك أنْ تروى : « فى مَنْهَل الرَّنَق » فيكون المنهل مُضافًا إلى المصدر ، ولك أن تَرْوِى : « فى المَنْهل الرَّنِق » بكسر النون فيكون صفةً له . والمَنْهَل : موضع النَّهَل . والناهِلُ : العَطشان ، والرَّيَّان جميعاً . والوُجْدُ والجِدَةُ : مصدر وَجدتُ ، فى المال . ويقال : شَرَعت فى الماء ، إذا خُضْتَ . وأَشْرَعَنِى فيه فلانٌ وشرَّعنى أيضاً . وفى المثل : « أَهْوَنَ الوِرْدِ التَّشْرِيعُ » .

٤٣٦

وقال أيضاً :

١ ـ ماذا يُكَلِّفُكَ الرَّوْحَاتِ والدُّلَجَا   البَرَّ طَوْرًا وطَوْرًا تركَبُ اللُّجَجَا

٢ ـ كَمْ من فتًى قَصُرَتْ فى الرِّزْقِ خُطْوَتُهُ   أَلْفَيْتَهُ بِسِهامِ الرِّزْقِ قد فَلَجَا

قوله « ماذا » لفظةُ استفهام ، والمعنى الإنكار ، ويجوز أن يَكون «ما» مع

ذا بمنزلة اسمٍ واحد مبتدأ ، ويكلّفك خبره . ويجوز أن يكون وَحْدَهُ اسماً ، وذا فى موضع الخبَر ، ويكلّفك من صلته ؛ كأنه قال فى الأوّل : أىّ شيءٍ يكلّفك ، وفى الثانى : ما الذى يكلفك السَّيرَ فى اللَّيل والنَّهار متَّصلا ، لا تفتُر تركَب البَرَّ تارةً ، والبحرَ أخرى . والرَّوْحات : جمع الرَّوْحة ، وهو يريد به السَّيرَ رَواحاً . والدَّلَجُ والدُّلجة : السَّير بالليل . وقوله « طَوْراً » انتصَبَ على الظَّرف ، والبَرّ انتصبَ بفعلٍ مضمَر دلَّ عليه الفعلُ الذى بعده . واشتقاق الطَّوْرِ من قولهم : لا أطور به ، ومن طَوَار الدَّار ، وهو ما كان ممتدًّا معها .

وقوله « كم من فتًى » أفاد كَم التَّكثيرَ ، والكلام خبر ، والمراد : كثيرٌ من الفتيانِ تَودَّعوا فى منازلهم ، وقَصُرَت خُطُواتهم للسَّعى فى طلَب أرزاقهم ، أُلْفُوا قد نالُوا ما غَلَبوا به الجِدَّ فى الطَّلَب ، المتعبَ نفسه فى التَّنقُّل . ومعنى فَلَجَ : غلَبَ . وسهام الرِّزْقِ ، يراد بها قِداح الرِّزق ، كأنَّه فاز لَمّا خرجَ له عند الإجالة بما غَلَب به مُقامِرَهُ ومُزَاحِمَهُ . ويجوز أن يريدَ بسهام الرِّزق ما حُظَّ له من الحظّ ، وأُسهِمَ له وقُسِمَ فى الرِّزق .

٣ــ إنَّ الأمورَ إذا انسَدَّتْ مَسَالِكُها فالصَّبْرُ يفتُقُ منها كلَّ ما ارتَتَجا

٤ــ لا تيأَسَنَّ وإن طَالَتْ مُطَالَبَةٌ إذا استَعَنْتَ بصبرٍ أن تَرَى فَرَجا

يقول : اسْتَعِنْ بالصَّبرِ فى كلِّ ما تُزَاوِله وتراوِده[1] ، فإنَّ الأمورَ إذا انسدَّت طرقُها ، وأعيَت الحِيَلُ فى تحصيلها ، فإنَّ الصَّبرَ يسهِّلُ مدارجَها ، ويوسِّع مَوالِجَها ، ويَفتَح ما انغلَقَ منها ، ويَفْتُق ما ارتَتَق من أسبابها ، ولا يتسلَّطنَّ عليك من اليأس ما يفتِّر عزمَك ، أو يقصِّرُ سَعيَك ، وإنْ دامَتْ مطالبتُك ، واتَّصَلَتْ مواظبتك . واعتقدْ أنَّ الفرجَ يتلقَّاك ، والنُّجحَ بأقرب

---

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « وترادفه » .

المنازلِ منك ؛ فإنَّكَ إذا فعلتَ ذلك فُزْتَ بكلِّ ما ترومُهُ ، وتعجَّلَ لك كلُّ ما تهواه . وقوله « أن ترى » في موضع المفعول من تيأسَنَّ . وقوله « فالصبر يَفْتُق » جواب إذا ، وخبر إنّ الأمور في الشرط والجواب . ويقال رتَجْتُ الباب وأرْتجْتُهُ ، إذا أغلقتَهُ ، وباب مُرْتجٌ ومرْتوجٌ . والرِّتاجُ : البابُ نفسُه .

٥ — أَخْلِقْ بِذي الصَّبْرِ أنْ يَحْظَى بحاجَتِهِ ... ومُدْمِنِ القَرْعِ لِلأبوابِ أن يَلِجَا

٦ — أَبْصِرْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ الخَطْوِ مَوْضِعَهَا ... فَمَنْ عَلَا زَلَقًا عن غِرَّةٍ زَلِجَا[1]

يقول : إنَّ مُدْمِنَ الصَّبْرِ في الأمور ، ومُلازِمَ التثبُّتِ والتلوُّم عند الخطوب[2] حقيقٌ بأن يظفر بطَلِبَته ، وبنجاحِ السَّعى في مَرامه وبغْيَتِهِ[3] . كما أنَّ من أدام قَرْعَ أبوابِ مَداخله ، وغَمزَ مفاصلَ آرابه ، حقيقٌ بوُلوجه ووصوله ، ومعرفةِ مُتيح ما يرجوه ومُريحه .

ثم قال : وإذا سعيتَ في أمْرٍ فاعرفْ مواطئَ قَدَمِكَ قبل أن تعلوَها ، ومواقعَ خَطوِكَ قبل أن تعدُوَها ، واقسِمْها بين نظَرِك واختبارك[4] ، وتحقيقك وحَدْسِك ؛ فإنَّ مَن ركِبَ مَزْلَقَةً عن غِرَّةٍ وغفلة ، يُوشِكُ أن يسقُط ليديهِ وفمِهِ ، وتزلَّ به قدمُه إلى قرار هَلَكته وحَينه . والزَّلَجُ : السُّرعة في المشْي والسُّقوطِ وغيره . وفرسٌ زَلُوجٌ : سريع السير . وكذلك يقال قِدْحٌ زَلُوجٌ . ومزلاج الباب : الخشبَةُ التي يُغلقُ بها .

---

(١) التبريزى : « قدر لرجلك » . وبعده عنده :

ولا يَغُرَّنْكَ صَفوٌ أنتَ شاربُهُ ... فرُبَّما كان بالتَّكدير ممتزجا

(٢) التلوم : الانتظار والتلبث .

(٣) البغية ، بضم الباء وكسرها . وضبطت في النسختين بالكسر .

(٤) ل : « واختيارك » .

٤٣٧

وقال آخر (١):

١ ـ لجِجْنَا ولَجَّتْ هَذِهِ فى التَّغَضُّبِ وشَـدِّ الحجابِ بَيْنَنَا والتنقُّبِ (٢)

٢ ـ تَلُومُ على مَالٍ شَفَانِى مَكانُهُ إلَيْكِ فَلُومِى ما بَدَا لكِ واغْضَبِى

كانَ هذا الشَّاعرَ اطَّلَع من أحوال أيتام أخيه على ما ساءه وأَنِفَ منه ، ثمَّ دعاه التَّحنُّن والإشفاقُ ممَّا يتداولُه الناسُ فى مجالسهم من أحاديث البرّ والعُقوق ، وتصرُّفهم فى صَرْف المَقْتِ إلى مستحقِّه ، والحمدِ إلى مكتسِبه، إلى أنْ أمرَ عَبْدَيْهِ الرَّاعيينِ بإراحة ما رَدَّا إلى فنائه مِنْ مَسارح إبلِه عليهم (٣) ، فاغتاظَتْ امرأتُه من ذلكَ وأنكرَتْ فِعلَه ، وخوَّفَتْه فى أثناء ملامها بالفَقر وهجرَتْه ، فأخذ يقتصُّ ما كان منها ومنه فقال : تمادَت امرأتى فى الغَضَب والهجران ، واللَّوم والاحتجاب ، وكلُّ ذلك منها فى مَالٍ شفانى موضعُهُ الذى وضعتُه فيه ، ومَصْرِفُه الذى صرفْتُه إليه . ثمَّ أقبَل عليها مستهيناً بها وبفعلِها فقال : إليكِ فلومى ما بدا لَكِ . والمعنى : اجمعِى أمرَكِ ، واستمرِّى فى عَتْبكِ وغضَبِك ما بدَالك ، فانَّ الرَّشادَ فيما آثرتُه ، والصَّلاحَ فى قِرَانِ ما اخترتُه . و « إليك » : اسمٌ من أسماء الأفعال هنا ، كما يكون عليك ، وعندكَ . ولذلك عَطَفَ عليه قوله « فلومى » . و « ما بدالك » فى موضع الظَّرف . وقد تقدَّمَ القولُ فى أمثاله .

(١) هو حجية بن المضرب . وفى التبريزى : « وحدث ابن كناسة أن حجية ابن المضرب كان جالساً بفناء بيته ، فخرجت جارية بقعب فيه لبن ، فقال لها : أين تريدين بالقعب ؟ فقالت : بنى أخيك اليتامى فوجم وأراح راعياه إبله ، فقال : اصفقاها نحو بنى أخى ، ثم دخل منزله فعاتبته امرأته فقال . . . » .

(٢) التبريزى : « ولط الحجاب دوننا والتنقب » .

(٣) كتب بجوارها فى ل بخط دقيق : « يعنى بنى أخيه » .

٣ — رأَيْتُ اليَتَامَى لا تَسُدُّ فُقُورَهُمْ هَدَايَا لَهُمْ فى كل قَعْبٍ مُشَعَّبِ (١)
٤ — فقُلْتُ لِعَبْدَيْنَا أَرِيحَا عَلَيْهِمُ سأَجْعَلُ بَيْتِي مِثْلَ آخَرَ مُعْزِبِ
٥ — عِيَالِي أَحَقُّ أن يَنَالُوا خَصاصَةً وأن يَشْرَبُوا رَنْقًا إلى حينِ مَكْسَبِي (٢)

يعنى باليتامى أولاد أخيه المتوفَّى . يريد : رأيتهم لا تَسدّ مَفاقرَهم ولا تقيمُ مُخْتَلَّ أحوالهم ، تُحفٌ تُوجَّه إليهم ، وهدايا تُحْمَلُ نحوهم فى قِعابٍ مشعوبةٍ . يشير بذلك إلى ما كانت امرأته تتولاَّه وتأتيه من برِّهم وتفقُّدهم قبل ذلك . وفى قوله : « هدَايا لهم فى كلِّ قعب مُشَعَّبِ » إزراءٌ بصنيعها ، وبالألبان المنقولة إليهم وظُروفِها . وجَمَع الفقُورَ لاختلاف وجوهها .

وقوله « فقلتُ لِعَبْدَيْنا » يَعنى راعِيَيه اللّذين أُمِرَا بِسَوْقِ الإبل المردودة من المراعى إلى فِناء أولاد أخيه . وإنّما ثَنَّى على عادتِهم فى تثنية مزاوِلِى أعمالهم ، كالبائن والمستعلِى فى الحَلَب وما أشبههما . وقوله : « سأجعلُ بيتى مثلَ آخر » ، يريد مثل بيتِ آخرَ وقد عَزَبتْ إبله وتباعدَتْ ، فإنّ عيالى ولهم كاسبٌ مثلِى أحقُّ بمزاوَلة الفقْر ، ورَثاثة العيش ، والصَّبْرِ على المَشْرَب الرَّنِق ، إلى أن أَكْسِبَ ما تعودُ به حالهم إلى ما أَلِفُوهُ من الخِصْبِ والسَّعة ، والخَفْض والدعَة . ويقال : أَعْزَبَ الرَّجلُ ، إذا عَزَبَتْ عنه إبلُه فى المرعَى .

٦ — ذكرتُ بِهِمْ عِظامَ مَنْ لَوْ أَتيتُه حَرِيبًا لآسانِي لَدَى كلِّ مركَبِ (٣)
٧ — أَخُوكَ الّذِى إنْ تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ يُجِبْكَ وإن تَغْضَبْ إلى السَّيْفِ يَغْضَبِ (٤)

---

(١) ل : « لايسد » . (٢) التبريزى :

بَنِىَّ أَحَقُّ أَن ينالوا سَغَابةً وأَن يشربوا رنقًا لدَى كلِّ مَشربِ

(٣) التبريزى : « ويروى : حبوت بها قبر امرىء لو أتيته » .
(٤) التبريزى :

أخى والذى إنْ أدعُه لمُلِمَّةٍ يُجِبْنِى وإن أغضَبْ إلى السَّيف يَغضبِ

قال أبو رياش : وفيها :

فلا تحسَبِينِى بُلْدُمًا إن نكَحْتِهِ ولكنّنى حُجَيَّة بن المُضَرَّب

يقول : تذكَّرتُ بهؤلاء الأولادِ أباهم الذى لو أتيتُه محزونًا مسلوبًا ، ومُتعَبًا بأعباء الفقر مَبْهورًا ، لضمَّنى إلى صدره ، وشمِلَنى تضاعيفُ برِّه ، وجعلنى إسوةَ نفسِه فى كلِّ ما أركبُهُ ، والمُسْعَفَ بطَلِبَته عند جميع ما أخطُبُه ، لأنَّ الأخ الكامل الأخوَّة هو الذى يشدّ أزرَكَ ، ويحمِى ظهرَكَ ، وإن دعوْتَه لنائبةٍ تنوبُ أجابَكَ سريعًا ، وإن أعملْتَ سيفَكَ أعمَلَ سيفَه معه حثيثا .

٤٣٨

وقال المُقَنَّعُ الكِنْدِىُّ[١] :

١ — يُعاتِبُنى فى الدَّيْنِ قَوْمِى وَإِنَّمَا ... دُيُونِىَ فى أَشْيَاء تَكسِبُهُمْ حَمْدَا

٢ — أَسُدُّ به ما قد أَخَلُّوا وَضَيَّعُوا ... ثُغورَ حُقوقٍ ما أطاقُوا لها سَدَّا

٣ — وفى جَفْنَةٍ ما يُغْلَقُ البابُ دُونَها ... مُكَلَّلَةٍ لَحْمًا مدفَّقَةٍ ثُرْدَا

٤ — وفى فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ جَعَلْتُه ... حِجابًا لِبَيْتِى ثم أَخدمْتُهُ عَبْدَا

كأنَّ قومَه ينعَون عليه[٢] سَرَفه فى الإنفاق ، وتخرُّقَهُ فى الإفضال ، وتجاوُزَه ما تُساعِدُه به حالُه وتَقَسَّعُ له ذاتُ يدِه إلى الاستقراض ، وبذْلِ الوجه فى الادِّيان[٣] ، فقال : كثُرتْ لأئمتُهم فيما يركَبُنى من الدُّيون ، وإنما هى مصروفةٌ فى وجوهٍ مُؤَنُها علىَّ ، وجمالُها لهم ، وقضاؤُها فى أنفسِها يَلزَمُنى ،

(١) اسمه محمد بن ظفر بن عميرة . وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية ، وكان له محل كبير وشرف ومروءة وسؤدد فى عشيرته . ويزعم المؤرخون أن العلة فى لزومه القناع ما كان يخاف على نفسه من العين ، فقد كان أحسن الناس وجهاً ، وأمدهم قامة ، وأكملهم خلقاً ، فكان إذا سفر أصابته أعين الناس فيمرض ويلحقه عنت . الأغانى (١٥ : ١٥١) والشعراء ٧١٥ — ٧١٦ واللآلئ ٦١٥ — ٦١٦ .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : «كان قوم يعيبون عليه» .

(٣) الادّيان ، افتعال من الدين .

ومحامدُها موفَّرة عليهم . ثمّ أخذ يعدِّد فقال : من تلك الوجوه أنّ ما ينُوبُ من الحقوق فيُخِلّون بها ويضيِّعونها عجزاً عن الوفاء بواجبها ، أنا أسُدُّ ثغورَها ، وأُقيم فروضَها .

ومنها : أنّ لى دارَ ضيافة قُدورُها مُشْبَعة موفورة ، وجفانُها معَدَّة منصوبة ، لا يُمنَع منها طالبُها ولا يُحجب عنها رائدها ، فلُحانُها كالأكاليل على رءوسها ، وثرائدها قد نُمِّق تدقيقُها .

ومنها : أنّ بفنائى فرساً مربوطاً قد أُعِدَّ للمهمّات ، على عادةِ أمثالى من الأكابر والرؤساء . ولكَرمِه وما يتوفَّر عليه من إكرامى إيّاه قد صار كالحِجاب لباب بيتى ، وقد شَغَلتُ بخدمته عَبْدًا يتفقَّده برأى منِّى ، لا أُهمِله ولا أغفُل عنه .

قوله : « مدفَّقةٍ » أى مملوءة . والأحسن أن يُروى معه : « ثُرْداً » بضم الثاء . ويروى « مدقّقةً ثَرْدَا » بفتح الثاء . والمراد مثرَّدةٍ ثَرْداً دقيقاً . والنَّهْد : الجسيم المُشْرِفُ من الخيل .

٥ــوَإن الّذِى بَيْنِى وَبَيْنَ بَنِى أَبِى وَبَيْنَ بَنِى عَمِّى لَمختلِفٌ جِدًّا(١)
٦ــفإنْ يَأْكلوا لَحمِى وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ وَإنْ هَدَمُوا مَجْدِى بنيتُ لهم مَجْدَا(٢)
٧ــوَإنْ ضَيَّعُوا غَيْبِى حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ وَإنْ هُمْ هَوُوا غَيِّى هَوِيتُ لهمْ رشْدَا
٨ــوَإن زجروا طَيرِى بنَحْسٍ تَمُرُّ بِى زَجَرْتُ لهمْ طَيْرًا تَمُرُّ بهم سَعْدَا(٣)

ذكر بعد ما عَدَّد معاذيره(٤) فيما أنكروه عليه ، أنّ إخوتَه وأبناء عمِّه

(١) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « فإن » .
(٢) التبريزى : « فإن أكلوا » .
(٣) كذا فى ل والأصل . وعند التبريزى : « وإن زجروا طيراً » .
(٤) ل : « معاذره » . والثلب : العيب . والإذالة : الإهانة .

يحسدونه ويأتمرون العداوةَ والغَوايةَ له ، وهو يُصابِرُهم ويُجامِلُهُم ، ويتغابَى معهم ، فقال : إنَّ مابينى وبينهم فى طرَفَىْ نقيض ، وعلى لونٍ من الخِلاف عجيب ؛ فإنهم إن اغتابُونى وتطعَّموا لحمِى أمسكْتُ عنهم ، وتركْتُ أعراضهم موفورة ، لم يتخوَّنْها منِّى إذالةٌ ولا ثَلْبٌ[1] ، وأعراقهم محفوظة لم يتحيَّفْها تحامُلٌ ولا غَضٌّ . وإن سَعوْا فى نَقْضِ ما أبرمْتُه من مَسْعاةٍ كريمةٍ ، وهدْمِ ما أسَّسْتُه من خُطَّةِ مَجْدٍ عليَّةٍ ، جازيتُهم بابتناء شَرَفٍ لهم مستحدَث ، وإعلاءِ شأنٍ لهم مستأنَف . وإن أهْمَلوا غَيبى فلم يُراعُوهُ بحُسنِ الدِّفاع عنه ، وإسباغِ ثَوبِ المحاماة عليه حَفِظت أنا غيبَهم ، وأرصَدْت الغوائل لمن اغتالهم . وإن أحبُّوا لىَ الغوايَةَ ، والتَّسكُّع فى الضَّلالة والبَطالة ، اخترتُ لهم المَراشِد ، وهويت فى مَباغيهم المَناجح . وإن تمنَّوْا لىَ المَنْحَسَة ، وزَجروا من بَوارح الطَّير وسوانحها فى المشأمة ، جعَلْت عِيافتى لهم فيما يمُرُّ بى منها المَسْعَدة والطِّيَرَةَ الحميدة . وقوله : « سَعْدًا » صفة لطيْرًا .

٩ ـ وَلا أَحمِلُ الحِقْدَ القَديمَ عَلَيْهِمُ وَلَيْسَ رَئيسُ القَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

١٠ ـ لهمْ جُلُّ مَالِى إن تتَابَعَ لِى غِنًى وَإن قَلَّ مَالى لم أُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا

١١ ـ وَإِنِّى لَعَبْدُ الضَّيْفِ مادامَ نازِلًا وَما شِيمةٌ لِى غَيْرَها تُشْبِهُ العَبْدَا

أثبت لنفسه الرِّياسةَ عليهم فى هذا البيت . والمعنى أنه متى استعطفوه عطَفَ عليهم ، وإن استقالوه[2] أقالهم وأسرَع الفَيْئةَ لهم ، غيرَ حاملٍ الضِّغْنَ واللَّجاجَ معهم ، ولا معتقِدًا انتهازَ الفُرَص فيهم ، لِمَا اكتَمَن من عَوادِى الحقد عليهم .

وقوله : « وليس رئيس القَوم من يحمل الحقدا » يجرى مجرى الالتفات ، كأنّه أقبلَ على مخاطَبٍ فقال : إنِّى لا أتجمَّل[3] بترك مؤاخذتهم ، واطِّراح الحِقد

(١) التخون : التنقص .
(٢) ل : « وإذا استقالوه » .
(٣) ل : « لا أتحمد » .

فى مساوَقَتِهم ، فإنّ الرَّئيسَ يُحِبُّ لتَبَعِهِ ذلك عليه فى شروط الرِّياسة . وقوله : « لهم جلُّ مالى » يريد إنْ تَوَاصَلَ الغِنَى لى أشركتُهُمْ فى مُعظَمِه ، من غير امتنانٍ ولا تكدير ، وإن تحيَّفَ مالى حادثٌ يُلِمُّ ، أو عارضٌ يحدُثُ ، لم أنتظِرْ من جهتهم مَعونة ، ولا كلَّفتُهم فيما يخفّ أو يثقل مؤونة .

وقوله « وإنّى لعَبْد الضَّيف » أراد أن يبيِّن ما عنده للغريب الطارق[1] ، والضَّيف النازل ، بعد أن شَرَح حالَه مع مواليه ، وخِصالَه فى مُرافَقةِ ذويه ، فقال : وأبْلُغُ فى خِدمة الضُّيوف مَبالغَ العبيد فيها . ثمَّ أكّد ما حكاه بقوله « وما شِيمةٌ لى غَيْرَها تُشبه العبدا » ، فانتصبَ « غَيرَ » على أنَّه مستثنى مقدَّم ؛ وذاك لأنَّه لما حالَ بين الموصوف والصِّفة ، وهما شيمةٌ وتُشْبه ، وتقدَّمَ على الوصف صار كأنَّه تقدَّمَ على الموصوف ، لأنَّ الصِّفة والموصوفَ بمنزلةِ شىء واحد . وقوله « تشبه العبدا » يريد : تُشبِه شِيَمَ العبد[2] ، فحذفَ المضافَ وأقام المضاف إليه مقامه .

فليَتأمَّل النَّاظرُ فى هذا الباب وفى مثلِ هذه الأبيات ، وتصرُّفِ قائلها فيها بلا اعتساف ولا تكلُّف ، وسلاسَة ألفاظها ، وصِحَّة معانيها ، فهو عَفْوُ الطَّبْع ، وصَفْو القَرْض .

٤٣٩

وقال رجلٌ من الفَزَارِيِّين :

١ — إلَّا يَكُنْ عَظْمِى طَوِيلًا فإنَّنِى لَهُ بالخِصَالِ الصَّالحاتِ وَصُولُ

٢ — وَلَاخَيْرَ فى حُسْنِ الجُسُومِ وَنُبْلِهَا إذا لم تَزِنْ حُسْنَ الجسوم عُقُولُ

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « الطائف » .

(٢) ل : « العبيد » .

٣— إذا كنتُ في القَوم ِالطِّوالِ أصَبْتُهُم بعارفةٍ حَتَّى يُقالَ طَوِيلُ(١)

يقول : إن لم يكنْ فى طولى امتداد ، ولا فى خلقى بَسْطة وكمال ، فإنِّى لا أزالُ أَصِلُ نَقْصَ جسمى ، وأمُدُّ قِصَر قامتى بما أتولَّاه من الأفعال الكريمة ، وأختاره من الخصال الحميدة ، حتَّى أمحُوَ سِمَةَ الإزراء عن نفسى . ومَنْ أُوتِىَ الفضلَ فى خُلُقه ونَفْسه ، وعاداته وشِيَمه ، خيرٌ ممَّن أُوتِىَ العِظَم فى خَلْقه ، والبَراعةَ فى جسمه ، فلا فضيلةَ لمن حسُنَ وجههُ ونبُل منظرُه ، إذا لم يزيِّنْه عقلٌ وافر ، ومَخبرٌ رائق . ومتى حَصَلْتُ بين أقوامٍ طِوال القامات ، قابلْتُ طُولَهم بطَوْلِ يدى فِيهم ، وأنَلْتهم معروفى حتَّى عظُمْتُ فى أعينهم ، وامتلأَتْ من حبِّهم لى ومَيلِهم إلىَّ قلوبُهم ، فأنساهُم طولُ باعى بالعطيَّة قِصَر قامتى بين قاماتهم . وقوله « حتَّى يُقالَ طَويل » ارتفع طويل على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : هو طويل . أى يُسلِّمون له فضيلةَ الطُّول عندهم .

٤— وكم قَدْ رأَيْنا مِنْ فُروعٍ كثيرةٍ تَموتُ إذا لم تُحْيِهنَّ أُصُولُ

٥— ولم أرَ كالمعروفِ أمَّا مَذَاقُه فَحُلْوٌ وأما وَجْهُهُ فجَميلُ

هذا مثلٌ ضرَبُه للخصال المجتمِعة فى الإنسان ، لا تُعَدُّ فضائلَ إلَّا إذا اقترنَتْ بخصالٍ أُخَر ، وهى كالأصول لها . ومثالُ ذلك ما قدَّمَه من ذِكر عَبَالة الخَلْق(٢) إذا عَرِيَتْ من نَبَاهة الخُلُق ، وما شاكَلَها من صباحة الوَجْه إذا خَلَتْ من صحابة العَقْل . ثم قال : ولم أر شيئاً كإسداء المعروف وبثِّ العطاء والإحسان ، فإنَّ مَن ذاقَه استحْلاه ، ومن رآه استحسَنَه وارتضاه . وهذا تأكيدُ ما ذكر من قوله : « أصبتهم بعارفة حتَّى يقالِ طويل » .

(١) التبريزى : « علوتهم بعارفة » .
(٢) العبالة ، بتثقيل اللام ، وتخفيفها لغة عن اللحيانى ، وهى الثقل .

٤٤٠

وقال عبدُ الله بن معاوية[١] :

١ — أرَى نَفْسِي تَتُوقُ إلى أُمورٍ ... ويَقْصُرُ دُون مَبْلَغِهِنَّ مَالِي

٢ — فنَفْسى لا تُطاوِعُنى ببُخْلٍ ... ومالِى لا يبلِّغُنى فَعَالِى

قد مضى له أمثال[٢] ، ومعناه ظاهر ، ويروى : « لا يَقومُ له فَعالى » .

٤٤١

وقال مُضَرِّس بن رِبْعِيّ[٣] :

١ — إنَّا لَنَصفحُ عَنْ مَجاهِلِ قومِنا ... ونُقِيمُ سَالِفَةَ العَدُوِّ الأصْيَدِ

٢ — ومَتَى نَخَفْ يَوْمًا فَسَادَ عشيرةٍ ... نُصْلِـحْ وإنْ نَرَ صَالِحًا لا نُفْسِدِ

يصفُ صفاءَ نيَّتهم لقومِهم ، وأنَّهم يسلُكون معهم طرائقَ ما يعود على المَسُودِ بالصَّلاح ، وعلى السَّائد باستكمال الرِّياسةِ والارتفاع ، فقال : إذا جَهِلوا علينا صَفَحْنا عنهم ، وأبقَيْنا على الحال بيننا وبينهم ، واستَفأْنا إقامتهم ورَجعتَهم . كلُّ ذلك لئلا ينفِرُوا فيزدادَ ما بيننا وبينهم تَفاقُمًا . فأمَّا الأعداء فإنَّا نَكسِرهم ونستلُّ عنهم كِبرَهم وخُنزُوانَتَهم ، ونليِّن أعناقَهم حتَّى ينقادوا على

(١) التبريزى : « عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر » . وهو عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، كان من فتيان بنى هاشم وأجوادهم وشعرائهم . وكان يرمى بالزندقة ، وخرج بالكوفة فى آخر أيام مروان بن محمد ، ثم انتقل عنها إلى الجبل ثم خراسان ، فأخذه أبو مسلم فقتله . الأغانى (١١ : ٦٣ — ٧٤) .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « مضى أمثالها » .

(٣) هو مضرس بن ربعى بن لقيط بن خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس ابن طريف بن عمرو بن قعين الأسدى . شاعر محسن متمكن ، كان معاصرا للفرزدق . المؤتلف ١٩١ ومعجم المرزبانى ٣٩٠ .

ضِغْنٍ منهم . والسَّالفة : صفحة العنُق . والصَّيَد : مَيَلٌ فى العُنق من الـكِبْر كما ما يكون الصَّعَر فى الخَدّ ، وكما أنَّ الصَّادَ يستعمل فى النَّاظر .

وقوله : «ومتى نَخَفْ يوماً فسادَ عشيرة» يريد : إنَّا نَسعَى فى إصلاح ذاتِ بينهم ، ولا ندَعُهم يتدابرون ويتضاغَنُون ؛ لأنَّ عِزَّ الرَّجل بعشيرته . ثم إن رأيناهم على حَدٍّ من الصَّلاح زِدْنا فى قُوَّة نِيَّاتهم ، وحملناهُمْ على ما يزدادونَ به استقامةً واستمراراً .

٣ — وإذا نَمَوْا صُعُدًا فَلَيْسَ عَلَيْهِمُ مِنَّا الخَبَالُ ولا نُفُوسُ الحُسَّدِ

٤ — ونُعِـينُ فاعِلَنا على ما نَابَهُ حَـتَّى نُيَسِّرَه لِفعلِ السَّيِّدِ

يقول : وإذا ارتقَوا فى درجات العِزّ وتبوَّءوا منازلَ الفضْل ، لم نحسُدْهم ، ولم نضيِّقْ عليهم طرائقَ مقاصدهم ، فيورثَهم ذلك خبْلاً[(١)] وفتوراً . والسَّاعِى منهم إذا جدَّ فى إقامةِ ما يَنُوبهُ من الحقوق أعنَّاهُ على إتمام ما يشيِّدُه ، والزِّيادةِ فيما يؤيِّده ، حتَّى نَبْلُغ به فِعَل السَّيِّد ، علماً بأنَّ رفعتهم لنا ، وجمالَهم جمالُنا .

٥ — ونُجِيبُ دَاعِيَةَ الصَّبَاحِ بِثائبٍ عَجِلِ الرُّكوبِ لِدَعْوَةِ المُسْتَنْجِدِ

٦ — فنَفُلُّ شوكتَها ونَفْثأُ حَمْيَها حَتَّى تَبُوخَ وحَمْيُنَا لم يَبْرُدِ

٧ — ونُحلُّ فى دار الحِفاظِ بُيُوتنَا رَتْعَ الجَمَائلِ فى الدَّرين الأسوَدِ[(٢)]

قوله « ونُجِيب داعيةَ الصَّبَاح » ، يريد : وإن استعانَ بنا من أُغِيرَ عليه صَبَاحًا من ذى مَحْرَمٍ أو جارٍ ، أو متسبِّبٍ بإلّ وقرابة ، أجَبْناه سريعاً بجيش سريعِ الرُّكوب لدعوة المُستصرِخ ، فنكسرُ شَوكةَ المُغيرين ، ونُخمِد نائرتَهم ونسكّن حُمّاهم حتّى تبردَ ، وحُمّانا لم تَسكُنْ ولم تَبرُد[(٣)] . وجَعَل الشَّوكةَ كنايةً عن

(١) ل : « خبالا » .
(٢) ل ، التبريزى : « وتحـلُّ فى دار الحفاظ بيوتُنا » .
(٣) فى النسختين : « يبرد » و « يسكن » .

السِّلاح والقُوَّة جميعاً . وقوله « نفثاً » هو من فَثَأْتُ القِدرَ ، إذا سكَّنت غليانَها . وقوله « حتى تبُوخَ » يقال : باخَتِ النَّارُ إذا طَفِئت .

ومعنى « ونُحِلُّ[1] فى دار الحفاظ بيوتَنا » نَصْـبِرُ فى دار المحافَظَة على الشَّرف إذا اشتدَّ الزَّمان ، وإذا قَصَدَ غيرُنا للخِصْب أو طلَب الانتجاع أقمنا مُرْتِعين فى الدَّرِينِ مالَنا ، ولا نمـكِّن أعداءنا من أرضنا وحِمانا . والدَّرين : اليابس من الـكلأ القديمُ العَهد . وجعله أسودَ لفسادِهِ وطولِ قِدَمه . ويروى « وتَحُلُّ[2] فى دار الحفاظ بيوتُنا » . وانتَصَب « رتْعَ الجمائلِ » على أنه مصدر فى موضع الحال . ومثله قول الآخر[3] :

ونُحِلُّ فى دارِ الحِفاظِ بُيُوتَنا زَمَناً ويَظْعَنُ غَيْرُنَا للأَمْرَعِ[4]

٤٤٢

وقال المتوكِّلُ اللَّيْثِيّ[5] :

١ — إنِّى إذا ما الخَلِيلُ أَحْدَثَ لِى صَرْمًا ومَلَّ الصَّفاءَ أو قَطَعا

٢ — لا أَحْتَسِى مَاءَهُ على رَنَقٍ ولا يَرَانِى لبَيْنـــهِ جَزِعَا

يقولُ : إذا اعوجَّ صديقٌ لى والْتَوَى ، وطلبَ الخِلافَ علىّ فأحدث لى نُبُوًّا وجَفاء ، وتبرَّمَ من مُصافاتى فأقبَلَ يتجنّى علىّ ، فإنِّى لا أرومُ منه العَودَ ، ولا أعرِضُ عليه الرُّجوعَ ، بل أصارِحُه ولا أتجرَّع ماءَ الوُدِّ بينى وبينَه على

(١) ل : « وتحل » .

(٢) ل : « ونحل » بالنون .

(٣) هو الحادرة الذبيانى . المفضلية ٨ .

(٤) ل : « وتحل » . المفضليات : « ونقيم فى دار الحفاظ » .

(٥) هو المتوكل بن عبد الله بن نهشل بن وهب بن عمرو بن لقيط الكنانى ، وكان يكنى أبا جهمة . وكان على عهد معاوية وابنه يزيد ، ومدحهما . الأغانى (١١ : ٣٧ — ٤١) والمؤتلف ١٧٩ ومعجم المرزبانى ٤١٠ .

كدَر فأحتملُ مكروهه ، ولا أظهرُ جَزَعًا لاستحداثِ فِراقٍ منه ، أو تنكُّرٍ ينطوى عليه فأُخْبِتُ له[١] ، لأنّى وَصّالٌ صَروم ، أصافِى مَن يُصافِينى ، وأُجامِل من يُجاملنى ، وأداجى من يداجينى .

٣ — أهْجُرُهُ ثم تَنْقَضِى غُبَرُ الْـ ـهِجْرانِ عــنّى ولم أقُلْ قَذَعا[٢]

٤ — احْذَرْ وِصالَ اللَّئيمِ إنَّ لَهُ عَضْهًا إذا حَبْلُ وَصْـلِهِ انقَطَعَا

الغُبَر[٣] : البقايا ، واحدتها غُبْرَة . ويقال : تغبَّرَت الناقةَ ، إذا احتلبت غُبْرَتها . وغُبَّرُ الليل : مآخيره . قال :

فيا صُبْحُ كَمِّشْ غُبَّرَ الليل مُصْعِدًا بِبَمٍّ ونَبِّــهْ ذا العِفاءِ المُوَشَّحِ[٤]

والقَذَع والقَذِيعة : الفُحْشُ . يقال : قَذَعْتُه ، إذا رميتَه بالقَذَع . وأقذَعَ الرَّجُل : أتى بالفُحش . وكلامٌ قَذِع . ويُتوسَّع فيه فيقال للقَذَرِ : القَذَع ، حتّى يقال : قَذَع ثوبَه بالبول وغيره . يقول : أقطعُ العلائقَ بينى وبينه فأنصرف عنه هاجراً ، وتنقضى[٥] مُدَّة الهجران عنّا ولم أعتِبْه ولا قلتُ فيه فُحْشاً ، ولا ذكَرْتُه بزَلَّةٍ كانت منه .

ثم قال : احْذَرْ مُواصلة اللئيم ومؤاخاتَه ، لأنّه إذا انقطع حَبْلُ وَصْله ، وانْصَرَم ما يَجْمعك وإيّاه من ودِّه يتكذَّبُ عليك ، ويَخْلُق من الإفك فيك ما لم تكتسبْه لا بيدك ولا لسانك ، وهذا كأنَّه لَمَّا نَفى عن نفسه فى البيت الأوّل ما نفى بيَّنَ فى البيت الثّانى أنَّه لا يفعل ذلك ، لكونه من فِعل اللئام . والعَضْه : ذِكر القبيح كَذِبًا وزوراً . ويقال : عَضَهْتُه ، إذا رميتَه بالزُّور . وأعْضَهَ الرّجُل

---

(١) أخبت ، الإخبات : التواضع والاطمئنان .

(٢) التبريزى : « ثم ينقضى غبَّر الهجران » .

(٣) كذا وردت مضبوطة فى النسختين فى متن البيت وشرحه .

(٤) البيت للطرماح فى ديوانه ٦٩ والحيوان (٢ : ٢٥٤ ، ٣٤٦ / ٧ : ٥٩) واللسان (وشح) .

(٥) ل : « وتتقضى » .

أتَى بالعَضيهة ، وهى الإفْك . ومن كلامهم : يا لَلعَضيهة ! ويا للأَفِيكة !

٤٤٣

وقال بعضُهم(١) :

١ — خَليلَىَّ بيْنَ السَّلْسَلَيْنِ لوَ انَّنِى ... بِنَعْفِ اللِّوَى أَنكرتُ ما قُلْتُما لِيَا(٢)

٢ — ولٰكِنَّنى لَمْ أَنْسَ ما قالَ صاحِبِى ... نَصِيبَكَ مِن ذُلٍّ إذا كُنتَ خالِيَا(٣)

النَّعْف : ما ناعَفَك ، أى عارضك من الجبل أو المكانِ المرتفع . واللِّوَى : مُسْتَرَقُّ الرمل . وجواب لو « أنكرْتُ » ، وكأنَّ نعفَ اللِّوَى كانَ أرضَه وديارَه ، فيقول : لو كنتُ فى أرضى ومعى عشيرتى وأهلى ، ثم سُمْتُمانى ما سُمْتُمانى لأنكرتُه ولم أقبَلْه ، ولٰكنّنى لم أذهبْ عما وصَّانى به صاحبى من قوله : الزمْ نصيبَك من الذُّلِّ إذا كنتَ فى دار غُربة ، ومتباعدا عن نُصَّارِكَ والمشفِقين عليك . وانتصَبَ « نصيبَك » بإضمار فعل .

٤٤٤

وقال قيس بن الخطيم(٤) :

١ — وما بَعْضُ الإقامةِ فى دِيارٍ ... يُهانُ بها الفَتَى إلَّا بَلاءُ

٢ — وَبَعْضُ خلائقِ الأقوامِ داءٌ ... كداءِ البَطْنِ لَيْسَ له دَواءُ

---

(١) هو قتادة بن خرجة الثعلبى ، من بنى عجب بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان . انظر البيان (٣ : ٢٤٩) . والبيتان وردا فى معجم البلدان فى رسم (السلسلين) بدون نسبة أيضاً .

(٢) فى البيان : « بهبر اللوى » .

(٣) وكذا روايته فى المعجم . وفى البيان : « إذا كنت نائيا » .

(٤) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٦ ص ١٨٣ .

٣ – يُرِيُد المرءُ أَن يُعطَى مُنَاهُ وَيأْبَى اللهُ إِلَّا ما يشـــاءُ

٤ – وكلُّ شَدِيدةٍ نزلَتْ بحَيٍّ سَيَأْتى بَعْدَ شِــدَّتها رَخاءُ

قوله « وما بعضُ الإقامة » إنّما بعَّضها لأنَّه أشار إلى الإقامةِ التى أوائلها تَنْزَاحُ معها العِلَل ، ويَسهُل فى اختيارها الانفصال والترحُّل ، وأواخرُها تتغيَّر بما يَعرِض فيها حتَّى يشقَّ لها التلوُّمُ والتَّلبُّث . وارتفع « بَلَاء » لأنَّه خبر المبتدإ ، وهو بعضُ الإقامة ، و « يُهانُ بها الفتى » فى موضع الصِّفة لقوله فى ديارٍ . فيقول : إذا أمكَنَ الارتحالُ عن دار الهوان ، ولا دافِعَ ولا مانعَ يُوجبان الصَّبر فالإقامة بها بلاء ، ويجبُ على الحرِّ طلبُ الانفكاك منه ، ورَوْمُ الخَلَاص من أذاه .

وقوله « وبعضُ خلائق الأقوامِ » يريد أنّ بعضَ ما يتخلّق به النّاسُ يتعذّر مفارَقتُه ومُداواةُ إزالته ، فهو كالدَّاء الذى يكون بالإنسان وقد استصحبَه من بَطْنِ أُمِّه . يريد أنّ ما اعتادَه الإنسانُ من الأخلاقِ يَصِيرُ إذا أتت الأيّامُ عليه ، وقوِىَ الإلفُ له ، كالخِلْقة أو ما يجرى مَجراها .

وقوله « يريد المرء أن يُعطَى مناه » ، معناه أنّ الإنسانَ يتمنَّى أن يحصُلَ له[1] ما يتعلَّقُ به شهوتُه ، ويرتادُه هواه وإرادتُه ، ويَمنعُ اللهُ تباركَ وتعالى إلَّا ما يكون بمشيئته ، ويعرفُه مِن مَصالح خليقته .

وقوله « وكلُّ شديدة » يريد أنَّ الشَّىءَ لا يدوم على حال ، فالشَّدائد إذا نزَلَتْ يتعقَّبها الخيرُ ورَخاء العيش وسَعَته ، لأنَّ لكلِّ أمرٍ أمدًا يُمَدُّ له الوقت ، فإذا تناهَى انقطَع .

٥ – ولا يُعْطَى الحَرِيصُ غِنًى لِحرصٍ وقد يَنْمِى إلى الجود الثَّرَاءُ[2]

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « يجعل له » .

(٢) ل : « فلا يعطى » . التبريزى : « على الجود » .

٦ — غَنِيُّ النّفْسِ ما عَمِرَتْ غَنِيٌّ   وَفَقْرُ النّفسِ ما عَمِرَتْ شَقَاء

٧ — وَليسَ بنافِعٍ ذا البُخْلِ مالٌ   وَلا مُزْرٍ بصاحِبِه السَّخاء

٨ — وَبَعْضُ الداءِ مُلتَمَسٌ شِفاهُ   وداءُ النُّوكِ ليسَ له شِفاء

قوله « ولا[1] يُعطَى الحريص » يريد أنَّ حِرصَ الإنسان فى طلب الغِنى لا يُجدى عليه نَفعا ، ولا يقرِّب منه بعيدًا ، لأنَّ ميسِّر اليُسر والغِنى هو مَن له الخَلْق والأمر ، وإليه الإبرامُ والنَّقض .

وقوله « وقد يَنمِى إلى الجود » يريد أنَّ الثَّرْوَة والكُثْرَ هما يَنمِيان مع الجود . وإنَّما يقدح بهذا الكلامِ فى البُخل والإمساك ، وأنَّ زيادةَ المال وبقاءه لا يحصُلان لهما وبهما . وقوله « إلى الجود » إلى بمعنى مع . تقول : هذا إلى ذاك .

وقوله « غنيُّ النَّفْس ما عمرت غنىّ » ، يريد أنّ غِنَى النفس خيرٌ من كَثرة المال ؛ لأنَّ مَن كان راضياً بماله ، غنيًّا عن غيرِه بما يحصُل فى يده ، تراه باكتفائه أغنَى المُوسِرين ، وفقيرُ النفس وإن ساعدَه المالُ ، وأطاعه القَدَر يزدادُ على مَرِّ الأيام وزيادةِ الحال ، حِرْصاً ونَهْمَةً وشَقاء .

وقوله « وليس بنافع ذا البخل مال » ، يريد أنَّ البخيل لا يَنتفع بماله ، لأنه يَجْمَعُهُ ويتركُه لغيره ، والسَّخاء لا يُقصِّر بصاحبه ، بل يَرفَع منه ، ويَكسِبه الحمدَ والأحدوثة الجميلة .

وقوله « وبَعضُ الدّاء ملتمَسٌ شِفاه » ، جعلَ الدَّاءَ للجنس فناب عن الجمع فقال : بعضها يُعرف شفاؤه فيُطلَب إزالته ، وداء الحُمْق لا شفاءَ له ، ولا مَحيد

(١) ل : « فلا » .

لصاحبه عنه . وقوله « شِفاه » قَصر الممدود ، وهذا لا خلافَ فى جوازِه على المذهبَين .

٤٤٥

وقال يزيد بن الحَكَم[١] :

١ — يا بَدْرُ والأمثالُ يَضْ ـرِبُها لِذِى اللُّبِّ الحَكيمْ

٢ — دُمْ لِلْخَليـلِ بِوُدِّهِ ما خَيْرُ وُدٍّ لا يدومْ

قوله « والأمثالُ يَضربُها » اعتراض دخَلَ بين قوله « يابدر » ، وبين دُمْ للخليل من البيت الثانى ، ونبَّهَ بهذا الاعتراض على أنَّ وصيَّتَه وصيَّةُ حكيم ، وأنَّ اللَّبيبَ العاقلَ يأخُذُ بها ويتأدَّب .

ومعنى قوله « دُمْ للخَليل بِوُدِّه » أى بودِّكَ له ، فأضافه إلى المفعول ، والمصدر كما يضاف إلى الفاعل يُضاف إلى المفعول . وقوله « ما خير وُدٍّ » استفهامٌ على طريق الاستثبات والقَصدِ إلى النَّفْى . والمعنى : أنَّ الوِداد إذا لم يَصْفُ ولم يَدُمْ فلا خيرَ فيه . وقوله « لا يدوم » صفة لودٍّ . تلخيصه : أىُّ شىء خيرُ وُدٍّ غيرِ دائم .

---

(١) التبريزى « ... يعظ ابنه بدرا » . وهو يزيد بن الحكم بن أبى العاص صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . مر الفرزدق يوماً به وهو ينشد فى المجلس شعراً فقال : من هذا الذى ينشد شعراً كأنه من أشعارنا ؟ فقالوا : يزيد بن الحكم . فقال : نعم أشهد بالله أن عمتى ولدته . ودعاه الحجاج يوماً فولاه كورة فارس ودفع إليه عهده بها ، ثم أنشده بعض شعره فألفاه يفخر بأبيه ، فنفس عليه ذلك واسترد العهد منه ، فخرج يزيد مغاضباً ولحق بسليمان ابن عبد الملك فمدحه ، فأعجبه ذلك وقال له سليمان : كم كان أجرى لك لعمالة فارس ؟ قال : عشرين ألفاً . قال : فهى لك على ما دمت حياً . الأغانى (١١ : ٩٦ — ١٠١) والخزانة (١ : ١١١) .

٣ — واعرِفْ لجَارِكَ حَقَّـهُ ... والحَقُّ يَعْرِفُه الـكريمُ

٤ — واعْـلَمْ بأنَّ الضَّيْفَ يَوْ ... مًا سَوْفَ يَحْمَدُ أو يَلُومُ

٥ — والنّـاسُ مُبْتَنِيَانِ مَحْـ ... ـمُودُ البُنَايةِ أو ذَمِـيمُ(١)

يقول: اعرِفْ حقَّ الجوارِ لمجاوِرِك، فإنَّ الـكريم هو الذى يعرِفُ حقَّ مثله. وقوله «والحق يعرفُه» الواو واو الحال، وهو واو الابتداء. ولو رويته بالفاء كان أجودَ، والمعنى اعرِفْ حقَّ الجار لأنَّ حقَّه تعرِفُه الـكرام. فإذا رويتَه بالواو يكون حالاً لقوله حقّه، كأنَّه قال: اعرِفْ حقَّه معروفاً للـكرام، وهو معروفٌ للـكرام.

وقوله «واعلَمْ بأنَّ الضّيف» يقال علِمت كذا، وبكذا. وهذه الوَصَاةُ بالضَّيف قد علَّلها بقوله «سوف يَحمَد أو يلوم». والمعنى: أحسِنْ إليه وتفقَّدهُ، عالماً بأنَّ نزولَه بك يَجلِبُ حمداً إنْ أحسنتَ إليه، أو لوماً إنْ أسأتَ إليه أو قصَّرتَ فى حقه.

وقوله «محمود البناية» أتى بالبِناية غير مبنيٍّ على مذكَّر حصَلَ من قبل، ثم أدخلَ تاء التأنيث عليه، فهو كالثِّناية اسم الحَبْل، والشّقاوة والرِّعاية والغَباوة. ولو كان مبنيًّا على مذكَّر لـكان «البناءة» لأنَّ الواو والياء إذا كانا حرفَىْ إعرابٍ بعد ألفٍ زائدة تُبدَل منهما الهمزة. على ذلك: الرِّعاء والـكِساء والرِّداء والبابُ كلّه.

ومعنى البيت: أنَّ أفعالَ عقلاء النَّاس لا تخلُو من أن تكونَ ممَّا يُستحَقُّ به حمدٌ أو ذمٌّ، فهم يَبنُون مبانِيَهم، ويؤسِّسون مكاسبَهم على أحد هذين الرُّكنين، وذلك لأنَّ الأفعالَ تابعةٌ للأغراض، وغَرضُ العاقل إليهما ينقسم،

(١) فى ل ضبطت «البناية» بكسر الباء وضمها مقرونة بكلمة «معا»، تحقيقاً للضبطين.

فانظُرْ ماذا تَجلِبُ على نفسك بما تبتنيه من فِعلك، وتدَّخره من كَسْبك.

وارتفع «محمود» على أنه بدل من «مبتنيان». أو خبر مبتدأ محذوف، كأنّه قال: هما محمود البِنْية أو ذميم.

٦ — واعـلَمْ بُنَيَّ فإنه ... بالعِلْمِ يَنتفِعُ العليمُ
٧ — أَنّ الأُمورَ دَقِيقُها ... مِمّا يَهِيجُ له العَظِيمُ[1]
٨ — والتَّبْلُ مِثْلُ الدَّيْنِ تُقْـ ... ـضاهُ وقد يَلْوِى الغَرِيمُ[2]
٩ — والبَغْىُ يَصْرَعُ أَهْلَه ... وَالظُّلْمُ مَرْتَعُهُ وَخِيمُ

قوله «بنىّ» إن ضممتَه فهو منادًى مفرد، وإن كسرتَه فهو منادًى مضاف وقد حذف ياء الإضافة[3]. وإذا كان ياء الإضافة فى المنادى يُحذَف فى نحو يا غلامِ لأنّ الكسرة تدلُّ عليه، وهو واقعٌ موقعَ ما يُحذَف فى هذا الباب وهو التّنوين وبابُ النداء بابُ حذفٍ، لكثرة الاستعمال، فهو فى بنىِّ أولَى بالحذف، لاجتماع الياءات والكَسَرات. فى آخرها وقوله «فإنّه بالعلم ينتفع العليم» الهاء ضمير الأمر والشّأن، والجملة اعتراضٌ بين اعلَمْ ومفعولَيه. والمراد باستعمال العلم، وذاك أنّ مَن عَلِمَ طرقَ الرَّشادِ ثم لم يسلكْها كان معرفته بها وبالاً عليه.

وقوله «إنّ الأمور» مفعول واعلم، ودقيقها مبتدأ ومابعده خبره، والجملة خبر إنّ. ولك أن تكسره فتقول «إنّ» على الاستئناف، ويكون واعلمْ معلّقاً

(١) كتبت «أن» بكسرة وفتحة لتقرأ بالروايتين.

(٢) تقضاه، كتبت فى ل بالتاء والياء معا، لتقرأ بالروايتين.

(٣) بنى، كذا ضبطت فى النسختين والتبريزى. وهما الوجهان الكثيران فى العربية. لكن الأكثر فى الاستعمال المعاصر «بنىّ» بفتح الياء، وهو استعمال صحيح وردت به قراءة عاصم فى قوله تعالى: «يا بنى اركب معنا»، وقرأ باقى السبعة بالكسرة اجتزاء بها عن الياء. أما قراءة عاصم فهى اجتزاء بالفتحة عن الألف، وأصلها «يا بنيا» كما فى قولهم «يا حسرتا» وياغلاما». التصريح (٢ : ١٧٧) وتفسير أبى حيان (٥ : ٢٢٦).

والمعنى : أنّ الشرّ يبدؤه أصغرُه ، كما أنّ السَّيلَ أولُه مطرٌ ضعيف . وهذا الكلامُ بَعْثٌ على النَّظَر فى ابتداءات الأمور وتصوُّرِ عواقِبها .

وقوله « والتَّبْل مثلُ الدَّين » ، التَّبل : الذَّحْل ، ومعنى يَلْوِى يَمْطُل ، ومصدرُه اللَّىُّ واللَّيَّانُ . وفى الحديث : « لَىُّ الواجِدِ يُحِلّ عقوبتَه » . وقد روى « يُلوِى » و « يُلْوَى » فإذا رويت يُلوِى بالكسر ، فمعناه يذهب بالحقّ ، يقال : ألوَى بالشَّىء إذا ذهبَ به ، و « يُلوَى » هو بناء ما لم يُسمَّ فاعله ، لَوَى إذا مَطَل . والغَرِيم : اسمٌ لمن لَهُ الدَّين ، ولِلّذى عليه الدَّين . وأصل الغرامة اللُّزوم ، ولِكون كلٍّ واحدٍ منهما ملازماً لصاحبِه إلى أن ينقضىَ ما بينهما أُجرِى الاسمُ عليهما . والمعنى أنَّ الوِتْر والذَّحل كالدَّين على الواتر ، فهو بِعَرَضِ المطالبةِ به كالغريم ثَمَّ ، قد يَقضِى وقد يمطُل ، فلا تكتسبْه ، لأنّ العداواتِ وخيمةُ الأواخر ، سيِّئةُ المبادئ .

وقوله « والبَغْىُ يَصْرَعُ أهلَه » يقول : وإذا كان لك خَصْمٌ فى شىءٍ فلا تستهِنْ به ، ولا تستعمل البغىَ معه ، فإنَّ من بُغِىَ عليه بعَرَض النُّصْرَة ، والباغى بِعرض التَّلَف والهلَكة ، ولا تَظلِمْ فإنَّ الظُّلمَ ذميمُ المرتع وبيلُه ، وفظيع المَسمَع قبيحُه . ويقال : ظَلَمْتُه ظَلْماً بفتح الظاء وهو المصدر ، وظُلما بضم الظاء وهو الاسم .

١٠ — ولقد يَكُونُ لكَ الغَرِيـ ... ـبُ أَخًا وَيَقْطَعُك الحَمِيمُ

١١ — والمرْءُ يُكْرَمُ للغِنَى ... ويُهانُ للعَدَمِ العَدِيمُ

١٢ — قد يُقتِرُ الحَوِلُ التَّقِـ ... ـىُّ ويُكثِرُ الحَمِقُ الأثيمُ

١٣ — يُمْلَى لِذاكَ ويُبْتَلَى ... هٰذا فأيُّهُما المَضِيمُ

قوله « ولقد يكون » معناه أن الوفاءَ قد يكون فى الغريب إذا آخيتَه ، والخيانةَ تتفَّق من القريب إذا صافَيْتَه ، فانظُرْ لنفسك إذا اخترتَ ، ولا تعتمد القُربَى والقَرابة ، فإنَّ المواخاةَ مبينَّةٌ على الأصول الزكيَّة ، والنُّفوس الوفيَّة ، لا على الأنساب والأسباب .

وقوله « والمرءُ يُكرَمُ » يقول : ادَّخرِ المالَ واسْعَ فى جمعِه ، وإيَّاك واستعمالَ التَّبذيرِ فيه ، فإنَّ اليسيرَ منه مع حُسْن التَّدبير يتَّصل بقاؤُه ، وكرامةُ المرءِ متسبِّبةٌ عن غِناه ، كما أنَّ هوانَه فى قِرانِ فقره . وقوله « والمرء » ارتفع بالابتداء ، وخبره يُكْرَم ، وقد عُطِف على هذه الجملة جُملةٌ مخالفةٌ لها من التَّقارُب لما صَلَح ذلك . ومثله قول الآخر(١) :

* أمُوفٍ بأدرَاعِ ابن ظَبْيَةَ أمْ تُذَمّْ(٢) *

على العكس من هذا قولُ الله تعالى : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ ، لأنَّ هذا عُطف فيه المبتدأُ والخبر على الفِعل والفاعل .

وقوله « قد يُقتِرُ الحَوِلُ » ، فالحَوِلُ : الكثير الحيلة . وصُحِّحَ بناؤه ولم يُعَلَّ إخراجاً له على أصله ، وتنبيهاً أنَّ ما عُلِّلَ من نظائره كان حكمُهُ أن يجيء على هذا . ومما جاء على القياس من نظائره : رَجُلٌ مَالٌ وصاتٌ وما أشبهَما . وكذلك هذا كانَ يجبُ أن يقال حالٌ . والمعنى أنَّ الكثيرَ الحِيَل ، الخَرَّاجَ الوَلَّاجَ ، وهو سَدِيدٌ فى طرائقه ، قد يَفتَقِرُ فيكون مُقِلًّا ، وأن المائقَ النَّاقِصَ فى عقله ، المكتَسِبَ بجهله ، المرتكِبَ للأوزارِ بحرصِهِ ، قد يستغنى هو فيكون

(١) هو راشد بن شهاب اليشكرى . انظر البيت ١١ من المفضلية ٨٦ .

(٢) ظبية ، كذا وردت فى النسختين . وفى المفضليات : « طيبة » . وصدره :

* أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد *

مُكْثِرًا ، إذ كانت القِسَمُ والحُظوظُ لا تقِفُ على كَيْسِ المرء وخُرْقِه ، ولا على تُقَاهُ وفِسْقِه .

وقوله « يُمْلَى لذاك » أشار بذاك إلى الحَمِق الأثيم ، وبهذا إلى الحَوِل التَّقِىّ . وقد طابق بذاك وهذا[1] فيقول : أُمْلِيَ لِذَاكَ الجاهلِ وأُرخِيَ له الحبلُ فنال ما نال ، وابتُلِيَ هذا الحَوِل التَّقِىّ حَتّى شَقِيَ وحُرِم ، فأيُّهما المظلوم . والمعنى أنَّ ذلك مِن قِسْمَةِ مَن عرف مَصالحَ خَلقه ، وعَلِمَ ما يتأدَّى إليه حالُ كلِّ واحدٍ منهم ، فاختار الأحكمَ فى التّدبير ، والأصلحَ للصَّغير والكبير .

١٤ — وَالمرْءُ يَبْخَلُ فى الحُقُو قِ وَلِلكَلالةِ ما يُسِيمُ

١٥ — ما بُخْلُ مَنْ هُوَ للمَنُو نِ وَرَيْبِها غَرَضٌ رَجِيمُ

١٦ — وَيَرَى القُرونَ أَمامَهُ هَمَدُوا كما هَمَدَ الهَشِيمُ

يقول : ترَى الرجل يُسَوِّف بما يلزمُه من أداء الحقوق ، فيبخلُ بإخراجه وأدائه ، فيموت عمَّا يجمعه ويبخَل به ، ويتركه للكلالة . والكلالة هُم الوُرّاث وقد خَلَوْا من الوالد والولد . وأصله من تَكَلَّلَهُ النَّسَبُ ، إذا أحاط به . وقيل هو من الكلالِ : الإعياء ؛ كأنّ بُعْدَ النَّسَب أَكَلَّه . وقوله « ما يُسِيمُ » يجوز أن يكون مصدرًا ، كأنَّه قال : فإسامته لماله للغيرِ لا لنَفْسه . ويجوز أن يكون ما بمعنى الذى ، وقد حذف الضَّميرَ العائد إليه من يُسِيم ، كأنَّه قال : وللوَرَثة مالُه الذى يُسيمه . والإسامة : إخراج المال إلى المَرْعَى . ويقال : أَسَمْتُ البعيرَ فَسَام . ومنه السَّائمة للمالِ : الرَّاعية .

وقوله « ما بُخْلُ من هو » استفهامٌ على طريق الإنكار . فيقول : ما يُغْنِى بُخْلُ مَن هو للحوادث كالغَرَض المنصوب للرَّمْى ، فإذا عَلِمَ من نفسه أنَّه غيرُ

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « طابق هذا وذاك » .

مُخَلد ، بل هو منقولٌ من دار الفناء إلى دار البَقاء ، فلماذا يُمسِك ولا يُنْفِق ، ويَجمَع ولا يفرِّق . هذا وقد رأى الأمم الخالية قبلَه ماتوا وفَنُوا فعادوا رمياً ، كما يَهْمُدُ النباتُ فيصيرُ بعد نَضارته دَرِينًا هَشِيماً ، وهو اليابس المتهشِّم الأسود لطول القِدَم . والمَنُون يكون اسماً للدهر فيذكَّر ، ويُرَادُ به المنيَّةُ فيؤنَّث . وهو من المَنّ : القطع . فلك أن تروى : « ورَيْبِه » « ورَيبها » جميعاً . ومعنى « وريبها » نزولها ، قال أبو عبيدة : رابَ عليه الدَّهرُ ، أى نَزَل . وقد يُرادُ برَيْبِ الزَّمانِ أحداثُه وصُروفُه الرَّائبة .

١٧ — وَتُخَرَّبُ الدُّنْيا فَلَا بُوسٌ يَدُومُ وَلا نعيمُ[1]

١٨ — كلُّ امرِئٍ سَتَئِيمُ مِنْـ ـهُ العِرْسُ أَوْ مِنْها يَئِيمُ

١٩ — ماعِلْمُ ذِي وَلَدٍ أَيَثْـ ـكَلُهُ أَمِ الوَلَدُ اليَتِيمُ

يقول : وإذا كانت الدُّنيا مبنيَّةً للفناء لا للبقاء ، والخراب لا للعمارة ، وكذلك أعراضُها مخلوقة للزَّوال لا للدَّوام ، وقُرب الأمَد فى الاستمتاع بالمُعارِ لا الإملاء ، فلماذا يَفْرَحُ الإنسان بما ينال ، ويَجزَع لما يفوت ، وكلٌّ بائدٌ غير ثابت ، ومُستَلَب غير موفَّر .

وقوله « كلُّ امرئٍ » ، يقول : إنّ الأليفَين فيها لا بدّ من فِقدان أحدهما للآخر ، والبعلُ يموتُ فتَبقى العِرْس منه أيِّماً ، لتقدُّم موتِه ، والعِرْسُ تموتُ فيبقى هو منها أيِّماً لتقدُّمها . ويقال : رجلٌ أيِّمٌ وامرأة أيِّمٌ . وقد آمت تئيم أيْمةً . وكذلك ذو الولدِ لا يدرى أيموتُ فيَيْتَم الولد ، أم يهلِكُ الولَد فيثكل الوالد ، فإنّ سُكّانَ الدُّنيا موعودون لآجالٍ منتَظِرة ، مدعوُّونَ لأحوالٍ مؤخَّرة .

(١) « تخرب » ضبطت فى ل لتقرأ بالتاء والياء . تخرب مخفف تتخرب ، وتخرب هو المبنى للمفعول من مضارع « خرب تخريبا » .

وقوله « ماعِلْمُ ذى ولدٍ » استفهامٌ معناه النَّفْى ، والمراد : لا يَعلَمُ الوالدُ ما يكون منه ومن ولدِه فى الإمهال والاستعجال ، أى لا يَدرِى أىُّ الأمرَينِ يقع . وقد عطف قوله « أمِ الولدُ اليتيمُ » وهو جملةٌ من ابتداء وخبر على « أيَشكُلُه » وهو فعل وفاعل . وجازَ ذلك لمَا قدَّمته[1] .

٢٠ — وَالحربُ صاحِبُها الصَّلِيـ ـبُ عَلَى تَلاتِلِها العَزُومُ

٢١ — مَنْ لا يَمَلُّ ضِرَاسَها وَلَدَى الحقيقـــة لا يَخِيمُ

٢٢ — وَاعْلَمْ بأَنّ الحربَ لا يَسْطِيعُها المَرِحُ السَّؤُومُ

٢٣ — وَالخَيْلُ أَجْوَدُها المُنَا هِبُ عِنْـــدَ كَبَّتِها الأَزُومُ

الصَّلِيب : الصُّلب ذو الصَّلابة . والتّلاتل : الشَّدائد ، ويقال : تَلْتَلَهُ ، إذا حرَّكه . يقول : وصاحبُ الحربِ هو الصَّبورُ على شدائدها ، القويُّ العزم فى مَصارِفها ، الحامى الشِّكَّة[2] على نوائبها ، فلا يَملُّ عِضَاضَها ، ولا يَخِيمُ عند حقائقها . ومعنى يَخِيمُ : يَجْبُن .

وقوله « مَن لا يَمَلُّ ضِرَاسَها » فى موضع الرَّفع على أن يكون بدلًا من قوله الصَّليب . والضِّرْس : العضُّ ، وأصله إصابةُ الشىء بِضِرْسِه .

ثم قال : واعلم أنّ الحرب لا يُطيقُها المَلُول النزِق ، العَجُول الطَّرِف[3] ، لأنَّ مبانيَها على الصَّبر والثَّبات ، والتّدبير السَّديد ، والحذَر الشديد ، واستعمالِ الإقدامِ فى وَقته ، والإحجام لدى مُوجِبه . وقوله « لا يَسطِيعها » يريد لا يستطيعها . والماضى منه اسِطاع يَسطِيع بكسر الهمزة ، وأصله استطاع ، فحذف التاء .

(١) انظر ما سبق فى ص ١١٩٤ .
(٢) الشكة : السلاح . وفى ل : « السكة » .
(٣) الطرف : الذى لا يثبت على حال . وفى الأصل : « الطرق » ، صوابه فى ل .

وقوله « والخيل أجوَدُها » يريد : خير الخيل ما يَنتهب الأرضَ انتهاباً فى سعيه . وقال الخليل : المُناهَبة : المُباراة فى الجَرْى والحُضر . ومعنى « عند كَبَّتها » أى حَمْلتها . وسُئِل رجلٌ[1] : كيف طعنتَ قتيلك ؟ قال : « طعنتُه فى الكَبَّة ، طعنةً فى السَّبَّة[2] فأنفذْتُها من اللبَّة » . وكل ما جمعتَه فقد كببتَه . ومنه كُبَّة الغزْل . والأزُوم : العَضوض . والأزْم : العَضُّ ، وكُنِيَ به عن الاحتماء فقيل : « نِعْمَ الدَّواء الأزْم » ، فكأنَّه أراد بالأزْم هنا الصَّبر والثَّبات .

٤٤٦

وقال مُنْقِذٌ الهِلالِىّ[3] :

١ ـ أىُّ عَيْشٍ عَيشِى إذا كنتُ منهُ بَيْنَ حَلٍّ وبين وَشكِ رَحيلِ
٢ ـ كلُّ فَجٍّ مِنَ البِلادِ كأنِّى طالبٌ بَعْضَ أهـلِهِ بذُحُولِ
٣ ـ ما أرَى الفَضْلَ وَالتَّكَرُّمَ إلا كَفَّكَ النَّفْسَ عن طِلَاب الفُضولِ
٤ ـ وَبَلاءٌ حَمْلُ الأيادى وأنْ تَسْـ ـمَعَ مَنًّا تُؤْتَى به من مُنِيلِ

قوله « أىُّ عيشٍ » استفهام مبتدأ . والمعنى الإزراء به والذَّمُّ له . « وإذا » تعلَّقَ بما دلَّ عليه عيشى . والمراد : إذا كنتُ من عَيْشى بين سفرٍ مُتواصل ، ونزولٍ وارتحال متتابع ، ولا أنالُ دعةً ، ولا أحصِّل خَفْضاً وراحة ، فكأنه لا عيشَ لى . وقوله :

كلُّ فجٍّ من البلادِ كأنِّى طالبٌ بعضَ أهلِهِ بذحولِ

---

(١) السائل هو النعمان بن المنذر . انظر اللسان (سبب ٤٤٠) والأغانى (١٤ : ٨٧) .
(٢) السبة : الاست . وقيل لأبى حاتم : كيف طعنه فى السبة وهو فارس ؟ فضحك وقال : انهزم فاتبعه ، فلما رهقه أكب ليأخذ بمعرفة فرسه فطعنه فى سبته .
(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٦٩ ص ١٠٥٢ .

قد سَلَكَ مثلَ هذا المسلكِ أبو تمّام فى قوله :

كأنّ به ضِغْناً على كلِّ جانبٍ   من الأرضِ أو شوقاً إلى كلِّ جانبِ

والمعنى : أنّى لا أقتصِرُ على قَصدِ مُنتوًى ، ورَمْىِ نفسى فى جانبٍ من الأرض مُرتمًى ، ولكنّى أتنَقّل فى أطراف الأرض وآفاقها ، وأضرِبُ فى أعراض البَسيطة وأعماقها ، كأنّى أطلب بعضَ أهلها بتِرَةٍ ، فهو فى الهربِ وأنا فى الطّلَب.

وقوله « ما أرى الفَضْل » ينبِّه به على أنَّ سعيَه فى إصلاح عيشِه ، وتَركِ ما لا يَعنيه من شأنه ، فقال : ليس الفضلُ والعَفاف ، وحَبْسُ النفس فيما بينك وبين الناس على التكرُّم والكَفاف ، إلّا إذا زممْتَ نفسَك عمّا يتجاوز رمّ الحال(١) ، ووقفْتَ عند ما يُمكن الاكتفاء به من المَعاش . فمِنَ البلاء العظيم تحمُّلُ النِّعمِ عن المُفْضِلين ، وسَمْعُك امتنانَ المُنيلين . وهذا دأْبى فيما ألتزِمُه من التَّعَب ، وأحمِلُ عليه نفسى من التَّجوال فى البلاد والتّقلب . وارتفَعَ « بَلاءٌ » على أنّه خبر مقدم ، والمبتدأ حَمْل الأيادى . وقوله « تُؤْتَى به » من صفة المنّ .

٤٤٧

وقال محمد بن أبى شِحَاذ(٢) :

١ — إذا أنت أُعطِيتَ الغنى ثم لم تَجُدْ   بفَضْل الغِنَى أُلفِيتَ مالَكَ حامدُ

٢ — إذا أنْتَ لم تعْرُكْ بجَنْبِك بعضَ ما   يَرِيبُ من الأَدْنَى رَمَاكَ الأباعدُ

(١) رم الحال : إصلاحها . وفى الأصل : « مر الحال » ، وأثبت ما فى ل .

(٢) التبريزى : « محمد بن أبى شحاذ الضبى » . أبو الفتح : شحاذ علم غير منقول . قال : وأجيز مع هذا أن يكون فى الأصل مصدر شاحذنى يشاحذنى شحاذا ، إذا راسلك وضاهاك فى شحذ السيف ونحوه . وفى القاموس : « ومحمد بن أبى شحاذ ككتاب شاعر ضبى » .

قوله «إذا أنت» جوابه أُلفِيت ، وهو الفعل الواقع فيه ، لأنّ إذا بتضمُّنه للجزاء يطلبُ جواباً ويكون ظرفاً له ، فيقول : إذا نِلتَ اليسار والغِنَي، ومُكِّنْتَ من أطماع الدُّنيا فملكتَها ، ثم لم تَسَخَّ بما يفضُل من وُجْدِك ، وُجِدْتَ لا يُثْنِي عليك حامد ، ولا يَحفَظ غيبَك ذائد ، وفى الثّناء الباقى على الدَّهر خَلَفٌ من نَفَاد العُمر ، فإنْ لم تكتَسِبْه بما تناله لحِقَك الذَّمُّ ممَّن ألحاظُهم سِهام ، وألفاظهم سِمام .

وقوله « إذا أنت لم تَعرُكْ » جوابه رماك الأباعد . وكما بعث فى البيت الأول على الإفضال وذمِّ الإمساك مع القدرة ، بعَثَ فى هذا البيتِ على مُصابرَة العشيرة واستبقائهم ، وتَركِ مؤاخَذَتهم بما يتّفق من هَفَواتهم ، وتَدقيقِ محاسبَتِهم على بَدَوَاتهمْ وزَلّاتهم . فقال : لا يُؤْمِنْكَ إقبالُ الدُّنيا عليك إدْبارَها عنك ، ولا دَولَةٌ لك من إدالةٍ منك . واعلَمْ أنَّك إذا لم تَعفُ عما يَريبك من أدانيك ، ولم تَحتمِلْه فى عفوك وحلمك ، اجترأ عليك الأباعدُ فرمَوْك بما لا صَبْرَ لك عليه مِن أذاهم ومكروههم . ويقال : عركْتُ كذا بجَنْبِى ، أى احتملته وجعلتُه منِّى بظَهْر . والعَرك والدَّلك بمعنًى واحد . وقال : « بعض ما يَريب من الأدنى » ، إشارةً إلى ما يكون فيه على الحلم مَحمِل . لأنَّه ليس كلُّ ما يَريب يُعَدُّ التجافِى عنه حَسَنًا .

٣ـ إذا الحِلْمُ لم يَغْلِبْ لَكَ الجَهْلَ لم تَزلْ عليكَ بُرُوقٌ جَمَّةٌ وَرَوَاعِدُ
٤ـ إذ العَزْمُ لم يَفْرُجْ لَكَ الشَّكَّ لم تَزلْ جَنِيبًا كما اسْتَتْلَى الجَنِيبَةَ قَائِدُ

قوله « إذا الحلم » جوابه لم تزل ، فيقول : تَحَلَّمْ فى كثيرٍ ممَّا يعروك ويطرُقك ، وانظُرْ أن تكونَ لك الغَلَبَةُ على جهلك ، والتَّملُّك لاحتدادك وصَوْلِك ، فإنَّكَ إن لم تستعمل الأناةَ فى مقارضاتك ، وتَسَرَّعْتَ إلى المكافأة على ما يظهر لك ، ولم تضنَّ بمن بلوتَه فعرفتَ مذاهبَه ، وخَبَرْتَ خلائقَه ، وصار

مستمَدَّ رأيكَ ومُشْتَكَى حُزْنِكَ لم تنتفعْ بغيره ، واجتمعَتْ عليك البُرُوقُ والرواعدُ ممَّن تعده لك وعليك . وهذا مثلٌ لأنواع الأذى والمكروه ،والتوعُّد بضروبِ القولِ ، وفنون الفعل .

وقوله « إذا العزْمُ لم يَفرُج » جوابه لم تزلْ جنيباً . والمعنى : انظُرْ لنفسك فيما تُشْرِف عليه طالباً للحزْم ثم اعزِمْ ، ودعِ التَّشَكُّكَ والتلوُّم فيما يُرِيكَ رَأْيكَ وإلاَّ بقيتَ تابعاً لغيرك ، متوقِّفاً فيما يمسُّك ، كما يَستَتْبِع قائدُ الخيل مجنوباً له . وهذا بَعْثٌ على اقتحام الأمور ، واستعمال الاستبداد فيها بَعْدَ النَّظَر والتحزُّم فى الظّاهر ، وتَرْكِ التعرّج[1] على قولِ مانعٍ ، أو دَفْعِ مُزَاحِمٍ ، أو مذكِّر بعاقبة . كما وصّى فى البيت الذى قبلَه بالرفْق فى الأمور التى تَكسِب المداوات ، واستعمال الصَّبر فيما يَجْلِب الضَّغائِن ويُهيِجُ التِّرات .

٥ ـ وقَلّ غَناءً عَنْكَ مَالٌ جَمَعْتَه إذا كانَ مِيراثاً ووارَاكَ لاحِدُ[2]

٦ ـ تَجَلَّتَ عَارًا لاَ يَزَالُ يَشُبُّهُ سِبَابُ الرِّجَالِ نَثْرُهُمْ والقصائدُ[3]

المراد بذكر القِلّة هاهنا النّفيُ ، لا إثباتُ شىء قليل . وانتصب «غَناء» على الحال ، أى مُغْنِيًا عنك . فيقول : لا يُغْنِى عنك مالٌ تجمعُه إذا ذهبتَ عنه وتركته لورثَتِكَ ، فإنّ ما تملكُهُ هو ما تُنْفِقُهُ أيامَ حياتِكَ ، وتَصْرِفُه فيما يَدَّخِرُ لك أجراً ، أو يَكْسِبَ لك حَمْدا ، فأمّا إذا سَتَرَكَ من يُلْحِدُ قبرَك ، فما تَتْرُكه لغيرك لا حظَّ لك فيه ولا نصيب ، بل تَكْتَسى عاراً منه لا يزال يُوقِدُ نارَه ، [ويَرْفَعُ فى المحافل ذِكْرَه سِبَابُ الرِّجال ، من النَّثْر تارةً[4]] ، ومن النظم

(١) ل : « التعربج » .

(٢) التبريزى : « إذا صار ميراثاً » .

(٣) انظر الكلام على هذا البيت فى اللآلى ٤٢٩ .

(٤) هذه التكملة من ل .

أخرى ، لأنّ الباخلَ مذمومٌ بكلِّ لسانٍ حيًّا وميّتاً ، وفى كل زَمان موجوداً ومفقوداً ، ثم تراه كالجانى على كلّ مَنْ يعرفه ، فهم يذُمُّونه بظَهْرِ الغَيب ، ويَقْذَعُونه فى الُحضور ، فلا يزال مسبوباً ، مأكولَ اللّحم مدحورا .

٤٤٨

وقال[1] :

١ ـ وَيْلُمِّ لذّاتِ الشّبابِ مَعيشَةً ... مَعَ الـكُثْرِ يُعْطَاهُ الفَتَى الُمتْلِفُ النَّدِى

٢ ـ وقد يَعْقِلُ القُلُّ الفتَى دُونَ هَمِّهِ ... وقد كانَ لولا القُلُّ طَلاَّعَ أَنْجُدِ

لفظةُ « وَيل » إذا أضيفت بغير اللام فالوجه فيها النَّصب ، تقول : ويلَ زيد ، والمعنى ألزَمَ اللهُ زيداً وَيْلاً ، فإذا أُضِيفت باللام فقيل : ويلٌ لزيد ، فحكمه أن يُرْفعَ فيصير مع ما بعده جملةً ، ابتُدِئَ بها وهى نكرةٌ لأنّ معنى الدُّعاء منه مفهوم . والمعنى : الويل ثابتٌ لزيد . كأنَّه عدَّه مُحصَّلًا له ، كما يقال : رَحِمَ اللهُ زيداً ! فيُجعلُ اللّفظُ خبرًا . وإذا كان حُكم وَيْلٍ هذا وقد ارتفَع فى قوله « وَيْلُمِّ لَذّاتِ الشَّباب » فمن الظاهر أنّ أصلَه وَيْلٌ لأمِّ لَذّات الشَّباب ، فحذف من أمِّ الهمزة ، واللام من ويلٍ ، وقد أتَى حركةَ الهمزة على اللام الجارّة ، فصار وَيْلُمِّ . وقيل : وَيْلِمِّ ، كما قيل : ﴿ الحمدُ للهِ ﴾ و﴿ الحمدِ للهِ ﴾ إتباعًا لإحدى الحركتين الأخرى ، وقصدُه إلى مَدْح الشَّباب وحَمْدِ لذّاته بينَ لذّات المَعاش

(١) يفهم منه أن البيتين لمحمد بن أبي شحاذ . لكن قال التبريزى : « وقال آخر » . وفى الخزانة (١ : ٥٦٣) : « ونسبهما الأعلم الشنتمرى فى حماسته لحميد بن سجار الضبى » . ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن أبي شحاذ يقال له « حميد » أيضا . وكلمة « سجار » محرفة من شحاذ . انظر حواشي اللآلئ ٤٢٩ . ونسبهما البغدادى أيضا إلى علقمة الفحل . وهما فى ديوانه ١٣٥ . ونسبا فى اللسان (قلل) إلى خالد بن علقمة الدارمى ؛ وفى (نجد) إلى حميد بن أبي شحاذ الضبى .

وقد طاع لصاحبه الكُثْرُ، وهو كثرةُ المال، فاجتمع الغِنَى والشَّبابُ له وهو سَخِيٌّ مبذِّرٌ فيما يكسبُه ذِكْرًا جميلا، وصِيتاً عالياً. ثم قال: وقد يَحْبِسُ قِلَّةُ المـال صاحِبَهُ دونَ ما يهتمُّ له أو يُهتمُّ به. وقد كان لولا إضاقَتُه وقِلَّةُ ذاتِ يده طلّابًا للتَّرَقِّي فى درجات الفَضْل والإفضال، طَلّاعًا على عَوالى الرُّتَب فى النِّهايات. وانتصب «معيشة» على التمييز.

٤٤٩

وقالت حُرْقةُ بنت النُّعمان(١):

١ ــ بَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ والأمرُ أمرُنا ... إذا نحنُ مِنْهم سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ(٢)

٢ ــ فأُفٍّ لِدُنْيَا لا يَدُومُ نَعِيمُها ... تَقَلَّبُ تاراتٍ بنا وتَصَرَّفُ

بينا: كلمةٌ تُسْتَعمَل فى المفاجآت، وهى من ظروف الزَّمان. وقد يقال بينما؛ كأنَّهمْ أرادوا أن يَصلوه بدلًا ممَّا كان يُضاف إليه من قبلُ بما أو بالألف. والمراد: بينَ الأزمنة التى تجرى علينا ونحن نَسُوسُ النَّاسَ ونُدبِّر أمرَهم بما نُريدُ، وطاعتُنا واجبةٌ، وأحكامُنا نافذة، إذا الأمرُ انقلَبَ فاتَّضعت الأحوال، وتسلَّطت الأبدال. وصرنا سُوقةً نخدُم النّاس. والنّاصف فى اللغة: الخادم. والسُّوقة: مَنْ دونَ المَلِك. ومعنى «والأمر أمرُنا»، أى لا يدَ فوق أيدينا.

---

(١) هى حرقة بنت النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن نمارة بن لخم. المؤتلف ١٠٣. التبريزى: «وحرقة هذه وأخوها حرق ابنا النعمان، وفيهما يقول الشاعر:

نقسم بالله نسلم الحلقه ... ولا حريقا وأخته حرقه»

ومثله فى اللسان لكن جعل اسم أخيها «حريق» كما فى نص الشعر. ونبه التبريزى على أن الشاعر فتح لام «الحلقة» لضرورة الشعر.

(٢) كذا فى النسختين. وفى التبريزى والمؤتلف واللسان (نصف): «إذا نحن فيهم».

والعامل فى بينا ما دلَّ عليه قولها « إذا نحنُ منهم سُوقة » . وإذا هذه ظرفُ مكان ، وهى للمفاجأة ، وقد تقدَّم القولُ فيه .

وقوله « فأفٍّ » فيه لغات عدَّة ، يفتح ويكسر ويضم ، وينوَّن فى كلٍّ ذلك ويُترَك التنوينُ فيه . وهو اسمٌ من أسماء الفعل ، وأسماء الفعل أكثرُ ما تقع فى الأمر والنّهى ، وفى باب الخبر تقع قليلا ، فمنها أُفٍّ هذه ، ووَاهًا ، وهَيْهات وأحرفٌ أُخَر . ومعنى أفٍّ التَّحقير . كأنَّه قال : حَقارةً لِدُنيا نعيمُها يزول ، وحالها لا يدوم ، بل تَقَلَّبُ بأهلها وتتحوَّل ، وتتصرَّفُ بطُلّابها وتتبدَّل . فمن فتح أفَّ فلخفَّة الفتحة ، ومن كسر فلالتقاء السَّاكنَين ؛ لأنَّ الكسر فيه أولَى ، ومن ضمَّ فلإتباع الضَّمة الضمَّة . والتَّنوين فيه أمارة للتَّنكير ، وتركُ التنوين أمارةٌ للتعريف .

وقال الحكَم بن عَبْدَلٍ[1] :

١ — أَطْلُبُ مَا يَطْلُبُ الكريمُ مِن الـ ـرِّزْقِ بنفسى وأُجْمِلُ الطَّلَبَا

٢ — وأَحْلُبُ الثَّرَّةَ الصَّفِيَّ ولا أَجْهَدُ أخلافَ غيرِهَا حَلَبَا[2]

---

(١) هو الحكم بن عبدل بن جبلة الأسدى ، ينتهى نسبه إلى أسد بن خزيمة ، وكان هجاء خبيث اللسان من شعراء الدولة الأموية ، ومنزله ومنشؤه الكوفة . وكان أعرج لا تفارقه العصا ، فترك الوقوف بأبواب الملوك ، وكان يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسله فلا يحبس له رسول ، ولا تؤخر له حاجة ، وفى ذلك يقول يحيى بن نوفل :

عصا حكم فى الدار أول داخل ... ونحن على الأبواب نقصى ونحجب
وكانت عصا موسى لفرعون آية ... وهذى لعمر الله أدهى وأعجب
تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها ... ويرغب فى المرضاة منها ويرهب

الأغانى (٢ : ١٤٤ — ١٥٣) والمؤتلف ١٦١ .

(٢) التبريزى : « أخلاف غيرها » ، ثم قال : « ويروى : الصفوف .... والصفوف : التى يصف لها إناءان فتملؤهما . ومن روى الصفى فمعناه الغزيرة . وبعض الناس ينشد : =

يقول : مَطالبي من الدُّنيا ومَرَاغِبي على حدٍّ من استعمال الكَرَم والتعفُّف ، لا يزرى بي نظرُ النَّاظرِ إلىَّ ، لأنِّى إذا طَلبتُ أجملت ، وإذا سُدَّت مَفاقِرى اكتفيت[1] ، ثمّ لا أعوِّل فيما أزاوله إلا على نفسى ، مُتَّهِمًا سَعْىَ غيرى ، وكلُّ ذلك أبقَى على مراعاة العَفاف والكَفاف .

وقوله : « وأحلب الثَّرَّةَ الصَّفِىّ » يقول : أعلِّق طَمَعى بمَنْ إذا استُدِرَّ حَلَبُه كان غزيرا ، لأنِّى لا أُسِفُّ المطامع الدَّنيَّة ، ولا أَضَعُ نفسى فى المواضع الخسيسة . والثَّرَّة : الغزيرة . ويقال : عينٌ ثرثارٌ[2] ، إذا كانت كثيرة الماء . والصَّفِىّ : الجامع بين مِحْلَبَين فى حَلْبة . وقوله « ولا أجْهَدُ أخلافَ غُبْرِها حلبا » انتصب الحَلَبُ على أنَّه مصدرٌ فى موضع الحال . والمعنى : أنِّى لا أطلُبُ الزَّهيد الحقير القَدْر ، ولا أستدرُّ البَكِى القليلَ الدَّرِّ . والحَلَب قد يراد به المصدر ، وقد يراد به المحلوب .

٣ — إنى رَأَيْتُ الفَتَى الكَريمَ إذا ... رَغَّبْتَه فى صَنيعـــةٍ رغِبَا

٤ — والعَبْدُ لا يطْلُبُ العَلاءَ ولا ... يُعطيــــكَ شيئًا إلَّا إذا رَهِبَا

٥ — مثلُ الحِمارِ المُوَقَّعِ السَّوْءِ لا ... يُحْسِنُ مَشْيًا إلَّا إذا ضُرِبَا

قوله « إنى رأيتُ الفتى الكريم » يقول : إنّ من تكرُمُ عروقُه وتَزْكو أصولُه ، إذا دعوتَه إلى اصطناع صَنيعة ، وهززتَه لابتغاء مكرُمة ، أجابَكَ

= أخلاف غبرها ، يذهب إلى الغُبْر الذى هو بقية اللبن . وقد يجوز مثل ذلك إلا أن الكلام يكون كالمقلوب ، لأنه أراد : ولا أجهد غير أخلافها . ومن روى : أخلاف غيرها فروايته أحسن . يريد أنه لا يحلب إلا ثرة ، كأنه يصف نفسه بطلب الرزق فى مظانه ، ورغبته إلى الكرام ، وإعراضه عن اللئام » .

(١) المفاقر : وجوه الفقر ، لا واحد لها . وقد يجوز أن يكون جمع مفقر . وأنشد :

لمال المرء يصلحه فيغنى ... مفاقره أعف من القنوع

(٢) كذا وقعت فى النسختين بدون التاء . وفى اللسان والقاموس : « ثرثارة » و « ثرارة » .

حريصاً على استغنامه وتَرَى الدَّنِيَّ الخسيسَ الهِمَّة والنفس لا يطلبُ ارتفاعًا ولا يَكسِب ادِّخارًا ، ولا يُسمِح بشيء إلَّا عن رهبةٍ ، فِعْلَ مَن لا يبتغى فى مَصارِفه حمدًا ، ولا يَقْتَنِى ليومِه وغَدِه خِلًّا ، فهو كالحمار السَّوء ، الذى بظهره آثارُ دَبَر وقد ذُلل فى العَمل ، لا يُجيب إلَّا إذا استُحِثَّ حتّى يُضرَبَ ، بلادةً منه وكَسَلا . وقوله « لا يُحْسِن » موضعه من الإعراب نصب على الحال . وارتفع « مثل » على أنه خبر مبتدأ مضمر .

وقوله « مثل الحمار الموقَّع » يجوز أن يُرادَ منه الذى فى ظهره أثر الإكاف أو الدَّبَر ، ويجوز أن يُرادَ به المذلَّل ، كما يقال : طريقٌ موقَّع . ويجوز أن يكون من وَقَعْتُ الحديدةَ ، إذا ضَرَبتها بالمِيقَعة ، كأنه لبلادته يُضرَب كثيراً .

٦ ــ ولَمْ أَجِدْ عُرْوَةَ الخلائق إلاَّ الدِّينَ لمَّا اعتَبَرتُ والحَسَبَا

٧ ــ قد يُرْزَقُ الخافِض المقيمُ وما شَــدَّ بعَنْسٍ رَحْــلاً ولاَ قَتَبَا

٨ ــ ويُحْرَمُ المالَ ذُو المَطِيّةِ ولرَّحْــلِ وَمَنْ لاَ يَزَالُ مُغْــتَرِبا

قوله « لم أجد » يريد أنَّ مِسَاكَ الخلائقِ الشريفة ، ووثائق عُرَاها ، إنما هى إذا اعتبرَه المعتبِر فى الدِّين وعِمارته ، وفى الشَّرف وتحصيله . كأنه جعَلَ طلبَ الحسَب للدُّنيا وأسبابِها والاعتلاءِ فيها ، وجعَلَ الدِّين للآخرةِ وتقديمِ ما يفوز به مِن رضا الله عزّ وجلّ ، والثوابِ الجسيم .

وقوله « قد يُرزَق الخافضُ المقيم » سلك فيه مسلك الآخر[1] فى قوله :

ماذا يُكلِّفك الرَّوْحاتِ والدُّلجا البَرَّ طَوْرًا وطوْرًا تركَبُ اللُّجَجا

البيتين ، وقد تقدَّما .

والخافض : الوادع الذى لم يُحدِّث نفسَه بتَجْوالٍ وارتحال . فيقولُ : قد

(١) هو محمد بن بشير . الحماسية ٤٣٦ ص ١١٧٣ .

ينالُ الرِّزقَ الواسعَ مَن لا يُؤْثِر على الإقامة فى وطنه شيئًا ، وقد ترَى قاطع الشُّقَّة البعيدة ، وصاحبَ الرَّحْل والمطيَّة ، الصابرَ على الغُربة ، محرومًا مضيَّقَ العَيش ، مكدود العُمر . والرَّحْل : مَرْكَب البعير ؛ والرِّحالةُ نحوُه ؛ وهو السَّرج أيضاً . والقتَب : إكافُ الجَمَل ، كذا ذكره الخليل . وقوله « ذو المطِيَّة والرَّحْل » ، الرَّحل : مصدر رَحَلْتُ البعيرَ ، إذا شدَدتَ عليه الرَّحْلَ .

٤٥١

وقال آخر :

١ — يأيُّها العامُ الذى قد رابَنِى أنتَ الفِداء لذِكْرِ عامٍ أوَّلا

٢ — أنتَ الفِداء لذكْرِ عامٍ لم يَكُنْ نَحْسًا وَلاَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ زَيَّلا

يفضِّل أيَّامَه الماضية على أيَّامه الحاضرة ، فقال كالمخاطِب لها : أيُّها العام الذى قد أتى بما يَرِيبنى ، جَعلَكَ اللهُ فداءً لعامٍ أوَّلَ مِن عامِى ، تقضَّى بما سرَّنى .

وقوله « عامٍ أوَّلَا » مما أُلِفَ فيه كثرة الاستعمال ، فوُصِف بصفةٍ لم توصف به نظائرُه ، اعتماداً على التَّعارف . والمراد بهذا أنه لم يقل شهرٌ أوَّل ولا حَوْلٌ أوَّل ، ولا سنةٌ أولى ، وإنما خُصَّ هو بذلك لكثرة الاستعمال ، ولأنَّ دَلالة الحال وتعارُف المتكلِّمين به سوَّغ الحذف والإجراء على ما أُلِف فيه .

وقوله « أنت الفداء » يريد تكرير الدُّعاء على التضجُّر بحاضرِ وقتِه وعامِه ، والتنبيه على ما رابَه منه . فيقول : جعلَك الله فداءً لذكرِ عامٍ لم يعُدْ بمَنْحَسةٍ ، ولا حَكَمَ بين الأحبَّة بفُرقة . وإنما قال « لذكرِ عامٍ » لأنَّ العام وقد تقضَّى لا يصحُّ فيه التَّفْدية . والنَّحس : ضِدُّ السَّعد ، وقد وُصِفَ به الغُبْرَةُ والأمرُ المظلم . وفى القرآن : ﴿ فى أيَّامٍ نحِسَاتٍ ﴾ . ويقال : رجل مُنَحَّسٌ أى محزون .

٤٥٢

وقال الفَرَزْدَق[١] :

١ ــ إذا ما الدَّهْرُ جَرَّ على أُناسٍ حَــوَادِثَهُ أَناخَ بآخَرِينا
٢ ــ فقُلْ للشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كما لَقِينا

يقول : إذَا صُروف الدَّهرِ أناخَتْ على قومٍ بإزالة نِعَمهم ، وتكديرِ عَيشهم ، فجرّت عليهم أذيالَ الشَّرّ والتَّغيير ، ودَرَسَتْ آثارَهم ومَحت دِوَلَهم[٢] ، تراها تنتقل إلى آخَرين ، لأنَّها كما تَهَبُ ترتجع ، وكما تُولِي تَستلِب .

ثم قال : قل لمن شَمِت بنا فيما رأى من أثَرِ الزَّمان فينا : انتبهوا من رَقدتكم واصْحُوا من شَماتتكم ، فستَلقَوْن كما لقينا ، وتُمتَحنون كما امتُحِنّا ؛ لأنّ حَياتَنا وجميع ما فى أيدينا عَوَارٍ ، والعَوارِى تُستَرَدُّ وإنْ طالت المُهلة .

---

(١) انظر ما سبق فى الحماسية ٢٢٦ ص ٦٧٦ .
(٢) الدول ، كذا وردت فى النسختين بكسر ففتح ، وهى و « الدول » بضم ففتح : جمع الدولة .

٤٥٣

وقال الصَّلَتَانُ العَبدىُّ(١) :

١ ــ أَشَابَ الصغيرَ وأفنى الـكبيرَ كَرُّ اللَّيالِى ومَرُّ العَشِى(٢)
٢ ــ إذا لَيْلَةٌ هَرَّمَتْ يَوْمَهَا أَتَى بعد ذلك يَوْمٌ فَتِى
٣ ــ نَرُوحُ ونَغْدُو لحاجاتِنا وحاجَةُ من عَاشَ لا تَنْقَضِى

ذكر فى هذه الأبيات ما تَدور عليه دوائرُ الأيَّام ، وصروفُ الأزمان ، وأنَّها لا تقف عند غايةٍ ، ولا تَعرف فيما تجرِى فيه مَقرَّ نهاية ، وأنَّ مِن عادتها تغيير الأمور ، وفى تقضِّيها وقضاياها تحويلَ الأحوال ، فقال : إنَّ كُرور الأيَّام ، ومُرورَ اللَّيالى والأوقات ، تراها تجعل الصَّغير كبيراً ، والـكبير حقيرا ، وتجعل الطِّفلَ شابًّا ، والشَّيخ فانياً ، فـكلَّما خَلُقت جِدَّةُ يومٍ جاء بعدَها يومُ آخر فَتِيٌّ جديد ، ونحن فيها ندأب فى حاجاتنا ، فلا نحن نَملُّ ، ولا حاجاتنا تَفنَى أو تقِلُّ ، ولا الوقتُ بنا يقف ، ولا واحدٌ منا يَنْتَظِرُ أو يَتوقَّف ، إذ كان ذُو العيش مآربُه متَّصلة ، كما أنَّ أوقاتَه دائرةٌ متتابعة .

---

(١) كذا ورد فى نسخ الحماسة . وفى الحيوان (٣ : ٤٧٧) : « وقال الصلتان السعدى ، وهو غير الصلتان العبدى » ، ثم أنشد الأبيات . لكن ذكر المرزبانى فى معجمه ٢٢٩ « الصلتان العبدى » ، ثم قال : « وله القصيدة التى يوصى فيها ابنه ، وهى طويلة حسنة كثيرة الأمثال » . وأنشد الأبيات . والصلتان لقب لعدة شعراء أحدهم الصلتان الفهمى . قال الآمدى فى المؤتلف ١٤٥ : « لست أعرفه فى شعرائهم ، وأظنه متأخراً » . وثانيهم الصلتان العبدى أحد بنى محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس ، وهو الذى قضى بين جرير والفرزدق فى قصة مشهورة ، واسمه قثم بن خبية . قال الآمدى : « شاعر مشهور خبيث » . والثالث الصلتان الضبى ، قال الآمدى : « ولست أعرفه فى شعراء بنى ضبة ، وأظنه متأخراً » . والرابع « الصلتان السعدى » الذى ذكره الجاحظ فى الحيوان . انظر أيضاً الخزانة (١ : ٣٠٨) والشعراء ٤٧٥ ــ ٤٧٩ و اللآلئ ٧٦٦ .

(٢) وكذا وردت الرواية فى الشعراء . وفى سائر المراجع والتبريزى : « كر الغداة » .

معنى هرَّمت يومَها : ضَعَّفته مُسْلمًا للزَّوال . ويقال : هو ابن هَرْمةِ أبيه ، كما يقال : هو ابن عِجْزة أبيه ، لآخِرِ الأولاد ، كأنَّه من الهَرَم . والهَرْمَى من الخَشَب : مالا دُخانَ له ، لعِتْقِهِ وذهاب قُوَّته . والفَتِيُّ مصدره الفَتاء ، وضدّه الذَّكِيّ . ويقال : فَتاءُ فُلانٍ كَذَكاءِ فُلانٍ وكتَذْكِيَة فلان .

٤ — تَموتُ مع المرء حاجاتُه ويبقَى له حاجَةٌ ما بَقِى[(١)]

٥ — إذا قُلتَ يَوْماً لمن قد تَرى أَرُونِى السَّرِىَّ أَرَوْكَ الغَنِى[(٢)]

يقول : تموت مع المرء حاجاتُه . يريد أنَّ المرء ما دام حيًّا فمآربُه وشهواتُه تتجدَّد تَجدُّدَ[(٣)] الأوقات ، وأمانيهِ تتَّصل ما اتَّصَلَ عمره ، فإذا جاء أجله وتناهى أمَدُه ، انتهت مآربُه ، ووقفَتْ مطالبه .

وقوله « إذا قلت يوماً لمن قد ترى » يريد : وإن سألتَ كلَّ مَن تقعُ عينُك عليه من المميِّزين ، عن سَراة الرِّجال وكِرامِهم ، أحالُوا على المُثْرِين وإن ضعُفَت رغباتُهم فى اكتساب الخير ، واستجلاب الحمدِ . والسَّرْوُ : سخاءٌ فى مُروَّةٍ . ويقال : سَرُوَ الرجل يَسْرُو ، وهو سَرِىٌّ من قوم سَرَاةٍ . وكأنَّ هذا سلكَ مسلكَ الآخر[(٤)] حين قال :

وأنَّ ثَرَاءَ المالِ يَنْفَعُ رَبَّهُ ويُثْنِى عليه الحَمْدَ وهو مُذَمَّمُ

٦ — ألم تَرَ لُقْمانَ أوصَى بنيـهِ وأوصيْتُ عَمْـراً وَنِعْمَ الوَصِى[(٥)]

٧ — بُنَىَّ بدا خِبُّ نَجْوَى الرِّجالِ فَـكُنْ عِنْدَ سِرِّكَ خَبَّ النَّجِى[(٦)]

---

(١) فى التبريزى وسائر المراجع : « وتبقى له » بالتاء .
(٢) وكذا فى التبريزى والشعراء والخزانة . وفى الحيوان : « يوما لدى معشر » .
(٣) ل : « بتجدد » .
(٤) هو مالك بن حزيم الهمدانى . الحماسية ٤٣٤ ص ١١٧١ .
(٥) التبريزى : « فنعم الوصى » . المرزبانى : « أوصى ابنه » .
(٦) انظر ما سبق فى الحماسية ٤٤٥ ص ١١٩٢ .

٨ ـ وسِرُّكَ ما كانَ عندَ امْرِئٍ وسِرُّ الثَّلاَثةِ غيرُ الْخَفِى[1]

معنى « ألم تر » : اعلم . ويريد التنبيهَ على أنّ له فى وَصاتِه ابنَه اقتداء بالحكماء قبلَه ، فكما ساغ لُقمانُ أن يوصِى ابنَه ساغ للصَّلَتَانِ أن يُوصِى عَمْرًا ولده . والمحمود فى قوله « نعم الوصى » محذوف ، كأنه قال : ونعم الوصِى هو . وهذا ترغيبٌ منه لعمروٍ فى الاحتذاء بما يَرْسُمُ له . وقوله « بنىَّ بدا خِبُّ نَجْوَى الرِّجال » ، فالخِبُّ : المكر بكسر الخاء ، والخَبّ بفتحها : المكّار . ومثله رجلٌ صَبٌّ . والنجوى : مصدر ، وهو يستعمل فيما يَتحدَّث فيه اثنانِ على طريق السَّتر[2] والكتمان . فيقول : إذا ناجيتَ صاحباً لك فكن خَبًّا فيما تُودِعه من سِرِّك ، فإن نَجْوَى الرِّجال إذا بدا خِبُّها ، ومكْرَ أربابها فيها ، عادت وبالاً وفضيحة . والنَّجِىُّ يقع على الواحد والجمع ، وكذلك النَّجْوَى . وفى القرآن ﴿ إِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ .

وقوله « وسِرُّك ما كان عند امرئٍ » ذهب فيه مذهبَ مَن قال :

إذا جاوز الاِثنَـيْنِ سِرٌّ فإنَّهُ ببَثٍّ وتـكثير الوُشاةِ قَمِينُ[3]

وقد قيل فى « الاثنين » من هذا البيت أراد به الشَّفتَين . وكأنَّ من فسَّر هذا التفسير يريد : لا تُفْشِ سِرَّك إلى أحَد .

آخر باب الأدب ، والحمدُ لله وحده ، والصلاة على نبيه محمد وآله بعدَه .

---

(١) بعده عند التبريزى :

كما الصَّمْتُ أدْنَى لِبَعْضِ الرَّشَادِ فبَعْضُ التَّكلُّمِ أدْنَى لِغِى

(٢) ل : « السر » .

(٣) ل : « بنث » بالنون . والبيت لقيس بن الخطيم فى ديوانه ١٨ . وفى الديوان : « بنشر » .

بابُ النَّسِيبِ

بابُ النَّسِيبِ[1]

٤٥٤

وقال الصِّمَّةُ بنُ عَبدِ الله القُشَيرِىّ[2] :

١ — حَنَنْتَ إلى رَيَّا ونَفسُكَ باعَدَتْ　　مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وشَعْبَا كُمَا مَعَا

٢ — فما حَسَنٌ أن تأتِىَ الأمْرَ طائِعًا　　وتَجزَعَ أن دَاعِى الصَّبابةِ أسْمَعا

الحنين : تألُّم من الشَّوق وتشكٍّ . وريَّا ؛ اسمُ امرأةٍ[3] . فإن قيل : هَلَّا قيل رَوَّى ، لأنَّ فَعْلَى إذا جاء اسماً من بنات الياء يقلب ياؤه واوًا ، على هذا الفَتوَى والشَّروَى والتَّقوى والبَقوى ؟ قلت : إنه سمِّى به منقولاً عن الصِّفة ، وفَعْلَى صفةً يصحّ فيه الياء ، على هذا قولهم : خَزْيَا وصَدْيا ورَيَّا كأنه تأنيث رَيَّان فى الأصل ، كما يقال عطشان وعطشى ، ثم نُقل من باب الصِّفات إلى باب

---

(١) التبريزى : « النسيب : ذكر الشاعر المرأة بالحسن ، والإخبار عن تصرف هواها به ، وليس هو الغزل ، وإنما الغزل الاستهتار بمودات النساء والصبوة إليهن . والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه » .

(٢) هو الصمة بن عبد الله بن الطفيل بن قرة بن هبيرة بن عامر بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، شاعر إسلامى بدوى مقل ، من شعراء الدولة الأموية ، ولجده قرة بن هبيرة صحبة بالنبى صلى الله عليه وسلم ووفادة . وكان من خبر الشعر ما روى التبريزى وأبو الفرج فى الأغانى (٥ : ١٢٧) وياقوت فى (البشر) والسيوطى فى شرح الشواهد ٧٩ : أن الصمة خطب ابنة عمه إلى أبيها ، فقال : لا أزوجكها إلا على كذا وكذا من الإبل (فى رواية التبريزى أنها خمسون) . فذهب إلى أبيه فأعلمه بذلك ، وشكا إليه ما يجد بها ، فساق الإبل عنه إلى أخيه ، فلما جاء بها عدها عمه فوجدها تنقص بعيراً ، فقال : لا آخذها إلا كاملة ، فغضب أبوه وحلف لايزيده على ما جاء به شيئاً ، ورجع إلى الصمة فقال له : ما وراءك ؟ فأخبره ، فقال : تالله ما رأيت قط ألأم منكما جميعاً . وإنى لألأم إن أقمت بينكما . ثم ركب ناقته ورحل إلى ثغر من ثغور الشام فلقى الخليفة فكلمه ، فأعجب به وفرض له فرضاً ، وألحقه بالفرسان ، فأقام به حتى مات . وفى ذلك يقول هذا الشعر . والأبيات عند القالى (١ : ١٩٠ — ١٩٢) .

(٣) هى ابنة عمه التى أراد الزواج بها .

التَّسمية بها فترك على بنائه . وقوله « ونفسُك باعَدَت » الواو واو الحال ، وهى للابتداء ، ومعنى باعدَت بَعَّدَتْ ، وهو كما يقال ضَاعَفَتْ وضَعَّفَتْ . وفى القرآن : ﴿ بَاعِدْ بَيْنَ أسفارنا ﴾ ،

والمَزَار : اسمُ مكان الزِّيارة . والشعب . شَعْب الحىّ ، يقال : التأمَ شَعْبُهم ، أى اجتمعوا بعد تفرُّق ، وشَتَّ شَعْبُهم ، إذا افترقُوا بعد تجمُّع . وقوله «وشُعبا كما معا » الواو واو الحال أيضاً ، والعامل فى « ونفسُك باعَدَتْ » حَنَنْتَ ، وفى قوله : « وشعبا كما » باعدت . ومعنى قوله : « معا » مجتمعان ومصطحبان ، وموضعه خبر المبتدأ .

وقوله « فما حَسَنٌ أن تأتىَ الأمرَ طائعاً » فى حَسَنٍ وجوهٌ : يجوز أن يكون مبتدأً ، وجاز الابتداء به وهو نكرةٌ لاعتماده على حرف النفى ، و « أنْ تأتىَ » فى موضع الفاعل لَحَسَنٌ ، واستغْنَى بفاعله عن خَبَرِه ، والتقدير : ما يَحْسُن إتيانك الأمرَ طائعا . وانتصب طائعا على الحال من أن تأتى . ويجوز أن يرتفع حسنٌ على أنه خبر مقدَّم ، وأن تأتى فى موضع المبتدإ . ويجوز أن يرتفع حسنٌ بالابتداء وأن تأتى فى موضع الخبر ، وهذا أضعف الوجوه لكون المبتدإ نكرةً والخبر معرفة . وقوله « وتجزع أَن دَاعِى الصَّبابة » أنْ مخففة من أنَّ الثقيلة ، والمراد : وتجزع مِنْ أَنَّ داعىَ الصَّبابة أسمَعَكَ صوته ودعاك .

ومعنى البيتين : شكوتَ شَوْقَك إلى هذه المرأة ، وأنت آثَرْتَ البُعْدَ عنها بعد أن كان حَيًّا كُما مجتمعين ، وليس بجميلٍ اختيارُك الأمرَ طائعاً غيرَ مُكْره . وجزعك بعده ، لأنَّ داعىَ الشَّوق والعائد منه إليك أسمَعك وحَرَّكَ منك .

٣ ــ قِفَا وَدِّعَا نَجْدًا وَمَنْ حَلَّ بالحِمَى وَقَلَّ لنَجْدٍ عِنْـدَنا أنْ يُوَدَّعَا

٤ ــ وليْسَت عَشِيَّاتُ الحِمَى بِرَوَاجِعٍ عَلَيْكَ وَلَـكِنْ خلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا

يخاطب صاحبينَ له يستوقِفهما ويكلِّفهما توديعَ نجدٍ معه والنَّازلِ بالحمى منه . ثمَّ استأنَفَ فقال ملتفتاً : ويقِلُّ لنجدٍ وساكنه التَّوديعُ منَّا ، لأن حقَّهما أعظم

من ذلك ، ولـكنَّا لا نَقْدِر على غيره . والحِمَى : موضعٌ فيه ماءٌ وكلأٌ يُمنع منه الناس . ويقال : أحْمَيْتُ المكانَ ، إذا جعلتَه حِمًى . وحكى ابنُ الأعرابيِّ أنهم يقولون للمكان وقد أُبطِلَ وأُبيحَ ولم يُحْمَ : بَهْرَجٌ . وأنشد :

فَخُـيِّرَتْ بَيْنَ حِمًى وبَهْرَجِ ما بينَ أجْرَاذٍ إلى وادِى الشَّجِى[(١)]

وقوله « أن يُوَدَّعا » فى موضع الفاعل لقلَّ .

ومعنى قوله « وليسَتْ عشِيَّاتُ الحِمَى برواجِعٍ » أنك وإن أفرطتَ فى الجزَع ، فإنَّ أوقاتَ المواصَلة بالحِمَى مع أحبابك لا تـكاد تعُود ، ولـكنْ أدِمِ البكاءَ لها ، مع التوجُّعِ فى إثْرِها ، تجِدْ فيه راحةً . وفى هذا إلمام بقولِ الآخر :

فقلْتُ له إنّ البُـكاءَ لرَاحةٌ به يَشْتفِى مَن ظَنَّ ألاّ تلاَقيا

وقوله « تدمعا » جواب الأمر . ولو قال تدمعان ، لـكان حالاً للعينَين .

٥ ــ ولمَّا رأيتُ البِشْرَ أعرضَ دُونَنَا وحالَتْ بَناتُ الشَّوقِ يَحْنِنَّ نُزَّعَا[(٢)]

٦ ــ بَكَتْ عَيْنِيَ الْيُمْنَى فلما زَجَرْتُها عن الجَهْلِ بَعْدَ الحِلْمِ أسْبَلَتَا مَعا[(٣)]

البِشْر : جبل[(٤)] . وأعرض دُونَنا : أبدى عُرْضَه . وحالت : تحرَّكَتْ . يقال : استَحَلْتُ الشَّخصَ ، إذا نظرتَ هل يتحرَّك . ومنه لا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله ! والمعنى : لمَّا تباعَدْنا عن نَجْدٍ ؛ وحجَزَ بيننا وبينه البِشْر ، تحركَتْ بناتُ الشوق نوازعَ كثيرةَ الحنين ، مظهِرةً ضَعفَ الصَّـبر . وجواب لما قوله « بكتْ عَيْنِيَ اليُمْنَى » . وأراد ببناتِ الشَّوق مسبِّباته . وهذا كما قال الآخر[(٥)] :

يَضُمُّ إلىَّ اللَّيلُ أطفالَ حُبِّها كما ضَمَّ أزْرَارَ القميصِ البنائقُ

(١) أجراذ : موضع بنجد .
(٢) الأمالى والأغانى : « وجالت » بالجيم .
(٣) التبريزى والأمالى : « بكت عينى اليسرى » .
(٤) جبل فى أطراف نجد من جهة الشام .
(٥) هو المجنون ، كما فى اللسان (بنق) .

فأطفالُ الُحبِّ كبنات الشوق . والنُّزَّع ، الأشهر فيه أن يكون جمعَ نازع بمعنى كافٍّ ، فوضَعَها موضعَ نوازِع ، واللَّفظتان المتواخِيَتان لـكونهما من أصلٍ واحد يُستعار ما لإحداهما للأخرى . وإنما قال « بكَتْ عينىَ اليُمنى » لأنه كان أعور ممتَّعا بعينه اليُسرَى[1] . والعَين العَوراء لا تَدْمَع . فيقول : بكَتْ عينىَ الصحيحة ؛ فاجتهَدْتُ فى زَجْرها عن تَعاطِى الجهل بعد أنْ كنتُ تحلمتُ وتركْتُ الصِّبَى ، فلما تـكلفتُ ذاك لها أقبلَتِ العوراء تَدْمعُ معها وتبكى . ونبَّهَ بهذا على عِصْيان النفس والقَلب ، وقِلَّة ائتمارهما له ، وأنهما إذا زُجِرا ورُدَّا عن مَواردهما زادا على المُنـكَر منهما .

٧ــ تَلَفَّتُّ نحوَ الحىِّ حتى وجَدْتُنِى وَجِعْتُ من الإصغاء لِيتاً وأخْدَعا

٨ــ وأذكُرُ أيّامَ الِحمَى ثم أنْثَـنِى على كَبِدِى مِن خَشْيَةٍ أن تَصَدَّعا

يقول : أخَذْتُ فى مَسيرى لمَّا أبصَرْتُ حالَ نفسى فى تأثير الصَّبابة فيها ، ملتَفِتاً إلى ماخلَّفْتُه من الحىِّ وأرضِ نجدٍ ، حتى وجدتُنى وجِـعَ اللِّيتِ ـــ وهو عِرْقٌ فيها ـ لطُولِ إصغائى ، ودوام التفاتى ؛ كلُّ ذلك تحسُّرًا فى إثْر الفائت من أحبابى وديارِها ، وتذكُّراً لطِيب أوقاتى مَعَهم فيها . وقد قيل فيه : إنَّ مِن رُموزهم أنّ مَن خرَج من بلدٍ فالتفتَ وراءَه رجَعَ إلى ذلك البلد . وأنشد فيه أبياتٌ منها قولُه :

عِيلَ صَـــبْرى بالثَّعْلَبِيَّةِ لمـّا طال لِيـــلى ومَلَّنى قُرَنائى[2]

كلَّما سارت المطايا بنـا مِيــــلاً تنفَّسْتُ والتفَتُّ ورائى

---

(١) كناية عن أن عينه اليسرى هى العوراء . جاء فى الكنايات للثعالبى ص ٣٦ س ٥ : « ويكنى عن الأعور بالممتع » .

(٢) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « بالتغلبية » تحريف . والثعلبية : منزله من منازل طريق مكة من الكوفة ، قالوا : نسبت إلى ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء .

قالوا : التفتَ لكى يُقضَى له الرُّجوع ، لكونه عاشقاً .

وانتَصَب « لِيتاً » لأنه تمييز ، وهذا من باب ما نُقِل الفعلُ عنه ، كأنَّ الأصل : وَجِعَ لِيتى وأخْدَعِى ، فلما شُغِل الفعلُ عنهما بضميره أشْبَها المفعولَ فنصبَهما . ومثله : تصبَّبْتُ عرَقاً ، وقررْتُ به عَيْناً .

وقوله « وأذكرُ أيَّامَ الحِمَى ثم أنثنى » يقول : وأتذكَّرُ أوقاتى بالحِمَى لَمَّا كانَ من أسباب الوصال تَساعُد ، وبينَ دُورِنا ودُور الأحبة تقارُبٌ ، وللتَّراسُل إمكان ، ومع الحبيبِ فى الوقتِ بعدَ الوقتِ تلاقٍ واجتماع ، ثم أنعَطِفُ على كبِدى وأقبِضُ عليها مخافةَ تشقُّقِها ، وخُروجِها من مواضعها ، شوقاً إلى أمثالها ، وحسرة فى إثْرِ منقطَعِها .

وقد ذكر هذه الأبياتَ أبو عبدِ الله المفجَّعُ رحمه الله ، فى حدِّ الغَزَل من كتابه المعروف بالتَّرجُمان ، فذكر بيتين منها فى (باب الصَّبابة) ، وهما :

* حننتَ إلى ريَّا ونفسُك باعدَتْ *

و : * فما حسنٌ أن تأتى الأمرَ طائعاً *

وقال فى تفسيرهما[1] : « يقول : الحربُ بينَك وبين قومِك تَمنعُك مِن قُربها ولقائها » . وذكرَ مع البيتين قولَ عنترة :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وأقتُلُ قومَها زَعْماً لعَمْرُ أبيك ليس بمَزْعَمِ

ثم جاء إلى (باب الحنين) ، فذكر ما فى الأبيات ،

* وأذكرُ أيَّامَ الحمى *

و : * وليسَتْ عَشِيَّاتُ الحمَى برواجعٍ *

و : * بكَتْ عَيْنِىَ اليُمنَى *

---

(١) نقل هذا النص موجزا التبريزى فى شرحه الحماسة . وما هنا أوفى وأتم .

الأبيات ، وقال فى تفسيرها : هذا كانَ مجاوراً لأحبابه وهم منتجعُون بجُنُوب الحِمَى(١) فنشأَتْ عينٌ — والعينُ : سحابةٌ تجىء من ناحية القبلة — فنشأَتْ مِنْ عَنْ يسارِ القبلة ، فارتاعَ لذلك ، وخَشِيَ الفرْقَةَ إذا اتّصَل الغيث ، فذلك معنى قوله : بكَتْ عَيْنِي اليُسْرَى(٢) ، كناية عن السحاب . وجَهلُها : كثرةُ مَطرها . وجَعَلَ ارتياعَه منها زجراً لها . ثم نشأَتْ أُخرى مِنْ عَن يمين القِبْلة ، فأيقَنَ حينئذٍ بالفراق . فذلك معنى قوله : أسْبَلَتَا معا . ثم قال معترفاً بالبَيْن : خلِّ عينَيك تدمَعا ، يعنى السَّحابتَين . وقال جرير :

إنَّ السَّوَارِيَ والغَوادِيَ غَادرَتْ ... لِلرِّيحِ مُنْخرَقاً بها ومَجَالا » .

هذا كلامُه فى كتابه ، وقد حكَيْنَاه على ما أورده لا زيادةَ فيه ولا نُقصان . وأظنُّ أنّه تذكَّرَ أبياتاً غيرَ هذه ، ثمَّ تصرَّف فى تفسيرها وذكَرَ هذه الأبيات فى أثناءِ تفسيرِ ماذكَرَه ، ولم يأْتِ بها . وقد أحسَنْتُ الظَّنَّ مُستطرِفاً فِعلَه . والله أعلم .

٤٥٥

وقال آخر(٣) :

١ — ونُبِّئْتُ لَيْلَى أَرْسَلَتْ بشَفاعةٍ ... إلَىَّ فهلَّا نَفْسُ لَيْـلَى شَفِيعُهَا

٢ — أَأَكْرَمُ مِنْ لَيْلَى عَلَىَّ فتَبْتَغِى ... به الجاهَ أَمْ كنتُ امرَأً لا أطيعُها

نُبِّئَ يحتاج إلى ثلاثةِ مفاعيل ، وقد حصَلَتْ إلى قوله «أرسَلَتْ بشفاعةٍ إلَيَّ» .

---

(١) جنوب ، ضبطت بضم الجيم فى النسختين . والجنوب : جمع جنب ، بمعنى الناحية.

(٢) يفهم من هذا أن رواية المفجع : « بكت عينى اليسرى » ، كما روى التبريزى والقالى . انظر ما سبق فى ص ١٢١٧ .

(٣) هو الصمة بن عبد الله القشيرى صاحب المقطوعة السابقة . أو هو عبد الله بن الدمينة صاحب المقطوعة اللاحقة ، وقيل : هو المجنون . انظر شرح شواهد المغنى للسيوطى ٧٩ .

وقوله « هَلّا نَفْسَ ليلى » هلّا : حرفُ تحضيض ، وهو يطلُب الفعل ، وقد وَقَع في البيت بعده جملةٌ من مبتدإ وخَبَر . وفارق « هَلّا » هذه أختَها « لولا » في قوله :

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أفضَلَ مَجدِكمْ بَنِي ضَوْطَرَى لولا الكَمِيَّ المقنعا[1]

وذاك لأنّ تأثيرَ الفعلِ بالنصب بعد لولا من البيت دلّ عليه ، فأمْرُه في إضمار الفِعْل بعده قويّ . وهذا لم يَصْلُحْ له أن يَنصِب النفْسَ بعد هَلّا ، فكانَ يجئُ التقديرُ : فهَلّا أرسلَتْ نَفْسَها شَفِيعَها ؛ لأنّ القوافيَ مرفوعةٌ ، فجعَلَ ما بعده مبتدأً لمّا لم يتأتّ له ما تأتّى لذاك[2] . وقد يفعلون هذا في الحروف المختصّة بالأفعال إذا كان في الكلام دَلالةٌ على المضمر من الفِعل . ألا تَرَى أنّ لوْ يَطلُب الفعل . ثمّ جاء قولُه تعالى : ﴿ قُلْ لو أَنْتم تَملِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ ﴾ . وعلى ذلك جاء إنْ الجازمةُ الدَّالّة على الشرط في وُقوع الاسمِ بعدَه ، وإنْ كان يطلُب الفعلَ عاملاً فيه بالجَزم ، وذلك نحو : إنْ زيدٌ أتاني أكرمْتُه . وقول الشاعر[3] :

* إنْ ذو لُوثةٍ لانا[4] *

وما أشبَهَهُ . فإن قيل : هَلّا جعلتَ المضمرَ بعد هَلّا فعلا رافعاً فيرتفعُ النفسُ به لا بالابتداء ، كما يُفعَل ذلك في : إن زيدٌ أتانِي أكرمته ، فيصير هلّا

(١) هو جرير ، من قصيدة يهجو بها الفرزدق . الخزانة (١ : ٤٦١ — ٤٦٢) .

(٢) هذا الصواب من ل . وفي الأصل : « لما يتأت لذلك » ، تحريف ونقص .

(٣) هو قريط بن أنيف . انظر ص ٢٢ ، ٢٥ .

(٤) البيت بتمامه :

إذاً لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

فى ذلك أجْرَى فى بابِه من أن يكون ارتفاعُه بالابتداء ؟ قلتَ : إنَّ قولَك إن زيدٌ أتانِى أكرمتُه ، ارتفع زيدٌ بفِعلٍ هذا الظَّاهرُ تفسيرُه ، وأكرمتُه جوابُ إنْ ، فساغَ فيه ما لم يسُغْ هاهنا ، لأنه ليس هاهنا شىءٌ يكون تفسيراً لذلك الفعل . وإنَّما جاء بدَلَ الفِعل المفسِّر شفيعُها ، ويكون خبراً لا غير ، وإذا كان كذلك لم يُمْكِنْ حَملُ هذا عليه .

ومعنى البيت : خُبِّرتُ أنَّ ليلَى أرسلَتْ إلىَّ ذا الشَّفاعةِ[١] فى بابها ، تَطلُب به جاهاً عندى ، مستكفية[٢] عن ذِكرِها فى الشِّعْر وعن إتيانها وما يَجرِى مَجراه . ثم قال : هَلَّا جعلَتْ نفْسَها شفيعاً . فقوله « بشَفاعةٍ » حذف المضافَ وأقام المضافَ إليه مَقامه ، الفعلُ الذى يقتضيه هَلَّا دلَّ عليه شفيعُها ، لو قال : هَلَّا نَفْسُها شفيعُها — لـكان أقربَ فى الاستعمال ، إلاَّ أنه قَصَدَ إلى التَّفخيم بتكرير اسمها .

ثم قال : « أأكرمُ مِنْ ليلَى علىَّ » ، فأتَى بلفظ الاستفهام ، والمراد التَّقْريع والإنكار ، كأنَّه أنـكَرَ منها استعانتَها بالغَير عليه ، وطلَبَ الشَّفيع فيما أرادت لدَيه . وقوله « فتبتغِى » فى موضع النصب على أن يكون جوابَ الاستفهام بالفاء . وقوله « أم كنت » هى أم المتَّصله ، كأنَّه قال : أىَّ هذين توهمْتْ : طلبُ إنسانٍ أكرَمَ علىَّ منها ، أم اتِّهامُها لطاعتى لها . وخبر أكرم علىَّ محذوفٌ ، كأنَّه قال : أأكرمُ منها موجود ، [أو[٣]] فى الدُّنيا .

---

(١) ل : « ذا شفاعة » .

(٢) ل : « مستكفة » .

(٣) التكملة من ل .

٤٥٦

وقال آخر[١] :

١ ــ أَمَا يَستَفِيقُ القَلْبُ إلاَّ انبرَى لَهُ ... توهُّمُ صَيفٍ من سُعادَ ومَرْبَعِ

٢ ــ أُخَادِعُ عَن أطلالِها العيْنَ إنَّهُ ... مَتى تَعْرِفِ الأطلالَ عينُكَ تَدْمَعِ

٣ ــ عَهِدتُ بها وَحْشًا عليها براقِعٌ ... وهذِى وُحُوشٌ أصبحَتْ لم تَبرقَعِ

استفاق وأفاق بمعنى صحا . وانبرَى : تعرَّض . وأراد بالصَّيف المَصيف . وقوله « من سعاد » أراد من دار سُعادَ وأَرَضِيها[٢] . و « أَمَا » هى ما النافية أُدخِل عليها ألفُ الاستفهام تقريرًا أو إنكارا . والمراد : لا يحدُث القلبُ بالسُّلوّ والإفاقة ممَّا تداخَلَه من علائق حبِّ هذه المرأة ، وتشبَّثَ به فألْهاهُ عن كلِّ شيء ، إلاَّ اعترضَ له تذكُّرُ مَصيفٍ ومَرْبع من أرَضِيها[٢] بعد التوهُّم . كأنه كان يَقِفُ على منازلها فيتوهَّمُها بآياتها وعلاماتها ، ثم يَعرِفُها . وأكثرُ ما يذكرون التَّوهُّمَ فى الدِّيار يعقِّبونه بالعِرفان دونَ العلم . وهذا أحدُ ما نَفْصِل به بين العِلْم والمعرفة ، ولهذا وأشباهِه نمتنع من أن نصِفَ اللهَ تعالى بأنَّه عارفٌ . لذلك ، قال زهير :

---

(١) كذا فى النسختين . وعند التبريزى : « وقال ابن الدمينة » . والأبيات فى ديوان ابن الدمينة ٢٥ . والدمينة أمه ، وهى الدمينة بنت حذيفة السلولية ، وهوعبد الله بن عبيد ، أحد بنى عامر بن تيم الله بن مبشر بن أكلب بن ربيعة بن عفرس بن خلف بن أفتل ، وهو خثعم بن أنمار . وابن الدمينة : شاعر إسلامى رقيق النسيب ، اختار له أبو تمام فى هذه الحماسة ست مقطوعات ، وكفى ذلك شاهداً على منزلته . انظر الأغانى (١٥ : ١٤٤ — ١٥٠) واللآلئ ١٣٦ والشعراء ٧٠٩ . وقد طبع ديوانه فى مصر سنة ١٣٣٧ بتحقيق محمد الهاشمى البغدادى .

(٢) كذا فى ل بالجمع . وفى الأصل : « بأرضها » بالإفراد .

(٣) صدره : * وقفت بها من بعد عشرين حجة *

* فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بعد تَوَهُّمِ[1] *

وأشباهُه كثير .

وقوله « توهُّمُ صيفٍ » حقيقته أنَّه حذف المضافَ وأقام المضافَ إليه مقامه ، كأنَّه قال : توهُّمُ موضعِ صيفِنا ، فيكون الصَّيف مصدر صِفْنَا بالمكان نَصِيفُ به صَيْفًا . وقوله « مربع » يجوز أن يَكونَ اسمَ المكان .

وقوله « أخَادِعُ عن أطلالها العيْنَ » يريد أنِّي إذا وقفتُ على آثارِ دارِها[٢] وجوانبِ مَحَالِّها رُمْتُ خَدْعَ النَّفسِ والعَين عن تأمُّلها ، تفاديًا مما يتسلَّط من الوَجد بها ، ويتجدَّدُ لى من الصَّبابة نحوَها . ولئلَّا أتذكَّرَ بما أتفرَّسُ فيها أحوالى قِبَلَها ، لأنَّ العينَ إذا عرفَتْها وَكَفَتْ بالدَّمع ، والنَّفسَ إذا تبيَّنتْها أُشقِيت بالوجد .

وقوله « عهِدتُ بها وحْشًا » هذا تحسّرٌ فيما رأى الدَّارَ عليه من الاستبدال وُحوشًا ، فقال : عهِدتُ بها نساءً مبرقَعة — يشير بذلك إلى عَفافها وقلَّةِ تبرُّجها — كالوحشِ كَمالاً وحُسنًا ، ونفُورًا عن الرِّيَب ، وأرى الآنَ وُحوشًا تختلِفُ فيها غير مبرقعة . وفى هذه الطَّريقة قول الآخَرِ :

يَعِزُّ علىَّ أن يُرَى عِوَضَ الدُّمَى   بحافاته هَامٌ وبُومٌ وهِجرِسُ[٢]

وقوله « عليها براقع » صفةٌ للوحش ، وكذلك « أصبحت لم تبرقع » .

٤٥٧

وقال آخر :

١ — فيارَبِّ إن أَهْلِكْ ولم تُرْوِ هامتِي   بلَيلَى أَمُتْ لا قَبْرَ أَعطَشُ من قَبْرِي

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « ديارها » .

(٢) الهجرس : ولد الثعلب.

٢ ــ وإن أكُ عن لَيلَى سَلَوتُ فإنّما   تَسلّيْتُ عن يَأسٍ ولم أَسْلُ من صَبْرِ [1]
٣ ــ وإن يَكُ عن لَيلَى غِنَى وتجلُّدٌ   فرُبَّ غِنَى نَفْس قريبٍ من الفقْرِ

حذف الياء من « يا رب » لوقوعها موقعَ ما يحدث في باب النِّداء ، البتّة ، وهو التنوين ، ولأنَّ الكسرة تدلُّ عليه ، ولإنَّ بابَ النداء بابُ حذْفٍ وإيجاز ، لكثرةِ تردُّدِه في الكلام ، وقوله « أمُتْ » جوابُ الشَّرط . وقوله « لا قَبْرَ أعطَشُ مِن قبرى » الجملةُ في موضع الحال . وقد رُوِى : « تَرْوَ » بفتح التاء ويكون الفعل للهامة ، « وتُرْوِ » بضم التَّاء والفعل لله عزَّ وجلَّ . فيقول متألِّما من بَرْح الصَّبابة ، وعَطَش الاشتياق ، ومتشكِّيا إلى الله تعالى : يا ربِّ إن مُتُّ ولم أنَلْ شِفاءً من دائى ، وريًّا من عطَشِى إلى هذه المرأة مُتُّ ولا قبرَ لعاشقٍ أشدُّ عطشاً من قبرى . وإنما قال : لم ترو هامتى ، لأنَّهم كانوا يزعمون أنَّ عظامَ الموتى تصير هاماً فتطير . والأصلح في هذا المكان أن يكون جَعَلَ نفسَه مُقتَتَلاً لحبِّها . ومعنى « ترو هامَتِى » لم تَطلُبْ دمى من قاتلى ، تبْقَ هامتى أعطش من كل هَامٍ . وكانوا يقولون : إنّه يَخرُج من رأس المقتولِ هامةٌ فتصيح وتقول : اسقونى اسقونى ! إلى أن يُدرَك ثأره .

وإنما آثَرْتُ هذا لتوحيده هامة . والرِّوايتان في تُرْوِ وتَرْوِ معنياهما ظاهران .

وقوله « وإن أَكُ عن ليلى سَلَوْتُ » قد تقدَّم القول في حذف النون من أكن . وجواب الشَّرط قوله « فإنَّما » بما بعده والمعنى : إنْ أكُ في الظَّاهر حَصَلَ لى سُلُوٌّ عنها لمن يتأمَّلُ حالى ، فإنَّما تكلَّفتُ ما ظنّ منِّى سلوًّا لغَلَبةِ اليأس منها علىّ ، فأمَّا نَفْسى فهى كما كانت ، ذَهاباً فيها ووُلوعاً بها . وقوله

(١) التبريزى : « عن صبر » .

« سلوت » معناه طِبْت نفساً . وتسلَّيت معناه تكلَّفت ذلك ، والتَّفعُّل لا يكون إلا عن تكلُّفٍ فى أكثرِ الأحوال ، وكذلك التَّفاعُل ، فأتى بسلَوْت بناءً على ظنِّهم واعتقادهم ، وتسلَّيت بناء على حاله .

وقوله « وإن يَكُ عَنْ ليلى غِنًى » يريد : وإنْ كان ظاهرُ أمرى أنِّى استغنيت عنها بخلوِّ قلبى من حبِّها ، أو أنِّى أتجلَّد للوهْن العارض فى الاشتياق إليها ، فرُبَّ غِنَي نفسٍ يَقرُب من الفقر . والمعنى أنَّ باطن أمرِى بخلاف ظاهرِه . وإنما يُتصوَّر منِّى غِنًى يقرُب من الفقر إذا حَصَل وتُؤُمِّل . ومن روى « أمرٌ من الفقر » فالمعنى ظاهر والفاء من فربَّ بما بعده جواب للشَّرط . وفائدة ربَّ التقليل ، كأنه استقلَّ الحالاتِ التى تشبه حالَه ، فلذلك أتى برُبَّ .

٤٥٨

وقال آخر :

١ ـ يومَ ارْتَحلْتُ برَحْلِى قَبلَ بَرْذَعَتِى ... والعَقْلُ مُتَّلِهٌ والقلبُ مشغولُ
٢ ـ ثم انصرَفْتُ إلى نِضوى لأبْعثَهُ ... إثْرَ الحُدُوجِ الغَوادِى وهو معقولُ

انتصب « يومَ » بإضمار فعل ، كأنَّه أراد : أذكرُ يومَ هذا الأمر والشَّأن . وأضاف اليومَ إلى الفعل تشهيراً له وتعظيماً لما اتَّفق فيه ، وذلك أنَّه باغتَه حديثُ الفِراق وما هَمَّ به المُجتمِعون معه فى النُّجعة من الارتحال ، فلمَّا ورَدَ عليه ما لم يحسَبْه ولم يحدِّثْ نفسَه به توَلَّهَ وخُولط ، حتَّى صارَ لا يدرِى ماذا يأتى عند ما هَمَّ به من تشييعهم ، والتهيُّؤ للسَكونِ معهم ، فقال : أذكرُ يومَ أقبلْتُ أضَعُ الرَّحلَ على الناقة قَبل البَرْذَعة ، وعقلى فاسدٌ وقلبى مشغولٌ بما دَهَمه من الحال . وقوله «مُتَّله» هو مُفْتعِل من الوله ، وأصله مُوْتَلِهٌ ، فأُبدل من الواو تاء كما تقول

فى اتَّقى واتَّجه وما أشبههما ، ثم أدغَم إحدى التاءين فى الأخرى . ويروى : « مختبَلٌ » والخَبْل : الفسَاد .

وقوله « ثم انصرفت إلى نِضوى » تتميم لبيان حالِه فيما انعكس عليه من قَصْدِه ، وفسَد من همِّه ، فقال : ثُمَّ رجعتُ إلى بَعيرى لأقيمَه فى إثْر الظَّعائن الباكرة ، وهو مشدودٌ بعِقاله لم أحُلَّه . وهذا غايةُ ما يقالُ فى انحلال العُقدة ، واسترخاء المُسْكة ، وسُوء الضَّبط وانقلاب القَلْب . ومعنى أبعثه أهيِّجه . والنِّضو : البعير المهزول . والحُدوج : مراكب النِّساء الظاعنة . وانتصب إثْر على الظَّرف .

وقد سلكَ أبو تمَّامٍ هذا المسلكَ فقال :

أصَمَّنِي سِرُّهمْ أيّامَ فُرقتهم ... هل كنتَ تَعرِفُ سرًّا يُورِث الصَّمَما
نأَوْا فظَلَّتْ لوَشْكِ البَين مُقلتُه ... تَنْدَى نَجيعاً ويَنْدَى جسمُه سَقَما[1]
أظَلَّه البينُ حتَّى إنّهُ رجلٌ ... لو ماتَ من شُغْلِهِ بالبَين ما عَلِما

٤٥٩

وقال جِرَان العَودِ[2] :

١ — أيا كبِدًا كادَتْ عَشِيَّةَ غُرَّبٍ ... من الشَّوقِ إثْرَ الظَّاعِنينَ تَصدَّعُ
٢ — عَشِيَّةَ ما فِيمَنْ أقامَ بِغُرَّبٍ ... مُقامٌ ولا فِيمَن مَضَى مُتسرَّعُ

---

(١) فى الأصل : « ويبلى جسمه » ، صوابه فى ل وديوان أبى تمام ٣٠٢ .

(٢) التبريزى : « العود : المسن . والجران : باطن عنق البعير والدابة . ويقال : إن الشاعر سمى بذلك لقوله :

خذا حذرا يا جارتى فإننى ... رأيت جران العود قد كاد يصلح

واسمه عامر بن الحارث . وقال أبو رياش : هى لذى الرمة » . وفى القاموس (جرن) : « وجران العود شاعر نميرى واسمه عامر بن الحارث ، لا المستورد ، وغلط الجوهرى » .

يروى « يا كبِدَا » والمراد يا كبدِى على الإضافة ، ففرّ من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة ، فانقلبت ألفا . ويروى « يا كبدًا » والمراد به كبده وإنْ نكَّرها ، بدلالة أنَّه وصَفها بقوله « كادت عشيَّةَ غُرَّبٍ من الشوق » ... البيت . وهذه الصفة لم تحصلْ إلاَّ لها . والمراد أنَّه تألَّمَ ممَّا دهَمَه من أمر الفراق بعد الاجتماع الحاصلِ فى مواضع الانتجاع ، وكأنَّ المجتمِعين تحزَّبُوا حِزبَين ، ارتحل أحدُهما وصاحبَتُه معهم ، وأقام أحدُهما بالتهيُّؤ والاستعداد وهو فيهم ، فالمتقدِّمون ليس فيهم متسرِّع ، لانتظارِهم المتخلِّفين ، والمتخلِّفون لا مُقامَ لهم لاستعجالهم اللَّحاقَ بهم . فشَكَا الحالةَ الواقعة فى أثناء ذلك ، وهو مع ذلك يحِنُّ ويشتاق . وغُرَّبٌ : موضع[1] . وأضاف العشيَّة إليه تخصيصاً . وفصل بين كاد وبين الفعل الذى تناوله بالظَّرْف على ما اتَّصل به . و « إثْرَ » انتصبَ على الظَّرف من الشَّوق ، و « عشيّةَ » من البيت الثانى بدلٌ من العشيَّة الأولى . وكما أضافَ الاولَى إلى غُرَّب تبيينًا أضافَ الثانية إلى قوله « ما فيمن أقام بِغُرّب » تبيينا ، وهما عشيَّةٌ واحدةٌ وإن اختلف مبيِّنُهما .

٤٦٠

وقال الحُسَين بن مُطَيْرٍ[2] :

١ — لقد كُنتُ جَلْدًا قَبْلَ أن تُوقِدَ النَّوَى على كَبِدى نارًا بطيئًا خُمودُها[3]

(١) فى معجم البلدان : « ماء بنجد ثم بالشريف من مياه بنى نمير » . ثم أنشد هذين البيتين .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣١٩ ص ٩٣٤ . وفى الأغانى (١٤ : ١١٣) عن التوزى قال : قلت لأبى عبيدة : ما تقول فى شعر الحسين بن مطير ؟ فقال : والله لوددت أن الشعراء قاربته فى قوله : مخصرة الأوساط » وأنشد هذا البيت والذى بعده . وقد ساق أبو على القالى أبيات الحسين بن مطير هذه فى الأمالى (١ : ١٦٥) كاملة .

(٣) بين هذا البيت وتاليه عند القالى :

ولو تركت نار الهوى لتضرمت ولكن شوقا كل يوم يزيدها

٢ـ وقد كُنتُ أرجُو أنْ تموتَ صَبابتي إذا قَدُمَتْ أيَّامُها وعُهُودُها

يقول : كنتُ قويَّ النفس ، ثابتَ القلْب ، راجحَ العَقْل ، صبوراً في الشَّدائد ، قبلَ أن بُليتُ بفراق الأحبَّة ، فلمَّا أوقدتْ نيَّتُهم التي انتوَوْها نارَ الصَّبابةِ على كَبِدي فأبطأَ سكونُها ضَعُفت عن الثَّبات لها ، وظهرَ عجزي عن تحمُّلِ أعبائها ، وقد كنتُ أؤمِّلُ إذا أتتَ الأيَّامُ على ما أقاسيه ، واستمرَّت النَّفسُ في التَّألُّم تارةً وفي التصبُّر أخرى ، أن يَتنقَّص ذلك صبابتي ، وأنَّ قِدَمَ الأيَّام وانمحاء العهود يؤثِّر في تسكين نائرتها ، ويُبطِل ما تسلَّطَ عليَّ من أذاها ومكروهِها . وقوله « إذا قَدُمت » ظرفٌ لتموت صابتي .

٣ـ فَقَدْ جَعلَتْ في حَبَّةِ القلبِ والحشا عِهادَ الهَوَى تُولَى بشَوْقٍ يُعِيدُها[1]

يريد أنَّ ما كانَ يرجُوه من سُكونِ صبابته قد ازدادَ ، لأنَّها صَيَّرت في حَبَّة القلب وأحشائه أمطار الهوى ، تُجَدَّدُ وتُتْبَعُ بوَليِّ من الشوق يردُّها كما كانت ، وانتصب « عِهادَ » على أنَّه مفعول أوَّلُ لجعلَتْ . وتُولَى بشوق في موضع المفعول الثاني ، ويُعيدها في موضع الصفة للشَّوْق . ومعنى « تُولى » تُمطَر الوَليَّ . والوَليُّ المَطْرة الثانية لأن الأولى منها تسمَّى الوَسْميّ . والعِهاد : جمع العَهْد ، وهو المطَرَ الذي يجيء ولِمَا تَقَدَّمَه عهدٌ باقٍ لم يَذهب . وحَبَّة القلب هي العَلَقة السوداء في جوفه . ويروى « عهادُ الهوَى — بالرّفع — يُولَى — بالياء — بشوق بَعيدُها ، بالباء[2] » ، فيكون معنى جَعلَتْ طَفِقَتْ وَأقبلت ، ويكون غيرَ متعدٍّ ، ويرتفع عهاد بجعلت ، وبعيدَها يقوم مقام فاعل يُولَى . فيكون المعنى : فقد طفقت أوائلُ هواها يُمطَرُ أبْعَدُها بشوقٍ يجدِّدها .

---

(١) بعده في الأمالي :

لمرتجة الأطراف هيف خصورها عذاب ثناياها عجاف قيودها

(٢) التبريزي : « وثعلب يروى : بعيدها » .

٤ ــ بِسُودٍ نَوَاصِيها وحُمْرٍ أكُفُّها وصُفْرٍ تَرَاقِيها وبِيضٍ خُدودُها
٥ ــ مُخَصَّرةِ الأوساطِ زانَتْ عُقُودَهَا بأحسَنَ ممَّا زَيَّنَتْهَا عُقُودُها
٦ ــ يُمَنِّينَنَا حتّى تَرِفَّ قلوبُنا رَفِيفَ الخُزَامَى بات طَلٌّ يَجُودُها[1]

الباء من قوله « بسودٍ نَواصيها » يجوز أن يتعلَّق بقوله تموت صَبابتى ، ويجوز أن يتعلق بجعلَتْ إذا ارتفع عِهَادُ الهَوى به يريد : جعلَتِ العهادُ تفعل هذا بسببِ نِساءٍ هكذا . وإنَّما جاز أن يجمع سُودٌ وحمرٌ وغيرهما وإن ارتفع ما بعدها بها ، لأنَّ هذه الجموعَ لها نظائرُ فى هذه الأسماء المفردة[2] ، ولو كانت جموعَ سلامة أو ما لا نظيرَ له فى الواحد لما جازَ جمعُه . تقول : مررت برجالٍ ظِرافٍ آباؤهم . ولو قلت : ظَريفِين آباؤهم ، لم يجز .

وقوله « مُخَصَّرة الأوساط » يريد أنَّها دقيقةُ الخصور ، غيرُ واسعة الجنوب وأن قلائدها وحليَّها تكتسب من التزيُّن بها إذا عُلِّقت عليها ، أكثرَ مما تكتَسِبه منها إذا تحلَّت بها .

وقوله « يمنِّينَنا » يصف لَطافتهنَّ فى مواعيدهن ، وتقريبَهنَّ أمرَ الوِصال بينه وبينهنّ ، وأَنَّها لا تزالُ تُمَنِّى وتَضمن من حُسْن الإجابة ما يَصير للقلوب به بريقٌ ونضارةٌ ، كبريقِ الخُزَامى إذا بقى لَيلته يُطَلُّ بالجَوْدِ ، والرَّفيف كثرةُ الماء فى النَّبات ونَضارتُها . ومعنى « حتَّى تَرِفَّ » إلى أن ترفّ .

(١) بعده فى الأمالى :

وفيهن مقلاق الوشاح كأنها مهاة بتربان طويل عقودها

قال أبو على : « يريد موضع العقود ، وهو العنق » .

(٢) ل : « فى الأسماء المفردة » .

٤٦١

وقال أبو صَخْرٍ الهُذَلىّ(١) :

١ـ أَمَا والَّذِى أَبْـكَى وأَضْحَكَ والَّذِى ... أَمَاتَ وَأَحْيَا والَّذِى أَمْرُهُ الأَمْرُ

٢ـ لَقَدْ تَرَكَتْنِى أَحْسُدُ الوَحْشَ أَنْ أَرَى ... أَلِيفَيْنِ منها لا يَرُوعُهُمَا الذُّعْرُ(٢)

تكريره للذى ليس بتكثير للأقسام ، لأن اليمينَ يمينٌ واحدةٌ بدلالةِ أن لها جوابا واحداً ، ولو كانت أيمانًا مختلفة لوجَبَ أن يكون لها أجوبةٌ مختلفة ، وفائدة التَّكرير التفخيمُ والتَّهويل . وعلى هذا إذا قال القائل : واللهِ واللهِ لقد كان كذا ، فاليمين واحدة . وما فى القرآن من قوله : ﴿ واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى . والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ مِثْلُه . على أن ما فى البيتِ من اختلاف الأفعالِ الدَّاخلة فى الصِّلات جعَلَ الكلامَ أحسنَ ، والتَّفخيم أبلغ . وجواب القسم « لَقَدْ تَرَكَتْنِى » ، وفاعل تركتنى ضميرُ المرأة المستكنُّ فيه . والمعنى : أنى إذا تأملتُ الوحوشَ وهى تأتلف فى مراعيها ومُتصرَّفاتها اثنين اثنين ، لا يُفزِّعها رقيبٌ ، ولا يَدْخُل فيما بينها تَنْفِير ، حَسَدْتُها وتمنَّيْتُ أن تكون حالتى مع صاحبتى كحالها فى الآفها .

وقوله « أحسدُ الوَحش » فى موضع الحال ، وأنْ أرى ، فى موضع البَدَل من الوحش . وقوله « لا يَروعُهما » فى موضع الصِّفة لأليفين ، لأن أَرَى من رؤية العين ، ويكتفى بمفعولٍ واحد ، وهو أَلِيفَين .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠٩ ص ٣٢٧ . وقصيدة أبى صخر رواها القالى فى أماليه (١ : ١٤٨ — ١٥٠) .

(٢) القالى : « وقد تركتنى أغبط الوحش » .

٣ — فياحُبّها زِدْنى جوًى كلَّ ليلةٍ ... ويا سَلْوَةَ العُشّاق موعدُكِ الحشْرُ[١]

٤ — عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدّهرِ بينى وبَيْنَها ... فلمّا انقضَى ما بيننا سَكَنَ الدّهْرُ

تَجَلَّدَ فى الهوى وادَّعى اللّذاذةَ به ، حتّى استزادَ من أجزاء الجوَى الحاصلِ له ، وهو داءُ الجوْف ، ما يَتضاعَفُ بتجدُّد الأوقات ، واستَبعَد التّسلِّيَ منها حتّى جَعَل الموعدَ بينهما يومَ النَّشْر . وهذا غايةُ التَّفنِّى فى الهوى ، والتّصبُّرِ على الرَّدَى .

وقوله « عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدّهر » يجوز أن يريد به سُرعةَ تقضِّى الأوقات مُدَّةَ الوصال بينهما ، وأنَّه لمَّا انقضَى الوَصلُ عادَ الدّهرُ إلى حالته فى السُّكون . وهذا على عادَتهم فى استقصار أيَّامِ السرور واللَّهو ، واستطالةِ أيّامِ الفراق والهَجْر . ويجوز أن يريدَ بسَعْى الدهر سِعايةَ أهل الدّهر وإيقادَهم نارَ الشَّرِّ بينهما بالنمائم والوِشايات ، وأنه لمّا فَتَرتْ أسواقُهم بالتّهاجُر الواقع منهُما ، وارتفع مُرادُهم فيما طلَبوه من الفَساد بينهما ، سكنوا . وكما أرادَ بسَعْى الدّهر سَعْىَ أهلِ الدّهر ، كذلك أراد بسُكون الدّهر سُكونَ أهل الدّهر .

٤٦٢

وقال[٢] :

١ — بِيَدِ الّذى شَعَفَ الفُؤادَ بكم ... تَفريجُ ما أَلْقَى من الْهَمِّ[٣]

٢ — وُيقِرُّ عَيْنِى وهى نازِحَةٌ ... ما لا يُقِرُّ بعَيْنِ ذى الحِلْمِ

(١) كتب فى الأصل تحت كلمة « العشاق » : « الأيام » . ورواية التبريزى والقالى : « ويا سلوة الأيام » .

(٢) أى أبو صخر الهذلى . والأبيات بهذه النسبة فى الأغانى (٢٠ : ١٤٧ — ١٤٨)

(٣) الأغانى . « فرج الذى ألقى » . كما أن الرواية فيها « شنف » بالغين المعجمة .

الذى شَعَفَ القلب به من زعمه هو الله تعالى . ومعنى شعف الفؤاد : أصاب شَعَفَتَهُ . وشَعَفَةُ كلِّ شىء أعلاه . وقوله « بكم » أراد بحبِّكم ، ويقال : فلانٌ مشعوف بكذا ، إذا شُغِل قلبُه به وأُصيبَ . وارتفع «تفريج» بالابتداء ، وخبَره بيد الذى ، على طريقة سيبَوَيْه ، وعلى مذهبِ أبى الحسن الأخفَش ارتفع تفريج بالظَّرف ، والمعنى : بيدِ الله الذى ابتلانى بكم ، وشَغَلَ قلبِى بحبِّكم ، كَشْفُ ما أُقاسيه من الهَمّ . وهذا الشّاعر فى الهَوَى على الضِّدّ ممن تقدَّمَ ذكرُه ، لأنّ شكواه فى نهاية القُوّة والعُلُوّ ، كما أنّ التِذاذَ ذاكَ فى نهاية الجِدَّةِ والغُلُوّ .

وقوله « ويُقِرُّ عينى وهى نازحةٌ » يريدُ أنه يسرّه فيها على بُعدها منه مالا يُسَرُّ به عاقل . وإنّما نَبّهَ بهذا على شِدَّة تمنُّعها ، وعلى قُوّة يأسه منها ، حتّى أنه مع البِعاد إذا أخطر بباله شيئاً من أحوالها التى يُشاركه فيها ، عَدَّهُ مَرزِئةً منها[1] ، واستمتاعاً بها . وقد شَرَحَ ذلك فيما بعده . وقد روى بعضهم : « بعَين ذى الحُلْم » بضم الحاء ، وليس بشَىء .

٣ — إنِّى أَرَى وأظُنُّ أن سَتَرَى وَضَحَ النَّهارِ وعالِيَ النَّجْمِ

لك أن تروى « أنِّى » وتجعله فى موضع الرفع بدلاً من « مالا يُقِرُّ » ؛ ولك أن تكسر إنّ ، كأنّك تستأنف شَرْحَ ماقدَّم ، وتفصِّلُ ماأُجمِل . ويكون المعنى : يُقِرُّ عينى أنّى أرى بياضَ النّهار وعالى الكواكب باللّيل ، وهو أضوَؤُها وأعْلَنُها[2] ، وأظنُّ أنّها تُشارِكُنى فى رؤيتها ، فأفرحُ بذلك ، وهذا مّما لا يَفرح به عاقل ، ولا يَعتَدُّهُ لذّةً . ويُروى والمعنى ما بيَّنْتُه ، على غير هذا ، وهو :

إنَّ الذى سأظُنُّ أنْ سَتَرَى وضَحُ النهار وعالِىُ النَّجْمِ

فيرتفع وضَحُ على أن يكون خبر إنّ ، وأتى بِعالىُ النَّجم على أصلهِ فضم

---

(١) رزأه مرزئة : أصاب منه خيرا .

(٢) ل : «وأغلبها» .

الياء منها . والمعنى ذلك المعنى ، إلاّ أنّه زاد الظَّنَّ تراخياً بإدخال السِّين عليه .
ويُروَى :

إنِّى أَرَى وأظُنُّ أن سَتَرَى ٭ وضَحَ النَّهار عَوَالِىَ النَّجم[1]

فينتَصِب وضحَ على الظَّرف ، وعَوالىَ على أنَّه مفعول أرى . والمعنى : أرى الكواكبَ ظُهراً ، فيما أُقاسيهِ من بَرْحِ الهوى ، وأظنُّ أنها ستُمتحن فى حُبِّها لى بمثل ما امتُحِنتُ فى حبِّى لها ، وأنّ أسبابَ الهوى تُفارقنى وتعود إليها ، فتَرى مثلَ ما أرى ، فأفرحُ بذلك وتَطيبُ له نَفْسى ، وهذا مما لا يَفرحُ به عاقل .

٥ ـ ولَلَيْلَةٌ مِنْها تعودُ لنا ٭ فى غَيْرِ ما رَفَثٍ ولا إثْمِ

٦ ـ أَشهَى إلى نَفْسِى ولو نَزَحَتْ ٭ مما مَلَكْتُ ومن بنى سَهْمِ

نبَّهَ بهذا الكلام على تهالكه فى هواها ، وتَناهِى صبابته بها ، وأنَّ اليَسيرَ إذا عاد عليه منها عَدَّه كثيراً . وقد أظهَرَ العَفافَ فى بَلواه ، وأنّه يتمنَّى ما يتمنَّى فيها حلالًا لا حراما ، فيقول : ولَلَيلةٌ من أوقاتها تحصُلُ لنا فى غير فُحْشٍ تُذْكَرُ به ، أو إثمٍ تكتسبُه ، ألذُّ إلى نَفْسِى وأَطْيَبُ فى قلبِى من مِلْكِى كلِّه ، ومن عشيرتى بأسْرِهم .

وقوله « أشهى إلى نفسى » فى موضع المبتدأ ، وهو ولليلةٌ منها . وقوله ولو نَزحتْ شرطٌ فيما تمنَّى حصوله ، وقد فصل بها بين أشهى إلى نفسى و بين ماملكتُ أى وإن بَعُدت تلك الليلة فعادت إلى أُولَى أحوالها فى التَّمنُّع علىَّ والتفصّى منى .

٧ ـ قد كان صُرْمٌ فى المَمات لنا ٭ فَعَجِلْتِ قَبْلَ المَوْتِ بالصُّرْمِ

٨ ـ ولَمَا بَقِيت لَيَبْقَيَنَّ جَوًى ٭ بَيْنَ الجوانحِ مُضرِعٌ جِسْمِى

(١) هى رواية التبريزى ، لكن آخر البيت عنده : « وعالى النجم » .

٩ – فتَعَلَّمِى أنْ قد كَلِفتُ بكم ثُمَّ افعلِى ما شِئتِ عن عِلْمِ

عاد إلى مخاطبتها ، بعد أن تألم مما تألم ، فقال يعتب عليها :

قد كان لنا فى الموت قطيعةٌ وافتراق ، لكنَّكِ لم تصبرى إلى حِين وُقوعه ، ولم تنتظرى نُزولَه ، فتعجَّلتِ الصُّرْمَ قبل الموت ، فلا جَرَمَ أنَّ بين جوانحى داءٌ يبقى مُدَّةَ بقائى فيها ، ويُذيبُ جِسمى ، ويَكسِفُ بالى .

وقوله « ولَمَا بقيتُ » أدخَلَ اللام الموطِّئة للقسم على ما بقيتُ ، وهو مصدر فى موضع الظَّرف ، لِمَا يتضمَّن من معنى الشَّرط . وقوله « ليَبقَيَنَّ جوًى » جوابُ القسم المضمر ، والكلام كأنَّه : لئنْ بقيتُ ليبقَين جَوًى ؛ لأنَّ المعنى : ولَمُدَّةَ بقائى ليبقين جَوًى . فمحصول الكلام يعود إلى ذلك .

وقوله « فتَعَلَّمِى أنْ قد كَلِفت بكم » يضعون تَعَلَّمْ موضعَ اعلمْ ، إلاَّ أنَّ المخاطبَ ليس له فى الجواب أن يقول تعلمْتُ ، لكن يقول : علمتُ . والمعنى : اعْلَمِى كَلَفِى بكم ، وانحطاطى فى هواكُم ، وكُنْهَ ما أقاسيه فى حُبِّكم ، ثمَّ آثِرِى فى بابى ما أردتِ بعد عِلمك بالحال ، لأنَّ الذى أطلبُه رضاكِ ، ثمَّ لا أبالِى بما يَلحقُنى من بقاء أو فناء ، أو سَرَّاء أوْ ضَرَّاء .

٤٦٣

وقال آخر(١) :

١ – إنَّ التى زَعَمتْ فؤادَك مَلَّها خُلِقَتْ هَواكَ كما خُلِقتَ هَوًى لها

٢ – بَيضاء باكَرَها النَّعيمُ فصاغَها بَلَباقَةٍ فأدقَّها وأَجَلَّها

يقول : إن المرأةَ التى ادَّعتْ عليكَ مَلالَ قلبك منها ، وإعراضَكَ عنها ،

(١) وكذا وردت الأبيات بدون نسبة فى أمالى القالى (١ : ١٥٦) . وعند التبريزى = « وقال آخر . قال أبو رياش : هى لابن أذينة » وابن أذينة هذا هو عروة بن أذينة .

ونيّتك فى استبدالك بها ، خُلِقَتْ هَوًى لك كما خُلِقْتَ أنتَ هوًى لها .
والمعنى أنَّ دَعواها تَجَنٍّ منها ، وتسخُّطٌ لما يظهر من شَغَفك بها ، وهى لك لا انفكاكَ لقلبك مِن عشقها ، كما تدَّعى أنَّها لك بهذه المنزلةِ ، فأنتَ تهواها كما أنَّ تلك تهواك ، لا مِرْيَةَ فى ذلك ولا شَكَّ .

وقوله « بيضاء باكَرَها النعيم » يريدُ أنَّها نشأت فى النِّعمة والنَّعمة ، وأنَّ خَفْضَ العيش ربّاها وحَسَّن خَلْقَها بِحِذْقٍ ولباقة ، فجعَلَ محاسنَها مرتَّبةً بين ما يُسْتَحَبُّ دِقَّتُها ، وبين ما يُسْتَحَبُّ فخامتُها . ومعنى « باكرها » سَبَق إليها فى أوَّل أحوالها ؛ لأنَّ البكور : اسمٌ لابتداء الشىء ؛ على ذلك باكورةُ الربيع .
واللباقة : الحِذْق ؛ يقال : هو لَبِقٌ ولَبِيقٌ ، أى حاذق . ومعنى أدقَّها وأجلَّها : أتى بها دقيقةً جليلة ، فمَا يُسْتَحَبُّ دِقّتها منها مثلُ الأنف والعين والثَّغر والخَصر جَعلها دقيقةً ، وما يُسْتَحَبُّ جَلالتُها منها مثل الساق والفَخِذ والعَجُز والصَّدْر جَعَلها جليلة . وهذا كما قال الآخر[1] :

فَدَقَّتْ وجَلَّتْ واسبَكَرَّتْ وأُكْمِلَتْ فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسنِ جُنَّتِ

وكما قال :

يَمَانِيَةٌ تُلِمُّ بِنا فتُبْـــدِى دَقيقَ محاسِنٍ وتُــكِنُّ غَيْلَا[2]

٣ — حَجَبَتْ تَحِيَّتَها فقلتُ لِصَاحِبِى ما كانَ أَكْثَرَها لَنَا وأقَلَّها

٤ — وإذا وَجَدْتُ لها وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ شَفَعَ الضَّمِيرُ لها إلىَّ فَسَلَّها[3]

كأنّها لمّا لامَتْه فى مَلالِه وظُهور التسلّى منه ، هجرَتْهُ وأقبلتْ لا تَقبلُ تحيَّةً[4] ولا تردّ جوابَها . فيقول : لمّا أعرضَتْ وتحجَّبَتْ عن رسُلى ، وأظهرت

---

(١) هو الشنفرى . البيت ١٢ من المفضلية ٢٠ .
(٢) البيت لوضاح اليمن . سبق فى ص ٦٤٣ .
(٣) التبريزى : « شفع الضمير إلى الفؤاد » .
(٤) كذا فى ل . وفى الأصل : « تحية » .

اطِّرَاحَ وُدِّى ، قلتُ متأسِّفًا ومتعجبًا : ما كان أكثرَها لنا حينَ كانت متوفِّرة علينا وما أقلَّها لنا السَّاعةَ وقد زَهِدَتْ فينا هذا الزُّهدَ المُسْرِف ، وضَجِرَتْ بنا الضجَرَ المُفْرِط . والذى استكثَرَه واستقلَّه هو نَيلها ومَيْلها . هذا إذا جعلتَ الضمير من « أكثرها » و « أقلها » راجعاً إلى المرأة ، ويجوز أن يرجع الضمير إلى التحيَّة ، والمراد : ما كان أكثرها لنا لو حَصَلَتْ ، إذْ كان فيه مِسَاكُ أَرْمَاقِنا ، وحياةُ قلوبنا . وما كان أقَلَّها فى نفسها . وهذا كما قال الآخر :

إنّ ما قَلَّ مِنكِ يَكثُرُ عندى وكثيرٌ ممّن يُحَبُّ القليـــلُ

وقوله « وإذا وجدتُ لها وساوس سلوة » يبيِّن به استحكامَ حُبِّها فى قلبه ، وأنه كلّما تداخَلَهُ ضَجَرٌ بِدَلَالِها وتأبِّيها ، فحدَّثَ نفسَه بالتَّسلِّى عنها والتَّصبُّر دونَها ، أقبلَتْ دَواعِى المَيل إليها ، والأسبابُ المتسلِّطة على قلبه والمشتملةُ على لُبِّه ، ولها تَشَفُّعٌ وتَعَصُّب ، فنزعتْ ما خطَر ، بالبال من ذلك ، وصارت شوافعُ الضّمير أغلب على تدبيره ، وأمْلَكَ لمتصرّفاتِه ، حتَّى يصير الحُكْمُ لها ، والغَلَبُ لقضاياها . وفى طريقته قول كثيِّر :

أُرِيدُ لأَنسَى ذِكْرَها فكأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِى لَيْلَى بكُلِّ سبيلِ

٤٦٤

وقال آخر :

١ ــ أَمَا والّذِى حَجَّتْ له العَيسُ وَارْتَمَى لِمَرْضاتِه شُعْثٌ طوِيلٌ ذَمِيلُها

٢ ــ لَئِنْ نائباتُ الدَّهرِ يَوْمًا أَدَلْنَ لِى على أُمِّ عَمْرٍو دَوْلةً لا أُقِيلُها

افتتح كلامه بأمَا ، ثمّ أقسمَ بالله ، لأنّ الذى قصدَت العِيسُ بيتَه ، وطلبتِ الحُجَّاج الغُبْرُ الوجوهِ الطِّوالُ الذميل مَرْضاتَه ، هو الله تبارك وتعالى .

واللام من « لئن » هى الموطِّئة للقَسَم ، وجواب القَسَم « لا أُقيلها » .
والمعنى : والله لَئِن جَعَلَتْ نوائبُ الدَّهر لى دَولةً على أمِّ عَمرٍو لَعَدَدْتُ ذلك ذنباً لا أقيلُها منه . فالضمير من لا أقيلها يرجع إلى النائبات ، كأنَّ لذَّته كانَ فى الهوى ، وأن يكون لتلك عليه البَسطةُ فى الأمر ، والتمــكُّن(١) من التصريف فيما يَسُوءُهُ أو يسرُّه ، فإذا تغيَّر الأمرُ عن ذلك عَدَّهُ شَقاءً وَضرراً فادحاً . وهذا الوجه حسن . ويجوز أن يكون الضّمير يعود إلى المرأة ، فيكون المعنى : إنِّى إنْ صارت لى اليَدُ عليها ، وجعلتُ أَمْلكُ من أمرها مثلَ ما تملكُ من أمرى جازيتُها حينئذٍ بما تعاملُنى به كَيْلَ الصَّاع بالصَّاع ، وتركتُها لا أنعشُها من صَرعتها ، ولا أُقيلها عَثْرَتها . وهذا المعنى إذا قايستَه إلى ما تَقدَّم ذكرُه كان منحطًّا عنه ، وواقعاً دونه ، وفيه إظهارُ العجزِ عن مكابَدة الصَّبابة ، والتَّصريحُ بسوء المَلَــكَة . ومثل هذه الطريقةِ لا يرتضيها أربابُ الهوى ، والحُــكّام على مُدَّعِى العشقِ ولهم .
ومعنى « أدلْتنى » جعلْنَ لى دولةً . ويُرْوَى : أَدَرْنَ لى » فينتصب دولة على أنّه مفعول به . والدَّائرات كالدائلات لا فَصْل . ومَنْ روى « أَدَلْنَ لى » انتصب دولةً على أنَّه مصدر ، فيكون موضوعاً موضعَ الإدالة . ويقال : أدالك اللهُ من عَدُوِّك ، أى جَعَل لك عليه دَولةً .

٤٦٥

وقال آخر :

١ ـ وكُنتَ إذا أرسلتَ طَرْفَكَ رائِدًا لقلبك يَوْماً أَتْبَعَتْكَ المناظِرُ
٢ ـ رأيتَ الذى لا كُلُّهُ أنتَ قادِرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ(٢)

(١) ل : « والتمكين » .
(٢) ل : « الذى ما كله » .

الرَّائد : الذى يتقدَّم القومَ فيطلبُ لهم الماء والكلأ ، ولذلك قيل فى المثل : « لا يكذِبُ الرَّائدُ أهلَه » لأنَّه إن كذَبَهُمْ هَلَكَ معهم . فيقول : إنك إذا جعلتَ عينَك رائدًا لقلبِكَ تطلُب له مَصبَّ هواه ، ومقرَّ لهوه وصِباه ، أتعبَتْكَ مناظرُها فى مَطالبِك ، وأوقعتْك مواردُها فى أشقِّ مكارِهك ؛ وذلك أنها تهجم بالقلب فى ارتياده لها على ما لا يصبِر فى بعضه على فراقه مع مهيِّجات اشتياقِه ، ولا يقدرُ على السُّلوّ عن جميعِه مع تذكر غرائب الحسن منه ، فهو الدَّهرَ ممتحَنٌ ببلوَى ما لا يَقدرِ على كلِّه ، ولا يصبرُ عن بعضه . والجناية فيهما للعين ، لكونها قائداً للفؤاد إلى الرَّدَى وسائقاً ، وهادياً لدواعى الحبِّ إليه وحاديا .

وقد ألمَّ بهذا المعنى أبو تمّام حيث يقول :

لم تَطْلُعِ الشمسُ المضيئةُ مُذْ رَأَتْ عَيْنِي خِلَالَ الخِدْرِ شَمْسًا تَغْرُبُ
لَأُعَذِّبَنَّ جُفُــونَ عَيْنِي إنّما بجفُونِ عينى حلَّ ما أتعذَّبُ(١)

وأبين من هذا قول الآخر :

أَلَا إنمـا العينانِ للقلبِ رائدٌ فمـا تَأْلَفُ العَيْنَانِ فالقلب يَأْلَفُ

وقوله « رائداً » انتصَب على الحال ، وجواب إذا أرسلت « أتعَبَتْكَ المناظر » . وقد حَصَل خبر كنت فيه ومعه . وقوله « رأيت الذى » تفصيلٌ لما أَجْمَلَهُ قوله « أتعبتْك المناظر » .

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « حال ما أتعذب » .

٤٦٦

وقال الصِّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القُشَيْرِىّ[١] :

١ — أقولُ لصاحِبِى والعيسُ تَهْوِى   بِنا بَيْنَ المُنيفَـــــةِ فالضِّمارِ[٢]

٢ — تَمَتَّعْ من شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ   فما بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

العَيَسُ : بياضٌ فى ظُلْمة خفيّة . والعرب تجعلُه فى الإبل العِراب خاصَّة . والمُنِيفَةُ : موضعٌ ، أو هَضْبَة مرتفعة[٣] . ومنه : أنافَ على كذا ، أى أشْرَفَ ، وقولهم : مائةٌ ونَيِّفٌ . والضِّمارُ : مكانٌ أو وَادٍ منخفضٌ يُضْمِرُ السَّائرَ فيه ، لذلك قال الأعشى :

نُرانَا إذا أضمرَتْكَ البِلَا   دَ نُجْفَى وَتُقْطَعُ مِنَّا الرَّحِمْ

ومنه قيل للعِدَة المُسَوَّفَةِ : الضِّمار ، وقيل لما لا يُرْجَى رُجُوعُهُ من المال : الضِّمار . قال :

* وعَينُه كالـكالِئ الضِّمارِ[٤] *

يذمُّه بأنّ حاضرَه كغائبه . يقول : إنِّى أُجارِى رفيقى وأُباثهُ قِصَّتنا ، والرَّوَاحِلُ تُسرعُ بين هذين الموضعين ، وأقولُ فى أثناء ذلك متلهِّفاً : استمتِــعْ بشمِّ عَرار نجد ، فإنّا نعدَمُهُ إذا أَمْسَيْنا بخروجنا من أَرْضِ نجدٍ ومنابتِه .

---

(١) التبريزى : « وقال آخر » . « الصمة هذا غير والد دريد . وقد سبقت ترجمة الصمة ابن عبد الله فى المقطوعة ٤٥٤ ص ١٢١٥ .

(٢) اللآلئ ١٤٠ : « تخدى » . والأبيات فى زهر الآداب (٣ : ١٠٣) ومعجم البلدان (الضمار ، المنيفة) بدون نسبة . ونسبت فى معاهد التنصيص (٢ : ٨٥) للصمة ، ثم قال : وقيل : الأبيات لجعدة بن معاوية بن حزم العقيلى » . وفى الوساطة ص ٣٤ ستة أبيات منها بلا غزو .

(٣) فى معجم البلدان أنه ماء لتميم على فالج ، بين نجد واليمامة .

(٤) انظر مقاييس اللغة (٥ : ١٣٢) .

والشَّمِيمُ : مصدر ، وأكثر ما يجيء فعيلٌ مصدرًا فى الأصوات ، كالصَّهيل والشَّحِيجِ ؛ ومثله العَذِيرُ والنَّكِيرُ . ويقال : تَمَتَّعْتُ بكذا ومن كذا . والعَرَار : بقلةٌ صفراء ناعمةٌ طيِّبة الرِّيح ، والواحدة عَرَارَةٌ . قال الخليل : العَرَارَةُ البهَارَةُ البرِّيّة ، وقيل هو شجر . وقد شُبِّه لونُ المرأةِ بها . قال الأعشى :

بَيْضَاء صَحْوَتَها وصف راء العشيَّةِ كالعَرارَهْ

وقوله « مِن عِرارِ » مِن لاستغراق الجِنس ، وموضع « من عرار » رفع على أن يكون اسمَ ما . والواو من قوله « والعيس تهوى بنا » واو الحال ، وموضع « تمتَّعْ من شَمِيمِ » نصبٌ لأنّه مفعول أقولُ . وقوله « بين المُنيفة فالضِّمار » أجود الروايتين « بين المُنيفة والضِّمار » ، لأنّ بينَ يدخُل لشيئين يتباين أحدُهما عن الآخَرِ فصاعداً ، وإذا كان كذلك لا يكتفى بقوله المُنيفة فيُرتّب عليه الضمار بالفاء العاطفة ، اللهمَّ إلا أن تجعلَ بين الأجزاء « المنيفة » فتصير المنيفة كاسم الجمع ، نحو القوم والعَشِيرة وما أشبههما . وعلى هذا حُمِل قولُ امرئ القيس :

* بين الدَّخُول فحَوْمَلِ[1] *

وكان الأصمعى يردُّه ويرويه بالواو .

٣ ــ أَلَا يا حَبَّذَا نَفَحَاتُ نَجْدٍ ورَيَّا رَوْضِهِ غِبَّ الْقِطَارِ[2]

٤ ــ وَأَهْلُكَ إِذْ يَحُلُّ الحَيُّ نَجدًا وأنتَ على زمانك غَيْرُ زَارِ

٥ ــ شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وما شَعَرْنَا بأنصافٍ لهنّ ولا سِرَارِ[3]

---

(١) البيت أول معلقة امرئ القيس . وهو بتمامه :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٢) ل والتبريزى : « بعد القطار » .

(٣) ضبطت السين بالفتح والكسر فى الأصل والتبريزى . وسيأتى فى التفسير أن الأفصح الفتح .

أَلَا : حرفٌ لافتتاح الـكلام ، والمنادَى فى يا حبَّذا محذوف كأنه قال يا قومِ أو يا ناس ، حَبَّذا نفحات نجد . وارتفع نفحاتُ بالابتداء ، وخبرُه حبَّذا ، كأنه قال : محبوبٌ فى الأشياء نَفَحَاتُ نَجْدٍ ، وهو تَضَوُّعُ الرِّياح بالنَّسيم الطيب . ويقال : له نفحةٌ طيِّبة وخبيثة . وقوله « رَيًّا روضِهِ » يراد بها الرَّائحة هنا . وارتفع قوله « وأهلُك » عَطْفًا على ورَيّا ، وهما جميعاً معطوفان على « نفحاتُ » وكأنَّ قال : وحبَّذا أزمانُ أهلِكَ حينَ كانوا نازلين بنجدٍ وأنت راضٍ مِن الزَّمان ، لمساعدته إيّاك بما تهواه وتريده ، فلا تَعيبُه ولا تَشكوه . ويقال : زَرَيْتُ عليه ، إذا عِبْتَ عليه ؛ وَأَزْرَيْتُ به ، إذا قَصَّرْتَ به . وقوله « وأنت » الواو واو الحال ، وارتفع « شهورٌ » على أنّه مبتدأ ، وهو تفسير الزَّمان الذى حَمِدَهُ وتلهَّفَ على انقضائه . وقوله « ينقضين » خبره . ويجوز أن يرتفع شهور على أنَّه خبر مبتدإٍ محذوف ، وما ينقضين حينئذ يكون صفةً له . وقوله « وما شَعَرْنَا » أى ما عَلِمْنَا . يقال : شِعْرَةً وشِعْرًا . ومنه الشِّعْر . يقال : شَعَرَ الرَّجُلُ ، إذا قال الشِّعر ، فَشَعِرَ بكسر العين أى صار شاعِراً . وسَرَارُ الشَّهر : آخِرُه ؛ لأن القمرَ يَسْتَتِرُّ فيه . وقد حُكِيَ كسر السين فيه ، وليس بكثير . والمعنى : يا قومِ ، محبوبٌ فيما تقَضَّى نسيمُ أرواح نجدٍ وروائح رياضِه عقِبَ إتيان المطَرِ عليه ، وهزِّ الريح لنباتها . ومحبوبٌ أيضاً زمان أهلِكَ وإقامَتُهم بنجدٍ ، حينَ كنتَ تشكُر وقتَك وترتضيه ، إذْ كانت شهورُه وأيَّامُه تنقضى وأنتَ لا تشعُر بأنصافها ، ولا بأوائلها وأواخِرِها ، لاشتِغالِك بلهوك ، وذَهابِك فى غَفلتك . وهم يَستقصِرُون أيَّامَ السَّلامة والسَّعادة ومواصلةِ الأحبَّة ، وعندَ طاعةِ الدَّهرِ والأقدارِ لهم ، كما يستطيلون ما كان على خِلافه من الشُّهور والأعوام .

٤٦٧

وقال آخر :

١ — ومما شَجَانى أنَّها يومَ أعْرَضَتْ   تولَّتْ وماءُ العينِ فى الجفن حائرُ
٢ — فلمَّا أعادَتْ مِن بعيد بنظرةٍ   إلىّ التفاتًا أسْلمَتْه المحاجِرُ

يقول مُلِمًّا بالمعنى الذى شرحه أبو تمّام حين قال :

لأودِّعنّكَ ثُمّ تَدمَعُ مُقْلَتِي   إنّ الدُّمُوعَ هى الوَداعُ الثانى

يقول: وممّا حزننى وصار نَصْبَ عَيْنى وحِلْفَ قلبى[1] تُذَكِّرُنيهِ الأحوالُ فلا أنساه ، وتمثِّله لناظرى الأوقات فلا أتغاباه ، أنّ صاحبتى يومَ الفِراق عند الوَداع أعرضَتْ لى ودَمْعُها يترقرق فى جَفْنِ عينها ويتحيَّر ، لامتلائها به ، إلّا أنّها كانت تَحبِسه فلا تُسيله ، فَلمّا أعادت التفاتَها إلىّ بعد إعراضها عَنِّى ، بنظرة جَدَّدَتْها ، أسلمتْ محاجرُ عينِها ما اجتمع فيها من الدَّمع ، فتَحَدَّرَ فى مدامعها؛ لأنّ ذلك كوداعٍ ثانٍ منها ، وكَمُتْعةٍ مَتَّعَتْنى بها وزيادَةٍ زادٍ فى الحب زوَّدتْنيها. وقوله « أنّها » مبتدأ و « مما شجانى » خبره . ويقال : شجاه يشجوه شَجْواً فَشَجِىَ يَشْجَى ؛ فهو شَجٍ . وحار الماء والدَّمع ، إذا تحيَّرَ فى موضعه وقد ملأه فلا موضعَ له . وقوله « أَعْرَضَتْ » : أبْدَتْ عُرْضها . وخبر أنّ تولَّتْ .

وقوله «فلما أعادت» يجوز أن يكون التفاتًا مفعولَ أعادَت ، وموضع بنظرةٍ حالاً ، كأنّه قال : لما أعادت التفاتَها ناظرةً من بعيدٍ إلىَّ أسلمَتْه . وجواب لمّا « أسلمْته » ، وإلىّ تعلق بنظرةٍ . ولا يجوز أن يتعلق بالتفاتا ، لأنّه إذا جُعِل

[1] هذا ما فى ل . وفى الأصل : « خلف قلبى » .

كذلك يكون صلةَ المصدرِ وقد قُدِّمت على الموصول . ويجوز أن يكون بنظرةٍ في موضع المفعول لأعادت ، والباء إن شئتَ جعلتَها زائدة ، وإن شئتَ جعلتَها مؤكِّدة ، كما جاء في قول الآخر[1] :

* سُودُ المحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ[2] *

ويصير « التفاتاً » مصدراً في موضع الحال ، والتقدير : لما أعادت نَظرتَها من بعيدٍ إليَّ ملتفتةً أسلمَتْه . والهاء من أسلمَتْهُ للدَّمع كما قدمْتُه والمَحاجر : جَمْع المَحْجِر ، وهو ما يبدو من نِقاب المرأة إذا تنقَّبت . والكَيَّةُ حَولَ العينَين[3] يقال لها : التَّحجير . ويقال : حَجَّرَ القمرُ ، إذا استدار حوله خط رقيق .

٤٦٨

وقال آخر :

١ ـ ولَمَّا رأيتُ الكاشِحِين تَتَبَّعُوا هَوَانَا وأبدَوْا دُونَنا نظَرًا شَزْرَا

٢ ـ جَعلتُ ومابي من جَفاءٍ ولا قِلًى أزورُكُمْ يَوْماً وأهجُرُكمْ شَهْرَا

الكَشحُ : مابين الخاصرة إلى الضِّلع ، والكاشح : العدوّ الباطن العداوة . ويقال : هو بيِّن الكَشاحة والمكاشحة : ويقال : طَوَى فلانٌ كَشْحَهُ على كذا ، إذا استمرَّ عليه . وهذا كلامُ مُبْقٍ على المحبوب ، كارِهٍ لانتشار القالَةِ فيهما ، مختارٍ لاستتار الهوى بينهما . فيقول : لما رأيتُ الوشاةَ يتتبَّعون أحوالَنا بالنَّميمة وإفشاء أسرارنا ، وأخذوا ينظُرُون إلينا نظَرَ الأعداء بتحديقٍ شديد ،

(١) هو الراعي النميري ، أو القتال الكلابي . انظر ما سبق في حواشي ٣٨٣ ، ٥٠٠ ، ٦٠٦ .

(٢) صدره : * هن الحرائر لا ربات أحمرة *

(٣) ل : « العين » .

واستكشافٍ لما خَفِيَ من أمرنا بليغ ، أقبلْتُ أحترزُ وأقصِّر أشواطَهم فيما يَنْتَحونه من مَساءتنا ، والقعودِ والقيامِ بذكرنا ، فأتأخَّرُ عن زيارتكم شهراً وأوافيكم يَوْمًا ؛ هذا ولا أقصِدُ جفاءً ولا أُضمر بغضاً ، وإنَّما بى مُضىُّ أيَّامنا بالسَّلامة منهم ، وردُّ كيدِهم فى نحورهم ، ولئلّا يجدوا مقالا فيُركِّبون عليه قصصاً وأنباءً .
وقوله « نظراً شزْراً » يقال : هو يَشْزِرُ الطّرفَ إلىَّ ، إذا نظَرَ نظراً منكَراً يتبين فيه العَداوة . قال أوس(١) :

إذْ يَشْزِرُونَ إلىَّ الطرفَ عن عُرُضٍ ... كأنّ أعينَهُمْ من بِغْضَتِى عُورُ

وقوله « جعلتُ » لا يحتاج إلى مفعول لأنَّه فى معنى طفِقْتْ وأقبلتُ . وانتَصب يوماً وشهراً على الظَّرف ، و « تتبَّعوا هوانًا » فى موضع المفعول الثانى لرأيت .

٤٦٩

وقال بعض القرشيِّين(٢) :

١ — بَيْنَما نحنُ بالبَلاكِثِ فالقا ... عِ سِراعًا والعِيسُ تَهْوِى هَوِيًّا(٣)
٢ — خَطَرَتْ خَطْرَةٌ على القلبِ مِنْ ذِكْ ... راكِ وَهْنًا فما استطعتُ مُضِيًّا
٣ — قلتُ لبَّيكِ إذْ دعانى لك الشَّو ... قُ وللحادِيَيْنِ كُرَّا المَطيًّا(٤)

(١) أوس بن حجر . ديوانه ص ٩ .
(٢) التبريزى : « وهو أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة ، خرج إلى الشام ، فلما كان ببعض الطريق ذكر امرأته صالحة بنت أبى عبيدة بن المنذر بن الزبير ، وكان شديد الحب لها ، فضرب وجوه رواحله إلى المدينة وقال : بينما نحن بالبلاكث . فلما رأت رجوعه من أجلها وسمعت الشعر قالت لا جرم والله لا أستأثر عليك بشىء ! فشاطرته مالها ، وكانت تضن عليه بمالها » . وأنشد ياقوت فى (البلاكث) بيتاً لكثير ، ثم قال : « وقال أيضاً » ، وأنشد الأبيات ، فهى عنده منسوبة لكثير .
(٣) ابن جنى فى التنبيه : « فى بلاكث بالقاع » .
(٤) التبريزى وياقوت : « حثا المطيا » .

قد تقدَّم القول فى « بينا » و « بينما » جميعاً[١] ، وأنَّهما يستعملان فى المفاجأة . وانتصب « سراعا » على الحال ، لأنَّه جعل بالبلاكث مستقرًّا . والواو من قوله « والعيسُ » واو الابتداء وهو للحال أيضاً .

وقوله « خطرَتْ خطرةٌ »[٢] هى الحالة التى فاجأتْهم . وانتَصَب «وَهْنًا» على الظرف ، ومعناه بعد ساعةٍ من الليل . وقوله « خطرت خطرة » ، يقال : خَطَرَ ببالى خُطُوراً ، وخَطَر البعيرُ بذنبه خَطَرَاناً . ويقال : سَنَح لى سانحٌ ، وهجس هاجِسٌ ، وخَطَرَ خَاطِرٌ . وكأنه أجرى خطرَتْ خَطَرةٌ مجرى قوله : دعَتْ دَعْوَةٌ من ذِكراكِ ، لقوله : « قلت لبّيكِ إذْ دَعانى لكِ الشَّوْقُ » . والشاعر وَصَفَ ما هو عليه من طاعة الهوى ، وأنَّه فى مَلَكته ، إذا دعاه أجابَ حتَّى لا يقدرُ إلَّا على ذلك . فيريد : بينما نحنُ بهذين الموضعين نسيرُ مُسرِعين ، والرَّواحلُ تَهْوِى بنا فى أثنائهما ومعاطفهما ، وتقطع المسافة بينهما ، خطرَتْ ذِكرةٌ ببالى ، وقد مضى من اللَّيل ساعةٌ ، فتحيَّرتُ حتَّى لم أقدِرْ على التوجُّه فِى المقصِد الذى كنتُ أؤمُّه ، وحتَّى لم أملك إلَّا إجابةَ داعِى الشَّوق إليك بالتَّلبيةِ والوقوفِ له ، وبعدَ ذلك قلتُ للحادَيين : انْصرِفَا واعطِفا برؤوس مَطيِّكما ، فقد مَنَع ما طاعَتُهُ أوجبُ ، ودفعَ فى صدورنا مَنْ أمْرُه أنفذُ .

وقد تقدَّم الفرق بين الهَوَىّ والهُوِىّ[٣] .

وقوله « بالبلاكث فالقاع » رتَّبَ القاعَ على البلاكِث بالفاء العاطفة ، كأنه ارتقَى منها إليها ، ويجوز أن البلاكث اسم لبقاعٍ مختلفة ؛ لأن بناءه بناء الجمع . وقوله « لبَّيْك » هو من ألَبَّ بالمكان ، إذا أقامَ ؛ إلاَّ أنَّه لا ينصرِف كما أنَّ سبحان الله لا ينصرف . والكلمة مُثنَّاة عند سيبويه ، والمراد عنده إقامةٌ

(١) انظر ما مضى فى الحماسية ٤٤٩ ص ١٢٠٣ .

(٢) الكلام بعده إلى « خطرت خطرة » التالية : ساقط من ل .

(٣) انظر ما سبق فى ص ٩١ .

للدَّاعى تتبعها إقامة ودوامٌ على طاعتِه ومتابعته . ويُقرَن بها سَعْدَيْك ، المعنى : مساعدةٌ بعد مساعدة واستمرارٌ على مشايعته . وحصلَ التَّكثير والاتِّصال فيه بالتثنية ، كما حصل بالتَّكرير فى قولك : ادخُلوا الأوّلَ فالأوّل . قال سيبوَيه : أخبرنا أبو الخطَّاب أنَّه يُقال للمُداوِم على الشَّىء لا يُقلِع عنه ولا يفارقُه : قد ألبَّ عليه . أنشد للتثنيه فيه قولَ الشَّاعر :

دَعَوْتُ لِمَا نابَنِى مِسْوَرًا فَلَبَّى فَلَبَّىْ يَدَىْ مِسْوَرِ (١)

هكذا روايتُه وإنشاده عن العرب بهذا اللَّفظ . وحُكى أيضًا عن بعضهم : لَبِّ بالكسر ، يجعله صوتًا مثل غاقِ . وعند يُونُس أنَّه موحَّد لَبَّى ، وانقلبَ ألفُه ياءً كما انقلب فى عَلَى وَلدَى عند الإضافة إلى مضمر . وعلى مذهبه يجب أن يكون « فلبَّى يدَى » كما أنّ عَلَى وإلى وَلدَى إذا أضيفت إلى الظَّاهر لا يتغيَّر ألفها . تقول : على زيدٍ وإلى عَمْرٍو .

٤٧٠

وقال آخر (٢) :

١ — اسْتَبْقِ دَمْعَكَ لا يُودِ البكاءُ بِهِ واكْفُفْ مدامعَ من عينيكَ تَسْتَبِقُ

(١) البيت من أبيات سيبويه الخمسين التى لم يعرف لها قائل . سيبويه (١ : ١٧٦) ، والخزانة (١ : ٢٦٨) .

(٢) التبريزى : « وقال ابن هرمة » . وهو إبراهيم بن على بن سلمة بن هرمة الفهرى ، كان من الشعراء المعاصرين لجرير . وكان الأصمعى يقول : ختم الشعر بابن هرمة ، وحكم الخضرى ، وابن ميادة ، وطفيل الكنانى ، ودكين العذرى . وفى الأغانى (٤ : ١١٣) : « ولد ابن هرمة سنة تسعين وأنشد أبا جعفر المنصور قصيدته التى يقول فيها :

إن الغوانى قد أعرضن مقلية لما رمى هدف الخمسين ميلادى

ثم عمر بعدها مدة طويلة » . وقد ذكر ابن جنى فى المبهج ٥٥ أن مأخذ هرمة من الهرم ، بالفتح ، وهو ضرب من النبت . وانظر الخزانة (١ : ٢٠٣ — ٢٠٤) واللآلئ ٣٩٨ والشعراء ٢٧٩ — ٣١٧ .

٢ ــ لَيس الشؤُون وإن جادَتْ بباقيةٍ ولا الجفُونُ على هـذَا ولا الحدَقُ

قوله « لا يُودِ البكاء به » يجوز أن يكون جوابَ الأمر ، ويجوز أن يكون نَهْيًا وهو أحسَنُ وإنْ لم يكن معه حرفُ العطف ، وذلك لأنَّه قد ذكر بعده « وا كفُفْ مدامعَ من عينيْك » ولم يأت له بجواب ، كأنَّه أمرَه باستبقاء الدَّمع ، ونهاه عن التَّهالُك فى البُكاء فيفسِدَ عليه آلتَه . ثمَّ أمرَه بكفِّ المدامع وهى تستبق . وإذا كان الكلام نَهْيًا بعد أمرٍ وأمراً بعد نَهْيٍ ، كان أبلغ . ومعنى أوْدَى بكذا أهلكه . والاستباق فى المدامع مجازٌ ؛ لأنَّ الذى استَبَق فى التحدُّر هو الدَّمع . والمَدْمَعْ : مَجْرى الدَّمْع ، ولا يمتنع أن يكون المدمع اسماً للحدثِ الذى هو السَّيلانُ ، كأنَّه موضوعٌ موضعَ الدَّمع ، وهو مصدر دمعَتْ ، ويكون المراد به أيضاً العينَ الذى هو الجارى ؛ لأنَّ الاستباق لا يصحُّ إلا فيه .

وقوله « ليس الشُّؤون وإن جادتْ بباقيةٍ » يريد : أنَّك إنْ أدمْتَ البُكاء استهلكْتَ منابعَ الدَّمع ومجاريَها ، وأطباقَ العين وحمائِقَها ؛ لأنَّ شيئاً من هذه الآلات وإن سَمَحتْ بالإجابة مدَّةً لا يدوم على فِعْلك ، ولا يقوم لتكاليفك . وقوله « على هذا » أشار بهذا إلى فعلِه ، وعلى تعلّق بباقيةٍ ، وهو مضمَرٌ دلَّ عليه الباقية المذكورة ، كأنَّه قال : ولا الجُفُونُ باقيةٌ على هذا ، وجعل « لا » من قوله والجفونُ بدلاً من ليس ، والجَفْن فى اللغة : المَنعُ والحَبْس ؛ لذلك سُمِّى غلاف السَّيف الجَفْنَ .

٤٧١

وقال آخر :

١ ــ قد كُنتُ أَعلُو الحبَّ حيناً فلم يَزَلْ بِيَ النَّقْضُ والإبرامُ حَتَّى عَـلَانِيا

يقول : بقِيتُ أزاوِلُ الحبَّ وأجاذبُه ، وهو معى متردِّدٌ بين أن أعلوَه تارةً

فأدفعه عن نفسى بَجْهدى ، وبين أن يعلُونى فيغلبَنى على مُرادى ، ويأخذَ مَقرَّه من فؤادى ، فلم نزَلْ بين النَّقض والإمرار ، أَنْقُض عليه وهو يُمِرُّ ، وينقُضُ علىّ وأنا أُمِرّ ، إلى أن صار الغَلَبُ له .

وهذا الذى أشار إليه حالةُ الحبّ إذا لم يكن عن اعتراضٍ . لذلك قال أبو تمام :

هَوًى كان خَلْسًا إنّ من أبْرَحِ الهوَى هَوًى جُلْتَ فى أفيائه وهو جائلُ(١)

كأنَّه يُريد المحبوبَ فيفكِّر فى محاسنه حالًا بعد حالٍ ، ووقتًا بعد وقت ، ويستحلِبُها(٢) شيئًا بعد شىء ، إلى أن يصيرَ لها فى قلبه قادِحٌ ونازِعٌ ، فيدفَعُه عن نفسه بأن يزيّف تلك المحاسنَ ، ويتناسى وَيَدْرأُ فى صدر ذلك القادِح من الهوى ويتأبَّى(٣) ، فكلَّما قَدَّرَ أنَّه قد تخلَّى عاوَدَه الوسواس جَذَعًا ، فلا يزالُ بين القَبول والامتناع ، والتَّماسُك والانهيار ، ومدافَعةِ الدَّاء بالدَّواء ، إلى أن يصيرَ الغَلَب للهوى .

والمعترِضُ من الهوى هو الذى يقعُ عن أوّل وَهْله ، فيَسبِى القلبَ فى دَفعةٍ واحدة ، إلَّا أنَّ تركَه أسرع ، كما أنَّ أخذَه أسرع . على ذلك قول الأعشى :

* عُلِّقْتُهَا عَرَضًا(٤) *

وما يجرى مجراه . وهم يشبِّهُون مثل هذا الهوى بنارٍ تُوقَد بضِرام أو بعَرْفَج وما يجرى مَجراه ، فترتفعُ سريعًا وترجِعُ سريعًا . وأنشد ابنُ الأعرابىّ بيتًا

(١) فى الديوان ٢٥٦ :

هوى كان خلساً إن من أحسن الهوى هوى جلت فى أفيائه وهو خامل

(٢) ل : « ويستحليها » .

(٣) ل : « ويتأبى » .

(٤) البيت بتمامه :

علقتها عرضاً وعلقت رجــلا غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل

فى قسمة [الهوى][1] زعم أنَّه لا ثانىَ له ، وأنّ قائلَه لا يُعرف وهو :

ثلاثَةُ أحبـــابٍ فَحُبٌّ عَلَاقَةٌ وحُبٌّ تِملّاقٌ وحبٌّ هو القَتْلُ[2]

يعنى ما يكون من تمُّل وطول تأمّل .

٢ ــ ولم أرَ مِثْلَيْنَا خَلِيلَىْ جِنَابَةٍ أَشَـدَّ على رَغْمِ العَدُوِّ تَصَافِيَا

نَبَّهَ بهذا الـكلام على أنها مع المجانَبة واستعمال الحذَر ، واستدفاعِ شَرِّ الرُّقباء والحافظين بترك الوُرود والصَّدَر ، وإكسادِ سُوق الوُشاة والنَّمّامين بإخماد نائرة الخَبَر ، يُصافِى كلٌّ واحدٍ منهما صاحِبَه ، حتَّى لا خلَلَ فى الهوى ولا فساد ، ولا استزادةَ فى الحبِّ ولا عِتاب ، ولا تَسَلُّطَ تُهْمَةٍ[3] لعارضِ تسلٍّ[4] وحُؤُولٍ عن عَهد .

وإنّما قال « على رَغْم العدوّ » استهانةً بهم . وهو من الرَّغام : التُّراب . وإذا قيل : أرغم الله أنفَه فالمعنى أذلَّه اللهُ وأسخَطَه . وانتصب « تصافِيا » على التمييز . وقوله « خليلَىْ جِنابَة » انتصب على أنَّه بدل مِن مثلَيْنا ، وأشدَّ مفعولٌ ثان لأَرَى .

٣ ــ خَلِيلَيْنِ لا نَرْجُو لقاءً ولا تَرَى خليلين إلَّا يَرْجُوانِ التَّلَاقِيا

ذكَرَ أنّ اليأسَ قد استقرَّ فى قلبِ كلِّ واحدٍ منهما من مُلاقاةِ صاحبِه والتَّصافى بينهما هو أنَّ ذلك من كمال البلاء ، إذ لا يُوجَد خليلانِ غيرُهما إلا وهُما على شفَا الرَّجاء فى الاجتماع ، وقوّةٍ من الطمع فى الالتقاء والاستمتاع ، واليأسُ لذى

(١) التكملة من ل .

(٢) كذا ضبط البيت فى النسختين ، ويصح أن يقرأ بالإضافة ، بجر « علاقة » و « تملاق » . وانظر مجالس ٢٩ . وفى إعراب ثلاثين سورة من القرآن لابن خالويه ص ٨١ ، قال ثعلب : ومثله :

ثلاثة ابيات فبيت أحبـه وبيتان ليسا من هواى ولا شكلى

(٣) ل : « بهمة » .

(٤) فى الأصل : « تشك » صوابه فى ل .

أشار إليه كأنَّه لارتفاع منزلةِ المحبوب عن منزلته : أوْ لكثرة أوليائه وقوّة عشيرته أو لعفافِه وتألُّهه ، وما يجرى مجراها .

٤٧٢

وقال آخر(١) :

١ ـ وكلُّ مُصيباتِ الزّمانِ رأيتُها سِوَى فُرقة الأحبابِ هيِّنةُ الخَطْبِ(٢)

موضع « سِوى فُرقةِ الأحباب » نصب على أنه مستثنى مقدم ، لأن تقدُّمه على صفة المستثنى منه كتقدُّمه عليه نفسه . ومعنى البيت ظاهر .

٤٧٣

وقال الحُسَيْن بن مُطَيْر(٣) :

١ ـ فَيَا عَجَبًا لِلنَّاس يَستشرِفُونَنى كأنْ لم يرَوْا بَعْدِى مُحِبًّا وَلا قَبْلِى

قوله « يستشرفوننى » أى ينظرون إلَىَّ ، وتطمحُ أبصارُهم نحوِى . ويودُّون أنِّى على شَرَف من الأرض ، لأكون معرَّضًا لهم .

والشَّاعر أخذ يتعجّب من أحوال الناس فيما رأوهُ عليه ، واستطرافِهِمْ لحالته فى حُبِّه ، واستشرافِهِم لما يشاهدونه عليه ، حتى كأنَّهُ بِدْعٌ من الحوادث لم يُشاهَد مثله ، ولم يقع فى تقدير أحدٍ جوازُ صورته ، فقال : يا عجبا للنَّاس فى حال استشرافهم لى ، واستطلاعهم من جهتى ما أنا عليه ، وإفراطِهم فى التعجُّب ممّا يجدوننى مبتلًى به ، ومرهونًا له كأنهم لم يُشاهِدوا قبلَ مشاهدتهم لى ، ولا بعد

(١) هو قيس بن ذريح ، صاحب لبنى . انظر مجالس ثعلب ٢٨٥ ـ ٢٨٧ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ١٨٣ والأغانى (٨ : ١١٢) .

(٢) رواية ثعلب والسيوطى عنه :

وكل ملمات الدهور وجدتها سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

وفى الأغانى : « وكل ملمات الزمان وجدتها » .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣١٩ ص ٩٣٤ .

مشاهدتهم لى محبًّا، وكأنّ الحبَّ شىء أنا ابتدعتُه[١] ، وكأنّ مسبّباته لم تُوجَد قطُّ إلا فىَّ . وليس الأمر كذلك ، لأنّ الدُّنيا وأهلَها إذا تُؤُمِّلت أحوالُهم فيها لم يُعْوِزْ تقديرًا أو تحصيلا مَنْ حاله حال مِثْلِي فيه زائدًا على ما أنا عليه ، أو قاصراً عنه . هذا إذا جعلت « لم يَرَوْا » بمعنى لم يشاهدوا . فإن جعلته بمعنى لم يعلموا كان المعنى أكشَفَ وأبيَن ، إلّا أنّه يكون بمعنى يعرف ، ويكتفى بمفعول واحد . وقوله « بعدى » أى بعد رؤيتهم لى ، فحَذَف المضاف ، وكذلك قوله « ولا قبلى » يريد ولا قبل رؤيتهم لى . وقوله « يا عجبًا » يجوز أن يكون منادى مضافا ، ويجوز أن يكون مفرداً ، وقد تقدَّم القول فيه وفى أشباهه .

٢ — يقولونَ لى اصْرِمْ يرجع العقلُ كلُّه ... وصُرْمُ حَبيبِ النَّفْسِ أذهبُ للعَقْلِ

يقول : يُشيرُ الناس علىَّ بالتسلِّى عنها ، والأَخْذِ فى مصارمتها ، وأخْذ النَّفس على الانفكاك منها ، فإنّ فى ذلك بزُعْمهم إذا تدرَّجتُ فيه مراجعةَ العقل كاملا ، وانتزاعَ رِبقة الذُّلِّ عاجِلًا . وإذا تأمَّلْتُ حالى فى قَبول ما يشيرون به ، ورُكوبِ الجِدِّ فى قطيعتها ، والحيلولة بين النفس ومُرادها فيها ، وجدتُ ذلك أدعَى إلى زوال العقل كلِّه ، وإن كان الباقى منه شُفافةً ، وأجْلَبَ لهلاك النَّفس ، وحرج الصدر ، وإن كنتُ عائشًا بصُبابَةٍ . وقوله « أذهبُ للعَقْل » قد تقدّم القول فى أن سيبويه يجوِّز بناء فعل التعجُّب بعد الثُّلاثىّ ممّا كان على أفعَلَ خاصة ، فإذا جاز ذلك فبناء التّفضيل يتبعه .

٣ — ويا عَجَبًا مِنْ حُبِّ مَنْ هو قاتِلِى ... كأَنِّىَ أَجزيهِ المـودَّةَ مِنْ قَتْلِى

تَعجَّبَ من حالِ نفسِه فى مقاساةِ[٢] ما يقاسِى منها ، وبقائه[٣] على حُبِّها

---

(١) ل : « أبدعته » .
(٢) ل : « مقاساته » .
(٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « ويعانيه » .

فيقول : إنِّى أُدَاوم اعتقادَ الجميلِ لها ، وقيامَ القلبِ بعمارة الهوى فيها ، حتَّى كأنِّى أُجازيها على قتلها إيّاىَ بأن أزيدَ فى وُدِّها وإخلاص العقيدة لها . وقوله « من قتلى » أراد من قتلها لى . والمصدر يُضاف إلى المفعول كما يُضاف إلى الفاعل ، وكذلك قوله « مِن حبِّ من هو قاتلى » أى من حبِّى من هو قاتلى ، لأنَّ مَنْ فى موضع المفعول . وقوله « يا عجبا » يجوز أن يكون الألف بدلاً من ياء الإضافة ويجوز أن يكون ألفَ النُّدبة وزيدت ليمتدَّ الصَّوت به ، ويكون يا عجب منادًى مفردا ، وامتداد الصوت يدلُّ على عِظَم البَليَّة ، وتفخيم أمر العجيبة .

٤ – ومِنْ بَيِّنات الْحُبِّ أَنْ كَانَ أَهْلُها أَحَبَّ إلى قلبِى وعَيْنَىَّ مِن أَهْلِى

يقول : ومِن آيات حبِّى البيِّنة ، وشواهدِه الصَّادقة ، على تكامله لها ، وتناهيهِ فى استحكامها ، أنِّى أُوثِر أهلهَا على أهلى ، وأنَّ رتبتَهم فى العَينِ والقَلب أعلَى من رُتبة عشيرتى عندى . وقد خَلَّصَ هذا المعنى عَنترةُ حيث قال :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وأقتُلُ قَومَهـا زَعَماً لعمرُ أبيكَ ليسَ بمَزْعَمِ[١]

لأنَّ فى قضيَّة الهوَى والعقل أنَّ حبَّها مع عداوةِ أهلها ليس بمتَّسِقٍ ولا متسبِّبٍ ، بل يُنافِى كلُّ واحدٍ صاحبه[٢] ، وأنّ الواجبَ أنّها إذا كَرُمت عليه فكلُّ متسبِّبٍ إليها بسبب ، ومنتسبٍ [بنسبٍ[٣]] ، يجب أن يكون مؤْثَرا عنده ، مبجَّلا فى حكمه .

وأبينُ من ذلك كلِّه قولُ الآخر :

وأُقسِمُ لو أنِّى أرَى نسباً لها ذِئابَ الفَلا حُبَّتْ إلىّ ذئابها[٤]

(١) الزعم ، بالتحريك وبالفتح : الطمع . وهذا البيت شاهده .
(٢) ل : « بل ينافى صاحبه » . (٣) التكملة من ل .
(٤) سيأتى هذا البيت فى الحماسية ٥٣١ .

وقوله « أن كان أهلُها » أن مخففة من الثّقيلة ، أراد أنه كان أهلُها ، والهاء من أنه ضمير الأمر والشأن ، وقد تقدَّم مثلُه . وموضع أنْ بما بعده رفعٌ بالابتداء وخبره قوله ومن بيِّنات الحبّ .

٤٧٤

وقال عمر بن أبي ربيعة(١) :

١ — ولَمّا تفاوَضْنا الحديثَ وأَسْفَرَتْ وُجُوهٌ زَهَاهَا الحُسْنُ أن تَتَقَنَّعا(٢)

٢ — فقلْتُ لمُطْرِيهِنَّ وَيْحَكَ إنَّمَا ضَرَرْتَ فَهَلْ تَسْطِيعُ نَفْعاً فَتَنْفَعا(٣)

قوله « لمّا » يحتاج إلى جوابٍ ، لأنّه لوُقوع الشيء لوقوع غيره ، إذا كان عَلَماً للظرف ، فيقول : لَمّا تنازعْنا الحديثَ ، واندفعنا فيه ، وأشرقَتْ وجوهٌ تَلألأُ نوراً ، استخفتْ أربابَها الحُسْنُ الجائل في جوانبها ، ومَنَعها من أن يستُرها بقناعٍ عُجْباً بها ، والتذاذاً بخَوْضِ عيونِ الناسِ في محاسنها ، قلتُ للمُثْني عليهنّ : إنَّ ثناءَك يَضُرُّنا ، لتنبيهك على كثيرٍ ممّا لعلّه يخفَى عليهنّ من دقائق الجمال .

---

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ، أحد شعراء الغزل في صدر الإسلام والدولة الأموية ، ولد في الليلة التي مات فيها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ ونفاه عمر بن عبد العزيز إلى « دهلك » لما شاع غزله وتعرضه للنساء ومنهن سكينة ، وابنة لعبد الملك ابن مروان ، ثم غزا في البحر ، فأحرقت السفينة التي كان فيها فاحترق ، وذلك في سنة ٩٣ . الأغاني (١ : ٢٨ ٩٤) والخزانة (١ : ٢٣٨ — ٢٤٠) ، ووفيات الأعيان والشعر والشعراء ٥٣٥ — ٥٤٠ .

(٢) بعده عند التبريزي :

تبالَهْنَ بالعِرفان لمّا عرفنني وقُلنَ امرؤٌ باغٍ أكلّ وأوضعا

وقرَّبن أسبابَ الهوى لمتيَّمٍ يقيس ذراعاً كلّما قِسْنَ إصبَعا

(٣) في الديوان ٣٣ وأمالي القالي (٢ : ٤٩) : « لمطهرين بالحسن » . وفي الأصل : « ويلك إنما » ، والتفسير يقتضي ما أثبت من ل والتبريزي .

ولطائف الـكمال . إذْ كان ذلك يَزيد فى الإعجاب بأنفسهن ، ويُكسِب[1] الـكِبرَ فى أخلاقهنَّ ، فهل تقدرُ بَدَلَ ذلك على ما ينفَعُنا معهنَّ . وجواب لمَّا إنْ شئتَ جملتَه « فقلتُ » على أن يكون الفاء زائدة ، وإن شئتَ جملته محذوفا ، كأنَّه قال : لمَّا فعلنا ذلك كلَّه توانَسْنَا ، أو ما يجرى مجراه . وقد تقدَّم القول فى أنَّ لو ولمَّا وحتَّى يُحْذَف أجوبتُها ، ويكون إبْهامُها لِحَذْفها أبلغَ فى المعنى . ويقال : أَطْرَى فلانٌ فُلاناً ، إذا مدحَه بأحسنِ ما قَدَرَ عليه . وقوله « تسطيع » منقوص عن تستطيع . وويحٌ ، قال الأصمعى : هو ترحُّمٌ ، فإذا أضيف بغير اللام يُنْصَبُ ، ويكون العامل فيه فِعْلاً مضمرا ، كأنه قال : أَلزَمَه الله وَيْحًا ، وانتصَبَ فتنفَعَا بأنْ مضمرة ، وهو جوابُ الاستفهام . ومعنى « زَهَاهَا الحسنُ » استخفَّها ويقال : زَهَتِ الأمواجُ السَّفينةَ والرِّياحُ النَّباتَ . وقوله « أن تتقنَّعا » أراد من أن تتقنعا ، وهم يحذفون الجارَّ مع أنْ كثيرا .

٤٧٥

وقال أبو الرُّبَيْس التَّغْلِبىّ[2] :

١ — هل تُبْلِغَنِّى أمَّ حَرْبٍ وتَقْذِفَنْ على طَرَبٍ بَيُوتَ هَمٍّ أُقاتِلُهْ
٢ — مُبِينَةُ عِنقٍ حُسْنَ خَدٍّ ومِرْفَقًا به جَنَفٌ أنْ يَعْرُكَ الدَّفَّ شاغِلُهْ

قولُهُ « على طَرَبٍ » يجوز أن يتعلَّقَ بتبغانِّى ، ويجوز أن يتعلَّق بوتَقْذِفَنْ ،

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « ويكتسب » .

(٢) كذا فى النسختين واللسان (ربس) ونص على أنه « من شعراء تغلب » . وصوابه « الثعلبى » كما عند التبريزى ، وقال : « من ثعلبة بن سعد بن ذبيان » ، وهو يطابق ما فى التكملة للصغانى . وفى القاموس : « وأبو الربيس عباد بن طهمة الثعلبى » ، وفى تاج العروس أنه يقال أيضاً « طهفة » ، وهو شاعر إسلامى ، كما ذكر البغدادى فى الخزانة (٢ : ٥٣٤) نقلا عن ابن ماكولا . وذكر البغدادى فى رواية أخرى أنه أبو الربيس عباد بن عباس بن عوف ابن عبد الله بن أسد بن ناشب بن سيد بن رزام بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان .

والفعلان جُمِعا على قوله «مُبينةُ عِتْقٍ» وهى ناقةٌ . والاختيارُ عند أصحابنا البصريِّين أنْ يرتفع بالأقرب ، وهو تَقذِفَنْ ، ويجوز أن يرتفع بتُبْلغنى ، وعلى هذا : جاءنى وأكرمنى زيدٌ . والطَّرَب : خِفَّةٌ تَلْحَقُ لنشاطٍ وجَذَلٍ ، واهتمامٍ وجزع . وبُيُوت هَمٍّ ، فَعُول من قولك : بات يبيت . كأنَّه هَمٌّ جاءه ليلاً فلازَمَه . وعلى هذا قيل فى الصَّقيع : البَيُّوت . وانتصب « حُسْنَ خدٍّ » على التمييز . والجَنَف : المَيَل . ورجُلٌ أجنفُ : فى خَلْقه مَيَلٌ ، وقيل : هو الطَّويل المنحنِي . والعَرْك : الدَّلْك والغَمْز . وقوله « به جَنَفٌ » فى موضع النَّصب ، لأنَّه صفة لمرفَق . و « شاغله » صفةٌ لجَنَفٍ . وإضافتُه على طريق التَّخفيف ، فهو نكرة والتنوين مَنوىٌّ ، كأنَّه شاغلٌ له . ويريد بقوله « به جَنَفٌ » أنَّ المِرفَق متباعدٌ عن الزَّوْر ، لأنَّ الناقة فَتْلاء ؛ ولولا بُعدُه [عنه[1]] لكان يكون ناكتاً أو حازًّا أو ضاغطاً ، أو ناقراً[2] وذلك عيبٌ يمنع من إدامة السَّير . فيقول على وجه التَّمنِّى : هل أرانِى راكبَ ناقةٍ توصِّلنى إلى هذه المرأة ، نشيطةٍ طَرِبَة ، وتَطْرَحُ عنِّى ثِقَل هَمٍّ أزاوِلُه وأدافعُه ، وهى تُلازِمنى باللَّيل ولا تُفارقنى . وهذه النَّاقة لها شواهدُ تُوجِبُ عِتقَها وكَرَمَها ، من حُسْن الخَدِّ والمِرفَق المتجانِفِ عن الزَّوْر .

٣ – مُطَارَةُ قَلْبٍ إن ثَنَى الرِّجْلَ رَبُّها بِسُلَّمِ غَرْزٍ فى مُنَاخٍ تُعَاجِلُهْ

هذا يرجعُ إلى صفة النَّاقة ، والمراد أنَّها ذكيَّة الفُؤاد ، شَهْمة النفس ، فكأن بها لنَشاطها وذَكائها جُنوناً أطارَ قلبَها ، وأزال مُسْكتَها . وقوله « إنْ ثَنَى الرِّجلَ ربُّها » جوابُ الشَّرْط فيه قوله « تُعَاجِله » وأصله تُعاجِلْهُ ، اللام

(١) التكملة من ل .

(٢) الناكت : أن ينحرف المرفق حتى يقع فى الجنب فيؤثر ، فإذا حز فيه قيل له حاز ، فاذا خرقه فذلك الضاغط .

ساكنة للجَزْمِ ، ولكنّه نُقِلَ إليها حركة الهاء ، وهو ضمير يرجع إلى «ربُّها» . ومثله قولُ طَرَفة :

* لو أُطيعُ النَّفْسَ لم أَرِمُهْ[1] *

يريد : لم أَرِمْهُ ، فنقَل . والمعنى أنَّها لخفَّتها وحِدَّتها ، متَى همَّ صاحبُها برُكوبها فثنَى رجلَها ، أى غطف بغَرْزِها الذى هو كالسُّلَّم ، وهو الرِّكاب ، عاجلَتْه فنهضتْ به قبل تمكُّنِه مِن رُكوبها ، واستقراره على ظَهْرها .

وقد سلك هذا المسلكَ ذُو الرُّمَّة فى البائية التى أوّلُها :

* ما بال عينك منها الماء يَنسكبُ[2] *

حُدِّثْتُ عن الكِسْرَوى علىِّ بن مَهدىٍّ الإصفهانىّ[3] عن شيوخه ، أنَّ ذا الرُّمَّة أَنشد هذه القصيدةَ كُثَيِّرَ عزّةَ ، فلما انتهى إلى قوله :

* حتَّى إذا ما استوَى فى غَرْزِها تَثِبُ .[4] *

قال له : أهلكْتَ واللهِ راكبَها ، هلَّا قلتَ كما قال الرّاعى :

تَرَاها إذا قُمتَ فى غَرْزِها كمِثْلِ السَّفينةِ أو أَوْقَرُ

فهذا ما رُوِىَ لنا . وقد ذكر الرّاعى فى موضع آخر فقال :

وكأنّ رَيِّضَها إذا يا سَرتَها كانتْ مُعَاوِدَةَ الرَّحيل ذَلُولَا

وحُكِى لى أنَّ سعيدَ بن سَلْمٍ الباهلىّ ، قال : قرأنا هذه القصيدة على الأصمعى من شعر الراعى ، فلما انتهينا إلى البيتِ رواه :

* وكأنّ ريِّضَها إذا باشرْتَها *

(١) صدره فى ديوان طرفة ١٦ :
* حابسى رسم وقفت به *
(٢) عجزه : * كأنه من كلى مفرية سرب *
(٣) ل : «الأصبهانى» ، وإصبهان تقال بالباء وبالفاء ، وبفتح الهمزة وكسرها .
(٤) صدره : * تصغى إذا شدها بالكور جانحة *

فقلت : ما معنى « باشرتَها » ؟ قال : ركبْتَها ، من المباشَرة . فسألنا ذلك أبا عبيدةَ عنه ، فقال : صحَّف واللهِ ، إنَّما هو « إذا ياسرتُها » أي لم أُعازَّها ولم أقتسِرْها . ومثله قوله .

إذا يُوسِرَتْ كانت وقُورًا أديبَةً وتَحْسِبُها إنَ عُوسِرَت لم تُؤدَّبِ

٤ — يُباري بها القُودَ النَّوافِخَ في البُرَى قليلُ النُّزولِ أَغيَدُ الخلْقِ عَاطِلُهْ

٥ — مُرَاجِعُ نَجْدٍ بعد فِرْكٍ وبِغضَةٍ مُطَلِّقُ بُصْرَى أَصْمَعُ القَلْبِ جافِلُهْ

يقول : يعارِض بهذه الرَّاحلةِ التي وصفتُها رواحلَ طِوالَ الأعناق ، تنفُخُ في بُرَاها لنشاطها ، رجلٌ قليلُ النُّزول عنها ، ناعمُ الخَلْقِ عاطله ، يعني نفسه ، أي أنَّهُ يَجِدُّ في السير ويُديمُه . وقوله : « مُرَاجِـعُ نَجْدٍ » أي أنه بعد أنْ فارَقَ نَجْدًا وأبغضه كخلوِّه من حبيبه يريدُ أن يراجعهَ وينتقل عن بُصْرَى — وهي قرية بالشَّأْم تُطْبَعُ فيها السُّيوف البُصرية — ويخلِّيها . ومعنى أَصْمَعُ القَلْب : حَديدُه . جافلهُ ، أي مُسرعُهُ . ويقال : أجفلَ الظليمُ وجَفَل ، إذا نشرَ جناحيه ومرَّ يعدُو ، وكلُّ هاربٍ من شيءٍ فقد أجفل عنه . والظليم مُجْفِلٌ وجافلٌ جميعاً . وذكر المراجعة والتطليق ، واستعارةٌ للانتقال والتخلية .

وقد فَعَلَ أبو تمام مثل هذا فقال :

* فيها وطَلَّقْتُ السُّرور ثلاثا[1] *

إلا أنّ ما قاله هذا الشَّاعرُ أحسَن ، حينَ زاوَجَ التَّطليق بالمراجعة . وقوله « نوافخُ في البُرَى » النوافخ : المتنفسات نفخاً لنَشاطها . والبُرَى : الحَلَقُ التي في أنوفها . وقوله » أَغْيَدُ الخَلْقِ » أي منثنيه ، وعاطلُه أي يعطِّله من التَّرفه ، ويَفطِمه عن النَّعمة . وكل مُهمَل متروك فهو معطَّل وعاطل .

(١) صدره في ديوانه ٦٦ ،

* أرض خلعت اللهو خَلعي خاتمي *

٤٧٦

وقال عبدُ الله بن عَجْلانَ النَّهديّ [1] :

١ — وحُقَّةِ مِسْكٍ مِنْ نِساءٍ لَبِسْتُها   شَبابى وكأسٍ باكَرَتْنى شَمُولُها

٢ — جديدةُ سِربالِ الشبابِ كأنَّها   سقيَّةُ بَرْدِيٍّ نَمَتْها غُيُولُها

قوله « وحُقَّةِ مِسْكٍ » كنايةٌ عن امرأةٍ جعلَها لِطيبِ ريَّاها كظرف مِسْكٍ . ومعنى « لبستها » تمتَّعت بها . وقال ابنُ أحمر :

لبِسْتُ أبى حتى تملَّيْتُ عَيْشَهُ   وبَلَّيْتُ أَعمامى وبَلَّيْتُ خاليا

وموضع قوله « شبابى » نصب على الظَّرف . والمعنى زَمنَ شَبابى ، ومُدَّةَ شبابى . والمصادر تُحذَف منها أسماء الزمان كثيراً . وقوله « وكأسٍ » انعطف على قوله « وحُقَّة مِسْكٍ » والعامل فيها رُبَّ ، والواو واو العطف ، وليست بنائبة عن رُبَّ ، بدَلالة أنه لو كان كذلك لوجَبَ أن يُدخَلَ الحرفُ العاطف عليه ، فيقال وو حُقَّةِ مِسْكٍ . والشَّمُول : الخمرة التى لها عَصْفةٌ كعَصْفةِ الشَّمال . وقد قيل : هى التى تشتمل على العقل فتَملِكه وتَذهَبُ به .

وقوله « جديدة سربال الشباب » أدخل الهاء على جديدة ، والأكثر أنْ يقال : مِلحفةٌ جديدةٌ . وطريقة سيبويه فيه أنه صفة مذكَّرة تبعت مؤنثاً ، ويُنْوَى فى ذلك المؤنَّثِ ما يكون لفظُه مذكَّراً ، كأنه يَنوِى بالملحفة إزاراً ، وما يجرى هذا المجرى . وبعضُهم يذهبُ إلى أنه فعيلٌ فى معنى فاعل ، فلحِقَه الهاء

---

(١) هو عبد الله بن العجلان بن عبد الأحب بن عامر بن كعب بن صباح بن نهد بن زيد ابن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة ، شاعر جاهلى ، أحد المتيمين من الشعراء ومن قتله الحب منهم ، وكان له زوجة يقال لها هند فطلقها ثم ندم على ذلك ، فتزوجت زوجا غيره فمات أسفاً عليها . الأغانى (١٩ : ١٠٢ — ١٠٥) والشعراء ٦٩٦ وتزيين الأسواق لداود الأنطاكى ٧٦ — ٧٨ .

قياساً ، فهو كظريفٍ وظريفة ، لأن الفعلَ منه جَدَّ الثَّوبُ يجِدُّ جِدَّةً . وبعضهم ذهَبَ إلى أنّه فعيل فى معنى مفعول ، كأنّ ناسجها جَدَّها قريباً ، أى قَطَعها ، فلهذا يُستنكَر إلحاقُ الهاء به . ومعنى « جديدة سربال الشباب » أنها فى عُنفُوان شبابها ، وأنّ عليها غَضارةَ الحدوث ، ونَضارة النَّشء ، فكأنّها سَقِيَّةُ بَرْدِيّ . والسَّقِيّةُ فى معنى مَسْقِيّة ، جعلها اسماً ، فهى كالبَنِيَّة واللقيطة . وشبَّهها بها لزيادة خِلْقتها وحُسن بِنْيتها . ألاَ تَرى أنه قال : « نمتْها غُيُولُها » . والغُيُول : جمع الغَيْل ، وهو الماء الذى يجرى بين الأشجار . وقال الدُّريدىّ : الغَيْل : الماء الذى بين الحجارة فى بطن وادٍ . والغِيلُ ، بكسر الغين : الماء يجرى بين الأشجار ، وربما سَمَّوا الشجرَ الملتفَّ غِيلاً . ويُشبه هذا قول الآخر[١] :

بَرْدِيّةٌ سَبَقَ النعيمُ بها   أقرانَها وغلاَ بها عَظْمُ

وفى طريقته قولُ الآخر[٢] :

لم تَلْتفِتْ لِلِدَاتِها   ومَضَتْ على غُلَوائها

وإنما يكون ذلك من نتائج الترفهِ ، ولوائح النِّعمة . وقد ظهر معنى البيتين بما ذكرتُه ، لأنه تبجَّحَ بتعاطيه الصِّبَا واللَّهو ، وشُربِ الخمر مدّةَ الصِّبا [وأيّامَ الشباب[٣]] .

٣ — ومُخْملةٍ باللَّحم مِن دُونِ ثَوْبِها   تَطُولُ القِصارُ والطِّوالُ تَطُولُها[٤]

٤ — كأنّ دِمَقْسًا أو فُروعَ غمامَةٍ   على مَتْنِها حيثُ استقَرَّ جَدِيلُها[٥]

---

(١) هو المخبل السعدى . المفضلية ٢١ .

(٢) هو ابن قيس الرقيات . اللسان (غلا) .

(٣) التكملة من ل .

(٤) التبريزى : « ويروى : فروع عمامة ، بعين غير معجمة ، وهو أشبه بالدمقس » .

(٥) بعده عند التبريزى :

قوله « ومُخَمَّلةٍ » من جملة صفاتها وإن عطفْتَها بالواو، فعلى هذا لك أن تقول: مررتُ برجلٍ فاضلٍ عاقلٍ أديب، وأن تقول: برجُلٍ فاضلٍ وعاقلٍ وأديب.

ومعنى « ومُخَمَّلةٍ » أنّ أعضاءها تساوَتْ فى رُكوب اللَّحم إيّاها، وظُهورِ السِّمَن والبُدْنِ عليها، فكأن اللَّحم جُعِل خَمْلاً لها. وفائدة « من دونِ ثَوْبها » أنها مِلْء دِرعِها، فهى سمينةُ المُعرّى. وإلى هذا أشار الأعشى فى قوله:

* صِفْرُ الوشاحِ ومِلْء الدِّرعِ بَهْكَنَةٌ (١) *

وقوله « تَطُولُ القِصارَ » يريد أنها رَبْعةٌ، فإذا حَصَلَتْ فى القِصار طالتْهُنّ، وإذا حصلت فى الطِّوال طُلْنَها يُشير إلى التَّوسُّط الذى هو المختار فى كل عَقْل، ولذلك قيل: « خَيرُ الأمور أوساطها » ولأنّ الغُلُوّ والإفراط مذمومان، كما أن القُصُور والتَّفريط مذمومان. و « تطول » فى البيت مُعَدًّى، لأنه بمعنى تَغْلِبُ فى الطول، فهو من طاولْتُه فطُلْتُه.

وقوله « كأنّ دِمَقْسًا أو فروع غَمامةٍ » الدِّمَقْس (٢): الحرير الأبيض. وفروع الغَمامة، أشارَ إلى أطرافها وجوانبها والشمس تحتها، لأن تلك الأطرافَ بشُعاع الشمس تُشْرِق أبداً. والمعنى أنها ليِّنة المَجَسِّ برّاقة اللون، كأنَّ الحريرَ وأطراف غمامةٍ استكنَّت الشمسُ تحتَها على مَتْنِها. وقوله « حيثُ استقرَّ جديلُها » تخصيصٌ لما عَمَّهُ قولُه « على مَتْنِها ». والجَديل، هو الوِشاح، وما تشدُّه المرأة فى حَقْوها من الأَدَم المضفور. وليس هذا من عادات العرب. وإذا

= وأبيضَ منقوفٍ وزقٍّ وقينةٍ وصهباءَ فى بيضاء بادٍ حجولُها
إذا صُبَّ فى الرَّاوُوق منها تضوّعَتْ كميتٌ يلَذُّ الشاربين قليلُها

(١) عجزه: * إذا تأتّى يكاد الخصر ينخزل *

(٢) هو معرب « دمسه » الفارسية. استينجاس ٥٣٥ والألفاظ الفارسية ٦٦. وانظر حواشى تهذيب الصحاح للزنجانى (دمقس).

كان من لونَيْنِ فهو البَرِيمُ . وهذا يُشَدّ فى أَحْقِى الصِّبيان يُدفَعُ به العين .

٤٧٧

وقال عبد الله بن الدُّمَيْنَة الخَثْعَمىّ(١) :

١ — ولمّا لَحِقْنا بالْحُمولِ ودُونَها ... خَميصُ الحشَا تُوهِى القميصَ عَوَاتِقُهْ

٢ — قليلُ قَذَى العينين نَعْلَمُ أنه ... هو الموتُ إن لم تُلْوَ عَنّا بَوَائِقُهْ(٢)

قوله «ولمّا لحقنا» جوابه مادلّ عليه البيت الثالث ، وهو «عَرَضْنا» . وأراد بالحمول الظّعائنَ وأثقالَها . وقوله «ودونها خميص الحشا» يريد قَيِّمَهنّ . فيقول : لمّا دعانا الشوقُ إلى اللّحوق بالظّعائن بعد تشييعنا لها ، وإلى تجديد العهد بها ، فأدر كناها ودونها رجُلٌ قليلُ اللحم على بَدَنه ، لطيفُ طيِّ البطْن ، مديدُ القامة ، حتى إنّ عواتقَه ، وهى النَّواحى من عاتِقَى الإنسان ، تكاد أن تُوهِىَ قميصه . وهذا مما تتمدّح به العرب ، لأنّ السُّمْنَة(٣) عندهم مذمومة .

وقد كشَفَ عن هذا المعنى قولُ الآخر :

فتًى لا يُرَى قَدُّ القميصِ بخَصره ... ولكنّما تَفرِى الفَرِىَّ مناكِبُهْ

وقوله «قليل قَذَى العينَين» يصف امتعاضَه وقلّةَ صبره على دَرَن العار(٥) .

---

(١) التبريزى : «هذا البيت قد تكلم عليه النمرى ، لأن فيه خلافا لما قبله ، إذ كان البيت المتقدم فى صفة امرأة ، وهذا البيت يجب أن يكون فى صفة ناقة ، ولا شك أنه قد سقط منه شىء يصله بما قبله . ولم يذكر ذلك أحد منهم ، وإنما يريد أنها ترفع ذنبها إلى متنها» .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٦ ص ١٢٢٣ .

(٣) التبريزى : «يُعلم أنه هو الموت إن لم تصر عنا» . وهى رواية الديوان ٤٣ . يقال : صريت الشىء ، إذا قطعته ومنعته .

(٤) كأنه جعل «السمنة» اسما للسمن ، والمعروف فى المعاجم ، أن السمنة بالضم : دواء يتخذ للسمن .

(٥) هذا ما رآه المرزوق ، وأجود منه قول التبريزى : «يصفه بحدة النظر ، وأنه ليس بعينه غمص ، فهو أحد لنظره» .

ويقال : فلانٌ لا يُغضِى على قَذًى ، إذا لم يحتملْ ضَيماً . وقوله « نعلم أنَّه هو الموت » يصفه بشدَّة الحميَّة عند غضبه . وأنَّ نارَه لا يُصطَلَى [بها[1]] إذا غار على حُرَمِهِ . والمعنى أنَّا مع تعرُّضِنا له نَحذَره مخافةَ أن يَحْمَى ، لتحقُّقنا أن شرَّه لا يُقامُ له إذا سطا . والبوائق : جمع بائقةٍ ، وهى الخصْلَة المنكَرة فى شُمُولِها ، فيقال : باقَتْهُم بائقةٌ . والبُوقة . الدُّفعَةُ الشَّديدة من المَطَر ، منه . قال رؤبة .

* من بَاكِرِ الوَسْمِيِّ نَضَّاحِ البُوَق[2] *

وقو « تُلْوَ عنَّا » أى تُصْرَف . ويرى « تُلْقَ عنَّا » من الإلقاء .

٣ — عَرَضْنَا فسلمْنا فسَلَّمَ كارِهاً ❊ علينا وتَبريحٌ من الغيظِ خانقُه[3]

٤ — فسايَرْتُه مِقْدارَ مِيلٍ ولَيتَنى ❊ بكُرْهِى له ما دام حيًّا أُرافِقُه[4]

يقول : لمَّا لحِقْنا بالظَّعائن عَرَضْنا لَهُنّ ، وسَلَّمْنا على قيِّمِهن والحامى دونهن ، فأجابنا جوابَ الـكاره لنا ، والمنكِرِ لتسليمنا ، قد خَنَقَهُ غَيظٌ مُبرِّحٌ . ويقال : لَحِقْتُهُ ولَحِقتُ به . وانتصَب « كارِهاً » على الحال . والتَّبريح : التَّشديد . ويقال : بَرَّح بى كذا وكذا ، ومنه قول الأعشى :

* أبْرَحْتَ رَبًّا وأبْرَحْتَ جارَا[5] *

---

(١) التكملة من ل .

(٢) نضاح ، بالحاء المهملة فى الأصل واللسان . وفى ل والديوان ١٠٥ : « نضاخ » بالخاء المعجمة ، وهما سيان .

(٣) الديوان : « وقفنا فسلمنا » . التبريزى : « الرواية التى عليها الناس : من الغيظ . وفى شعر ابن الدمينة : الغنظ ، الذى يراد به أشد الكرب . يقال غنظه غنظاً . قال الشاعر :

إذا غنظونا ظالمين أعانهم ❊ على غنظهم مَنٌّ من الله واسع »

ابن جنى فى التنبيه : « هذا من نحو تسمية الثواب باسم العمل ، نحو قول الله سبحانه : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ... فكذلك قوله فسلمنا فسلم ، أى فرد السلام . والأول فى العرف والاستعمال مسلم ، والثانى راد » .

(٤) الديوان :

فسايرته ميلين يا ليت أننى ❊ على سخطه حتى الممات أرافقه

(٥) صدره : * تقول ابنتى حين جد الرحيل *

ويقال: هو فى بَرْحٍ من الشَّوق بَارِحٍ. وقوله «خانِقُه» يريدُ أنّه امتلأ صدرُه من الغَيظ فارتقَى إلى ما هو فوقَه حتَّى خنقه.

وقوله «فسايرتُه مقدارَ مِيلٍ» انتصب مقدارَ على الظَّرف. ومعنى سايرْتُه صاحَبْتُه فى السَّير، ثم قال: وليتنى أرافقه ما دامَ حَيًّا، على كُرْهٍ منِّى، لأنه استطاب صحبتَه لما له من اللذاذة[1] فى النظَر إليه، واستكرهَ السكونَ معه لما يخاف على نَفْسه منه، إلا أنَّه غلَّب الالتذاذَ. و «وما دام حَيًّا» انتصب على الظرف، و «أرافقه» فى موضع خبر ليت. وقوله «بكُرهى له» نصب على الحال، والعامل فيه أرافقه.

٥ — فلمَّا رأتْ أنْ لا وِصَالَ وأنه مَدَى الصُّرْمِ مَضروبٌ علينا سُرَادِقُه[2]
٦ — رَمَتْنِي بطَرْفٍ لوْ كَمِيًّا رَمَتْ به لَبُلَّ نَجِيعًا نَحْرُهُ وَبنَائقُهْ
٧ — وَلَمْحٍ بعَيْنَيها كأنّ وَمِيضَهُ ومِيضُ الحَيَا تُهْدَى لِنَجْدٍ شقائقُهْ

قوله «أنْ لا وصال» أنْ فيه مخففَة من أنّ الثقيلة، يريد أنه لا وصال. ألا تَرَى أنه عَطَفَ عليه «وأنه مَدَى الصُّرْم». ووصال انتصب بِلَا، وخبره محذوف، كأنه قال: لا وِصَالَ بيننا. والجملة فى موضع خبر أَن، والضمير فى أنه الأولى والثانية ضمير الأمر والشّأن. وقوله «مَدَى الصُّرم» فى موضع الابتداء، و «مضروب علينا» خبَرُه. وسرادِقُه ارتفع بمضروبٍ، لأنه قام مقام الفاعل.

وقوله «رَمَتْنِي بطَرْفٍ» جوابُ لمّا. كأنه لمَّا تأمّلَتْ حالَهُ فى مُسايرته، وضيقَ الوقت عن مجاذَبته، لِمَا كان يَحُول بينهما من مراقبته، ثمَّ رأتْ تغيُّظَ

(١) هذا ما فى ل. وفى الأصل: «اللذه».
(٢) الديوان: «فلما رأت ألا جواب وإنما».

الرقيب وكراهيته[1] ، مع معرفتها بنتائج ضَجرِه ، نظرتْ إلى الشاعر نظرَ إنكارٍ استدلَّ منه على ضلالِه فيما يأتيه ، وسوءِ توفيقه فيما يُلحُّ فيه ، فكأنَّه رمته بسَهْمٍ لو لم يكن نَظَرًا ، بل كان سَهْمًا رُمِىَ به شُجاعٌ فى معركةٍ ، لأصيبَ مقلُه ، فكان يبتلُّ نحرُه وبنائق قميصِه نجيعا . والنجيع : دمُ الجوف . ويقال تَنَجَّع به ، أى تلطَّخ .

وقوله « ولمْحِ بعينيها » انعطَفَ على قوله بطَرْفٍ . واللَّمْح : النَّظَر ، ويستعمل فى البَرق والبصَر . وكذلك الطرفُ هو النَّظر [هنا[2]] ، كأن الرَّمىَ بالطرْفِ كان إنكارًا منها . واللمح بالعينين مُواعَدةٌ وتوجِيَةٌ بجميلٍ بعد تعذُّر المطلوب : والوَمْض والوميض : اللَّمْع . وأومضَتْ له فلانةُ بعينها ، إذا بَرَقتْ . لذلك شبَّهَ وميضَ لَمْحِها بوميض الحَيَا ، وهو الغيث المُحْيِى للأرضِ وأهلها وقد هُدِيَتْ أى أُرشِدَتْ شقائقه ، وهى قِطَعُ سحابِه ، لنجد . كأنَّه جعَلَها قاتِلَةً فى رميها ، مُحْيِيةً بلَمْحِها . والشَّقيقة : البَرْقةُ إذا استطارت فى عُرْض السحاب وتكشَّفت أيضًا .

(١) ل : « وكراهته » .
(٢) التكملة من ل .

٤٧٨

وقال أبو الطَّمَحان القَينيّ(١) :

١ ـ أَلَا عَلِّلَانى قَبْلَ صَدْحِ النَّوَائِحِ وقبلَ ارتقاءِ النَّفسِ فَوقَ الجوانِحِ(٢)

٢ ـ وقَبل غَدٍ يا لَهْفَ نَفْسِى على غَدٍ إذا رَاحَ أَصحابِى ولستُ برائحِ

يُرْوَى « يا لَهْفَ نفسِىَ من غَدٍ » . والصَّدْحُ : شِدَّة صوت الدِّيكِ والغرابِ وغيرِهما . والصَّيْدَحِىُّ : الشَّديد الصَّوت . والجوانح : ضُلوعُ الصَّدر . وارتقاء النَّفسِ فَوقَها ، كما يقال : بلغتْ نفسُه التراقى . فيقول : عَلِّلانى بالمقترَح عليكما قبل أن أموتَ فتقومَ النَّوائحُ علىَّ يندُبْنَنى ، وقبل ميقاتِ أَجَلِى . وأوانِ تخلُّفى عن أصحابى وقد راحُوا عنِّى ، لنُزول القَدَرِ المقدور بى .

فإن قيل : كيف قدَّم ذكر صَدْح النَّوائح على ذكر الموت ، وإنَّما يكون بعده ؟ قلت : إن العطفَ بالواو لا يوجب ترتيباً . ألا تَرَى أن الله تعالى قال : ﴿ واسْجُدِى واركَعِى ﴾ ، والرُّكوع قبلَ السُّجود فى ترتيب أفعال الصلاة .

وقوله « إذا راح أصحابى » يجوز أن يكون إذا فى موضع الخبر بدلًا من غدٍ ،

(١) الطمحان ، بالتحريك : فعلان من طمح بأنفه ، إذا تكبر . وأبو الطمحان هو حنظلة بن الشرقى ، أو ربيعة بن عوف بن غنم بن كنانة بن القين بن جسر بن شيع الله بن الأسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، أدرك الإسلام فأسلم ، ولم يرالنبى صلى الله عليه وسلم . وكان معروفا بالفسق ، قيل له : ما أدنى ذنوبك ؟ قال : ليلة الدير . قيل له : وما ليلة الدير ؟ قال : نزلت بديرانية فأكلت عندها طفيشلا بلحم خنزير ، وشربت من خمرها ، وزنيت بها وسرقت كساءها ومضيت . ويذكرون أنه عمر مائتى سنة . وفى الشعراء أيضاً أبو الطمحان الأسدى كان فى زمن يوسف ابن عمر ، وأبو الطمحان النهشلى ، وأبو الطمحان الطائى . الخزانة (٣ : ٤٢٦) وشرح التبريزى للحماسة ، والإصابة ٢٠٠٧ والمعمرين ٥٧ والمؤتلف ١٤٩ والاشتقاق ٣١٧ واللآلئ ٣٣٢ والأغانى (١١ : ١٢٥ ـ ١٢٨) والشعراء ٣٤٨ .

(٢) التبريزى : « قبل نوح النوائح » ، ثم قال : « ويروى : قبل صدح الصوادح » .

والبدل إذا جاء مؤكِّدًا المُبدَل منه ومفصِّلًا جُمَلَه قد لا يستغنِي عن المُبدَل منه ، وإذا كان كذلك فليس لأحدٍ أن يقول : من شرط البدل أن يُلْقَى المبدلُ منه ويُجعلَ هو مكانه . وإذا كان كذلك لم يجُزْ أن يَلِيَ إذا العاملَ فى غَدٍ ، وهو « على » أو « من » فى الرِّوايتين جميعاً . على أنّ أبا العباس قد جوَّز وقوعَ إذا فى موضع المجرور والمرفوع . ويجوز أن يكون نصباً بَدَلًا من موضع « من غَدٍ » أو « على غَدٍ » العامل والمعمول فيه جميعا ، لأنَّ موضعهما نصبٌ على المفعول مما دلَّ عليه قولُه يا لهف نفسى ، وهو : أتلهّف من غَدٍ .

وإنَّما جاز أن يُودعَ البيتين باب النسيب لرقّتهما ولأنَّ المتعلّل به كان لذَّةً من اللّذّات . وهذا عادته فى أبواب اختياره(١) .

٤٧٩

آخر :

١ ــ هَلِ الوجْدُ إلّا أنَّ قَلْبِيَ لَوْدَنَا مِنَ الجَمْرِ قِيدَ الرُّمْحِ لاحْتَرَق الجَمْرُ

٢ ــ أفِي الحقِ أنّى مُغْـرمٌ بكِ هائمٌ وأنَّكِ لا خَلٌّ هَـــوَاكِ ولا خَمْرُ

٣ ــ فإنْ كنتُ مطبوباً فلازِلتُ هكذا وإن كنتُ مَسْحُوراً فلا بَرَأ السِّحْرُ

قوله : هل الوجد » استفهامٌ لفظه ومعناه النَّفى ، بدلالة وقوع إلاّ بعده ، كأنَّه قال : ما الوجد ، أو ليس الوجد إلاَّ هذا الذى بى ، وهو أنّ قلبى لو قَرُب من الجَمرحتَّى لا يكونَ بينهما إلاَّ قدرُ رمح لغَلَبَ نارُه نارَ الجمر ، وكان الجمرُ يحترق. وقوله « الوجد » مبتدأ وخبره إلاَّ مع ما بعده . وانتصب « قِيدَ الرُّمْح » على الظّرف . ويقال : بينى وبينَه قابُ قوسٍ ، وقِيدُ رُمْحٍ ، وغَلْوَةُ سَهْمٍ . وحَكَى

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « وهو عادته فى باب اختياره » .

بعضُ أهل التَّفسير فى قوله تعالى : ﴿ فكانَ قابَ قَوسَينِ ﴾ أنَّ لكلِّ قوس قابَيْن ، وهو ما بين المَقْبِض والسِّيَةِ . وأهلُ اللُّغة على ما قدَّمتُه .

وقوله « أفى الحقِّ أنِّى مُغرَمٌ بكِ هائمٌ » فالمغرم : الذى قد لزِمَه الحبّ يُقال : حُبُّه غَرَامٌ ، أى لا تفصِّىَ منه . ومنه عذابٌ غَرَامٌ . والهائم : المتحيِّر . والهُيَام كالجنون من العِشق ، ومنه المُهيَّم : الذى يهذِى بالشىء ويُكثِرُ ذِكْرَه . والمعنى أنه لا يدخُل فى الحقّ ووُجوهِه ، وأنواع قِسَمِه . أن يكون حُبِّى لكِ غَراما ، وحُبُّك لا يرجع إلى معلوم ، ولا يَحصُل على حَدٍّ محصور . ويقال : ما هو بخَلٍّ ولا خَمْرٍ ، والمعنى أنه ليس بشىء يَخْلُصُ ويَتبيَّن .

وقوله « فإن كنتُ مَطْبوباً » فالطِّبُّ : السِّحر والعلم جميعاً . وهو طَبٌّ ، أى عليم . وفى الحديث : « حينَ طُبَّ » أى سُحِر . وهو مطبوبٌ ، أى مسحور . ومعنى البيت : إن كان الذى بى وأقاسِيه داءً معلوماً يُعرفُ دواؤه ، فلا فارقَنى فأنِّى ألتذُّ به — وهذا هو الفِتْيانيَّةُ فى الهوى ، والتجلُّد على البلاء — وإن كنتُ مسحورا ، يريد وإن كان الذى بى لا يُعلَمُ ما هو ، وأَعْيا الوقوفُ عليه الأطبَّاء ، والعلماء بالأدواء ، حتى يُسَلَّمَ للسِّحْرِ فلا فارقَنى أيضاً . وإنما قال هذا من عادة العامّة ، لأنهم كذا يعتقدون فى الأوصاب والعِلل . ولا يجوز أن يكون معنى مطبوباً مسحوراً ، لأنه يصير الصدرُ والعَجُز لمعنًى واحد .

٤٨٠

آخر :

١ — تَشَكَّى المُحِبُّونَ الصَّبابةَ ليتَنى تحمَّلتُ ما يَلقَوْنَ من بينِهم وَحْدِى

٢ — وكانت لنفسِى لذَّةُ الحُبِّ كلُّها فلم يَلْقَها قَبلى مُحِبٌّ ولا بَعْدِى[1]

(١) التبريزى : « فكانت » .

هذا كلامُ مَن تجلَّدَ فى الهوى وادَّعى التلذُّذ به وإن برَّحَ به وأثَّر فيه ، فيقول[١] : شكا المحبُّون جنايةَ الصَّبابة عليهم ، وجريرةَ العشق لديهم ، وبودِّى أنِّى[٢] تحمَّلتُ أعباءَها كُلَّها وحدى ، وخَلَص للصَّبر فيها ولها عَفوى وجهدى ، وكانت نفسى تنالُ لذَّةَ مجموعها ومفرَّقِها ، وتنفردُ بمكابَدَة مجهولها ومعرَّفها[٣] ، فأفوزَ بادِّعائها ، وتسقطَ المشاركةُ بينى وبين أربابها ممَّن سبَقَنِي لتقدُّم زمانِه ، أو تأخَّرَ عنِّي لتأخرِ ميلادِه .

٤٨١

وقال شُبرُمةُ بن الطُّفَيل[٤] :

١ ــ ويَومٍ شديدِ الحرِّ قَصَّرَ طُولَهُ ... دَمُ الزِّقِّ عَنَّا واصطكاكُ المَزَاهِرِ[٥]

٢ ــ لَدُنْ غُدْوَةً حتَّى أَرُوحَ، وصُحْبَتِي ... عُصَاةٌ على النَّاهِينَ شُمُّ المَفَاخِرِ

٣ ــ كأنَّ أباريقَ الشَّمُولِ عَشِيَّةً ... إوزٌّ بأعْلَى الطَّفِّ عُوجُ الحَنَاجِرِ

قوله « ويومٍ » انجرَّ بإضمار رُبَّ ، وجوابُه قَصَّر طُولَه . يقولُ : رُبَّ يَوْمٍ من أيام الصَّيف شديد الحرِّ ، جعل طولَه قصيرًا ، ما اشتغَلْنَا به فيه من الشُّرب والقَصْفِ . وأرادَ بدم الزِّقّ الخمر . واصطكاكُ المزاهر: مُدافعةُ أوتار البَرْبَط بعضها لبَعْض بالضَّرب . ويقال : ازدَهر الرَّجُل ، إذا فَرِح . فيجوز أن يكون العود سُمِّى مِزهراً منه .

(١) فى الأصل : « فيكون » ، صوابه فى ل .
(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « أن » .
(٣) هذا ما فى ل ، وهو الموافق لموسيقى الفاصلة ، وفى الأصل : « ومعروفها » .
(٤) الشبرمة : واحدة الشبرم ، وهو نبت حار يحدر الطبيعة . ولم نعثر لشبرمة على ترجمة . على أن الأبيات نسبت فى الحيوان (٦ : ١٧٩) وثمار القلوب ٥٠٢ إلى ابن الطثرية
(٥) التبريزى والجاحظ والثعالبى واللآلئ ٩٣٨ : « واصطفاق المزاهر » . وقد أشار التبريزى إلى رواية « واصطكاك » .

وقوله « لَدُنْ غُدْوَةً » انتصب غُدوةً عن النون من لَدُن[١] ، ولا ينتصب به غيره ، فهو شاذٌّ . والمعنى : باكَرْنا الشُّرب ، فلمَّا رُحْنا كان أصحابى قد سَكِروا واكتَسَبوا كِبْرًا ونُبْلًا ، وذَهَابًا عَمَّا يُشيرُ به النَّاهِى والمسدِّد[٢] .

وقوله « كأنَّ أباريق الشَّمُول عشيَّةً » شَبَّهَ أوانىَ الخَمْر وقد فُرِّغَتْ وأُميلت بطيورِ ماء اجتمعت عشيَّةً بأعلى السَّاحل[٣] ، معوَجَّة الحناجر والحلوق .

وأدخَل هذه القطعةَ فى باب النَّسيب لرقّتها ودَلالتها على اللَّهو والخَسارة .

٤٨٢

وقال جابرُ بنُ ثَعلبٍ الجَرْمىّ[٤] :

١ — ومُسْتَخْبِرٍ عن سِرِّ رَيَّا رَدَدْتُهُ ... بِعَمْيَاءَ من رَيَّا بِغَيْرِ يَقِينِ

٢ — فقالَ انتصِحْنِى إنَّنِى لكَ ناصِحٌ ... وما أنا إنْ خَبَّرْتُهُ بأمِينِ

يروى : « انتصحْنى إنّى ذو أمانةٍ » ، وهذا فى كتمانِ سرِّ المحبوب ، والمحافظةِ على الذِّمام والحُرَم . يقول : رُبَّ مُسْتَدرِجٍ لى فيما بين رَيَّا وبينى ، طالبٍ للوقوفِ على المكتوم من أمرها وأمرى[٥] ، رددتُه عن نفسى بقصَّةٍ عمياءَ لا يُهتَدى فيها لمطلوب ، ولا يُرجَع فيها إلى يقين ، فلمَّا لم يُمْكنه إنزالى عمَّا حاولَه قال انتصِحْنى ، أى أَدْخِلْنِى فى أمرِكَ ، وأَجْرِنى مَجْرَى نُصَحائك ، إنِّى أمينٌ لا دَغَلَ فى همَّتى ، ولا خيانةَ فى شأنى ، ولو خبَّرتُه بما التمَسَ ، وأطلعتُه على

(١) الأوضح منه ما ذكر التبريزى : « بنصب غدوة مع لدن ، تشبه النون منها بنون عشرين » ، يريد أن غدوة تنصب على شبه التمييز .

(٢) المسدد : الذى يوجه نحو السداد والصواب . وفى الأصل : « والمشدد » صوابه فى ل .

(٣) أى ساحل الفرات . وفى معجم البلدان : « والطف طف الفرات ، أى الشاطئ » .

(٤) كذا فى النسختين ، وهو المطابق لما مضى فى ص ٣٠٤ . وعند التبريزى : « جابر ابن الثعلب الجرمى ، من طيئ » . ويقال أيضاً « ابن ثعلبة » . انظر حواشى ٢١٥ .

(٥) كذا فى ل . وفى الأصل : « فيما بينى وبين ريا ، طلب الوقف من أمرها وأمرى » .

ما استشرح ، كنتُ أنا غيرَ أمينٍ ، فكيف أصير معه مؤتمنًا ، وذاك أنى إنْ بُحْتُ بِسرِّها فقد ضَيَّعتُ أمانتها ، والسرُّ إذا جاوزَ اثنينِ خرجَ من أن يكون سِرًّا . ومثل هذا قولُ جرير :

ولقد تَسَقَّطَنِي الوُشاةُ فصادَفُوا حَصِرًا بسرِّكِ يا أُمَيْمَ ضَنِينَا

٤٨٣

وقال نَفْر بن قَيْسٍ(١) ، وبنو نَفْرٍ رَهطُ الطِّرِمَّاح :

١ — ألا قالت بُهَيْشَـةُ ما لِنَفْرٍ أراه غَيَّرتْ مِنْـهُ الدُّهورُ(٢)

٢ — وأنْتِ كذاكِ قد غُيِّرْتِ بَعْدِى وكُنتِ كأنَّكِ الشِّعرَى العَبُورُ

كأنَّ المرأةَ ازدرته وأنكرتْ شُحوبَه وهُزالَه ، وتغيُّرَه عما عهدَته ، فصَرفَتْ ذلك إلى أنَّه من مقتَضَيات الكِبرَ ، ومسبِّبات القَشَف(٣) ، وقالت مستفهِمةً : ما لِنفْرٍ ، أرَى الأيَّام أثَّرتْ فيه ، والأحداثَ أضْنَتْه وهَزَلَتْه ، فأجابها مِن طريق إنكارها وقال : إنْ كان ذلك من عُقَبِ الأيام فإنها لم تَغْفُل عنكِ ولم تُهْمِلْ تغييرَكِ أيضاً ، فما أنكرْتِه منِّى موجودٌ فيكِ وظاهرٌ على سَحْنَتِكِ(٤) ولونكِ ، فقد كنتِ كالشِّعرَى العبور إشراقا وتلألُؤا ، وقد حلتِ وتغيّرتِ .

و « العَبُور » قيل فيه : هو من عَبَرْتُ النَّهرَ ، إذا جُزتَه . وقيل : بل هو من عَبَّرْتُ به ، إذا شَقَقتَ عليه(٥) ، كأنَّها إذا طلعَتْ تُعَبِّرُ المال الرَّاعِيَةَ بحَرِّها ،

(١) هو الجد الثانى للطرماح ، إذ هو الطرماح بن حكيم بن الحكم بن نفر بن قيس بن جحدر بن ثعلبة بن عبد رضا بن مالك بن أبان بن عمرو بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيئ . وكان الطرماح نفسه يلقب « أبا نفر » . انظر ما مضى من ترجمته فى ص ٢٢٧ .

(٢) التبريزى : « بهيسة » بالسين المهملة ، وهما روايتان صحيحتان . انظر اللسان : (بهس ، بهش) حيث ذكر هاتين الروايتين .

(٣) القشف : يبس العيش وضيقه وسوء الحال .

(٤) فى الأصل : « سجيتك » ، صوابه فى ل .

(٥) فى القاموس : « وعبر به الأمر تعبيرا : اشتد عليه . وعبرت به : أهلكته » .

وإذا سَقَطَت فببرَدها . وقوله : وأنتِ كذاكِ » ، الكاف الأولى للتَّشبيه ، و « ذا » أشار به إلى ما أنكرَتْ منه ، والكاف الأخيرة للخطاب ولا موضعَ له من الإعراب ، فهو حرف .

٤٨٤

وقال بُرجُ بن مُسْهِرٍ [١] :

١ – وَنَدْمَانٍ يَزِيد الكَأْسَ طِيباً سَقَيْتُ إذا تعرَّضَتِ النُّجومُ [٢]

٢ – رَفَعتُ برأسِهِ وكَشَفْتُ عَنْهُ بمُعْرَقَةٍ مَلامةَ مَن يَلُومُ [٣]

النَّدمَان والنَّديم : مَن يُنادِمُك على الشَّراب ، ومثله فى البناء سَلْمَانُ وسَلِيمٌ ، وحَمْدَانُ وحَمِيدٌ ، ورحْمٰن ورحيمٌ . ومعنى « يزيد الكأس طِيباً » أى بحُسْنِ عِشرته ، وأدبِ مجالَسته يزداد شُرب المدام وإدارةُ الكأس معه لذّة . والمعنى : رُبَّ نَديمٍ على ما وصفْتُه سقيْتُه إذا تعرَّضت النُّجوم ، أى أبدت عُرْضَها للغيوب . ويقال : تعرَّضْتُ الجبَلَ ، أى أخذتُ يميناً وشِمالاً فيه ، ولم أستقِمْ فى الصُّعود . قال :

تعرَّضى مَدَارِجًا وسُومى تعرُّضَ الجوزاء للنُّجومِ [٤]

ومعنى قوله « رفعتُ برأسه » أنبهتُه من مَنامه ، وأزلْتُ عنه ما كان يُداخِلُه

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٢ ص ٣٥٩ .

(٢) التبريزى واللسان (عرق) : « إذا تغورت » ، ثم قال التبريزى فى التفسير : « إذا تعرضت النجوم ، أى أبدت عرضها للمغيب » . ورواية المؤتلف ٦٢ تطابق رواية المرزوقى .

(٣) أنشده فى اللسان والمقاييس (عرق) . ورواية المقاييس : « أخذت برأسه » .

(٤) الرجز لعبد الله ذى البجادين المزنى دليل رسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر اللسان (درج) . وأنشده فى المقاييس (درج) بدون نسبة . وبعده :

* هذا أبو القاسم فاستقيمى *

من الغَمِّ بلوم اللائمين إيّاهُ على معاطاة الشُّرْبِ وإدمانِه اللهو ، بأن سقيتهُ مُعْرَقةً — وهي الصِّرْف من الخمر ، وقيل هي القليلة المِزاج . ويقال : تعرَّقْتُ الخمرةَ ، إذا مزَجْتَها . وأعرقه الساقي ، إذا سقاه مُعْرَقاً . وقوله « إذا تعرَّضت النجوم » يشير به إلى الاصطباح .

٣ — فلمّا أنْ تَنَشَّى قامَ خِرْقٌ   من الفِتْيانِ مُخْتَلَقٌ هَضُــومُ[(١)]

٤ — إلى وَجْناءَ ناوِيَةٍ فـكاسَتْ   وَهَى العُرْقوبُ منها والصَّــمِيمُ

انتَشَى ونَشَى وتَنَشَّى بمعنى سَـكِر . والنَّشوة : السُّـكر . وأراد بالخِرْق نفسَه ، وهو الـكريم المتخرِّق بالمعروف . والمُخْتَلَق : التامّ الخَلْق . والهَضُوم ، قال الأصمعي : هو المِنفاق في الشتاء . وقال غيره : هو الـكريم المِفضال ، كأنه يَهضِم مالَه بأن يُخرِجَ منه أكثرَ من الواجبِ فيه . والوجناء ، هي الناقة الغليظة الوَجنتَين . وقيل بل هي الصُّلبة ، مأخوذٌ من الوَجين ، وهي الأرض الغليظة . قال الخليل : وقَلَّ ما يقال للجمَل أوْجَنُ . والنَّاوية : السمينة .

وقوله «فـكاسَتْ» اختَصَر الـكلام، والمراد فعرقَبَها فـكاست . والـكَوْس : المشي على ثلاثِ قوائم . وأراد بالصميم العُضوَ الذى به القِوَام ؛ يقال : هذا صَميمُ الوظيف ، وصميم الرَّأس . والعُرْقوب : عَقَبٌ[(٢)] موتَّرٌ خلفَ الـكعبين فُوَيْقَ العَقِبِ من الإنسان وبين مَفصِل الوظيف والساق من ذوات الأربع . وعرْقَبْتُه : قطعت عُرقوبَه . وقوله « وهَى العُرقوب » إظهارٌ للعلة في كَوْسِها . والوَهْي : الشَّقُّ والخَرْقُ . وفي المثل : « غادَرَ وَهْيَةً لا تُرْقَع » ، أي فَتْقَةً

---

(١) روى التبريزى أيضا : « مختلق » بكسر اللام ، وفسره بأنه الكريم الأخلاق .

(٢) الذى فى اللسان : « عصب » . والعقب، بالقاف وبوزن العصب أيضاً ، هو عصب المتنين والساقين والوظيفين ، يختلط باللحم ، يمشق منه مشقا ويهذب وينقى من اللحم ويسوى منه الوتر .

لا يُطاق إصلاحُها ورَتقُها. والمعنى: لمّا أُقيم رسم الاصطباح، وانتشى النَّدمانُ، قام هو إلى ناقةٍ بهذه الصفة فعرقَبَها.

٥ — كَهاةٍ شارِفٍ كانت لِشَيْخٍ   لَهُ خُلُقٌ يحاذِرُهُ الغَريمُ[(١)]

٦ — فأَشْبَعَ شَرْبَهُ وجَرَى عليهِمْ   بإبْرِيقَيْنِ كأْسُهُمَا رَذُومُ[(٢)]

٧ — تَرَاها في الإناءِ لها حُمَيًّا   كُمَيْتًا مثلَ ما فَقَعَ الأَدِيمُ[(٣)]

٨ — تُرنِّحُ شَرْبَها حتى تَرَاهُمْ   كأنَّ القومَ تَنْزِفُهُمْ كُلُومُ

الكَهاةُ: الناقة الضخمة كادت تدخل في السنّ، وكذلك الكَيْهاة. والشارِفُ: المسنّة. وقوله «كانت لِشَيْخٍ» كان الكريمُ منهم المِحْسانُ إلى عشيرته، المِفْضالُ على رفقائه ونُدَمائه، يتعمَّد إذا نَحَر لهم في الشُّرب وعند السكر، أن يفعلَ ذلك في غير مِلْكِه، يَسْتامُ[(٤)] مالكَ الجَزُور بها أغلى الأثمان فيغرمُه، ويَعُدُّ ذلك الغُرْم غُنْمًا، والصبرَ على سوء خُلُقِه وإنكارِه التبسط في مِلْكِه بغير إذنه كَرَمًا. لذلك قال: «لهُ خُلُقٌ يحاذِرُه الغريم»، يريد البُخْل منه والاستقصاء.

وقد سلك هذا المسلكَ طَرَفَةُ فقال وَوَفَّى المعنَى حَقَّهُ، وكأنه صَبَّ في قالَب هذا الشاعر:

وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارت مَخَافَتِي   نَوَادِيَها أَمْشِي بعَضْبٍ مُجَرَّدِ[(٥)]

(١) لم يرو الآمدى هذا البيت.

(٢) التبريزى: «وسعى عليهم»، ثم أشار إلى الرواية الأخرى.

(٣) الآمدى: «ويروى: نقع الأديم، أى روى. ويقال: أرجوان ناقع، وهو الذى قد روى من الصبغ. فأما فقع فمعناه أحمر، ولذلك قيل: أحمر فقاعى».

(٤) ل: «ليستام».

(٥) البرك: الإبل الكثيرة الباركة. النوادى: القواصى منها. العضب: السيف القاطع.

فمرّتْ كَهاةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلالَةٌ عَقِيلةُ شَيْخٍ كالوَبيلِ أَلَنْدَدِ (١)
يقول وقد تَرَّ الوظيفُ وساقُها أَلَسْتَ تَرَى أن قد أتَيْتَ بمُؤْيِدِ (٢)
وقال ألاَ ماذا تَرَوْنَ بشارِبٍ شَـديدٍ علينا بَغْيُهُ مُتعمِّدِ
فقال ذَرُوهُ إنَّما نَفْعُـها لَهُ وإلاَّ تَكُفُّوا قاصِيَ البَرْكِ يَزْدَدِ
فظَلَّ الإماءُ يمتَلِلْنَ حُـوَارَها ويُسْعَى علينا بالسَّديفِ المُسَرْهَدِ (٣)

قوله « فأشبع شَرْبه » يعني من الناقة المعقورة . وجعل الجاريَ عليهم بأبريقَين والكأس مَلأى تقطُر ؛ لأنّ شُربَهُم كان بِداراً . ثم وَصَف الخمرة فقال : لها سَوْرَةٌ شـديدةٌ ، ولونها حُمْرة متناهية . ومعنى فقَع : حَسُنَ وصَفَا ويقال : أحمرُ فاقعٌ . ويُروى : « مثل ما نَصَع » والمراد خَلَصَ . والحُمَيَّا مصغَّرٌ لا مكبَّر له ، وقد تقدَّمَ القولُ في بنائه . وكُمَيْت : مصغر مرخَّم ، والمراد به تكبيره ، وهو أَكْمَتُ ، لذلك جُمع على كُمْتٍ . ومثله فَرَسٌ وَرْدٌ ، ثم قيل خَيْلٌ وُرْدٌ ، لأنه أُريد به أفعَلُ . ومما جاء مصغَّراً قولهم كُعَيْتٌ ، وهو طائرٌ ، وجُمَيل (٤) ، والثُّرَيَّا ، والغُبَيراء ، والمُرَيطاء ، واللُّجَيْن ، وهُنَيْدَةُ .

وقوله « تُرَنِّحُ شَرْبهم » أي لشدَّتها تُزِيلُ قُواهم ، فكأنهم أُسارَى نُزِفَتْ دماؤهم . ويقال : ضربته حتى رنَّحْتُهُ ، أي غُشِي عليه .

٩— فقُمْنَا والرِّكابُ مُخَيَّسَاتٌ إلى فُتْلِ المَرافِقِ وَهْيَ كُومُ (٥)

(١) الخيف ، بالفتح : جلد ضرع الناقة . العقيلة : كريمة المال . الوبيل : العصا الضخمة . والألندد واليلندد : الشديد الخصومة .

(٢) تر : سقط . المؤيد : الداهية العظيمة الشديدة .

(٣) يمتللن ، الامتلال : جعل الشيء في الملة ، وهي الجمر والرماد الحار . وفي النسختين : « يمتلكن » ، تحريف . والحوار : ولد الناقة . السديف : قطع السنام . المسرهد : السمين ، أو المقطع قطعاً .

(٤) في اللسان : « سيبويه : الجميل البلبل ، لا يتكلم به إلا مصغرا » .

(٥) هذا البيت وتاليه لم يروهما الآمدي .

١٠– كأنَّا والرِّحَالَ على صِـــوَارٍ   برَمْلِ خُزَاقَ أسْـلمَهُ الصَّرِيمُ

يُرْوَى « محبَّسات » أى معقولاتٌ مُناخَةٌ بالفِناء ، وهو الوجه . ورَوَى بعضهم : « مخيَّسات » أى مذلَّلاتٌ ، لـكى إذا رُكِبَتْ للَّهو[١] ، وفى حالة السُّـكر كما فعلهُ هؤلاء ، لم تَعْسِفْ برُكبانها ، ولم تَأْتِ العِرِضْنة فى سيرها . والفُتْل : جمع أَفْتَلَ وفَتلاء ، وهى البعيدة المِرفَق عن الزَّوْر . والـكُومُ : العظام الأسنِمة . وقال الخليل . الـكَوَمُ ، العِظَم فى كلِّ شىء . وقوله « كأنَّا والرِّحالَ » شبَّهَ ركائبهم بقطيعٍ من البَقَر بالرَّمْل المذكور ، أسلَمَه الصَّريمُ إلى الصَّيَّادين والـكلاب ، نخفَّتْ وَعَدَت . والصَّريمُ استعُمِل فى الصبح والليل جميعاً ، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما ينصرمُ عن صاحبِهِ وقتَ السَّحَر . وإنما ركبوا بعدَ الاصطباح للتنزُّه أو فى بَطَالةِ حَضَرَتْهم[٢] .

١١– فَبِتْنَا بين ذاك وبين مِسْكٍ   فَيَا عَجَبـــــا لعَيْشٍ لو يَدُومُ

١٢– وفِينَا مُسْمِعَاتٌ عند شَرْبٍ   وغِزْلَانٌ يُعَدُّ لها الحَمِـــيمُ[٣]

تَبَجَّحَ بأنهم نالوا أكثرَ أنواع اللَّذّات ، من شُرْبٍ وقَصْفٍ، [وتنزُّه[٤]] ولَهْوٍ ، ومعاشرةٍ وطَرَبٍ ، وتَسَخٍّ وإفضال ، وَتَنَدٍّ على الندماء وإكرامٍ ، وتَتَرُّفٍ وتَعطُّر ، وتمتُّع بالنساء وتغزُّل . وقوله «فيا عجبا» إنَّما تعجَّبَ من استمرار الوقت بمثلِ العيش الذى وَصَف ، وكيف سَمَحَ الزمانُ به ثم غَفَل عنه حتَّى اتَّصَل . والمُسْمِعات : المغنِّيات . والسَّماعُ : الغِناء . وذَكَرَ الحميمَ لتنعُّمهنّ ، ولأنَّ بلادهن كانت صُروداً[٥] . وعلى هذا قال عمرو بن كلثوم :

(١) سبق نحو هذا التعبير فى ص ١١٦٩ س ٩ « لكى إذا نابنا ذو حق » .
(٢) البطالة : اتباع اللهو والجهالة .
(٣) هذا البيت لم يروه الآمدى .
(٤) هذه من ل .
(٥) الصرود : جمع صرد ، وهو المكان المرتفع من الجبال ، وهو أبردها .

مُشَعْشَعَةً كأنَّ الحصَّ فيها إذا ما الماءُ خالَطَها سَخِينَا

قال ابن الأعرابىّ : سخيناً حال بمعنى مُسَخَّنٍ ، لأنَّ البَرْدَ اقتضاهُم بذلك الماء .

وقوله « فبِتْنَا بين ذاك » يريد أنَّ حاضر وقتِهم كانَ على ذلك ثم تغيَّرَ .

١٣ ـ نُطَوِّفُ ما نُطَوِّف ثم يَأوِى ذَوُو الأموالِ مِنَّا والعَدِيمُ

١٤ ـ إلى حُفَرٍ أَسافِلُهُنَّ جُوفٌ وأعلاهُنّ صُفَّاحٌ مُقِيمُ

يقول : يُكْثِرُ الواحدُ منا التَّطوافَ على اللَّذّات ، والتَّجوالَ فى الأطراف لطلب البَطَالة ، وليس مآل الجميع مُقْتِرنا وغنيِّنا إلاَّ إلى حُفَرٍ ، يعنى بها القُبورَ . ثمَّ وَصَفَها بأنها جُوفُ الأسافلِ لِلُحُودِها ، وأنَّ أعاليَها نُصِبَتْ عليها حجارةٌ عِراضٌ كالسُّقُوف لها ، وهى دائمة على هذهِ أبدًا .

وقوله « نُطوِّف ما نُطوِّف » أى مدَّةَ تَطوافنا . ويقال : أَوَى إلى كذا أُوِيًّا .

٤٨٥

وقال إياسُ بن الأرَتِّ[1] :

١ ـ هَلُمَّ خَلِيلِى والغَوَايَةُ قد تُصْبِى هَلُمَّ نُحَىِّ المُنْتَشِينَ من الشَّرْبِ

٢ ـ نُسَلِّ مَلَامَاتِ الرِّجالِ بِرَيَّةٍ ونَفْرِ شُرُورَ اليَوْمِ باللَّهْوِ واللِّعْبِ

قوله « والغواية قد تُصْبِى » اعتراض ، وكرَّر هلمَّ على طريق التَّأكيد . والفائدةُ فى هذا الاعتراض تحقيقُ القِصَّة المدعوِّ إليها .

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٧ ص ٢٠٢٨ . التبريزى : « إياس بن الأرت الطائى » .

وللعرب فى « هلمّ » طريقتان: منهم من يُجْرِيه مجرى أسماءِ الأفعال ، وحينئذ يقع للواحد والجمع والمؤنّث والمذكَّر على حالةٍ واحدة ، والقرآنُ نزَلَ به ، لأنَّه قال تعالَى ذكره : ﴿يَقولُونَ لإخوانِهِمْ هَلُمَّ إليْنا﴾ . ومنهم مَنْ يجعل أصلها ها التَّنبيهِ ضُمّ إليه لُمَّ ، وهو فِعْلٌ ، جعلَا مَعاً كالشَّىء الواحد ، فيثنّيه ويجمعه ويؤنّثه . وكان الفَرّاء يقول : هو هَلْ أُمَّ تركَّبا مَعاً . وليس لِهَلْ فى الكلام إلّا موضعان : أحدهما — وهو الأكثر — أن يكون لِلاستفهام ؛ ولا معنى للاستفهام ها هنا . والثّانى : أن يكون بمعنى قَدْ ، على ذلك فُسِّرَ قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسان ﴾ ، وليس لمعنى قَدْ فى هذا مَدْخَلٌ . وإذا كان كذلك فما قاله فاسدٌ .

وقوله «والغواية قد تُصْبِى» يريدُ أنَّ الغَىَّ يدعوصاحبَه إلى أمورٍ كثيرةٍ مختلفة ، وقد يحمله على الصِّبَا واللَّهو فى الوقتِ بعدَ الوقت . وطلَبَ من صاحبِه مساعدتَه على تحيَّتِه للشَّرْب[1] ، والدُّخول فى جُملتهم ، وتسليَة النُّفوس عن مَلاماتِ مَن يدعُو إلى الرَّشاد ، ويَحمِلُ على سُلوك طُرق الصَّلاح والسَّداد[2] ، بشُرْبِ رَيَّةٍ ، وهى الكأس الممتلئة خمْرًا ، وقَطْعِ وقتِ الشَّرِّ والغَمِّ باللَّهو واللعب .

وقوله « نُسَلِّ » فى موضع الجزم ، لأنَّه جوابُ الأمر . و « نَفْرِ » ، معطوف عليه . ويقال : فَرَيْتُ الأديمَ ، إذا قطعتَهُ على جهة الصَّلاح ، وأَفْرَيْتُه إذا قطعتَه للفَساد .

٣ — إذا ما تَراخَتْ ساعَةٌ فاجعَلَنَّها لِخَيْرٍ فإنَّ الدَّهْرَ أعْصَلُ ذُو شَغْبِ

٤ — فإنْ يَكُ خَيْرٌ أو يكُنْ بَعْضُ رَاحَةٍ فإنَّكَ لاقٍ مِن غُمُومٍ ومن كَرْبِ

قوله : « إذا ما تراخت ساعة فاجعلنّها » فى طريقته ما أنشده ابنُ الأعرابىّ :

إذا كانَ يَوْمٌ صَالِحٌ فاقبلَنَّهُ فأنتَ على يَوْمِ الشَّقَاوَةِ قَادِرُ

---

(١) ل : « تحية الشرب » .

(٢) ل : « الرشاد والسداد » .

وقوله « فإنّ الدّهر أعْصَلُ » ، العَصَلُ : اعوجاج الأنياب. قال الخليل : ولا يقال أعصلُ إلَّا لكل معوجّ فيه صَلابةٌ وكَزَازة . والمعنى : أنّ ما يَعَضّ عليه الدّهرُ لا يمكن انتزاعُه منه ، كما لا يمكنُ انتزاع الشَّىء من الناب التي فيها عَصَلٌ . والشَّغْبُ : تهييج الشّرّ . ويقالُ : رَجُلٌ مُشْغَبٌ .

وقوله « فإنْ يكُ خيرٌ أو يكنْ بعضُ راحةٍ » ، يريد أنَّ الدهر لا تصفُو أحوالُه من الكَدَر ، ولا عطاياه من التَّعَبِ والأذى ، فلا تُعِنْه على نَفْسِك ، واجتهِدْ فى إصلاح ما يُفسِده ، وإلقاء ما يَشُقُّ منه . وقوله « فإنَّك لاقٍ مِن غُمومٍ » من زائدة على مذهب الأخفَش ، كأنَّه قال : إنَّك لاقٍ غُموماً . وسيبويه لا يَرَى زيادةَ « مِنْ » فى الواجب ، فطريقته فى مِثله أنَّه صفةٌ لمحذوف ، كأنَّه قال : إنك لاقٍ ما شئت من غُمومٍ .

٤٨٦

وقال آخر :

١ ــ أُحِبُّ الأَرضَ تسكُنُها سُلَيْمَى ... وإنْ كانَتْ تَوَارَثُها الجُدُوبُ

٢ ــ وما دَهْرِى بحُبِّ تُرابِ أرْضٍ ... ولكِنْ مَنْ يَحُلُّ بها حَبيبُ

يذكر حنينَه إلى محلِّ سُلَيمى ومكانِها ، ومَيلَه وإن كانَ قفرًا[1] متردِّدًا فى الجدوبة متناهِياً أقطارُه فى اليُبوسة ، وأنَّ ذلك عَزَّ عليه لكونها به ، فأمَّا حُبُّ الأَرَضِينَ مجرَّدةً فليس من دأبه وعادتِه .

وقوله « وما دَهرِى بحبِّ تُرَاب أرضٍ » جعلَ الُحبَّ للدَّهر على طريقتهم فى قولهم : نهارُه صائم ، وليلُه قائم . والمعنى : ليس حُبُّ الأرضين مِنِّى بِعادةٍ فى

(١) فى الأصل : « فقيراً » ، صوابه فى ل .

دهرى ، وقوله « ولـكنْ مَن يحلُّ بها حبيب » يشبه قولَ الآخر :

ألا يا بَيْتُ بالعليـــاء بَيْتُ ولَوْلَا حُبُّ أهلِكَ ما أَتَيْتُ[1]

يريد أنَّ البيوت فى الموضع الذى جئت منه قد كَثُرَتْ ، ولـكنِّى قصدْتُكَ لحبِّ أهلك . وقوله « توارَثُها » أى تتوارثُهَا . فحذف إحدى التاءين استثقالا . وقد مضَى مثلُه .

٣ ــ أعَاذِلَ لو شَرِبْتِ الخَمْرَ حَتَّى يَـكُونَ لِـكُلِّ أَنْمُـلَةٍ دبِيبُ

٤ ــ إذَنْ لَعَذَرْتِنِي وعَلِمْتِ أَنِّى بِمَا أَتْلَفْتُ مَنْ مالى مُصيبُ[2]

كأن عاذلةً أفرطَتْ فى لومِهِ على ما يُدمِنهُ من الشُّرب ، ويَذهَب فيه من طُرُق اللَّهو ، فقال لها : لو شربتِ الخمرَ فأخذَتْ منك ، ودبَّت فى عُروقكِ ومَفاصِلِك ، وجَمعت السارَّ لكِ ، وكشفَت أنواعَ الغَمِّ عنكِ ، لعَرَفتِ مِن لَذَّاتها ومَنافعها ، وحُدوث الطَّرَب والجذَل فى النُّفوس لها ، واستمتاع الرُّوح بنَشوتها وقُوَاها ، ما يَمنعُكِ على بَسْط عُذرى فى الوَلُوع بها ، والثَّبات على هواها ، ولعلمتِ أنِّي راكب ثَبَجَ الصَّواب ، وغيرُ عادلٍ عن الواجب فى إنفاق المال . معنى « لِمَا أتلفتُ » أى من أجل إتْلافِي . ويُرْوَى : « بما أتلفْتُ » والمعنى أنِّي مصيبٌ بسبِبه ومِن أجْله .

(١) أنشده فى اللسان (بيت) شاهداً على أن البيت فيه بمعنى المرأة .

(٢) ل : « لما أتلفت » ، وأشير فى هامشها إلى أنها فى نسخة « بما أتلفت » .

٤٨٧

وقال أبو صَعْتَرة البَوْلَانِىُّ(١) :

١ ـ فَمَا نُطْفَةٌ مِنْ حَبِّ مُزْنٍ تقاذَفَتْ ... به حِسَنُ الجودِىِّ واللَّيلُ دَامِسُ(٢)

٢ ـ فلمَّا أقرَّتْهُ اللِّصَابُ تنفَّسَتْ ... شَمَالٌ لأعْلَى مائِهِ فهو قَارِسُ(٣)

٤ ـ بأطْيَبَ مِنْ فِيهَا وما ذُقْتُ طَعْمَهُ ... ولكِنَّنِى فيما تَرَى العَيْنُ فارِسُ

قوله « حِسَنُ الجُودىّ » رواه البَرْقىّ : « به حُزَنُ الجُودىّ » ، وكثيرٌ من الناس يرويه : « به جَنْبتَا الجُودىِّ » . وقيل فى « حِسَنِ الجُودىّ » : إنّه قطعةٌ متَّصلة بالجُودى ، والجُودىّ : جبل . وقال صاحب العين : حِسَنُ : اسم رملٍ لبنى سعد(٤) . وذكر البَرْقىّ أن الحَزْنَةَ والحَزْنَ من الأرض والدَّوَابّ : ما فيه خُشونه ، والفعل منه حَزُنَ حُزونةً ، ورجل حَزِنٌ : شَرِسٌ ، وقومٌ حُزُنٌ . ومن روى : « به جَنْبتَا الوادى » فالمراد به الكَنَفُ والنَّاحية . وبعضُهم استدلَّ على أنّ قولَ النَّاس : فُلانٌ فى جَنَبَةِ فُلانٍ ليس بشىء ، وإنما الصواب فى جَنْبةِ فُلَانٍ ، بسكون النون ، استدلالاً بهذا البيت .

وقد روى الأصمعىّ :

* والنَّاسُ فى جَنْبٍ وكُنّا جَنْباَ *

فيقول : ما ماءٌ اجتمع من حَبِّ مُزْنٍ ـ وهو البَرَدُ ، لأنّ المُزْنَ اسمٌ يجمع

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٩ ص ١٠٣٣ . وهذه المقطوعة من بحر المقطوعة وروِيها ، فلعلهما من قصيدة واحدة .

(٢) هذا ما فى ل وياقوت (٢ : ٢٧٩) ، وفى الأصل : « جنبتا الجودى » .

(٣) ل : « لأعلى متنه » .

(٤) ياقوت : « حسن ها هنا : جمع حسنة ، وهى مجارى الماء » . وضبطت الحسن فيه بكسر ففتح كما فى النسختين هنا ، وضبط فى اللسان بفتحتين فى الجمع والمفرد .

(٥) فى اللسان : « الأصمعى : الحزن : الجبال الغلاظ ، الواحدة حزنة ـ أى بالضم ـ مثل صبرة وصبر » .

أنواعَ السحاب ، فهو كالغَيْم — ترامَتْ به جوانبُ هذا الجبلِ واللَّيلُ مظلمٌ إلى أنْ زالَ رَنَقُه ، وانقطَع كَدَرُه . وخبر « ما » قوله « بأطيب » . ثمّ وصَفَ الماءَ بأنه لمَّا حصَل فى القرارات بعد تقطُّعِه بنَضَد الحجارة ، وجَوانب المَذانب والأودية ، فزال عنه أكثرُ شَوْبِه ، هَبَّتْ عليه شَمالٌ لَيِّنَةٌ فَصفَّتْهُ وبرَّدَتْه . يريدُ : ما ماء ساريةٍ بهذه الصِّفة بأعذبَ مِن رُضاب فَمِ هذه المرأةِ ، ولا أقولُ هذا عن ذَوَاقٍ واختبار ، ولكن عن صِدقِ فِراسةٍ ، واعتبارِ مُشاهَدة .

وفى طريقته قول الآخر[1] :

يا أطْيَبَ النّاسِ رِيقاً غَيْرَ مُخْتَبَرٍ إلّا شهادَةَ أطرافِ المَساويكِ

واللِّصاب : جمع لِصْب ، وهو شقوقٌ فى الجبل . والقارس : البارد . وقوله « فارس » أراد به المتفرِّس . ويقال : هو فارس على الخَيل بَيِّن الفُروسَة[2] ، وإذا كان يَتفرَّس فى الأشياء ويُحْسِن النَّظرَ فيها قلتَ : هو فارسٌ بيِّن الفِراسة . والدَّامِس : المُظلِم ، ويقال : دَمَس ، أى أظلَمَ ؛ وأتيته دَمَسَ الظَّلام .

٤٨٨

وقال الحارث بن خالدٍ المخزومىّ[3] :

١ — إنِّى وَمَا نَحَرُوا غداةَ مِنًى عِنْدَ الجِمَارِ تَؤُودُها العُقْلُ

٢ — لو بُدِّلَتْ أعلى مساكِنِها سِفْلاً وَأَصْبَحَ سِفْلُهَا يَعْلُو

(١) هو بشار بن برد . أمالى القالى (١ : ٢٢٨) والأغانى (١٨ : ١٩٢) .

(٢) ل . « الفروسية » ، وهما سيان .

(٣) هو الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن كعب بن لؤى بن غالب : وهو أحد شعراء قريش المعدودين الغزالين ، وكان يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة لا يتجاوز الغزل إلى المديح والهجاء ، وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب بها ، وولاه عبد الملك بن مروان مكة . الأغانى (١٨ : ٩٧ — ١١١) .

٣ — لعَرَفْتُ مَغْنَاها لِمَا ضَمِنَتْ مِنِّى الضُّلوعُ لأهلِها قَبْلُ

أقسَمَ بالقرابين التى ينحرها الحجيج عند المُحَصَّب غداةَ مِنًى وهى معقولة أنَّه لو غُيِّرت ديارُ هذه المرأةِ عن خِططها المعهودة ، ورسومِها المشهورة ، حتى جُعِلَت أعاليها أسافلَها ، وأسافلُها أعاليَها لعَرفَ مغناها المختصَّ بها ، ومَثْواها الجامعَ لأسبابها لما انطوَتْ عليه مَحانى ضُلوعِهِ من وُدِّ أهلِها أيامَ مواصلتِها[1] ، حتى كان لا يلتبس عليه شىءٌ منها . ومعنى « تَؤُودُها » تثقلها . وجواب اليمين « لعرفت » . والمغْـنَى : المنزل . ويقال : غنينا بمكان كذا نَغنَى به غِنًى . وجواب « لو بُدِّلَتْ » ماهو جوابُ القسَم ، وهو لعَرفْتُ .

٤٨٩

آخر[2] :

١ — مَرِيضَاتُ أَوْبَاتِ التَّهَادِى كأنَّها تَخَافُ على أحشائِها أن تَقَطَّعا[3]

٢ — تَسِيبُ انسِيابَ الأَيْمِ أخْصَرَهُ النَّدَى فَرَفَّعَ من أعطافه ما تَرَفَّعا[4]

التَّهادِى : المَشْى بينَ اثنين ؛ يقال : رأيتُه يُهادَى بين اثنَين ويَتهادَى . يصفها بالنَّعمة والرِّقَّة وضعف الحركة ، لِثقَل رِدْفها ، ودِقَّة خَصرِها ، وتَرُفتِها المتملِّكة لأعضائها وحواملها ، فيقول : إذا تهادَتْ بين اثنين فعطَفات حركاتها مريضة ، ونَهَضات اندفاعها بطيئة ، فكأنَّها تجذِب أعاليَها أسافِلَها ، تخاف على

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « ود أهلها لها ومواصلتها » .

(٢) هو رجل من بنى سعد ، كما فى محاضرات الراغب (٢ : ١٣٩) . والبيتان رويا أيضاً فى الحيوان (٤ : ٢٥٩) ومجموعة المعانى ٢٥٩ .

(٣) الحيوان : « مريضة أثناء التهادى كأنما » .

(٤) فى الأصل : « من أعطافها » ، صوابه فى ل والتبريزى وسائر المراجع ، لكن فى الحيوان : « يرفع من أعطافه » .

خصرها التَّقطُّعَ إن تبسَّطَتْ في المشي ، أو تسرَّعَتْ في القصد .

وقوله « تسيب انسيابَ الأينِ » فالأينُ : الجانُّ من الحَيَّات . ويروَى « الأيم » أيضاً ، وهي الحيَّة . والحيَّةُ لا تصبر على البرد ، لأنه إذا أثر فيها يبِسَ جِرمُها فتكسَّرَت . فيقول : هي تنسابُ أي تتدافَعُ في مشيها تَدَافعُ الحية وقد أثَّر فيها النَّدَى فخَصِرَت وأخذَتْ من جرمها وأعطافِها ما أطاعها وأمكنها . كأنّ الحية وقد خَصِرَت شَقَّ عليها ما ينالُها من خَصَر النَّدَى وبَرْدِه ، فهي في انسيابِها تَجَافَى[1] عن الأرض جُهدَها . ويقال : ساب وانساب بمعنًى واحد . وفي القرآن : ﴿وَلاَ سَائِبَةٍ﴾ . قال الدُّرَيديّ : ساب الماء ، إذا جرَى .

٤٩٠

آخر :

١ ــ أَبَتِ الرَّوادِفُ والثُّدِيُّ لِقُمْصِها مَسَّ البُطُونِ وأن تَمَسّ ظُهورَا[2]

٢ ــ وإذا الرِّياحُ مع العَشِيّ تناوَحَت نَبَّهْنَ حاسدةً وهِجْنَ غَيُورَا

لفَّ في البيت الأول الخبرَين لفًّا ، ثم رمَى بتفسيرها جملةً ، ثقةً بأنّ السامع لكلامه يرُدُّ إلى كلٍّ مالَهُ ، وذلك لأنه قال « أبتِ الرّوادف والثُّدِيُّ لقمصها » ، فجمع بين ما يكون خَلْفًا وقُدَّامًا من الرِّدْف والثَّدى . وهو يريد أن يصفَها بأنها ناهدةُ الثَّديين ، دقيقةُ الخصر ، لطيفةُ البَطْن ، وأنها عظيمةُ الكَفَل والرِّدْف ، فالثُّديُّ تمنع القُمصَ أن تلتصِق ببطنها ، والرِّدْف يمنعُها أن تلتصق بظهرها ، فبيَّنَ في التفسير في عجز البيت ما لفَّه في صَدره كما ترى .

وقوله « وإذا الرِّياحُ مع العشيّ تناوحت » ، يريد : وإذا دَنت الأُصُلُ

(١) ل : « تتجافى » .

(٢) البيتان في أمالي القالي (١ : ٢٣) .

وهَبَّت رياحُ الصيف ، فتقابلت ريحانِ كالشمال والجَنُوب ، أو الصَّبا والدَّبور ، وابتردت هذه ، التصَقَ مِن درعها ببطنها وظهرِها ما كان يمنعُه ثديُها وردفُها قبل هُبوبها ، وظَهَر من محاسنها ما ينبِّه الحاسدَ ويهيِّج الغيور ، لأنّ ما خَفِيَ منها ظَهَر للعيون والمَناظر ، فالغيور يَكرَه ، والحاسد يتنبَّه . وقوله « وأن تمَسَّ » جاز انعطافُه على « مَسَّ البطون » لكونِ العامل والمعمول فيه فى موضِعه ومعناه . والبطونُ فى موضع المفعول ، لأن المصدر يُضاف إلى المفعول كما يُضاف إلى الفاعل . والبطون مع لفظ مسّ ، كظهورًا مع أن تمسّ .

٤٩١

وقال بكرُ بن النَّطّاح (١) :

١ – بيْضَاء تسحَبُ من قيامٍ فَرْعَها وتَغيب فِيهِ وهو وَحْفٌ أَسْحَمُ

٢ – فكأَنَّها فيه نَهارٌ ساطِعٌ وكأنَّه ليلٌ عليها مُظْلِم

وصف شعرها بالطول ، وكثرة الأصول ، فإذا قامت سحبَتْه ، وإذا أرسلتْه

(١) شاعر حنفى من بنى حنيفة بن لجيم ، أو عجلى من عجل بن لجيم وهما أخوان . وكان بكر بن النطاح صعلوكا يصيب الطريق ثم أقصر عن ذلك ، فجعله أبو دلف من الجند وجعل له رزقا سلطانيا ، وكان شجاعاً بطلا فارساً ، شاعراً حسن الشعر والتصرف فيه ، كثير الوصف لنفسه بالشجاعة والإقدام ، وكان الرشيد قد غضب عليه فاختفى ، ولم يظهر حتى مات الرشيد ، فلما مات ظهر . وهو القائل :

أكذب طرفى عنك فى كل ما أرى وأسمع أذنى منك ما ليس تسمع
فلا كبدى تبلى ولا بك رحمة ولا عنك إقصار ولا فيك مطمع

وهو مما غنى به قديماً وحديثاً . غنته فى عصرنا « أم كلثوم » . والقائل فى غلام نصرانى كان يجن به :

يا من إذا درس الإنجيل ظل له قلب التقى عن القرآن منصرفا
إنى رأيتك فى نومى تعانقنى كما تعانق لام الكاتب الألفا

الأغانى (١٧ : ١٥٣ – ١٦١) .

سَتَرَها فتغيب فيه ، وهو مع ذلك شديد السَّواد ، مسترسِـلٌ فى جُعُودةٍ واردٌ فى جُثُولة ، فكأنها لشدّة بياضها إذا تغشّاها ، نهارٌ يَسْطع من خَلَل الظَّلام ، وكأنّ شَعَرها لشدّة سوادِه عليها ، ليلٌ مظلم تغشَّى بياضَ نهاره[1] .

٤٩٢

آخر :

١ ــ تأمَّلتُها مُغْتَرَّةً فكأنَّما ... رأيتُ بها من سُنَّةِ البَدرِ مَطْلَعا

٢ ــ إذا ما مَلَأْتُ العينَ منها مَلأْتُها ... من الدّمعِ حتى أُنزِفَ الدّمعَ أجْمعا

يقول : نظرتُ إليها على غرّةٍ منها اختلستُها ، وغَفلةٍ ترصَّدْتُها ، فكأنني رأيتُ بها بدرًا طالعا . وسُنَّة البدر ، أراد وجهَه . ويقال : اغترَّ فلانٌ ، إذا فوجئ عن غِرّة .

وقوله « إذا ما ملأت العين منها ملأْتُها من الدمع » يقول : إذا تزوَّدَتْ عيني من حُسْنِها فنظرَتْ فى أعطافها ، امتلأتْ متحيِّرةً من جمالها ، كما يتحيَّر ظرفُ الماء إذا امتلأ منه . وإنما قال « ملأْتُها من الدمع » لأنه كان ينقطع[2] وُصَلُ تحمُّله ، وتنحلّ[3] عُقَد تجلُّده ، وجْدًا بها ، وتحسُّرًا فيها . والذى يدلّ على أنّ نظرَه لم يكن عن اتِّفاق أنه قال : تأمَّلتُها مُغتَرَّةً ، ومعنى « أُنزِف الدمع » أُفْنيه كلَّه . يقال : نزَفْتُ الماء وأنزفتُه بمعنًى واحد .

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل « يغشى » .
(٢) ل : « يتقطع » .
(٣) ل : « يتحلل » .

٤٩٣

وقال كثيِّر(١) :

١ — ودِدْتُ وما تُغنى الوِدَادةُ أنَّنى   بما فى ضميرِ الحاجبيَّـةِ عالِمُ
٢ — فإنْ كانَ خيْرًا سرَّنِى وعَلِمتُه   وإنْ كانَ شرًّا لم تَلُمْنى اللَّوائمُ

يقول : تمنَّيتُ أنِّى عالمٌ بما ينطوى عليه قلبُ هذه المرأة لى ، وما ينفع التمنِّى إذا لم يُساعِد القدَر . وقوله « وما يغنى الوِدَادة » اعتراضٌ بين ودِدت ومفعوله ، وهو أنِّى . ويقال : وددتُ وَدادَةً ووِدادة ، بفتح الواو وكسرها . وقوله « فإن كان خيراً » يريد : فإن كان ما تضمره لى ودًّا صافياً ، وميلاً ناصعاً(٢) سرَّنى ذلك وسكنتُ إليه ، فلا يذهبُ ما أتكلَّفه فى هواها باطلاً ، وإن كانَ ما تُضمره وتنطوى عليه اعتراضاً خالصاً ، وجفاءً مُرًّا ، قَتلتُ نفسى وأرحتُها من لَوم اللائمات . وقوله « وعلمته » اكتفى بمفعول واحدٍ لأنَّه بمعنى عرفته .

٣ — وما ذَكَرتْكِ النَّفْسُ إلَّا تفرَّقَتْ   فريقَين منها عاذِرٌ لى ولائمُ(٣)

يقول : ما أخطَرتُها ببالى على ما أُقاسى فيها ، ويُوافينى من اطِّراحها وزُهدها

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمن بن أبى جمعة الخزاعى ، صاحب عزة ، وأحد فحول شعراء الإسلام . وكان غالياً فى التشيع معروفاً بالحمق ، وكان من أتيه الناس وأذهبهم بنفسه . وكان المسور بن عبد الملك يقول فيه : « ما ضر من يروى شعر كثير وجميل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان » . توفى كثير سنة ١٠٥ . الأغانى (٨ : ٢٥ — ٤٢) والشعراء ٤٨٠ — ٤٩٩ وابن سلام ١٢١ — ١٢٥ والاشتقاق ٢٨٠ والمؤتلف ١٦٩ والمرزبانى ٣٥٠ ، والخزانة (٢ : ٣٧٦ — ٣٨٣) وابن خلكان ، ومعاهد التنصيص .

(٢) هذا فى ل . وفى الأصل : « نافعاً » .

(٣) بعده عند التبريزى :

فريقٌ أبَى أنْ يقبلَ الضَّيْمَ عَنوةً   وآخرُ منها قابلُ الضَّيم راغِمُ

إلاَّ تفرّقَتْ نفسى فريقين : ففريق يَعذِرُنى ويقول : إنَّ مثلها فى كمالها وظَرفها وحَسَبها ومَنصبها ، وشرفها وسَرْوِها ، يَصْبِرُ على كل أذًى يَعرِض فى اكتسابها ويُغتَلق على جميع عِلاَّتها ، احتفالاً باسمها فى العُشَّاق ، وتكثُّرًا بمكانها بين ذوى الأهواء . وفريقٌ يلومنى ويقول : إنَّك جاهِلٌ بمالَكَ وعليكَ ، مبتذِلُ الرُّوح فى هوًى من لا يُشفِقُ عليك ولا يرفق بك ، ولا يرجع إلى شىء مما تؤْثره ، وإن امتدَّ مَدَى ذهابِها عنك . وهذا قالَه على عادةِ النَّاس فيما يَهُمُّون ، وتَردُّهم بين ما يقوِّى العزمَ عليه وبين ما يضعِفه ، فجَعلَ كلَّ واحدٍ منهما كأنَّه نَفْسٌ على حِيالها .

٤٩٤

وقال أيضاً :

١ — وأنتِ التى حَبَّبْتِ شَغْبًا إلى بَدَا إلىَّ وأوطانى بلادٌ سِوَاهما[1]

٢ — وحلَّتْ بهذا حَلَّةً ثم أصبَحَتْ بهذا فطابَ الواديانِ كلاهُما

خاطبَها فى البيت الأوّل مُعْتَدًّا عليها بأنَّه كما آثرَها على أهلِه وعشيرته ، آثَرَ بلادَها على بلاده ، فذكر [طرفَىْ مَحالِّها فقال : أحبُّ لك وفيك شَغْبًا إلى بَدَا ، وبلادِى[2]] بلادٌ غيرها . ثمَّ أخبر عنها فى البيت الثانى فقال : ونزَلَتْ بهذا — يشير إلى شَغْبٍ — نَزْلَةً ، ثم أصبحَتْ ببَدَا ، ففاح الواديانِ وتضوَّعا بريَّاها . ومثله قولُ الآخر :

---

(١) بعده عند التبريزى :

إذا ذَرَفَتْ عيناىَ أعتلُّ بالقَذى وعَزَّةُ لو يدرى الطَّبيبُ قَذَاهُما

(٢) التكملة من ل .

استَوْدَعَتْ نَشْرَهَا الرِّيَاضَ فما تَزْدادُ إلاَّ طِيبًا على القِدَمِ

ومثله أيضاً :

تَضَوَّعَ مِسْكاً بَطْنُ نَعْمانَ أن مَشَتْ به زَيْنبٌ فى نِسْوَةٍ خَفِرَاتِ(١)

٤٩٥

وقال نُصَيْب(٢) :

١ — لقد هَتَفَتْ فى جِنْحِ ليلٍ حَمَامَةٌ على فَنَنٍ وَهْنًا وإنِّى لنائِمُ(٣)

٢ — كذبْتُ وبيتِ اللهِ لو كنتُ عاشقاً لَمَا سبَقَتْنى بالبُكاء الحمائِمُ

هتَفَت : صاحَت . فى جِنْح الليل(٤) ، أى فيما مالَ من الليل . والفَنَن : الغُصْن . وَهْناً : بعد ساعةٍ من الليل . يقول : جَدَّدَتْ لى حمامةٌ بتغريدِها وَجدًا

(١) البيت لعبد الله بن نمير الثقفى ، كما فى اللسان (ضوع) وإصلاح المنطق ٢٨٧ . ويروى : « عطرات » .

(٢) هو نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان ، كان شاعراً فحلا مقدما فى النسيب والمديح ، ونصيب هذا هو نصيب الأكبر ، القائل فى عبد العزيز :

لعبـد العزيز على قومه وغيرهم نعـم غامره

وأما نصيب الأصغر فهو شاعر عباسى مولى المهدى ، اشتراه فى حياة المنصور ، فلما سمع شعره قال : والله ما هو بدون نصيب مولى بنى مروان . فأعتقه وزوجه أمة له يقال لها جعفرة ، وكناه أبا الحجناء ، وأقطعه ضيعة بالسواد ، وعمر بعده الأغانى (١ : ١٢٥ — ١٤٥ و ٢٠ : ٢٥ — ٣٤) وابن سلام ١٤١ وياقوت (٧ : ٢١٢ — ٢١٦) والعينى (١ : ٥٣٧ — ٥٣٨) والشعراء ٣٧١ — ٣٧٤ .

(٣) بين هذا البيت وتاليه فى ديوان الحماسة بشرح الشيخ الدلجمونى :

فقلت اعتذاراً عِنْدَ ذاكَ وإنَّنى لنفسىَ ممـا قد رأته للائمُ

أأَزْعُمُ أنِّي هائم ذو صـبابةٍ بِسُعْدَى ولا أبكى وتبكى الحمائمُ

وهذان البيتان لم يروهما التبريزى ولا المرزوقى ، فهما ليسا من صلب الحماسة ، على أن بيتى الحماسة هذين نسبا فى الأغانى (٢ : ٨) إلى المجنون ، ورواية أولهما :

لقد غردت فى جنح ليل حمامة على إلفها تبـكى وإنى لنائم

(٤) الجنح بالضم والكسر ، وقد ضبط فى النسختين والتبريزى بالكسر فقط .

وصبابةً . وهى على غُصْنٍ فيما مالَ من الليل ، وإنى لساكنٌ نائمٌ ، ولو كنتُ عاشقاً وحقِّ بيتِ اللهِ لَمَا سبقتْنى الحمائم بالبُكاء ، لكنى كاذبٌ فى دعواىَ متزيِّدٌ . وهذا كلامٌ مستقصِرٍ فيما هو عليه ، مستزيدٍ لنفسه فيما يُجرِى إليه ، يصوِّرها بصورةِ المتشبِّع بما ليس فيه . وهذه الطريقة زائدةٌ على طريقة الملتذِّ بالهوى . وقوله « لَمَا سبقتْنى » ، على عادتهم فيما يعتقدون من شَجْوِ الحمام . لذلك قال أبو تمام :

لا تَشْجَيَنَّ لها فإنَّ بكاءها ضَحِكٌ وإنَّ بُكاءكَ استغرامُ

وسلَكَ مسلكَ نُصَيْبٍ عدىُّ بنُ الرِّقاع فيما أظنُّ فقال :

فلَوْ قبلَ مَبْكاها بكيتُ صبابةً بِلُبْنَى شَفَيتُ النفس قبل التندُّمِ (١)

ولكنْ بكتْ قبلى فهاجَ لِىَ البُكَا بُكاها فقلتُ الفضلُ للمتقدِّمِ

وقوله « لَمَا سبقتْنى بالبكاء الحمائم » اشتمَلَ على جواب اليمين ، وعلى جواب لو .

٤٩٦

وقال الشَّماطِيطُ الغَطَفانى (٢) :

١ — أَرارَ اللهُ مُخَّكَ فى السُّلامَى إلَى مَنْ بالحَنِينِ تشوِّقينا (٣)

(١) فى الكامل ٥٠٤ ليبسك : « بسعدى شفيت » .

(٢) ذكر فى الأغانى (٢ : ٨٦) أن « شماطيط » كان معاصراً لابن ميادة . وأنشد له فى الأغانى واللسان (شمط) :

أنا شماطيط الذى حدثت به متى أنبه للغداء أنتبه

حتى يقال شره ولست به

وهذه الحماسية جاءت عند التبريزى غير منسوبة ، ونص إنشاده : « وقال آخر » .

(٣) التبريزى :

أرار الله نقيك فى السلامى على من بالحنين تعولينا

٢ ــ فإنِّى مِثْلُ ماتَجِدِينَ وَجْدِى   ولـكنِّى أُسِرُّ وتُعْلِنينا

٣ ــ وبى مِثْلُ الذى بك غير أنّى   أُجَـــلُّ عن العِقالِ وتُعْقَلينا

قوله : « أرَارَ اللهُ » يخاطب ناقته ووجَدَها تحنُّ فقال داعياً عليها : جعَلَ اللهُ مُخَّكِ رِيراً . والرِّير : الرَّقيق من المخّ . والقَصْدُ فى الدُّعاء إلى أن يجعلَها الله نِضْواً مهزولا ، وخَصَّ السُّلامَى لأنَّها والعينَ آخرُ ما يبقَى فيه المخُّ عند الهُزال . لذلك قال الشَّاعر(١) :

لا يَشتَـكِينَ أَلَمـاً ما أَنْقَيْنْ   ما دامَ مُخٌّ فى السُّلَامَى أو عَيْنْ

وقوله : « إلى مَن بالحَنينِ تشوِّقينا » ، يجوز أن يكون إنكارًا منه على النَّاقة فى حنينها ، ويجوز أن يريدَ تفخيمَ شأنِ المشتاق إليه ، كأنَّه قال : تشوِّقيننى بحنينِك إلى إنسانٍ وأىِّ إنسان ، ويكون « مَنْ » اسماً نكرةً ، ويكون الكلام خبَرًا ، وفى الأوَّل يكون استفهاماً . وإنَّما أنكرَ ضَجَراً بها ، لأنَّه لم يدْرِ أحنينها إلى ولدٍ أو وطن أو صاحب .

وقوله : « فإنِّى مثلُ ما تجدِينَ » يجوز أن يكون « وجدى » فى موضع النَّصب ، على أن يكون بدلاً من المضمر فى إنّى ، ويكون مثلُ فى موضع خبر إنَّ ، فكأنَّه قال : إنَّ وَجدِى مثلُ ما تجدين ، ويجوز أن يكون وجدى فى موضع الرَّفع على الابتداء ، ومثلُ خَبَرٌ له مقدَّم ، والجملة فى موضع خبر إنّ ، كأنّه قال : إنِّى وجدى مثلُ ما تجدين .

وقوله : « ولـكنِّى أُسِرُّ وتُعلِنينا » يريد إنَّ عقلى يُمسِكنى ، وإن كان وَجدى مثل وَجْدِكِ وبَرْحِى مثل بَرْحِك ، عَن إظهارالتألُّم ، وفى القلب ما فيه ، وأنت تُعلِنينُ وتَصيحين .

وقوله : « وبى مثلُ الذى بك » يقول : إنّ نِزاعى مثلُ نِزاعك ، ولـكنى

---

(١) هو الراجز أبو ميمون النضر بن سلمة ، كما فى اللسان (نقى) . والرجز فى صفة خيل .

يُؤْمَنُ منّى أن أهيمَ على وجهى ، إذْ كنتُ أضبطُ نفسى بما أُعطيتُ من تمييزى وإبقائى ، وأنت تُعْقَلينَ مخافةَ أن تَندّى على وجهكِ ، إذْ لا مُسكَة بك ، ولا رِقبَةَ لك ، ولا حياءَ يردَعُك ، ولا رِعَةَ تُمْسِكُكِ .

٤٩٧

وقال[١] :

١ – ولَمَّا أَبَى إلَّا جِماحاً فؤادُه ولم يَسْلُ عن لَيْلَى بمالٍ ولا أهْـلِ

٢ – تَسَلَّى بأُخْرَى غيرِها فإذا الَّتِي تَسَلَّى بهـــا تُغْرِى بلَيلَى ولا تُسْلِى

يقول : لمَّا عَصَى قلبه وتأبَّى إلَّا جِماحاً فى لَجاجته ، وخُروجا عن طاعته ، ولم تنصرفْ نَفسُه عن ليلَى شُغلاً بتثمير مال ، وترفيه عيش ، ولا بإرضاءِ أهلٍ واستصلاح عشيرة ، أخَذَ يطلبُ السُّلُوَّ عنها فى مُواصلةِ غيرِها من النِّساء وشَغْل القلبِ بحبِّها دونها ، فإذا الَّتى طلبَ التَّسلِّىَ بها تبعثُ على الرُّجوع إلى لَيلى ، وتحضُّ على تَركِ الإيثار عليها ، لأنَّه يَظهرُ من زيادات محاسنها ، وأنواع ما تَوحَّدت به من فضائلها ، ما يدعُو إلى التشبُّث بها ، وعِمارةِ هواها . وجواب لمّا أبى « تَسَلَّى » . والجِماح من قولهم : جَمَحَ الفَرَسُ ، إذا جرى جَرْياً غالِباً لراكبه . وقوله « فإذا التى تَسَلَّى بها » إذا هى هذه التى للمفاجأة ، ومن الظروف المكانيّة لا الزَّمانية ، وما بعده مبتدأ وخبر ، فإنَّه لم يُجعَل مستقرًّا .

٤٩٨

آخر[٢] :

١ – عَجِبْتُ لبُرْئِى مِنْكِ ياعَزَّ بَعْدَ مَا عَمِرْتُ زماناً منكِ غَيْرَ صَحيـحِ

(١) التبريزى : « وقال آخر » .

(٢) التبريزى : « وقال آخر ، وهو كثير » .

٢— فإنْ كانَ بُرْءُ النَّفْسِ لى منكِ راحةً ... فقد بَرِئَتْ إنْ كان ذاكَ مُرِيحى

٣— تَجَلَّى غِطَاءُ الرَّأْسِ عَنِّى ولم يَكَدْ ... غِطاءُ فؤادِى يَنْجَلِى لِسَرِيحِ

يقول : قضيتُ العجبَ من انصراف قلبى عنكِ ، وبُرْئى من الدَّاء فيك ، بعد ما بقيت زماناً مبتَلَى النَّفس فى هواكِ ، عليلَ القَلْبِ بوجدك ، مُبَرَّحاً بى حبُّكِ ؛ فإنْ كان برءُ النَّفس يُعْقِبُ لى راحةً منكِ وفى هواكِ فقد بَرِئَتْ والرَّاحة منتظَرَةٌ ، إن كانتْ من نتائِجِهِ ومسبَّباته . ثم قال « تجلَّى غطاءُ الرَّأس » يريد شِيْبَتُ واستَبْدَلْتُ بلون رأسِى وسوادِ شعرى لوناً آخَرَ حديثاً ، فكأنَّ المتقدِّم كان كالغطاء على رأسى ، تكشّف بالتّأنِّى (١) ، ولم يكَدْ ما تغَشَّى قلبى من حُبِّكِ ينكشف بالهُوَيْنَى .

فإنْ قيل : فى ظاهر هذا الكلام تناقُضٌ ، لأنَّ القائلَ إذا قال كِدْتُ أفعلُ كذا معناه شافَهْتُ فِعْلَهُ وشارفْتُه ، ولا يكون قد فَعَلَهُ ؛ وإذا قال : لم يكد فُلانٌ يفعلُ كذا ، معناه يَقْرُب وقوعُ ذلك منه . فإذا كان كذلك فقد نَفَى عن نفسِه ما أثبتَه بقوله « تَجَلَّى غطاء الرَّأس » ، لقوله : ولم يكَدْ غطاء فؤادى ينجلى لسريح ؟ قلتَ : لو أمسك عندَ قوله « ولم يكدْ غطاء فؤادى ينجلِى » لكان الأمرُ على ماقلتَ ، لكنَّه لما قال « لسَريح » بَيَّن أنَّه لم يَكُنْ عن سهولة وبعجلةٍ ، وقِلة تَعَبٍ ومشقّةٍ ، فنَفْيُه فى الحقيقة لِقلَّة التَّعب والسُّهولة لا للانجلاء ، وإذ كان كذلك يكونُ الغطاء قد انجَلَى عن القلب ، لكنَّه انجلى بعد طُولِ مزاولةِ نَصَبٍ ، ومقاساةِ كَمَدٍ ، وعن شدّةِ تفاقُمٍ ، وبَلاءٍ مُلَازمٍ . ويقال فى الدُّعاء للمرأةِ إذا طُلِقت عند الوِلادة : اللَّهمَّ اجعلْه سَهْلاً سَرْحاً . فالسَّراح والتَّسريح والسَّريح كلُّها فى طريقٍ واحد ، وهو السُّهولة والعجَلة . ويقال : سَرَّحَهَ اللهُ

(١) ل : « بالثانى » .

تعالَى للخَير ، أى وفَّقَهُ له وعَجَّله . وفى المثل : « السَّرَاحُ من النَّجَاح » .

٤٩٩

وقال عُرْوَةُ بنُ أُذَيْنَةَ[1] :

١ — إلْفَانِ يَعنيهما للبَيْنِ فُرْقَتُه ... ولا يَملَّانِ طُولَ الدَّهرِ ما اجتَمَعَا[2]

٢ — مُستقبِلانِ نَشَاصاً من شَبابِهم ... إذا دَعَا دَعْوَةً داعِي الهَوَى سَمِعا

٣ — لا يُعْجَبَان بقولِ الناسِ عن عُرُضٍ ... ويُعْجَبَانِ بما قالا وما صَنَعَا

البين يقع على وجوهٍ : أحدها أن يكون مصدرَ بان يَبين بَيناً وبينونة . والثانى أن يكون ظرفاً ، تقول : بين القوم كذا ، وهو لشيئين يتبايَنُ أحدُهما عن الآخَر فصاعدا . والثالث أنْ يفيد معنى الوَصْلِ ، على ذلك قولُه تعالى : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُم ﴾ . ألا تَرَى أنَّ معناه تقَطَّعَ وصلُكم ، ولا يصحُّ أن يكون المراد تقطَّع افتراقُكم ، لفساد المعنى . وعلى هذا قولهم : سَعَى فلانٌ لإصلاح ذاتِ البين من عشيرته ، لأنَّ المراد إصلاحُ الوصل لا الافتراق . والذى فى البيت هو الثالث ، لأنَّ المعنى : هما متحابّان قد أَلِفَ كلٌّ منهما صاحبَه ، والذى يُهِمُّهما ويَعنِيهما للوَصل ما يُخشَى تعقّبه له من الفُرقة ، لخوفهما منها وفكرُهما فيها ، ولا يكتسبان

---

(١) هو عروة بن أذينة — وأذينة لقب لأبيه واسمه يحيَى — بن مالك بن الحارث بن عمرو بن عبد الله الليثى الكنانى ، فقيه محدث ، وشاعر غزل مقدم من شعراء أهل المدينة ، روى عنه مالك بن أنس وعبيد الله بن عمر العدوى ، وكان محمد وفد على هشام بن عبد الملك ، ووقفت عليه سكينة بنت الحسين ومعها جوار لها فقالت له : أنت القائل كذا وكذا ، وأنشدت أبياتا من النسيب فقال لها : نعم . فالتفتت إلى جواريها وقالت : هن حرائر إن كان خرج هذا من قلب سليم قط . الأغانى (٢١ : ١٠٥ — ١١١) ، وابن خلكان فى ترجمة سكينة بنت الحسين ، والمؤتلف ٥٤ والشعراء ٥٦٠ — ٥٦٦ .

(٢) التبريزى : « تعنيهما » .

مَلَالاً من اتِّصال الاجتماع طُول الدهر . [فقوله «طولَ الدهر» يجوز أن يكون مفعول يملاَّن ، أى لا يملاَّن تطاوُلَ الوقت إذا اجتمعا ، ومدَّةَ اجتماعهما . ويجوز أن يكون طول الدهر ظرفاً ، وما اجتمعا مفعول يملاّن ، أى لا يملاّن الاجتماع طول الدَّهر(١)]. وقوله «مستقبلان نَشَاصاً» فالنَّشَاص أصلُه السَّحاب إذا ارتفعَ من قِبَل العَين حينَ(٢) ينشأ ويَعلو ، فاستُعير هنا لما يُقْتَبَلُ من الشَّباب وأيَّام الصِّبا واللَّهو . كأنَّه يمطرُهُما النَّشاطَ والسُّرور كما يمطر السَّحابُ الغيثَ . وجعَلَ ذلك فيهما بحيثُ يسمعان قريبا دُعاءَ مُنَادِي اللَّهو ويحيِّيانه ؛ لأنّ الوقت وقتُ التَّصابى والبَطَالة . وإلى هذا أشارَ أبو نُواسٍ فى قوله :

قَدْ عذَّبَ الُحبُّ هذا القلبَ ما صَلَحَا فَلَا تَعُدَّنَّ ذَنْباً أن يُقالَ صَحَا

وقولُه « لا يُعْجَبان بقَول النَّاس عن عُرُضٍ » هو من قولهم : نَظَرْتُ إليه عن عُرُضٍ ، أى عن ناحية . والمعنى أنَّه لا يُعجبهما من مَقال الناس وفعالهم شيء ، ولا يأْخذ قلبَهُما وعينَيهما(٣) حديث ولا إبلاغٌ ممَّن كان عن ناحيةٍ وشِقٍ ، لكنَّ الُحسنَ عندهما فيما يتفاوضانِه أو يتقارضانه ، والإعجاب يتعلَّق بما يصنعانِه ويؤْثِرانه(٤) ؛ إذْ كان كلُّ واحدٍ منهما قد صار فى مَلَكةِ هَوَى صاحبه ، وفى رِفاق قَبيلِهِ(٥) ، فلا يُبصِرُ إلاَّ بعينه ، ولا يَسْمَعُ إلاّ بأُذُنه .

(١) التكملة من ل .
(٢) هذا مافى ل . وفى الأصل : « حتى » .
(٣) ل : « وعينهما » .
(٤) كذا فى ل . وفى الأصل : « ويورثانه » .
(٥) ل : « ميله » . والرفاق : مصدر رافق مرافقة ، وهو أيضا حبل للدابة يشد من الوظيف إلى العضد .

٥٠٠

وقال(١) :

١ — ولمَّا بَدَا لى منكِ مَيْلٌ مع العِدَى   سِوَاىَ ولم يَحْدُثْ سِوَاكِ بَدِيلُ
٢ — صَدَدتُ كما صَدَّ الرَّمِىُّ تطاولَتْ   به مُدَّةُ الأيَّامِ وهْوَ قَتِيـلُ

قال سيبويه : معنى سِوَى بَدَلَ ومكانَ تقول . عندى رَجُلٌ سِوَى زَيْدٍ ، معناه وكانَ زيد وبَدل زيد ، وعلى ما فَسَّرَهُ يكون معنى البيت : ولمَّا بدا لى مَيْلُك مع الأعداء بَدَلَ مَيْلِكِ إلىَّ ومكانَ مَيلكِ ، ولم يَحْدُثْ لى بَدِيلٌ مكانَكِ وعِوَضاً منك أعرضْتُ عنك إعراضَ المرمىِّ من الصَّيد المصابِ بسهم الصَّيَّاد ، وهو قتيلُه ، لأنَّ الإصابةَ عَمِلتْ عَمَلَها ، لـكنَّ المدَّةَ تطاولَتْ به ، فهو رهينٌ بإصابته . يريد: صددتُ عنكِ صدودَ يأسٍ لا صدودَ مَقْلِيةٍ ، وأنا أعلم أنَّ هواكِ قاتِلى كهذا المرمىِّ الذى لا يُشَكُّ فى كونه قتيلاً وإن طال نَفَسُ مُهْلَتِه ، ومُدَّ من أَمَد منيَّتِه .

٥٠١

وقال آخر :

١ — أَحُبًّا على حُبٍّ وأنتِ بَخِيلَةٌ   وقد زَعَمُـوا أن لا يُحَبُّ بَخِيلُ
٢ — بَلَى والذى حَجَّ المُلَبُّونَ بَيْتَهُ   ويَشْفِى الهوَى بالنَّيْلِ وهو قَلِيلُ
٣ — وإنَّ بِنَا لو تَعلَمِين لغُـــلَّةً   إليك كما بالحائمات غَلِيـــلُ

الألف من قوله « أَحُبًّا » لفظُه الاستفهام ومعناه التَّوبيخ . وانتَصَبَ حُبًّا

(١) التبريزى : « وقال آخر » .

(٢) ضبطت « يحب » فى ل بالنصب والرفع مشفوعة بكلمة « معا » نصا على الروايتين .

باضمار فِعْلٍ ، كأنّه قال : أتجمعين عَلَيَّ حُبًّا على حُبٍّ ، أو أتزيدينني حبًّا بعد حُبٍّ ، مع بُخلِك وإيثارِ زهدِك ، وعند النَّاس وفى أحكامِهم واعتقادهم أنَّ البخيلَ لا يكون محبوباً . كأنَّه عاتبَها وقرَّعها من أمر الذى بينهما ، وأنَّهما من أجْلِه فى طرَفَىْ نقيض ، وفى لونٍ من العِشْق طريف[1] ، وذلك أنَّ معاملتَها له معاملةُ من لا يتندَّى عليه ولا يرحمُه ، ولا يتسخَّى بشىء له ، وأنَّ جذبَها إيّاهُ فى الهوَى جَذْبُ مَن لا يكتفى معه بعفوه حتَّى يجهدَهُ ويزيدَه وجداً على وَجْدٍ ، وألَمًا بعد ألَمٍ . قال : هذا حَالِى معك ، وفى زَعَماتِ النَّاس أنَّ القُلوبَ جُبلَتْ على حُبِّ المحسنين الباذلين ، لا المسيئين الباخِلين ، ثمَّ استدرك فقال : بلى واللهِ المحجوجِ بيتُه ، المعظَّمِ حَرمُه ، المُداوِى من داء الهوى باليسير الخفيف من النَّيْل ، إنَّ البَخيل ليُحَبّ . ودَلّ على المُقسَمِ له بقوله « وإنّ بنا لو تعلمين لغُلَّةً » وهى حرارةُ العطش ، كما يكون غُلَّةُ الحائمات ، وهى الطُّيور التى تحوم على الماء وتدور من شِدّة العطَش ثمَّ تقعُ عليه ، وقد تكون العِطاشَ أنفسَها .
وقوله « وأنت بخيلَةٌ » الواو واو الحال . وقوله « ألاَّ يُحَبّ » إن شئت جعلت أن النَّاصبة للفعل فنصبْتَ يُحَبَّ به ، وإن شئتَ جعلتَه المخفَّفةَ من الثَّقيلة فيرتفع يُحَبُّ ، يريد أنَّه لا يُحَبُّ . ثم قال : بَلَى ، وهو جوابُ استفهامٍ مقرونٍ بنَفْى . على ذلك قولُ الله عزّ وجل : ﴿ ألستُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ . كأنَّه قيل له مُستفهَماً منه : أيحَبّ البَخيلُ المُمْسِكُ ؟ فقال : بَلَى وأقسِمُ أيضاً ، تأكيدا .
والحَجُّ : القَصد . والنَّيلُ : مصدر نِلْتُه أنالُه . وقوله « لو تعلمين » كالعُذْر لها ، وقد أقامه مستعطِفاً ، يُصَوِّرُها بأنَّها لو عَلِمَتْ ما به كانت لا تستجيزُ ما يجرِى عليه .

---

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « ظريف » .

٥٠٢

وقال آخر :

١ــ إذا كُنتَ لا يُسْليك عَن مَن تَوَدُّهُ تَنَاءٍ ولا يَشفِيكَ طُولُ تلَاقِ

٢ــ فهل أنتَ إلاَّ مُستعيرٌ حُشَاشَةً لِمُهْجَـةِ نَفْسٍ آذَنَتْ بِفِرَاقِ

يخاطبُ نفسَه متوجِّعًا لها ، ومستوحِشاً من الحالة التى مُنِىَ بها ، فيقول : إذا لم تستوفِقْ مع من تحبُّه التباعُدَ عنه ، وأَخْذَ النَّفس بالتفصِّى منه ، لِيُورِثَكَ سُلُوًّا دونه ، ولم يقرِّب شفاءَك من الدَّاء فيه طولُ الاجتماع معه ، واتِّصالُ التردُّد منه . والمريض فى العُرْف والعادة إذا اشتكى من دواء عُولِجَ به نُقِلَ إلى ما يُضادُّهُ ، فإنْ لم يُغْنِ سُلِّمَ لعلَّته ، فكذلك أنتَ إذا لم ينفعْك فيما تقاسيه لا التَّنائى ولا التَّدانِى ، فما ذاك إلاَّ غَرَامٌ ، وما أنتَ فيه إلّا مستعيرُ حشَاشَةٍ ، وهى رُوحُ القَلْب ، ورمَقٌ من حياة النَّفس وقد آذَنَتْ بالمفارقة . والمُهجة : خالِصَةُ النَّفس ؛ ومنه لَبَنٌ أُمْهُجَانٌ .

٥٠٣

وقال عبدُ الله بن الدُّمَيْنَة(١) :

١ــ ألَا يَا صَبَا نَجْدٍ مَتَى هِجْتِ من نَجْدِ فقد زادنى مَسْرَاكِ وَجْدًا على وجدِ(٢)

٢ــ أأَنْ هتَفَتْ وَرْقاءُ فى رَوْنَقِ الضُّحَى على فَنَنٍ غَضِّ النَّبات من الرَّنْدِ

٣ــ بَكَيْتَ كما يَبْكى الوَليدُ ولم تَزَلْ جَلِيدًا وأبديْتَ الذى لم تَكُنْ تُبْدِى

الصَّبا : القَبول . يقال : صَبَتِ الرِّيح تَصْبُوا صُبُوًّا . ومتى هِجْتِ ، أى متى

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٦ ص ١٢٢٣ .

(٢) التبريزى : « لقد زادنى » .

ثُرْتِ واهتَجْتِ . يقال : هاجَ الفَحْلُ والرِّيحُ هِيَاجًا . وهم يخاطبون الرِّيحَ والبَرْقَ إذا كانا من نحوِ أرضِ المحبوب . فيقول : متى اهتَجْتِ من أرضِي نَجْدٍ[1] فقد زادنى سَيْرُكِ شوقًا ، وجَدَّدَ لى هُبُوبُكِ على ما كنتُ أكابِدُه من الوَجْدِ وَجْدًا .

وقوله « أأَنْ هتَفَتْ » يخاطبُ نفسَه مبكِّتًا فيقول . ألأَنْ صاحت حمامةٌ ورقاء فى أوّل الضحى واقِعةٌ على غُصنٍ غَضٍّ من شجر الرَّنْد بكَيْتَ بكاءَ الصَّبِيِّ إذا أعياه مطلوبُه ، وأظهرتَ العجزَ عمَّا حُمِّلتَه ، وعَهْدُ الناسِ بك فيما مضى من أيّامك ولم تزَلْ ثابتَ القَدَمِ فيما ينوبُك ، دائمَ الصبرِ على بلواكَ ، إنَّ هذا منكَر .

٤ — وقد زَعموا أنَّ المُحِبَّ إذا دَنَا يَمَلُّ وأنَّ النَّأْىَ يَشْـفِى من الوَجْدِ

٥ — بكُلٍّ تَدَاوَيْنا فلم يَشْفِ ما بِنَا على ذاكَ قُرْبُ الدَّارِ خيرٌ من البُعْدِ

٦ — على أنَّ قُرْبَ الدارِ ليس بنافعٍ إذا كان مَن تهواهُ ليس بذى وِدٍّ[2]

يقول : زعم الناسُ أنَّ الاستكثارَ من المحبوب والتَّدانىَ منه يُكسِب المحِبَّ مَلالاً ، وأن الاستقلال من زيارته والتَّنائىَ عن محلِّه وداره يُنتج له سُلُوًّا ، فداويتُ بكلٍّ واحدٍ من ذلك فلم يَنجَع ؛ إلاَّ أنه على الأحوال كلِّها وجدتُ قُرْبَ الدار منه خيراً من بعدها عنه ، لِمَا تُوَسوس به النفسُ فى الوقتِ بعد الوقت من طَمَعٍ فيه ، ولتَطَلُّع المجاورين له ، وتجدُّدِ الحديث عنه ، إلى كثير ممـا يُعْدَم فى البِعاد . ثمَّ رَجَع فيما أعْطَى فقال : علىَ أنَّ تقارُبَ الدِّيار لا يكاد

(١) هذا ما فى ل ، على الجمع ، وفى الأصل : « أرض نجد » .

(٢) هذا ما فى ل ، وهو ما يتساوق مع الشرح ، وفى الأصل والتبريزى : « ليس بذى عهد » .

ينفع إذا كان المحبوب لا وُدَّ له ، ولا مَيْلَ له . ويُروَى : « ليس بذى عهد » ، أى لا يبقَى على ما عُهِد عليه .

٥٠٤

آخر :

١ — إذا ما شئتَ أن تَسْلَى خليلاً　　فأكثِرْ دونَهُ عَـدَدَ الليالى

٢ — فما سُلَّى خليلَكَ مِثْلُ نَأْيٍ　　ولا بَلَّى جَـدِيدَكَ كابتذالِ

معناها ظاهرٌ بما تقدَّم ، ويقال : سَلِيتُ ، بمعنى سلوت . قال :

* لو أشربُ السُّلوانَ ما سَلِيتُ (١) *

٥٠٥

وقال آخر :

١ — ألاَ طَرَقَتْنا آخِرَ الليلِ زينبُ　　عليكِ سَـلامٌ هَلْ لِمَا فاتَ مَطْلَبُ

٢ — وقالت تَجَنَّبْنا ولا تقرَبَنَّنا　　فـكيفَ وأنتم حاجَتى أتجنَّبُ

يقول : أتَتْنا هذه المرأةُ سَحَرًا فقلتُ مسلِّما عليها : عليكِ سلامُ الله هل لما فاتَ من أيّام الوِصال والإقبال على الإحسان مَطلبٌ لى فأسأله (٢) . فقالت لى مجيبةً : جانِبْنا ولا تَدْنُوَنَّ منَّا . فقلتُ : أنَّى يكونُ منى مجانبةٌ وأنتم فى الدنيا حاجتى ومُناىَ ، ولا اختيارَ مع الضرورة ، كما أنه لا غنَى عن الفاقة . هذا هو ظاهرُ الكلام . وقد رأيتُ من يفسِّره على أن المراد بآخر الليل آخرُ أيّامِ

(١) لرؤبة فى ديوانه ٢٥ واللسان (سلا) .
(٢) كلمة « الإحسان » ليست فى ل .

الشباب . وكان يَروِى : « عليكَ سلامٌ » بفتح الكاف ، ويجعل الخطاب والتسليم من المرأة للرَّجل ، ويقول : إنما حَيَّتْهُ بتحيَّة الموتى لتولِّى أيّامه ، وتناهِى عُمرِه ، وقولُها « هل لِمَا فات مَطْلب » من كلامِها معاتبةٌ ، كأنها أنكرَت التعرُّضَ لها وقد فاتَه دالّةُ الشَّباب ، وشَفاعةُ النَّضارة والاقتبال . والأَوْلَى ما قدَّمْتُه .

٣ــ يقولون هَلْ بعد الثَّلاثين مَلْعَبٌ فقلتُ وَهَلْ قَبْلَ الثَّلاثين مَلْعَب (١)

٤ــ لقد جَلَّ خَطْبُ الشَّيبِ إِنْ كنتُ كُلَّمَا بَدَتْ شَيْبَةٌ يَعْرَى من اللَّهْوِ مَرْكَبُ

المضمَر فى « يقولون » المتعصِّبون للمرأة والنَّاس . يريد : عيَّرونى بتعاطِى الصِّبا واللَّهوِ واللعب ، بعد تَقَضِّى الثلاثين من أيَّام عمرى فقالوا : هل بعد الثَّلاثين ملعب ، أى لا ينبغى اللَّهوُ لمثلك . فقلت لهم : وهل قبلَ الثَّلاثين ذلك . والمعنى أنَّ مَن عَدَّ ما دون الثلاثين فهو فى عداد الصِّبيان ، لا يعرف اللّذات ، ولا يصلُح للبَطالات . ويجوز أن يكون المراد : وهل تَسهَّلَ لى قبل الثَّلاثين شيء مِنْ مَبَاغِى اللَّهو واللّعب فيُذكَرَ منِّى طلبى إيّاه بعده .

وقوله : « لقد جَلَّ خَطْبُ الشَّيب » لقد جوابُ يمين مضمَرة ، ولك أن تروى « أنْ كنتُ كلَّما » والمعنى لأن كنتُ كلَّما . ولك أن تكسر الهمزة فتكون إنْ المفيدة للشَّرط ، والمراد : إن كنتُ كلّما بَدَت فى رأسى لُمْعَةٌ من الشَّيب يلزم منها أن أعرِّىَ مَرْكَباً من مراكب اللَّهو ، فلقد عظُمَ خَطْبُ الشَّيبِ ، ويكون جوابُ إنْ فى قوله « لقد جَلَّ خَطْبُ الشَّيب » ، وكلَّما فى موضع الظَّرف .

(١) البيت وتاليه فى عيون الأخبار (٤ : ٥٣) .

٥٠٦

وقال كُثَيِّر [١] :

١ — وأَدْنَيْتِنِي حَتَّى إذا ما فَتَنْتِنِي ... بِقولٍ يُحِلُّ العُصْمَ سَهْلَ الأباطِحِ [٢]

٢ — تَنَاهَيْتِ عَنِّي حينَ لَا لِيَ حِيلَةٌ ... وغادَرْتِ ما غادَرْتِ بينَ الجوانِحِ [٣]

يقولُ : توفَّرتِ عَلَيَّ ولَطَّفْتِ لِيَ المقالَ والفعال ، على تَطَلُّقٍ من وجهكِ ، وهَشاشةٍ ظاهرةٍ منكِ ، حتى أوقَعْتِني فى حِبالتك ، وخبَّبْتِ [٤] قلبي بكلامٍ يقرِّب البعيد ، ويسهِّل العسير ، ويُؤْنس النافر ، ويُطْمِع اليائس ، فلمَّا استكملَ مرادُكِ فيَّ ضممتِ أطرافَكِ إليك ، وقبضتِ ما انبَسَط من أمَلي فيك . والعُصْم : جمع أَعْصَمَ وعصماء ، وهى الوُعول الجبليَّة التى فى قوائمها بياض . وجواب « إذا » تناهيتِ عَنِّي . والمعنى : بعد ما كَسَبْتِنِي خَبالاً ، وجَلَبْتِ على عقلي وقلبي فساداً ، كَففتِ عنِّي ، وتباعدتِ منِّي وقتَ أعيَتْنِي الحِيلُ فى الانفكاك ، وتأبَّى تمازُجُ الهوَى وتلاصُقُه من الانسلاخ ، وتركْتِ بين جوانحي ما تركتِ من وجدٍ متصل ، وحزن دائم .

فإن قيل : إنَّ كثيِّرا عَلَمٌ فى النَّسيب ، فلِمَ لم يرضَ بإظهار التَّوجُّع من المعامَلة ، والتَّألُّم من التهاجر والقطيعة ، حتَّى اعتدَّ على صاحبته ذَنباً . ونَسَبَ إليها

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٩٣ ص ١٢٨٧ . والبيتان نسبا فى الأغانى (٢ : ١٤) إلى المجنون .

(٢) التبريزى : « إذا ما ملكتنى » . وفى الأمالى (٢ : ٢٢٨) : « إذا ما استبيتنى » والأغانى (٢ : ١٤) : « إذا ما سبيتنى » .

(٣) القالى : « توليت عنى حين لا لى مذهب » . الأغانى : « تناءيت عنى » « وخلفت ما خلفت » .

(٤) خببت ، من التخبيب ، وهو الخدع . وفى الأصل : « خيبت » صوابه فى ل .

خِيانة ووِزْرًا ؛ لأنَّ الذى وَصَفَ من افتتانها فى افتتَان الرِّجال ليس من شأن العفائف ؟ قلتَ : إنَّ كثيِّرا لم يصِفْ صاحبتَه إلاّ بصفة العفائف . ألم تسمع قول الآخر :

يَزِنَّ عَفَافًا واحْتَجَبْنَ تَسَتُّرًا وشِبْنَ بقولِ الحقِّ منهنَّ باطِلُ
فذُو الِحلْمِ مُرتابٌ وذو الجهل طامِعٌ وهُنَّ عن الفحشاء حِيدٌ نَوَاكِلُ
كَوَاسٍ عَوَارٍ ، صامتاتٌ نواطِقٌ بِعَفِّ الـكلام ، باذلاتٌ بواخِلُ

فتأمَّلْ ما قالَه فإنَّه غايةٌ فى استقامة الطَّريقة ، وإن هَلَـكَتْ نفوسٌ ، وخُبِّلت عقول .

وحُدِّثت عن أبى حاتمٍ عن الأصمعىّ عن أبى عمرو بن العلاء ، عن راويةِ كثيِّر[1] قال : كنتُ مع جرير وهو يريد الشَّام ، فَطَرِب فقال : أنشِدْنى لأخى بنى مُلَيْحٍ[2] ، يعنى كثيِّرا ، فأنشدته حتى انتهيت إلى قوله : وأدنيتنى حتى إذا ما فتنتِنى ، الأبيات ، قال جرير : لولا أنه لا يَحسنُ بشيخ مثلى النخير لنخرت حتى يسمع هشام على سريره .

٥٠٧

وقال آخر :

١ ــ تعرَّضْنَ مَرْمَى الصَّيْدِ ثم رَمَيْنَنَا مِنَ النَّبْلِ لا بالطَّائشاتِ الخَوَاطِفِ
٢ ــ ضعائفُ يَقْتُلْنَ الرِّجالَ بلا دَمٍ فيا عَجَبًا للقاتلاتِ الضَّعائفِ
٣ ــ ولِلعَيْنِ مَلْهًى فى التِّلادِ ولم يَقُدْ هَوَى النَّفْسِ شىءٌ كاقتياد الطَّرائفِ[3]

قوله « مَرْمَى الصيد » ، موضعه نصبٌ على الظرف ، أى تعرَّضْن لنا وبيننا

(١) وكذا فى أمالى القالى (٢ : ٢٢٨) بدون تعيين له .
(٢) مليح ، كزبير : حى من خزاعة . القاموس (ملح) ، ونهاية الأرب (٢ : ٣١٨) .
(٣) البيت فى الحيوان (١ : ١٧٠) .

وبينهنَّ غَلْوَةُ سَهْمٍ ، فِعلَ المتعرِّض للصَّيد إذا أراد رَمْيَهُ . ويُرَاد بالصَّيد المَصيد ، كما يُرادُ بالخلق المَخْلُوقُ . وقوله « ثُمَّ رمينَنا من النبل » ، يريد : ثمَّ نظَرْنَ إلينا وعَرَضْنَ محاسنَهنَّ علينا ، وتلك نبالُهنَّ التى لا تخِفّ فتَعْدِلَ ، ولا تَخْطَف فتَقْصُرَ . والخاطِفُ من السِّهام : الذى يقَعُ على الأرض ثم يحبو إلى الهدَف كأنَّه يخطَف من الأرض شيئاً . والطَّائش : الخفيف الذى لا يستقيم ؛ ومنه الطَّيْش والطَّيّاش ، كأنه يُرَى لخفته عادلا عن سواء السبيل . ومفعول رميننا الثانى محذوف كأنَّه قال : رميننا لا بالطَّائشات ، ولكن بالصَّائبات النَّاقرات . والنَّاقر : الذى يَنْقُر الهدَف .

وقوله «ضعائف يَقْتُلن الرِّجال بلا دَمٍ» يريد بلا تِرَةٍ وذَحْلٍ . والضَّعف الذى أشار إليه يريد فى الخِلقة والخُلُق ، أى يقتُلن الرِّجال وإن ضَعُفْن عن جِذابهم كَيْدًا وفِعْلا . ثم قال : يا عَجَبًا لمن يقتل القوىَّ على ضعفه . ويا عجبا يجوز أن يكون على طريق النُّدبة ، ويكون منادًى مفرَداً أُلحق به الألف ليمتدَّ به الصَّوت ، ويدلَّ على فرط الشَّكْو . ويجوز أن يكون مُنادًى مُضافاً ففرَّ من الكسرة وبعدها ياء فانقلبت ألفا . واللام من قوله « للقاتلات » هى التى تفسَّر بأنَّها لام العِلَّة ، كأنَّه علَّلَ تعجُّبَه بقوله للقاتلات ، فارتفع ضعائف على أنَّه خبر مبتدإ محذوف .

وقوله « وللعَيْنِ مَلْهًى فى التِّلاد » ، يُريد أن للعين لهوًا وراحةً إذا نظرَتْ فى التِّلاد الرَّائق المعجِب — والتِّلاد : ما قَدُم مِلْكُهُ — ولم يَجْذِب هوَى النَّفس شىءٌ كما يجذبُه الطّرائف ، وهى المستحدثات ، وهذا كما يقال : « لكلِّ جديدٍ لذَّة » وما أشبهه . وقاد واقتادَ بمعنًى واحد ، والمَلْهَى كما يجوز أن يراد به الحدَث ، وهو اللَّهو ، يجوز أن يراد به موضع الحدَث ووقتُه .

٥٠٨

وقال آخر :[١]

١ــ لَئِن كان يُهْدَى بَرْدُ أنيابها العُلَى لِأَفْقَرَ مِنِّى إنّنى لفقيرُ

قوله « يُهْدَى » يجوز أن يكون من الإهداء الإتحاف ، ويجوز أن يكون من الهِدَاء الزِّفاف . وقوله « أنيابِها العُلَى » يرادُ به الشَّريفةُ العالية الشّأن . ويجوز أن يُراد بالعُلَى الأَعالِى من الأسنان ، لأنها موضع القُبل . ويعنى ببَرْد الأسنان عُذوبةَ الرُّضاب عند المذاق . وقوله « إنى لفقيرٌ » فعيل بناء المبالغة ، ولا سيَّما إذا أُطلِق إطلاقاً ، فلا يقال فقيرٌ إلى كذا وكذا فيُخصَّص . والمعنى : إن كان يتربَّص بمتَّسِق مَضْحَـكِها ، وواضح مُقَبَّلِها ، وطيِّب رُضابها ، وبَرْدِ أسنانها ، لمن هو أفقرُ منِّى إليها ، فإنى الفقيرُ مطلقاً . والمعنى : لاغايةَ وراءَ فقرى . ومما يَجرى مجرى فقيرٍ إذا أُطْلِق ، قولُهم سقيم . ألا ترى قول الآخر[٢] :

لئن لَبَنُ المِعْزَى بماءِ مُوَيْسِلٍ بَغَانِىَ داءً إننى لَسَـقِيمُ[٣]

يريد المتناهى فى السَّقَمِ حتى لا غايةَ وراءه . وأفقرُ ، كأنه بُنِى على فقُر المرفوضِ فى الاستعمال . وإنما قلت هذا لأنّ فقيراً كان حُـكْمُه أن يكون فعله على فَقُر ، ولم يجئْ منه إلاَّ افتقر . وشرْط فعل التعجُّب وما يتبعُه من بناء التفضيل أن لا يجىءَ إلاَّ من الثُّلاثىِّ فى الأكثر ، وما كان على أفعل خاصَّـةً ، وإذا كان كذلك فأفقرُ لا يصحُّ أن يكون مبنيًّا على افتقر ولـكن على فَقُر ؛

---

(١) هو عبد الله بن الدمينة . ديوانه ٢٥ – ٢٦ .

(٢) هو واقد بن الغطريف الطائى ، أو زيادة بن بحدل الطربفى الطائى ، كما فى معجم البلدان (٨ : ٢٠٣) .

(٣) قبله : يقولون لاتشرب نسيئاً فإنه إذا كنت محموما عليك وخيم

فهذا طريق . ولك أن تقول : بُنِيَ منه على حـذف الزَّوائد ، كما جاء : ريحٌ لاقِحٌ والمراد مُلْقِحٌ ، وما أشبهه .

٢ ـ فما أكثَرَ الأخبارَ أن قد تزَوَّجَتْ   فَهَـلْ يأْتينِّى بالطَّلاقِ بَشِـيرُ

قوله « أن قد تزوَّجت » ، أراد : بأن قد تزوجت . وحذْفُ الجارِّ مع أنْ كثير ، وموضعه من الإعراب مفعول من قوله الأخبار . والأخبار : جمع خَبَر ، ووضَع خَبَرًا موضع الإخبار ، كما يوضع الطاعة موضع الإطاعة ، ثم عدّاه وهو مجموع ، ومثله :

* مَواعيدَ عُرْقُوبٍ أخاهُ بيَثْرِبِ[1] *

ألا تراه أنه انتصَب أخاه عن جَمْعٍ وهو مواعيد . ومعنى البيت : كثُرَ فى أفواه الناس الإخبارُ بتزوُّجها ، واشتغالِها ببعلها عن غيرِه ، فهل يأتينِّى مبشِّرٌ بتطليقها . وهذا ليس باستفهامٍ وإنما هو تمنٍّ .

٥٠٩

وقال آخر[2] :

١ ـ يُقِرُّ بعينِى أن أرى رَمْلَةَ الغَضَى   إذا ما بَدَت يومًا لعَيْنِى قِلالُها[3]

---

(١) البيت للأشجعى ، كما فى أمثال الميدانى (مواعيد عرقوب) . وصدره :

* وعدت وكان الخلف منك سجية *

وأنشد فى الأغانى (١٥ : ١٤٤) للشماخ :

وواعدنى ما لا أحاول نفعه   مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وعرقوب هذا رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله ، فقال له عرقوب : إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها . فلما أطلعت أتاه للعدة فقال : دعها حتى تصير بلحاً . فلما أبلحت قال : دعها حتى تصير زهواً . فلما زهت قال : دعها حتى تصير رطباً . فلما أرطبت قال : دعها حتى تصير تمراً . فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجذها ولم يعط أخاه شيئاً . أمثال الميدانى .

(٢) هو أحد الأعراب ، كما فى معجم البلدان (٦ : ٢٩٥) .

(٣) فى معجم البلدان : « إذا ظهرت يوماً » .

٣ـ ولستُ وإن أحببْتُ مَن يَسكُنُ الغَضَى ... بأوّلِ رَاجٍ حاجــةً لاَ ينالُها

أضاف الرَّملةَ إلى الغضى تشهيراً لها. وقوله «يُقِرّ بعينى»، هــذه الباء تزاد كثيراً مع أَقرّ، والأصل يُقِرّ عَينى، وزيدت الباء تأكيداً. تقول قرّت عينى وأقرّها الله. وقوله «أن أرى» فى موضع الفاعل ليُقِر، والمراد: إذا بَدَت يوماً لعينى قِلالُ الغضى — وهو جمع القُلّة وهى أعلَى الجبل — فقُرّةُ عينى فى أن أرى رمالَها أيضاً وبَطْحاواتها. ثم قال على طريق اليأس من ذلك: ولستُ بأوّلِ مَن رجا مؤمِّلا. وائتمر مُقدِّرًا، ثم لم يحصُل منهما على طائل. يريد: ولا غَرْو إن كنتُ أحببتُ سُكّانَ الغضى أن يكون هذا حالى معهم. كأنه كان بين أهل الغضى وبين قومِه عداوةٌ، أو حالةٌ مانعة من المزاوَرةِ والمواصــلة، فلذلك قال ما قال.

٥١٠

وقال آخر(١):

١ — سَلِى البانةَ الغَنّاء بالأجرعِ الذى ... به البانُ هل حَيَّيْتُ أطلالَ دَارِكِ(٢)

٢ — وهل قمتُ فى أظلالهنّ عَشِيَّةً ... مقامَ أخِى البأساء واخترتُ ذٰلِكِ(٣)

(١) هو عبد الله بن الدمينة. والأبيات من قصيدة فى ديوانه ١٥ – ١٦ مطلعها:

قفى يا أميم القلب نقض لبانة ... ونشكُ الهوى ثم افعلى ما بدا لك

(٢) التبريزى: «البانة الغيناء» ثم ذكر الرواية الأخرى.

(٣) بين هذا البيت وتاليه أربعة أبيات عند التبريزى، وهى:

وهل حَمَلَت عيناىَ فى الدار غُدوَةً ... بدمعٍ كنَظْم اللُّؤلؤ المُتهالِكِ

أرَى الناسَ يَرجُون الرَّبيعَ وإنّما ... ربيعى الذى أرجُو نوالُ وصالِكِ

أرى الناسَ يخشَوْنَ السِّنينَ وإنما ... سِنِىَّ التى أخشَى صُرُوفُ احتمالِكِ

لئن ساءنى أنْ نلتِنى بمساءةٍ ... لقد سرّنى أنى خَطَرْتُ ببالِكِ

٣ — ليَهْنِكِ إمساكى بكَفِّى على الحَشا   ورَقْرَاقُ عينى رَهْبَةً من زِيالِكِ

سَلِي ، أصلُه اسأَلى فحذِف الهمزةُ تخفيفاً وأُبقيَت حركتُها على السِّين فصار اِسَلِي ، ثم استُغنى عن همزة الوصل لتحرُّك ما بعدها فحُذفت فصارت سَـلِي . وهذا كما تقول فى الأحمر إذا خفَّفْته : لَحْمَر . ومن قال اَلَحْمَر يقول : اِسَلِي فيبْقِى ألفَ الوصل . ويروَى : « البانَةَ الغيناء » والغَنَّاء : الملتفّة الـكثيرة الورق والأغصان ، فإذا ضربتْها الريح غَنَّت[1] . وهذا كما قال الآخر :

لِلثَّرَى تحتَها سُبَاتٌ وللمـا   ءِ خريرٌ وللغُصون غِناء

والأجرع من الأماكن : السَّهل المختلِط بالرمل . والغَيناء ، هى العظيمة الواسعة ، من قولهم غان عليه كذا إذا ستَر ، وبه سُمِّيَ السَّحابُ الغَيْن . وإنما قال « الذى به البانُ » لأنه كان منبِتَه . واستشهَدَ بالبان على أنه هل قَضَى حَقَّ منزلِ الأحبَّة لمّا وقف عليه ، وهل حَيَّا أطلالَه تحيَّةَ المتقرِّب إليها ، والقاضى لوازمَها ، وهل قامَ فى أظلال البانِ بها مَقامَ الضَّرير البائس ، والـكسير الرَّازِح ، تذلُّلاً لها ، وتلوُّماً بها ؛ وهل ذلك كلُّه عن اختيارٍ وقصدٍ أو كما اتَّفق .

ثم قال « ليَهْنِك إمساكى » كأنَّه لمَّا وقفَ على الدار وتذكَّرَ العُهودَ فتصوَّر له ما كان دَرسَ من آياتِ هواه ، وتَجدَّدَ ما أخاقَ منها ، خَشِيَ على كَبِدِه التصدُّعَ فأَمسَكَ بكفِّهِ على حَشَاهُ ، تثبيتاً لها وتقويةً ، وبَكَى فترقرقَ الدمعُ فى عينِه ثم سالَ . فقال هَنَّاكَ الله ذلك كلَّه منى . وانتصَب رَهْبَةً لأنه

---

(١) فى هامشة ل : « حاشية قال السيد الإمام أبو الرضا رحمه الله : رحم الله أبا على ، غلط غلطة ، وكيف يكون الغناء من الغناء فى شىء ، وهذا من غ ن ن ، وذاك من غ ن ى . إنما هو من قولهم شجرة غناء كثيرة الأوراق ، وواد أغنّ أى كثير العشب تألفه الـ [ذبان] وفى أصواته غنة . فأما الغناء فبعيد منه » .

مفعول له . وهذا من باب التجلُّد في الهوَى . والزِّيَال : مصدر زايَلَ . وفي هذه الطريقة قولُ الآخر :

يَرْفَعُ يُمْنَاهُ إلى رَبِّهِ يَدْعُو وفَوْقَ الكَبِدِ اليُسْرَى

٥١١

وقال آخر :

١ — تَمَتَّعْ بها ما ساعَفَتْكَ ولا تَكُنْ عَلَيكَ شَجًى في الصَّدْرِ حِينَ تَبِينُ[(١)]

٢ — وإنْ هِيَ أَعْطَتْكَ اللِّيانَ فإنَّها لِغيرِكَ من خُلَّانِها سَتَلِينُ[(٢)]

٣ — وإنْ حَلَفَتْ لا يَنْقُضُ النَّأْيُ عَهْدَها فَلَيسَ لِمَخضُوبِ البَنانِ يَمِينُ

يصف النِّساء وأخلاقهنَّ في الانقياد والتأبِّي إذا رُووِدْنَ ، واستعمالَهنَّ الوفاءَ من بَعْدِ غَدْرِهِنَّ[(٣)] ، ويُوصِي باستبقاء المقارَبة معهنَّ ، وتَرْكِ تدقيق محاسَبَتِهِنَّ ، والرِّضا بالميسور من مصافاتهنَّ ، فيقول : عليك في الاستمتاع بهنَّ مدَّةَ انقيادهنَّ لك ، وإسعافهنَّ بالمراد من جهتهنَّ ، لا يَشْجُوَنَّك تنكُّرُهنَّ لك ، وبينونتهنَّ إذا عَدَلْنَ عنك ، واعلمْ أنَّ الواحدةَ منهنَّ إذا لانَتْ لك فهي بعَرَضٍ أن تلينَ لغيرك ، فلا تعتمدْ عليهنَّ وإن حَلَفَتْ لك أنَّها تَفِي وتَبْقَى على عهدها معك ، واعلَمْ أنَّه لا يمينَ لمثلها يُستوثَق بها ، أو يُستَنَامُ إليها ، وفي طريقته قولُ بَشَّار :

لا يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ مُخَبَّأَةٍ قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وإنْ جَرَحا

عُسْرُ النِّساءِ إلى مُيَاسَرةٍ والصَّعْبُ يُمكِنُ بعدَما جَمَحا

---

(١) التبريزي : « في الحلق » .

(٢) ل : « فإن هي » .

(٣) في النسختين : « من بعد وغدرهن » ، والوجه ما أثبتنا .

٥١٢

وقال العباس بن مرداس(١) :

١ — قَليلةُ لَحْمِ النَّـاظِرَيْنِ يَزِينُها شبابٌ ومخفوضٌ من العيش بارِدُ
٢ — أرادَتْ لِتَنْتاشَ الرِّواقَ فلم تَقُمْ إليـهِ ولـكن طَأْطَأَتْهُ الوَلَائِدُ
٣ — تنَاهَى إلى لَهْوِ الحديثِ كأنَّها أخُو سَقْطَةٍ قد أسْلَمَتْهُ العَوائدُ

الناظِران : عِرْقان فى مَدْمَع العينين : يصفها بأنَّها ليست بجَهِمةِ الوجه ، لـكنَّها أَسِيلةُ الخدَّين ، ويزينُها شبابٌ مُقْتَبَلٌ ، ورفاهَةٌ من العيش ودَعَةٌ ، ويقال : عيش خَفْضٌ ، وخَفَضْتُ عيشَه فهو مخفوض . والبارد : الثّابت . ويقال : بَرَدَ لى على فُلانٍ حَقٌّ ، أى ثَبَتَ .

وقوله « أرادَتْ لتنتاشَ الرِّواق » فالانتياش : التَّناوُل . يصفُها بأنَّها مخدَّمة لا تَبتذِلُ نفسَها فى مِهْنَةٍ ، ولا فى عَارِضِ خِدْمَةٍ ، حتَّى أنَّها إذا أرادت تَناوُلَ رِواق البيت — والرِّواق : ما مُدَّ مع البيت من سِتارَةٍ — لم تُترَكْ والقيامَ إليه ، ولـكن قدَّمته الولائد(٢) ، وأمْلَنَهُ لها حتَّى نظرت إلى ما وراءه ، فإذا كانَتْ فى مثل هذا تُوَدَّعُ وتُـكْفَى ، فما هو أثقَلُ منه أبْعدُ من استعمالها فيه . والطَّأطأة : خَفْض الرَّأسِ وغيرِه عن الاشتراف . ويقال للفارس إذا ضَبطَ فرسَه بفخذَيه ثم حرَّكَه للحُضْر : طأطأ فرسه .

وقوله « تَنَاهَى إلى لَهو الحديث » أراد أنَّها تنصبُّ من كلِّ أحوالها إلى اللَّهو ، وتنتهى إليه ، إذْ كان ما عدا اللَّهو قد كُفِيَتْ ، فهى مُنَعَّمَةٌ لا تتعلَّل

(١) عبارة الإنشاد هذه ساقطة من ل . وعند التبريزى : « وقال آخر ، وقيل هو عتيبة ابن مرداس » ، وقد سبقت ترجمة العباس فى الحماسية ١٤٩ ص ٤٣٣ .
(٢) ل : « قربته الولائد » .

إلاَّ باللَّعب والهَزْل ، فكأنَّها عليلٌ يُترَفْرَف عليه ويُشْفَقُ ، حتَّى يُترَكَ لا يُهِمُّه شيء ، ولا يَشغله شأن ، يعنى أنَّها فى توفُّرها على الحديث والملاهى على نَعْمتِها وكَسَلها ، كذلك العليلِ فى توفُّرِه على مقاساته ما به .

٥١٣

آخر[١] :

١ — ولو أنّ ليلَى الأَخْيَلِيّةَ سَلَّمَتْ عَلَيَّ ودونِى تُرْبَةٌ وصفائحُ[٢]

٢ — لسلَّمْتُ تسليمَ البشاشة أوْزَقا إليها صَدًى من داخل القبر صائحُ[٣]

٣ — وأُغبَطُ مِنْ لَيْلَى بما لا أَنالُهُ أَلاَ كُلُّ ما قرّت به العَينُ صالِحُ

يقول : لو أنّ هذه المرأة سلَّمَتْ علىّ وقدْ مُتُّ فحال بينى وبينها صفائح القبر ، وثَرَى اللَّحد ، لتسرَّعْتُ إلى جوابها ، وقابلْتُ سلامَها بِبشَاشةٍ منّى لها وطلاقة وجه ، لتلقِّيها وإجابتها . فإنْ حصل مَنْعٌ دون المراد صاح إليها صَدًى لى من داخل قبرى بَدَل جوابٍ منِّى . وهذا على اعتقادهم كانَ ، أنَّ عِظام الموتى تصير هَامًا وأصْداءً .

وقوله « وأُغبَط من ليلَى » يقول : إنِّى مَرْموق ومحسود منذُ عُرِفْتُ بلَيلَى وإنْ لم أَنَلْ منها مطلوبا ، ولا حَصَّلْتُ من الشَّقاء بها طائلاً . ثم قال : « ألاَ كلُّ

---

(١) هو توبة بن الحمير ، كما صرح التبريزى . والأبيات بهذه النسبة فى الحيوان (٢ : ٢٩٩) وأمالى القالى (١ : ١٩٧) والأغانى (١٠ : ٧٧) . وهو توبة بن الحمير بن حزم ابن كعب بن خفاجة بن عمرو بن عقيل ، من شعراء الدولة الأموية ، وأحد عشاق العرب . الأغانى (١٠ : ٦٣ — ٧٩) والاشتقاق ١٨٢ والمؤتلف ٦٨ ، ٩٣ والخزانة (٣ : ٣١ — ٣٤) والعينى (١ : ٥٦٩ — ٥٧١) واللآلئ ١١٩ — ١٢٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ والأمالى (١ : ٨٦ — ٨٩) وفوات الوفيات والشعراء ٤١٢ — ٤١٥ .

(٢) الحيوان : « جندل وصفائح » .

(٣) التبريزى ، والجاحظ ، والقالى والأصبهانى : « من جانب القبر » .

ما قرّت به العَينُ صالح » يريد أنى قريرُ العينِ بأنْ أذكرَ بها وتُعرّفَ بى دون طُلّابِها ، وهذا القَدْرُ نافعٌ وإنْ تجرّدَ ممّا سِواه .

٥١٤

وقال آخر :

١ ــ فإنْ تَمنَعُوا لَيْلَى وحُسْنَ حَدِيثِها فَلَنْ تَمنَعُوا مِنِّى البُكَا والقَوافيا

٢ ــ فهلّا مَنَعْتُمْ إذ مَنَعْتُم حَدِيثَها خَيَالاً يُوافِينى على النَّأْيِ هَادِيا

يقول : إن حُلْتُم بينى وبين ليلى ومنازعتِها الكلام ، والتأنُّسِ بحديثها ، وحَبْسِ النَّفْس على التزوُّد منها ومن مغازَلَتها ، فإنّكم لا تقدرون على ما أنا بصددِه من البكاء لها وَجْدًا فيها ، ومن قَرْض الشِّعر فى النَّسيب بها ؛ وإذْ قد مَنعتم حديثَها والدُّنوَّ منها ، فهلّا حبَستمْ عنِّى خيالاً عارفًا بالطَّريق على البُعد بينى وبينها ، حسَنَ الاهتداء إلى حيثُ ذهَبْتُ عنها ، يزورنى فى المنام فيُطرِّى من الشَّوق ما أخْلَقَ ، ويُعيدُ من الهوَى ما دَرَس . وهذا الكلامُ تحسيرٌ لهم ، وتشهيرٌ بمكايدتهم[(١)] ، وتذكيرٌ بما يسوؤهم ، وإعلامٌ أنَّ العهدَ بينهما مَرْعِيٌّ ، والهوَى مِمّا يَقْدَح فيه من الجانبَين محفوظ ، بدَلالة أنَّه لو استجفاها لامتنع خيالُها ، لزوالِ نَومه ، وذَهاب هُدوِّه . ألا ترى الآخر يقول :

وكان يَزُورنى منهُ خيالٌ فلمّا أنْ جَفَا مَنَعَ الخَيَالا

(١) ل : « لمكايدتهم » .

٥١٥

وقال نُصَيْب[١] :

١ — كأنَّ القَلْبَ لَيلةَ قِيلَ يُغْدَى بلَيْلَى العـــامريَّةِ أو يُرَاحُ
٢ — قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فباتَتْ تُجاذِبُه وقد عَلِقَ الجَناحُ[٢]

يقول : لمَّا أحسستُ باللّيلة التى رُسِمَتْ بوقوع الفِراق فى صبيحتها ، أو فى وقت الرَّواح من غَدِها ، وتصوَّرْتُ أنَّ المتواعَدَ به حَقٌّ ، والمتحَدَّث به واقع ، صار قلـبِي فى الخفقان والاضطراب كقطاةٍ وقعَتْ فى شركٍ يحبِسُها ، فبقِيتْ ليلتَها تجاذِبُه والجناح عَلِقٌ لا مُتخَلَّصَ له ، نَشِبٌ لا مُتنَزَّع منه[٣] ، وكمِثل ذلك قلبى قَلِقٌ فى حَشَاهُ ، غَلِقٌ عند بَلْواه .

وارتفع قطاةٌ على أنَّه خبر كأنَّ ، وعَزَّها[٤] فى موضع الصِّفة لقطاة ، يريد غَلَبَها . وانتَصَبَ « ليلةَ » على الظَّرف مِمَّا دلَّ عليه « كأنَّ القَلبَ » من التَّشبيه ، ولا يجوز أن يكونَ ظرفاً بقِيلَ ، لأنَّه بما بعده مضافٌ إليه ، والمضاف إليه لا يعمل

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٩٥ ص ١٢٨٩ . على أن الشعر نسب إلى المجنون فى الأغانى (٢ : ٣ ، ١٤) والأمالى (٢ : ٦١) والموشح ٢٥٠ . وهذه النسبة أقرب إلى الصواب . ونسب فى ديوان المعانى (١ : ٢٧٠) إلى قيس بن ذريح .

(٢) بعده عند التبريزى :

لها فرخانِ قد تُرِكا بوكرٍ فعُشُّهما تصفِّقُه الرِّياحُ
إذا سمِعا هُبوبَ الرِّيح نَصَّا وقد أَودَى به القدَرُ المتاحُ
فلا فى اللّيل نالتْ ما تُرَجِّى ولا فى الصُّبح كان لها براحُ

نصا ، أى نصبا أعناقهما .

(٣) ل : « لا منتزع منه » .

(٤) فى الحيوان (٥ : ٥٧٧) : « غرها » بمعنى خدعها .

فى المضاف . وقوله « تُجاذِبه » والمفاعلة تكون فى الأكثر من اثنين ، فلأنّه جَعَلَ مَنْع الشَّرَكِ للقطاةِ من التخلُّص جذباً منه .

٥١٦

وقال أبو حَيَّةَ النُّمَيْرِىّ[(١)] :

١ — رَمَتْنِي وسِتْرُ اللهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... ونحنُ بأكنافِ الحِجازِ رميمُ[(٢)]

٢ — فلو أنَّها لمّا رَمَتْنِي رَمَيْتُها ... ولكِنَّ عَهْدِى بالنِّضالِ[(٣)] قديم

رَميمُ : اسم المرأة ، وارتفع لأنّها فاعلةٌ ، وقد بُنى على رَمَتْنِي . وأراد بِسِتْر الله الإسلامَ . فيقول : نظرتْ إلىَّ رميمُ ، فكأنها رمَتْنى بسهمٍ ، ونحن مقيمون بأكناف الحِجاز ، والإسلامُ حاجزٌ بينى وبينها ، يمنع من مُغازلتها ومراودَتها . ومثل هذا قول الهُذَلِىّ[(٤)] .

فليسَ كعَهدِ الدّارِ يا أمَّ مَالِكٍ ... ولكنْ أحاطَتْ بالرِّقاب السَّلاسلُ

وعادَ الفتى كالكهلِ ليس بقائلٍ ... سِوَى الحقِّ شيئاً واستَراحَ العواذِلُ[(٥)]

كَنَى عن الإسلام فى مَنْعِهِ عن القبائح وأنواع الفُحْش والظُّلم بالسَّلاسل فى الأغلال المحيطةِ بالأيدى والأعناق .

---

(١) هو الهيثم بن الربيع بن زرارة بن كثير بن جناب بن كعب بن مالك بن عامر بن نمير ابن عامر بن صعصعة ، شاعر راجز من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ومدح الخلفاء فيهما جميعا ، وكان يسكن البصرة ، وكان أهوج جبانا بخيلا كذابا معروفا بذلك أجمع . قال ذات يوم : عنّ لى ظبى فرميته فراغ عن سهمى ، فعارضه والله ذلك السهم ، ثم راغ فراوغه السهم حتى صرعه ببعض الخبارات . الأغانى (١٥ : ٦١ — ٦٢) والخزانة (٤ : ٢٨٣ — ٢٨٥) والمؤتلف ١٠٣ واللآلئ ٢٤٤ والشعراء ٧٤٩ — ٧٥٠ .

(٢) الأبيات بهذه النسبة فى الكامل ١٩ ليبسك وبدون نسبة فى الحيوان (٣ : ٤٩) والبيان (١ : ٦٨ / ٣ : ٣٢٤) . ويروى : « عشية آرام الكناس » .

(٣) يروى بينه وبين سابقه :

رميمُ التى قالت لجارات بيتها ... ضمنتُ لكم ألا يزالُ يهيمُ

(٤) هو أبو خراش الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١٥٠) والأغانى (٢١ : ٤١) .

(٥) فى الديوان : « سوى العدل شيئا فاستراح » .

وقوله « فلو أنَّها لمَّا رمَتنى رميتُها » جواب لو محذوف ، والمراد لو تعرَّضتُ لها وقابلتُها فى عَرْض محاسِنِها بمثل ما يكون للشُّبَّان بمنزلة الشُّفعاء عند النِّساء ، لحَقَّ الأمر وكانَ القدْرُ يجرى إلى القَدْر (١) ، ولكنى قد شِخْت وكبرت ، فعهدى بمناضلة النساء قديم .

٥١٧

وقال آخر (٢) :

١ — أَسِجْنًا وقَيْدًا واشتياقًا وعَبْرَةً ... ونَأْىَ حَبيبٍ إنَّ ذا لعظيمُ (٣)

٢ — وإنّ امرأً دامَتْ مَواثيقُ عَهدِه ... على كلِّ ما قاسَيْتَه لكريمُ (٤)

انتَصَبَ « سِجْناً » بإضمار فعل ، كأنَّه قال : أتجمَعُ علىَّ حَبْساً وتقييدا ، واشتياقاً إلى حبيب وبكاءً ، مع بُعْدٍ بينى وبينه ، إنَّ ذلك أمرٌ منكر فظيع ، يتضايق نِطاقُ الصَّبر عن احتماله والبقاء معه ، وأشار بذا إلى اجتماع هذه الأشياء عليه ، ونبَّهَ على عجزه فى احتمالها لولا كرمُ عِرْقه ، واستحكام عقْدِه . ألا ترَى أنَّه تَحَمَّدَ بحاله ، واعتدَّ على حبيبه بقاءه على العهد له . ودوامَ وُدِّه على اجتماع هذه الأحوال عليه ، فقال : إنَّ امرأً دامت مواثيقُ عهده ، يريد : إنَّ رجلا ثَبتَ على أوَّلِيَّةِ شأنه ، ومبادىء مَواثيقه ، مع ما يقاسيه من تزاحُمِ هذه البلايا على قلبه ، لكريمُ العهدِ ، نبيهُ الشأن ، وثيق العقيدة .

---

(١) كذا ضبط فى النسختين . والقدر ، بسكون الدال لغة فى القدر بفتحها . وأنشد :

كل شىء حتى أخيك متاع ... وبقدر تفرق واجتماع

(٢) هو أحد الأعراب كما هو فى البيان (٤ : ٦٢) . ونسب فى الحيوان (٦ : ١٥٩) إلى بعض اللصوص .

(٣) الحيوان : « أقيد وحبس واغتراب وفرقة وهجر حبيب » . البيان : « أقيدا وسجنا واغترابا وفرقة وذكر حبيب » .

(٤) التبريزى : « على مثل ما قاسيته » . البيان : « على كل ما لاقيته » . الحيوان : « على عشر ما بى إنه » .

ويُروى : « أَسِجْنٌ وقيدٌ » بالرفع ، والمراد : أتجتمع هذه الأشياء عَلَى طريق التَّفظيع والتَّهويل .

٥١٨

وقال آخر(١) :

١ ــ رَعاكِ ضَمانُ اللهِ يا أُمَّ مالكٍ ولَلَّهُ أن يَشفيكِ أَغْنَى وأَوْسَعُ(٢)

٢ ــ يُذَكِّرُنيكِ الخيرُ والشرُّ والذى أخافُ وأرجُو والذى أتوَقَّعُ

أشار بقوله « ضمانُ الله » إلى ما فى القرآن من قوله تعالى : ﴿ أُدْعُونى أَستَجِبْ لكُمْ ﴾ ، فقال : أنا أدعو بأن يَشفِيَك اللهُ عزّ وجلّ(٣) يا أُمَّ مالك ، وقد ضمِنَ الإجابةَ للداعى فرَعاكِ ضَمانُه . ثم قال : وَلَلّهُ بأَنْ يَشفِيَك ، فحذف حرف الجرِّ ، والجارُّ يُحذف مع أَنْ كثيراً ، لأنّ حَذْفَهُ أظهرُ غَناءً وأوسع قدرةً . ونبَّهَ بهذا الكلام أنَّه فى كِلَتِه الأمرَ إلى الله تعالى الغنيِّ القادر اعتمَد على ما لا بُدَّ من وقوعه .

وقوله « يذكّرنيك الخير والشر » يريد أنه لا ينساها فى شيء من الأحوال والأوقات ، فما يتقلَّبُ فيه من خيرٍ باكرٍ ، أو شرٍّ طارق ، فهو يذكِّره ، وكذلك ما يخاف وقوعَه أو يرجوه ، ولم يَبِنْ منهما على يقين يذكِّرُه أيضاً ، وكذلك ما صار منه على يقين ، فهو يتوقَّعُه ، يذكِّرُ أيضاً . وإذا تأمَّلتَ حوادثَ الدهر وجدتَها لاتنقسم إلا إلى قسمته ، لأنها لا تخلو من أن تكون محبوبةً أو مكروهة ، أو واقعةً أو منتظَرَة ، أو مَخُوفةً أو مرجُوَّةً .

---

(١) هو أعرابى من هذيل كما فى الحيوان (٧ : ١٤٨) . وفى البيان (٣ : ٣٣٠) : « وقال أعرابى » .

(٢) فى نسخة فيض الله من البيان : « أرعى وأوسع » .

(٣) ل : « جل جلاله » .

٥١٩

وقال الحكم الخُضْرِىّ(١) :

١ ــ تساهَمَ ثَوْباها ففى الدِّرْعِ رادَةٌ وفى المِرْطِ لَفّاوانِ رِدْفُهما عَبْلُ

٢ ــ فواللهِ ما أدرِى أَزِيدَتْ مَلاَحَةً وحُسْناً على النِّسوانِ أم ليس لى عَقْلُ

معنى تَساهَمَ تقاسَم ، ولذلك قيل : سُهْمَــةُ فُلاَنٍ من هذا كذا ، أى قسمته ونصيبه . ويجوز أن يكون أصله من السِّهام : القِداح التى تُجَالُ بين الخصوم إذا تقارَعوا ليستبدَّ كلٌّ بما يخرُج له لقِسمته وبِدَّتِهِ . وفى القرآن : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ من المُدْحَضِينَ ﴾ ، فــكأنه استعار ــ وإن كان أصلُه ما ذكرت ــ للتقاسُم ، إذ كان يُفْعَل للقَسْم وما يشبهه لا غير ، فيقول : انقسَمَ جسمُ هذه المرأةِ بين دِرْعِها وإزارِها ، ففى دِرعها بَدَنٌ ناعمٌ وخَصْرٌ دَقيقٌ ، وفى مِرْطِها فَخِذَانِ غليظتان عليهما رِدْفٌ ضخم .

وقوله « فوالله ما أدرى » يريد أنَّ الحَيْرَةَ قد مَلَــكَتْه فى أمرها ، لِما يَرى من مَيْل قلبه إليها ، وشدَّة افتتانه بها ، فهو لايَدرِى أَزِيدتْ حُسْناً ومَلاَحةً على نساء الدُّنيا كلِّها ، أم هو فائلُ الرَّأْى فى الاختيار ، مَخبُول العَقل فى الاعتبار ، ضَعيف التبصُّر ، فى الارتياد والتخيُّر . والرادَةُ والرُّؤْدة : الناعمة . واللَّفَّاء : الـكثيرة اللحم . والعَبْلُ : الضخم ، ومصدره العَبالَة .

(١) هو الحكم بن معمر بن قنبر بن جحاش بن سلمة بن ثعلبة بن مالك بن طريف بن محارب . وكان مالك بن طريف شديد الأدمة ، وكذلك خرج ولده ، فسموا الخضر ، وهم خضر محارب . وهو شاعر إسلامى ، كان معاصراً لابن ميادة ، وكان بينهما مهاجاة . الأغانى (٢ : ٩٤) واللآلى ١٦ ومعجم الأدباء (١٠ : ٢٤٠ ــ ٢٤٥) .

٥٢٠

آخر :

١ — أَرُوحُ ولم أُحْدِثْ لِلَيْلَى زيارةً لَبِئْسَ إذاً راعِى المَوَدَّةِ والوَصْلِ
٢ — تُرَابٌ لِأَهْلِي لا ولا نِعْمَةٌ لهم لَشَدَّ إذاً ما قد تَعَبَّدَنى أَهْلِى

كأنَّ مَن صَحِبَهُ مِن أهلِه استعجلوه عن زيارة ليلى ، فيقول مُنْكِرًا ومفظِّعا : أأروحُ من غير أن أقضىَ حَقَّهَا ، أو أجدِّد الإلمامَ بها ، لبئس رَاعِى المَوَدَّةِ والمواصلة أنَا . حذف المذمومَ ببئس لأنَّ المراد مفهوم ، ومثلُه فى القرآن : ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، والمعنى : نِعْم العبد أيُّوب ، فحذفَ الممدوح بنِعْم ، لكون المراد مفهوما . وإذاً جوابٌ وجزاء ، وكأنَّه حَشَا بِه الكلام لِيُعْلَمَ أنَّ مايقولُه جوابٌ لما سِيمَ . واللام من « لَبِئْس » لام الابتداء ، وارتفع راعِى المودة به .

وقوله « تُرَابٌ لأهلى » دعاء عليهم ، وتحقيرٌ لهم ، واستخفافٌ بهم . وجاز الابتداء بقوله « تُرابٌ » وهو نَكِرة ، لأنَّ معنى الدعاء منه مفهوم . ومثله قوله :

* فَتُرْبٌ لأفواهِ الوُشاةِ وَجَنْدَلُ *

والمراد فى الدُّعاء طلبُ الذُّلِّ لهم .

وقوله « لا ولا نعمةٌ لهم » يجوز أن يكون المنفى بلا الأولى حُذِف لما دلَّ عليه الكلام ، فكأنَّه قال : لأهله التُّراب لا عِزٌّ لهم ولا نِعمة . ويجوز أن يكون « لا » رَدًّا لِمَا عرضوا عليه . وهذا كما يقال للإنسان . افعلْ لفلانٍ كذا وكذا ، فيقول : لا ولا كرامَةَ ، أى لا أفعلُ ذلك ولا أُكْرِمُ من يَسُومُنِيه . وقوله « لَشَدَّ إذاً ما قد تَعَبَّدَنى أهلى » تَعَبَّدَهُ واستعبدَه بمعنًى واحد ، أى استذلّه . و« لَشَدَّ ما » هو كما يقال : لَعزَّ ما . والمعنى الإنكارُ فيما عُرِضَ عليه ودُعِىَ إليه ، وأنهم تجاوَزُوا كلَّ حَدٍّ فى امتهانِه حين عَرَضوا عليه مثلَ ذلك . وهذا الكلامُ

مُشْتَمِلٌ على الخِلاف وقلّة الاحتفال . ويجوز أن يُجرَى شَدَّ ما ، مَجرَى نِعْمَ وبِئْسَ .

٥٢١

وقال أبو دَهْبَلٍ الجُمَحِيُّ (١) :

١ — أأَتْرُكُ لَيْلَى لَيْسَ بيني وبينَها ‏ ‏ سِوَى ليلةٍ إنّى إذًا لَصَبُورُ

قوله « أأَتْرُكُ » لفظه لفظُ الاستفهام والمعنى معنى الإنكار ، كأنّه أنكرَ مِن نفسه أن يَتركَ التَّعريج على ليلى وبينهما مسيرةُ ليلةٍ ، فقال : أأُخِلُّ بزيارتها وأداءِ واجبِها مع قُربِ المسافة بيني وبينها ؟ إنّي إذاً لمُتَنَاهٍ في الصَّبر عن الأحبابِ ، كَسُولٌ عن البِرِّ بذوى الأذِمَّة والأسباب (٢) . وإنما قال هذا باعثًا لِصَحْبِه على مُسَاعَدَته ، وطالبا منهم تمكينَه من مراده . لذلك قال :

٢ — هَبُونى امرأً مِنكُمْ أضَلَّ بعيرَهُ ‏ ‏ لَهُ ذِمَّةٌ إنَّ الذِّمامَ كبيرُ

٣ — ولَلصَّاحِبُ المتروكُ أعظَمُ حُرْمَةً ‏ ‏ على صَاحِبٍ مِنْ أنْ يَضِلَّ بَعِيرُ

٤ — عَفَا اللهُ عن ليلَى الغَداةَ فإنَّها ‏ ‏ إذَا وَلِيَتْ حكْمًا علَيَّ تَجُورُ

قوله « هَبُونى » معناه احسبونى واجعلونى ، وهو يتعدَّى إلى مفعولين . وحكى ابنُ الأعرابيّ : وَهَبَنى اللهُ فداءَكَ بمعنى جعلنى فداءَك . وقوله « أضَلَّ بعيرَهُ » يقال في الشيء الزّائلِ عن مكانه إذا فُقِدَ : أضْلَلْتُهُ ، فإن ثَبَتَ في مكانه

---

(١) هو وهب بن زمعة بن أسـيد بن أحيحة بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى ، كان رجلا جميلا شاعراً ، وكانت له جمة يرسلها فتضرب منكبيه ، وكان عفيفاً ، وقال الشعر في آخر خلافة على بن أبي طالب ، ومدح معاوية وعبد الله ابن الزبير ، وكان ابن الزبير قد ولاه بعض أعمال اليمن . الأغانى (٦ : ١٤٩ — ١٦٥) والاشتقاق ٨١ والمؤتلف ١١٧ والشعراء ٥٩٦ — ٥٩٩ .

(٢) الأذمة : جمع ذمام ، وهو الحرمة والحق والعهد .

ولم يُهْتَدَ إليه قيل: ضَلِلْتُهُ. وقوله « إن الذِّمامَ كبير » كالالتفات، وقوله « أضل بعيرَهُ » فى موضع الصِّفة لامْرأً ، وكذلك « له ذِمَّةٌ » صفةٌ أخرى. ومعنى منكم مِن خاصَّتكم وبِطانتكم، وهو يُفيد معنى الوصف أيضاً والمعنى: أَجْرُونى مجرى رَجُلٍ منكم نَدَّ لَهُ بعير، وله ذِمام الصُّحبةِ والنَّسَب والقرابة، فإنَّ للذِّمام حَقَّه، وحُرمةُ المرَافقةِ كبيرة، ودَعونى أَقْضِ من حَقِّ ليلى واجبَه، ولا تستعجلونى فى ذلك ولا تمنعونِى عنه، ثم قال: فإنكم إذا تركتمونى ولم توفِّرونى على ما أَهُمُّ به فيما يختصُّ بى لها، كنتم تركتم رفيقاً لكم وضيَّعتُموه أشدَّ ما كان حاجَةً إليكم، والرَّفيقُ أعظم حُرمة فى صاحبه المتروكِ من ضَلَالِ بعيرٍ. يُريدُ: وإذا عُدَّ تَرْك الاستيناء[1] بمن أراد نِشْدَانَ ضَالّته، تجوُّزا فى المحافَظة، وتعدِّيا فى حُكم المرافقة كان مثلُ ذلك إذا فُعِلَ مع مَن يَرُوم تجديدَ العهد برُوحه، والاستبقاء على لُبّه، أعظمَ فى الجِناية، وأَقبحَ فى الأحدوثة.

وقوله «عفَا الله عن ليلى الغَدَرَة» تَشَكٍّ وتألُّمٌ من سوء معاملتها وأنها متى حُكِّمَتْ فيه وفيما يتعلق به جارَتْ ولم تُنصِفْ. وهذا الكلام منه إيذانٌ بأنها تستعظم الصَّغير إذا وَقَع منه، بل تَعُدُّه كبيرةً وتُغَلِّظ العقوبةَ عليها، والمؤاخذةَ بها.

٥٢٢

وقال آخر:

١ — أآخِرُ شىءٍ أنتِ فى كلِّ هَجْعةٍ ... وأوّل شَىءٍ أنتِ عِند هُبُوبِى

٢ — مَزِيدُكِ عِندى أنْ أُقِيكِ مِن الرَّدَى ... وَوُدٌّ كماء المُزْنِ غَيْرُ مَشُوبِ

قوله « فى كل هجعة » العامل فيه أآخر، وكذلك « عند هبوبى » العامل فيه أوّل شىء. يقول: لا أخلو مِن ذكركِ ساعةً؛ لأنى إنْ نِمتُ كان خيالُك

(١) هو مصدر استأنى، أى تأنى، ولم يعجل.

سميرى مدَّةَ هجوعى، وإنْ أُوقِظْتُ كنتُ لزيمَ ذكراكِ مُدَّةَ يقَظتى ، فأنتِ فى النَّوم آخرُ شىء لى ، ولا فاصلَ بينَ الحالَين . ثم قال : والذى يَزِيدكِ من عندى ألَّا أشهِّر بك ، ولا أبوحَ بسرِّك ، ولا أعلنَ النَّسيبَ باسمكِ ، إذْ كان فى جميعه تنفيرُكِ ، وتعريضُك للرَّدى : فضيحتِكِ ، فأنا أقيكِ من ذلك ، وأنا أُصْفى لكِ الوُدَّ حتى لا يشركك فى قلبى أحد ، فيصير ثاوى الود مشوباً ، وصافِى الهوى مكدَّرا ويجوز أن يكون المرادُ : مَزيدُك عندى أنْ أدعوَ اللهَ تعالى بالصِّيانةِ لك ، وتوفيرِ الحياطةِ عليك من كلِّ ما تكرهينه ، أو يؤدِّى إلى شَيْنِك فيما ترومينه .

والذى يشهدلقوله «من الرَّدَى» وأنَّ المرادَ به الفضيحة قولُ امرئ القيس :

صرفتُ الهوَى عنهنَّ مِن خَشْيةِ الرَّدَى ولستُ بمقِلِىِّ الخِلالِ ولا قالِ

ألَا ترى أنَّه كان ملكاً لا يَخاف معارِضاً له فيما يَتعاطى من اللَّهو ، ويختارُه من الصِّبا والبَطالة مع مَن كان وفيمن اتفق ، فكيف ما يتعدَّاه مِن طلب الغوائل له ، لكنَّه عَدَّ انتشارَ الحديث فيه ، وقيامَ النَّاس وقعودَهم بذكرِه هلاكا وعَطَبا .

وقوله «أن أقيك» فى موضع خبر المبتدإ وهو مزيدك ، وانعطف عليه قوله « وودٌّ كماء المُزْن » .

٥٢٣

وقال آخر :

١ — ما أَنصفَتْ ذَلْفاءُ أمَّا دُنُوُّها فهَجْرٌ وأمَّا نأْيُها فيَشُوقُ

٢ — تَباعَدُ ممَّنْ واصَلَتْ فكأنَّها لآخَرَ ممَّنْ لا تَوَدُّ صَدِيقُ(١)

(١) التبريزى : « وكأنها » .

يقول : جارَتْ هذه المرأةُ علىَّ فى حُكم الهوَى ولم تُنْصِفْ ، لأنِّى إنْ طلبتُ التّدانىَ منها هجرتْنى واطَّرَحتنى ، وإن رُمتُ التّنائى منها شوَّقتْنى وهاجتنى ، وإذا كانت مِن مُواصِلِها مُتباعِدة ، ولمُوادِّها مُهاجِرة ، فكأنّها تصادِقُ مُعادِيَها ، وتُخالص مُنابِذَها من دون مُواصِلِها ومقارِبها ، وهذا عَجَبٌ من مثلها .

وقوله « أمّا دنوُّها فهجْرٌ » المعنى أمّا فى دنوِّها فتَهْجُر . ألاَ ترى أنّه قال « وأمّا نَأْيُها فيَشُوق » كأنّه : وأمّا فى نأيها فتشوق . إلاَّ أنّه جَعلَ فعلَها منسوباً إلى دُنُوِّها ونَأْيِها .

٥٢٤

وقال عبدُ الرحمن الزُّهرىّ[١] :

١ — وَلَمَّا نَزَلْنا منزِلًا طَلَّهُ النَّدَى أنيقاً وبُستاناً من النَّوْرِ حاليا[٢]

٢ — أجَدَّ لنا طِيبُ المكانِ وحُسْنُهُ مُنًى فتمَنَّيْنا فكنتِ الأمانيا

جواب « لمّا » قوله أجدَّ لنا . فيقول : لمَّا خرجنا إلى ظاهر محالِّنا متنزِّهين ، ونزَلْنا موضِعاً رياضُه رَكِبها الطَّلُّ باللَّيل ، فتناثَرَ عنها القَطرُ بالغُدُوات ، ونَباتُه شَرِقَتْ بالرِّىِّ بعد الشمس ، وضاحكت الشّمسَ بعد الشُّروق ؛ وبساتينَ تحلَّت بالأزاهير ، وتحفَّتْ مِن بركة الله بآثار الصُّنع ، دَعَتْنا نفوسُنا إلى أن نتذكَّر لطيب المكان ، ومُساعَدة الوقتِ والزّمان ، ما يَكمُل به السُّرور ،

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « الزبيرى » . وعند التبريزى : « أبو بكر بن عبد الرحمن الزهرى » . وقد سبق لأبى بكر الحماسية ٤٦٩ ص ١٢٤٥ . وأبوه عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن زهرة بن كلاب . وكان جده المسور ممن أدرك الإسلام صغيراً وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . الإصابة ٧٩٨٧ .

(٢) روى التبريزى قبل هذه المقطوعة مقطوعة أخرى لحفص العليمى ، وستأتى مقطوعة حفص العليمى هذا بعد المقطوعة رقم ٥٣٦ .

ونتمنّى ما إليه تتناهى فى الاقتراح العُيونُ والقُلوب ، فوجدْنا الأمانىَ كلَّها لاتتعلق إلاَّ بك ، ولا تحومُ فيما تُجال فيه وتُراوَد عنه إلاَّ عليك ، ذهاباً فيك وشَعَفاً بك .

ويقال : طُلَّتِ الأرضُ فهى مطلولةٌ . والأنيق : المُعجِب . ويقال : حَلِيَ بكذا ، وتحلى بكذا .

٥٢٥

وقال مَعْدَانُ بن مُضَرِّبٍ(١) :

١ – إنْ كان ما بُلِّغْتِ عنِّى فلاَمَنِي صَدِيقى وشَلَّتْ مِن يدَىَّ الأَناملُ

٢ – وكُفِّنْتُ وَحْدِى مُنْذِرًا فى ردائِه وصادَفَ حَوْطًا من أعادِىَّ قاتلُ

قد مضى تفسيره فى باب الحماسة .

٥٢٦

وقال آخر :

١ – صَفاَ وُدُّ ليلَى ما صفا لم نُطِعْ به عدوًّا ولم نَسمع به قِيلَ صاحِبِ

٢ – فلمَّا تولَّى وُدُّ ليلَى لجانِبٍ وقوْمٍ توَلَّينا لقـــوْمٍ وجانِبِ

٣ – وكلُّ خَليلٍ بَعْدَ ليلَى يَخافُنى على الغَدْرِ أو يَرْضَى بوُدٍّ مُقارِبِ

(١) الذى فى معجم المرزبانى ٤٠٧ : « معدان بن جواس الكندى السكونى » . قال : له حلف فى ربيعة ، مخضرم نزل الكوفة ، وكان نصرانياً فأسلم فى أيام عمر بن الخطاب ، وقام الزبير بن العوام رضى الله عنه بأمره فمدحه . وهو القائل :

ورثت أبا حوط حجية شعره وأورثنى شعر السكون المضرب

أبو حوط هو حجية بن المضرب ، فخر بهما . ثم أنشد له المرزبانى بيتى الحماسة هذين . وقد نسبه أبو تمام هنا إلى أحد أجداده ، ونسبته فى الإصابة ٨٤٣٥ : معدان بن جواس بن فروة بن سلمة بن المنذر بن المضرب بن معاوية .

سلك فى هذا مسلكَ ذى الرُّمَّة حين قال :

فَيَا مَىَّ هل يُجزَى بُكاىَ بمثْلِهِ ... مِراراً وأنفاسى إليكِ الزوافِرُ

وقد زَيَّفَ النُّقَّاد هذا وقالوا : ذُو الهوى لا يستدعِى ممَّن يهواه المكافأةَ على ما يتحمله فيه ، وقد عاب ابنُ أبى عَتيقٍ على كثيِّر قوله :

ولستُ براضٍ مِن خليلِى بنائلٍ ... قليلٍ ولا راضٍ له بقليلِ

وقال : هذا كلام مُكافٍ لا كلامُ مُحِب . فقوله « وُدُّ ليلَى » يجوز أن يكون الودُّ مضافاً إلى المفعول، والمراد ودُّنا لليلى ، فينتصب موضع قوله «ما صفا» لكونه ظرفاً ، والمعنى : صفا ودُّنا لليلى مدَّةَ بقائه خالصا ممايَشُوبُه ويُفسِده من طاعة عدوٍّ لها ، وإصغاء إلى قِيلِ ناصحٍ يتنصَّحُ فيها . ويجوز أن يكون المراد : صفا وُدُّنا لليلى مدة صفاءِ وُدِّها لنا ، نحميناه من قَدْح الأعداء فيه ، والإصغاء إلى قِيل اللائمين وعَتْبِهم له . ويدل على هذا التفسير قوله مِن بَعْدُ :

فلما تولَّى وُدُّ ليلَى لجانبٍ ... وقومٍ تولَّينا لقومٍ وجانبِ

فإن قيل : كيف زعمتَ أنَّ المعنى ما صفا وُدُّها لنا ، وقد ذكرت أنّ الوُدَّ مضاف إلى المفعول ؟ قلت : إنّ المضمر فى الثانى هو ودّ ليلى ، والمصدر كما يضاف إلى المفعول يضاف إلى الفاعل أيضاً ، واللفظ لفظ واحد . وإذا كان كذلك صلَح أن يُنوَى فى قوله « ما صفا » عوْدُ الضمير إلى ودّ ليلَى ، ويكون ليلى فاعلة لأنّ اللفظ ذلك اللفظ ، فيكون التقدير : صفا ودّ ليلَى ما صفا ودُّ ليلى . والمعنى : صفا وُدُّنا لليلى ما صفا وُدُّها لنا ، أى صافيناها ما دامت تُصافِينا . ويجوز أن يكون ودّ ليلى أضاف الودّ إلى ليلى ، وهى الفاعلة ، لكنَّه حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، والمراد : صفا جَزاء ودِّ ليلىمنَّا ما صفا هو فى نفسه لنا . وقد رُوِى : لم نُطِع بها عدوًّا » فيعود الضمير إليها ، وكذلك « ولم

نَسمع بها » . وإذا رويت « به » يعودُ الضمير إلى الوُدّ .

وقوله « فلمّا تولّى ودّ ليلى » يريد : وُدّ ليلى لنا . والمعنى : لمّا مالت إلى جَنَبَةٍ غير جَنَبَتِي ، وقومٍ غير قومى ، نَفَضْتُ يدى من الاعتماد عليها ، وأخليتُ قلبي من هواها ، وصرفتُ نفسى إلى جَنَبَةٍ أخرى غيرِ جَنَبَتِها ، وطائفةٍ أخرى غير طائفتها ، لأنى كما أصل أقطع ، وكما أُخالِط أزايل ، ولستُ ممّن يقتل نفسَه فى إثْر مَن لا يُريدنى إذا تولّى عنى . وقوله « تولى » يجوز أن يكون من التولّى الإعراض والذّهاب ، ويجوز أن يكون من الولاء والطاعة .

وقوله « وكلُّ خَليلٍ بعدَ ليلَى يخافنى » يريد أنّ الناسَ لمّا رأَوْا وَلُوعى بليلى ، وصفاءَ عقيدتى فى المَيل إليها والبَقاء على العهد معها ، ثم رأَوْا بَعدَه انصرافى عنها فى أقرب المُدَد ، ولأدنى السبب ، صار كلُّ خليلٍ فيما بينى وبينه يخافُنى على الغَدر ، ويتّهمنى فى الوُدّ ، فلا يطلبُ منّى التّناهىَ فيما يجمعنى وإيّاه ، خوفاً من الإعراض عنه ، أو يرضَى معى ومِن جهتى بودٍّ قريب لا سَرَف فيه ولا اشتِطاط .

٥٢٧

وقال آخر :

١ ــ ألاَ ليتَ شِعْرِى هل أَبِيتَنّ ليلةً وذِكْرُكِ لا يَسْرِى إلىّ كما يَسْرِى
٢ ــ وهل يَدَعُ الواشونَ إفسادَ بينِنا وحَفْرًا لنا العاثورَ من حيث لا نَدْرِى

هذا كلامُ مُتبرِّمٍ بالهوَى ، مستقيلٍ من الوشاة وإفسادِهم ، متفادٍ من تحريشهم وألْبهم ، متمنٍّ أن تنقطع أسبابُ الهوى ، وتنقلع أغراسُ الوُدّ .

وقوله « ليت شعرى » موضع شعرى نَصْبٌ لأنه اسم ليت . وقوله « هل

أبيتنَّ ليلةً» سَدَّ مَسدّ مفعولَىْ شِعرى ، لأنّ معناه عِلْمى ، ويتعدَّى تعدِّيَه ، وخبر ليت مضمَر لا يظهر . والتقدير : ليت علمى واقعٌ ، وما يجرى مجراه والمعنى : أتمنَّى أن أعلمَ هل أبقى أنا ليلةً من ليالِى الدهر وخَيالُكِ لا يسرِى إلىَّ كما يَسرِى الساعةَ ، وهل أرى نفسى سليمةً من رَمْى الوشاة وطَلَبهم إفسادَ ما بينى وبينَكِ ، وحَفْرِ المُغَوَّاةِ لنا[1] إذا غِبْنا عنهم من حيث لا نَشعر ولا ندرى فنتَّقِيَه ونَحْذَرَه .

فإن قيل : كيف جاز أن يُكْنَى عن الخيال بالذِّكْر حتى قال : « وذِكْرُكِ لا يَسْرِى إلىَّ »؟ قلت : إنّ الخيالَ فى المنام لا يكونُ إلا عن التذكُّر فى اليقظة ، يَشْهدُ لذلك قولُ أبى تمَّامٍ الطائىّ .

نَمْ فما زارَكَ الخيالُ ولكنَّــك بالفكرِ زُرْتَ طَيْفَ الخَيالِ

وهذا ظاهرٌ وعليه مَبانى وصف الخيال .

والعاثور : مَصِيدةٌ للبهائم ، ويُجعل اسمًا للمتالف ، وهو فاعُولٌ من العِثار والعُثور ، وكذلك[2] استُعير للنَّقص فى الحسَب ، لأن صاحبَه يَعثُرُ به عن غاية السابق . وانتَصَب قوله « العاثور » من المصدر المنوَّن وهو حَفْرًا ، وأقوى ما يكونُ المصدر فى العمل إذا كان منوَّنًا ، إذ كان شَبَه الفعلِ فيه أقوى .

وقال بعضُ أصحاب المعانى : إنما يتمنَّى أن يملِكَها على حَدٍّ يُسْقِط تَسَوُّقَ المفسدين فيه[3] ، ويأمَن التَّبِعةَ معه ، ويرتفع العشق والهوى مِن بينهما .

---

(١) المغواة : حفرة كالزبية تحتفر للأسد .
(٢) ل : « ولذلك » .
(٣) التسوق ، بالسين المهملة فى النسختين ، وأصله من تسوق القوم ، إذا باعوا واشتروا .

٥٢٨

آخر :

١ ــ إنْ كان هذا مِنْكِ حقًّا فإنَّنى مُداوِى الذى بَينى وبينكِ بالهَجْرِ
٢ ــ ومُنْصَرِفٌ عَنْكِ انصرافَ ابنِ حُرَّةٍ طَوَى وُدَّه والطَّىُّ أبقَى من النَّشْرِ

يقول : إن كان هذا الذى يظهرُ منك موافقاً لما يَبْطُن ، وهذا الإعراضُ عن جَفاء وقِلًى لا دلالٍ وهوًى ، فإنى سأداوِى ما بينى وبينكِ بالتهاجر ، وقاعدٌ عنك قعودَ حُرّ لا يَصْبِرُ على الجَفاء والتدابُر ، ولا يَرضَى مِن وَديدِه بالمَذَقة دون الصَّفاء ، فأطوِى وُدِّى معه وأصونُه عن النَّشر ، لأنَّ الطَّىَّ أوقى فيه ، وصِيانتَه عن الابتذال أوعَى له[١] .

وإنما قال : « ابن حُرَّةٍ » والقَصد إلى الكريم من الرِّجال ، الذى يَصُون نفسَه ونفسَ صاحبِه فلا يُوحِش مع التهاجُر ، ولا يُفحِش على التَّنكُّر والتباغض ، لكنَّه يَلزم المجاملةَ والمُساتَرةَ فى كلِّ حال ، لأنّ الأمَّ إذا كانت متملَّكةً تبِعها الولد فى الرِّقّ ، فيحصُل الرِّقّ والهُجْنةُ معاً ، ومتى كانت الأمُّ حُرَّةً لم يَتْبَع الولدُ أباه فى الرِّقِّ وإن كان عبداً مملوكا ، ولكنه يكون هجيناً غيرَ عربىٍّ خالِص .

٥٢٩

آخر[٢] :

١ ــ وفى الجِيرةِ الغادِينَ مِن بطْنِ وَجْرَةٍ غزَالٌ كَحيلُ المُقْلَتَيْنِ رَبيبُ[٣]

(١) ل : « أرعى له » .
(٢) هو بعض الأعراب ، كما فى معجم البلدان (٨ : ٤٠١) .
(٣) ياقوت : « أحم المقلتين » . وبطن وجرة : منزل لأهل البصرة إلى مكة ، بينه وبين مكة مرحلتان .

٢ — فلا تَحْسِبِي أنَّ الغريبَ الذى نَأَى ولـكنَّ مَن تَنْأَيْنَ عنهُ غريبُ

كان شَغْبَا الشاعر وصديقته مجتمعَين ببطن وَجْرةَ زمانا ، فوقعت الأُلفة بينهما ثم افترقوا ، فقال متأسِّفًا فى إثرِها ، ومتلهِّفًا لما فاتَه من الاجتماع بينهما : وفى الخلطاء الباكرين من هذا المكان امرأةٌ كأنها غزالٌ مكحَّل العينَين مُرَبَّبٌ فى البيوت ، منعَّمٌ بالاقتناء ، ملَكَ قلبى . ثم قال مخاطبًا لها : لا تظُنِّى أنّ الغريبَ مَن بَعُد عن سَكَنه ، ونأى عن إلْفه ووطنِه ، ولـكنّ الغريبَ هو من تبعُدين عنه وفى يدكِ قيادُه ، فلَى البُعْد تَجْذِبينَه ، ومِن مرادِه تمنعينه ، وقد ضاق عنه مكانُه حتى صار فيه كمن نأى عن أهله ، وحصل فى غير أرضِه[1] ومنزله .

٥٣٠

وقال آخر :

١ — بنفسِى وأهلِى مَنْ إذا عرَّضوا له ببَعْضِ الأذى لم يَدْرِ كيفَ يُجيبُ[2]
٢ — ولم يَعتذِرْ عُذْرَ البَرِىء ولم تَزَلْ به سَكْتةٌ حَتَّى يقالَ مُرِيبُ

تعلَّقَ الباء من قوله « بنفسى » بفعلٍ مضمَر ، كأنَّه قال : أَفْدِى بنفسى وعشيرتى إنسانًا — ويعنى به محبوبَه — إذا اجتمَعَ عليه اللُّوَّام ، وتصرَّفوا فى فُنون الغضِّ منه والعَتْبِ عليه ، فآذَوْا قلبَه وضيَّقوا صدرَه ، ارتبكَ فى الجواب وحار ، ولم يدر لغَرَارته بماذا يُجيب ، ولسوء اهتدائه بوجوه الحِيَل كيف يتخلَّص ، فلا عُذْرُه عُذْرُ مَن لا جنايةَ له ، ولا سكوتُه سكوتُ مَن لا احتفالَ بهم

(١) هذا ما فى ل ، وفى الأصل : « أهله » .
(٢) عرضوا ، بالتشديد ، هو ضبط الأصل والتبريزى . وفى ل : « عرضوا » بتخفيف الراء .

جمه ، فهو فى إطراقه وخُفُوتِهِ(١) إذا قَضِيَّتُهم نفذَتْ فيه بأنَّه مُريب ، مرتكِب ، ولما رُمِيَ به مُكتسِب ، استدلالًا بسكوته على الذَّنب ، وبإمساكِه عن إقامة المعاذير على صِحَّة القَرْفِ .

٥٣١

وقال آخر :

١ — أرَى كُلَّ أرْضٍ دَمَّنَتْها ، وإن مَضَتْ   لها حِجَجٌ ، يَزْدادُ طِيباً تُرابُها

٢ — ألمْ تعْلَمَنْ يارَبِّ أنْ رُبَّ دَعْوَةٍ   دَعَوْتُكَ فيها مُخْلِصاً لو أجابُها

يقول : أرَى كلَّ مكانٍ أقامَتْ فيه هذه المرأةُ زَمَنًا فأثرتْ فيه أثراً يزداد على استمرار السِّنينَ والأحقابِ تُرابُهُ طِيباً ، وإن لم يكنْ لإقامتها أوانٌ ممتدٌّ وزمانٌ متَّصل ، فقوله « يزدادُ » فى موضع المفعول الثَّانى لأرى . ودمَّنَتْها : فِعْلٌ مبنىٌّ من الدِّمْنة : أثرِ الدَّار وما سُوِّد بالرَّماد وغيرِه ، فكأنَّ معنى دَمَّنَتْها أثَّرَت فيها بالإقامة . وانتَصَب « طيباً » على التَّمييز ، وقد نُقِل الفعل عنه لأنَّ الأصل يزداد طيبُ ترابها ، فجُعِل الفعلُ للتُّراب فأشبه « طيباً » المفعول . وعلى هذا : قَرِرْت به عَيْناً .

فإن قيل : هل فى هذا دَلالَةٌ على صِحَّةِ قولِ المُخالِفِ لسيبويهِ فى جواز تقديم التَّمييز إذا كان العامل فيه فِعْلًا ، وهل يُفْصَل بين هذا البيتِ وبين ما استدلُّوا به من قول الآخَرِ(٢) :

* وما كان نَفْساً بالفِراق تَطِيبُ(٣) *

---

(١) هذا ما فى ل . والخفوت : سكون الصوت . وفى الأصل : « وحتوقه » تحريف .

(٢) هو المخبل السعدى ، أو أعشى همدان . شواهد العينى (٣ : ٢٣٥) .

(٣) صدره : * أتهجر ليلى للفراق حبيبها * .

قلتَ : لا دَلالة فى هذا الذى نحنُ فيه وإن كان البيتُ الذى أوردتَه أَمكَنَ التَّعلُّق به ، حتّى ذكَر أصحابُ سيبويه أنّ الرِّواية على غيره ، وهو :

* وما كان نفسى بالفِراق تَطِيبُ *

وذلك أن « طِيباً » لم يُقدَّم على العامل وهو الفعل ، وإنَّما قُدِّم على ماصار فاعلا ، وإذا كان كذلك لم يصحَّ الاحتجاج به له ، لأنَّ الموضعَ المختلَفَ فيه هو جوازُ تقدُّمِه على العامل فيه وامتناعُه منه لا غير ، فأمّا مادام واقعاً بعد الفعل فلا مُستدَلّ به على موضع الخلاف .

وقوله « ألم تعلمَنْ يا رَبِّ أن رُبَّ دَعْوَةٍ » ، أنْ مخفّفة من أنَّ الثَّقيلة ، والتقدير: أنّه ربَّ دعوةٍ. وفى رُبَّ لغات : إحداها التَّخفيف[1] . وكأنه يتضرَّع فى هذا الكلام إلى خالِقِه ومَن يستغيث به فيما يُقاسيه ، ويقرِّر فى الدُّعاء عليه أنّه قد ضَمِنَ الاستجابة فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فقال : إنَّك تعلم يارب أنِّى قد أخلصت دُعاءك فى أوقاتٍ كثيرة لطَلِبَتِى لو اقترنَ بالدُّعاء إجابةٌ وإسعاف ، وضَمانُك الأصحُّ الأوفَى ، فاستَجِبْ . وفيه أيضاً ما يَجرِى مَجرى الاستزادة إذا توجَّه إلى غيره تعالى . وانتصب « مخلصاً » على الحال . وقوله « لو أُجابُها » يريدُ به لو أُجابُ فيها .

٣ — وأُقْسِمُ لَوْ أَنِّى أَرَى نَسَباً لَهَا ... ذِئابَ الفَلاَ حُبَّتْ إلَىَّ ذِئابُها

٤ — لَعَمْرُ أبى ليلَى لَئِنْ هى أصبَحَتْ ... بِوَادِى القُرَى ما ضَرَّ غيرى اغترابُها

قوله « أقسم » جملةٌ تنوب عن اليمين ، والجواب « حُبَّت إلىَّ ذئابها » متعلِّقا بالشَّرط المذكور ، وهو أن تكون مناسبة . وجواب لو هو ما صار جواباً

[1] (١) فى رب ست عشرة لغة : ضم الراء وفتحها ، وكلاهما مع التشديد والتخفيف ، والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ساكنة أو محركة ومع التجرد منها ، فهذه اثنتا عشرة ، والضم والفتح مع إسكان البـاء ، وضم الحرفين مع التشديد ، ومع التخفيف ، فهذه أربعة أخرى ، تكون كلها ست عشرة لغة .

لليمين ، وكذا يقع الشَّرط والجزاء بعدها . تقول: والله لئن جئتَنى لأكرمنَّك . ويُرْوَى : « حَبُتْ » بفتح الحاء والأصل حَبُبَت ، وفَعُل فى المضعَّف قليل . ويروى «حُبَّت » بضم الحاء ، وهو بناء لما لم يُسَمَّ فاعله . ويقال : حَبَبْتُه فهو محبوب ، لغة فى أحبَبْتُه .

وقوله « لعَمْرُ أبى لبلَى » إقسامه بأبيها تعظيمٌ لها ، وتنبيهٌ على مَحلِّه من قلبه ، وأنَّه منصبٌ إلى مَن يجمعه وإيّاها عُلْقَةٌ وإن ضَعُفت ، فكيف أبوها والمختصُّ بها . وفى هذا زيادةٌ على ما قاله الآخَر(١) ، وهو :

ومِن بيِّناتِ الحبِّ أنْ كان أهلُها أحبَّ إلى قلبى وعينى مِن أهلى(٢)

واللام من « لئن » موطِّئة للقَسَم ، وجواب القَسَم ما ضَرَّ ، والمعنى : إنْ عادتْ هذه المرأةُ إلى موضِعِها من وادى القُرَى لم يضُرَّ غيرى البُعدُ منها ، والاغترابُ عنها . وقوله «اغترابها» يريد اغترابى عنها ، ويجوز أن يُريدَ تباعُدَها .

٥٣٢

وقال آخر :

١ ــ لَعَمْرُكَ ماميعادُ عيْنَيْكَ والبُكَا بِدَارَاءَ إلا أنْ تَهُبَّ جَنُوبُ(٣)

٢ ــ أُعاشِرُ فى دَارَاءَ مَنْ لا أُحِبُّه وبِالرَّمْلِ مَهْجُورٌ إلَىَّ حبيبُ(٤)

(١) هو الحسين بن مطير . الحماسية ٤٧٣ ص ١٢٥٣ .

(٢) ضبطت نون « عينى » فى ل بالفتح والكسر لتقرأ بالتثنية والإفراد ، مشفوعة بكلمة « معا » تحقيقا للضبطين .

(٣) أنشد ياقوت فى معجم البلدان هذه الأبيات فى رسم (داراء) بعد أن ذكر أن « داراء » من نواحى البحرين . ثم قال : « وهذا موضع استصعب علينا معرفته ، وكثر تفتيشنا إياه ، وظنه شارحو الحماسة دارا التى ببلاد الجزيرة ، فغلطوا ، حتى وجده الوزير الصاحب الأكرم جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف الشيبانى القفطى ، أطال الله بقاءه ، بخط أبى عبد الله المرزبانى فيما كتبه عن الحسن بن عليل العنزى ، فأفادناه » .

(٤) ياقوت : « من لا أوده » . وستأتى هذه الرواية فى الشرح .

٣ ـ إذا هَبَّ عُلْوِىُّ الرِّياحِ وَجَدْتَنِي كَأَنِّي لِعُلْوِىِّ الرِّياحِ نَسِيبُ

يقول : وبَقائِكَ ما الموعدُ بين البُكاء وأنت بداراءَ إلاَّ عندَ هُبوب الجنوب ، وإنَّما قال هذا لأنَّ الجنوبَ كان مهبُّها مِن أرضِ صاحبتِه ، فعلى هذا التَّأويل يكون « والبكا » في موضع الجرِّ عطفاً على عينَيك . ولا يمتنعُ أن يكونَ المرادُ . ما ميعاد عينَيك مع البكا بهذا المكانِ إلاَّ إذا هبَّت الجنوب ؛ فيكون مفعولاً معه . وإنَّما قال ذلك لأنَّها تُهْدِي إليه أَرِيجَتَها[1] ، أو يعتقد أنَّها رسولُها ، فتُجدِّد ذكرها ، وتطرِّى الوجدَ بها ، فيَبكِي شوقاً إليها . وقال الخليل : الميعاد لا يكون إلا وقتاً أو موضعا . وإذا كان كذلك فالميعاد مبتدأ وخبره أن تَهُبَّ ، والمراد وقت هبوبها ، حتَّى يكون الآخِر هو الأوّل ، إلاَّ أنه حذَفَ المضاف .

وقوله « أعاشِرُ في دَاراءَ مَن لا أودُّه » شَكْوٌ من الدَّهر حين جَمع بينه في داراءَ وبينَ من لا هَوَى له معه ، وفرَّقَ بينه وبين محبوبِهِ فجعله بالرَّمل .

وقوله « إذا هَبَّ عُلْوِىُّ الرِّياح » يريدُ : إذا هبَّت الرِّيح من نحو عاليةِ نَجْد ، فكأنِّى[2] يجمعني وإيَّاها نسبٌ ، لاهتزازى لها ، وارتياحِي لهُبوبها ، فأنا أنتظرُها ترقُّبَ المسافرِ وقد دنا موافاتُه .

٥٣٣

آخر[3] :

١ ـ هَلِ الحُبُّ إلاَّ زَفْرَةٌ بعد زَفْرَةٍ وَحَرٌّ على الأحشاءِ ليسَ له بَرْدُ

(١) كذا في النسختين والتبريزى . والأريجة مثل الأريج : الريح الطيبة ، والجمع الأرائج .

(٢) هذا ما في ل . وفي الأصل « وكان » .

(٣) هو عبد الله بن الدمينة . ديوانه ٢٦ .

٣ — وفيضُ دُمُوعِ العَينِ يا مَىّ كُلَّما بَدَا عَلَمٌ من أرضكمْ لم يكُنْ يَبْدُو[١]

الاستفهام هنا فى معنى النَّفى ، كأنه حَاجَّته صاحبتُه أو إنسانٌ لائمٌ أو غيرُهما ، فيما يدَّعيه من الُحبّ ، فقال رادًّا عليه حِينَ كذَّبه فى دعواه : ما الحبُّ إلّا تتَابُعُ الزَّفَرَاتِ تحسُّرا ، والتهابُ تَوَجُّدٍ[٢] فى الحشاَ لا يتعقَّبه ابتراد ، وسيلانُ دَمْعٍ من العَين لا يُرقِئُه انقطاعٌ ، فى كلِّ وقْتٍ ظَهرَ فى مَرْأَى العينِ له جبَلٌ من أعلامِ أرضكمْ لم يكن يَبدو من قَبلُ ، وجميعُ ذلك أعتادُهُ من نفسى ، ويُدرِكه من يتأمَّلُ حالى ، وتصدِّقه المشاهدةُ منِّى .

٥٣٤

وقال ابنُ مَيَّادَةَ[٣] :

١ — كأنّ فُؤادِى فى يَدٍ ضَبَثَتْ بِهِ مُحَاذَرَةً أن يَقْضِبَ الحَبْلَ قَاضِبُهْ

٢ — وأُشْفِقُ مِن وَشْكِ الفِراقِ وإنَّنى أظُنُّ لَمَحْمُولٌ عليه فرَاكِبُه

الضَّبْثُ : القَبْضُ على الشَّىء ؛ ومنه ناقةٌ ضَبُوثٌ ، أى لا يُشَكّ فى سِمَنِها إذا ضُبِثَ على سَنامِها . وانتصَب « مُحَاذَرَةً » لأنَّه مفعول له ، وموضع « أن يقضب » نصبٌ من محاذرةً . فيقول : كأنَّ قلبى يُعصَر بقبْضِ قابضٍ عليه ، لخوفى من أنْ يَقطع الوصلَ قاطعُه من البَيْن ، ومع ذلك أخافُ من وقوعِه سريعاً لقوَّةِ الأمارات ، وتتابُعِ المحذِّرات المنذِرات . وإنما قال « أظنُّ لَمحمولٌ

---

(١) فى الديوان : « غروب العين بالدمع كلما » .

(٢) ل : « يوجد » .

(٣) هو الرماح بن أبرد . وميادة أمه وكانت أم ولد ، وهو من بنى مرة بن عوف ابن سعد بن ذبيان ، وهو شاعر مخضرم من شعراء الدولتين ، وكان ممن مدح المنصور ، ومات فى صدر خلافته . الأغانى (٢ : ٨٥ — ١١٦) والخزانة (١ : ٧٦ — ٧٧) والمؤتلف ١٧٤ والاشتقاق ١٧٥ .

عليه ، والظَّنُّ بمعنى اليقين ، فهو مِثل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ . وقوله «لَمحمول عليه » إيذانٌ بأنه ليسَ يقعُ عن اتِّفاق معَه أومشاركةٍ فى تدبيره . وأظنُّ مفعولُه الأوَّل ، والثانى مستدَلٌّ عليه ، لأنَّ المراد ذلك فى ظَنِّى أو علِى ، فهو مُلغًى . والقَضْبُ : القَطْع ، ومنه سيفٌ مِقْضَبٌ وقَضَّابٌ . ووشْكُ الفِراق : سُرعة القطيعة . ويقال أوشك هذا أن يكون ، أى أسْرَعَ .

٣ — فواللهِ ما أَدرِى أيَغلِبُنى الهوَى إذا جَدَّ جِدُّ البَيْنِ أم أنا غالِبُهْ

٤ — فإنْ أستَطِع أَغلِبْ وإن يَغْلِب الهوى فمِثلُ الذى لاقيتُ يُغْلَب صاحِبُهْ

يقول : شارفتُ فِراقَ الأحبَّة بالدلائل اللائحة ، وأحلف بالله ما أعلمُ من حالى إذا وَقَع ، أَأَجْزع أم أصبر .

وقوله « إذا جَدَّ جِدُّ البَين» يجوز أن يكون المراد : إذا ازدادَ جِدُّه جِدًّا ، كأنه يَظهر من جَليَّةِ أمرِه ما يَزُولُ اللَّبْسُ والشُّبهة معه . ويجوز أن يريد : إذا صار هَزْله جِدًّا ، فسمَّاه بما يؤول إليه ، كما يقال : خرجَت خوارجُه ، وريعَ رَوْعُه . والمراد أنه التبس عليه إذا باغتَهُ الفراقُ حالُه معــه ، فلا يَدرِى أىَّ الأمرينِ يَقَع : أيَغلِبُه الهوى فَيسلُبُهُ التجمُّلَ ، ويُلبِسُهُ التهتُّك ، أم يَغلِبُ بدوام مُسْـكَتِه وكمال تثبُّتِه الهوَى فيستمرّ حالُ السلامة به . ثم قال كالمتسلِّى والمنقاد لخاتمةِ الـكائنة : فإن أطَقْتُ وكان فى مقدورى — إذا اجتهدتُ — غَلَبُ الهوى فهو المراد ؛ وإن جرَى القَدَر بخلافِه فمِثلُ ما أقاسيه يَغلِبُ مُعانيَه ، ويجتذبه إلى ما يكرهه ، وعُذْرُه لائحٌ .

٥٣٥

وقال آخر :

١ — فيا أهلَ ليلَى أكثَرَ اللهُ فيكُمُ مِنَ أمثالِها حتَّى تَجودُوا بها لِيا[١]
٢ — فما مَسَّ جَنْبِي الأرضَ إلاَّ ذكرتُها وإلاَّ وَجدتُ رِيحَها في ثِيابِيا

بَنَى الكلامَ على أنَّ عشيرتَها والمالِكين أمرَها إنما ضَنُّوا[٢] بها لأنها معدومةُ النظير فيهم ، وأقبلَ يَستعطِفُهم ويدعو لهم بأن يُكثِرَ اللهُ أمثالَها وأشباهَها فيهم ، حتَّى يتركوا المنافسةَ ، وتحتمل قلوبُهم الجُودَ له بها .

وقوله « فما مَسَّ جنبي الأرضَ إلاَّ ذكرتها » يريد : ما اضطجعتُ للمَنامِ خالياً بنفسي إلاَّ امتنعَ النَّومُ فقام ذِكرُها مَقامَ خيالِها ، ثمَّ صِرْتُ من الشَّوقِ والتَّحفِّي أتصوَّرُها معي ، وأجِدُ رائحتَها في ثيابي . وهذا المعنى هو مخالفٌ لمعنى الأُنْس بالخيال .

٥٣٦

وقال آخر :

١ — تقولُ العِدَى لا بارَكَ اللهُ في العِدَى قَدَ اُقْصِرَ عَنْ لَيْلَى ورَثَّتْ وسائِلُه[٣]
٢ — ولو أصْبَحَتْ لَيْلَى تَدِبُّ على العَصَا لَكانَ هَوَى لَيلَى حديثاً أوائِلُه

يُروى : « وراثت وسائله » . المراد بالعِدَى الوُشاةُ المُفسِدون . وأصل

(١) أشير في هامشة ل إلى رواية أخرى في نسخة ، وهي « كثر الله فيكم شبيها بليلى كي تجودوا » .
(٢) في الأصل : « متوا بها » ، صوابه في ل .
(٣) التبريزي : « يقول » .

البَرَكة الثَّباتُ مقترنًا بالنَّماء ومنه مَبْرَكُ الإبل ، وبَرَاكاء القِتال . ويقال : أقصَرَ عن الشَّىء ، إذا كفَّ عنه وهو يقدر عليه ؛ وقَصَرعَنْه ، إذا عَجَز ؛ وقصَّر ، إذا فرَّط . يقول : ادَّعَى الوُشاةُ أنِّى قد كَفَفت عن ليلى وزَال وَلوعى بها ، وأنَّ وسائلى لدَيها قد أخْلَقتْ وتقطَّعتْ ، فلا بارَكَ اللهُ فيهم فإنَّهم ادَّعَوا باطلا ، واختلقوا إفكاً ، ومُرادُهم إفسادُ قلبِها علىّ ، وصرفُها عن الانطواء على الجميل لى وفىّ . ثمَّ ذكَرَ ما دَلَّ به على بقائه على العَهد ، واستمراره فى عِمارة الوُدّ ، وعلى بُطلانِ قولِهم فيما صَنَّفوه ، وبَهْتِهم وتَمويههم فيما نَسَبوه إليه ووضَعوه ، فقال : لو شاختْ ليلى حَتَّى يصير مَشْيُها دبيباً وهى متوكِّئة على عُكَّاز ، لكان هواها فى قلبى جديداً أوائلُه ، شديدا أركانه وقواعده .

٥٣٧

وقال حَفصُ بنُ عُلَيم [(١)] :

١ ـ أقُولُ لحِلْمِى لاتزَعْنِى عن الصِّبَا ... ولِلشَّيبِ لا تَذْعَرْ عَلَىَّ الغوانِيا [(٢)]

٢ ـ طَلَبْتُ الهوَى الغَوْرِىَّ حَتَّى بَلَغْتُه ... وسَيَّرْتُ فى نَجْدِيِّه ما كَفَانيا

يصف انهماكَه فى البَطالة ، وتَمادِيَه فى الغَواية ، والتذاذَه للصِّبا واللَّهو والخَسارة فقال : أقولُ لِحلمِى : تباطَأْ عنِّى ، ولا تعاجلْنى فتكفَّنى عما أهواهُ وقَصَرْتُ شغلى عليه ؛ وللشيب : تَراخَ ولا تُبادِر فترُوعَ النِّساءَ وتنفِّر . وهذا الكلامُ وإن كان ظاهرُه تلطُّفا وسؤالًا فإنَّه يَجرى مَجرى التَّمنِّى فى استدامة ما كانَ يَشتهيه ، ويُوزَعُ به .

وقوله « طلبْتُ الهوى الغَوْرِىَّ » يريد : تفنَّنتُ فى الهوى فأنجدَ بى طَوْراً ،

---

(١) التبريزى : « حفص العليمى ، من جناب من كلب ، ويقال هم قريش كلاب » .

(٢) سبق التنبيه على ترتيب هذه الحماسية عند التبريزى فى ص ١٣٢٢ .

وغار بى طَوراً ، إلى أن تناهيتُ ، وبلغتُ أقصى الغايات فوقفْتُ . وموضع «ما» من قوله « ما كفانيا » نصبٌ على المصدر من سَيَّرت ، يريد : سيَّرت فى نجديّه سيراً كفانيا . ومعنى سَيَّرْتُ أكْثَرْتُ السَّيرَ وكرّرتُه . والغَوانِى من النِّساء : اللاتى تَستغنِى بجمالها عن التحلِّى . وقيل : الغانية : التى تستغنى بزَوْجِها عن الرِّجال .

٣ — فيارَبِّ إن لم تَقْضِها لِى فلا تَدَعْ قَذُورَ لهم واقْبِض قَذُورَ كما هِيا[1]

٤ — ويا ليتَ أنَّ اللهَ إنْ لم أُلاقِها قَضَى بين كلِّ اثنين ألاّ تلاَقيا

البيت الأول دلَّ به على ضِيقِ صدرِه بحاله ، وشِدّةِ ضَنِّه بصاحبته ، فدعا ربَّه أن يَقبِض قذورَ إليه إن لم يقدّر بينهما مُرافأة والتحاماً ، ويتوفَّاها بالموت ليأمَنَ أن يملك أمْرَها غيرَه . وهذا يدلُّ على شِدَّةِ غَيرةٍ فيه ، ومُضايقةٍ للنَّاس كافّة فى شىءٍ يتمناه ثم يَقْصُر عنه . فأمّا قوله « كما هيا » فموضعه من الإعراب نصبٌ على الحال ، وما من قوله « كما » يجوز أن يكون بمعنى الذى ويكون هى خَبَراً لمبتدإ محذوف ، كأنَّه قال : كالذى هُوَ هِيَ . ويجوز أن يكون ما كافَّةً للكافِ عن عمل الجرّ ويكون هى فى موضع المبتدإ والخبر محذوف ، والمعنى : اقْبِضْها كما هى عليه .

والبيت الثانى وهو «يا ليتَ أنَّ اللهَ إنْ لم أُلاقها » دلَّ به على حسدٍ شديد منه ، وقِلَّة رضاً بمساعَدة القدَر فى شىءٍ يَحرُم المشاركةُ فيه . وقوله « يا ليت » يريد : يا قومِ ليت ، والمنادى محذوف ، والكلام بعده تَمَنٍّ فى ألا يَحصُلَ الاجتماعُ بين متحابَّين إن لم يُرْزَقْ مثلَه فى صديقِه . وقوله « ألّا تلاقيا » أن فيه مخففة من الثَّقيلة ، والمعنى أنّه لا تلاقِىَ لنا ، فخبر لامحذوف ، والجملة فى موضع خبر

---

(١) قذور : اسم صاحبته . والقذور من النساء : التى تتنزه عن الأقذار . وهى أيضاً المتنحية عن الرجال .

أنَّ ، والضمير المقدَّر ضمير الأمر والشَّأن ، وخبر أنّ الله « قَضَى » وقد حصل في الجملة جوابُ الشرط ، وهو إن لم ألاقها ، وخبرُ ليتَ .

٥٣٨

وقال آخر :

١ـ وقَفْتُ لِليْلَى بالمَلَا بَعْدَ حِقْبَةٍ   بِمَنْزِلةٍ فانهلَّتِ العينُ تَدْمَعُ[١]
٢ـ وأتبَعُ ليْلَى حيثُ سارَتْ وَوَدَّعَتْ   وما النَّاسُ إلا آلفٌ ومُوَدِّعُ
٣ـ كأنَّ زِماماً في الفؤادِ مُعلَّقاً   تَقُودُ بِهِ حَيْثُ استمرَّتْ فأتْبَعُ

يقول : وقفتُ مِن أجلِ ليلَى ومن أجل مَنازِلها بالمَلَا ، بعد زمانٍ مُمْتَدّ ، ودهرٍ متَّصل ، فتجدَّد لى من الوَجد ما هيَّج لى بكاءً ، وطَرَّى لى عُهوداً[٢] فإني أسيرُ هواها ، وتبيعُ البَلْوَى فيها ، فقلْبِي معها حيث ظَعَنَت وأقامت . وقوله « وَدَّعَتْ » معناه تَوَدَّعَتْ . ثم قال : « وما النَّاس إلا آلِفٌ ومودِّع » يريد أنّ النّاسَ من بينِ آلِفٍ لها لكونه مسافراً معها ومُرافقاً لها في طريقها ، أو منصرِفٍ عنها بعد توديعها وتشييعها ، وأنا على خلافِهم كلِّهم ، لأنِّي ملازِمُها في كلِّ حالٍ .

وقد كَشَفَ عن هذا الغَرَضِ بما بَيَّنه في قوله :

كأنّ زِماماً في الفُؤاد مُعلَّقاً   تَقُودُ به حيث استمرّتْ فأتبَعُ

يريد طاعة قلبِه وانقيادَه لها . ومِثْلُ « وَدَّعَتْ » و « مُوَدِّع » يُسَمَّى التَّجنيس الناقص .

(١) الملا : موضع بعينه ، كما ذكر ياقوت .
(٢) في الأصل : « مجهودا » ، صوابه في ل .

٥٣٩

وقال وَرْدٌ الْجَعْدِىُّ[1] :

١ — خليلىَّ عُوجا بارَكَ اللهُ فيكُما ... وإن لم تكُنْ هِنْدٌ لأرضِكُما قَصْدَا
٢ — وقُولا لها ليسَ الضَّلالُ أجارَنا ... ولكنَّنا جُرْنا لِنَلقاكُمُ عَمْدا[2]

يخاطب خليلَين له متلطِّفاً لهما، وسائلاً تعويجَهما على ديار هند وإن لم تكن مُسامِتةً لقصدهما، وأن يبلِّغاها إذا التقَيا معها أنّا تعمَّدْنا زيارتَكِ طلباً لقضاء ذِمامك، وتجديداً للعهد بك، ولم يكن العدولُ إليكِ عن ضَلالٍ مَلَكَ قيادَنا، وصَرَفنا عن وجهِ رشادِنا، ليقع الاعتدادُ منها بتحرِّينا وفِعلنا.

٥٤٠

وقال[3] :

١ — وما فى الخلقِ أَشقَى مِن مُحِبٍّ ... وإنْ وَجدَ الهوَى حُلْوَ المَذاقِ
٢ — تَرَاه باكياً فى كلِّ حِينٍ ... مَخافةَ فُرْقَةٍ أوْ لاشتياقِ
٣ — فيبكى إن نَأَوْا شَوْقاً إليهم ... ويَبْكِى إن دَنَوْا خَوْفَ الفِرَاقِ
٤ — فتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِندَ التَّنائِى ... وتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِندَ التَّلاقِى

وَفَّى هذه الأبياتَ حقَّ القِسمة، وأقامَ شَرْطَ المقسُومِ على حَدِّه المألوف من التَّجرِبة. فيقول: ليس فيمن خَلَقَه الله من البَشَر أوفَى شقاءً، وأعظمُ بلاءً من

(١) هو ورد بن عمرو بن ربيعة بن جعدة، شاعر جاهلى، وهو الذى قتل شراحيل ابن الأصهب الجعفى، فى حديث طويل رواه أبو الفرج فى الأغانى (٤ : ١٣٣ — ١٣٤). وذكر فى الأغانى (١٠ : ١٢٢) أن الأبيات للمرقش الأكبر.
(٢) الأغانى «أجازنا . . . . جزنا»، بالزاى فيهما.
(٣) التبريزى: «وقال آخر»، قال أبو رياش: هى مولدة».

المحِبّ ، وإن استحْلَى ذَواق الحبّ واستلانَ جَسَّه ، إذ كنتَ تجدُه كلَّ وقتٍ متألِّماً من حاله ، ضَجِرًا بعَيشه ؛ وذلك أنه لا يخلو من إحدى حالتين : إما أن يكون مجتمِعاً مع محبوبه فيخافَ الافتراق ، أو يكونَ بعيداً منه فيكدُّه الاشتياق ، ولا حالةَ ثالثةَ للاجتماع والافتراق ، وهو سَخِينُ العينِ فى كلٍّ منهما ، قليلُ التودُّع فى عَقِبهما .

وقوله « وإن وجَدَ الهوَى » جواب الشَّرْط منه فى قوله « ما فى الخَلقِ أشقَى من مُحب » . وقوله « شوقاً إليهم » انتصَب على أنه مفعول له وكذلك قوله « خوفَ الفِراق » و « مخافةَ فُرقةٍ » . ألاَ ترَى أنه عَطَف عليه « أو لاشتياق » فجعل حرف الجرّ فيه اللام .

٥٤١

وقال ابنُ الطَّثْرِيَّة[١] :

١ ـ عُقَيْلِيَّةٌ أمَّا مَلاَثُ إزارِهَا فَدِعْصٌ وَأَمَّا خَصْرُها فبَتِيلُ

٢ ـ تَقَيَّظُ أكنافَ الحِمَى ويُظِلُّها بنَعْمانَ من وادِى الأَراكِ مَقِيلُ

المَلاَث : الموضع الذى يُدَارُ به الشىء . ويقال : لُثْتُ على رأسى العمامةَ لوثاً . ومنه قوله :

* كانوا مَلاَوِيثَ فاحتاجَ الصَّدِيقُ لهم[٢] *

(١) هو يزيد بن سلمة بن سمرة بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر ، والطثرية أمه ، وهى من الطثر ، بالفتح : حى من اليمن . قال ابن خلكان : « الطثرية بفتح الطاء المهملة وسكون الثاء المثلثة » ، وضبطها صاحب القاموس بالتحريك . وكان يزيد جميلا وسيما شريفا متلافا ، توفى سنة ١٢٦ . وكان من شعراء بنى أمية مقدما عندهم . الأغانى (٧ : ١٠٤ – ١١٧) وابن سلام ١٥٠ – ١٥٢ وابن خلكان (٢ : ٣٩٥ – ٣٩٩) ومعجم الأدباء (٧ : ٢٩٩ – ٣٠٠) والشعراء ٣٩٢ – ٣٩٣ وحواشى الحيوان (٦ : ١٣٧) .

(٢) البيت لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوانه ٤٤ واللسان (لوث) . وعجزه :

* فقد البلاد ، إذا ما تمحل ، المطرا *

أى كانوا الذين يُدارُ بهم، ويُطاف عليهم، ويُرْجَى خيرُهم. والمراد بالمَلاَث هاهنا العَجُز. وشبَّهها بالدِّعص، وهو الرَّمل المجتمِع، لكثرة اللَّحم عليها واكتنازه. والبتيل: الهَضِيم الدَّقيق، وأصل البَتْل القَطْع، ومنه قول الله تعالى: ﴿ وتَبَتَّلْ إليهِ تبْتيلاً ﴾. وصَفَ المرأة بالنَّعْمَةِ والنِّعْمَة، ومطاوعة الخيرِ لها والسَّعَة، فيقول: هى دقيقة الخَصْر، قليلة العَجُز، وهى فى فصول سَنَتِها تنْتقِل فى المواضع الطيِّبة المُخْصِبَة، لا تُكابد ضِيقاً ولا تُعانى جَهْداً. وتَقَيَّظُ بالمكان: أقامَ قيظَه فيه[1]. ونَعمان: وادى الأراك. وأصل تَقَيَّظُ تَتَقَيَّظُ، فحذف إحدى التاءين.

٣— أليسَ قليلاً نَظْرَةٌ إن نَظَرتُها إليكِ، وكَلاّ، ليس مِنْكِ قَليلُ

٤— فياخُلَّةَ النفسِ التى ليسَ دُونَها لنا مِنْ أَخِلاَّءِ الصَّفَاءِ خَليلُ

٥— ويا مَن كَتَمْنَا حُبَّهُ لم يُطَعْ به عَدُوٌّ ولم يُؤْمَنْ عَلَيْه دَخِيلُ

٦— أَمَامِن مكانٍ أَشتَكى غُرْبَةَ النَّوَى وخَوْفَ العِدَى فيه إليكِ سَبِيلُ

قوله «أليس» يقرَّر به فى الواجب الثابت، وكذلك أَلَمْ وأَلاَ؛ وذلك أنّ حرف الاستفهام يُضارِع حرف النّفْى، ونفى النَّفى إيجاب، فإذا قال القائل: ألم أحسنْ إليك؟ يجب أن يكون قد أحسَنَ، فتقريرُه به فيما قد وقع وثَبَت. وفى القرآن: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾. فكأنه قال مُدِلاًّ بما يُقاسيه فيها، ويتحمَّله مِن أجلها: أليس قليلاً نظرةٌ مِنْكِ إذا حَصَلَتْ لى. ثم استدرَكَ على نفسه راجعاً فيما أطلقه، وناقضاً لما اعتقدَه، فقال: «كلاَّ» — وهو حرفُ رَدْعٍ ونَفْى — لا قليلَ منكِ. ومثلى هذا قول الآخر:

هَلْ إلى نظرةٍ إليكِ سبيلُ فيُرَوَّى الظَّما ويُشْفَى الغَليلُ
إنَّ ما قَلَّ منكِ يكثُر عندى وكثيرٌ ممن يُحِبُّ القليلُ

(١) فى النسختين: «فيه».

فقوله « القليل » مبتدأ ، و « كثير ممن يحب » خَبَرُه .

وقوله « فياخُلّةَ النفس » فى هذا الكلام اعتدادٌ فى المناداة بما يتوخّاه معها ، فيقول : يا صديقةَ النفس التى تفرّدَت بمِلْكها واجتذبتْها من أيدى خُطّابها ففازت بها ، فليس لنا خليلٌ ممن يُصافِى المودّة من دُونِها[١] ، ويا مَن ستَرْنا حُبَّه عن الناس كافّةً ، صيانةً له عن الانتشار والابتذال ، فلم نُطِـعْ فيه واشياً فيَفْسُد ذاتُ بينِنا ولا مُضَرِّباً[٢] ، ولم نأمن عليه دخيلَه يُزاحِمُه فى حِمَاه فيصير موضِعُه مشتَرَكاً ، أمَا عندكِ مَقامٌ لى فيه إليك سبيل أشتكى غَرْبَةَ النَّوَى ، وخَوفَ العِدى . فالمنادى له قوله « أمَا مِن مقامٍ أشتكى » .

٧ – فَدَيْتُكِ أعدائى كثيرٌ وشُقَّتِى   بَعيدٌ وأشْيَـاعِى لديكِ قَليـلُ

٨ – وكنتُ إذا ما جئتُ جئتُ بعِلّةٍ   فَأَفنيْتُ عِلاَّتِي فـكيفَ أقُولُ

٩ – فما كلَّ يومٍ لى بأَرضِكِ حاجةٌ   ولاَ كلَّ يوْمٍ لى إلَيكِ رَسُولُ[٣]

الشُّقَّةُ : بُعْدُ مسيرِ أرضٍ إلى أرض بعيدة ، وإنّما لم يقل بعيدة ، لأنّ فعيلاً كثيراً ما يقع للمؤنّث والمذكّر على حالةٍ واحدة ، حَمْلاً على النَّسب أو على فَعُولٍ . يقول : تفديك نفسى ، فى أعدائى بحضرتك وفى الطريق إليك كثرةٌ ، وفى المسير بينى وبينَك بُعْدٌ ومشقة ، وفى النُّصّار لى بحضرتِك قِلّة ، وكنتُ متى جِئْتُك من قَبْل ، ولم تبلُغ الحالُ منّا هذا المبلغَ ، أُقيم مَعذِرةً وأنصِب لفِعلى علّة . وقد كَثُر ذلك مِنِّى حتَّى فَنِيَت المعاذيرُ والعِلَل ، فلا أَدرِى ماذا أقول ، ومن أين

(١) فى الأصل : « من ذويها » ، صوابه فى ل .

(٢) التضريب : الإغراء بين القوم .

(٣) بعده عند التبريزى :

صحائفُ عِندِى للعتابِ طَويتُهـا   ستُنْشَرُ يوماً والعتابُ طويلُ

فلا تحمِلِى ذنبي وأنتِ ضعيفةٌ   فحمل دمِى يوم الحسابِ ثقيلُ

أتوصّل ، بأىّ شىء أتبلّغ ، وعلى ماذا أعوّل ، ومع ذلك فالحاجاتُ بأرْضِك لا تكادُ تَعرِض كلّ يوم فتذْكَر ، والرُّسل لا توجد فتتقاطر ، فإذَا تُؤمِّل حالى فإنّى حبيسٌ على المكاره ، أسيرٌ فى أيدى النّوائب ، ضيّقِ المجال والشّأوِ فى الزِّيادة ، موفورُ الحظّ من الأسباب الصادّة ، عظيمُ المحنة فيما اجتمَعَ علىَّ من أنواع البَلاء ، وموانِع القَضاء . وقوله « فكيف أقولُ » ، يريد : كيف أقول ما أقوله ، فحذَف المفعول ، ويجوز أن يكون المراد بأقول أتكلَّم ، فيستغنى عن المفعول ، كقول الآخَر[1] :

بحاجَةِ نَفْسٍ لم تقُلْ فى جوَابِها ... فَتُبْلِغُ عُذْرًا والمَقالَةُ تُعْذِرُ

أى لم تتكلّمْ فى جوابها .

٥٤٢

وقال آخر :

١ ـ أَبَعْدَ الّذِى قد لجَّ تَتَخذِينَنِى ... عَدُوًّا وقد جرَّعْتِنِى السُّمَّ مُنْقَعا

٢ ـ وشَفَّعْتِ مَن يَبْغِى علىَّ ولَم أكُنْ ... لِأَرْجِعَ مَنْ يبْغِى عَلَيْكِ مُشَفَّعا

ألف الاستفهام تَطلب الفعل ، وإن كان المراد به هنا التّقريع[2] والمعنى : أتتّخذِينَنى عدوًّا بعد ما لَجَّ من الحُبِّ فيكِ والهَوَى ، وغَلَبَ من عِصْيَان القلْب والأَسَى ، وبعد أن سقيتِنِى جُرَع السّمّ المُنْقَع ، وأذَقْتِنى مرارةَ المنْع الجامد ، فوجَدتِنى صابراً على الأَذَى ، مُنْصَبًّا إليك بنوازِع الصِّبا ، لا يُخَلِّى وِرْدَه وإن حُلِّئَ ، ولا يكدِّر صفاءَ وُدِّه وإن دُوفِع . والمُنْقَع : المُثْبَت ، يقال : « أنقِعْ له الشَّرَّ حتَّى يسأم » .

(١) هو عمر بن أبى ربيعة . ديوانه ٢ .
(٢) فى الأصل : « هذا التعريج » ، صوابه فى ل .

وقوله « وشفَّعت مَن يبغِى علىَّ » أى ردَدتِ الباغى علىَّ مُشَفَّعا بما جاء له فى معناى وطلبه ، وبقيتُ أنا لا أقبل نُصْحَ النُّصَّاحِ ، ولا أصدِّق قولَ الوُشاة ، ولا أُوَحِّى الشَّفيع عنِّى مُنْجِحًا ، ولا أصرِف الباغىَ عليكَ مظفَّرا .

٣ – فقالت وما هَمَّتْ برَجْعِ جوابِنَا بَلَ أنْتَ أبَيْتَ الدَّهرَ إلا تَضَرُّعا

٤ – فقلتُ لَهَا ما كُنْتُ أوّلَ ذِى هَوًى تَحَمَّلَ حِمْلاً فَادِحًا فتوَجَّعا

يقول : أجابتنى بعد أن كانت فى صورةِ مَن لا يَعبأ بما يُبدأ به فلا يُجيب ، ولا يرِقُّ لمن يَشكو إليه فيستجيب : بل أنتَ تأبَى إلاَّ ضَرَاعَةً وتوَجُّعاً ، وانخزالا وتألماً . هذا عادتك والمألوفُ من طرائقك ، فإلى متى هذه الشَّكوى ، وأَنَّى يكون منِّى فى مقابلة عَتْبِكَ المُعْتِبِ؟ فقلتُ فى جوابها : ما أنا بِبِدْعٍ فى الهوَى ، ولست بأوّل مَن حُمِّلَ ما لا يطيقه ، أو ثَقُل عليه ما كُلِّفَهُ فتشكَّى . والفادح : المُثْقِل . يقال : دَيْنٌ فَادِحٌ ، وقد فَدَحَهُ الدَّين . والتَّضرُّع : التَّصاغُر والتذلُّل . يقال : رجلٌ ضَرَعٌ وضارِعٌ وقومٌ ضَرَع . ويقال : خَدُّه ضارِعُ ، وجَنْبُه ضَارِعٌ .

٥٤٣

وقال آخر(١) :

١ – أبَى القَلْبُ إلَّا أُمَّ عَمْرٍو وحُبُّهَا عَجُوزاً ومن يُحْبِبْ عَجُوزًا يُفَنَّدِ

٢ – كَسَحْقِ اليمانِى قد تقادَمَ عَهْدُه ورُقْعَتُه ما شِئْتَ فى العينِ واليَدِ(٢)

(١) التبريزى : « وهو أبو الأسود الدؤلى » . وهو أبو الأسود ظالم بن عمرو ، الذى ينسب إليه وضع النحو ، شهد مع على بن أبى طالب صفين ، وولى البصرة لابن عباس ، ومات بها وقد أسنّ ، سنة ٩٩ فى الطاعون الجارف . وهو يعد فى الشعراء ، والتابعين ، والمحدثين ، والبخلاء ، والمفاليج ، والنحويين . انظر مصادر ترجمته مسهبة فى الجزء الأول من إنباه الرواة بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ص ١٣ .

(٢) التبريزى : « كثوب اليمانى » : وأشار إلى الرواية الأخرى .

انتصَب « تَجُوزًا » على الحال . والتَّفنيد : التَّوبيخ . والسَّحْقُ : الخلق من الثِّياب الذى قد انسحق وانجرد ، وأضافَه إلى اليمانى إضافةَ البعضِ إلى الكلّ . هذا إذا جَعلْتَ اليمانى البُرْدَ . وذلك أن تجعلَه التَّاجرَ صاحب البُرْد ، فيكون الإضافةُ إليه . والمعنى : أبَى قلبى إلاَّ هذه المرأةَ وحُبَّه لها فى حال تعجيزها ، ومَن صَرَفَ وُدَّه إلى العجائز وُبخ ، لكنَّها فى النِّساء كخَلَق البُرد اليمانى فى الثياب ، وقد قَدُمَ عهده ، أى معهودُه[1] ، وإذا مَسِسْتَه أو نظرتَ إليه وجدتَ رقعته زائدةً على كلِّ رقعة دِقَّةً ومتانَةً ، ومنظرَه راجحاً على كلّ منظرٍ حُسْناً وجَوْدَةً ، وكذلك منظرُ أمّ عَمْرٍو ومُخْتَبَرُها . وقوله «وحُبَّها» أضاف المصدر إلى المفعول . وقوله « ما شئت » يريد ما شئته ، فحذَف للمفعول من الصِّلة تخفيفاً . وقوله « فى العين » يريدُ فى النَّظر . و « فى اليد » يريد عند اللَّمْس .

٥٤٤
وقال آخر[2] :

١ — هَجَرْتُكِ أيَّامًا بذى الغَمْرِ إنَّنِى ... على هَجْرِ أيامٍ بذى الغَمْرِ نادِمُ[3]

٢ — وإنِّى وذَاكِ الهَجْرَ لو تَعْلَمينَه ... كعازِبَةٍ عَنْ طِفْلِهَا وهى رَائِمُ

الكلام اعتذارٌ من إخلاله بزيارتها ، وهِجرانه لها لعارِض عَرَضَ بذى الغَمْر ، ثم أظهرَ تندُّمَه على ذلك ، وأنَّه مُدَّةَ هَجْرِهِ فى وَجْدِهِ بها وشفقتِه عليها وتشوُّقه لها ، كأمٍّ حِيل بينها وبين طِفْلِها ، وهى بعيدةٌ عنه بنفسها ، ورِئْمانها — أى عَطْفُها — متوفِّرٌ عليه . قال : وكذلك كنتُ فى انقطاعى بالنَّفْسِ ،

(١) ويصح أن يراد بالمهد الزمان .

(٢) هو عبدالله بن الدمينة ، المترجم فى ١٢٢٣ . وانظر ديوانه ص ١٩ .

(٣) فى الديوان : « أيامى » .

وتَوَفُّرِى بالقلب . شَبَّهَ نَفْسَهُ بالعازِبة ، وللهجورةَ بالطِّفل .

فإنْ قيل : إنّما قال : وإنِّى وذاكِ الهجرَ ، فيقتضى كلامُه أن يكون التَّشبيه متناوِلاً لَهُ ولهجره ؟ قلتَ : يجوز أن يريد إنِّى معَ ذاكِ الهجر ، وهذا كما يقال : إن الرِّجال وأعضادَها ، أى مقرونان ؛ وإنَّ النِّساء وأعجازها ، أى مقرونان ، لأنَّ المراد مع أعضادها ومع أعجازها .

ويجوز أن يكون أراد بالهجر المهجور ، لأن المصدر يوصَفُ به ؛ ويجوز أن يكون ذكر الهَجْرَ لَمَّا كان من سَبَبها ، والمراد تلك . وقوله « لو تعلمينه » الضمير منه يعود إلى الهَجْر ، والمراد ما ذكرتُه . والعازبة : البعيدة . ويقال : عزب عنه عَقْلُه . والعازِبُ أيضاً ، الكلأُ البعيدُ المطلب .

٥٤٥

وقال آخر :

١ ــ ما أَحْدَثَ النَّأْىُ المُفرِّقُ بيننا سُلُوًّا ولا طَولُ اجتماعٍ تقَالِيا

٢ ــ خَلِيلَىَّ إلاَّ تَبْكِيَا لِىَ أَسْتَعِنْ خَلِيلاً إذا أَنفيْتُ دَمْعِى بَكَى لِيا

٣ ــ كأنْ لم يَكُنْ بَيْنٌ إذا كان بَعْدَهُ تلاقٍ ولكنْ لا إخالُ تلاقيا

قوله « ما أَحْدَثَ النَّأْىُ » يصف أن الوجد الذى به قد صار غَرَامًا ، فلا البُعد منها يُحْدِثُ سُلُوًّا عنها ، ولا الاجتماعُ معها يُوجِبُ مَلاَلاً منها ، لكنه فى الحالتين جميعاً على حَدٍّ واحد من تَبارِيحِ الهوَى . ثم أقبل على صاحبين له يُخَالُّهُمَا فطالب منهما إسعادَه فى البكاء ، وأنهما متى لم يُسْعِفَا لَهُ بمطلوبه استعان بغيرهما ، حتّى إذا نَزَفَ دمعه بَكَى له نائبا عنه .

وقوله « كأن لم يكن بَيْنٌ » شَبَّهَ البَيْنَ إذا تعقَّبه المواصلةُ أو الاجتماع

بما لم يكن ، لـكنّه زعَمَ أنّه يائِسٌ لا يَظُنُّ تَسَهُّلَ التَّلاقى بينه وبين محبوبِهِ واقعاً . وقوله « ولا طول اجتماع » ارتفع بفعلٍ مُضْمَر ، كأنه قال : أحدثَ طولُ اجتماعٍ .

وقوله « خليلىَّ إلاّ تبكيا لِىَ » تألُّم وتَشَكٍّ من زمانه ، حين لم يكن له مَن يساعده فى شدَّةٍ أو رخاء ، ويتحمل عنه ثِقْلاً فى مَسَرَّةٍ أو مَضَرَّة .

وقوله « كأن لم يَكُنْ » كان هذه هى التَّامّة ، والمراد : كأن لم يَقَعْ بَيْنٌ . وكأَنْ مخفَّفة من الثَّقيلة ، وَقَع على محذوفٍ ، كأنّه قال : كأنّ الأمرَ والشّأن لم يكن بَيْنٌ إذا حصل بعده التقاء . وقوله « لا إخالُ تلاقيا » المفعول الثانى محذوف كأنه قال : لا أحسب تلاقيا بعده . وساغَ ذلك لتقدُّم ذكره ، فهو فى حُكم الملفوظ به .

٥٤٦

وقال جَمِيلٌ(١)

وقد حارَبَ الفخِذ الَّذِين منهم بُثَينة :

١ — تَفَرَّقَ أهلانَا بُثَيْنُ فمِنهمُ ... فريقٌ أقامَ واستقَلَّ فريقُ

٢ — فلو كنتُ خَوَّارًا لقد باحَ مِيسَمِى ... ولـكنَّنى صُلْبُ القَناةِ عَتيقُ

٣ — كأنْ لم نحارِبْ يا بُثَيْنَ لَوَ انّها ... تَـكَشَّفُ غُمَّاها وأنتِ صديقُ

قوله « أهلانا » أراد شعبيهما . وقال الخليل : أهل الرَّجل : أخصُّ الناس به . وأهل البيت : سُكانه . وأهل الإسلام : مَن يدين به . وبُثَيْنَ : نِداء

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠١ ص ٣١٤ . وانظر قصة الخلاف بين جميل وقوم بثينة فى الأغانى (٧ : ٨٨) .

مفردٌ مرخّمٌ . وقوله فمنهم فريق أقام ، تفصيل لما أجمله فى تفرّقَ . وإنما افترقوا حتّى ارتحَلَ قومٌ وأقام قومٌ للخلاف الواقع كان بينهما .

وقوله « فلو كنتُ خوّارًا » تنبيه على كراهته لما حدَث ، وإظهارٌ أنّ ميله مع أهل بُثَينة ، فقال : لو كنتُ ضعيف المُسْكَةِ مُنْحَلّ العُقدة ، لكان ميسَمى وقد بَخَ ، أى زالت حرارته ، وسكنَتْ حَمْيَته ، بما أقاسيه وأشاهدُهُ حالاً بعد حال ، من عوارض الدّهر ونوائب الزمانْ ، ولكنّنى عتيق النّبْع ، صليب القناة . وهذا مثلٌ ضربَه لإبائه ، وبقائه على طريقةٍ واحدة فى العهد والوفاء . ثمّ اعتذر بعد ذلك فقال : « كأن لم نُحارب يا بُثَين » يريدُ أنّ جميعَ ما يجرى عليه يخفُّ ويَهونُ إذا بقيَتْ له على مافارقها عليه ، وتعاقَدا له ، حتّى كأنّه لم يقع تجاذُبٌ[1] بين الحيَّيْن ، ولا تحارُبٌ بين الأهْلَيْن ، إذا انكشفت[2] الغيابَةُ الحاصلة ، وارتفعت العَمَاية الرّاكدة ، وتلك باقيةٌ على المصافاة . ويقال : باخت النّار بَوْخا وبُؤُوخًا ، إذا خَمَدَت . والغُمَّى ، هى الخصْلة المُظلِمة . ولك أن تروى « تكشَّفُ » بالرفع ، يريد تتكشَّفُ ، فحُذفت إحدى التاءين استثقالا لاجتماعهما . وإنّما عَدَل عن الإدغام إلى الحذف ؛ لأنّه كان يحتاج عند الإدغام لسُكون أوّلِ الحرفين ، إلى جلب ألفِ الوصل ، وألفُ الوصل لا تدخل على الفعل المضارع . ولك أن تروى « تَكشَّفَ » على أن يكون التاء للماضى . وجواب لو فى قوله كأن لم نحارب ، والواو من « وأنت » واو الحال . وذكّر « صديق » لأنّ المراد ذات صداقة ، ولو قال صديقة لجاز . قال :

إذِ النّاسُ ناسٌ والزمانُ بغِرَّةٍ ... وإذْ أُمُّ عَمّارٍ صَدِيقٌ مُسَاعِفُ[3]

(١) فى الأصل : « تحارب » ، صوابه فى ل .

(٢) ل : « تكشفت » .

(٣) يفهم من صنيع اللسان (سعف) أن البيت لأوس بن حجر ، وليس فى ديوانه فى القصيدة التى على هذا الروى ، وانظر نوادر المخطوطات ١ : ١٥٩ .

٥٤٧

وقال آخر :

١ – شَيَّبَ أيّامُ الفِراقِ مَفارِقِي وأَنْشَزْنَ نفسى فوقَ حيثُ تَكُونُ

يقول : أثَّرَتْ أيامُ الفِراق فىّ فأبدَلَتني بالشّباب مَشيباً ، وبالجِدَّةِ والقوَّةِ خُلُوقَةً ووَهْناً شديداً ، وأزعجَتْ نفسِي من مَقرّها فارتفعت من مركزها إلى ما فوقها ، فالشَّيب وإن جاءَ قبلَ حِينه يُؤذِنني باقتراب المَهَل ، ونُشوزُ النَّفس يَبْشُرنى(١) بدنُوّ الأجَل . هذا إلى ما أعانيه من حوادث الفِراق ، ولَوَاذع الاشتياق . وقوله « فوقَ حيثُ تَكون » جعل حيث اسماً وأضاف فوق إليه . وحيثُ في الأمكنة(٢) بمنزلة حين في الأزمنة . ولذلك احتاجَ إلى جملتين . « وتكون » : مستقبَلُ كان التامَّة ، ومعناه يَقَعُ ويَحْصُلُ . ويقال للرَّجُل إذا تزحّف عن مجلسه فارتفع فُوَيقَ(٣) ذلك : نَشَزَ نُشُوزًا ، وأنشزته إنشازا . وقوله « أيّامُ الفراقِ مَفارِقِي » يسمّى التَّجنيس الناقِص . وفَرْقُ الرأس ومَفرِقُه واحد .

٢ – وقد لانَ أيّامُ اللِّوَى ثُمَّ لم يَكَدْ مِنَ العَيْشِ شيءٌ بَعْدَهُنَّ يَلِينُ

٣ – يَقُولُونَ ما أبلاكَ والمالُ غامِرٌ عليك وضَاحِى الجِلد منك كَنِينُ(٤)

٤ – فقلتُ لهم لا تَعْذُلُونِيَ وانظُرُوا إلى النَّازِعِ المَقْصُورِ كيفَ يكونُ

حَمِدَ أيامَهُ باللِّوَى إذْ كان فيه اجتماعٌ مع الأحبة ، ومُساعَفَةٌ من المقدار والأقضية . ثم تعقَّبَ بزُعْمِهِ ما صَعُبَ منها وخَشُنَ ، لما حَدَثَ من البِعاد فيه

(١) يبشرنى ، من البشر ، بمعنى التبشير ، وهذا على التهكم ، كما فى قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » . وفى الأصل : « ينشرنى » ، وصوابه فى ل بهذا الضبط .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « الأماكن » .

(٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « فوق » .

(٤) التبريزى : « غامر لديك » .

فاستنكَرَ، فلم يَستوفِقْ بعدها شيئاً من الأوقات، ولا ارتَضَى حالاً من الأحوال» لتعسُّرِ العَيش، ونَكَد الفِراق.

وقوله: «يقولون ما أبلاك والمال غامِرٌ» يريد أنَّ النَّاسَ مُتعجِّبون من شأنى وأمرى، مستنكِرون ما يشاهدون من حُؤُولى وضُمْرى، فيرجعون بالسُّؤال علىَّ ويقولون: ما الذى بَلَّاكَ، وهزَلَكَ وأنضاك، وفى مالِكَ وُفُورٌ، والضَّاحِى من جلدِك بالكُسوة مَنْستُورٌ، فلا تبَذَّلَ للحَرُور اعتراك، ولا إضاقة فى المعاش تغَشَّاك. قال: فأجبتهم بأن اصرِفوا عنّى العَتْبَ والمَلَام، واعتَبِرُوا حالى بالنَّظَر إلى البعير الحانِّ إلى وَطَنٍ، مع أنَّه أغلظُ ما خَلَقَهُ الله كَبِدًا، وأثبتُ على الشدائد نَفَسا وجَلَدا، كيف يضجّ، ولو خُلِّىَ كيف يهيم على وجهه وَيندّ. واعلموا أنَّ ما يبلغ به تلك الحالةَ من النِّزاع على ما به من العُجمة والغباوة، حقيقٌ بأن يُكْمِدَ مثلى ما تُوُحِّدْتُ به من التَّمييز والتَّحصيل(1)، والفرق بين أحْنَاء الأمور وأنحائها.

وقد أخذ أبو تمَّامٍ هذا المعنى فنقَلَه إلى الدَّار وقد خَلَتْ من السُّكّان فقال:

إن شئتَ ألَّا ترَى صَبْرًا لمُصْطَبِرٍ فانظرْ عَلَى أىِّ حالٍ أصْبَحَ الطَّلَلُ(2)

٥٤٨

وقال أبو دَهْبَلٍ الْجُمَحِىُّ(3):

١ — أقولُ والرَّكْبُ قَدْ مالَتْ عَمَائِمُهُمْ وقَدْ سَقَى القَومَ كأسَ النَّعْسَةِ السَّهَرُ

(1) يقال: توحده الله بعصمته، أى عصمه ولم يكله إلى غيره. اللسان (وحد ٤٦٦).

(2) ديوان أبى تمام ٢٢٦.

(3) سبقت ترجمته فى الحماسية ٥٢١ ص ١٣١٩. التبريزى: «وقال أبو محمد الأعرابى: ليس قوله ياليت أنى بأثوابى لأبى دهبل، إنما وقع فى ديوانه مع ثلاثة أبيات أخر، والصحيح أنها لمحمد بن بشير الخارجى؛ وهذا البيت لايكاد يعرف معناه البتة إلا بالأبيات التى تتقدمه، وهى:

٢ – يا لَيْتَ أَنِّى بِأَثوابى ورَاحِلَتِى   عَبْدٌ لأَهْلِكِ هذا الشَّهرَ مُؤْتَجَرُ

أول البيت الثانى ، وهو « يا ليتَ أَنِّى بأثوابى » فى موضع المفعول لأقول. والواو من قوله « والرَّكْبُ » واو الابتداء ، وهو للحال . وقوله « وقد مَالَتْ عمائمهم » يريدُ لغَلَبَةِ النوم عليهم ، ومجاهدة السَّيْر والسرَى فيهم ، ومزاوَلتهم السَّهرَ ، حتَّى كأنَّهم سَقَاهُم كؤوس النُّعاس فسَكِروا ، والمعنى أنِّى أقول ، على معاناةِ هذه الأحوال : بِوَدِّى أنى مُسْتَعْبَدٌ لأهلِكِ طُول الشَّهرِ الذى نحن فيه ، مؤتَجَرٌ بِكُسوتى وزادى وراحلتى ،لا أُكلِّفهم مؤونة ، ولا أُحمِّلهم مَرزِئة ، كلُّ ذلك رغبةً فى التَّقرُّب إليكِ ، والاستسعاد بخدمةِ أهلك ، والفَوز بالتَّعريج على مَحَلِّكِ ومرتَحَلك . وقوله « ياليت » ، المنادَى محذوف ، كأنَّه قال : يا قوم يا ليت أَنِّى .

٣ – إن كان ذا قدراً يُعطيكِ نافلَةً   مِنَّا ويَحْرِمُنا ، ما أنصَفَ القَدَرُ

٤ – جِنِّيَّةٌ أَوْ لَهَا جِنٌّ يُعلِّمُهَا   رَمْىَ القُلوبِ بِسَهْمٍ ما لَهُ وَتَرُ[(١)]

جواب الشَّرط فى قوله « ما أنصف القَدَر » على إرادة الفاء . وقوله « يعطيكِ نافلةً » فى موضع الصِّفة لقَدَرًا . وأشار بـ « ذا » إلى ما بينه وبين محبوبه . والمعنى : إنْ كان ما يُرَى بيننا ويُشاهَدُ قَدَرًا قدَّره الله تعالى ، يُعطيكِ منا ما تَستغنِمينَه وتستفضلينه ، ثمَّ يمنعُنا مثلَ ذلك منكِ فلا يُوجِبُه لنا ، فما أعطانا النَّصَفَةَ فى القضيَّة ، ولا سار بالسِّيرة المحمودة[(٢)] فى الحكومة .

= يا أحسن الناس إلا أن نائلها   قدما لمن يرتجى معروفها عسر
وإنما دلها سحر تصيد به   وإنما قلبهـا للمشتكى حجر
هل تذكرين ولما أنس عهدكم   وقد يدوم لعهد الخلة الذكر
قولى وركبك قد مالت عمائمهم   وقد سقاهم بكأس النومة السفر

(١) التبريزى : « بقوس مالها وتر » ، وهذه الرواية أجود .
(٢) ل : « بالسير المحمودة » .

وقوله « جنّيّةٌ » يريدُ أنَّ فِعلَها مُباينٌ لفعلِ الإنسِ ، وكذلك شكلُها وحُسنها ، فإمّا أنْ تكون من الجنِّ ، أو لها من الجنِّ من يُعلِّمها افتتانَ العقول ، واختبالَ الأفئدةِ في الصُّدور . وقوله « بسهمٍ ماله وتَرُ » ، يريد سهماً لا يُنزِّبه الوتَرُ على القِسِيّ ، بل تهيّئه مُقَلُ العُيون ، ونواظر الفتون ، لإصابة حبّات القُلوب ، وانتظام غِرّات النفوس .

٥٤٩

وقال تَوْبَةُ بن المُضَرِّس (١)

١ — يقول أُناسٌ لا يَضِيرُكَ نَأْيُها بَلَى كُلُّ ما شَفَّ النُّفُوسَ يَضِيرُها
٢ — أليسَ يَضِيرُ العينَ أن تَرِدَ البُكا ويُمْنَعَ منها نَوْمُهَا وسُرُورُها (٢)

يقال : ضارَهُ يَضِيرُهُ ، في معنى ضرّه يضُرّه . وشَفَّ النفوسَ ، أي آذاها وأذابَها . والمعنى : أنَّ النّاسَ يطيّبون قلبي ويرُومون بمحاجّتهم لي تسليتي ، ويقولون إنَّ بُعدَها لا يُورِثك خَبالا ، ولا يَكسِبك ضرراً ووبالا ، بل يُعقِبك سلوةً ، ويُبدِّلك من التأنُّس بالاجتماع معها نَفرَةً ، فأثبتُّ ما نَفَوْه ، وأبطلتُ ما ألْفوه (٣) ، وقلت : بَلَى كلُّ ما يُذيب النَّفسَ ويَهزِلُها ، ويسلبُها القرارَ ويُقلقُها ، فهو عائدٌ بأكمل الضّررِ عليها ، ثمَّ رَددتُهم إلى الشّاهد مستدلاً بها ،

(١) عند التبريزى : « توبة بن الحمير » ، وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٥١٣ ص ١٣١١ . وأما توبة بن المضرس فهو توبة بن المضرس بن عبد الله بن عباد بن محرث بن سعد بن حزام بن سعد بن مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، شاعر محسن ، قتل أخواه فجزع عليهما جزعاً شديداً ، وكان لايزال يبكيهما ، فطلب إليه الأحنف بن قيس أن يكف ، فأبى ؛ فسماه « الخنّوت » ، وهو الذى يمنعه الغيظ أو البكاء من الكلام . المؤتلف ٦٨ — ٦٩ .

(٢) « ترد » هى رواية الأصل . وفى ل والتبريزى : « أن تكثر » ، وأشير فى هامشة ل إلى أنها فى نسخة « ترد » .

(٣) هذا ما فى ل ؛ وفى الأصل : « ألفوه » ، وقد أشير إلى هذه الرواية الأخيرة فى هامشة ل .

فقلتُ : أليس العين إذا أُدِيم البكاء بها ، ومُنِـعَ النَّومُ وما يُلتَذُّ به من مَسارح اللَّهو والسُّرور منها، يضرُّها ذلك ؟ كذلك النَّفسُ إذا جُمِـع عليها ما لا تهواه ، وفُرِّق بينها وبين ما تلتذُّه وترضاه .

٥٥٠

وقال ابن أبى دُباكِلٍ الخزَاعِيُّ[(١)] :

١ ـ يطولُ اليومُ لا أَلْقَاكِ فيهِ وحَوْلٌ نَلتَقِي فيه قَصِيرُ[(٢)]

٢ ـ وقالوا لا يَضِيرُكَ نَأْيُ شَهْرٍ فقلتُ لصاحِبِي فمَتى يَضِيرُ[(٣)]

يقول : إنّ السَّنَة الـكاملةَ إذا اتَّصل الالتقاء بيننا فيها ، أستقصِرُها وأَحْرِصُ على الاستزادةِ منها ، التذاذاً بها وبُعْدًا من المَلاَل لها ، وإنّ اليوم الواحِد إذا حيل بينى وبينك فيه أستطيلُه تقالياً له ، وتفادياً منه ، وكراهيةً لامتداده والنَّاسُ يقولون لى : إنّ الشَّهْرَ لا يَجْلُبُ عليك ضَرَرًا ، فقلت لصاحبى : فمتى يضير إذاً ؟ استبعاداً للأجل المضروب . ويروى : « لصاحبىَّ فمن يضير » . والمعنى : إذا لم يَضُرَّنى القَطْعُ عمَّا لم أرتوِ منه فمَن المضرور إذاً .

---

(١) التبريزى : « دباكل علم مرتجل ، وليس منقولا من جنس » . وفى القاموس : « وابن أبى دباكل ، بالضم : شاعر خزاعى » . واسمه سليمان بن أبى دباكل ، كما فى الأغانى (٧ : ١٨/٢٩ : ١٩٥) شاعر أموى ، كان معاصراً للأحوص ، وقد صنع قصيدته التى يقول فى أولها :

يا بيت خنساء الذى أتجنب ذهب الشباب وحبها لا يذهب

فقال الأحوص فى عروضها :

يا بيت عاتـكة الذى أتعزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل

(٢) ل : « وشهر نلتقى » . التبريزى : « ويوم نلتقى » . وقد روى التبريزى هذا البيت بعد تاليه هنا .

(٣) ل والتبريزى : « فمن يضير » ، وهما روايتان نص عليها فى الشرح .

٥٥١

وقال عُبَيْد الله بن عَبد الله بن عُتْبَةَ(١) :

١ — شَقَقْتِ القَلْبَ ثم ذَرَرْتِ فيه هَـــوَاكِ فَلِيمَ فالْتَامَ الفُطُورُ(٢)

٢— تَغَلْغَلَ حيثُ لم يَبْلُغْ شَرَابٌ وَلا حُزْنٌ ولم يَبْلُغْ سُرُورُ

يصف استحكامَ أمْرِ الهوى وشدَّةَ تسلُّطِه على قلبه وتمكُّنِه من عقله ، فيقول : شَقَقْتِ قلبي ، وجعلتِ هَوَاكِ ذَرُوراً فيه ، فرسَخ فى جوانبه بعد أن دَبَّ فى مسامِّه وموالِجِه ، ثم جَمعتِ فُتُوقَه حتى الْتَأَمَتْ شقوقُه ، فتوصَّلَ الهوى منه إلى حيث أعجزَ كلَّ سرورٍ وحزن . والمعنى أنَّ الهوى مَلَكَ مجامعَ قلبي فأحْمَى منــه ما كان مُحَرَّماً على غيره . وقوله « لِيمَ » أصله الهمز فأُبْدِلَ من همزته ياء وانكَسرَ اللام لها . والتَّغلْغُل : التَّوصُّل على مقاساةِ تَعَبٍ وشِدَّةٍ . ولا يُقال لمن توَصَّلَ والمذهب سَهلٌ : تَغَلْغَلَ . ويُقالُ : ذَرَّ الشَّيءَ ، إذا فَرَّقَهُ ؛ وذَرَّ الحبَّ فى الأرض . وقوله « التام الفطور » ، أراد الفطور منه ، فحذَف تخفيفاً ، لأنَّ المرادَ معلوم . والفَطْر : الشَّقُّ ، ومنه تفطَّرَ الورق .

---

(١) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى التابعى ، وعم أبيه هو عبد الله ابن مسعود . كان عالما ثقة فقيها ، كبير الحديث والعلم ، شاعراً . قال ابن عبد البر : كان أحد الفقهاء العشرة ثم السبعة الذين يدور عليهم الفتوى ، وكان عالما فاضلا مقدماً فى الفقه ، تقياً شاعراً محسناً ، لم يكن بعد الصحابة إلى يومنا فيما علمت فقيه أشعر منه ، ولا شاعر أفقه منه ؛ وكان له زوجة يقال لها « عثمة » فعتب عليها فى بعض الأمر فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة ، منها هذا الشعر ؛ وأوله عند ثعلب فى مجالسه ٢٨٤ :

تغلغــل حب عثمة فى فؤادى فباديه مع الخــافى يسير

وانظر الأغانى (٨ : ٩٣) ومجموعة المعانى ١٦٢ . وتوفى عبيد الله سنة ٩٨ . تهذيب التهذيب .

(٢) أنشد التبريزى بين هذا البيت وتاليه البيت الذى ذكر فى الحاشية السابقة ، فهى عنده ثلاثة أبيات .

٥٥٢

وقال ابن مَيَّادَةَ[1] :

١ – وما أَنْسَ مِلْ أشياءِ لا أَنْسَ قولَهَا ... وَأَدْمُعُهَا يُذْرِينَ حَشْوَ المكاحِلِ

٢ – تَمَتَّعْ بِذَا اليَوْمِ القَصِيرِ فإنَّهُ ... رَهِينٌ بأَيَّامِ الشُّهُورِ الأَطاوِلِ

انجزم « أنسَ » بما ، وما موضعه نصب على المفعول من أَنْسَ . والمعنى : إن أنسَ شيئاً من الأشياء لا أنسَ قولها . فلا أَنْسَ انجزَمَ على أنَّه جَوابُ الشَّرط وقوله « مِلْ أَشْيَاءِ » أصله من الأشياء ، وجعل الحذْف بَدَلاً من الإدغام لَمَّا تعذَّر إتيانه فى المتقاربَين ، وقد مرّ مثلُه[2] مستقصى . وقوله « يُذْرِينَ » يريد يُسْقِطن حَشْوَ المكاحِلِ . أراد أنها كَحْلاء ، فكأن الدَّمعَ حين ذَرَفَ صَحِبه الكحل .

وقوله « تمتَّعْ بذا اليومِ القصير » موضعُه من الإعراب نصبٌ على أنَّه مفعولٌ من قولها ، أى لا أنسَ قولها ، وقد شافهَتْنَا الفِراقَ من يومِ التوديع والتَّشييع وهى تبكى : تمتَّع بيومِكَ القصير[3] لكونه يومَ اجتماع ، فإنَّه مرتَهَنٌ[4] من الشُّهور الطَّويلة ، لكونها أيامَ التَّباين ؛ أى مثل هذا اليومِ لا يُفَكُّ من الارتهان ، ولا يَحصُل إلاَّ بعد تَقضِّى تلك الأيام المستطالة .

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٥٣٤ ص ١٣٣٣ .
(٢) ل : « ذكره » .
(٣) ل : «بذا اليوم القصير» ، وأشير فى هامشها إلى أنها فى نسخة : « بيومك القصير » .
(٤) ل : « رهين » ، وأشير فى هامشها إلى الرواية الأخرى .

٥٥٣

وقال محمد بن بَشِيرٍ[(١)] :

١ ـ بيْضَاءُ آنِسَةُ الحَدِيثِ كأنّها ... قَمَرٌ تَوَسَّطَ جِنْحَ لَيْـلٍ مُبْرِدِ

٢ ـ مَوْسُومَةٌ بالحُسْنِ ذاتُ حَوَاسِدٍ ... إنّ الحِسَانَ مَظِنَّةٌ للحُسَّـدِ

٣ ـ وتَرَى مَدَامِعَها تُرَقْرِقُ مُقْلَةً ... سَوداءَ تَرْغَبُ عن سَوادِ الإثْمِدِ

وصفَ المرأةَ بإشراق اللّون . ومعنى « آنِسة » ذاتُ أُنْسٍ ، لأنَّ الحديثَ يُؤْنِسُ ولا يَأنَسُ ، كقولهم : همٌّ نَاصِبٌ ، والمراد مُنْصِبٌ . ثمّ شبّهها بقمرٍ توسَّط السَّماءَ فيما جَنَح مِن ليلٍ كان فيه غَيْمٌ وبرد . والقَمَرُ إذا خَرَجَ من حَلَك الغمام في ليلةٍ مَطيرة كانَ أضوأَ وأحسَن . ويجوز أن يكون قوله « لَيْل مُبْرِد » يُرَادُ به ليلٌ ذو بَرْدٍ أو بَرَدٍ ، ويكون من باب أَشْمَلْنا ، أى دخَلْنا في الشَّمال ، وأشْتَيْنا ، أى دخلْنا في الشِّتاء . ويُقال : بُرِدَت الأرضُ ، إذا مُطِرت البَرَدَ ، فهي مبْرودةٌ . وأبْرَدْنا ، أي دخَلْنا في البَرَدِ أو البَرْد ، وكذلك قوله شُمِلْنَا : أصابتنا ريح الشَّمال ، وأشمَلْنا : دخَلْنا في الشَّمال . وقال الخليل : يقال أبْرَدَ القومُ ، إذا صارُوا في وقت القُرِّ في آخر النهار . والأَبْرَدان : طَرَفَا النَّهار . وقال الشَّاعر[(٢)] :

إذا الأَرْطَى تَوَسَّدَ أَبْرَدَيْهِ ... خُدُودُ جَوَازِئٍ بالرَّمْلِ عِينِ

يصف بقرةً وحشيَّةً بأنَّها تتوسَّدُ غصُون الأَرْطَى التي تَلِي الغَرْبَ بالغَداة ،

---

(١) سبقت ترجمته في الحماسية ٢٦٩ ص ٨٠٨ . وعند التبريزى : « وقال آخر » . وقد نسب الشعر إلى محمد بن بشير أيضاً في الأغانى (١٤ : ١٤٧ – ١٤٨) ، ونسبه في الأغانى (٢ : ١١) إلى مجنون ليلى .

(٢) هو الشماخ بن ضرار . ديوانه ٩٤ واللسان (جزأ) .

فإذا دارت الشمس دارت معها إلى ناحية الشَّرق ، فتوسَّدت الغُصونَ التي مالت الشَّمسُ عنها .

وقوله « موسومةٌ بالحسن » يريد أنه جُعِلَ سيماها الحسنَ ، فهي ممسوحةٌ به موسومةٌ . وأصل السِّمَة العلامة ، ومنه السِّيما . ومعنى « ذات حواسِدِ » أى مَن يراها مِن النَّاس يحسُدها ، لأنّ الحِسَان مَعْلَمٌ للحُسَّدِ . وهكذا كما يُقال : إنَّ الحسَد يتبع النِّعَم .

وقوله « وترى مدامعَها ترقرِقُ مُقْلَةً » فالمدامع مَسَايل الدَّمع من القبائل فى الرَّأس . ومعنى « ترقرِقُ مقلةً » أى ترقرِقُ الدَّمعَ فى مقلةٍ . والرَّقراق : الدَّمع الذى يترقرق فى العَين ولا يسيل . قال :

* أو الدُّرِّ رَقْرَاقُهُ المُنحَدِرْ (١) *

والمعنى أنّها كحْلاء ، وأنّ الدَّمع يتجمَّع فى مُقْلَةٍ لها مُستغنِيةٍ عن سَواد الكحل ، لكَحَلِها .

٥٥٤

وقال آخر (٢) :

١ ـ صَفْرَاء من بَقَرِ الجِوَاءِ كأنَّما تَرَكَ الحَيَاءُ بها رُدَاعَ سَقِيمِ

٢ ـ مِنْ مُحْذِيَاتِ أخِي الهَوَى جُرَعَ الأسَى بدَلاَلِ غانيةٍ ومُقْلَةِ رِيمِ

٣ ـ وقَصِيرةِ الأيَّامِ وَدَّ جَليسُها لَوْ دَامَ مَجْلِسُها بفَقْدِ حَميمِ

وصَفها بأنّها دُرِّيَّة اللون ، وأنَّ فيها مَشَابهَ من بَقَر الجِواء ، وأنّها حَيِيَّةٌ

(١) لامرىء القيس فى ديوانه ٧ . وصدره :

* فأسبل دمعى كفض الجمان *

(٢) هو مجنون ليلى قيس بن معاذ . اللسان (ردع) .

قليلةَ الحركاتِ لنَعمتها، قليلةُ الكلام لفَرط حيائها، فكأنّ بها نُكسَ سَقمٍ لما أَلِفَتْهُ من الكسَل. وقال الخليل: الرَّدْع والرُّدَاع: النُّكس؛ ورجُلٌ مَردوع. وقيل: الرُّداع: الوجع فى الجسَد. فأما قول الأعشَى:

بيضاءُ ضَحْوَتَها وصَفرا ءُ العَشِيَّةَ كالعَرَارَهْ

فجعل لها لونَين: بياضاً فى أوّل النهار، وصُفرةً فى آخره حتى لونها لَوْنُ العَرَار. وإنّما يُريدُ أنها تَقِيلُ فيمتدُّ النَّومُ بها إلى آخرِ النّهار، والقائم من نَومِه أبداً يكون متغيِّر اللون. ومثل قوله «تركَ الحياءُ بها رُدَاعَ سقيم» قولُ الآخر[1]:

كأنَّ لهَا فى الأَرْضِ نِسْياً تَقُصُّهُ على أَمِّهَا وإن تُكَلِّمْك تَبْلَتِ

وقوله «مِن مُخذياتِ أخِى الهوى» يريدُ أنها من النساء اللاتى تَسقِى الشُّبّانَ وأربابَ الهوى جُرَعَ الأسى، يريد أنها تَفتِنهم بمحاسنِها، ثم لا تُنيلهم شيئا، وهى الحُذْيَا والحِذْوَةُ. والأسى: الحُزْن.

وقوله «بدَلالِ غانيةٍ» تعلق الباء منه بمُخذياتٍ. والغانية: التى تَستغنِى بجَمالها عن الحُلِىّ. والريمُ: الظبْىُ الخالص البَياض. والمعنى أنها تفتنه بعينِها وكلامِها وغُنْجِها.

وقوله «وقَصيرةِ الأيام» يريد أنها لا تُمَلّ، فالأيام فى مُلازَمتها قصيرة، حتى أنَّ مُجالِسَها يودُّ أن يدوم مجلسها له وإنْ فقدَ أقاربه. والقَصدُ إلى أنها طيِّبة الحديث، مُؤنِسة المجلس، مُصَرِّفة المَلازم فى أصنافِ المَلاذّ حتى يَنسَى كلَّ شىء غيرَها، ويَبْشَمَ جميعَ المَناظر سِواها.

وقوله «بفَقْدِ حميم» الباء فيه يُفيد معنى العِوَض، فهو كما يقال: هذا لك بكذا، أى عِوَضاً منه.

(١) هو الشنفرى الأزدى. المفضليات ١٠٩.

٥٥٥

وقال آخر :

١ــ ونارٍ كسَحْرِ العَوْدِ يَرْفَعُ ضَوْءَها مَعَ اللَّيلِ هَبَّاتُ الرِّياحِ الصَّوَارِدُ(١)

٢ــ أصُدُّ بأيدِى العَيسِ عن قَصْدِ أهلِها وَقَلبى إليها بالمَوَدَّةِ قاصِدُ

شبَّه النارَ فى حُمْرتها وتَصاعُدها بسَحْر العَود . والسَّحْر : الرِّئَةُ وما تعلَّق بالحُلْقوم . ويقال لمن نَزَتْ به البِطْنة : انتفخَ سَحْرُه ؛ كما يقال : عدا طَوْرَه . وأكثرُ ما يقال ذلك لمن جَبُن عن شىء . والعَوْد : الجمَل المُسِنّ ؛ وقد عوَّدَ ، أى نَيَّبَ ، والجميع العِوَدَةُ ، وفى لغةٍ : العِيَدَةُ . ويستعمل العَوْد فى السُّؤدَدُ القديم ، والطريق العادىّ .

وقوله « يرفع ضوءها » يريد أنَّ هَبَّاتِ الرياح الباردة تُهيِّجها ، فكأنَّها ترفَع من ضوئها فى ظَلام الليل ومعَه . والصَّوارد : البوارد ، وهى من صفة الهبّات .

وقوله « أصُدُّ بأيدى العِيس » جواب رُبَّ .

ويشبه البيتَ الثانىَ قولُ الآخَر(٢) :

يا بيتَ عاتكةَ الذى أتعزَّلُ حَذَرَ العِدَى وبهِ الفؤادُ مُوَكَّلُ

ومثل البيت الأوّل قولُه :

تَنوَّرْتُها مِن أذرِعاتٍ وأهلُها بيَثْرِبَ أدنَى دارِها نَظَرٌ عالِ(٣)

---

(١) التبريزى : « ترفع ضوءها » . وانظر الحيوان (٥ : ٦٣) وكتاب الزهرة للأصفهانى ٢٣٥ .

(٢) هو الأحوص بن محمد الأنصارى . الأغانى (١٨ : ١٧٥ ، ١٩٦) ، وذكر أبو الفرج أنه عارض بقصيدته قصيدة سليمان بن أبى دباكل وسطا عليها ، ومطلع قصيدة سليمان :

يا بيت خنساء الذى أتجنب ذهب الشباب وحبها لا يذهب

(٣) البيت لامرئ القيس فى ديوانه ٥٦ .

وهذا منهم على التشوُّق والتحفِّي. ألاَ إنهم كانوا يتعلَّلون بما كان مِن نحوِ أرضِ الحبيب .

٥٥٦

وقال الحُسَين بن مُطَيرٍ(١) :

١ ــ وكنتُ أذودُ العَيْنَ أن تردَ البُكا   فقد وَرَدَتْ ما كنتُ عنهُ أذُودُها

٢ ــ خَليلَيَّ ما بالعَيْشِ عَتْبٌ لوَ اَنَّنا   وَجَدْنا لِأيَّامِ الحِمَى مَن يُعيدُها

يقول : كنتُ أُصبِّر النفسَ فيما ركبَها وثقُل عليها من الوجْد، وأحبِسُ العينَ مما ترومُه من البُكاء، فقد عِيلَ الصبر، وتسلَّط الحزن، وغَلَب البكاء، فقد وردَت عيني الموردَ الذى كنتُ أُحلِّئها منه، وأدفعها عنه .

وقوله « خليلَيَّ ما بالعيش عَتْبٌ » رواه بعضهم : « ما بالعيش عَيْبٌ » ، وذِكر العَتْب أحسن هاهنا . والمراد أنَّه لا معتَبَةَ على العَيش ، لأنَّ صفاءه بأن تتَّصل له أيَّامٌ كأيَّام الحِمَى، فلو وجَدْنا مَن يعيدُ أمثالها فساعد فيها قُرْب المَزار ، وإمكانُ الوِصال ، لطاب وصَفا كما كان من قبل فلا ذَنْبَ للعَيش ، إنما الذنب لما يكدِّره ويَشحَنُه بالمكاره .

٥٥٧

وقال آخر(٢) :

١ ــ ولي نظرةٌ بَعْدَ الصُّدُودِ مِن الجَوَى   كنَظْرَةِ ثَكْلَى قد أُصيبَ وليدُها

٢ ــ هَلِ اللهُ عافٍ عن ذنوبٍ تَسَلَّفَتْ   أوِ اللهُ إن لم يَعفُ عنها مُعِيدُها(٣)

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣١٩ ص ٩٣٤ .
(٢) كذا فى النسختين . أما التبريزى فقد جعل المقطوعتين مقطوعة واحدة .
(٣) التبريزى : « أم الله إن لم يعف عنها يعيدها » .

يقول : قَذِيَتْ عيني بما حصَلَ من صُدود الحبيب ، فلى نظرةٌ بعدَه لِجَوَى القلبِ والجَوْف ، كنظرةِ أمّ أصيبَتْ بوليدِها فثَكِلَتْه . ثم قال متمنِّيًا : هل يعفو اللهُ عمَّا سلفَ لنا من ذنوبٍ ، أو يعيدُ لنا تسهيلَ أمثالِها والتمكينَ من اقترافِ مُشابِهِها إن ضاقَ عفوُه عنها . وهذا كلامُ من حَرِجَ صدرُه بمستقبَل أمرِه ، وامتلأَ قلبُه من التأسُّف في إثْرِ مُستدبَرِه .

٥٥٨

وقال سَوَّار بن الْمُضَرَّب [١] :

١ — يأيُّها القَلْبُ هل تَنهاكَ موعِظةٌ أو يُحْدِثَنْ لك طُولُ الدَّهرِ نِسْيانا [٢]

٢ — إنى سأَسْتُرُ ما ذو العَقْلِ ساتِرُهُ مِن حاجةٍ وأُمِيتُ السِّرَّ كِتْمانا

عتَب على قَلْبه في عصيانه له ، واطِّراحه مواعظَه ، ووَلُوعِه المستمرِّ على تطاوُل الدَّهر ، وتقادُم الأمر ، وقال : هل ليَّنَ الوعظُ منك أو أحدَثَ مواصلةُ الأيام واستمرارُها نسياناً لك ، فتكفَّ عما يُكرَه منك ، أو تقبَل بعضَ ما تُدْعَى إليه من رُشْدِكَ .

وقوله « أو يُحْدِثَنْ » زاد النونَ الخفيفة في المعطوف من غير أن حصَلَ في المعطوف عليه ، وهو « يَنهاكَ » مثلُه ؛ وساغ ذلك لأنهم أَلِفوا زيادةَ إحدى النونين فيما ليس بواجبٍ من الأفعال ، فكأنه قَدَّرَ أن الأوَّلَ حصل فيه النونُ فزاد في الثانية ، لتوهُّم مثلِه في الأولى ، واستمرار العادةِ بزيادته . وهذا كما عُطِف في بيت امرئ القيس :

---

(١) التبريزى : « المضرب » بالراء المشددة المفتوحة ، وقد مضت ترجمته فى الحماسية ١٨ ص ١٣٠ .

(٢) فى نسخة الأصل : « طول الليل » ، صوابه من ل والتبريزى .

فظَلّ طُهاةُ اللَّحمِ مِن بينِ مُنْضِجٍ صَفِيفَ شِوَاءٍ أو قَدِيرٍ مُعَجَّلِ

قولُه أو قديرٍ معجَّلٍ ، وهو مجرور ، على صفيف شِواء وهو منصوب ، لنِيَّتِه حذفَ التنوين ، وجعَلَ الإضافة بدلاً منه فى مُنْضِج .

وقوله « إنى سأستُرُ ما ذو العقل ساترُه » ، وصَفَ نفسَه بحُسْن التَّماسُك فيما يأتيه ، واستعمالِ العقل فى سَتْر ما يجب إخفاؤه من حاجاته ، وضَبْطِه للسِّرِّ ، وقوّة كِتمانِه ، حتى يصير السِّرُّ كالميِّت الذى لا أثَرَ له . ويُشِير بذلك كلِّه إلى دَوام وفائه ، واتصال عَهْده ، وكَتْمِ ما يَجرى بينه وبين محبوبه . وانتَصَب « كتمانًا » لأنه مفعول له ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، كأنه قال : كاتمًا له .

٣— وحاجةٍ دُونَ أخرَى قد سَنَحْتُ لها جَعَلْتُها لِلَّتى أخفيْتُ عُنْوَانَا[(1)]

٤— إنِّى كأنِّى أرَى مَن لا حَيَاءَ لَهُ ولاَ أَمانَةَ بين النَّاسِ عُرْيانَا[(2)]

يريد : رُبَّ حاجةٍ عَرَضْتُ لها وأظهرتُها وفى النفس خِلافُها ، لأنى جعلتُ المُظهَر فى التوصُّل به إلى المضمَر كعُنوان الكتاب الذى يَظهَرُ وما يَنطوى عليه الكتابُ مستور . يصف نفسَه بالذَّكاء وجَودة الفِطنة ، وحُسن التأتِّى ، والاهتداء فيما يرومُه للحِيَل اللطيفة . وكلُّ ذلك لئلاَّ يَقِفُ موقفًا يوجِّه إليه الظنونَ السَّيِّئة ، ويَجلب عليه القالةَ المُنكَرة .

والعُنوان يجوز أن يكون فُعْوَالاً من عَنَّ لِيَ الشيء ، إذا اعترَضَ ؛ ويجوز أن يكون فُعْلانًا من عَنَاه كذا . وفيه لغاتٌ وكلامٌ طويلٌ أتيتُ عليه فى (شَرْح الفصيح) .

(١) التبريزى : « قد سنحت بها » .
(٢) التبريزى : « وسط القوم عريانا » .

وقوله « إنى كأنى أرى مَن لا حياء له » يريدُ : مَن خَلَعَ رِبقَةَ الحياء ، واطَّرَح حِشمةَ الناس ، وعَرَّضَ الأمانةَ للضَّياع ، والمُروءة للزَّوال ، فحُكمُه حُكمُ مَنْ أظهر عَوْرَته ، وهتك لمعائبه سِتره ، ورَضِىَ بما نِيلَ منه ، وتُحُيِّفَ من عِرْضه ودِينه .

٥٥٩

وقال آخر(١) :

١ — أَهَابُكِ إجلالاً وما بكِ قُدْرَةٌ عَلَىَّ ولٰكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها

٢ — وماهَجَرَتْكِ النَّفسُ أَنَّكِ عِنْدَهَا قَليلٌ ولٰكِنْ قَلَّ مِنْكِ نَصِيبُها

انتَصَبَ « إجلالا » لأنَّه مفعول له ، جعَله علَّة فى تهيُّبه لها . ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، فيقول : أحتَشِمُك بظَهر العيب ، وأخافُكِ ليس لاقتدارِ سلطانىِّ منك علىَّ ، وامتلاكِ لضَرِّى ونفعى فى يديك ، ولكن رَفعاً منك ، وإكباراً لقَدْرك ، ولأنَّ العَين تمتلئُ ممَّن تحبُّه استكباراً . واستعظاما ، لأنَّه يَحمَدها . والضمير من « حبيبُها » للعين » ، وإن جَعَلتَها للمرأة ، أى ما تحبُّه وترضاه يملأ العين ، جاز . والمِلْءُ : القدر الذى يمتلئُ منه الشَّىء ؛ والمَلْءُ ، بفتح الميم : مصدر مَلأتُ .

وقوله « وما هَجَرَتْكِ النَّفسُ » يريد أنَّ الإخلال بالزِّيارة ؛ والتَّأَخُّر عن إقامة العادة ليس لزُهدٍ ولا لاستقلال للحال ، وإزراء بالحق ، ولكنْ قَلَّ حَظِّى منكِ ، ودام إعراضُكِ عنِّى ، فرُمْتُ رِضَاكِ فى البُعد عنك ، وتَرْكَ التَّثاقُل عليك وقوله « مِلْءُ عَيْنٍ » جاز الابتداء به وإن كان نَكِرَةً لحصول الفائدة فى تعليق الخبَر .

(١) هو نصيب : كما فى سمط اللآلئ ٤٠١ .

٥٦٠

وقال ابنُ الدُّمَيْنَة[١] :

١ — ألا لا أرَى وادِى المياهِ يُثِيبُ ولا النَّفْسَ عَنْ وَادِى المياه تَطِيبُ[٢]

٢ — أُحِبُّ هُبُوطَ الوَادِيَيْنِ وإنَّنِي لَمُشْتَهَرٌ بالوادِيَيْنِ غَرِيبُ

قوله « يُثيبُ » أى يجعَلُ لى ثَوابا ، ويَقسِم لى لتوفُّرِى عليه رِدْءا ونَفْعا . ويجوز أن يكون من قولهم : بئرٌ لها ثائب ، إذا كان ماؤُها ينقطع أحياناً ثم يعود ؛ فيكون أثابَ بمعنى صار لها ثائبٌ ، كأنَّ الوادىَ كانَ اتَّفقَ فيه مواصَلَةٌ بينَه وبين محبوبِه ثمَّ انقطَع ، فكانَ لا يَثُوبُ خَيْرُه . وهذا الذى قُلْناه فى أثابَ ذَكَرَه أبو زيد . ويجوز أن يكون ذِكْرُ الوادِى كالكناية عنها ، فيقول : ليست تَسلُو نَفسى عن وادى المياه وما يتَّصل به وعن أحبَّتِى فيهما ، وأراه لا يُوجِبُ لى مثلَ ما أوجِبُه ، ولا يَرْضَخُ لى جَزَاءً على ما أتحمَّله ، وأنا أُحِبُّ النُّزول بالواديَين والانتعاشَ بزيارتهما ، لكنِّى مُشْتَهَرٌ بهما غريبٌ لا ناصِرَ لى فيهما ، فأحتاجُ أن أُحاذِرَ الرُّقباء خَوْفاً على نفسى ، وتفادِياً مِمَّا يلحَقُ صاحبى من المكروه والإعنات بسببى .

٣ — أَحَقًّا عِبادَ اللهِ أنْ لَسْتُ وارِداً ولا صادراً إلاّ علىَّ رَقِيبُ

٤ — ولا زائراً فَرْداً ولا فى جماعَةٍ من الناس إلا قِيلَ أنتَ مُرِيبُ

هذا شَرْحٌ للاشتهار الذى أجْمَلَهُ ، والاغتراب الذى اشتكى منه . وقوله « أحقًّا » فى موضع الظَّرف ، كأنه قال : أفى حَقٍّ . « وأنْ لَسْتُ » أنْ مخفَّفة من الثَّقيلة ، وموضعُه بما بعده موضعُ الابتداء ، وأحقًّا فى موضع الخبر . وقوله

---

(١) عبد الله بن الدمينة ، سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٦ ص ١٢٢٣ .

(٢) ديوان ابن الدمينة ٧ — ١٤ .

« فَرْداً » انتصَب على الحال ، والعامل ما دلَّ عليه « ولا زائِراً » من الفعل ، فيقول : أفى حَقّ يا عبادَ الله أنّى لا أرِدُ الوادِيَين ، يعنى وادىَ المِياه ، وما ذَكَرَه فيما بعد من ذكر الكثيب الفرد ، ولا أصدُرُ عنهما إلا وعلىّ رقيبٌ محافظٌ ، يَعُدُّ لحظاتى وأنفاسى ، ويتأمل قُصُودى وإراداتى ، ولا أزورهما منفرداً ولا فى صحابة إلا وسُلِّطَت علىّ التُّهم ، ونُسِبْتُ فيما أتعاطاه إلىَّ الرِّيَب ، حتى ضاق علىّ المجال ، وأظلمَ لى المَسْرَحُ والمَطَاف .

وقوله « إلاَّ قيل » فى موضع الحال ، أى لا أزورها إلاَّ مَقُولاً فيه ذلك .

وموضع « أنت مريبُ » الجملة رفعٌ على أنه قام مقام فاعل قيل .

٥ — وهل رِيبةٌ فى أن تَحِنَّ نَجِيبةٌ إلَى إلْفِها أو أن يَحِنَّ نَجيبُ

٦ — وإنَّ الكَثِيبَ الفَرْدَ مِن جانبِ الحِمَى إلىّ وإن لم آتِهِ لحبيبُ

قوله « هل رِيبةٌ » لفظه استفهام ومعناه النفى ، فيقول : لا رِيبةَ فى حنين أحد المتآلفَين الكريمَي العَهد إلى الآخر ، ولا استنكارَ فيما تنطوى عليه النفس من الهوى والوُدِّ ، ولا محاسبةَ فيما يوجب المتحابّان ويؤثرانه من المُصافاةِ على البعد ، وإنّ موضعَ الحبيب من جانب الحِمَى قلبى مُوَكَّلٌ به وإن لم أزُرْهُ ، إذ كان مجانبتى إياه ، وتأخُّرى عنه ، لإبقائى على الحال بينى وبين مَن أحتشِمُه ، ولإيثارى صيانتَه من تحدُّث الوُشاة فيه ، لا لغيره .

٧ — لَكَ اللهُ إنّى واصِلٌ ما وَصَلْتِنى ومُثْنٍ بما أولَيتِنِى ومُثِيبُ(١)

٨ — فلا تترُكى نفسى شَعاعاً فإنّها مِن الوجدِ قد كادَت عليكِ تذوبُ

٩ — وإنّى لأستحييكِ حَتّى كأنّما علَىَّ بِظَهْرِ الغَيبِ مِنكِ رَقيبُ

(١) بين هذا البيت وتاليه عند التبريزى :

وآخِذُ ما أعطيتِ عَفواً وإننى لأَزْوَرُ عمّا تكرهينَ هَيُوبُ

قوله « لكِ الله » يجوز أن يكون دعاء لها، والمعنى: إحسان الله لك، وحفظه مشتمِلٌ عليك. ويجوز أن يكون قَسَما، كما يقال أُعطِيكَ اللهَ، وجوابه إنى واصلٌ. وكأنه أقسمَ لها أو دَعا لها بأنه يَبقَى على العهد لها مُدَّةَ دوامِ مواصلتها وبقائها على المصافاة والإيثار له، وأنه يوجِبُ مِن إعظامها والثناء عليها، ومكافأتها بالحسنى فيما تُسدى إليه وتُوليه ما ينتفى عنه سِمَةُ التقصير والإقصار. وَوَجهُ الدُّعاء لها استعطافُها وترقيقُ قلبها، ويكونُ كالتشبيب من السائل.

وقوله « فلا تفرَّقى نفسى شَعاعا » فالشَّعاع: المنتشر، وكذلك الشعُّ والفعل منه شَعَّ. ويقال: تطايَرَ القومُ شَعاعًا، أى متفرِّقين. فيقول: احفظِى نفسى عن الانتشار والزَّوال، فإنها شارفَت الذَّوبَ والسَّيَلانَ وَجْدًا بك، وشافهَتِ التَّلَفَ والبَوار شَوْقًا إليكِ. ثم قال: وإنى مستحيٍ منك على البُعد، إعظامًا لكِ، وتهيُّبًا منكِ، حتى كأنَّ لكِ رقيبًا معى فى كلِّ حال، فأتعفَّف عن المنكَرات، وأتنزَّه عن ذميم المقالات، فكونى لى على ما توجِبُه صورتى، وتقتضيه قصَّتى. ومثل هذا قولُ الآخر[1]:

وإنى لأستحيِى فُطَيْمَةَ طاوِيًا ... خَمِيصاً وأستحيِى فُطَيمة طاعِما

وإنى لأستحييكِ والخرْقُ بيننا ... مخافَةَ أن تَلْقَىْ أخًا لِىَ لائما[2]

٥٦١

وقال آخر:

١ — تَحَمَّلَ أصحابى ولم يَجِدُوا وَجْدِى ... وللناسِ أشجانٌ وَلِى شَجَنٌ وَحْدِى

٢ — أُحبُّكُمُ ما دُمْتُ حَيًّا فإن أَمُتْ ... فوا كَبِدَا ممن يحِبُّكُمُ بَعْدِى

(١) هو المرقش الأصغر. المفضليات ٢٤٦ طبعة المعارف الثانية.

(٢) فى المفضليات: « صارما ».

الشَّجَن : الحاجة ، والجميع الأشجان والشجون . قال :

* والنَّفسُ شَتَّى شُجُونُها [١] *

وموضع « وَحْدى » نصبٌ على المصدر ، وهو موضوعٌ موضع الإيحاد [٢] .

يقول : ارتحلَ أصحابى ولم ينلهم من الوجْد ما نالنى ، وفى نفوس الناس حاجاتٌ وقد أوحَدْتُ نفسى بحاجةٍ إيحاداً . ثم أقبلَ على المحبوب مفسِّرًا لشجَنِه الذى تفرَّد به ، فقال : أحبُّكم مدةَ حياتى ، وإذا مِتُّ فوا كبدًا ممن يلى حبَّكم بَعدى . وهذا تحسُّر فى إثر ما يفوته من الهوَى إذا فارق الدنيا . ويُرْوَى : « مَن ذا يحبُّكم بَعدى » .

وقد عيب الشاعر بهذا فقيل : لم يَرْضَ بأن جعَلَ لها مُحِبًّا حتى صار يتحزَّن له . وقال بعضُ أصحاب المعانى : فى هذا ظُلمٌ للشاعر ، وذلك أنَّ غرضَه فى التماسه مُحِبًّا لها إشادةُ ذكرها ، وإعلاء قدرِها ، وتشهيرُها عند الناسِ حتى يصيرَ لها الجاهُ عند السلاطين . قال : وكثيرٌ من نِساء العرب طَلَبْنَ التشبيب من الشعراء مع العِفَّة ، كعَزَّةَ ، وليلى ، ومَيَّةَ . والخلفاء بنى أُمَيَّةَ وأقرانِها من الامَراء معهنَّ محاورات .

ويُرْوَى عن بعض السَّلَف الصالحين [٣] أنه حجَّ ، فلما قَضَى نُسُكَه قال لصاحبٍ له : هلمَّ نتمِّم حَجَّنا ! ألم تَسْمَع قول ذى الرُّمّة :

تَمامُ الحجِّ أن تقِفَ المَطَايا على خَرْقاء واضِعَةَ اللِّثامِ

---

(١) وكذا استشهد بهذه القطعة ابن فارس فى المقاييس (شجن) . والبيت بتمامه كما فى اللسان :

ذكرتك حيث استأمن الوحش والتقت رفاق به والنفس شتى شجونها

(٢) انظر الكلام على « وحده » و « وحدى » بتفصيل فى شرح الأشمونى وحاشية الصبان (باب الحال) .

(٣) هو الضبعى ، أو محمد بن الحجاج الأسدى ، أو الحجاج الأسدى . الأغانى (١٦ : ١١٩ ، ٢٠/١٢٠ : ١٤٠ — ١٤١) .

والطريقة فى نُصْرَتِه وتحسينِ قولِه ما قدَّمْته .

وأشنع من هذا قول الآخر[١] :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ ما حَيِيتُ فإن أَمُتْ ... أُوَكِّلْ بِدَعْدٍ مَن يَهِيمُ بها بَعْدِى

وقد قيل فى هذا أيضاً : إنه لو قال :

* فلا صَلَحَتْ دَعْدٌ لذِى خُلَّةٍ بَعْدِى *

لكان صواباً ، سالما مما يهجّنه .

٥٦٢

أبو حَيَّةَ النُّمَيْرِىّ[٢] :

١ ــ رَمَتْهُ أناةٌ مِنْ رَبيعةِ عَامِرٍ ... رَقُودُ الضُّحَى فى مَأْتَمٍ أَىِّ مَأْتَمِ[٣]

٢ ــ فَجَاءَ كَخُوطِ البَانِ لا متتابِعٌ ... ولكنْ بِسِيمَا ذِى وَقَارٍ ومِيسَمِ

أَناةٌ أصله وَنَاةٌ ، لأنَّه من الوَنْى : الفتور والكسل .

والواو المفتوحة لم تُبْدل منها الهمزة إلاّ فى أحرف قليلة ، وهى «أَناة» فى صفة المرأة الثَّقيلة الناعمة ؛ و «أَحَدٌ» صفةً واسماً للعدد ؛ وماجاء فى الحديث من قولهم[٤] : «أىُّ مَالٍ أُدِّيَتْ زكاتُه فقد ذهبَت أَبَلَتُه» ، يُرادُ وبالُه . وقال أبو زيد : الأَبَلَةُ فى الطعام أصله الوَبَلَة. ويقال : «أَجِمْتُ أُجُوماً» فى وجِمْتُ . فهذه الأحرفُ جاءت على ما ترى .

(١) هو النمر بن تولب ، كما فى الأغانى (١٩ : ١٥٩ ، ١٦٠) ، قال أبو الفرج : « والناس يروون هذا البيت لنصيب ، وهو خطأ » . انظر أيضاً الأغانى (١١ : ١٨) .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤١٦ ص ١٣١٤ .

(٣) التبريزى : « نؤوم الضحى » .

(٤) هو حديث يحيى بن يعمر ، كما فى اللسان (أبل) .

وقوله « رقود الضُّحى » وصَفها بالتَّرْفة ، وأنّها مَكْفِيَّةُ الخِدْمة ، فهى تَنام القَيلولة . وهذا كما قال امرُؤ القيس :

* نَؤُومُ الضُّحَى لم تَنتطِقْ عن تَفَضُّلِ [1] *

والمأتم : النِّساء يجتمِعْن فى الخَير والشر . يقول : نظرَتْ إلى هذا الرجل امرأةٌ طلعتْ عليه فى جُملةِ نساء ، مُتْرَفَةٌ منعَّمةٌ سمينةٌ ، تنام عن شؤونها أوقاتَ الضُّحى ، لأنّ لها مَن يكفيها كلَّ ما تهتمُّ له ففتنَتْه ، ثم اقتصَّ كيف نَصبت الحِبالةَ له ، ومن أين وقع فيها حتَّى اصطادته ، فقال : جاء الرَّجُلُ وكأنَّه غُصن بانٍ لحسن شَطاطِه وطَرَاءةِ شابِه ، لا مُتَهافتٌ فى مشيه وتصرُّفه ، ولا خفيفٌ طائشٌ فى ورُوده وصدَره ، ولكن بعلامةِ ذى سكونٍ ، وميسمِ ذى صلاح وهُدُوٍ . والتّتايُع يُوصَف به الحيرانُ والسّكرانُ إذا رمَى بنفْسه . وتتايعَ البعيرُ فى مِشيته ، إذا حرّكَ ألواحَه حتَّى كأنَّه يتفكَّك . والمأتَم أصله من الأَتْم ، وهو أن تلتقى الخُرْزتان فتصيرا واحدة . وموضع « كَخُوطِ » نَصبٌ على الحال من جاء . والخُوط : الغُصن الناعم لِسَنَةٍ . وقوله «لا متتايع» ارتفَعَ لأنَّه خبر مبتدإٍ محذوف ، كأنّه قال : لا هو متتابع . وقوله «ولكن» استدراكٌ بعد نفى ، أى جاء غير متتايعٍ ولكن بهذه السِّيما .

٣ ــ فَقُلْنَ لَهَا سِرًّا فَدَيْنَاكِ لا يَرُحْ صَحِيحاً وإنْ لم تَقْتُليه فألْمِمِى

٤ ــ فألْقَتْ قِناعًا دُونَه الشَّمسُ واتَّقَتْ بأحْسنِ مَوصُولَين : كَفٍّ ومِعْصَمِ

٥ ــ وقالتْ فلَمَّا أفْرَغَتْ فى فؤادِهِ وعينَيه مِنْها السِّحْرَ قُلْنَ له قُمِ

قوله « سِرًّا » يجوز أن يكون مصدراً فى موضع الأمر ، كأنّه قال سَارِّيه مُسَارَّةً ، فوضَع السِّرّ موضع المُسارّة ، ويكون على هذا قوله « لا يرح » جوابَ

(١) صدره : * وتضحى فتيت المسك فوق فراشها *

الأمر الذى دلَّ عليه سِرًّا . ويجوز أن يكون سرًّا مصدراً فى موضع الحال ، ويكون لا يَرُح مجزوماً بلا النَّهى . وجَعلَ النَّهىَ فى اللّفظ للرَّجل والمرأةُ هى المنهيّةُ ، كما يقال : لا أَرَينَّكَ هنا . والمعنى : لا تكن هناك فأراك ، والمراد : لا تَدَعِيه يروحُ صحيحاً . يقول : قالت النِّساء المحتَفَّةُ بالأناة المذكورة لها : أشيرى إليه فى السِّرِّ إشارةً تفتِنه ، واعرِضى عليهِ محاسنك ما يُخبِّل قلبَه بعدَ تعرُّضه لنا فى سَمْته ووَقاره حتَّى لا يروحَ عنَّا صحيحاً ، وإن لم تُبالِغِى فى استغوائه وفَتْلِه عن رشادِه ، وإهلاكِه ، فكونى منه على أوفَى مَحلّ . فائتمرَتْ لهنّ وألقتْ قِناعًا وراءه الشَّمس ، أى وجْهٌ إشراقه كإشراق الشمس ، فعرضَت وجهَها ثمَّ سترته فأبدتْ كفَّها ومِعصَمَها — وهو موضع السوار من يدها — أيضاً ، وتكلَّمَتْ بكلامٍ كالمنكرةِ من نفْسها ما اتَّفقَ عليها ، والمستحيِيَة المتذمِّمةِ مِن حالِها ، فلمَّا عَلِمَ النِّساء أنَّها أفرغَتْ فى فؤادِه بالكلام ، وفى عينَيه بالكفِّ والوجهِ السِّحر أى صبّت — قلنَ للشَّابِّ المتعرِّض : قمْ عنَّا فابْكِ لِمَا نابَكَ[1] وأنت لا تعلم .

والسِّحر : إخراجُ الشَّىء فى أحسن مَعارِضه حَتَّى يَفتِن ، لذلك قيل للرَّائق المُعجِب : هو السِّحر الحلال . يقال : سَحَرْتُ الفضَّة ، إذا طلَّيْتَها بالذَّهب .

إن قيل : أين مفعولُ قالت ؟ قلتَ : إنَّه هنا فى معنى تكلَّمَتْ ، فاستغنَى عن المفعول ، ومثله قولُ عمرَ بنِ أبى ربيعة :

* لحاجَةِ نَفْسٍ لم تَقُلْ فى جوابها[2] *

أى لم تتكلَّمْ .

---

(١) فى النسختين : « فإنك لما بك » . التبريزى : « ويروى : قلن له انعم ، على القلب أى احزن وتوجد من العشق » .

(٢) عجزه : * فتبلغ عذرا والمقالة تعذر *

٦ ـ فَوَدَّ بِجَدْعِ الأَنفِ لوأنَّ صَحْبَهُ   تَنَادَوْا وقَالُوا فى المُناخِ لَهُ نَمِ

يقول : انصرَفَ عنهنّ وهو يتمنّى أن جُدِعَ أنفُه فى وقتِ ما هَمَّ بالخُروج إليهنّ ، ويمنعُه أصحابُه من التعرُّضِ لهنّ ، وقالوا له : نَمْ فى المُناخ ولا تبرحْ ، ويجوز أن يكون معناه : وَدَّ أن يتركَه صحبُه ويقولوا له : نَمْ فى المُناخ ولا تَتْبعْنَا ، وأنَّ أنفَهُ قطِع . والباء من قوله « بجَدْعِ » هو الذى يُفيد معنى العِوَض . تقول : هذا بذاك ، أى عِوَضٌ من ذاك .

وقوله « تنادَوْا » يجوز أن يكون معناه تجمَّعوا ، من النَّدِىّ وهو المجلس ؛ ويجوز أن يكون من النِّداء ، أى تَداعَوْا وقالوا له ذلك .

٥٦٣

وقال آخر(١) :

١ ـ نَظَرْتُ كأنّى مِن وَرَاءِ زُجاجةٍ   إلى الدَّارِ مِنْ فَرْطِ الصَّبابةِ أَنْظرُ
٢ ـ فعيناىَ طَوْرًا تَغرَقانِ مِنَ البُكَا   فأَعْشَى وحِيناً تَحْسِرَانِ فأُبْصِرُ

يقول : وقفتُ بدارِ الأحبَّةِ فتوهمتُ آياتها ، ثم عرفتُها فتمثَّل لى مَن كان بها ، وتَطَرَّى ما كان دار بينى وبينَها ، فاغرَوْرَقَتْ عيناىَ من الدَّمع تحسُّرًا وتوجُّعًا ، وبقيتُ إذا نظرتُ إلى الدَّار كأنى أنظرُ مِن وراء زُجاجةٍ فلا أتبيَّنُ الآثارَ ، وإذا انهملَتا بما فيهما عُدْتُ فى صِحَّة الإدراك بهما إلى ما كنتُ عليه من قبل . وقد مرَّ القول فى حقيقة النَّظر .

فأمَّا « تحسران » فيجوز أن يكون من قولهم : حَسَرَ البحرُ ، إذا نَضَبَ

(١) ابن جنى فى التنبيه : « وهو أبو حية » . وهـذه النسبة أيضا فى اللآلئ ٢٦٥ وأمالى المرتضى (٢ : ١٠٣) . ونسبت فى زهر الآداب (٤ : ٨٢) إلى المجنون . وللبيت الأول قصة فى الأغانى (٢١ : ١٠٣) .

الماء عن ساحله ؛ ويجوز أن يكون من حَسَرْتُ القِناع ، ويكون على هذا مفعولُه محذوفاً . والأوّل أحسن . ومن الثانى قولهم : امرأةٌ حسنةُ المَحَاسِر ، كما يقال حسنة المَعارِى . وتلخيص البيت الأوّل : كأنّى من فَرط الصَّبابة أنظرُ إلى الدّار من وراء زُجاجة . والطَّوْر : التَّارة . ويقال : الناسُ أطوارٌ ، أى على أحوالٍ شَتَّى .

٥٦٤

وقال آخر[١] :

١ ــ فَمَا شَنَّتَا خَرْقَاءَ وَاهِيَةِ الـكُلَى ... سَـقَى بهما ساقٍ فلَمْ يتَبَلَّلا[٢]

٢ ــ بأَضْيَعَ مِنْ عَيْنَيْكَ لِلدَّمْعِ كُلَّمَا ... توَهَّمْتَ رَبْعًا أَوْ تَذَكَّرْتَ مَنْزِلَا

الخرقاء : التى لا رِفقَ لها فى الأعمال ولا بَصيرة . والشَّنَّةُ ، أراد بها هنا الدَّلوَ الخَلَق ، وهى السِّقاء البالى فى الأصل . ويقال : لِقَطَرَانِ الماء من الشَّنَّةِ شيئاً بعد شىء : الشَّنِينُ ، ثم يُستعمَل فى الدّمع . قال :

* يا مَنْ لدمعٍ دائمِ الشَّنِينِ[٣] *

ولم يرضَ بأنْ جَعَل الدَّلوَ خَلَقًا حتّى جعلَها لامرأةٍ لا تُحسن عملًا من خَرْزٍ وغيره ، فكانت تُصلحها ، ثمَّ جعلَ سَقْىَ الإبل بها قبل تهلُّلها وانسداد خُرَزِها وثُقَبِها . فيقول : ما دَلْوَانِ هذه صفتُهما بأشدَّ إضاعةً للماء من عينيكَ للدَّمع كلما توهَّمتَ دارَ الحبيبِ وهى مأهولة ، أو تذكَّرْتَ منزلًا من منازل سفرِها وهى منتجِعَة .

(١) هو غيلان ذو الرمة كما فى أمالى القالى (١ : ٢٠٨) وزهر الآداب (٤ : ٨٢) واللسان (١٩ : ١١٦) وملحقات ديوان ذى الرمة ٦٧١ . وانظر مجالس ثعلب ٤١٣ .

(٢) التبريزى : « وما شنتا خرقاء واهيتا الكلى » . ويروى : « ولما تبللا » .

(٣) أنشده فى المقاييس (٣ : ١٧٦) واللسان (شنن) .

وقوله « بأضيَعَ مِنْ عَيْنَيْكَ » كان الواجبُ أن يقول : بأشدَّ إضاعةً للدَّمع ، فجاء به على حَذْف الزَّوائد ، أو على طريقةِ سيبويهِ فى جواز بناء التعجُّب مما كان على أفعَل ممَّا زاد على الثُّلاثىّ خاصَّة .

٥٦٥

وقال أبو الشِّيص[(١)] :

١ــ وقَفَ الْهوَى بى حَيْثُ أنتِ فليسَ لِى ... مُتَأَخَّرٌ عنـــه ولا مُتقدَّمُ

٢ــ أجِدُ المَلَامَةَ فى هوَاكِ لذيذةً ... حُبًّا لذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنى اللُّوَّمُ

يقول : حَبَسنى الهوى فى الموضعِ الذى تستقرّين فيه فألزَمُه ولا أفارقُه ، فأنا مَعَكِ مقيمةً وظاعنةً ، لا أعْدِلُ عنكِ ولا أميل إلى سواك ، ومَن لامَنى فيك أستلِذ لَومَه محبَّةً لذكرك ، ووَجداً باسمِك ، فليستمرَّ اللاَّئمون فى أقوالهم ، ولتَدُم عِظاتُهم علىَّ وإنكارُهم ، فإنَّهم لا يجدون منِّى اتِّباعًا ولا رُجوعا ، ولا مَلالاً فىَّ ولا قُصورا . وقوله « حُبًّا لذكرك » انتَصَب لأنّه مفعول له ، وبيانٌ لعلَّة لذَّته ، بما يجلِب على غيره ضَجراً ، وهو اللَّوم .

ومثل هذا قولُ الآخر[(٢)] :

* وأسألُ عنها الرَّكْبَ عهدُهمُ عَهْدِى[(٣)] *

يريد ، أنه يستلِذُّ ذِكرَها .

وقوله « حيث أنت » خبر المبتدإ وهو أنتِ محذوف ، كأنّه قال : حيثُ

---

(١) اسمه محمد بن عبدالله بن رزين . وأصل معنى الشيص : الردى من التمر . وهو ابن عم دعبل الشاعر ، كان فى زمن الرشيد معاصراً لأبى نواس ، وعمى فى آخر عمره . وله مراث فى عينيه قبل ذهابهما وبعده . توفى سنة ١٩٦ . الأغانى (١٥ : ١٠٤ ـ ١٠٨) ونكت الهميان ٢٥٧ ـ ٢٥٨ والشعراء ٨٢٠ ـ ٨٢٥ ومعاهد التنصيص (٢ : ١٤٢) .

(٢) هو ابن هرم الكلابى ، كما سيأتى فى المقطوعة ٥٨٨ .

(٣) صدره : * وأستخبر الأخبار من نحو أرضها *

أنتِ واقفةٌ ، لأنّ « حيثُ » فى الأمكنةِ بمنزلة حينَ فى الأزمنة ، فى حاجَتِه إلى جملتين ، والمتأخَّر والمتقدَّم بمنزلة التَّأخُّر والتقدُّم ، فهما مصدران .

٣ـ أشْبَهْتِ أعْدَائى فَصِرْتُ أحِبُّهُمْ إذْ صارَ حَظِّىَ مِنْكِ حَظِّىَ مِنْهُمُ[(١)]

٤ـ وأهَنْتِنِى فأهَنْتُ نَفْسِىَ صاغِرًا مامن يَهُونُ عَلَيْكِ مِمَّنْ أكْرِمُ[(٢)]

يقول : وافقتِ فى مواصلتى أعدائى أخذًا فيما أكرهه وأتسخّطه ، وذهابًا عما أحِبُّه وأرضاه ، ولأنّ حظِّى منكِ فيما أرومُهُ يماثل حظِّى من أعدائى فيما أسومُهم فأُشْرِبَ قلبى حُبَّهم ، وانْصَبَّ إلى جانبهم الميلُ معهم لمشابهتِكِ لهم ، ومماثلةِ فَعَالِكِ لفَعَالهم ، وأذللتِنِى فأذللتُ نفسى على صُغْرٍ مِنِّى ، اقتداءً بكِ ، ومجانَبةً للخلاف عليك ، ولأنى لا أرى كرامةَ من تَرَيْنَ هوانَه ، ولا إرضاءَ مَن تَرين إسْخاطَه . وانتصب « صاغرًا » على الحال من أهَنْتُ . وقوله « مِمَّن أكْرِمُ » العائد إلى الموصول محذوف ، كأنّه قال : ممن أكرمُهم . وقوله « حَظِّىَ منهم » يريد به التَّشبيه ، كأنّه قال : كحظّى منهم ، ومنك فى موضع الحال ، وكذلك منهم .

٥٦٦

وقال آخر :

١ ـ ولا غَرْوَ إلاّ ما يُخَبِّرُ سالِمٌ بأنّ بَنِى أسْتاهِها نَذَرُوا دَمِى[(٣)]

٢ ـ ومالِىَ مِن ذَنْبٍ إليهِمْ عَلِمْتُه سِوَى أننى قد قلتُ ياسَرْحةُ اسْلَمِى

٣ـ نعَمْ فاسْلَمِى ثم اسلَمِى ثُمَّتَ اسلَمِى ثَلاثَ تحيّاتٍ وإن لم تَكَلَّمِى

(١) ل والتبريزى : « إذ كان حظى » .

(٢) فى الأصل : « يا من يهون عليك » ، صوابه من ل والتبريزى . و « ما » فى قوله « ما من » هى النافية .

(٣) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « لا غرو » بالخرم

معنى « لاغَرْوَ » لاعَجَب ، وخبر لا محذوف ، كأنه قال : لاغَرْوَ فى الدنيا ، أو موجود . وموضع « ما يخبِّر » رفعٌ على أنه بدل من موضع لا غروَ. وإنما قال « بنى أستاهها » لأنه يريد أنهم مخروُّونَ لا مولودون . فيقولُ متهانفاً(١) : لا عَجَب إلا ما يُخَبِّرُ به سالمٌ ، بأنَّ سُقَّاطها والقين لا عُقولَ لهم فيها ، قالوا : للهِ علينا سَفْكُ دَمِه . ثم قال : هذا اعتقادُهم وأقوالُهم ؛ ولا جنايةَ لى عليهم ، ولا ذَنْبَ منِّى أهتدى إليه فيهم سِوَى قولى : يا سَرْحَةُ أدامَ اللهُ لكِ السلامة — وكان جَعَل «سرحة» ، [وهى شجرةٌ(٢)] ، كناية عن امرأةٍ فيهم — نَعَمْ قد قلتُ وأقولُه مكرَّرًا : أسلمى أسلمى . يُغايِظُهم ويُناكِدهم بهذا المقال .

وقوله « سوى أنّى » موضعه من الإعراب استثناء خارج . و« ياسرحةُ » إذا ضممتَهُ فالضَّمَّة الأصل فى استعمال المنادَى المفرد المعرفة ، وإذا فتحتَه فلاعتيادهم الترخيم فى مناداة ما فى آخره هاء التأنيث ، أتمُّوه ونوَوا الترخيم فجعلوا حركتَه حركة المُرَخَّم منه . وهى الفتحة .

وقوله « نعم » وإن كان فى الأصل حرفاً يُوجَبُ به ويُجابُ فى الاستفهام المحض فقد يُتَوصَّلُ به إلى بَسْط الكلام وصِلَتِه . وقوله « ثلاث تحياتٍ » انتصب على المصدر من فعلٍ دلَّ عليه قوله اسلَمِى ، كأنه قال : أحيِّى ثلاث تحيّاتٍ ، وإن لم ترْجِعى الجوابَ إلىَّ . والسَّرْحُ من العِضاه ، ويكون دَوْحه مِحْلالاً يَحُلُّ الناس تحتَها فى الصَّيف . وقال الفرّاء : كلُّ شجرةٍ لا شوكَ فيها فهى سَرْحةٌ ، ذهَبَ إلى السَّرح ، وهو السَّهل .

وقال ابن هَرْمَة وكنى بها عن امرأةٍ :

سَقَى السَّرْحَةَ المِحْلالَ دُونَ سُوَيْقَةٍ ... نِجَــاءُ الثريا مرتعِنًّا هُطُولُها

---

(١) التهانف : التضاحك ، والضحك بالسخرية . وفى الأصل : « متهاتفا » تحريف .

(٢) التكملة من ل .

وقد تسمى المرأة « سَرْحَةً » .

٥٦٧

وقال خُلَيْدٌ مَوْلى العَبَّاسِ بن محمد[١] :

١ — أَمَا والرَّاقِصَاتُ بذاتِ عِرْقٍ وَمَنْ صَلَّى بِنَعْمَانِ الأَرَاكِ

٢ — لَقَدْ أَضْمَرْتُ حُبَّكِ فِي فُؤَادِي وَما أَضْمَرْتُ حُبًّا مِنْ سِوَاكِ

٣ — أَرَيْتِ الآمِرِيكِ بِصُرْمِ حَبْلِي مُرِيهِمْ فى أَحِبَّتِهِمْ بذاكِ[٢]

٤ — فإِنْ هُمْ طَاوَعُوكِ فَطَاوِعِيهِمْ وإِن عاصَوْكِ فاعْصِى مَن عَصَاكِ

أقسمَ بالحجيج وبرواحلهم التى ترقُص بهم فى السير متوجِّهين بوادى عرفة وذاتِ عِرْقٍ إلى بيتِ الله عزّ وجلّ . وأضافَ نَعمانَ إلى الأراك لكثرتِها بها . وجواب اليمين قوله « لقد أضمرتُ حُبَّكِ » . والمعنى أنه أقسمَ أنَّ وُدَّهُ لها مكتومٌ انطوَى عليه قلبُه ، وخالصٌ فيها قد أَكنَّهُ ضميرُه لا يُشاركها فيه عَديل ، ولا يُجاذِبُها بسببه قَسِيمٌ ، وإنّما يتحمَّدُ عليها بحِفْظ السِّرَار ، وتخليص العقيدة ، وشَغْل القلبِ والعقلِ بمِرارة الهوَى لها . ثم أقبل عليها فقال يخاطبها : أعلمتِ الذين يُشيرون عليك بقَطيعتى والتنكُّر لى ، وجَدِّ الأسباب والمواثيق بينى وبينَكِ ؟ كُرِّى عليهم مستدرجةً لهم ، وعاجمةً تنصُّحَهم ، وأْمُرِيهم فى أحبّتهم بمثل ما أمروكِ فىّ ، فإن وجدْتِهم سامعين لكِ ، وصائرين إلى القبول منك ، فَخُذى أنتِ أيضاً مأخَذَهم ، والتزمى طاعتَهم . وإن وجدتِهم متأبِّين عليكِ مخالفين لك ، فاعصِى مَن عصاك ، ودَبِّى الاستنامةَ إلى رأى مَن لا يَرَى لك

(١) التبريزى : « مولى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس » .
(٢) ل والتبريزى : « أطعت الآمريك » .

مثلَ ما يراه لنفسه . وكان الواجبُ فى قضيّةِ سِياق الكلام أن يقول : وإن عاصَوْكِ فعاصيهم ؛ فعَدَل عن الإتيان بالضمير إلى ذِكر الظاهر ، ليبيِّن فيه ما يُشَنِّع به عليهم ، وليُظهِر السَّببَ المُوجِبَ للإغراء بهم ، والانصرافِ عن رأيهم . ولو قال : فاعصيهم لم يَبِنْ ذلك فيه .

وقوله « أَرَيْتِ » أصله أرأيتِ ، حذفَ الهمزةَ منه حذفاً كما حُذِفَ فى يَرَى ، وتَرَى ، ونَرَى .

٥٦٨

وقال أبو القَمْقام الأسدىّ :

١ ـ إقْرَأْ عَلَى الوَشَلِ السَّلامَ وقُلْ لهُ ... كلُّ المَشَارِبِ مُذْ هُجِرْتَ ذَمِيمُ[(١)]

٢ ـ سَقْياً لِظِلِّكَ بالعَشِىِّ وبالضُّحَى ... وَلِبَرْدِ مائكَ والْمِيَاهُ حَمِيمُ

٣ ـ لو كنتُ أَمْلِكُ مَنْعَ مائكَ لم يَذُقْ ... ما فى قِلاَتِكَ ما حَيِيتُ لَئِيمُ

الوَشَلُ هاهنا : ماء معروف فى أرضٍ محبوبةٍ . وقال الدُّرَيدىّ : الوَشَلُ : موضعٌ معروف بعينِه . والوَشَل : الماء القليلُ يترقرقُ على وجه الأرض . وقال صاحبُ العين : الوشَلُ مُحَرَّكٌ : الماء القليل يَتحلَّب من صَخرةٍ أو جبلٍ ، يقطُر منه قليلاً قليلا . والواشل : القاطر ، يقال : جَبَلٌ وَاشِلٌ : يقطُر منه الماء . والشاعر أهدَى إليه التحيةَ ، وراسَلَهُ أنَّ المَشاربَ كلَّها مذمومةٌ عنده منذُ تحوَّلَ عنه وتَرَكَ وُرُوده . ثم دَعا لظِلِّه بالسُّقيا فقال : سَقْيًا لظِلِّك بالعشىّ وبالضُّحى . والظلُّ يكون للشجرةِ وغيرِها بالغداة ، والفَىْء بالعشىِّ ، فكان فى الواجب أن

(١) ياقوت : « الجوهرى : وشل اسم جبل عظيم بناحية تهامة » . وأنشد ياقوت بين هذا البيت وتاليه :

جبل يزيد على الجبال إذا بدا ... بين الربائع والجثوم مقيم

تسرى الصبا فتبيت فى أكنافه ... ويبيت فيه من الجنوب نسيم

يقول : سَقْيًا لظلِّك بالغَداة ، ولفَيْئِك بالعشيِّ . ألا تَرى قولَ الآخر[1] :

فلاَ الظلَّ من بَرْدِ الضُّحى نستطيعه ولا الفَيْءَ من بَرْدِ العشيِّ نَذُوقُ[2]

إلاّ أنّه سَمّى الفَيْءَ ظِلاًّ لتشابُهِما فى مَنظَر العَين والغَناء[3] . فلما تساوَيَا وأجرَى عليهما معاً لفظةَ الظِّلِّ ، وكان الواوُ يفيد الجمعَ من دون التَّرتيب — لم يُبَالِ أن يقولَ بالعشىِّ وبالضُّحى ، فيقدِّم بالعشىِّ ، وإنْ كان الظِّلُّ أليَقَ بأن يليق بالضُّحَى لو جُرِّد . ولم يُشْبِهْ هذا قولَ القائل : فُلانٌ أشْعَرُ الجنّ والإنس ، لترْكه فيما تقدَّمَه من المعطوف والمعطوف عليه طلبَ المطابقة والموافَقة . ألا ترَى أنّ الوجه فى هذا أن يقال : فلانٌ أشعر الإنس والجنِّ ليصحَّ لفظ الأوّل ، ويُضاف أشعرُ إلى ما هو بعضُه ثمّ يجىء الثانى ؛ وأنّ قولَك : سَقْيًا لِظلِّكَ وقد نويْتَ إجراءَ الظِّلّ للفىء أيضاً صار حكمُه حكمَ اللّفظة الموضوعة لشيئين ، فإذا كانَ كذلك فأيُّهما أوْلَيْتَهُ من العشىّ والضُّحى فقد وَقَعَ إلى جَنْب ما يطابقُه ويوافقه .

فإن قيل : لو سُلِّمَ لك ماتقوله وتدَّعيه من الاستعارة لَمَا سَلِمَ الكلامُ المتنازَعُ من أنّه جاء على غير حَدِّه ؛ وذاك أنّ الظِّلّ يكون فى الضُّحى حقيقة وفى العشىِّ مجازاً ، وإجراء الكلام على حَدِّه أن يُقدَّم ما يكون حقيقةً على المجاز . قلتَ : إنّ الظلّ فيما حكاه الخليل ضدُّ الضِّحّ ، ويقال : أفاءَ الظِلُّ وتفَيَّأ . وفى القرآن : ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُه عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائل[4] ﴾ ، فهو ظلٌّ قبلَ التفيُّؤ وبعده ،

---

(١) هو حميد بن ثور . ديوانه ٤٠ .

(٢) يروى : « تستطيعه » و « تذوق » بالتاء فيهما ، على التجريد . وقبله :

حمى ظلها شكس الخليقة خائف عليها عُرام الطائفين شفوق

(٣) الأصل : « الفناء » ، صوابه فى ل . والغناء ، بالفتح : الفائدة والنفع والكفاية .

(٤) قرأ أبو عمرو ويعقوب واليزيدى : « تتفيأ ظلاله » ، وباقى القراء : « يتفيأ » ، بالتذكير ، لأن تأنيثه مجازى . إتحاف فضلاء البشر . ٢٧٨ فى سورة النحل .

وإنَّما نَسْخُه للشَّمس هو الذى صار به فَيْئاً ، وإذا كان كذلك لم يكُنْ من باب ما يكون حقيقةً فى شىء ، ومجازاً فى آخر . وهذا بيِّنٌ .

وقوله « والمياه جميم » فالواو فيه للابتداء ، وهو واو الحال .

وقوله « لو كنت أُملك مَنْعَ مائك » جوابُ لو » هو قوله « لم يَذُق » . وهذا الكلامُ فيه إظهارُ الضَّغانة بالماء المذكور ، واستمرارُه فى الحسد إلى كلِّ حَدٍّ معلوم بسببِه ، حتَّى كان بزُعْمِهِ يمنع عنه اللِّئامَ مدَّةَ حياته ، ويعنى به أربابَهُ فيما أظنُّه ، لأنّهم أعداؤُه . والقِلاتُ : جَمْع القَلْت ، وهى حُفرةٌ فى الجبل يَستنقِعُ فيها ماء المطر .

٥٦٩

وقال ابن الدُّمَيْنَة[1]

وقد كتب بها إلى أُمامة[2] :

١ — وأنتِ التى كلَّفتِنِى دَلَجَ السُّرَى وَجُونُ القَطَا بالجَلْهَتَيْنِ جُثُومُ
٢ — وأنتِ التى قَطَّعتِ قَلْبِى حَزَازَةً وقَرَّفْتِ قَرْحَ القلبِ وَهْوَ كَلِيمُ[3]
٣ — وأنتِ التى أحْفَظْتِ قَومِى فكُلُّهُمْ بَعِيدُ الرِّضا دانِى الصُّدودِ كَظِيمُ[4]

قوله « دَلَجَ السُّرَى » ، فالسُّرَى : سير اللَّيل ، والدَّلَج : السَّير فى بعض اللَّيل . ويقال : سار دُلْجَةً ، أى ساعةً من أوَّل الليل ، فلذلك أضافَ الدَّلَج إلى السُّرَى ، فجَرَى مجرَى إضافة البعضِ إلى الكُلّ . والشَّاعر يعدِّد عليها ما ناله

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٦ ص ١٢٢٣ . والشعر فى ديوانه ٣٦ — ٣٧ والحيوان (٣ : ٥٥) والأغانى (١٥ : ١٤٨) ومعاهد التنصيص (١ : ٥٨) .
(٢) هذه العبارة لم يذكرها التبريزى .
(٣) يروى : « وقرحت » . و « فهو كليم » .
(٤) الحيوان : « أسخطت قومى » .

حالًا بعد حالٍ من ضُروب المشقّات والمتالِف فيها ، فيقول : تحمّلتُ فيكِ كلّ عظيمةٍ وبليَّة ، فأنتِ التى كلَّفتِنى السُّرَى والسَّير ، وركوبَ الخَطَر بالليل والطُّيورُ ساكنةٌ فى عِشَشِها[1] لم تبرح ، وأنتِ التى قطَّعْتِ جوانحى ، وصَدَّعْتِ جوانب كِبِدى حَزازةً بدوام تمنُّعك وتشدُّدِك ، واتّصال جفائك واطّراحِك — والحزازة : وجعٌ فى القَلْب — فنكأتِ الكَلْمَ من قلبى قبل اندماله ، وقَشَرتِ جُلبتَه عند صلاحه والتئامه ، فأراه أبداً دامىَ الظّاهر فاسدَ الباطن ؛ وأنتِ التى أغضَبْتِ علَىّ مَعْشَرِى ، وأفسدت علىّ رَهْطِى وأعِزّتى ، فكلُّ واحدٍ منهم إذا خُبِر واستُكشِف بعيدُ الرِّضا عنِّى ، قريبُ الهجران لى ، ممتلِئ الصَّدر من بُغضى ، يكظِم غيظَه تجمُّلا ، ويُسِرُّ نُكْرَهُ تصبُّرا .

وقوله « جُون القطَا » ، جمع جُونِيَّة . قال :

* جُونِيَّةٌ كحصاةِ القَسْمِ *

وهذا كما يقال عَرَبِىٌّ وعَرَبٌ ، وهذا الجمع كالجمع الذى ليس بينه وبين واحده فى اللّفظ إلاّ طرح الهاء نحو تَمْرَةٍ وتَمْرٍ وما أشبهه . وجُثُومٌ : جمع جاثم . وجَثَم الطائرُ ، إذا ألصَق صدرَه بالأرض ، ويستعمل فى السَّبُع وغيره ، ومنه الجُثْمان لجسم الإنسان . وقال الأصمعىُّ : الجُثْمان الشّخص ، والجُسْمان الجِسم . والجُلْهَةُ : ما استقبلك من الوادى . ومعنى قَرَّفْتِ : قَشَرْتِ ولم يكنْ بَرَأَ . ويقال : كَظَمَ غيظَه ، إذا جرِعَه . وكَظَمَ البعيرُ جِرَّتَهُ ، إذا ابتلعها . والكَظَم[2] : مخرَج النَّفَس . ويقال للمحزون : إنّه لمكظومٌ وكظيم .

---

(١) جمع عش ، ومثله عشوش وأعشاش . وفى الأصل : « عششها » .

(٢) بالتحريك ، وجمعه أكظام ، ومنه حديث النخعى : « له التوبة ما لم يؤخذ بكظمه » أى عند خروج نفسه ، وانقطاع نفسه .

٥٧٠

فأجابته أُمَامَةُ(١) :

١ ــ وأنتَ الّذِى أَخْلَفْتَنِى مَا وَعَدْتَنِى ۔۔۔ وأَشْمَتَّ بِى مَنْ كَانَ فِيكَ يَلُومُ
٢ ــ وأبرزتَنِى للناسِ ثمَّ تركْتَنِى ۔۔۔ لهمْ غَرَضاً أُرْمَى وأنتَ سَلِيمُ
٣ ــ فلوأنَّ قولاً يَكْلِمُ الجِسْمَ قد بَدَا ۔۔۔ بجِسْمِىَ مِنْ قَوْلِ الوُشاةِ كُلُومُ

أخذَت تقابلُه بمثل الذى ابتدأها ، وتعدِّد من جناياته عليها كِفاءَ ما عدَّده وعَصَب به رأسها ، فقالت : إن ما ارتكبتَه منِّى أشنَعُ ، وما حمّلتَه وقتاً بعد وقت أفظعُ ، لأنك الذى نكَثْتَ عهودى ، ونقَضْتَ مواعيدى ، وأشمتَّ بى كلَّ ناصحٍ فيك ، وصدَّقْتَ مقالَ كلٍّ لائمٍ بسببك ، فظُنونى بك مكذَّبة ، وظُنون النُّصَّاح واللُّوَّام مصدَّقَةٌ ؛ ثم جعَلْتَنِى مُضغةً فى أفواه الناس ، وأُكْلَةً لجامعهم ، يتملَّون بحديثى ، ويتبلَّغون عند أعدائى بقِصَّتى ، فقد صِرْتُ كالغرَض المنصوب لكلِّ قِدحٍ مَبْرِيّ ، والعَلَمِ المقصود لكلِّ مَشَّاءٍ بنميمٍ ، يُغْرَى بى من كان لى سَلْماً ، ويَرِقُّ لى مَن آلَ لى حَرْباً ، وأنت سليمٌ من المكاره ، بعيدٌ عن المتاعب ، تعزُك بجنبِكَ ما يمَسُّنى ، وتتَّقى بقِلَّةِ الاكتراث ما يُنْضِجُنى ؛ لأنَّ نارَ الوشاية اعتمادُها بالإحراق فى النساء أبلَغُ منه فى الرِّجال ، وعارُ الشَّناعة أَلصَقُ بجوانبهنَّ منه بجوانب أمثالِكَ ، فلو أن كلامًا كَلَمَ جِسْماً لبدَتْ بجسمى نُدُوبٌ ومَنافِذُ وجُروح بأنياب المُغتابين ، ونبال الرُّماة المُراصدين .

وقد عُدِل فى هذه الأبيات وفيما تقدَّمها فى صِلاتِ الذى والتى عن الإخبار

(١) التبريزى : « على وزنها ورويها » . وفى الأغانى « أميمة » ، وأنها التى قالت هذا الشعر فى بادئ الأمر ثم أجابها هو بالمقطوعة السابقة ، ثم تزوجها بعد ذلك وقتل وهى عنده . والشعر فى المراجع المتقدمة والبيان (٣ : ٣٧٠) .

إلى الخطاب ، وقد مضى القولُ فى جوازه مشروحًا[١] ، وبَيَّنَّا كيف ساغ تعرِّى الصِّلة من الضمير العائد إلى الموصول .

٥٧١

وقال المَعْلوط الأَسدىّ[٢] :

١ — إنّ الظَّعائنَ يومَ حَزْمِ سُوَيْقَةٍ أَبْكَيْنَ عند فِراقِهِنَّ عُيُونا[٣]

٢ — غَيَّضْنَ مِن عَبَراتِهِنَّ وَقُلْنَ لى ماذَا لَقِيتَ من الهوَى ولَقِينا[٤]

٣ — بل لو يُساعِدُنا الغَيُورُ بدارِهِ يومًا لقد ماتَ الهوَى وحَيِينا[٥]

الظَّعينة : المرأة ، لأنها تظعَن إذا ظَعَن زوجُها ، أى تَشخَص . وقيل : الظعينة : الجمل لذى تركَبُه ، سمِّيَتْ به كما قيل للمَزَادَةِ راوية . والحَزْم : ما غَلُظ من الأرض . وإنما وصفَ حالهنَّ عند التوديع ووقتَ الفِراق ، فيقول : إنَّهنّ بكَين وأبْكَيْنَ ، وبجَهْدٍ منهن كفَفْن الدموع ، وخفَّضْن ما علا من النَّشيج ، ثم قُلن متحسِّرات : أىَّ شىء لقيتَ أنت وقاسيتَ من أحداث الهوَى وأسبابه ، وقاسينا نحن ، ولو ساعَدَنا الغَيُورُ وَدانانا بدارِه يوماً لقضينا من أوطارنا ما تحيا به نفوسُنا وقلوبُنا ، ويموت له كَلَفُنا وهوانا .

---

(١) انظر ما مضى فى ص ١١٥ ، ٢٩٧ ، ٤٠٧ ، ٦١١ ، ٦٤٢ .

(٢) التبريزى : « المعلوط بن بدل السعدى » ، وهو الصواب . والمعلوط بن بدل القريعى ثم السعدى شاعر إسلامى ، كما فى اللآلىء ٤٣٤ . ويروى أبو الفرج فى الأغانى (١٥ : ٦٥) وابن قتيبة فى الشعراء ١٢ أن جريراً سطا على بيتى المعلوط وأدخلهما فى شعره . ورويا الأول :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا

(٣) التبريزى : « يوم جو سريقة » .

(٤) فى الأغانى عن عبد المطلب بن عبد العزيز قال : أنشدت أبا السائب قول جرير هذا فقال : يا ابن أخى ، أتدرى ما التغييض ؟ قلت : لا . قال : هكذا . وأشار بإصبعه إلى جفنه كأنه يأخذ الدمع ثم ينضحه .

(٥) التبريزى : « بل يساعفنا » ، و « بدارة » .

وذِكْرُ موتِ الهوى كما قال الآخر :

فلما ٱلْتقَى الحيَّانِ أُلقِيت العصا ومات الهوى لمّا أُصيبت مقاتِلُهْ

وقوله « غَيَّضْنَ » أى قلّلن . ويقال : هذا من ذاك غَيْضٌ من فَيْضٍ ، أى قليلٌ من كثيرٍ . والمعنى مَسَحْنَهُ بأصابعِهِنَّ تَسَتُّرًا .

وأخذ ذو الرُّمَّة هذا فقال :

ولمّا تلاقَيْنَا جَرَتْ من عُيُونِنَا دُمُوعٌ وَزَعْنَا غَرْبَها بالأصابعِ

ونلنا سِقَاطًا[1] من حديثٍ كأنّهُ جَنَى النَّحْلِ ممزوجًا بماءِ الوقائعِ

ومعنى « يساعِفنا الغَيُورُ بدارِه » يقارِبنا بمحلِّه . والإسعافُ : قضاء الحاجة وإدناؤها . ولك أن تجعل « ماذا » بمنزلة اسمٍ واحد ، فينتصب بلقيتَ : ولك أن تجعل ذا بمعنى الذى ، ويكون ضميره العائد من الصلة محذوفًا ، كأنه قال : لقيته ولقيناه .

٥٧٢

وقال جميل[2] :

١ — وماذا عَسَى الواشُونَ أن يتحدَّثوا سِوَى أن يقولوا إنَّنى لكِ وامِقُ[3]

٢ — نَعَمْ صَدَقَ الوَاشُونَ أنتِ كريمةٌ علينا وإن لم تَصْفُ مِنْكِ الخلائقُ[4]

ماذا فى موضع المبتدإ ، كأنه قال : أىُّ حديثٍ عسى الواشون يتحدَّثونه سوى قولهم : إنى لكِ مُحِبٌّ . فهو كقولك : أىُّ ضَرْبٍ عسى زيدٌ أن يضربَه ،

(١) فى الأصل : « وبتنا سقاطا » ، صوابه فى ل .
(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠١ ص ٣١٤ .
(٣) التبريزى : « عاشق » .
(٤) التبريزى : « أنت حبيبة إلى » .

وسبيلُه سبيل المصدر والمضافِ إلى المصدر إذا ابتُدِئَ بهما . ولا يجوز أن ينتصب بيتحدَّثوا ، لأنه فى صلة أنْ ، فلا يعمل فيما قبل الموصوف ، ولا يجوز أن يكون ذا منه بمنزلة الذى ، لأنَّ عسى لا يصلح لـكونه غيرَ واجب أن يقع صلة له ، وكذلك أخواتُ عسَى . ألاَ تَرَى أنَّ الاستفهامَ والنَّفىَ وأخواتِهما لا يَقَعْن صِلاتٍ ، إذ كانت الصِّلاتُ إنما تكون من الجُمَل الخبرية الواجبة والمعنى أنهم لا يَقدِرون فى وِشايتهم على أكثرَ مِن قَطْع القول بأننى لكِ محبٌّ وعاشق . ثم أوجبَ بنعَمْ فقال : قد صَدَقوا فيما ادَّعوا ولفَّقوا ، أنتِ تَـكْرُمين علينا وإن لم يَعُدْ علينا منكِ خير ، ولا صادَفنا من إحسانِك صَفاءٍ ولينٌ . كأنَّه يُبرِّئ ساحتَها ، ويُرِى أنَّ ميلَه وهواه لا يَشِينُها مع سلامة طريقتها ، واستحكام عَفافِها .

٥٧٣

وقال آخر :(١)

١ — وإذَا عَتَبْتِ عَلَيَّ بِتُّ كأنَّنى ... باللَّيْلِ مُخْتَلَسُ الرُّقَادِ سَـلِيمُ

٢ — ولقد أردتُ الصبرَ عنْكِ فعاقَنى ... عَلَقٌ بقَلْبى مِنْ هَوَاكِ قَدِيمُ

٣ — يَبْقَى على حَدَثِ الزَّمانِ ورَيْبِهِ ... وعلى جَفَـائكِ إنَّهُ لَـكَرِيمُ

يقول : اليسيرُ من إنكارِكِ ولَوْمِكِ يَعْظُم عندى ويَصْعُب علىَّ ، حتى أبقَى له ليلتى ساهِرًا مؤرَّقًا ، وسادِمًا قَلِقًا ، كأننى لَديغُ حَيَّةٍ ، أو مُسْلَمٌ لعارضِ علَّة . ولقد رُمْتُ التَّسَلِّىَ عنك ، والتصبُّر منك ، فدفَعنى عن المراد ما عَلِقَ بقلبى من هواكِ قديمًا ومَلَكَ قِيادِى لكِ ، حتى لا أجدُ دونكِ منصرَفًا ومَحِيدًا . ثم وَصَف العَلَق اللازم له ، والحُبَّ الغالب عليه فقال : إنه يبقى على تغيُّر الزَّمان ،

(١) التبريزى : « قال أبو رياش : هى لابن الدمينة » .

وتلوُّن الحَدَثان ، فلا يَعْرِضُ له فُتُورٌ ولا نكوص ؛ وعلى ما يتجدَّد عليه فى كل حالٍ من جفاء فيكِ شديد ، وإعراضٍ أليم ، فلا يُبدِّله قصورٌ ولا نُبُوٌّ ؛ إنَّ هذا العَلَقَ لكريم المَحْتِد ، مُحْكَم العَقْدِ ، ثابت الأَساس والبِناء ، مقدَّم الذِّكر فى صُحُف الوِداد والصفا .

وهذا الكلام ، أعنى قوله « إنه لكريمُ » يسمَّى الالتفات .

٥٧٤

وقال آخر (١) :

١ — أَلْمِمْ على دِمَنٍ تقادَمَ عَهْدُها   بالجزْعِ واستَلَبَ الزَّمانُ جَمالَها

٢ — رَسْمٌ لِقاتِلَةِ الغَرانِقِ ما بِهِ   إلاَّ الوُحوشُ خَلَتْ له وخَلاَ لَها

٣ — ظَلَّتْ تُسائلُ بالمتيَّمِ أهلَهُ   وَهِىَ الَّتِى فَعَلَتْ بِهِ أفعالَها

الإلمام : الزِّيارة الخفيفة . يُخاطِب صاحبًا له ويسأله مساعَدَتَه فى زيارة دار أحبَّتِه ، فقال : زُرْ آثار دارٍ متقادمةِ العَهد بسُكَّانها ، مسلوبةِ الْجَمال لتأثير نوائب الزَّمان فيها ، بالجزْعِ — وهو منعطَف الوادى . وروى بعضهم : « جَلاَ لها » ، ويُكره هذا لما حكاه الأصمعى من أنه لا يقال الْجَلاَل إلا فى الله تعالى ، ولأنه وإنْ جاء فى غيره عزّ وجلّ فهو قليلٌ فى العرف والاستعمال .

وقوله « رسمٌ لقاتلة الغَرانق » ابتداء كلام ، أى هو رسمُ دارٍ لامرأةٍ كانت تَصيد الغَرانِق وتقتَتِلُهُم بالْحُبّ . والغُرانِق : الشابُّ الناعم الْحَسَن ، بضم

(١) التبريزى : « قال أبو رياش : هى لعمرو بن الأيهم ، وقيل الأصم » . وعمرو بن الأيهم بن أفلت التغلبى شاعر نصرانى إسلامى ، ويقال إن اسمه « عمير » . وقيل للأخطل وهو يموت : على من تخلف قومك ؟ قال على العميرين . يريد القطامى عمير بن شييم ، وعمير بن الأيهم . اللآلى ١٨٤ .

الغين ، وجمعه الغَرانِق بفتحها ومثلها العُراعِر والعَراعِر[1] ، والجُوَالِق والجَوالِق. وقد استبدلَتْ بأهلها وُحوشاً فهى خاليةٌ لها ، وهى راتعةٌ فيها ، لا تَعْدِلُ عنها.

وقوله « ظَلّتْ تُسائل » أى تبقى نهارَها تسأل عشـيرةَ العاشق عنه وعن استهتاره وعلّتِه ، وهى أعرف الناس بأخباره ، إذ كانت المتولّية لِفتنته وخَبالِه. والمتيَّم : المعبَّد[2] ؛ يقال : تيَّمه الحب ، أى عَبَّدَه واستعبده. وقوله « خلَتْ له » فى موضع الصِّفة للرسم.

٥٧٥

وقال آخر :

١ — وما بَرِحَ الواشُونَ حتَّى ارْتَمَوْا بنا وحتَّى قُلوبٌ عن قُلوبٍ صوادِفُ
٢ — وحتَّى رأَيْنا أحسَنَ الوَصْلِ بيننا مُسَاكَتَةً لاَ يَقْرِفُ الشَّرَّ قارِفُ

قد تقـدم القول فى « ما برح » وأنه فى معنى ما زال. فيقول : لم ينفكَّ السُّعاة عن الوِشـاية والتقاط الأحاديث للنميمة ، واستدراج المختلِطين بنا ، واستشفاف المتبلِّغين بأخبارنا وأخبارِ غيرنا ، حتى فرَّقوا بيننا ، فأقبلوا يَرْمِى بعضُها[3] بعضاً بمَصايرِ أمورنا ، وحتى صَدَفَتِ القلوب ، فمالَ كلٌّ من عشيرتنا إلى الاستبدال بموضعه ، والانتقالِ عن جوار صاحِبه ، وإلى أن رأَيْنا أحسنَ المواصلةِ بيننا ملازمةَ السكوت ، واطّراحَ الإيحاء والرُّموز ، توقّيًا من فُرقةٍ تتوجَّه ، وتفاديًا من تُهمة تَتسلّط. هذا إذا رَوَيْتَ « لا يقرفُ » بضم الفاء. ويروى « لا يَقْرِفِ » بكسر الفاء ، ويكون فى موضع الجزم جواباً للأمر الذى يدلُّ عليه قوله مُسَاكتةً ، لأنه فى هذا الوجه مصدرٌ فى معنى الأمر. والجملةُ فى موضع

(١) العراعر : بضم العين الأولى : السيد ، والجمع عراعر ، بالفتح.
(٢) ل : « المتعبد ».
(٣) هذا ما فى ل : وفى الأصل : « بعضنا » تحريف.

النَّصب على أن يكون مفعولاً ثانياً لقوله رأينا . والمساكتةُ لا تكون مواصَلَة تُجْعَل بدلاً منها . ويكون هذا مثل قول الآخر[١] :

* تحيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[٢] *

ويكون المعنى : رأينا أحسنَ المواصَلة بيننا تَواصِيَنا بأن ساكِتُوا الأحبَّةَ ومن يختلف بيننا وبينهم ، لا يقرفِ الشَّرَّ قارفُه . وفى الوجه الأوَّل يكون مساكَتَةً مفعولا ثانياً . والمعنى سُكوتاً من الجانبين ، أى كِفافاً لا يتولَّد منه قَرْفٌ ولا تُهمة ، ويكون قوله « لا يقرِفُ الشرَّ » تفسيراً المساكتة ، وبياناً لاختيارهم لها . ويروى « صوارِفُ » بالراء ، والمعنى قُلوبٌ تصرف الودَّ بما تأتيه وتستعمله عن القلوب الأُخَر .

٥٧٦

وقال آخر :

١ ــ فإن تَرْجِعِ الأيَّامُ بَيْنِى وبَيْنَها ... بذِى الأَثْلِ صَيْفاً مِثْلَ صيفى ومَرْبَعى

٢ ــ أَشُدَّ بأعناقِ النَّوَى بَعْدَ هٰذِهِ ... مَرائِرَ إنْ جاذبْتَهـا لَمْ تَقَطَّعِ

« رَجَعَ » هذا مُعَدًّى ، لأنه بمعنى رَدَّ . يقال : رجَعْتُه رَجْعًا فرَجَعَ رُجوعاً . و « صيفًا » انتصب على المفعول من قوله « ترجِعُ » . وكان الواجبُ أن يقول : صيْفاً ومَرْبَعًا مثل صيْفى ومَرْبَعى ، أو يقول : بذى الأثْلِ صيفى ومَرْبَعى ، أى أيَّامًا كأيَّامها ، فلمَّا لم يلتبس المرادُ قال : صيفاً مثل صيفى ومَرْبَعى .

---

(١) هو عمرو بن معديكرب . الخزانة (٣٤ : ٥٣) .

(٢) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

وقوله «أَشُدَّ بأعناق النَّوَى» أشد فى موضع الجزْم ، لأنه جواب الشرط . ولك أن تضمَّ الدالَ منه إتباعاً للضمَّةِ الضمةَ ، وأن تكسرها لالتقاء الساكنين وأن تفتحها ، لأنَّ الفتحة أخفُّ الحركات . والمعنى إن ردَّت الأيامُ الدائرة بينى وبينها ربيعًا مثل مربعى ، وصيفاً مثل مصيفى معها ، استظهرْتُ على النَّوَى بأن أوثِّق أواخيَّها ، وأُمِرَّ حبالَها التى أربطها بها ، حتى إن جاذبْتَها قاوَمَتْكَ فلم تتقطَّع . وهذا مثَل . والمراد أنِّى أُحكِمُ أسبابَ التألُّف والتجمُّع بما يؤمَنُ معه تعقُّبُ الآراء بالمزايلة والافتراق .

٥٧٧

وقال كُلثوم بن صَعْب(١) :

١ — دَعَا داعيَا بَيْنٍ فمَنْ كان باكيًا ... مَعِى مِن فراقِ الحىِّ فليأْتِنى غَـدَا

٢ — فليتَ غَدًا يومٌ سِواهُ وما بَقَى ... مِن الدَّهرِ ليلٌ يَحْبِسُ الناسَ سَرْمَدَا(٢)

٣ — لِتَبْكِ غَرَانيقُ الشَّبابِ فإنَّنى ... إخالُ غَدًا من فُرْقَةِ الحىِّ مَوْعِدَا

كان شَعْباهما متجاورَين فى النُّجْعَة ، فلما تقضَّى أيَّامُها وهمُّوا بالانصراف إلى المَزَالف(٣) وجوانب القرى ، دعا داعِى الفراق فى كل شَعب منهما ، وبَعَثُوا على التهيُّؤ ، لذلك ثنَّى فقال : داعِيَا بَيْنٍ » . وقوله « فمن كان باكيًا » يريد : فمن آلمهُ ما أَحسَّ به من النوى ، وأزعجَه ما عُزِم عليه من شَقِّ عصا

---

(١) قال المرزبانى فى معجمه ٣٥١ : « ذكره أبو تمام فى حماسته ولم ينسبه » . ثم أنشد هذه الأبيات بهذه الرواية . وضبط « بقى » بفتح القاف يشير إلى أنه طائى . ولأبى تمام ولوع بالاختيار للطائيين .

(٢) ضبطت « بقى » فى ل بفتح القاف وكسرها ، مقرونة بكلمة « معاً » ، إشارة إلى الروايتين .

(٣) المزالف : البلاد التى بين البر والريف .

الهوى ، وأراد إسعادى على البُكاء فليَحضُرنى غدًا ، فإنه اليومُ الموعود ، والمشهَد المشهود .

وقوله « فليتَ غدًا يومٌ سِواهُ وما بَقَى » ، يقول : يُودِّى أن يكونَ بَدَل يوم غدٍ يومٌ آخر غيره ، تفاديًا مما يَجرِى ويَحدُث ، وليتَ بدلَ اللَّيلة الحائلة بيننا وبين غدٍ ما بَقِيَ من الدهر كله ، فحبسَ الناسَ عن التزايُل والافتراق دائمًا . « وما بَقَى » لغةُ طيِّئٍ ، كأنهم فرُّوا من الكسرة وبعدها ياءٌ إلى الفتحة ، فانقلبت الياء ألفًا .

وقوله « لتَبْكِ غَرانيق الشباب » فالغرانيق جمع ، واحدها غُرانِق . وقال الخليل : يقال : شَبابٌ غُرانِق . وأنشد :

ألا إنَّ تَطْلابَ الصِّبا منكِ زَلَّةٌ وقد فاتَ رَيْعانُ الشبابِ الغُرانِقُ(١)

وقال أيضاً : الغُرنُوق : الشابُّ الأبيض الجميل ، والجمع غَرانيق . ومراد الشاعر : لتَبْكِ من استُصْلِحَ للصِّبا من الشُّبَّان وأرباب الهَوَى ، [فإنَّ غدا فيما أظنُّ أو أتيقَّن يومُ مواعَدة الحيِّ بالزِّيال](٣) . وانتصب سرمداً على الظروف . ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف ، كأنه قال : حَبْسًا سَرْمَدًا .

٥٧٨

وقال زياد بن حَمَل(٤) ، وقيل زياد بن منقذ :

١ — حَبَّذَا أَنْتِ يا صَنْعَاءُ مِنْ بَلَدٍ ولا شَعُوبُ هَوًى مِنِّى ولا نُقُمُ

(١) رواه الأزهرى : « ألا إن تطلابى لمثلك زلة » . اللسان (غرنق) .

(٢) ل : « لتبك كل مستصلح للصبا » ، وتبك بالتاء فيهما .

(٣) التكملة من ل .

(٤) التبريزى . « زياد بن حمل بن سعد بن عميرة بن حريث » ، وفى اللالئ ٧٠ : « أحد بنى العدوية ، وهم من بنى تميم » . وقد اضطرب الرواة فى نسبة هذه الأبيات وفى نسبة من تنسب إليه الأبيات أيضاً . انظر حواشى سمط اللالئ والأغانى (٩ : ١٥٤) وزهر الآداب (٤ : ١٩٥) ومعجم البلدان (أشى ، الأميلح ، صنعاء) .

٢ — ولَنْ أُحِبَّ بِلادًا قَدْ رأيتُ بها عَنْسًا ولا بَلَدًا حَلَّتْ به قُدُمُ

صنعاء : مدينةُ اليَمَن . وشَعوب ونُقُم : موضعان باليمن . وعَنْسٌ وقُدُم : حَيّان من اليمن . وقوله « لا حبَّذَا أنتِ » ذا أُشيرَ به إلى لفظة الشيء ، والتقدير : لا محبوبَ فى الأشياء أنتِ يا صنعاء من بين البلاد ، وكما أنتِ لستِ بمحبوب إلىّ ، فكذلك شَعوب ونُقُم ليسا بهوًى منِّى ، أى لا أهواهما ولا أَحِنُّ إليهما .

وقوله « ولن أُحِبَّ بلادًا » يريدُ : ولن أحبَّ أيضاً منازلَ هذين الحيَّيْن . كأنّه كرِه المواضعَ بأهلها فاجتواها وذمَّها . وقوله « بلادًا قد رأيتُ بها عَنْسًا » ضَمَّ إلى لفظةِ بلادٍ من الصِّفة ما يخصِّصها .

وقوله « حَبَّذا » حَبَّ فِعْلٌ ، والأصل فيه حَبُبَ ، وذا أُشيرَ به إلى الشَّىء ، ولذلك وقع المذكَّر والمؤنَّث على حالةٍ واحدة فقلتَ : حبَّذا زيدٌ ، وحبَّذا هندٌ ؛ لأنَّ لفظة الشىء يشمَل المذكَّرَ والمؤنَّث ، والواحدَ والجمع . فهو كـ « ما » ، وُضِع للجنس .

٣ — إذَا سَقَى اللهُ أَرضًا صَوْبَ غَادِيةٍ فلا سَقَاهُنَّ إلا النَّارَ تَضْطَرِمُ

لمَّا كان القصدُ فى الدُّعاء بالسُّقيا بقاء المدعوّ له على نضارته ، والزِّيادةَ فى طَرَاوته ، واستمرارَ الأيَّام به سالماً ، ممَّا يؤثِّر فى عُنفوان حُسْنه ، أو يغيِّر رونَقَ مائه ، جَعَل عند الدُّعاء على المذموم عنده السُّقْيا بالنّار ، لكون النَّار ضدًّا للماء ومميتاً لما يُحييه . فيقول : إذا أطالَ اللهُ تعالى جَدُّه تنعيمَ أرضٍ بما يُقيم من خِصْبها ، ويُديمُ من رَفاغَتِها ورفاهَتِها ، بتأتِّى الأمطارِ عليها ، وتبكير الغوادى نحوَها ، فلا سَقَى هذه الدِّيارَ إلاّ نارًا يهيِّجُ ضِرامُها ، ويؤجِّج لهبُها وسُعارُها ، لتُبيدَ خيرَها ، وتُفيتَ حُسْنَها وزَهْرَتَها . وقوله «تضطرم» فى موضع الحال للنَّار .

٤ — وحَبَّذَا حِينَ تُمْسِى الرِّيحُ بارِدَةً وادِى أُشَىٍّ وفِتْيَانٌ بِهِ هُضُمُ

٥ — الوَاسِعُونَ إذا ما جَرَّ غيرُهُمُ على العَشِيرةِ والكَافُونَ ما جَرَمُوا

٦ — والمُطْعِمُونَ إذا هَبَّتْ شَـآمِيَةً وبَاكَرَ الحىَّ مِنْ صُرَّادِها صِرَمُ

قوله « وحبَّذا حين تمسى الرِّيحُ باردةً » ، جعلَ ما نفَاه من الحبّ والحمد عمَّـا قدَّم ذكرَه من البُلدان ثابتاً لوادى أُشَىٍّ وأهلِه ، ونبَّه على أنَّهم فى أوان الجذبِ والقحْطِ يُشرِكون غيرَهم من العشيرة فى خيرهم ، ويستنفِدُون الأموالَ التى يُتنافَسُ فيها فيما يَجْلِبُ الحمدَ ، ويبِّب النَّشْر ، إذا هبَّت الريحُ باردةً ، واقشعرت البلاد هامدة ، حتَّى يصيرَ وُسْعُهُم مبذولاً لهم يتوسَّعون فيه إذا جرَّ غيرُهم الجرائرَ على عشيرته ، وذوِى لُحمته ، ثمَّ مَن اكتَسب جريمةً منهم تكفَّلوا باستنقاذِه منها ، وأفاءوا ظلَّ الحماية والصِّيانة عليه فيها .

وقوله « وَالمطعِمُون » حذف مفعولَهُ ، وإنَّما يصفُهم بأنَّهم يُقيمون القِرَى للأضياف إذا هبَّت الريح شَمالاً ، وغادَى الحىَّ السحائبُ الباردة طوائفَ وفرقا . وقوله « هُضُم » جمع هَضُوم ، وهو المِنفاق فى الشِّتاء . وقوله « هبَّتْ شآمِيَةً » انتصب على الحال . وقوله « الواسعون » مأخوذ من الوُسْع وهو الطَّاقة ، ويقال : لا يَسَعُك كذا ، أى لستَ منه فى سَعَةٍ . والصِّرَمُ ، أصله فى أقطاع الإبل ، فاستعاره .

٧ — وشَتْوَةٍ فَلُّوا أنيابَ لَزْبَتِهَا عَنْهُمْ إذا كَلَحَتْ أنيابُهَا الأُزُمُ

٨ — حَتَّى انجَلَى حَدُّها عَنْهُمْ وجارُهُمُ بنَجْوَةٍ من حِـذَارِ الشَّرِّ مُعْتَصِمُ

فلُّوا : كسروا . واللَّزْبَة : السَّنة المُجْدِبة ، وجعل الأنيابَ مَثلاً لشدائدها . والكُلُوح : بُدُوّ الأسنان عند العُبوس . والأُزُم : جمع أَزُوم ، وهى العَوَاضُّ ، وقوله « وجارُهُم بنجوةٍ » أى عِزٍ ومَنَعَةٍ . والنَّجوةُ : المرتفعة من الأرض لا يبلُغها السَّيل ، فضرَبه مثلاً للمَلاذِ الذى أووْا إليه فى فِنائهم حِذَارًا من الشّرّ ، فيقول : رُبَّ شَتْوَةٍ دفعوا أذاها ومعرَّتها عن العشيرة أشدَّ ما كانت ، بما قاموا به من

إصلاح أمورهم، وإزالة ضررِها عنهم، إلى أن انكشفَ حَدُّها عنهم، وجارهم معتَصِمٌ فيهم بأحمى مكانٍ، وأمنع عِزٍّ ومَلَاذ.

٩ ــ هُمُ البُحورُ عَطَاءً حِينَ تسألُهُم وفى اللِّقــاءِ إذا تَلْقَى بِهِمْ بُهَمُ

١٠ ــ وهُمْ إذَ الخَيْلُ جالُوا فى كَوَاثِبِها فَوَارِسُ الخيلِ لا مِيلٌ ولا قَزَمُ

انتصب «عطاء» على التمييز، ويجوز أن يكون مفعولاً له. وارتَفَع «بُهَم» بالابتداء، وخَبَرُه فى اللِّقاء، ومفعول تَلْقَى محذوف، كأنَّه قال: إذا تَلْقَى بهم الأعداء. والبُهَم: جمعُ بُهْمَةٍ، وهو الشُّجاع الذى لا يُدرَى كيف يُؤْتَى له، لاستبهام شأنِه وتناهى شجاعتِه. والمعنى: هم البُحُور إذا اجتدام المُجْتَدِى، لكثرة عطائهم، أى لا يَنفَد عطاؤُهم على كثرة الاجتداء، كما لا يَنفَد ماء البحر على كثرة الوُرَّاد، وهم بُهَمٌ فى اللِّقاء إذا لقيتَ بهم الأعداء، وإذا ركبَ الفُرسانُ الخيلَ وثَبَتُوا فى كواثبها ــ والكاثِبة: قُدَّامُ المَنْسِج منها ــ ففُرسانها لا لئامٌ ضعافٌ صغارُ الأجسام، ولا مائلون عن وجوه الأعداء. والمِيلُ: جمع أمْيَل، وهو الذى يُعْرِض عن وجه الكَتِيبة عند الطِّعان، وقيل: هو الذى لا يَثبُت على ظهر الدّابّة. ويقال: جالَ فى ظَهْرِ دابتِه، إذا ركبها. وارتفع مِيلٌ على أن يكون معطوفاً على فوارس الخيل. ويجوز أن يكون خبرَ مبتدإٍ محذوف، كأنّه قال: لاهُمْ مِيلٌ ولا قَزَمٌ. وقد مضى القول فى فوارسَ وشذوذِه[1].

١١ ــ لم أَلْقَ بَعْدَهُمُ حيًّا فأَخْبُرَهُمْ إلَّا يزيدُهم حُبًّــا إلَىَّ هُمُ

١٢ ــ كم فِيهِم مِنْ فَتًى حُلْوٍ شمائلُهُ جَمِّ الرَّمادِ إذا ما أَخْمَدَ البَرَمُ[1]

يقول: لم أخالِطْ بعد فراقى لهم حَيًّا من الأحياء نخبَرتُهم إلاَّ وازدادوا فى عينى ورَجَحوا، إذا قِسْتُهم بمَن سواهم فى قياسى ونظَرى، كمالَ آلةٍ وتناهِىَ رياسةٍ

(١) انظر ص ٣٩ ــ ٤٠.

وتوفُّراً على من ينتابُهم من مُتحرِّمٍ بذِمَّة[1]، أو مُدِلٍّ بقَرابة . وارتفع « هم » الأخير بيزيد ، وقد وضع الضَّميرَ المنفصلَ موضع المتّصل لأنَّه كان الوجهُ أن يقول : إلاَّ يزيدونَهُمْ حُبًّا إلىَّ . وهذا كما يُوضع الظَّاهر موضعَ المضمر والمضمر موضع الظاهر إذا أُمِنَ الالتباس . وانتصَبَ « فأخبرَهم » لأنَّه جواب النَّفى بالفاء ، والعامل أنْ مضمَرةً بين الفاء والفعل .

وقوله « كم فيهمُ من فَتًى حُلوٍ شمائلُهُ » فكم للتكثير ، وموضعه رفع بالابتداء وخبره من فتًى . ومعنى « جَمٌّ الرَّمادِ » أى كثير الأضياف ، لأنَّ الرماد إنَّما يكثُر بحَسَب اتِّساع ضِيافته ، وكثرة غاشيته . والبَرَم : الذى لا يدخُل مع القوم فى الميسر ، ومفعول أخمدَ محذوف ، والمراد ما أَخْمَدَ البَرَمُ النَّارَ لبُخله ولشدَّة الزمان ونَكَده . فجعل الفتى حلوَ الشَّمائل ، وهى الطبائع ؛ لأنَّ الضِّيافة إنما تَكرُمُ وتَشْرُفُ بحُسن خُلُق المُضيفِ وخِفَّته فى الخدمة ، وملاطفته لضيوفه ، وتحفِّيه وبِرِّه بهم .

١٣ — تُحِبُّ زَوجاتُ أقوامٍ حَلائلَهُ   إذا الأنوفُ امترَى مكنونَها الشَّبِمُ

وَصَفَ النساءَ منهم بحُسن التوفُّر على أشباههنّ ، وكمال التفقُّد بما يُهدين إليهنّ إذا قلّت الهدايا واشتدَّ الزَّمان ، وبلغ البردُ حَدًّا يستخرج مكنونَ الأنوف من الرُّعام[2] فيقول : زوجات الأبرام ومن يشبههم مِن ذوِى الحاجة ، أو المتنعين من المَيسر ، يُحْبِبْنَ أزواجَ هؤلاء الفتيان إذا أمحَلَ الزمانُ واشتدَّ القحط والجَدْب ، لحسن تعطفهنَّ عليهنَّ ، وصَرْفِ العناية وجميلِ التفقُّد إليهنَّ . وامترَى : استخرجَ . والشَّبِمُ : البرد . وأراد بالمكنون المُخاط . والحلائل : النِّساء المتزوجات

(١) فى النسختين : « بخدمه » ، وليس بشىء .

(٢) الرعام ، بالضم : المخاط . وفى النسختين : « الرعال » ، تحريف .

سُمِّين بذلك لأنَّها تُحَالُّ أزواجها ، أى تنزل معها ؛ والواحدة حليلة وفعيلة بمعنى مُفاعِلة ، كقَعِيدةٍ ، وجَلِيسة .

١٤ — تَرَى الأَرَامِلَ والهُلَّاكَ تَتْبَعُهُ ... يَسْتَنُّ مِنْــهُ عَلَيهِمْ وابِلٌ رَزِمُ

١٥ — كأنَّ أصحابَهُ بالقَفْرِ يَمْطُرُهُمْ ... مِنْ مُسْتَحِيرٍ غَزِيرٍ صَوْبُهُ دِيَمُ

الأرامل : جمع الأرمَلِ والأرْمَلة ، لأنَّه يقع الذَّكر والأنثى ، وهم الذين قد انقطع زادُهم وضاقت الأحوال بهم . والهُلَّاك ، هم الفقراء الذين أشْرَفُوا على الهلاك ، وإنما قال « تتبعه » لأنَّهم كانوا يتفيَّئُون بظلّه ، ويعيشون فى أفنيته من خَيْرِه . وقوله « يَسْتَنُّ منه عليهم وابلٌ » مَثَلٌ لما كان يَنْصَبُّ عليهم ويجرى ويدومُ ، من إحسانِه لَهم ، لأنَّ الحيا يُحْيِى الأرض ، كما أنَّ معروفَ هؤلاء كان يحييهم . والرَّذِم : السَّائل . ومعنى : يستنُّ ينصبُّ . سَنَنْتُ الماء وأسننْتُه بمعنًى . والوابل : المطر الضَّخم القطر .

وقوله « كأنَّ أصحابَه بالقَطرِ يَمطُرُهم » يريد أنَّهم فى دُورهم ومَحَالِّهم ذلكَ فِعلُهم مع عشيرتهم ، ومع زُوَّادِهم ومؤمِّليهم ، فإذا سافَرُوا ترى الصَّحابة فى المكان الخالى يمطُرهم من نوالهِ ما يجرى مَجرى الصَّوْبِ من سحابٍ متحيِّرٍ ممتلئٍ ماءً ، غزيرِ النَّوء ، دائمِ السَّيل . والدِّيَم : جمع دِيمة ، وهى المطر يدومُ بسكون ، والمُسْتَحِيرُ والمتحيِّر . بمعنًى واحد . وهذا التَّحيُّر إنَّما هو كناية عن الامتلاء . ويقال : استحار شبابُه .

١٦ — غَمْرُ النَّدَى لا يَبيتُ الحَقُّ يَثْمُدُهُ ... إلاَّ غَدَا وهو سَامِي الطَّرْفِ يَبْتَسِمُ

١٧ — إلى المَكارِمِ يَبْنِيهَا ويَعْمُرُها ... حتَّى يَنَالَ أُمورًا دُونَها قُحَمُ

الغَمر : الواسع العطاء . ومعنى يَثْمُدُهُ يكثر عليه حتَّى يُفنِيَ ما عنده . والماء المثمود : المزدحَم عليه حتَّى يَنْزُرَ نَزْفًا . وقوله « وهو سامى الطَّرْفِ » ،

أى لا يَكسبه امتدادُ العَطاء منه ، ودوامُ الإحسان ، غضاضةَ طَرْفٍ وانكسار نشاطٍ ، بل يُرَى بعَقِبه ضَحُوكا عالىَ النظر . وقوله : « لا يبيتُ الحقُّ يثمُده إلا غدًا » ، يشتملُ على معنى الشّرط والجزاء ، أى كلَّما باتَ الحقُّ يثمد ما عنده غدا سامِىَ الطَّرْف مبتسما .

وقوله « يَبْنيها ويعمرها » فى موضع الحال ، أى بانياً عامرًا . وقوله « إلى المكارم » اتَّصل « إلى » بقوله « إلاَّ غدًا » . والقُحَم : الشدائد ، واحدتها قُحْمَة ، والمعنى أنَّه بذَّالٌ سَخِىٌّ جمُّ المعروف ، لا يبيت تورُّدُ الحقوقِ نحوَه يستغرق ما لَه إلَّا ابتكَرَ وهو ضحّاكٌ عالِى النظر إلى ابتغاءِ المكارم ، جرياً على العادة وإلْفًا لها ، وهو يعمرُها ويصلُ جوانبها بأمثالها حتَّى يُصِيبَ أموراً تَحُولُ بينها وبين من يريدُ(١) نَيلَهَا والوصولَ إليها شدائدُ وتكاليف . وقُحَمُ الطَّريق : ما صَعُبَ منها ، وفى الحديث : « إنَّ للخصومة قُحَمًا » ، أى يتقحَّم على المهالك .

١٨ ــ تَشْقَى بهِ كُلُّ مِرْبَاعٍ مُوَدَّعةٍ ... عَرْفَاءَ يَشْتُو عليها تَامِكٌ سَنِمُ

١٩ ــ تَرَى الجِفانَ من الشِّيزَى مُكَلَّلَةً ... قُدَّامَهُ زَانَها التَّشْرِيفُ وَالْكَرَمُ

٢٠ ــ يَنُوبُها النَّاسُ أَفْوَاجاً إذا نَهِلوا ... عَلُّوا كما عَلَّ بعد النَّهلةِ النَّعَمُ

المِرْباع : النَّاقة التى من شأنها أن تضعَ ولدها فى الرَّبيع ، وهى المحمود من النِّتاج ، ولذلك قال :

* أفلَحَ من كان له رِبْعيُّونْ(٢) *

ومِرْباع : بناء المبالغة . والمودَّعَةُ : المكرَّمَةُ الموفَّرَةُ على التَّناسل لا تُعمل

(١) فى الأصل : « يريك » ، صوابه فى ل .

(٢) لأكثم بن صيفى ، أو سعد بن مالك بن ضبيعة ، اللسان (صيف) .

ولا تُحَمَّل. والعَرفاء: التى لِسِمَنها صار لها كالعُرْف . والتَّامك : السَّنام المشرِف . والسَّنِمُ : العالى ، ويقال : بعيرٌ سَنِمٌ ، أى مشرف السَّنام ، والمعنى : تَبقَى شَتْوَتَها سمينةً لا يغيِّرها الجَدْبُ والقَحْط ، وإنما قال « تشقَى به » ، وهو يريد الفتَى لأنَّ المراد لا يَنْحَرُ من الجُزُر إلاَّ ما يُتنافَسُ فيه مثلِ ناقةٍ هذه صفتُها .

وقوله « تَرَى الجِفان من الشِّيزَى مكَلَّلةً » ، يريد أنَّ الجفانَ المعدَّةَ للأضياف عليها كالأكاليل من فِدَرِ اللَّحم[1] ، وقد زَيَّنَها كَرَمٌ بارع ، وتشريف فاخر ، وهذا بما يَستعمِله من اللُّطف والتأنيس مع الأضياف ، ومن توفُّرِ خِدمة الخدم عليهم ، ولِكمال بهاء المجلس وكونه مشحوناً بما يَرُوقُ ويُعجِب .

وقوله « يَنُوبُها » أى ينتابُونَها طائفةً بعد طائفةٍ ، وفَوْجاً بعد فَوْجٍ ، فإذا تناوَلوا النَّهل رجَعوا فأعقبوه العَلَلَ ، كما يَفعل ذلك النَّعَمُ عند وروده الماء . وانتَصَب « أفواجا » على الحال . والنَّعَم يقع على الأزواج الثَّمانية ، والغالب عليها الإبل .

٢١ — زارَت رُوَيْقَةُ شُعْثاً بعدما هجَعُوا   لَدَى نَواحِلَ فى أرساغِها الخَدَمُ

٢٢ — وقمتُ للزَّوْرِ مُرْتاعاً وأرَّقَنِى   فقلتُ أهْيَ سَرَت أم عادَنى حُلُمُ[2]

٢٣ — وكان عَهدى بها والمَشْىُ يَبْهَظُها   مِن القَرِيبِ ومنها النَّوْمُ والسَّأَمُ

يصف الخيال فيقول : زارت خيالُ هذه المرأةِ قومًا غُبْرًا ، أنضاءً مُرْهًا[3] ، بعد ما ناموا عند إبلٍ ضوامرَ مهازيل ، شُدَّت فى أرساغها سُيورُ القِدِّ ، لشدَّة سيرها وتأثير الكَلال فيها ، فقمت من مَضجَعِى للطَّيفِ الزائر خائفاً ، وطار النومُ عنِّى ، وأخذنِى القَلَقُ ، ووساوِس النفس والزَّمَعُ ، فمَيَّلْتُ الفكرَ بين شيئين

(١) الفدر ، بالفاء : جمع فدرة ، بالكسر ، وهى القطعة المجتمعة من اللحم . وفى النسختين : « قدر اللحم » ، تحريف . (٢) التبريزى : « فأرقنى » .

(٣) جمع أمره ومرهاء ، وهو من فسدت عينه لترك الكحل .

أخدُها زيارتَها بنفسها ، والثانى حُلم نائمٍ اعتادَنى فأرانيها ، وصِرْتُ أُراجِعُ نفسي وأقول : كيف يجوز مجيئُها ، وكنتُ أُعهدها وقطعُ المسافةِ القريبة كانت تتكلَّفه بشِقِّ النَّفس ، وتحمُّل الثِّقل والكَدِّ . هـذا والغالب عليها المَلالُ مما يُتعِبُ وإن خَفَّ ، وطَلَبُ الراحةِ بالنوم ليسيرِ الخطبِ منها ببالٍ ولو قَلَّ . وانتَصَبَ « مرتاعاً » على الحال .

وقوله « أم عادَنى حُلُمُ » أم هذه هى المعادِلة ، والمعنى أىُّ هٰذين الأمرين كان . وقوله « أهْىَ سَرَتْ » أسكن الهاء من هى مع ألف الاستفهام ، لأنَّهُ أجراها مَجرى واوِ العطف وفائه ، فكما يسكُن معها لأنها لا تقوم بنفسها ولا تستقلُّ كذلك أسْكِن مع الألف . ومعنى يَبْهَظُها : يَثْقُلُ عليها ويشقّ .

وقوله : والمشي يَبْهَظُها » خبر كان فيه . وقوله : « وكان عهدى بها » الواو واو الحال من قوله أهْىَ سَرَتْ .

٢٤ – وبالتَّكاليفِ تأْتِى بَيْتَ جارتِها تَمْشِى الهُوَيْنَا وما تَبدُو لَهَا قَدَمُ

٢٥ – سُودٌ ذوائِبُها بِيضٌ ترائِبُها دُرْمٌ مَرَافِقُها فى خَلْقِها عَمَمُ

يقول : ومِمَّا عهِدتُها عليه أنَّها كانت تأتى بيتَ جارتها قضاءً لذِمامٍ ، أو أداءً لواجبِ حَقٍّ ، بعد الجَهْد والشدّة ، ومداوَرة النَّفْس على أدنَى الكُلْفة والمشقّة ، ومِشْيَتُها الهُوَيْنَا ، أى على رِفْقٍ لا استعجالَ فيها ولا تهافتَ ، ولا تَقاذف فى أعضائها ولا تتابُع ، ولذَيلها على الأرض سحبٌ وجرٌّ ، فقدَمُها لا تبدو ، ووقارُها المتسبِّب من كِبرها وعُجْبها لا يهْفو . والهُوَيْنا : تصغير الهُونَى والهُونَى : تأنيث الأهوَن ، وموضعها من الإعراب نصبٌ على المصدر . وقوله « تمشى الهُوَيْنا » فى ضمنه ما يُوصَفُ به مثلُها من التُّرْفة وفَرْط الحياء ، كما قال :

كأنَّ لها فى الأرضِ نِسْياً تَقُصُّه على أمِّها وإن تُكَلِّمْك تَبْلَتِ[1]

(١) البيت للشنفرى الأزدى فى المفضليات ١٠٩ .

وقوله « سُودٌ ذوائبها » يصفُها بأنّها فى عنفوان شبابها ، ففرْعُها أسود ، وصدرُها بما حواليه أبيض ، ومرافقُها لا حجمَ لها لكثرة لحمِها ، وخَلقها تامٌّ لاستكمالها .

٢٦ — رُوَيْقَ إنّى وما حَجَّ الحَجيجُ له وما أهَلَّ بجَنْبَىْ نَخْلَةَ الحُرُمُ

قوله « وما حَجَّ الحجيج له » يجوز أن يكون ما بمعنى الذى ، كأنه أقسمَ بالبيت الذى حجَّ إليه الحجّاج ، وبإهلال الحُرُم ، وهو رَفعُ الصوت بالتلبية ، بجَنْبَىْ نخلة ، وهو مكانٌ بقُرب مدينة الرسول عليه السلام يقال له بَطْنُ نَخْلَةَ . ويجوز أن يكون ما موضوعاً موضع مِن ، على ما حكى أبو زيد من قولهم : « سبحان ما سَبَّح الرعد بحمده » ، ويكون الله تعالى المُقْسَمَ به .

وقوله « ما أهَلَّ » يراد به وما أهلَّ له ، فحذف له لتقدم ذِكره وطُول الكلام به . ويجوز أن يكون « ما حجَّ » فى موضع المصدر ، كأنه أقسمَ بحَجّهم وإهلالهم ، ويكون الضمير من له يعود إلى الله تعالى وإن لم يَجْرِ ذِكره ، لأن المراد مفهوم ، أى حَجُّوا له إقامةً لطاعته ، وابتغاء لمرضاته . وجواب القَسم فى قوله « لم ينسنى » . ويقال : أحْرم الرجلُ بالحجّ فهو مُحْرِمٌ ، وقومٌ حرام وحُرُمٌ ومُحْرِمون .

٢٧ — لم يُنسِنِى ذِكْرَكُم مُذْلَم أُلاقِكُمُ عَيْشٌ سَلَوْتُ به عنكم ولا قِدَمُ

٢٨ — ولم تُشارِكْكِ عِنْدِى بَعْدُ غانيةٌ لا والذى أصبحَتْ عِندى له نِعَمُ(١)

حلَفَ بما حلف أنه لم يَشغله عن ذِكرهم منذُ حصل الفِرَاق بينهم ، لا عيشٌ استطابَه لمساعَدة الزمان له بما سَرَّه فتسلَّى عنهم ، ولا بِلَى ما كان يستجدُّه كلَّ وقتٍ من الوجدِ بهم وتَذكار عهودهم تقادُمُ أيّامٍ فتناساهم ، ولا شاركها فى

(١) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « ولم يشاركك » .

مُستوطَن هواها ومقرٌّ حبِّه لها امرأةٌ غانية ، فتضايق عنها حِماها . ثم ثَنَّى اليمينَ توكيداً فقال : لا والله الذى أصبحَتْ له عنـدى نِعَمٌ مقابلتُها بالشكر واجبةٌ للأمرِ كما قلت ، فحذف لأن المراد مفهوم .

وقوله « لم يُنسنى ذِكرُكم » يُجاب اليمين من حروف النَّفى بما ، ولكنه اضطُرَّ فوضع لم يُنسِى موضع ما أنسانى . ولا يمتنع أن ينفرِد القَسَم الأوّل به جواباً ، ويكون جواب القَسَم الثانى : ولم تشاركك(١) عنـدى ، لأنه خبرٌ ثانٍ ، فقدَّم المُقسَم له على المُقسم به ، كما تقول : ما فعلته والله .

٢٩— مَتَى أَمُرُّ على الشَّقْراءِ مُعتَسِفاً   خَـلَّ النَّقا بمَرُوحٍ لَحْمُها زِيَمٌ
٣٠— والوشْمَ قدخَرجَتْ منهاوقابَلَها   من الثَّنايا التى لم أَقْلِها ثَرَمُ(٢)

قوله « متى أمُرُّ » استبعاد واستعجال بما يتمنّاه من العَوْدِ إلى هذه الأماكن التى ذكرها . ورواه بعضهم « حتى أمُرَّ » ، ويتعلق حتى بقوله « لا والذى أصبحتْ عندى له نِعَم » أى حصَلت له نِعَمٌ عندى كى أمُرَّ ، لأنَّ لحَتَّى موضعين ، والفعل بعدها منصوب : أحدهما أن يكون بمعنى لأنْ وكىْ ، والثانى أن يكون بمعنى إلى أن ، تقول : جئتُك حتى تُكرِمَنى ، والمعنى لأن تُكرمَنى وكى تكرمنى . وتقول : انتظرْ حتى تخرج ، والمعنى إلى أن تخرج . والشَّقراء قال الأصمعى : يعنى فرسَـهُ ، وعلى هذا يكون الشقراء والمَرُوح فرساً واحداً . والباء من « بمَرُوح » يتعلق بقوله معتسِفاً ، وعلى الشقراء بأمُرُّ ، ويكون فى موضع الحال ، أى راكباً الشقراء . وانتصب معتسِفاً على الحال . والاعتساف : الأخذ

(١) فى نسخة الأصل : « ولم يشاركك » .

(٢) التبريزى : « خرجت منه » . والوشم ضبطت فى نسخة الأصل بفتح الميم وكسرها مصحوبة بكلمة « معاً » .

على غيرِ هدايةٍ ولا دِراية . ويقال : فلان يتعسّف الناس ، أي يأخُذهم بغير الحقّ . والخَلّ : الطَّريق فى الرَّمل . والنَّقا : الرمل . والمَرُوح : النَّشيط . ومعنى زِيَمٌ : متفرّق . ووَشْم وبَرَمٌ : موضعان . والثَّنايا : العِقاب . ويروى : « من العِقاب التى لم أقْلِها ثُرَمُ » ، وهى جمع ثُرْمَةٍ ، وهى صدعٌ يكون فى الثَّنيَّــة . ومنه قولهم : فلانٌ أثْرَمُ ، إذا سقط بعضُ ثناياه فصارت بينهما فُرْجَــةٌ . ولم أقْلِها : لم أبغضْها . وقد قيل فى الشقراء : إنه موضع أو هضبة . وانعطَف « الوَشْمِ » عليه ، وبمَرُوحٍ حينئذ يتعلق الباء منه بحتَّى أمُرّ . وعلى الوجه الأوّل تنصب الوَشْمَ وتَعطِف على خَلّ النَّقا .

٣١— يالَيتَ شِعْرِىَ عن جَنْبَىْ مُكَشَّحَةٍ وحيثُ يُبْنَى من الْحِنَّاءةِ الأُطُمُ(١)

٣٢— عَن الأَشاءةِ هل زالَتْ مَخارِمُها وهَلْ تَغَيَّرَ مِنْ آرامِها إرَمُ

٣٣— وجَنَّةٍ ما يَذُمُّ الدَّهرَ حاضِرُها جَبَّارُها بالنَّدَى والحَمْــلِ مُحتَزِمُ

قوله « يا ليت شعرى » يا حرف النداء ، والمنادى محذوف . وهذا الكلام تحسُّر فى إثرِ ما فاته من أمرِ الأرَضِينَ المذكورة . وشِعرى اسم ليت ، وخبره محذوف لا يظهر البتّة ، ومفعولا شعرى قوله « هل زالت مخارمها » .

وقوله « عن جنْبَىْ مكَشَّحةٍ » بيان ما تمنَّى عِلمَــه ، وفى أىِّ جانبٍ هو . ويُروى : « عن جِزْعَىْ مكشَّحةٍ وحَوْثُ » . والجِزْع : جانب الوادى . ومكشَّحة : أرض . وحَوْثُ لغة فى حيث ، لأن فيــه أربع لغات : حَيْثُ ، وحَيْثَ ، وحَوْثُ ، وحَوْثَ . فالضمُّ تشبيها له بالغايات قبلُ وبَعد ، والفتحة لخفَّته . والحِنَّاءة : أرض . والأُطُم : الحِصْن وكلُّ بناء مرتفع ، والجمع آطام .

وقوله « عن الأشاءة » ، فإن كان الأشاءةُ موضعاً وبعضَ ما يقع عليــه

(١) التبريزى : « تبنى » .

مكشّحةٌ فإنه بدلٌ مِن عن جنْبَىْ مكشّحة ، وقد أُعيد حرفُ الجرّ معه . وإن كان النَّخلةَ فإنه يجوز أن يريد بَقْعَتَها ، فحذفَ المضافَ وأقام المضاف إليه مقامَه . ولا يمتنع أن يكون أراد : وعن الأشاءة ، فحذَف العاطف كما تقول : رأيت زيداً ، عَمْرًا ، خالداً . وأنشدنا أبو علىّ الفارسىّ :

كيف أصبحتَ كيف أمسيتَ ممّا يزرعُ الحُبَّ فى فؤادِ الـكريمِ[1]

فيقول : ليت علمى كان واقعاً بأحوال هذه المواضع ، وهل هى باقيةٌ على ما عهِدتها من قبل ، أو هل تغيّرَتْ أعلامُها وزالت مَخارِمُها . وإنما يدُلُّ على حَنينه إليها ، وتأسُّفه على البُعد عنها .

وقوله « وجَنَّةٍ » يريد وعن جنّةٍ حاضِرُها يَرضَى عن الدَّهر ويَحمَدُه ، فلا يتسخَّط أيَّامَه ، ولا يذمُّ عوارضَه . والجَبّار من النَّخْل : ما فاتَ اليدَ طُولا .

وقوله « بالنَّدَى والحْمل محتزِم » تنبيهٌ على الخِصب فيها ، وعلى غَضارةِ عيشِ سكَّانها . والاحتزام كالالتفاف[2] ، ويُروى « جَبّارُها بالندى والخَيْر » .

٣٤ــ فيها عَقائلُ أمثالُ الدُّمَى خُرُدٌ لم يَغْذُهُنَّ شَـقا عَيشٍ ولا يُتُمُ[3]

٣٥ــ ينتابُهُنَّ كِرامٌ ما يذُمُّهُمُ جارٌ غريبٌ ولا يُؤذَى لهم حَشَمُ

٣٦ــ مُخَدَّمونَ ثِقالٌ فى مَجالِسِهم وفى الرِّحالِ إذا صاحَبْتَهم خَدَمُ[4]

قوله « فيها » أى فى الجنَّة . عقائل ، أى نساءٌ كريمات ، كأنّهنَّ الصُّوَر المنقوشة حُسْناً ، منعَّماتٌ لم تمسّهن فاقةٌ وفقر ، ولا جُهِدْنَ بأيّامٍ أَدبرَتْ عنهنّ ،

---

(١) فى باب العطف من شرح الأشمونى للألفية : « مما يغرس الود » .

(٢) فى النسختين : « كالالتفات » ، تحريف . وعند التبريزى : « والاحتزام : الالتفاف » .

(٣) ضبطت فى التبريزى « يتم » بالتحريك ، وهى لغات ، يقال يتم بضم الياء وفتحها وبالتحريك . القاموس ، واللسان . وتحريك التاء بالضم هنا للشعر .

(٤) يقتضى شرح التبريزى أن يضبط « خدم » بضمتين . إذ قال : « خدم ، وهو جمع خدوم ، ليقابل مخدمون فى المعنى ، لأن كل واحد منهما يدل على المبالغة » .

ولا شَقِين بمناكَدة عيشهنّ ، ولا أُصِبْنَ بموتِ كافِلِهنّ أو قيِّمهنّ ، عفيفات ، حييّات ، لا يَعرِفن منكَر الأخلاق ، ولا ما يَشِينُ من الأفعال ، فهنّ ربائب النِّعَم ، وغرائر الزّمن ، ومُدَلَّلاتُ العشائر والسَّكَن[1] .

وقوله : « ينتابهنّ كِرَامٌ » مَدَح الرِّجال عَطْفاً على مدحهنّ فقال : يدبّر هؤلاء النِّسوةَ رجالٌ كرامٌ أعِزّاء ، يحمَدُهم الجار الغريب ، لوفائهم له بالعَقْد ، وحُسْن تعطُّفِهم عليه عند البلاء والجَهْد ، ويَرْضَى عنهم الخليط النَّسيب لجمال عِشرتهم ، وكَرَم أخلاقهم ، لا كِبْر فيهم ، ولا ترفُّعَ معهم ، ثمّ ترى حَشَمَهم يسالُهم[2] الدّانى والقاصى ، لعِزّهم وحَمِيَّتهم ونُصرتهم ، وذَهاب صِيتهم ، وهم فى مجالسهم فى الحضَر رِزَانٌ سادةٌ يخدُمهم مَن يغشاهم ، وفى السَّفر خِفاف لِطاف يُكرمون الصّحابة والمُرافقة ، ويخدُمون الغاشيةَ والمجاورة ، ويتحمّلون فى أحوالهم المُؤَن المجحِفة ، وفى أموالهم النُّوَب المثْقِلة . والحَشَم : خَدَم الرّجل ومن يَحْشِمُ له ، أى يَغضَب عند النّازلة ، ويدافع دونه لطُروق الكائنة . وقوله « ينتابُهنّ » ، يُروى : « يأتابُهُنّ » يفتعِل من الإياب .

٣٧ـ بل لَيْتَ شِعْرِى مَتَى أغْدُو تُعارِضُنِى جَرْداءُ سابِحَةٌ أو سَابِحٌ قُدُمُ

٣٨ـ نَحْوَ الأُمَيلِحِ مِنْ سَمْنَانَ مُبْتَكِرًا بفِتْيَةٍ فِيهمُ المَرّارُ والحَكَمُ[3]

٣٩ـ لَيستَ عَليهمْ إذا يَغْدُونَ أرْدِيَةٌ إلاّ جِيَادُ قِسِىِّ النَّبْعِ واللُّجُمُ

بل : حرفٌ يدخُل للإضراب عن الأوّل والإثباتِ للثّانى ، كأنّه لمّا صَرَف الكلام عما كان فيه وشَغَله بغيره أتى بِبَلْ ، إيذاناً بذلك . فيقول : ليت عِلْمِى واقعٌ بما يقتضى هذا السُّؤالُ ، وهو متى ابتكر من سَمْنَان نحو الأُمَيْلِح — وها

(١) السكن : كل ما سكنت إليه واطمأنت من أهل وغيره .

(٢) فى الأصل : « يسائلهم » ، صوابه فى ل .

(٣) التبريزى وياقوت فى معجم البلدان : « أو سمنان » .

موضعان — وتُعارضني في السير حِجْرٌ قصيرة الشَّعر، تَسبَح في عَدْوها، أو ذَكَرٌ سابِقٌ يسبِق أصحابَه[1] ويتقدَّمُها من حيث جَرَى، ومعى فِتْيانٌ فيهم هذان المذكوران، ثمَّ وصَفَ الفِتيانَ بأنّهم لا يُهِمُّهم إلاَّ الفُروسيَّةُ وركوبُ الخيل، وإعدادُ آلاتِ الحرب، والصَّيدِ والطَّرد. وقوله « إلاّ جِيَادُ » رَفَعَهُ والوجه الجيد النَّصب، لأنَّه منقطِعٌ ممَّا قبله، لكنَّ بنى تميمٍ يرفعون مثلَ هذا على البدل. وهذا يُشبِه بَدلَ الغلَط، لهذا ضَعُف في الإعراب.

والبيت يشبه قولَ لبيد:

* فُرُطٌ وِشَاحِي إذْ غدَوتُ لِجَامُها[2] *

وانتصب « مبتَكِرًا » على الحال. وقِسِيٌّ مقلوب، وأصله قُوُوسٌ، ويروَى: قِياسِ النَّبع[3] ». والمرّار قيل هو أخوه[4]. والحكَم: ابنُ عمِّه، كذا ذكره الأصمعىّ.

٤٠ – مِن غَيرِ عُدْمٍ ولكِنْ مِنْ تَبَذُّلِهِمْ ... للصَّيْدِ حِينَ يُصِيحُ القانِصُ اللَّحِمُ
٤١ – فَيَفْزَعونَ إلى جُرْدٍ مُسَحَّجَةٍ ... أفْنَى دَوَابِرَهُنَّ الرَّكْضُ والأَكَمُ[5]

قوله « من غير عُدْمٍ ولكن »، تعلَّق مِن بقوله « ليست عليهم إذا يغدون أرديَةٌ ». والمعنى أنّ إخلالهم بلُبس الأردية واستسرائها والتأنّق فيها، لا لفقرٍ وفاقةٍ، لكن لوَلوعهم بالصَّيد، وتبذُّلهم له في الوقت الذى يستمع الصَّائد القَرِمُ

(١) في الأصل: « صاحبه »، والصواب من ل.

(٢) صدره: * ولقد حميت الحى تحمل شكتى *

(٣) والقياس: أحد جموع القوس، ويقال قوس وقسى وقسى – بضم القاف وكسرها وأقواس، وقياس.

(٤) المرار العدوى شاعر إسلامى مشهور، كان معاصرا لجرير، وقد هاج الهجاء بينهما. وهو المرار بن منقذ بن عبد بن عمرو بن صدى بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم الحنظلى العدوى. انظر المفضليات ٧٢.

(٥) التبريزى: « إلى جرد مسومة ».

إلى اللَّحْم إلى أصحابه ، فى اختيار مواضع الصَّيد ، وافتقارِه لقلَّته . ويُروى : « حين يُنادِى السَّائفُ اللَّحِمُ » . قال الأصمعىّ : يريد يرتَدُون بِقِسيِّهم ولُجُم خيلِهم إذا ابتكروا ، لا همَّ لهم غيرُه . والسَّائف : الذى يَحُوش الصَّيدَ على أصحابه[1] ، أى ينادى أصحابَه باعِثاً على الأَخْذ ، ومحذِّرًا من الفَوْتِ .

وقوله « فيَفزعون إلى جُرْدٍ مسحَّجة » أى يلتجئون إلى خيل قصيرة الشعر ، نشيطةٍ ، قد سحَجَ بعضُها بعضاً بالعضّ والاستنان . ويجوز أن يريدَ أنَّ العملَ والكدَّ سحجَها ، ألا تَرى أنَّه قال : أفنى مآخيرَ حوافرِهنّ ركضُ الفُرسانِ لها ، واستحثاثُهم إيَّاها ، وتأثيرُ الإكام فى حوافِرِها ، لأن جَرْيَها كان عليها . ويقال : أَكَمَةٌ وأَكَمٌ ، وإكامٌ وأُكُمٌ .

٤٢– يَضْرَحْنَ صُمَّ الصَّفَا فى كلِّ هاجِرَةٍ ... كَمَا تَطَايَحَ عن مِرْضَاحِهِ العَجَمُ[2]

٤٣– يَغْدُو أمامَهُمُ فى كُلِّ مَرْبأَةٍ ... طَلَّاعُ أَنْجِدَةٍ فى كَشْحِهِ هَضَمُ[3]

أصْل الضَّرْح الرَّمْى . وإنَّما وَصَفَ الخيلَ بصلابة الحوافر ، وأنَّها تكسر ما تَطَؤُه من صِلاب الصَّفَا إذا سارتْ فى الهاجرة . ثمَّ شبَّهَ مايتطاير من حوافرها من الحصَى بما يتطاير من النَّوَى عن مِرضاحِه . والمِرضاحُ : الحجر الذى يُكسَر عليه النَّوَى أو به . ومعنى تَطَايَحَ : تطايَرَ .

وقوله « يَغدو أمامهم » يعنى فى التصيُّد . والمَرْبأَةُ : المَحْرَسَةُ . وقوله « طَلَّاعُ أَنْجِدَةٍ » جمع نَجْدٍ كفَرْخٍ وأفْرِخَةٍ ، ولا يمتنع أن يكون أنجدةٌ جمعَ نَجَاد ، ونِجَاد جمع نَجْدٍ ، فيكون أنجِدةٌ جمع الجمع . ويقال : طَلَع الجبَل ، إذا عَلَاهُ . والهَضَم : انضمام الضُّلوع . يصفُ خفَّتَه وشهامته ، وابتذالَه نفسَه فى الصَّيد والفروسيَّة .

(١) لم نجد هذا اللفظ بهذا المعنى فى المعاجم المتداولة .

(٢) التبريزى : « يرضخن » ، و « مرضاخه » .

(٣) ينذو ، بالغين المعجمة ، كما فى النسختين والتبريزى .

٥٧٩

وقال عَمْرو بن ضُبَيْعَةَ الرَّقَاشِيّ(١) :

١— تَضِيقُ جُفُونُ العَيْنِ عن عَبَرَاتِها فَتَسْفَحُها بعد التَّجَلُّدِ والصَّبْرِ

٢— وغُصَّةِ صَدْرٍ أظْهَرَتْها فَرَفَّهَتْ حَزَازَةَ حَرٍّ فى الجَوَانِحِ والصَّدْرِ

العَبْرَةُ : الدَّمعة ، وقد استعبر ، أى جرى عَبْرَتُه ، ويقال : لأُمِّه العُبْر . وأراه عُبْر عَيْنِه ، أى سُخْنَةَ عَيْنِهِ وما أبكاه . فيقول : تمتلئُ العين دَمْعاً حتَّى تتضايقُ جفونُها عن احتباسه ، فتصُبُّها بعد تَجَلُّدٍ منها فى الإخفاء ، وتَصَبُّرٍ على مدافعة البكاء .

وقوله « وغُصَّةِ صَدرٍ » يريدُ غُمَّةً اغتَصَّ بها الصَّدر فأظهرَتْها ، بعد أن كانت لا تَسُوغ بتنفُّس الصُّعَداء ، فسكَّنت تقطيع لَوْعَةٍ تمكَّنَتْ بين الجوانح والصَّدر . والحَزَازةُ : وَجَعٌ فى القلب مِن أذى يُصِيبُه . والجوانح : الأضلاع القصيرة ، الواحدة جانحةٌ . وقوله : « رَفَّهَتْ » : وسَّعَتْ ؛ وعَيْشٌ رَافِهٌ .

٣— ألاَ لِيَقُلْ مَنْ شاء مَا شاء إنَّما يُلاَمُ الفَتَى فيما استَطاعَ من الأمْرِ

٤— قَضَى اللهُ حُبَّ المالِكيَّةِ فاصطَبِرْ عَلَيْهِ فقَدْ تَجْرِى الأمورُ على قَدْرِ

ألاَ : افتتاحُ كلام . واللام من « ليقل » لام الغائب ، وقد يدخل فى فعل الحاضر ، على ذلك ما رُوِىَ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنّه قرأ : ﴿ فبِذَلك فَلْيَفرَحُوا(٢) ﴾ . وقوله «ماشاء» أراد ماشاء أن يقوله، فحذفَ المفعول ، وكذلك قوله « من شاء » محذوفُ المفعول ، أى من شاء القول ؛ فإنَّ الملامَ يستحقه الفتى

---

(١) ذكره المرزبانى فى معجمه ٢٢٥ — ٢٢٦ وساق له هذه الأبيات .

(٢) هى قراءة أبى وابن القعقاع وابن عامر والحسن . تفسير أبى حيان (٥ : ١٧٢) وجمهور القراء بالتاء على الخطاب .

فيما يُطِيقه ويَدخُل تحت مقدوره ثمّ لا يفعلُه ، فأمّا ما لا يطيقه فقد سقط اللّومُ فيه عنه .

وقوله « قضَى اللهُ حُبَّ المالـكيّة » ، يريد حَتَمَه اللهُ عليك وأوجبه ، فتكلفِ الصَّبرَ فيه ، فقد تَجرِى الأمورُ على قَدْرٍ ، أى على تقديرٍ ، تَضِيق السُّبلُ عن الانفكاك منه ، فلا حيلةَ فيه إلاّ التزامُها . وهذا تسليةٌ منه لنفسه وبَعْثٌ لها على الرِّضا بمـا قُسِم له ، وقُضِيَ عليه .

٥٨٠

وقالت وَجِيهَةُ بنت أَوْسٍ الضَّبِّيَّة :

١ — وعاذِلةٍ تَغْـدُو علىَّ تَلُومُنِي على الشَّوْقِ لم تَمْحُ الصَّبابةَ مِن قَلْبِي [(١)]

٢ — فما لِيَ إنْ أَحْبَبْتُ أرضَ عَشِيرتى وأَبغَضْتُ طَرْفاءَ القُصَيْبَةِ مِن ذَنْبِ [(٢)]

تقول : رُبَّ لائمةٍ هَمُّها مقصورٌ على لومى وعَتْبِى ، فيما أهواه وأميلُ إليه ، وأُعِد نفسي به فتتشوَّقه [(٣)] ، فلا يؤدِّى عَتْبُها إلى طائلٍ لها ، لأنّ تَنَصُّحَها مردود ، ووعظَها مدفوع ؛ ولا إلى طائل لى ، إذ كان لا تَزداد الصَّبابةُ فى قلبى إلا تمـكُّناً وثباتاً ، ولا الاشتياق اللازم لى إلاّ ازدياداً ودواماً ؛ وأنا إذا أَحببتُ أرضَ عشيرتى ورهطى ، ووطنَ أحِبّتى وأهلى ، ومَسْقَط رأسى ، وحيثُ حلَّ الشَّبابُ تميمتى ، وأبغضْتُ القُصيبة مَنبِتَ الطَّرْفاء ، أرضاً لم أَقْضِ مأرُبَةً فيها ، ولا أوجَبْتُ مذَمَّةً لها ، فلا ذنبَ لى ألامُ فيه ، ولا جريرةَ مكتَسَبَةً فأُعْتَبَ عليها . وقوله « من ذَنْبِ » فى موضع الرَّفع ، لأنّه اسمُ مالى ، وجواب الجزاء من قوله

---

(١) أنشد ياقوت هذه الأبيات فى (القصيبة) ، والبيت الأول برواية : وعاذلة هبت بليل تلومنى » .

(٢) القصيبة : موضع بين المدينة وخيبر .

(٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « فتتشوفه » . يقال : تشوف إلى الشيء ، أى تطلع ، وتشوق إلى الشيء : اشتاق .

« إن أحببْتُ أرضَ عشيرتى » فى قوله « مالى من ذنب » ، وجواب رُبَّ فى قوله « لم تَمْحُ الصبابةَ » .

٣ — فَلَوْ أنَّ رِيحاً أبْلَغَتْ وَحْىَ مُرْسِلٍ حَفِىٍّ ، لَنَاجَيْتُ الجَنُوبَ على النَّقْبِ

٤ — فَقُلْتُ لَهَا أدِّى إليهمْ تَحِيَّتِى ولا تَخْلِطِيها ، طَالَ سَعْدُكِ ، بالتُّرْبِ

٥ — فإنِّى إذَا هَبَّتْ شَمالاً سَألْتُهَا هَلِ ازْدادَ صَدَّاحُ النُّمَيرَةِ مِنْ قُرْبِ

الوَحْى : مصدر وَحَيْتُ لك بخير، أى أجبرت ؛ ويستعمل أوْحَى ووَحَى فى معنى البَعث والإلهام . والإيحاء : الإيماء والإشارة . فيقول : لو أنّ ريحاً أدّت خَبَرَ مُرْسِلٍ ، أو بَعْثَ مُلحٍّ مُنْفِذ لسارَرْتُ ريحَ الجَنوب على الطَّريق — والحَفِىُّ يكون المُلحَّ ، ويكون اللَّطيفَ ، ومصدره الحِفَاية. والنَّقْب: الطَّريق فى الجَبَل — ولَقُلْتُ : يا ريحُ بلِّغيهم تحيَّتى ، وصُونيها عن الإذالة ، وخالطِها بالتراب ، أطالَ الله سعادتك . وقوله «طال سَعدُكِ» دعاء لها ، وهو من الاعتراضات المستحسَنة ، ومثله قولُ الآخر :

فَمَا مَكُثْنَا دامَ الجميلُ عليكما بِثَهْلانَ إلاَّ أن تُزَمَّ الأباعِرُ(١)

وقول الآخر(٢) :

إنَّ الثَّمانينَ وبُلغتَهـــا قد أحوجَتْ سَمْعِى إلى تَرْجُمَانْ

وقوله : فإنِّى إذا هَبَّتِ الرِّيح شَمَالاً ، انتصابه على الحال . وسَاغَ ذلك فيه لكونه صفةً لا اسماً . وعلى هذا الجَنُوب والقَبُول والدَّبور ، يجوز فى جميعها أنْ تقع أحوالاً لكونها صفاتٍ . وكأنَّ الجَنُوب كانت تَهُبُّ من نحو أرضه مستقبِلةً الديار أحبَّته ، فلذلك جعلها رسولَه . وكانت الشّمالُ تهبُّ من ناحيةِ أرض حبيبه

(١) ل : « فما مكثها » . وعلماء البديع يروونه : « دام الجمال عليكما » ويجعلون فى البيت جناسا معنوياً بين الجمال بفتح الجيم وبين « الأباعر » لأن الأباعر جمال بكسر الجيم . فعدل قائل البيت ، وهو امرأة من بنى عقيل ، عن الجناس اللفظى إلى الجناس المعنوى .

(٢) هو عوف بن محلم الخزاعى . من قصيدة فى أمالى القالى (١ : ٥٠ — ٥١) .

مستقبلةً بلادَه ، فلذلك زعمَ أنَّه يسائلها عما استعجَمَ عليه من أخبارهم .

وقال ابن الأعرابىّ : مَهَبُّ الجَنوب يمَانٍ من قِبَل اليمن ، وقلَّما تَسْرِى باللَّيل ، وهى مباركةٌ . والشَمَالُ شآمِيَةٌ ، فهى أكثر الرِّياح هبوبا ، وهى صاحبة الشِّتاء .

و «صَدَّاحُ النُّمَيْرَة» الصَّدْح : الصَّوت[١] ، يقال : صَدَح الدِّيك والغُرابُ ، إذا صَوتا . ويَعنِى جلَبَةَ الصَّوتِ ونِداء داعِيهم . والمُنادِى بالرَّحيل فيهم كأنَّه ينتظرُهم لحضورِ وقت انتجاعهم ونَهضَاتهم ، وكان يتعرَّف ذلك ليستَبْشِر[٢] به .

٥٨١

وقال مِرْداس بن هَمَّاسٍ الطائى[٣]

١ – هَوِيتُكِ حَتَّى كادَ يقتُلُنِى الهَوَى ... وزُرْتُكِ حَتَّى لَامَنِى كُلُّ صاحب

٢ – وحَتَّى رأى مِنِّى أدَانِيكِ رِقَّةً ... عَلَيْكِ وَلَوْلَا أنتِ ما لَانَ جَانبى[٤]

٣ – ألَا حَبَّذَا لَوْمَا الحياءُ ورُبَّمَا ... مَنَحْتُ الهوَى مَا ليسَ بالمُتَقَارِب[٥]

٤ – بأهْلِى ظِبَاءٌ مِنْ رَبيعةِ عامرٍ ... عِذَابُ الثَّنَايَا مُشْرِقَاتُ الحَقَائبِ

يقول : بلغتُ الغاية القصوى فى كلِّ ما كان فيكِ ولكِ ، فحمَّلتُ نفسى من

(١) التبريزى : «وقيل المراد بصداح النميرة الديك ، وقيل : أهلها ، وقيل : حادى إبلها ، وقيل : صداح النميرة موضع» .

(٢) هذا ما فى ل . وعند التبريزى : «وكانت تتعرف ذلك لتستبشر به» . وفى الأصل : «ليستشير به» تحريف .

(٣) وكذا فى ل . وعند التبريزى : «مرداس بن همام الطائى» ، وفى معجم المرزبانى ٤٧٤ : «مرار بن مياس الطائى» ، وأنشد الأبيات ١ ، ٢ ، ٤ . وروى التبريزى عن أبى العلاء أن الأبيات نسبت إلى «مرار بن هماس» .

(٤) التبريزى والمرزبانى : «رقة عليهم» ، وأشير فى هامش ل إلى رواية التبريزى فى إحدى النسخ .

(٥) التبريزى : «ويروى : من ليس بالمتقارب» .

أعباء الهوَى وطلب التّناهى فيه ما كاد يأتى علىّ ، أعُدُّ ذلك واجباً لكِ أؤدّيه ، وفَرْضاً من حقوقكِ أقيمه وآتيه ، ثم أدْمَنْتُ الزّيارة خادماً ، وتردَّدت فى التعرُّف والاستعطاف متقرِّباً ، حتَّى توجَّهَ إلىّ اللَّومُ من أصحابى ، واستسرفَنى فى البِرّجِيرتى وأوِدّائى ، وإلى أنْ ظَهر لأقارِبك شفقتى عليكِ ورِقّتى ، ووضَح ما اشتهر به أمرى عندهم وعُرِف . ولولا أنتِ لبقيتُ على ما وُجدت عليه قديماً مِن صِيانة النَّفس وإكرامها وتبعيدها[1] عن المراكب الشَّائنة المؤدية إلى ابتذالها ، فلم يَلِنْ جانبى ، ولم يَزُلْ جِماحِى وصعوبتى .

وقوله « ألَا حَبَّذَا » المحبوبُ محذوفٌ ، كما حُذِف المحمود فى قوله تعالى : ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إنّهُ أوّابٌ ﴾ ، والمراد حَبيبٌ إلىّ التّهتُّكُ فى الهوى ، وتجاوُز المألوف فيه إلى المستشنَع القبيح ، لولا الحَياء ، على أنّى ربَّما مَنَحْتُ هوايَ ما لا مَطْمَعَ فى بلوغه ودنُوِّه . وهذا كما قال أبو تمّام :

غَالِى الهوَى ، مِمَّا يُرَقّصُ هَامَتِى أرْوِيَةُ الشَّعَفِ التى لم تُسْهِلِ[2]

وقوله « بأهلى ظِباء » رجوعٌ منه إلى استلذاذ الهوَى وإظهار التجلُّدِ فيه ، فيقول : أَفدى بأهلى نساءً من ربيعةِ عامرٍ ، عذابَ المَباسِم ، حِسَانَ الثغور والمَضاحك ، عظيماتِ الأكفال ، مُشْرِفَاتِ الأرداف .

والحقائب : جمع الحقيبة ، وهى عجُز الرَّجل والمرأة جميعا . ويقال : امرأةٌ نُفُجُ الحَقِيبة . والقَصْدُ بالتَّفدية فى قوله « بأهلى ظِباء » إلى صاحبته ، وإنْ كان لفظه عامًّا لها ولغيرها .

---

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « وتبعدها » .

(٢) رواية الديوان ٢٣٣ : « عالى الهوى مما تعذب مهجتى » ، أى من أجل تعذيب أروية الشعف لمهجتى . والشعف : جمع شعفة ، وهى رءوس الجبال . لم تسهل : لم تصر إلى السهل .

٥٨٢

وقال بعضُ بنِي أَسَدٍ[1] :

١ــ تَبِعْتُ الهَوَى يا طَيْبُ حَتَّى كَأَنَّنِي مِنَ أَجْلِكِ مَضْرُوسُ الجَرِيرِ قَؤُودُ
٢ــ تَعَجْرَفَ دَهْرًا ثُمَّ طاوَعَ أَهْلَهُ فَصَرَّفَهُ الرُّوَّاضُ حَيْثُ تُرِيدُ
٣ــ وإِنَّ ذِيادَ الْحُبِّ عَنْكِ وقد بَدَتْ لِعَيْنِيَ آياتُ الهَوَى لَشَــدِيدُ

يقول : أعطيتُ الهوى مَقَادَتِي فيك ، فتبِعْتُه حيث جرَّنى ، لا أَمتنعُ عليه ، ولا أَطلُب معدولاً إليه ، حتَّى صرتُ كأنِّى بعيرٌ قد عضَّهُ الجريرُ فلانَ وانقادَ . والجريرُ : حَبْل مضفور من أَدَم . والضَّرْسُ : العَضُّ . والقَؤود : فعول فى معنى مفعول ، فهو كالقَتُوبِ والرَّكوب ، والهمزة فيه بَدَلٌ من العين .

وقوله « تَعَجْرَفَ » ، أى أخذ غيرَ القَصْد زمانًا ، لأنَّه كان صَعْبًا ثم تَذَلَّلَ ودخل فى طاعة مداوِرِه ، وهذا مثلٌ ضَرَبَهُ للنَّفس فى ابتداء هواه ، وأنَّه تأبَّى عليه مُدَّة ، فتردَّدَ بين جِــدِّه وهَزْلِه ، واقتسارِه ولِيانِه ، حتَّى رَكِبَ منه كلَّ مَرْكَبٍ ، واستوطأَ ظَهْرَهُ كلَّ استيطاء . فهذا معنى « وصَرَّفَه الرُّوَّاضُ حيث تُرِيدُ » .

وقوله « وإِنَّ ذِيَادَ الحُبِّ عنك » ، يريد أنَّ دِفاع حُبِّه عنها وصَرْفَه عَسِرٌ صَعْبٌ وقد بَدَتْ آيات الهوى . والمعنى أنَّ للهَوَى عَلاَمَاتٍ حيثُ مالت بالإنسان ذهَبَ معها ، فيَعُدُّ الغَيَّ رُشْدًا ، ويَرَى التَّهالُكَ فيه حياةً ، ولو رام دَفْعَ حُبِّه عنه ، ولَيَّ نفسِهِ دونَه ، لتعذَّرَ وامتنع .

٤ــ وما كُلُّ ما فِي النَّفْسِ لِلنَّاسِ مُظْهَرٌ ولا كُلُّ ما لاَ تَسْتَطِيعُ تَذُودُ[2]

---

(١) الأبيات رويت فى معجم البلدان (غضور) ، وهى بلدة فيما بين المدينة إلى بلاد خزاعة .
(٢) التبريزى : « وما كل ما فى النفس لى منك مظهر » ، وأشار إلى الرواية الأخرى . وروى التبريزى أيضاً : « ما لا نستطيع نذود » .

٥ـ وإنّى لأَرْجُو الوَصْلَ مِنْكِ كَمَا رَجَا صَدِى الجَوْفِ مُرْتَاداً كُدَاهُ صَلُودُ

يقول : ليس جميعُ ما يشتمل عليه صدرى ، ويشقّ فى الهوَى بتحمُّله جوانحى ، ممكناً إظهارُه ؛ ولا كلُّ ما تطيقُه النَّفس ، أو لا تنهض به ، يسهُل دَفْعه ؛ فأنا أسيرُ الهوَى وتَبِيمُه ، متردِّد فى بَلواه ، لا أجِدُ منه مَخلَصا ، ولا أستطيع عنه ملجأً ومَنَاصًا .

وقوله « وإنّى لأرجُو الوصْلَ منكِ » يقول : وعَلَى ما أصفُه من حالى فيكِ أرجو وِصالَكِ رجاءَ إنسانٍ شديد العطَش ، يطلبُ الماء من موضِعٍ حَفَرَهُ فأكْدَى ، أى بلغ كُدْيَتَهُ ، وهى حَجَرٌ يَعرِض فى البئر عند الاحتفار فيمتنع قطعُه بالمعاوِل ، وجمعُها كُدًى . وهذا مَثَلٌ ، والمعنى أنَّ رجائى فى خَيْرِكِ مَعَ حاجتى رجاء رَجُلٍ عطشانَ يطلُب الماء ويرجوه من بئرٍ هكذا . والصَّلُود : اليابس ، ويقال للبخيل : أصْلَدَ وصَلَدٌ وصَلُود ، تشبيهاً به ، وكذلك زَنْدٌ صَلُودٌ إذا لم يُورِ . والمرتاد : الطَّالب ، ومفعوله محذوف ، ويجوز أن يُعْنَى بالمرتاد المطلوب ، ويراد به الماء ، وقد أقام الصفة مقامَ الموصوف ، وعلى الوجه الأوّل يَنتصب على الحال .

٦ـ وكيفَ طِلاَبِى وَصْلَ مَنْ لَوْ سأَلْتُه قَذَى العَيْنِ لم يُطْلِبْ وذَاكَ زَهِيدُ

٧ـ ومَنْ لَوْ رَأَى نَفْسِى تَسِيلُ لَقَالَ لِى أَرَاكَ صَحِيحاً والفُؤادُ جَلِيدُ

يصف بُخْلَهَا وتمنُّعَها فيقول : كيف أستجيزُ طلبَ وصالِ إنسانٍ لو سألتُه إزالة قَذَى العينِ لم يُجْبنِى إليه ، وذاك قليل فيما يُسأل ويُلتمس . فحذَفَ المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، كما قال الآخر (١) :

يا صَخْرُ وَرَّادَ ماء قد تناذَرَهُ أهلُ الموارِدِ ما فى وِرْدِه عَارُ

(١) هو الخنساء من قصيدة فى ديوانها . وانظر الكامل ٧٣٧ ليبسك .

يريدُ : ما فى تركِ وُرودِهِ عارٌ ، فحذَفَ المضاف . ويجوز أن يريد لو سألتُه ألاَّ يُقذىَ عينى ، كما تقول : سألت فلاناً ضربَ فلان ، أى استوهبته ضربَه لم يُطلِبْنى . ويجوز أن يريد من لو سألته تافِهاً لا خَطَر له ولا اعتدادَ به ، فضرَبَ المثلَ بالقذَى ، والمعنى : لو سألته ما يُقذى العين .

وقوله « مَنْ لو رأى نفسى » عَطَفَهُ على مَن لو سألتُه ، يريد : ولو رأى دَمِى يَسيلُ لقال لِقسوة قلبه علىّ : أُراكَ صحيحا لا داءَ بِكَ ولا آفة ، وقلبُه جليدُ ، أى يرِقُّ لى ولا يرحمنى ، والمراد على هذا بالقلب قلبُ المرأة ، ويكون الواو فى « والفؤاد » واو الحال ، ويجوز أن يكون من تمام الحكاية ومن كلام المرأة ، والمعنى أنَّها تقول مع ما ترَى من سَيَلان دمى : أرى نفسَك صحيحة ، وقلبَك ثابتاً ماضيا ، لا آفة بك ولا غائلة .

٨ — فيَأَيُّها الرِّيمُ الْمُحَلَّى لَبانُهُ بكَرْمَيْنِ كَرْمَىْ فِضَّةٍ وفَرِيدُ
٩ — أَجِدِّىَ لاأُمْسِى بِرَمَّان خالِيًا وغَضْوَرَ إِلَّا قِيلَ أَينَ تُرِيدُ[1]

كأنَّه استعطفَها وذكَّرها اشتهارَه بها ، وتوجُّهَ التُّهَم إليه بسببها ، حتَّى ضاقَ بهذين الموضعين مَجَالُه ، وتعسَّر عليه وإن تفرَّد فيها إمساؤه .

والرِّئْمُ : الظَّبى الخالصُ البياض . والمُحَلَّى لَبَانُه ، أى ترائبُه . بكَرْمَيْنِ ، أى بقِلادتين . والفَريد : الدُّرّ . واللَّبَانُ : الصَّدْرُ . وقوله « وفريدُ » إن جعلتَه معطوفاً على فضَّةٍ يكون إقواءً ، ولك أن ترفعَه بالابتداء والخبرُ محذوف ، كأنَّه قال : وفريدٌ فيهما . ويُروَى : « كَرْمَا فضّةٍ وفريدُ » ، فينعطِف الفريد على « كَرْمَا » ويكون الكلام على الاستئناف لا الإبدال ، كأنَّه قال : هما كَرْمَا فضَّةٍ وفريدٌ . وهذا أصحُّ وأجود .

(١) التبريزى : « لا أمشى » ، ثم قال : « ويروى : لا أمسى » .

وقوله «أجِدَّىَ» يريد: أعلى جِدٍّ منّى هذا الأمر، وهو أنّى لا أُمْسِى منفرداً بنفسى بَرَمَّانَ وغَضْوَرَ إلاّ قيلَ: أينَ مُرادُكَ. و «أجِدَّىَ» فى موضع المصدر، والفعل العامل فيه محذوف، وذَكَر الإمساءَ والمراد الإمساءُ والإصباحُ جميعاً، لكنَّه اكتفى بذِكر أحدِهما لعلْم النّاسِ بأنّ حالَهُ فيما ذكره يستوى فيه اللَّيلُ والنَّهار.

٥٨٣

وقال رجلٌ من بنى الحارث:

١ — مُنًى إنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أحسنَ المُنَى ... وإلّا فقَدْ عِشْنَا بها زَمَنًا رَغْدَا

٢ — أمَانِيَّ من سُعْدَى حِسَانًا كأنَّمَا ... سَقَتْكَ بها سُعْدَى على ظَمَإٍ بَرْدَا[1]

المُنَى: جمع مُنْيَةٍ، وموضعها من الإعراب رَفْعٌ على أنَّه خبر مبتدإٍ محذوف، كأنه قال: هى مُنًى. فيقول: هذه الخصال التى نَعِدُ بها أنفُسَنا فى هذه المرأة وتَعِدُنا بها، لا تخلو من أن تكون صادقةً أو كاذبةً؛ فإنْ جاءت صادقةً مُحَقَّقَةً فهى أحسنُ الأمانى وأوفقُها للنَّاس، وإنْ كانت كاذبةً فإنَّا نعيش بذِكْرِها منتظرين لها زمناً ممتدًّا، وعيشاً واسعاً رافها.

وقوله «أمَانِيَّ من سُعْدَى» نَصْبٌ بإضمار فعل، كأنَّه قال: أذكُرُ أمانِيَّ من سُعْدَى. وكَرَّرَ لفظ سُعْدَى تلذُّذًا لاسمها، وقد تقدَّم القولُ فى أنَّ الأعلامَ وأسماء الأجناس يُفعَل بها ذلك. والمعنى: أذكرُ أمانِيَّ من هذه المرأة جميلةً تُزَجِّى أوقاتَنا، وكأنَّ موقعها من قلوبنا موقعُ الماء البارد من ذِى الغُلَّة الصَّادِى. وقوله «زَمَنًا رَغْدَا» الرَّغْدُ: السَّعَة فى العيش. ويقال: عيش راغِدٌ ورغِيدٌ. وانتصاب رغْداً على أنّه صفةٌ لمصدر محذوف، كأنَّه قال: عِشْنَا عَيْشًا رَغْدًا بها زمناً.

(١) التبريزى: «من سعدى رواء»، مع رفع «أمانى» و «رواء».

ولا يمتنع أن يكون صفةً لقولِهِ زَمَناً ، كأنّه قال عَيْشًا واسِعاً . وقوله « على ظمإٍ بَرْدَا » يريد ماءً ذا برد .

٥٨٤

آخر (١) :

١ — وخُبّرتُ سَوداء القلوبِ مَرِيضةً فأقبلْتُ مِنْ أهلِي بِمِصْرَ أعودُها

٢ — فواللهِ ما أدرِي إذا أنا جِئْتُها أأُبْرِئُها مِنْ دائِهَا أم أَزِيدُهَا

قوله « خُبِّرْتُ » تتعدّى إلى ثلاثة مفاعيل ، ومريضةً المفعول الثالث . وقوله « أعودُها » في موضع الحال من أقبلْتُ . ويجوز أن يريد بقوله « سوداء القُلوب » أنّها تَحُلُّ من القُلوب محلّ السُّويداء منه ، كأنّ القلوبَ على اختلافها

(١) هو العوام بن عقبة بن كعب بن زهير . وكان من سبب الشعر ما روى التبريزى عن أبي محمد الأعرابي أن صواب رواية البيت الأول : « سوداء الغميم » ، وأن سوداء الغميم امرأة من بنى عبد الله بن غطفان ، اسمها ليلى ولقبها سوداء ، وكانت تنزل الغميم من بلاد غطفان وكان عقبة بن كعب بن زهير ينسب بها ، ثم علقها بعده ابنه العوام بن عقبة وكلف بها ، وكانت تجد به كذلك ، فخرج إلى مصر في ميرة فبلغه أنها مريضة ، فترك ميرته وكرنحوها وأنشأ يقول :

نبيت سوداء الغميم مريضة فأقبلت من مصر إليها أعودها
فياليت شعرى هل تغير بعدنا ملاحة عينى أم يحيى وجيدها
وهل أخلقت أثوابها بعد جدة ألا حبذا أخلاقها وجديدها
ولم يبق يا سوداء شيء أحبه وإن بقيت أعلام أرض وبيدها
فوالله ما أدرى إذا أنا جئتها أأبرئها من دائها أم أزيدها
نظرت إليها نظرة ما تسرني بها حمر أنعام البلاد وسودها
ولو أن ما أبقيت مني معلق بعود ثمام ما تأود عودها

فلم يزل يلطف حتى رأته ورآها ، فأومأت إليه أن ما جاء بك ؟ فقال : جئت عائداً حين علمت علتك . فأشارت إليه أن ارجع فإني في عافية . فرجع لميرته واستعز بها المرض ، فجعلت تتوله إليه حتى ماتت . فبلغه الخبر فقال :

سقى جدثا بين الغميم وزلفة أحم الذرى واهي العزالى مطيرها

وفيها يقول :

وإن تلك سوداء العشية فارقت فقد مات مليح الغانيات ونورها

تميل إليها وتنطوى على حبِّها . ويجوز أن يكون كان اسمها سوداء وأضافها إلى القُلوب ، كما قال ابن الدُّمَيْنَة :

قِفِى يا أُمَيْمَ القَلْبِ نَقْضِ تَحِيَّةً ونشكُو الهوى ثمَّ افْعَلِى ما بَدَالَكِ

ويجوز أن يكون أراد أنَّها قاسية القلب سوداؤُه ، فجمعَ القلبَ بما حولَه فقال القلوب ، أو لأنَّها كانَّ لها مع كلِّ مُتَيَّمٍ بها قَلْباً ، فقال القُلوب على ذلك . فيقول : نُبِّئت أنَّها تألَّمتْ لعارض عِلَةٍ ، فأقبلتُ مِن أهلى بمصرَ عائدًا لها ، وواللهِ أحلِفُ ما أدرى إذا حَصَلْتُ عِنْدَها أأصبر شِفاءً مما بها ، أو أزيدُ فى شكواها لتبَرُّمِها بى ؛ كأنَّه ظن بها تنكُّرًا وحُؤُولًا عن العهد . وقوله « أم أزيدها » يريد : أم أزيدها داءً ، فحذف لأنَّ المرادَ مفهوم .

٥٨٥

وقال آخر :

١ــ إنِّى وإيَّاكِ كالصَّادِى رَأَى نَهَلاً ودُونَهُ هُوَّةٌ يَخْشَى بهــا التَّلَفا

٢ــ رأى بِعَيْنَيْهِ ماءً عَزَّ مَوْرِدُهُ وليسَ يَمْلِكُ دُونَ المَـاءِ مُنْصَرَفا

يقول : مَثَلى ومَثَلُك فى مِسَاسِ حاجتى إليكِ ، وتناهِى رغبتى فى وَصْلِكِ والنَّيْل منك ، وفى احتجازِكِ عنِّى وامتناعِك منِّى ، مَثَلُ رَجُلٍ عطشانَ شاهد ماءً ، وقد حال بينه وبين وروده وَهْدَةٌ عميقَةٌ يَخشى من اقتحامِها الهلاكَ ، فالماء بمرأًى منه ، وقد غَلَبَه المانع عنه ، ليس يقدرُ على انصرافه من دونِه ، لغلَبةِ العطَش عليه ، وشِدَّة الفاقة إليه ، فـكذلك أنا وأنتِ . وقوله « رَأَى نَهَلاً » فى موضع الحال ، وقد مقدَّرةٌ فى الـكلام ، لأنَّ رأى بناءٌ للماضى . والنَّهَلُ والمَنْهَل : الماء ، وموضع الماء . وقوله « ودونَه هُوَّةٌ » فى موضع الصِّفة للنَّهَل ، كما أنَّ عزَّ مورِدُه فى موضع الصِّفة للماء . وإنَّمـا قال « رأى بعينيه » فذكَرَ

العينَ تأكيداً للرُّؤية . ومثله قوله تعالى : ﴿ولا طائرٍ يَطيرُ بجناحَيْه﴾ وما أشبهَه .

٥٨٦

وقال آخر :

١ — أَلَا بأَبِينَــا جَعْفَرٌ وبأُمِّنَا نَقُولُ إِذَا الهَيْجَاءُ سَارَ لواؤُها
٢ — ولاَعَيْبَ فيه غَيْرَماخَوْفِ قَومِهِ على نَفْسِهِ أَلَّا يطولَ بقَــاؤُها

قوله « أَلاَ بأبينا » ، الجملة فى موضع المفعول لقوله نقول . والباء من « بأبينا » تعلَّقَ بفعل مضمَر ، والمراد : نفدِى بأبينا وأمَّهاتنا جعفراً إذا سار الخميسُ وحَمل لواءَ الجيش قاصِداً إلى الهَيجاء . وأضافَ اللِّواء إلى ضمير الهيجاء لحاجتها إليه .

وقوله « ولا عَيْبَ فيه » يريدُ أنَّ جعفراً برىءٌ من العُيوب إلا من مخافةِ قومِهِ على نفسه ألَّا تطول مُدَّتُها ، ولا يتنفَّس مَهَلُها . وليس ذلك بعيب ، وإنَّما يُشفِقون ممَّا ذَكرَ تنافُساً فى حياتِه ، ورغبةً فى الانتفاع به وبمكانه ، لـكنَّه أراد أنَّ مَنْ ذلك مَعِيبُه ، فـكيف يكون مَرضِيُّه .

فإنْ قيل : لِمَ أدخَلَ هذا فى جملة النَّسيب وليس هو منه ؟ قلتَ : لطافةُ لفظِه وحلاوةُ معناه ، ومناسبتُه بذلك للنَّسيب ، أدخلَتْهُ فى هذا الباب . وقد فَعَل لمثل هذه العلَّة مثلَ هذا فيما تقدَّم ، ونبَّهْنا عليه[١] .

٥٨٧

وقال آخر :

١ — وإنِّى عَلَى هِجْرانِ بَيْتِكِ كالَّذِى رَأَى نَهَلًا رِيًّا ولَيْسَ بناهِلِ
٢ — يَرَى بَرْدَ ماءٍ ذِيدَعَنْهُوروَضَةً بَرُودَ الضَّحَى فَيْنَانَةً بالأَصائلِ

يقول : إنِّى على ما أجرِى عليه من تعزُّلى لبيتك ، ومهاجَرَتى لفنائك ، ولما

(١) انظر ما سبق فى ص ١٢٦٧ .

أتّقى به من مكاشَفة الرُّقباء على ترصُّدهم بالمكروه لى ولك ، واختلافهم فى التقاط حديثى وحديثك ، لكالعطشان وقد رأى ماء مُرْوِيًا كثيرًا ، باردًا شَهِيًّا ، فمُنِع منه ، وشافَه(١) روضةً باردةَ الظِّلِّ عند الضَّحاء ، كثيرةَ الأفنان والغُصون ، إذا هَبَّت رِياح العِشاء خيل بينه وبينها . والنَّهَل : الماء . والنَّاهِل : الرَّيَّان هاهنا ، ويكون العطشانَ أيضًا فى غير هذا . وذِيدَ عنه ، أى مُنِع منه . والفينانة : الكثيرة الأفنان ؛ وهو فَيْعالٌ . والفَنَن : الغُصن . والأصائل : العشيَّات .

وقوله « يرى بَرْد ماء » ، يقول : يرى ماءً باردا ، لأنَّ البَرد لا يُدرَك بالعَين . وإن شئتَ قلتَ : جعلَه للمبالغة فى الوصف كالمحسوس .

٥٨٨

وقال آخر :

١ ــ فَمُرَّا على أَهْلِ الغَضَى إنَّ بالغَضَى ... رَقارِقَ لا زُرْقَ العُيونِ ولا رُمْدا(٢)

٢ ــ أَكادُ غَداةَ الجِزْعِ أُبْدِى صَبابةً ... وقد كُنْتُ غَلَّابَ الهَوَى ماضيًا جَلْدا

يخاطب صاحبَين له يسألهما أن يَجُوزا بأهل الغضَى ، لأنَّ فيها نساءً يترقرقُ ماءُ الشَّباب فيهن ، لا زَرَقَ فى عيونهنّ ولا رَمَد . ويقال : فتًى رَقْراقٌ ، وفتاةٌ رقراقةٌ ، والمراد به ابتداء الشَّباب . وذكر بعضُهم أنَّ المراد بالرَّقارق مياهٌ رقيقة ، وأنَّ الزُّرْقَ الصَّافية ، والرُّمْد المتغيِّرة الألوان ، والأوَّل أقرب ، لأنَّ الرَّمَد لا يُستعمل إلَّا فى الحاسَّةِ ، ولأنَّ الفائدة فى كون مياهٍ بالغضَى على هذه الصِّفة قليلةٌ . وقَصْدُ الشَّاعر فيما كلَّفَ صاحِبَيْه أن يجدِّدا عَهْدًا بأهل الغضَى ، ويتعرَّفا من أخبار محبوبته ، ما تسكُن نفسه إليه . وفى قوله « إنَّ بالغضَى رقارق » ، إذا جعلتَ الرَّقارق نساءً ، نَسِيبٌ بها وبصواحبها : وقوله « لا زُرقَ العُيُون » ،

---

(١) كذا فى النسختين ، ويعنى بها المقاربة . (٢) ل والتبريزى : « مرا » ، بالخرم .

ثَبَتَ لَهُنَّ كَحَلَ العيون وسلامتَها من الآفات ، بنفى الأضداد عنها ، وهذا كتحديد الشَّىء بالسَّلْبِ .

وقولُهُ « أكاد غَدَاةَ الجِزْع » يَصِف ما نالَه غداةَ يومِ البَين ، وأنَّه مع ثباته فى الشَّدائد ، وصَبرِه على النَّوائب ، وحُسن تماسُكِهِ عن جوالِبِ الهَوَى ، يفتضِحُ ويظهرُ عليه من الاكتئاب والوَجد ما يُستَدَلّ به على مستكِنَّات صبابَتِه ، وخفيَّات أحوالِهِ .

٣ ــ فَلِلّهِ دَرِّى أىَّ نَظْرَةِ ذِى هَوًى نَظَرْتُ وأيدِى العِيسِ قد نَكَّبَتْ رَقْدَا[(١)]

٤ ــ يُقَرِّبْنَ ما قُدَّامَنَا مِنْ تَنُوفَةٍ ويَزْدَدْنَ مِمَّنْ خَلْفَهُنَّ بِنَا بُعْدَا

قوله «للهِ دَرِّى» يجرى مجرى: لله خيرى. ومن عادتهم أن ينسُبوا ما يُعجبهم إلى الله تعالى ذكره ، وإنْ كانت الأشياء كلُّها فى الحقيقة له . وقد فارَقَ دَرِّى بالاستعمال على هذا الوجه المصادرَ ، فلا يَتعلَّق به شىءٌ من متعلِّقاتها . وقوله « أىَّ نَظْرَةِ ذِى هَوًى » تعجُّب ، وانتصَب أىَّ بنظرتُ . وكأنّه لمَّا صَبَرَ عندما رأى من آيات الفِراق ولواذع البَين ، وصار بمرأًى منه ومَسمَع ، من التَّهيُّؤ للارتحال ، ومن تدبير عوارض السَّفَر ، عَدَّ ذلك من نظَرِه وجلَدِه شيئاً عجيبا . ومعنى « نَكَّبَتْ رَقْدًا » وهو موضع كان يجمعُهم . ويجوز أن يريدَ بذلك نظَرَهُ فى إثْرِ الظَّعائن تحسُّراً وصاحبتُه معهنّ ، كما قال الآخر[(٢)] :

بعينَىَّ ظُعْنُ الحَىِّ لما تَحَمَّلُوا لَدَى جانبِ الأفلاجِ مِن جَنْبِ تَيمَرا

وقوله[(٣)] :

ولما بَدَا حَوْرَانُ فى الآلِ دُونَهَا نَظَرتَ فلم تَنظُرْ بعينيكَ مَنظرا[(٤)]

(١) التبريزى : « أى نظرة ناظر » ، وأشار إلى الرواية الأخرى .
(٢) هو امرؤ القيس . ديوانه ٩٠ .
(٣) هو امرؤ القيس . ديوانه ٩٥ .
(٤) يروى أيضاً : « والآن دونه » .

ويكون على هذا قوله « نَكَّبتْ رَفْدَا » معناه انحرفن عنه وتركْنَه ، لكونه مَفرِق الطُّرق .

وقوله « يقرّبن ما قُدَّامَنا من تنوفةٍ » وصفَ العِيسَ بالسُّرعة . والتَّنوفة : المَفازة . والمراد أنَّ ما يقطعُه غيرُها في يومين تقطعُها هذه في يومٍ . والكلامُ تحسُّرٌ وتوجُّع ، لتباعُدِه عمَّن هواهُ معهم . ومثله قول الآخر :

إذا نحنُ قلنا وردهُنَّ ضُحَى غَدٍ تَمَطَّيْنَ حتَّى وِرْدُهُنَّ طُرُوقُ

وتعلَّق الباء من قوله « بنا » بقوله يَزْدَدن . وبعدًا ، انتصبَ على التَّمييز .

٥٨٩

وقال ابنُ هَرِمٍ الطَّائى[1] :

١ ـ إنِّى عَلَى طُولِ التَّجنُّبِ والنَّوَى وَوَاشٍ أتَاهَا بى وواشٍ بها عِنْدِى[2]

٢ ـ لأُحسِنُ رَمَّ الوَصْلِ مِنْ أمِّ جَعفرٍ بِحُذِّ القَوافِى والمُنَوَّقَةِ الجُرْدِ

يصفُ حُسنَ تأتِّيه فى عِمارة الهوى والحبِّ ، وبالِغَ لُطفهِ فى تَلافِى ما يخاف انقطاعَه من علائق الوصل ، وانتكاثَه من وثائق العهد ، لِوشاية واشٍ ، أو تضريب مُفْسِدٍ ، أو قَدْح ساعٍ بالنَّمائم متزيِّدٍ . فيقول : إنِّى على مُطاوَلة البِعاد ، ومعاوَنةِ الوُشاة بالتَّحريش والإفساد ، لأُحسِنُ عمارةَ الحال بينى وبينها ، ورمَّ ما يَسْتَرِمُّ من جوانب وِصالها ، بما أنظِمهُ من الشِّعر ، وأُحكِمُهُ من عُقَد السِّحر فى رَسائلى ، وأُردِّدُهُ من الرُّسُل المتوجِّهين إليها على رواحِلى . وقيل فى الحُذِّ : إنَّها الأبيات النافذة ، وقيل : هى الخفيفة الوزْن ، اللَّطيفة السَّبْك . وقيل : إنَّها المستقلَّة بأنفُسِها ، ويقال : بيتٌ أحَذُّ ، إذا لم يكن مُضَمَّنًا . والمُنَوَّقَة : المَرُوضة

---

(١) التبريزى : « الكلاب » .

(٢) التبريزى : « التجنب والهوى » و « لها عندى » .

المُذَلَّة من النُّوق . كذا قال الخليل . والجُرْد : السِّرَاع . ويقال : نَجَاء أَجْرَدُ . قال الشّاعر :

* جَذْبَ القَرِينةِ للنَّجَاء الأَجْرَدِ (١) *

وخبر إنّ فى قوله « لَأُحْسِنُ رَمَّ الوَصلِ » .

٣ـ وأَستَخبِرُ الأَخْبَارَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِها وأَسْأَلُ عَنْهَا الرَّكْبَ عَهْدُهُمُ عَهْدِى

٤ـ فإنْ ذُكِرَتْ فَاضَتْ مِنَ العَيْنِ عَبْرَةٌ عَلَى لِحْيَتِى نَثْرَ الجُمان من العِقْدِ

قوله « وأستخبِرُ الأخبارَ » ، يجوز أن يكون على حذف المُضاف وإقامة المضاف إليه مَقامه . والمراد : وأستخبر ذَوِى الأخبار من نحو أرضها . ويجوز أن يريد أُرجِعُ فيما أعرف من أخبارها فيما بينى وبينَ نفسها حالاً بعد حال ، طالباً لاستخراج زيادةٍ فيها ، ومستمتعاً بما يكون حاصلاً فيها ، فكأنّى أستخبرُ نفسَ الخبر . وقوله « وأسأل عنها الرَّكبَ عَهْدُهم عَهْدِى » مثله قول الآخر .

* وذِكرُكِ من بينِ الحديثِ أُريدُ *

استحلاءً لاسمها ، وتلذُّذًا بذكرها .

وقوله « فإن ذُكِرَتْ » يقول : وإذا قَرَعَ سمعى ذِكرُها بكيتُ شوقًا إليها ، ووجداً بها ، فسال الدَّمعُ من عينى ، وانتثر ما غَشِىَ لِحيتى منه نَثْرَ الجُمَان من قلادَةٍ لم يُتفَقَّد نظامُها ، وخانَ سِلْكُها ، وتناثَرَ حبّاتُها . وانتصب « نَثْر » على المصدر من غير لفظه ، فهو كقولك : تبسَّمتْ وميضَ البَرْقِ . وقوله « عهدُهم عهدى » ، الجملة فى موضع الحال من أسأل .

(١) النجاء : السرعة . والقرينة : الناقة تشد إلى أخرى .

٥٩٠

وقال عمرو بن حكيم[١] :

١ ـ خَلِيلَىَّ أَمْسَى حُبُّ خَرْقَاءَ عَامِدِى ... فَفِى الْقَلْبِ مِنْهُ وَقْرَةٌ وصُدُوعُ

٢ ـ ولو جَاوَرَتْنَا الْعَامَ خَرْقَاءُ لَمْ نُبَلْ ... على جَدْبِنَا أَلاَّ يَصُوبَ رَبِيعُ

جعلَ « أمسَى » لاتصال الوقت . وخَرْقَاء : اسم امرأة . وقوله عامِدِى : مُمرِضى ، يقال : أىُّ شىء يعْمِدُك ، أى يُوجِعك . والوَقْرَةُ : الهَزْمَةُ والأثَرُ . يقال : وُقِرَ الشىء ، إذا جُعِلَ فيه وَقَرَاتٌ . قال الهذلىُّ[٢] :

* فَوُقِّرَ بَزٌّ ما هنالِكَ ضَائِعُ[٣] *

يعنى بالبَزِّ سَيفا .

يقول : يا خليلَىَّ ، إنَّ حبَّ خرقاءَ أمسى يَقْدَحُ فى قلبى ، فقد صار فيه من أجله صُدُوعٌ ، وآثارٌ وشقوق ، ولو اتَّفقَ فى هذا العام معها اجتماعٌ لم نُبالِ وإن أَجْدَبْنَا ألاَّ يَقعَ مطر ؛ إذ كان التبرُّك بها ، والاستسعاد الشَّامِلُ بمكانها ، يقوم مقامَ كلِّ خِصْبٍ . وقوله « لم نُبَلْ » جزمَه مرَّتين لأنَّه كان نُبالِى ، فدخل الجازمُ عليه فحذَفَ له الياء فصار لم نبالِ ، ثم أسكن اللام بعد أن طلبَ تخفيفَه لكثرته فى الكلام ، فالتقى ساكنان : الألف واللام ، فحُذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فصار لم نُبَلْ ، ومثل هذا لا ينقاس . وقوله « على جَدْبِنَا » فى موضع الحال ، تقديرُه مُجْدِبِين . ويقال : صاب المَطَرُ يَصُوب ، إذا وقع . والرَّبيع :

(١) التبريزى : « عمر بن حكيم » . وفى معجم المرزبانى ٢٤١ : « عمرو بن حكيم ابن معية التيمى ، من ربيعة الجوع ، إسلامى » . وأنشد له البيتين .

(٢) هو قيس بن عيزارة الهذلى . ديوان الهذليين (٣ : ٨٧) . وانظر ما سبق فى ١٤١ ، ٣٩٠ .

(٣) صدره : * فويل ام بز جر شعل على الحصى *

المطَر . ويقال : ما باليتُ بكذا وكذا بالةً وباليةً . أى لم نُبالِ بأن تنقطع الأمطارُ على ما بنا من جَدْب .

٥٩١

وقال آخر (١) :

١ — ألِمَّا عَلَى الدَّارِ الَّتِي لَوْ وَجَدْتُها بِهَا أهْلَهَا ما كانَ وَحْشًا مَقِيلُها

٢ — وإنْ لم يَكُنْ إلاَّ مُعَرَّجَ ساعةٍ قليلاً فإنِّي نافِعٌ لِي قليلُها

يأمُر صاحبَيه بزيارة دار حبيبِه ، ولو كان ساعةً . وخصَّص الدار بقوله « التى لو وجدتُها بها أهلها » ، والمعنى التى لو وجدتُها مأهولةً ما كان موضعُها وَحْشًا ، أى خاليا مُوحِشًا ، لكثرة أهلِها وكثرة غواشى النَّعمَ فيها . وفى الحديث . « أنّ قريشاً قالوا للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّا لأَكرمُ مُقاماً وأحسنُ مَقِيلاً » ، أى موضعا ، فأنزل الله عزَّ وجلّ : ﴿أصحابُ الجَنَّةِ﴾ — يعنى النَّبيَّ عليه السلام وأصحابَه — ﴿يوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُستَقَرًّا وأحْسَنُ مَقِيلًا﴾ . ويقال : باتَ فلان وَحْشاً ، أى خالى البَطْن ؛ وتوحَّشَ للدَّواء (٢) .

وقوله « وإنْ لم يكنْ إلاَّ مُعَرَّجَ ساعةٍ » (٣) ، يريدُ إلاَّ تعريجَ ساعة، وعَطْفَ ساعةٍ . ولم يرضَ بأن أضافَ المُعَرَّج إلى السَّاعة حتَّى وصفَه بقوله قليلًا ، وهذا على هذا التقدير يكون من الصفات المؤكِّدة ، لا المُفيدة (٤) ، كما يجىء الحالُ كذلك . ولا يمتنع أن يريد تعريجا [قليلا (٥)] فى ساعةٍ ، فيكونُ الصِّفةُ مفيدة .

---

(١) قال أبو رياش : « البيت الثانى لذى الرمة فى قصيدته التى أولها :

* أخرقاء للبين استقلت حمولها *

والبيت الثانى بنسبته إلى ذى الرمة فى ديوانه ٥٠٥ وأمالى القالى(٣ : ٢١٦) والتنبيه لابن جنى .

(٢) يراد بالدواء المسهل . وتوحش للدواء ، إذا أخلى معدته ليكون أسهل لخروج الفضول .

(٣) فى الديوان : « فإن لم يكن إلا تعلل ساعة » .

(٤) المفيدة ، بالفاء فى النسختين والتبريزى . (٥) التكملة من ل .

وقوله « فإنِّى نافِعٌ لى قليلُها » يجوز أن يرتفع قليلُها بنافِع ، ونافِعٌ خبر إنَّ ، كأنَّه قال : فإنِّى ينفعنى قليلُها . ويجوز أن يكون قليلُها مبتدأ ونافِعٌ خَبَرٌ له مقدَّم عليه ، والجملة فى موضع خبر إنَّ ، والتقدير إنى قليلها نافِعٌ لى ، وانتصَبَ مُعَرَّج على أنه خَبَرُ لم يكن ، أراد : وإن لم يكن الإلمامُ إلاَّ مُعَرَّجَ ساعَة .

٥٩٢

وقال آخر :

١ — ماذَا عَلَيْكِ إذا خُبِّرْتِنِى دَنِفًا   رَهْنَ المنِيَّةِ يَوْماً أَنْ تَعُودِينا[1]

٢ — أوتَجْعَلِى نُطْفَةً فى القَعْبِ بارِدَةً   وتَغْمِسِى فَاكِ فيها ثُمَّ تَسْقِينا

قوله « دَنِفًا » أى مُشرِفًا على الهلاك ، وانتصابه على أنَّه مفعول ثالث لخُبِّرَ . وقوله « ماذا عليكِ » لفظُه استفهام ومعناه تقريع وبَعْث . وانتصَب « رهنَ المنيّة » لأنه صفة لدنفا ، ومعناه فى ضمن المنية ومَلَكَتِها ، وكالرَّهْنِ عندها ، إنْ شاءت أغلقَتْه ، وإن شاءت فكَّتْهُ . والمراد : أىُّ شىء عليكِ من أن تعودينا ، إذا أُخبِرْتِنى عليلًا . فقوله « عليك » يقتضى فعلا ، وذلك الفعل يَعمَل فى أن تَعُودِينا ، وقد حُذِفَ حرفُ الجرّ منه ، أى لا عارَ عليك ولا ضررَ من عِيادتنا ، ولا من مُداواتِنا بماء هذه صفته ، فهلَّا فعلْتِ . وقوله « يَوْماً » ظَرْفٌ لخُبِّرْتِنِى . وقد تقدم القول فى « ماذا » فى مواضع[2] .

---

(١) دنفا ، بفتح النون وكسرها ، كما ضبطت فى النسختين مقرونة بكلمة « معا » فيهما .

(٢) انظر ص ٨١١ ، ٩٣٤ .

٥٩٣

وقال جَميلٌ(١) :

١ــ بُثَيْنَةُ ما فِيها إذا ما تُبُصِّرَتْ مَعَابٌ ولا فيها إذا نُسِبَتْ أَشْبُ

٢ــ لَهَا النَّظْرَةُ الأُولَى عَلَيْهِمْ وبَسْطَةٌ وإن كُرَّتِ الأبصارُ كان لها العَقْبُ(٢)

٣ــ إذا ابتَذَلَتْ لم يُزْرِها تَرْكُ زِينَةٍ وفيها إذا ازْدَانَتْ لِذِي نِيقَةٍ حَسْبُ

تُبُصِّرَتْ ، أى استُقْصِىَ النَّظرُ إليها ، والـكشفُ عن حالها . والمَعَابُ : العَيب . والأَشْبُ : الخَلْطُ : يقول : إنَّها عند السَّبْرِ والنَّظَر ، والـكَشْفِ والتأمُّل ، نَقيَّةٌ من العَيب ، بَرِيئةٌ من الشَّوْب ، فلها عند المبالغة فى البحث النَّظرة الأولى ، ولها البسطة وهى النَّظْرة الثـانية ، ويعنى بها أن يُبْسَطَ التَّميزُ على ما يتجلَّى من أمْرِها ، ويُسَلَّط التنقير على كثيرٍ ممَّا يخفى من أحوالها . قال : ولها العَقْبُ أيضاً ، وهو النَّظَر بعد النَّظَر ، وفى موضعٍ آخر الجَرْى بعدَ الجَرْى . والعَرَبُ تقول : « النَّظرة الأولى حمقاء » فلهذا قال : لهذه المرأةِ النَّظرة الأولى ، ولها الـكَشْفَةُ الثَّانية وهى البَسْطَةُ ، ولها البَحْثَةُ الثالثة ، وهى تعقُّب التَّجربتين بتجربةٍ ثالثة .

وقوله « إذا ابتَذَلَتْ » يقول : إذا تَرَكتِ التزيُّن واكتَسَت المَباذلَ لم يقَصِّرْ بها ذلك ، وإن تزيَّنَتْ كان فيها للمتأنِّق الـكفايةُ من جميع ما يَطلُبُ فيها نَفْسًا وخَلْقًا ، ومُتَنَسَّبًا وخُلُقًا . وقوله « لم يُزْرِها » أى لم يُزْرِ بها ، يقال : زَرَيْتُ عليه وأزريتُ به ، لـكنَّه حذف الجارّ . وقوله « حَسْبُ » أى كافٍ .

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠١ ص ٣١٤ .

(٢) التبريزى : « ويروى : لها النظرة الأولى عليهن بسطة » .

فهو مبتدأٌ . على هذا تقول : حَسْبِيَ اللهُ وحدَه[١] ، ومثل هذا قول جرير :

إذا حُلِّيَتْ فالحَلْيُ منها بمَعْقِدٍ مَليحٍ وإلاَّ لم يَشِنْها عَواطِلُه

٥٩٤

وقال الحارثىّ[٢] :

١ ــ سَلَبْتِ عِظامِى لحمَها فترَكْتِها مُجرَّدةً تَضْحَى إليكِ وتَخْصَرُ[٣]

٢ ــ وأخْلَيْتِها مِن مُخِّها فكأنَّها قَواريرُ فى أجوافها الرِّيحُ تَصْفِرُ[٤]

يقول : أَذَيْتِنِى بهواكِ ، وانحسَر اللحمُ من عظَامى وتعرَّت ، فهى بارزةٌ فى النَّهار للشمس ، وعند الليل للبَرد ، إذا أَوَّبْتُ إليك وأسْأَدْتُ . و « إليكِ » موضعه بالفعل الذى يقتضيه نصبٌ على الحال ، وإنما قال هذا لأن المهزولَ الحَرُّ والبردُ إليه أسرع وأشدُّ تأثيراً فيه . ويقال : ضَحِيَ يَضْحَى ضَحًى ، أصابَه حرُّ الشمس ، ولُغةٌ : ضَحَا يَضحُو ضَحْوًا وضُحُوًّا .

وقوله « وأخليتِها من مُخِّها » ، يريد أنها أذهبت النِّقْيَ من العظامِ أيضاً ورقَّقَتْها ، فخلَت من مخها واستَشَفَّت ، فهى كالقوارير الخالية لو هبَّت الريح لصفَرَت بما يتخلَّلها من الريح صفيرَها .

وقوله « فى أجوافها الرِّيح تصفِرُ » الجملة فى موضع الصِّفة للقوارير ، وموضع تَصْفِرُ نصبٌ على الحال إن جعلتَ الرِّيحَ ترتفع بالظَّرف ، وكذلك مجرَّدة فى موضع الحال . ويروى : « فكأَنها أنابيبُ فى أجوافها الريح » ، والأوَّل أَحسَنُ

---

(١) ابن جنى فى التنبيه : « ليس حسب هذه هى التى فى قولك فى الأمر : حسبك ينم الناس . تلك اسم للفعل ، أى اكتف ، ولذلك جزم ينم كما يجزم جواب الأمر . لكن حسب هنا هى التى فى قول الله تعالى : فإن حسبك الله ، أى كافيك . وأصلها جميعاً من قول الله سبحانه : عطاء حسابا ، أى كافيا » .

(٢) كذا فى النسختين والتبريزى . والأبيات منسوبة إلى المجنون فى أمالى القالى (١ : ١٦٢) .

(٣) الأمالى : « معرقة تضحى لديك » .

(٤) وكذا فى الأمالى . وعند التبريزى : « فتركتها أنابيب »

٣ ــ إذا سَمِعَتْ بِاسْمِ الفِراقِ تَقَعْقَعَتْ مَفاصِلُها مِن هَوْلِ ما تَتَنَظَّرُ[١]

٤ ــ خُذِي بِيَدِي ثُمّ انْهَضِي بِي تَبَيَّنِي بِيَ الضُّرَّ إلاّ أنّنِي أتَسَتَّرُ[٢]

جعل الإخبار عن العِظام، وإن كان ما وصَفه حالاً للجملة لا لها وحدها، لقوله: سلبْتِ عظامى لحمَها. والمعنى إنّ ذكرَ الفِراق يبلُغ منها هذا المبلغَ العظيم. وهى أنها لارتعادها تَتداخل مفاصلُها ويحتكُّ بعضُها ببعض حتى تَسْمَع لها قعقعة، وذلك لهَوْلِ ما ينتظرُه من وقوعه فى نفسه، واستعظامِه للخطْب. وفيه وله.

وقوله «خُذِى بيدى» أراد أن يُرِيَها ما تستبعدُه من وصفِ حاله بالخَبَر مشاهَدَةً، فقال: خُذِى بيدى مستنهِضةً لى يَبِنْ لكِ أمرى، ويظهرِ المكنونُ فيك من ضُرِّى، والمجلوبُ علىَّ من هُزَالِى، والمستورُ عنكِ من سوء حالى، وقوله «إلاّ أنّى أتسترُ» استثناء منقطع من الأوّل، كأنّه أراد: لكنّى أتَسَتَّرُ بتجلّدٍ أُظْهِرُهُ، وبصبرٍ أتّقى الناس بِهِ. وفى البيتِ طِباق بقوله تَبَيَّنِي وأتَسَتَّرُ. وأصل تبيَّنِي تَتَبَيَّنِي، فحذف إحدى التاءَيْنِ.

تم باب النسيب، والحمد لله على تظاهر آلائه، وتوالى نعمائه، والصّلاة على سيدنا محمد وآله[٣].

(١) القالى:

إذا سمعت ذكر الفِراق تقطّعت علائقها مما تخاف وتحذَرُ

(٢) التبريزى: «ثم ارفعى الثوب فانظرى». وأنشد بعده هذين البيتين ولم يروهما القالى:

فما حِيلتى إنْ لم تكُنْ لكِ رحمةٌ علىَّ ولا لى عَنْكِ صبرٌ فأصبرُ

فواللهِ ما قصّرتُ فيما أظنُّهُ رضاكِ، ولكنّى مُحِبٌّ مكفِّرُ

(٤) الكلام من أول «تم» إلى هنا لم يرد فى ل.

بَابُ الْهِجَاءِ

بابُ الهجاءِ (1)

٥٩٥

قال موسى بن جابر (2) :

١ — كانتْ حَنِيفةُ لا أبالكَ مرَّةً   عِنْدَ اللِّقاءِ أسِنَّةً لا تَنْكُلُ

٢ — فرأتْ حَنِيفةُ ما رأتْ أشياعُها   والرِّيحُ أحيانًا كذاكَ تَحَوَّلُ

هذا الكلام تهكُّم وسخريةٌ . ولا أَبالكَ : بعثٌ وتحضيض ، وليس بنفي الأبوّة ، وخبر لا محذوف ، لأنَّ النيّة في لا أَبَالَكَ الإضافة ، ولذلك أثبتَ الألفَ في أبَا ؛ فكأنَّه قال لا أَبَاكَ موجودٌ أو في الدُّنيا . وقد مضى القولُ فيه مشروحًا (3) . فيقول : كانت هذه القبيلة فيما مضى من الأيَّام ، وتَقَضَّى من المِرار ، عند لقاء الأعداء وفيما تباشره من الأمور والأحوال ، أسنَّةً لا تكبو ولا تضعُفُ ، نَفاذًا في العَزَائم ومَضاءً ، ولا تَنْبُو ولا تقف ، كُلُولاً في الصَّرائم ونُكولاً ، فقد عادت الآن مقتديةً بأشياعها ، وآخذةً إخْذَهم في الارتداد والنُّكوص ، والإحجام والنبوّ ؛ والرِّيح تتحوَّل أحيانًا [كذلك ، مرّةً تكون شمالا ومرّةً

---

(١) التبريزى : « الهجاء هو الوقيعة فى الأنساب وغيرها ، ورمى الإنسان بالمعايب ، وأصله التسكين ، من قولهم : هجا غرثه وجوعه وأهجى ، إذا سكن . فكأنه إذا رمى الإنسان بالعيوب سكن من إشرافه . وقيل : بل معناه التفصيل ، ومنه حروف الهجاء ، وهجا فلان الكلمة ، إذا فصل حروفها . فكأن الشاعر إذا هجا غيره مزقه وفصله » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٣ ص ٣٦٣ . قال التبريزى رواية عمن يعرف العبرية « إنما سمى موسى لأنه لما رفع من بين الماء والشجر قالوا : موشى ، كأن معناه منشول ، أى نشلوه كما ينشل اللحم من القدر » . وهذا يطابق ما ورد فى سفر الخروج ٢ : ١٠ .

(٣) انظر ص ٥٠٠ — ٥٠١ .

جنوبا . وقوله « كذا » موضعه من الإعراب نصبٌ على المصدر من تحوَّل .. أراد : والرِّيح تتحوّل أحياناً[1]] تحوُّلاً كذلك . أى كما عرفتَ .

٥٩٦

[وقال قراد بنُ حَنَشٍ الصَّارِدىّ[2]] :

١ — لَقَومِيَ أرْعَى للعُلَى مِنْ عِصابَةٍ   من النّاسِ يا حارِ بْنَ عَمْرٍو تَسُودُها
٢ — وأنتم سَماءٌ يُعجِبُ النّاسَ رِزُّها   بآبِدَةٍ تُنْحِي شَديدٍ وَئيدُها
٣ — تُقَطِّعُ أطْنابَ البُيوتِ بحاصِبٍ   وأكْذَبُ شيءٍ بَرْقُها ورُعُودُها
٤ — فوَيْلُمِّها خَيْلاً بَهاءً وشارَةً   إذا لاقَتِ الأعداءَ لولا صُدودُها

يقول : لقومى أحسنُ رعايةً وتفقُّدًا ، وأوفرُ عنايةً وتكسُّبًا لأسباب العُلَى وحِفظ أواخِيِّها ومَوادِّها ، من طائفةٍ من الناس أنتَ تسُوسُها وتُدبِّرُها ، وما أشبِّهُكم فى كثرة دعاويكم وقِلّة فَعالِكم إلاّ بسحابةٍ تكثُرُ بُرُوقُها ورعودُها ، ويُعجِب متأمِّلَها ومستمعَها رَبابُها وهديرها ، بريحٍ تُعَدُّ آبدةً — أى أعجوبةً أو داهيةً تبقى على الأبد — شديدةِ الخفيف ، قَطّاعةٍ لحبال البيوت بما يجىء منها بالحصْباء ، ثم تراها مُخْلِفةً[3] فيما وعدَت من المطر ، فأكذَبُ شىءٍ بَرْقُها

(١) التكملة من ل .
(٢) التكملة من التبريزى وابن جنى فى التنبيه . وقال المرزبانى فى معجمه ٣٢٧ : « قراد ابن حنش بن عبد الله بن عبد العزى بن صبيح بن سلامة بن الصارد بن مرة » جاهلى من شعراء غطفان المشهورين . وهو قليل الشعر جيده . قال أبو عبيدة : كانت غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبى سلمى ، ادعى الأبيات التى أولها :
إن الرزيئة لارزيئة مثلها   ما تبتغى غطفان يوم أضلت
وهم بنو الصارد بن مرة بن عوف بن غطفان . الاشتقاق ١٧٦ . قال التبريزى : الصارد : النافذ : صرد السهم يصرد صردا .
(٣) كذا فى ل . وفى الأصل : « مخالفة » .

اللَّمَّاع ، ورغدُها النَّبَّاح . والباء من قوله « بآبدة » تعلقت بقوله « يُعجِب الناس » أى يعجب رزّها بآبدةٍ ، أى ومعها آبدةٌ .

وقوله « فَوَيْلمِّها خيلاً » انتصب خيلاً على التمييز ، وحذفت الهمزة من أمّ فى قوله « ويلمّها » لكثرة الاستعمال ، وليس الحذف هذا بقياس . واللّفظة تفيد التعجُّب . و « بهاء » انتصب على أنه مفعول له ، فيقول ساخرًا : ويلمِّها من خيل ، لكمال بهائها ، وحسن شارتها ، عند لقاء الأعادى ، لولا انهزامُها وإعراضُها .

ورُوِى : « لقَوْمِيَ أدْعَى للعُلَى » بالدال[1] ، والأوّل أحسن وأصوَب .

والعِصابة : الجماعة . وقوله « يا حارِ بنَ عمرو » الترخيم فى قول من يقول فى النداء يا حارث بن عمرو، فيَضُم وينوِّن فى غير النداء ، فيقول : هذا زيدٌ بنُ عمرو[2] . وأحسن منه فى قول من يقول : يا حارثَ بنَ عمرو ، فيفتح ويجعل الأول والثانى بمنزلة شىء واحد ، وذلك أنه يُخرج آخر الاسم إذا جُعِل مع الصِّفة شيئًا من أن يكون آخرًا ، والترخيم يدخل الأواخرَ لا الأوساط .

وقوله « وأنتم سماء » يُسَمُّون السحابَ سماء ، وكذلك المطر . ألاَ ترى قوله :

---

(١) التبريزى : « المراد أكثر دعاء إلى العلى » .

(٢) هذا نص نحوى نادر . وقال ابن جنى فى التنبيه : « كان القياس ألا يجوز ترخيم الاسم الموصوف بابن ، من قبل أن العلم إذا وصف بابن فلان فقد جعلا معا كالاسم الواحد ، ولذلك قالوا يا زيد بن عمرو ، ففتحوا الأول لفتحة الثانى ، وإذا كانا كالاسم المفرد فقد حصل جزء الاسم الأول حشوا إذن لا طرفا ، وإذا كان حشوا لم يتطرق عليه حذف الترخيم . فهذا وجه قياس امتناعه ، غير أنه جاز فيه الترخيم من حيث كان الموضع موضع إيجاز واختصار ، ولذلك حذف التنوين من الأول ، فلما جاز حذف تنوينه بغير إضافة جاز أيضاً حذف آخره للترخيم » .

إذا سَقط السَّماء بأرضِ قومٍ رَعَيْناهُ وإن كانوا غِضَابا[1]

والرِّز والوئيد جميعاً : الصَّوت . ومعنى تُنْجِي تُقْبِل . وقوله « لولا صدودُها » جواب لولا فى صدر البيت ، وقد تقدَّم القول فى المبتدإ بعده ومجيئه بِلا خبر[2] .

٥٩٧

وقال عُمَارة بن عَقِيل[3] :

١ — مَن مُبْلِغٌ عنِّى عَقِيلاً رِسالةً فإنك من حَرْبٍ علىَّ كريمُ

٢ — ألم تَعلَمِ الأَيَّامَ إذْ أنتَ واحِدٌ وإذْ كلُّ ذى قُرْبَى إليكَ مُلِيمُ[4]

٣ — وإذْ لا يَقِيكَ الناسُ شيئاً تخافُه بأَنفُسِهم إلاَّ الَّذِينَ تَضِيمُ

تمنَّى أن يتَّفق من يبلِّغ عَقيلا عنه رسالتَه ، فأتى بلفظ الاستفهام ، والرسالة « إنك من حَرْبٍ علىّ كريم » وما بعده . وبَنَى كلامه على الاستعطاف ، ثم أخذ فى التَّقريع . ومعنى قوله : « إنك من حربٍ علىّ كريم » إنك تكرُم علىَّ من جملة من ينتسب إلى بنى حَرب[5] .

(١) لمعود الحكماء معاوية بن مالك ، كما فى اللسان (سما) .

(٢) انظر ص ٢٨٣ .

(٣) كذا فى النسختين . وعند التبريزى وابن جنى : « عملس بن عقيل بن علفة » . وقد سبقت ترجمة عقيل بن علفة فى ص ٤٠٠ . وفى الأغانى (١١ : ٨٤) نسبة الأبيات إلى علفة بن عقيل بن علفة ، وعلفة بن عقيل أخو عملس بن عقيل . وأما عمارة فهو عمارة بن بلال بن جرير بن عطية بن الخطفى ، وكان شاعراً مقدما فصيحا ، يسكن بادية البصرة ويزور الخلفاء فى الدولة العباسية فيجزلون صلته ، ويمدح قوادهم فيحظى بكل فائدة . وكان النحويون بالبصرة يأخذون عنه اللغة . الأغانى (١٠ : ١٨٣) . ونسبة الشعر إلى عمارة نسبة خاطئة . وللأبيات قصة فى ترجمة عقيل بن علفة من الأغانى (١١ : ٨٤) .

(٤) التبريزى : « ألا تعلم الأيام » . الأغانى : « أما تذكر الأيام » و « ذميم » .

(٥) وقد تابعه التبريزى فى هذا الفهم ، وليس لعقيل بن علفة علاقة ببنى حرب . وإنما الحرب هنا العداوة والمشاكسة التى كانت مستمرة بين عقيل بن علفة وبنيه ، يعنى أنه مع ذلك يكن له إكراماً واحتراما .

وقوله « ألم تَعلم الأيامُ » تذكيرٌ له بخِذْلان عشيرته إياه ، وتفرُّدِه بما كان يقاسيه ، فيقول : أتذكر حينَ كنتَ فرداً وحيداً لا ناصر لك ، وإذْ كان كلُّ قريبٍ ونسيب لك مُليماً عندك — والُمليمُ : الذى يأتى بما يُلامُ عليه — وحين لا وَاقِىَ لك من شىءٍ تخافُه إلا الذين أنت تظلمهم الساعةَ . فقوله « إلاَّ الذين » استثناء بدل ، ويجوز أن يكون فى موضع النَّصب على الاستثناء المطلق ، والضمير العائد إلى الذين من الصِّلة محذوف ، استطالةً للاسم ، والتقدير : تَضِيمُهُم ، أى تظلمهم .

وقولُه : « ألم تعلم الأيام » ، ألم : يقرَّرُ به فيما ثبت ووقع . ويروَى « الأيامُ » بالرفع ، و « الأيامَ » بالنصب . فإذا رويتَ الأيامَ بالنَّصب يكون الخطاب لعَقِيل ، ويكون تَعْلَمُ بمعنى تعرف . والمعنى : أما عَرَفْتَ الأيامَ التى كان حالُكَ فيها ما ذكرت ، وأتَنْسَى تلك الأيام . والمراد بالأيام حوادثُ الدهر . وقوله « إذ أنت » ظرفٌ لها ، وإذا رفعْتَ الأيامَ يكون المعنى : ألم تعرِف الأيامُ حالتَك وقصَّتَك — والمعنى أهلُ الأيامِ وأصحابُ الأيام — حين كنتَ كذا وكذا . فيكون الكلام على حذف المضاف .

٤ — أترْقَعُ وَهْىَ الأَبْعَدِينَ ولم يَقُمْ   لِوَهْيِكَ بينَ الأقْرَبينَ أَدِيمُ[(١)]

٥ — فأمَّا إذا عَضَّت بكَ الحرْبُ عَضَّةً   فإنَّكَ مَعْطوفٌ عليكَ رَحِيمُ

٦ — وأمَّا إذا آنَسْتَ أَمْناً ورِخْوَةً   فإنَّكَ لِلقُرْبَى أَلَدُّ خَصُومُ[(٢)]

وقوله[(٣)] : أترقع لفظه استفهام ، ومعناه التقريع ، فيقول : إنك تَسعَى فى

---

(١) رواية الأغانى :

تناول شأو الأبعدين ولم يقم   لشأوك بين الأقربين أديم

(٢) التبريزى : « خصيم » لكن شرحه يدل على أن الكلمة محرفة ، فهو يقول نقلا عن المرزوقى ، وإن لم يصرح كعادته : « والخصوم بناء للمبالغة ، وهو أبلغ من خصيم لأنه أشد تباعداً من أبنية أسماء الفاعلين » . وانظر ما سيأتى فى الحواشى من كلام ابن جنى .

(٣) هذا ما فى ل ، وفى الأصل : « يقول » .

استعطاف الأباعد وإدنائهم ، وإصلاح الفاسد من أحوالهم ، رجاء التئام أمرك بهم ، وقد أفتَّ نفْسَكَ حظَّكَ من أقاربك ، ومن تَحدُّبِهِمْ عليك ، لسَعيك فى إفساد أحوالهم ، ونَحت أَثْلَتِهِم ، وتضييع غيبتهم . وهذا رأىٌ فائلٌ ، وتوفيق سيِّئٌ .

وقوله «لم يقم لوهْيك» ، يريد بالوهْى الذى يحصلُ بك وبثلبك واغتيابك . وذِكر الأديم مَثَلٌ ، أى لا يبقَى أصلُه لتمزيقك ، ولا يثبت صِحَّته لتخْريقك . ويقال : فلانٌ صحيحُ الأديم ، وفلانٌ نَغِلُ الأديم . وفى المَثَل : « أَوْسَعْتَ وهْيًا فارْقَعْهُ » .

وقوله « فأمَّا إذا عَضت بكَ الحربُ عضَّةً » يريدُ : أنك إذا نابتْك نائبة ، وأصابتك من أَزَمات الزَّمان وعضَّاته أزْمة ، وألجأتك من مَصارفِ الحرب ضَغطةٌ فإنك تستعطف عليك ذَوِيكَ وعشيرتَك ، وتعتمد رحمَتَهم لك ، وتطلب شفقتَهم والأخْذَ بالفضْل فيك . وقوله « رَحِيمُ » هو فعيلٌ فى معنى مفعول ، أى إنك معطوفٌ عليك مرحوم .

وقوله « وأمَّا إذا آنستَ » ، يقول : أمَّا إذا أمِنتَ ووجدتَ من مَضَايقك رخاء ، ومن شَدائدك لِيناً ، على حسَب عادةِ الدَّهر فى تلوُّنه ، فإنَّك تَخرُج خصماً ألدَّ لهم ، تَطلب إغلاقَ الحججِ عليهم ، وتسدُّ أبوابَ الخير دونهم ، وتَصرِف مَفاتحَ الرُّشْد عن وجوههم وطرُقهم ، وهذا غايةٌ للُؤْم وسوءِ الاختيار . والألدُّ : الشَّديد الخُصومة ، العَسِر الانقياد . وهو اليَلَنْدَد والألندد . والخَصُوم : بناء المبالغة ، وهو أبلغ من خَصِيم ، لأنَّه أشدُّ تباعداً من أبنية أسماء الفاعلين(١) .

(١) ابن جنى : « خصوم أشد مبالغة من خصيم ، لأنها أقرب إلى الأصل الذى هو فعول ، أعنى المصدر . فإن قلت : فإذا كانت فعول أشد مبالغة من فعيل فهلا جاءت الآية بسم الله الرحمن الرحوم ؟ قيل : قد حصلت المبالغة بالرحمن ، لأن فعلان من أبنيتها . وقد قال ابن عباس : إنهما اسمان رقيقان من الرحمة أحدهما أرق من الآخر ، يعنى الرحيم ، فلما كانت الرحمة فى الأصل من بنى آدم رقة ولينا وكانت هنا رأفة وتعطفا ، كان فعيل أليق لها لفظا من فعول » .

٥٩٨

وقال أَرطاةُ بن سُهَيَّةَ المُرِّىّ[١] :

١ — تَمَنَّتْ وَذاكُمْ مِن سَفاهةِ رأْيِها لِأَهْجُوَها لَمّا هَجَتْنِي مُحارِبُ

٢ — مَعَاذَ الإلٰهِ ، إنَّنِي بقبيلتِي ونَفْسِيَ عنْ ذاكَ المَقَامِ لَرَاغِبُ

ارتفَع قوله « محارب » بفعلها وهو تمنَّت . فيقول : تمنَّتْ هذه القبيلةُ لما تحكَّكَت بى وهجَتْنى ، وتشهَّت مقابلتى إيَّاها بمثلِ مافَعَلَتْ ، وذلك لِخفَّةِ رأْيِها ، وتناهِي جهلها . فقوله «وذا كُم» الواو واو الابتداء ، وهى للحال ، وذا كم ابتداء ، ومن سفاهة خَبَرُه . وتلخيص البيت : تمنَّت مُحارِبٌ لما هجَتْنى لأنْ أهجوها ، وذا كم مِن سفاهة رأيها . والمراد : حَدَّثَتْ مُنْيَتُها لهجوى لها . ومثله :

* أريدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا[٢] *

وفى القرآن : ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُم[٣] ﴾ .

وقوله معاذ الإلٰه انتصب على المصدر ، أى أعوذ بالله معاذًا من أن آتىَ ذلك ، لأنّى أرغبُ بنفسي وأربأ بأصْلى عن الوقوف فى ذلك المقام ، وأصُون شَرَفى وأرفع عقلى عن مُساوَقتهم لفظًا بلفظ ؛ وفعلاً بفِعل .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٥ ص ٣٩٧ .

(٢) قطعة من بيت لكثير فى أمالى القالى (٣ : ١١٩) . وهو بتمامه :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

(٣) التبريزى : « فإذا جعل تمنت من الأمانى المعروفة فالمعنى ودت أنى أهجوها لتفخر بذلك ، ويكون الفعل واقعا على مضمر محذوف ، كأنه قال : تمنت أمورا لأهجوها ، وأكثر الكلام تمنيت أن يكون كذا ، فيصل الفعل إلى أن وصلتها من غير حرف متوسط ... وإذا جعل قوله تمنت فى معنى كذبت فالمراد أنهم تكذبوا على فى الهجو لأغضب فأهجوهم » .

٥٩٩

وقال زُمَيْلٌ(١) :

١ — إنِّى امرؤٌ أطوِى لمولاىَ شِرَّتِى — إذا أثَّرَت فى أَخْدَعَيْكَ الأناملُ

٢ — خُلِقتُ عَلَى خَلْقِ الرِّجال بأَعْظُمٍ — خِفَافٍ تَطَوَّى بينَهُنَّ الأناملُ

٣ — وقَلْبٍ جَلَتْ عنه الشُّؤُونُ وإنْ تَشأْ — يُخَبِّرْكَ ظَهْرَ الغَيبِ ما أنتَ فاعِلُ

يصف نفسَه فى البيت الأوّل بأنَّه يكفّ أذاه عن مولاه ، وأنَّه إذا أجمعَ أهلُ الرَّأى على نسبة مُخاطَبه إلى الغَدر ، والخِيانة والشَّرّ ، فأشاروا بأصابعهم إذا وَلَّى إلى قفاه ، فقالوا : هذا قفَا غادِر ، فإنَّه ينطوى شِرَّتَهُ فى ذلك الوقت عن مولاهُ ومكروهَهُ ، فلا يُعْنِتُ نسيبا ، ولا يؤْذِى جاراً قريبا ولا غريباً .

وقوله « خُلِقتُ على خَلْق الرِّجال » تبجّح فى هذا البيت بأنه شَخْتٌ من الرِّجال قليلُ اللحم ، مَديدُ القامة ، فَخَلْقه خَلْقُ الرجال لا خلق النِّساء ، فلا يَشِينُه سُمْنَةٌ(٢) ولا فَشَلٌ ، ولا يقعد به آفةٌ ولا كسل ، فأعظُمُه خِفاف ، ومفاصله بينها مطويّةٌ مُمحَّصةٌ لطاف .

وقوله « وقَلْبٍ » عَطَفَه على بأَعظُمٍ ، يريد : وبقَلْبٍ هَذَّبَهُ الأمور ، وكشفَ عنه الطَّبع والرَّيْنَ مزاولةُ الشُّؤُون ، فهو بتجاربه يتصوّر ما لم يكنْ بصورةِ ما قد كان ، ومتى شئتَ أخبَرَكَ بخُبْرِهِ ومعرفته ، وفَرْط شهامته وتمييزه ،

---

(١) التبريزى وابن جنى : « وقال زميل بن أبير » ، وزميل وأبير بهيئة التصغير ، ويقال فى اسم أبيه أيضا « وبير » و « دبير » . وهو من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، أحد بنى عبد الله بن عبد مناف وهو قاتل ابن دارة فى خلافة عثمان ، ويقال فيه أيضا « زميل بن أم دينار » منسوبا إلى أمه . المؤتلف والمختلف ١٢٩ والإصابة ٣٩٧٣ والخزانة (١ : ٢٩٣ — ٢٩٤) ، وكان بينه وبين أرطاة بن سهية مهاجاة .

(٢) المعروف فى السمنة أنها دواء السمن .

وحِدَّةِ نَظَره وبصيرتِهِ بما أنتَ فاعلُه بعد الغيب . وانتصب « ظَهرَ الغيب » على الظَّرف ، و « ما أنت » ما فيه بمعنى الذى ، وأنت فاعل من صلته ، وقد حذف حرف الجرّ معه ، كأنَّه قال : يُخبِّرُك بما أنت فاعله . ويقال : خبَّرْتُه كذا وخبّرته بكذا ، وحدَّثته كذا وحدَّثته بكذا .

٤ ـ ولَستُ بِرَبْلٍ مِثْلِكَ احْتلَمَت به عَوَانٌ نَأَتْ عَن فَحْلِها وهى حَافِلُ[١]

٥ ـ فجِئتَ ابنَ أحلامِ النِّيام ولم تَجِدْ لِصِهْرِكَ إلاَّ نَفْسَها مَنْ تُبَاعِلُ[٢]

كان رواية الناس قبلنا « احتملتْ به » والصواب « احتلمت به » ، بدَلالة قوله « فجئتَ ابنَ أحلامَ النِّيام » . والرَّبل : السَّمين الرَّطب ، وقد تقدم ذكرُه وتصاريفه[٣] . والعَوَان : النَّصَف من النِّساء ، والفعل منه عَوَّنَتْ ، ويقال : عانَتِ البقرةُ عَوْناً ، صارت عَوَانا . وحَرْبٌ عَوَانٌ : قُوتِل فيها مرَّةً بعد أخرى . فيقول : لستُ بِرَطْبٍ مُسْتَرْخٍ مثلِكَ ، احتلمت به امرأةٌ عوان بَعُدَ عهدُها بفحلها ، وهى ممتلئة شَبَقًا ، فحملت فجاءت من احتلامها بك . والمعنى : أنه لا والدَ لكَ إلاَّ ما رَأَتْ أُمُّكَ عند شِدَّة غلمتها من احتلامها ، فأنت شرٌّ ممن يَجِيء لِزِنْيَةٍ . ومعنى « ولم تَجِدْ لِصِهرك » أى لم تصاهِرْه فيك ، أى تخالطه . وقال الخليل : الصِّهر حُرْمَة الخَتَن . وخَتَنُ القوم : صِهرهم . وحُكِىَ عن أبى الدُّقَيْشِ[٤] : أَصْهَرَ بهم الخَتَن ، أى صار فيهم صِهرًا . فيقول : لم تجدْ خَتَناً

---

(١) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : « ليس لزميل ، بل هو لأرطاة بن سهية يهجو زميلا . ونظام البيت أيضا مختل ، والصواب :

ولست بربل مثلك احتلمت به عوان نأت عن بعلها وهى حائل

فجئت ابن أحلام النيام ولم يكن لبضعك إلا طهرها من تباعل »

(٢) التبريزى : « لطهرك » وقال : « أى للطهر الذى حملتك فيه . ومن روى : لظهرك ، فالمعنى للظهر الذى خرجت منه » .

(٣) انظر ما سبق فى ص ٧٨٨ .

(٤) أبو الدقيش القنانى الغنوى ، أحد الأعراب الفصحاء الذين أخذت عنهم اللغة

إلاَّ نفسَها ، إذا كان ذلك الاحتلامُ لم يتجاوزْها ، وإذْ كان مباءَلةُ النَّفس على ما وصفَه إنَّما حصلَتْ عن شبَقٍ ولزومِ ذِكرِ الجِماع فى اليقظة ، وإلاَّ نفْسَها : مستثنًى مقدم . وقوله « ابنَ أحلام النيام » نَصْبٌ على الحال ، لأنَّ أحلامَ النِّيام لا يتخصَّص ، فلا يصير المضافُ إليه معرفة(١) .

٦٠٠

وقال خارجةُ بنُ ضِرارٍ المُرِّىّ(٢) :

١ — أخارجَ هَلَّا إذْ سَفِهْتَ عشيرةً ... كَفَفْتَ لِسانَ السَّوْءِ أن يَتدَعَّرا(٣)

٢ — وهَلْ كُنْتَ إلاَّ حَوْتكيًّا ألاقَهُ ... بَنُو عَمِّه حَتَّى بَغَى وتَجَبَّرا

٣ — فإنَّكَ واستِبضاعَكَ الشِّعرَ نَحوَنا ... كمستَبْضِعٍ تمرًا إلى أهلِ خَيْبَرا(٤)

قوله « سَفِهت عشيرةً » ، قال يونس : سَفِهَ لغةٌ فى سَفُهَ ، وعلى هذا تنصب عشيرةً على المفعول به ، ويجوز أن يكون مما نُقِلَ عنه الفعل ، كأنَّه قال : سَفِهتْ عشيرتُك فنَقل السَّفَهَ إلى نفسه فقال : سَفِهْتَ ، فأشبه عشيرةً المفعول ، فنُصِب نَصْبَ التَّمييز . وقوله « يتدعَّرُ » أى يَخْبُثُ ويَفْجُر . يقال : رجلٌ داعِرٌ بيِّن

= فهرست ابن النديم ٧٠ . وقال التبريزى فى شرح الحماسية ٦٠٠ : «قال الليث : قلت لأبى الدقيش : ما الدقش ؟ فقال : لا أدرى . فقلت : فما الدقيش ؟ قال : لا ، ولا هذا أدرى . قلت : فاكتنيت بما لا تدرى ما هو ؟ فقال : إنما الأسماء والكنى علامات » .

(١) أوضح منه قول ابن جنى فى التنبيه ، « فإن قلت : فإنه معرفة . قيل : لما كان مثلا لا حقيقة تحته عاد به المعنى إلى التنكير » .

(٢) التبريزى : « وفى بعض النسخ : وقال زميل لخارجة بن ضرار » . وأنشد صاحب اللسان هذه الأبيات منسوبة إلى خارجة بن ضرار المرى ، ونقل عن ابن برى أنها تروى لزميل ابن أبير يهجو خارجة . والشعر على رواية المرزوقى ينطق بأن قائله غير خارجة . ويفهم من هذا أيضاً أن « خارجة » كان معاصراً لزميل بن أبير المترجم آنفا .

(٣) التبريزى : « أخالد » وبهذا تقرب نسبة الشعر إلى خارجة . وروى فى اللسان مرة : « أخالد » ومرة : « أخارج » .

(٤) التبريزى : « أرض خيبرا » .

الدَّعارة . وحُكِي : فى خَلْقِه دَعَارَّة ، فى معنَى زَعَارَّةٍ ، وعلى زنته . ومنه عُود دَعِرٌ ، أى كثير الدُّخان . والحَوْتَكِيّ : الضَّاوِى الضَّعيف . وقال الخليل : الحَوْتَكُ والحوتكيُّ : القصير الصَّغير . ومعنى أَلاَقَهُ : أَلْصَقَهُ وضَمَّه أبناء عَمِّه إلى أنفُسِهم ، فبغَى لمَّا رأى ذلك . واستِبضاع السِّلعة : أنْ تحمَلها بنفسك ؛ وإبضاعُها : بَعْثُها ، وكما قيل فى المَثَل : « كمستبضع تَمراً إلى أهل خيبر » لكثرة نخلِها ، قيل أيضاً « كمستبضع التَّمر إلى أهل هَجَر » ، وهذا كما قيل « كمستبضع المِلْح إلى بارِق » .

ومعنى الأبيات : هلا إذْ كنتَ سفيهَ العشيرةَ لئيمَ الفصيلة ، أمسكتَ عن الخنا والفُحْش ، وصُنْتَ نفسَك ولم تعرِّضْها للهجاء المُمِضّ : هذا وما كنتَ إلاَّ حقيراً قليلا ؛ قميئاً صغيرا ، رَقَّ له أقاربُه بعد ما كانُوا ينفُونه ويتبرءون منه ، فألصقوه بأنفُسهم ، فطغَى مِن ذلك واستعلَى . وأمَا علِمتَ أنَّك وحَمْلكَ الهجاء إلينا فى النَّدَم والخُسران ، وسُوءِ العاقبة ، كَمن حَمَلَ التَّمرَ إلى خَيبر يَتَّجِرُ فيه ، فرجع نادما ، وحَصَل خاسِرا .

٦٠١

عُمارَة بن عَقيل (١) :

٣ — بَنِي مُنْقِذٍ لا آمَنَ اللهُ خَوْفَكُم وزَادَكُمُ ذُلاًّ ورِقَّةَ جانِبِ
٢ — فمَنْ يَرْتَجِيكُمْ بَعْدَ نَائِلَةَ الَّتِي دَعَتْ وَيْلَهَا لمَّا رَأَتْ ثأْرَ غَالِبِ
٣ — دَعَتْهُ وفِي أثْوابِهِ مِنْ دِمَائِها خَلِيطَا دَمٍ مِنْ ثَوْبِهِ غَيْرِ ذاهِبِ

نَائِلَةُ : امرأةٌ زُوِّجتْ قاتلَ أبيها أو أخيها ، فجعَل عُمارة يعيِّرهم ذلك .

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٥٩٦ ص ١٤٣٢ .

والعرب تقول : دمُ فلانٍ فى ثوبِ فلان ، إذا كان قاتلَه .

قال أوس بن حَجَرٍ :

نُبيتُ أَنَّ دَمًا حَرَامًا نِلْتَهُ فَهُرِيقَ فى ثَوْبٍ عَلَيكَ مُحَبَّرِ

وقال الفرزدق :

تَمَشَّى حَرَامٌ بالبَقيعِ كأنَّها نَشَاوَى وفى أثوابها دَمُ سَالِمِ[1]

فيقول : أبدلَكم الله يا بَنِى مُنقِذ بالأمن خَوْفًا لا يفارقكم ، وزادكُم على مرِّ الأيَّام ذُلاًّ وخضوعا ، ولِينَ مَجَسٍّ وسُقوطا ، فإنَّه لا يُعَلِّقُ الرَّجاء بكم ، ولا يَستنيمُ أحدٌ إليكم ؛ بعد نائلةَ التى دَعَت بالويلاتِ لمّا رأت ثأر غالبٍ أخيها أو أبيها ، وقد ملَّكتموه أمرَها ، وجعلتموه بالتزويج قَيِّمها ، ثم قال : دعَت نائلة الوَيْل وفى أثواب زوجِها لها خليطا دَمٍ ، هما دمُ أبيها أو أخيها ، بقتْلِه له ؛ والثانى دم عُذْرَتِها ، لتزوُّجه بها ، فهما لا زمانِ لثوبه لا يفارقانه . ويروى « شَرِيجَا دَمٍ » . وكلُّ لونينِ اجتمعا فهما شَرِيجانِ . وقوله « غير ذاهب » ، غيرُ صفةٌ لِدَمٍ ، ويروَى : « مُهْرَاقهُ غيرُ ذاهب » ، ويكون الجملةُ صفةً لدمٍ أيضاً . وقوله « مَن يرتجيكم » استفهامٌ على طريق التَّقريع ، وفيه معنى النَّفْى ، أى لا يرجوكم أحد . ومعنى « دعت ويلَها » صاحت بالويلِ لى . وفى القرآن : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ .

(١) حرام : قبيلة ، وهم بنو حرام بن سمال بن سليم بن منصور . الاشتقاق ١٨٧ والمعارف ٣٨ . والبيت من أبيات فى هجاء عبد الله بن خازم السلمى ثم الحرامى ، وكان قتل مولى لبنى يربوع بخراسان يقال له سالم . ورواية الديوان ٧٧٦ : « كأنها حبالى » .

٦٠٢

وقال طرَفَةُ بنُ العَبْدِ[1] :

١ — وفَرَّقَ عن بَيْتَيْكَ سَعْدَ بنَ مالِكٍ وعَمْـرًا وعَوْفًا ما تَشِي وتَقُولُ
٢ — وأنتَ عَلَى الأَدْنَى شَمالٌ عَرِيَّةٌ شَـآمِيَةٌ تَزْوِى الوُجوهَ بَلِيلُ
٣ — وأنتَ على الأَقْصَى صَبًا غيرُ قَرَّةٍ تَذَاءَبَ منها مُرْزِغٌ وَمُسِـيلُ
٤ — وأَعْـلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بالظَّنِّ أنه إذا ذَلَّ مَوْلَى المرءِ فهو ذَلِيـلُ[2]

قوله « ما تشى » فى موضع الفاعل لفرَّقَ . و« ما » إن شئتَ جعلتَه بمعنى الذى ، وصِلَتُه تَشِى ، والضمير العائد من الصِّلة إليه محذوف كأنه قال : ما تَشِيهِ وتقولُه . وإن شئتَ جعلت ما حرفًا ويكون مع الفعل فى تقدير مصدر ، ولا يحتاج إلى ضميرٍ من الصِّلة يعود إليه ، لـكونه حرفًا ، ويكون التقدير وِشايتُك وقولُك . ويَعنى ببَيْتَيْك : أخوالَه وأعمامَه . فيقول : فرَّقَ عن بيتَىْ أهلِكَ وذويكَ من قِبَل أبيك وأمِّك ما تأتيه من إبلاغاتٍ تتقوَّلها ، ونمائم تختلقها وتصنِّفُها : سعدَ بن مالك وعمْرًا وعَوْفًا ؛ وإنما يَعنِى بهم أفخاذًا وبطونًا كان

---

(١) طرفة بن العبد : أحد شعراء الجاهلية الذين تنسب إليهم المعلقات ، وطرفة لقب له ، واسمه عمرو . والطرفة بالتحريك : واحدة الطرفاء ، وهو الأثل . وقال طرفة الشعر صغيراً ، يروون أنه قتل وهو ابن عشرين فيقال له : ابن العشرين . وقيل : وهو ابن ست وعشرين ، وفى ذلك تقول أخته فى رثائه :

عددنا له ستاً وعشرين حجة فلما توفاها استوى سيدا ضخما

وخاله المتلمس الضبعى صاحب الصحيفة . انظر الخزانة (١ : ٤١٢ — ٤١٧) والشعراء ١٣٧ — ١٤٩ والأغانى (٢١ : ١٢١ — ١٣٢) .

(٢) الأبيات من قصيدة فى ديوانه ٥٠ — ٥٣ يهجو بها عبد عمرو بن بشر بن عمرو ابن مرثد . وأنشد بعده التبريزى :

وإنَّ لسانَ المرءِ ما لم تكُنْ له حَصَاةٌ على عوراتِهِ لدَلِيـلُ

ضَلْعُهم معهم(١) ، فلم يزَلْ يَسعَى بالتحريش ، ويَمشى بالنَّميم ، حتى فرَّق جمعَهم ، بما أوقَع من الشرِّ فيهم .

وقوله «وأنت على الأدنى شَمالٌ عَرِيَّةٌ» فالعرِيَّة : الباردة ، ومنه قولهم : عُرَواء الحُمَّى . فيقول : أنتَ على أقاربكَ فى سوء اعتقادك لهم ، وسَوْقِك الشرَّ إليهم ، وجَرِّك الجرائر عليهم ، بمنزلة الريح الشَّمال الباردة ، المحرقةِ للوجوه ، إذا هَبَّت فى الشِّتاء ، ويُصْحِبُها بَلَلٌ من المطر ، ونَدًى يُقبِّضُ الجلدَ ، ويُجفِّف المَفصل والوجه . وإنما قال شآمية ، وإن كان الشَّمال لا تهبّ إلاَّ من ناحية الشأم تأكيداً . والصِّفات كما تجىء مفيدةً مميِّزة(٢) تجىء أيضاً مؤكِّدة لا تُفيد فى الموصوف أكثرَ مما عُرِفَ فيه . وعلى هذا قد تجىء الأحوالُ أيضاً ، لكونها صفاتٍ فى الأصل .

وقوله « وأنت على الأقصَى صَبًا غيرُ قَرَّةٍ » يريد أنه على الأجانب فى تعطُّفه عليهم ، والانطواء على الجميل لهم ، بمنزلة ريحِ الصَّبا تَهُبُّ ولا بَرْدَ معها . وقد تذاءبَ منها ، أى تَسهَّل واضطرَبَ من أجلها . والذِّئب فيمن هَمَزَه منه اشتُقَ ، لأنه كلما طُرِدَ من جانبٍ يتسهَّلُ ويحصُل من جانبٍ آخر ، لوقاحته . والمُرْزِغُ : الذى يأتى بالرَّزَغة ، وهى الوَحَل . والمُسيل : المُذِيبُ للجامد . والمعنى : أنت للأجانب بمنزلة القَبُول التى تُرْزِغُ الأرضَ فى مَهابِّها ، وتُسِيلُ التِّلاعَ ، وتَبُثُّ الخيرَ ، وتُوَسِّعُ الخِصْبَ .

وقوله « وأعلم علماً ليس بالظَّنّ » لمّا كان لفظةُ العِلْم قد يُطْلَقُ على الظنِّ الغالب ، لقيامه مقام ما هو عِلْمٌ فى الحقيقة ، أكَّدَ قوله وأعلَمُ بقوله ليس بالظن ، وبَيَّن بهذا الكلام الخطأَ فيما يأتيه المخاطَب ، وأنه إذا أفاتَ نفسَه حظَّه من

---

(١) الضلع ، بالفتح : الميل والهوى .

(٢) فى الأصل : « لا مميزة » صوابه فى ل .

أقاربه وعشائره بسوء معاملته، فإنه لا يستفيد من الأجانب ما عند الحاجة يُغْنِي، وإذا ذَلَّ أتباعُه ولم يستبقِهم لنفسه فالذلُّ لاحقٌ له، ومُحتَفٌّ به. وبهذا الخطاب نَعَى عليه فِعلَهُ، وبَيَّن له سوءَ التقدير فيما اختارَهُ، وفِعلَ الغَوَايةِ فيما اعتقَدَه واعتادَه. والضمير من قوله «إنه» للأمر والشأن، كأنه قال: وإنَّ الأمر الحقَّ إذا ذَلَّ ابنُ عمِّ المرء فهو ذَليل.

٦٠٣

بُشَير بن أبي جَذيمة[(١)]:

١— أَتَخْطِرُ للأشراف يا قِرْدَ حِذْيَمٍ وهل يَسْتَعِدُّ القردُ للخَطَرَانِ[(٢)]

٢— أَبَى قِصَرُ الأذنابِ أن يَخْطِرُوا بها ولُؤْمُ بنى قِرْدٍ بكلِّ مكانِ[(٣)]

٣— لقد سَمِنَتْ قِقْدَانُكم آلَ حِذْيَمٍ وأحسابُكم فى الحىِّ غيرُ سِمَانِ[(٤)]

قوله «أتخطر» لفظه لفظ الاستفهام، والمعنى التبكيت. ولمَّا كان المخاطَب من بنى قِرْدٍ[(٥)] جعله قرداً فى الحقيقة. والخَطْر: أصله إشالة الذَّنَب من الفَحل عند هِياجه ومصاوَلته لفحلٍ آخر، فاستعاره لفعلِ هؤلاء المخاطَبين لمَّا حَدَّثوا أنفسَهم بمباراةِ الأشرافِ ومساجلتِهم. فيقول: أتحدِّث نفسَك على باءِكَ

---

(١) التبريزى: «بشير بن أبى بن جذيمة بن الحكم بن مروان بن زنباع بن جذيمة». وهو بشير، بهيئة التصغير، ابن أبى جذيمة بن الحكم بن مروان بن زنباع بن جذيمة العبسى. ذكره الآمدى فى المؤتلف والمختلف ٦١.

(٢) أنشد الجاحظ هذه الأبيات فى الحيوان (٤ : ٦٧). ورواية هذا البيت عنده: «أتخطر للأشراف حذيم كبرة». والكبرة بالكسر: التجبر والكبر.

(٣) التبريزى: «أن نخطروا بها». الجاحظ: «ولؤم قرود وسط كل مكان».

(٤) الجاحظ: «لقد سمنت قردانكم». والقردان، بالكسر: جمع قراد بالضم، وهى دويبة تلزم الإبل ومعاطنها. وسئل أبو الندى عن معنى هذا البيت فقال: «كنى بالقردان هاهنا عن القمل، أى سمنت أجسامكم ودقت أحسابكم ولؤمت. ويقال فى المثل للإنسان إذا سمن: دب قمله».

(٥) التبريزى: «قيل: بنو قرد تبز نبزوا به».

الضيِّق ، وذَنَبكَ القصير ، بمجاذبة الأشراف ومخاطرتهم ، حتى تفعلَ ما يفعله الفحل فى صِيالِه ؟ أنَّى لك ذلك ، والقِردُ لا ذَنَب له يُشاوِلُ به ويَخطِر ؟ وهذا مَثَلٌ ، وفيه مع الإزراء تهكُّم .

وقوله « أبَى قِصَرُ الأذناب أن يَخطِروا بها » رجع الضمير إلى القبيلة بأَسرها . وقوله « ولؤم بنى قِرد » الواو للابتداء ومفيدةٌ للحال : والمعنى اشتهارهم باللؤم حتى لا يخفَى أمرُهم فى جوانب أرضهم ، وعند أعلام معارفهم .

وقوله « أبَى قِصَرُ الأذناب » تفسيرٌ لما أنكره بقوله : « وهل يستعدُّ القرد للخَطَران » ، وتفصيلٌ لما أبهمه .

وقوله « لقد سَمِنَت قِعدانُكم » فالقِعدان : جمع القَعود ، وهى الناقة تُقتعَد ، أى تُركَب[1] .

وقوله « آلَ حِذْيَم » إضافته لآل[2] إلى حِذْيم إضافةُ البعض إلى الكل وكذلك فى قوله « يا قِرد حِذيم » ، يكشف لك أنه قال : ولؤم بنى قِرد بكلِّ مكان . وإنما ينسُبُهم إلى حُسن تفقُّدهم لأموالهم ، وسوءِ إهمالهم لحسبهم ، فقد سَمِنَت إبلُهم بحُسن رِعْيتهم لها ، وتوفُّرهم على إصلاحها ، وترتيبِ عيشهم بتثميرها وتكثير نسلها ، وأنَّ أحسابَهم مضيَّعةٌ مهمَلة ، متروكة من التفقّد بأَثَرة ، لا تُرَمُّ فروعُها ، ولا تُضبط أصولُها ، ولا يُحتَفظ بحُسْن المراعاة من السقوط والرُّزُوح هزيلُها .

---

(١) التبريزى : « ويقال : القعود : الذكر ، والقلوص : الأنثى من شواب الإبل . وإنما جعل قعدانهم سمينة لأنهم يؤثرونها باللبن على الضيف والجار ، فأحسابهم غير سمان لأنهم يضيعون الحقوق فلا حسب لهم يمدحون به » . وانظر ما سبق من الكلام على رواية هذا البيت وتوجيهه فى الحواشى السابقة .

(٢) ل : « للآل » .

٦٠٤

وقال أبو مُنازِلٍ(١) فى ابنه :

١ – جَزَتْ رَحِمٌ بينى وبين مُنازلٍ ... جَزَاءً كما يَستنزِلُ الدَّيْنَ طالِبُهْ(٢)

٢ – ترَبَّيْتُهُ حتَّى إذا آضَ شَيْظَمًا ... يَكادُ يُساوِى غاربَ الفَحْلِ غارِبُهْ(٣)

٣ – تَغَمَّدَ حَقِّى ظالمًا ولَوَى يَدِى ... لَوَى يدَهُ اللهُ الذى هو غالِبُهْ(٤)

قوله « جزَتْ رَحِمٌ » دعاءٌ على ابنِهِ مُنازل . وجعل فعل الجزاء للرَّحِم . والجازى هو الله تعالى ، لأنه السببُ فى الجزاء ، ولتكونَ الشكوَى أبلغ ، فيقول : جزَى الله مُنازِلاً على الرَّحِم التى بينى وبينه وقد قطَعها ولم يقم بحقها ، جزاءً يَستوفِى له وعليه ما يَحِق ، كما يَستنزِل طالبُ الدَّينِ ممن عليه الدَّينُ حقَّه .

---

(١) التبريزى : « وقال فرعان بن الأعرف فى ابنه منازل » . وهو أحد بنى مرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن مقاعس بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، شاعر لص مخضرم ، وله مع عمر بن الخطاب حديث فى عقوق ابنه منازل . المؤتلف ٥١ والمرزبانى ٣١٦ والإصابة ٧٠٠٩ . ولفرعان أخ يسمى « منازل » أيضاً ، ومن عجب أن يروى له الآمدى فى المؤتلف ٥١ شعراً يذكر فيه عقوق ابنه له . لكن هذا الشعر رواه أبو رياش منسوباً إلى منازل بن فرعان بن الأعرف يشكو فيه عقوق ابنه المسمى « خليج » . فكأن هذه الأسرة عيقة فى أن يعق الولد منهم أباه .

(٢) الأبيات فى معجم المرزبانى والإصابة . وفى معجم المرزبانى: « سواء كما يستنجز » .

(٣) المرزبانى وابن حجر : « وأطعمته حتى إذا صار » .

(٤) المرزبانى وابن حجر : « تخون مالى ظالما ولوى يدى » . وأنشد بعده التبريزى :

وكان له عِنْـدى إذا جاعَ أو بكَى ... من الزَّاد أحلى زادِنا وأطايبُه

وربَّيْتُـه حتى إذَا ما تركتُه ... أخا القومِ واستغنَى عن المسح شاربُه

وجَمَّعتُها دُهمًا جِـلادًا كأنَّها ... أَشاءُ نَخيلٍ لم تُقَطَّعْ جوانِبُه

فأخرجَنى منها سَليبًا كأنَّنى ... حُسامٌ يَمانٍ فارقَتْهُ مَضارِبُه

أأَنْ أُرعِشَت كفَّا أبيكَ وأصبحَت ... يَداكَ يدَىْ ليثٍ فإنّكَ ضاربُه

ثم أخذ يقتصُّ ما دار بينهما ، وما أوجب عليه الفَرض الذى ضيَّعَه فقال : تربَّيْتُه طِفلاً وناشئًا، حتى إذا صارَ شابًّا طويلَ القامة يكاد غاربُه يساوِى غارب الفحل، أى بلغ قامَتُه قامةَ الفَحْل . والغارب : مُقدَّم السَّنام . والشَّيظم : الطويل الغليظ . ويروى : « لربَّيتُه » ، ويكون اللام جوابَ قَسَمٍ انطوَى عليه الكلام . ويقال : ربَّيتُه وربَّبتُه وتربَّيتُه بمعنًى واحدٍ . حتى إذا آضَ، أى إلى أن صار . وإذا جوابُه قولُه « تغمَّد حَقِّى » يريد : لمّا بلَغ هذا المبلغَ سَتَر حَقِّى ولم يَفِ به ، متعدِّيًا طَوْرَه ، وباخِسًا ما استوجَبْتُه عليه بالولادة والتربية ، فلمّا جاذَبْتُه بلسانى مَدَّ يدَه فلوَى يدى ، أى فتَلَها وأزالَها عن حالها وهيئتها ثمَّ قال داعيًا عليه : لَوَى يدَه اللهُ ، أى أشَلَّها وأبطَلَها ، وهو القادرُ على ذلك منه ، والغالب له وعليه[1] .

٦٠٥

وقال عارقٌ الطائىّ[2] :

١ ــ واللهِ لو كانَ ابنُ جَفْنَةَ جارَكم لَكَسا الْوُجوهَ غَضاضةً وهَوَانا

٢ ــ وسَلاسِلاً يُثْنَيْنَ فى أعناقِكم وإذًا لَقَطَّعَ مِنْكم الأقرانا

٣ ــ ولَكانَ عادَتُه على جارَاتِه مِسْكا ورَيْطًا رادِعًا وجِفَانا

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « له عليه » .

(٢) هو قيس بن جروة بن سيف بن وائلة بن عمرو بن مالك بن أمان بن ربيعة بن جرول ابن ثعل الطائى الأجئى ، نسبة إلى أجأ: أحد جبلى طيئ ، وهما أجأ وسلمى . وهو شاعر جاهلى . وعارق لقب له ، قالوا : سمى به لقوله :

لئن لم تغير بعض ما قد صنعتم لأنتحين للعظم ذو أنا عارقه

انظر الخزانة (٣ : ٣٣٠ ــ ٣٣١) والأغانى (١٩ : ١٢٧) والمزهر (٢ : ٤٣٨) وقال أبو رياش : ليس هذا الشعر لعارق ، إنما هو لثرملة بن شعاث الأجئى ، قاله على لسان عارق . وذكر التبريزى سبب هذه الأبيات مقاربا لما رواه المرزوقى ، ولكنه نسب هذه الأبيات النونية إلى ثرملة ، وذكر أنه قالها على لسان عارق لينجى عارقا من كيد عمرو بن المنذر .

لهذه الأبيات قصّة طريفة ، وأنا أذكرها بما عَرَض من السَّهو فيها .

ذكر هشامٌ الكلبى أنَّ عمرو بنَ المنذر بن ماء السَّماء — وأمه هندٌ بنت الحارث المَلِك — كان عاقَد طيِّئاً ألاَّ يُغزَوْا ولا يُفاخَرُوا ، فاتَّفق أنْ غزا عمرٌو اليمامةَ فرجع مُنْفِضًا[1] ، فمرّ بطيِّئ ، فقال زُرارة بن عُدُس : أبيتَ اللعنَ ، أصِبْ من هذا الحىِّ شيئاً . فقال : ويلك ، إنَّ لهم عَقْدًا ! قال : وإن كان ، فإنّك لم تكتُب العَقد لهم كلِّهم . فلم يزلْ به حتَّى أصاب نسوةً وأذوادًا ، فقال فى ذلك قيسُ ابن جِرْوَة الأجَئىّ :

ألاَ حَىِّ قَبْلَ البَيْنِ مَن أنتَ عاشِقُهْ ... ومَن أنتَ مُشتاقٌ إليـه وشائقُهْ

— وستجىء الأبياتُ فى هذا الباب من الاختيار من بَعْدُ ، لكن فى آخرها قولُه :

لئنْ لَمْ تُغَيِّرْ بعضَ ما قد صَنعتُمُ ... لَأَنْتَحِـيَنْ للعَظْمِ ذُو أنا عارِقُه

فلقِّب يومئذ بعارِق — فلمَّا بلغ عمرَو بن هندٍ هذا الشعرُ قال له زُرارة : أبيتَ اللعنَ ، إنّه لَيتوعَّدُك على انتقامه بزُعْمِه . فقال عمرٌو لتُرْمُلَة بن شُعاثٍ الأجئىّ : أيهجُونى ابنُ عَمِّكَ ويتوعَّدُنى ؟ فقال : والله ما هَجَاك ، ولكنه قال :

والله لو كانَ ابنُ جَفْنَةَ جارَكُم ... ما إنْ كسا كُم غَضَّـةً وَهَوَانا

وسلاسِلاً يَبْرُقْنَ فى أعناقِكم ... وإذًا لقطَّعَ مِنكمُ الأقرانا

ولكانَ عادَتُه على جِيرانِه ... ذَهَبًا وَرَيْطًا رادِعًا وجِفَانا[2]

يعنى بابن جَفنة عمرَو بن الحارث ، وإنّما أراد تُرْمُلَةُ أن يُقبِّح عليه[3]

(١) أنفض القوم : لقد طعامهم وزادهم . والإنفاض : المجاعة والحاجة وهلاك المال .

(٢) وكذا عند التبريزى . وفى ل : «مسكا وريطا» .

(٣) ل : «إليه» .

فَعْلَتَه ، ومع ذلك يُذهِبُ سخيمتَه على ابن عَمِّه ، فقال عمرو : والله لأقتلنّه ! فبلغَ ذلك عارِقًا فقال :

من مُبْلِغٌ عمرَو بنَ هِنْـدٍ رِسالَةً إذا اسْتَحْقَبَتْها العِيسُ تُنْضَى من البُعْدِ

وستجىء من بعدُ أيضاً إن شاء الله .

قال الشيخ الإمام أبو عليّ رحمه الله :

وإذا تأمّلتَ ما اقتصصتُ ، بانَ لك أنَّ هذه الأبياتَ التى أوّلها : « والله لو كان ابنُ جَفْنَة » ، ليس بهجو لابن جفنة وإنّما هو مَدْحٌ له ، وقد عُيِّرَ بذكره عمرَو بن هند ، وأنه لو تولَّى من طيّئٍ ما تولاّه عمرو بن هند كان معامَلَتُه إيَّاهم بخلافِ ما عامَلَهُم به هو ، فتَصوَّرَ[1] أنّها هَجْوٌ لابن جَفْنَةَ ، وجعل بدل « ما إن كسا كُم » : لـكَسَا الوجوه ، وبَدَل قوله « إذًا لقطَّع تلـكم الأقرانا » : منكم الأقرانا ، وبدل قوله « ولـكان عادَتُه على جيرانه » : على جاراته ، ومع هذه التَّغييرات ليس يَخْلُصُ هَجْوًا .

قال أبو عليّ : وأنا أعودُ إلى عادَتى من تفسيرها وشرح معانيها :

قوله « غَضَّةً » فَعْلَةٌ من غَضَّ ، والغضاضة والغَضُّ : الفُتور فى الطَّرْفِ . ونَصَب قوله « وسَلاسِلاً » على المعنى ، فهو من باب قول الآخر[2] :

يا ليتَ بَعْلَكِ قد غَدَا متقلِّدًا سَيْفًا ورُمْحَا

لأنَّ السَّلاسل ليس من كُسوة الوجوه ، فـكأنَّه قال : ما إن كسا كُمْ غَضَّةً ولا قلّدكم إذا غَلَّكم سلاسِلَ تبرُق فى أعناقـكم . وقوله « يُثْنَيْنَ » معناه يُعْطَفْنَ ويُلْوَيْنَ . و « إذًا لقطَّع تلـكُمُ الأقرانا » فالأقرانُ الحِبال ، والواحِدُ

(١) الضمير فى هذا لأبى تمام مختار الحماسة ، والتغييرات التى نص عليها المرزوقى هى تغييرات أبى تمام ، كما هى عادته ، انظر ما سبق فى مقدمة المرزوقى ص ١٤ .

(٢) هو عبد الله بن الزبعرى . الكامل ١٨٩ ليبسك . وانظر ما سبق فى حواشى ١١٤٧

قَرَنْ . وإذا رَوَيْتَ « يَبْرُقْنَ » فالمعنى ظاهر . ويشيرُ إلى ما لحقهم من جهة عَمْرو بن هِند . وقوله «إذًا» أجابَ لَوْ بإذًا كما أجابه باللام من قوله «اكسا» وبما على الأصل الأوّل(١) . ومعنى « لقطّع تلكم الأقرانا » أى لو كنتم مأسورين لكان يفكّكم ، ويقطع تلك الحبالَ التى صارت إسارًا لكم . وإذا رُوِى « وإذًا لقطّعَ منكم الأقرانا » كان معنى البيت : يشدُّكم فى السّلاسل ويبدّدُ جمعَكم . وقوله « ولكان عادتُه على جيرانه » ، يريد أنّه يفعل خلافَ ما فعله عمرُو بن هند ، لأنّ عادتَه فى الجِيران أن يموِّلَهم ويصلَهم ، ويبرَّهم ويخلَعَ عليهم ، ويَقْرِيَهم ويَمُونَهُم . وعلى الرواية الثانية يرميه ويقذِفه بالجارات ، ومعنى ذلك ظاهر . والرّادِع : المتغيِّر اللّون بالطِّيب والخَلُوق . ويقال : تَرَدَّعَ بالخَلُوق ، إذا تَلَطَّخ .

٦٠٦

وقال آخر(٢) :

١ — زعمتُمْ أَنَّ إخوتَكم قُرَيْشٌ ... لَهمْ إِلْفٌ وليسَ لكم إِلَافُ

٢ — أولئِكَ أُومِنُوا جُوعًا وخَوْفًا ... وقد جاعتْ بنو أَسَدٍ وخافُوا

يخاطب بنى أسد ويكذِّب دعواهم فى انتمائهم إلى قريش ، وتنسُّبهم بالقُربى والقرابة منهم ، فقال : ادَّعيتم أنَّ قريشاً إخوتُكم ، وسيماء الكذِبِ ظاهرةٌ على هذه الدَّعوى ، لأنَّ لقريشٍ إيلافاً فى الرِّحلتين المعروفتين للتِّجارة ، وليس لكم ذا ؛ وقد آمنهم اللهُ تعالى من الجُوع والخوف ، وأنتم خائفون جائعون .

(١) أى على رواية : « ما إن كساكم غضة » .

(٢) هو مساور بن هند بن قيس بن زهير ، يهجو بنى أسد ، كما قال التبريزى ، وكما فى اللسان (ألف) . وقد سبقت ترجمة « مساور » فى الحماسية ١٤٨ ص ٤٣٠ .

وإنما يُشير إلى السُّورة المُنْزَلة : ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ . رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيْفِ ﴾ ... إلى آخرها . ويقال : أَلِفَ يَأْلَفُ إِلْفًا وإِلاَفًا ، وآلَفَ يُولِفُ إيلافًا .

٦٠٧

وقال آخر (١) :

١ — إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طارُوا بها فَرَحًا ... مِنِّى وما سَمِعُوا من صالحٍ دَفَنُوا

٢ — صُمٌّ إذا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ به ... وإن ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدهم أَذِنُوا

٣ — جَهْلاً عَلَىَّ وَجُبْنًا عن عَدُوِّهِمُ ... لَبِئْسَتِ الخَلَّتانِ الجَهْلُ والجُبُنُ

انتصب «فرحًا» على أنّه مفعول له ، وكان الواجب أن يقول : يطيروا بها فرحا ، لأنّه لا يجوز أن يُعملَ حرفُ الشَّرط فى الشَّرط بالجزم ويُجعَل الجوابُ فعلاً ماضياً فى الكلام ، وإن كان يجوز فى الشِّعر . ومعنى البيت الأوّل أنّهم إذا رأَوْا حسنةً كتَموها ، وإذا رأوا سيِّئة أظهروها . وقوله « مِنِّى » أراد من جهتى . ومعنى « طاروا بها » أى كثّروها فى النَّاس وأذاعُوها ، ووَصَلوا القيامَ بالقعود فى نشرِها . وهذا ضدُّ ماذكَره من الدَّفْن فى قوله « وما سمعوا من صالحٍ دَفَنوا » فى المعنى .

وقوله « صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا » ارتفع صُمٌّ على أنّه خبر مبتدأ محذوف ، كأنّه قال : هم صُمٌّ ، أى يتصامّون عمّا أُنْسَبُ إليه من الخصال الصَّالحة . ويقال للمُعرضِ عن الشَّىء : هو أَصَمُّ عنه . على ذلك قوله :

* أَصَمُّ عما ساءَهُ سَمِيعُ *

(١) هو قعنب بن أم صاحب ، وهى أمه ، واسم أبيه ضمرة ، أحد بنى عبد الله بن غطفان . وكان فى أيام الوليد بن عبد الملك . والقعنب : الصلب الشديد من كل شىء . عن شرح التبريزى ، والتنبيه لابن جنى .

قال : ومتى ذُكِرتُ بشَرٍّ أدركوه وعلِموه . ويقال : أَذِن يأذَن أَذَناً . قال :

* بِسَماعٍ يأذَنُ الشيخُ لَه(١) *

ويجوز أن يكون اشتقاقه من الأذن الحاسة . وانتَصَب « جهلا » لأنه مصدر لعِلَّة . ينسُبُهم إلى أنهم مع الأقارب يستعملون الجهل والحسد عليهم ومعهم ، وأنهم جبناء عن الأعداء ضعفاء عَجَزة إذا طُلِب كفايَتُهم ، لا يصلحون لدفع مكروه ، ولا لجلب محبوب . ثم سوَّأ عليهم فعلَهم فقال بِئسَتِ الخَصْلَتَان جهلُهم على أقاربهم ، وجُبْنُهم عن أعاديهم . وهذا تأكيد فى التعبير ، ومبالغة فى التقريع .

٦٠٨

وقال منصور بن مِسْجَاحٍ(٢) :

١ــ ثَأَرْتُ رِكَابَ العَيرِ مِنْهُمْ بِهَجْمَةٍ صَفَايَا ولا يُبْقِيَا لمن هو ثَائِرُ(٣)

٢ــ من الصُّهْبِ أثناءٍ وجُذْعًا كأنَّها عَذَارَى عليها شَـــارَةٌ ومَعاصِرُ

قوله « رِكابَ العَيْرِ » يُرْوَى «رِكاب القَوْمِ» . وأراد بالعَيْرِ السَّيِّد ، وكان استِيقَ لرئيسهم إبلٌ فارتجَعَ بدلاً منها على ما وصَفَه . ومعنى « ثأرْتُ رِكاب العَيْر » أى أدركت الثَّأر فيها منهم بأنْ أخذتُ هَجْمَةً من الإبل — وهى المائة وما داناها — غِزَارًا سميِنات ، والثَّائر ليس من حقِّه أن يُبْقِى ، والأصل فى الثائر القاتل ، فوضَعَه موضعَ الواتِرِ للمنتقِم . يقال : ثأرْتُ فلاناً وثأرتُ بفُلانٍ ، إذا قتلت قاتِـلَه .

(١) لعدى بن زيد العبادى ، كما فى اللسان (أذن) . وعجزه :

* وحديث مثل ماذى مشار *

(٢) هو منصور بن مسجاح — ويقال مسحاج بتقديم الحاء على الجيم — بن سباع الضبى : شاعر جاهلى . معجم المرزبانى ٣٧٣ .

(٣) كذا فى ل والتبريزى والمرزبانى . وفى الأصل : « عنهم بهجمة » .

وقوله « من الصُّهب أثناءً وجُذْعًا » ، هذا تفسير للهَجْمَة ، وتفصيل للجملة ، يريد : من الإبل الصُّهب . والصُّهْبة : حمرةٌ يعلوها بياض . وتَعلَّق من بقوله هَجْمَة . وأثناء : جمع ثَنِيّ . والجُذْع : جمع جَذَع ، وهو كخُشُبٍ وخَشَب . والحجة فى أنّ العَيْرَ السيِّدُ قولُه :

زَعَمُوا أنَّ كلَّ مَن ضَرَبَ العَيْـ ـرَ مَوَالٍ لنـــا وأنَّا الوَلاءُ[1]

وهذا أحد الوجوه التى قيل فيه . وقوله « كأنّها عَذارَى » يعنى حُسنَها . والمَعاصِر : جمع المُعْصِر ، وهى من النِّساء التى شارفَت الإدراك والبُلوغ . قال :

* قد أَعْصرَت أو قد دَنَا إعْصَارُها[2] *

والشَّارة : الهيئة . ويقال : رَجُلٌ شَيِّرٌ صَيِّرٌ ، من الصُّورة والشَّارة .

٣ – فإنْ نَلْقَ من سَعْدٍ هَنَاتٍ فإنَّنا نُـكاثِرُ أقوامًا بهمْ ونُفاخِرُ[3]

٤ – لقد كانَ فيكُمْ لو وَفَيْتمْ لجارِكمْ لِحًى ورِقَابٌ عَرْدَةٌ ومَنَـــاخِرُ[4]

بيَّنَ أَنَّ الذين أدرَكَ منهم ما أدركَ هم بنو سعد . وهذا الكلام تهكُّم وسُخرِيَّة . كأنّه يريد : إنِ اتَّفَقَ من سعدٍ الزَّلَّةُ بعد الزَّلّة ، والسَّقطة المنكَرة بعد السَّقطة ، فإنّا على ذلك نُكاثِر بهم الأعداء . ونُفاخِر بمكانهم . ثم أقبَلَ عليهم وقد نقل الكلامَ عن الإخبار إلى الخطاب ، فقال : لو رُمْتُم الوفاء لجاركم ، ولم تَطمَعوا فى ماله لقَرُبَ ذاك عليكم ، فإنَّ آلاتِ الوفاء مُعَدَّةٌ فيكم : لِحًى موفورةٌ ، ورِقابٌ غليظة ، ومَناخِر واسعة منتفخة .

---

(١) البيت للحارث بن حلزة اليشكرى فى معلقته .

(٢) الرجز لمنظور بن مرثد الأسدى ، فى اللسان (عصر) . وقبله :

جارية بسفوان دارها تمشى الهوينى ساقطا خمارها

(٣) المرزبانى : « بها ونفاخر » .

(٤) بعده عند التبريزى :

فبَهْــرًا لمن غرَّت كَفالةُ منقرٍ وإنْ كان عقــدٌ بينَهمْ متظاهِرُ

٦٠٩

وقال حَوّاسٌ الضَّبِّىُّ لامرأة[١] :

١ ـ واللهِ ما أَخْشَى حكِيماً وَرَهْطَه ولكنَّما يخشى أباكِ حَكِيمُ[٢]

٢ ـ وَجَدْتِ أباكِ تابِعًا فتَبِعْتِهِ وأَنتِ لعُهّارِ الرِّجال لَزُومُ

رَمَى المرأةَ المُخاطَبَةَ وقَذَفها بحكيم ، فقال لها مُعَيِّرًا ومُشَهِّرًا بها : إنِّى لا أخافُ صاحِبَكِ حكيماً ولا عشيرتَه ، ولا أحتشمُهم فيكِ ، ولكنْ حكيمٌ يخشى أباكِ لاجتماعه معك على الفاحشة . ثم قال : تَعاطِيكِ الفُجُورَ وِراثةٌ ، لأنكِ وجدتِ أباكِ فى الأُبْنةِ تابعا لسَلَفه فيها ، فاقتديتِ به ، فهو يَطلب مَنْ يشفيه مِن دائه ، وأنتِ أيضاً شديدةُ اللِّزام للزُّناةِ والفُسّاق ، والولَد يتَقَيَّل أباه[٣] .

٣ ـ على كلِّ وَجْهٍ عائِذِيٍّ دَمامَةٌ يُوافِى بها الأحياءَ حِينَ تَقُومُ[٤]

---

(١) هو جواس بن نعيم ، أحد بنى حرثان بن ثعلبة بن ذؤيب بن السيد بن مالك بن بكر ابن سعد بن ضبة . المؤتلف ٧٥ وشرح التبريزى . وهذه الأبيات يقولها ردا على أبيات قالتها امرأة من عائذة بن مالك ، وأنشدها التبريزى . وهى :

متى تلقَ جوّاسًا وإنْ كان مُحرِما يَقُلْ لك هل تَخشَى علىَّ حكيما

وما لىَ لا أخشَى عليك محرَّبًا أخا ثقة ينعَى قتيلاً كريما

متَى تلقَه يَعدُو به الوَردُ جائلا بِشكّته تلقَ الألدَّ الغَشُوما

(٢) التبريزى : « قيل إن الصحيح من الروايات : ولكنما يهواك أنت حكيم . وعلى هذا يجعل حكيماً عاهراً ورماها به . وإذا قلت : ولكنما يخشى أباك حكيم ، فمعناه لأنه منك بسبيل » .

(٣) يتقيل أباه : ينزع إليه فى الشبه .

(٤) التبريزى : « حين يقوم » ، أى حين يقوم فى مجالس الملوك .

٤ — وَأَوْرَثَهَا شَرَّ التُّرَاثِ أَبُوهُمُ قَمَاءَةَ جِسْمٍ والرِّدَاءُ ذَمِيمُ (١)

تعدَّاهما إلى فَصيلتهما بل قبيلتهما فقال: على وجه كلِّ رجلٍ من بني عائذة قُبحٌ وخِزْى، إذا قامت أحياءُ العرب فى أسواقهم ومجامعهم يوافيهم به. والمعنى أنهم مشهورون باللُّؤم ودناءةِ النُّفوس، فوجوههم مسودَّة بالعار، مشوَّهة بسوء الفَعال عند القبائل، فمتى وافَوْا يوماً مجموعاً فيه الناسُ وُجِدَ آثارُ الخِزي، وغَضاضَةُ الطّرْف للخَزَاية، تلوحُ على صفَحات وُجوههم. ودمامَةُ الوجوه ضربَها مثلاً لذلك.

وقوله: «وأورثها»، يريد أنَّ اللُّؤمَ فيهم وِراثة، وقد عَرَفوا ذلك من أنفسهم واعتَرفوا به، فترى أجسامَهم فى المحافل والمَشاهِد قميئَةً تصاغُراً وتذلُّلاً، وتقاصُراً وتخشُّعاً. وقد ردَّاهم اللهُ برداءِ أعمالهم من الغَدْر والخيانة، والغُلول والسَّفاهة؛ فرادؤُهم مذمومٌ فى الألسِنة عند الخاصَّة والعامّة. ويجوز أن يكون المراد أنّ سيماهم كالرِّداء عليهم، فهم مذمومون لها وعليها، ويُروَى: «والرُّوَاء دَميم (٢)»، يعني قُبح الطّلعة. ودميمٌ: اسم الفاعل من دَمُمْتَ دَمامةً. وفعُلْت فى المضاعف قليل. والرُّوَاء يجوز أن يكون فُعالاً من الرُّؤْيَة، ويجوز أن يكون من الرِّيّ.

٥ — كأنَّ خُروءَ الطَّيْرِ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ إذا اجتمعتْ قَيْسٌ مَعًا وَتَميمُ

٦ — مَتَى تَسْأَلِ الضَّبِّيَّ عَنْ شَرِّ قَوْمِهِ يَقُلْ لَكَ إِنَّ العائِذِيَّ لَئِيمُ

لمّا كان يوصَف الوَقُور المتثبِّت فى الأمور إذا حصَل مع أشباهه من أهل

---

(١) ل: «أورثهم» ورسم فوقها «نخ ثها» أى أنها فى نسخة «أورثها». وفى التنبيه لابن جنى: «قال أبو على — يعنى الفارسى — كتبنا منذ أربعين سنة: يحتمل الرواء أمرين: أحدهما أن يكون فعالا من رأيت لأنه يدركه الناظر، غير أنه اجتمع على تخفيفه. والآخر أن يكون فعالا من الرى. قال: وذلك لأن للريان نضارة وحسنا. فقوله اجتمع على تخفيفه يدلك على أنه غير مهموز العين. ومنهم من يهمزه».

(٢) هى رواية التبريزى.

الأَناة والرِّفق والرَّزانة وسكونِ الجأش فى منتدًى لهم ، وتناجَوْا وتشاوَروا ، أو حضروا فى مجلسٍ مُحْتَشَمٍ فتجاذَبوا وتناظروا، بقولهم: كأنّ على رُءوسهم الطّير ، وهذا التشبيه إنّما حَصَل على أنّهم من السُّكون ومفارَقة التَّعجُّل بمنزلةِ مَنْ على رأسه طَيْرٌ فيخافُ فى تحرُّكه ذَهابَها وطيرانَها ؛ ولمّا كان هذا الشّاعرُ يهجو بنى عائذةَ ويَهْزَأ بهم، جعلَ بدل ذلك القولِ « كأنّ خُرُوءَ الطّير فوقَ رءوسهم » . وقوله « إذا اجتمعَتْ قيسٌ مَعًا وتميم » بيانٌ لاختلاطهم بأهل الحَلِّ والعَقْدِ مِن وُجوه القبائل ، ورُؤساء المحافل . وكان الحُـكْمُ أن يقول : إذا اجتمعت قَيْسٌ وتَميمٌ مَعًا ، فقدَّم « مَعًا » لأنّ العاطف يُنَبِّهُ على موضع المعطوف .

وقوله « متى تسأل الضبّىّ عن شرِّ قومه » ، يروى : « عن سِرِّ قومه » ، وهو حَسَنٌ ، والمعنى أنّهم لئامٌ باعترافٍ مِن قومهم به ، واتِّفاقٍ منهم عليه ، لـكنّهم يُسِرُّون أمْرَهُمْ ويُخفُونه .

٦١٠

وقال مُحْرِزُ بنُ المـكَعْبِرِ الضّبِّىُّ(١) :

١ — أَبلِـغْ عَدِيًّا حَيثُ صارَبها النَّوَى ... وليسَ لِدَهْـرِ الطَّالِبِينَ فَناءُ

٢ — كُسالَى إذا لاقَيْتَهمْ غَيْرَ مَنْطِقٍ ... يُلَهَّى به المَتبُولُ وَهْوَ عَناءُ(٢)

٣ — أُخَبِّرُ مَنْ لاقَيْتُ أَنْ قَدْ وَفَيْتُمُ ... ولو شِئْتُ قال المُنبِئُونَ أَسَاءوا

(١) يقولها لبنى عدى بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، كما ذكر التبريزى . وقد مضت ترجمة « محرز » فى الحماسية ١٨٥ ص ٥٧٢ . قال التبريزى : « كان محرز بن المكعبر جارا لبنى عدى بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، فأغار بنو عمرو ابن كلاب على إبله فذهبوا بها ، فطلب إليهم أن يسعوا له ، فوعدوه أن يفعلوا ، فلما طال ذلك عليه ورآهم لا يصنعون شيئاً أتى المخارق والمساحق ابنى شهاب المازنيين ، وهما من بنى خزاعة ، فسعيا له بإبله فرداها عليه » .

(٢) كسالى فى النسختين بفتح الكاف ، وفى التبريزى بضمها . وهما جمعان صحيحان لكسلان .

يقولُ : أدِّ إلى بنى عَدِىٍّ رسالتى حيثُ استقرَّت بها النَّوَى[1] بأنَّ زمنَ طُلّابِ الأوتار فيما عليهم مِن إدراك الثَّأر قد اتَّصَل وامتدّ ، فليس ينقطعُ لكسلهم عن السَّعى فى رِدْءِ المُغَارِ عليه[2] ، واستيطائهم مراكبَ العَجْز عن نُصْرَتِهِ ، غير مواعيدَ خاليةٍ من الفِعل يقرِّبونها ، وأقوالٍ مُزخرَفة عند الالتقاء يبذُلونها ، إذا اعتَمَدها الموتور انصرفَ بها مغرورا ، فكانت عند السَّامعين لها ضَلالاً وبُورًا ، وعَنَاءً للقُلُوب والجوارح ، لا يُحْلَى منه بطائل ، ولا يَرْجِعُ على أَحَدٍ بعائِدٍ . هذا وأنا أُحَسِّنُ أَمْرَكُم ، وأقول لمن يسأل عن أخبارنا وأخباركم : إنَّهم قد وفَوْا بالعَهد ، وأدَّوْا ما لزِمهم من النُّصْرَةِ بحقِّ الجِوار والعَقْد ، لكنْ للأمور أوقاتٌ ، وللأقضية آجالٌ وآمادٌ ، فينثنِى الذَّمُّ عنكم ، وينحطّ العارُ دونَ فِنائكم ، ولو شئت لقال السَّائل والسَّامع : أساءوا حين بدَّلوا الخُفَارة بالإخْفَارِ ، وضَيَّعُوا الحُقوقَ بالتَّقصير والإقصار : وقوله « أن قد وَفَيْتُمُ » أنْ فيه مخفَّفة من الثَّقيلة ، واسمه مضمَرٌ ، وهو ضمير الأمر ، والجملة فى موضع الخبر . وقوله « غَيْرَ مَنطِقٍ » انتَصَب على أنَّه استثناء خارج . و « يُلَهَّى به » من لَهَوْتُ عن كذا ولَهِيتُ ، أَلْهُو لَهْوًا ، وأَلْهَى لُهِيًّا ، إذا انصرَفْتَ عنه . والمَتْبُول : المُصاب بِذَحْلٍ وتَبْلٍ .

٤ ــ لَهُمْ رَثْيةٌ تَعْلُو صَرِيمَةَ أَمْرِهِم ... وللأَمْرِ يَوْمًا راحَــةٌ فَقَضَاءُ[3]

٥ ــ وإنِّى لَرَاجِيكُمْ عَلَى بُطْءِ سَعْيِكم ... كما فِى بُطونِ الحامِلاتِ رَجَاءُ

الرَّثْية : الضَّعف . والصَّرِيمة : ما يُقطَع من العزيمة ويُجزَم إمضاؤُه بعد العقيدة ، فيقول مصوِّرا حالَهم فى التَّفريط والإهمال : متى هَمُّوا بإنفاذِ عزائمهم وتشديد شكائمهم ، وإنجاز ما يُتَنَجَّزُ عليهم من مواعدِهم ، أو يهتمّون لرَحْضِ

(١) ل : « بهم النوى » .

(٢) الردء : العون .

(٣) التبريزى : « ريثة » ، بتقديم الياء . وقال فى شرحه : « ريثة : إبطاء » ورثية ضعف » .

دَرَنِ العارِ عن شِيَمِهم وأخلاقهم ، ولِسدِّ طريق العار[1] والتعيير عن مذاهبهم وأفعالهم ، علا همَّهم وهِمَّتهم وَهْنٌ وفَشَل ، ومَلَكَ قِيادَهم ومِقْوَدَهم ضعفٌ وكسل . ثمَّ أخذ يتهكّم ويهزأ فقال : والمرء في أمرِه يمضي يوما ويكفُّ يَوْمًا ، فما يَجْبُر كَسْرَ التَّعَب إلاَّ ما يتعقَّبه من الرَّاحة .

وقوله « فإنِّي لَراجيكم على بُطء سعيكم » ، يريد أنَّهم على تباطئهم وتأخُّر فَعالهم عن مقالهم مرجوّون ، كما أن الحاملات على تأخر وضعهنَّ مرجُوَّات ، فأنا ناظرٌ في أعقاب الأمَل متى يتحقَّق .

وقوله « فقضاء » أي فقضاءٌ يوماً آخر . وقوله « كما في بُطون الحاملاتِ رَجاء » أي أرجوكم مثلَ ذلك الرَّجاء .

٦ – فَهلاَّ سَعَيْتُمْ سَعْيَ عُصْبَةِ مَازِنٍ وهَلْ كُفَلائِي في الوَفَاء سَواء

٧ – لَهُمْ أَذْرُعٌ بادٍ نَواشِرُ لَحْمِها وبَعضُ الرِّجالِ في الحروبِ غُثَاء

٨ – كأنَّ دنانيرًا على قَسِماتِهم وإنْ كانَ قد شَفَّ الوُجُوهَ لِقَاء

هذا الكلام بعثٌ وتحضيض . وهلاّ : حرف إغراء وتحضيض . وذكر بني مازنٍ تحريكاً منهم ، وليوجِعَهم بتفضيل غيرِهم عليهم . وقوله « وهل كُفَلائي » ، فالكفيل : الضَّامن للشيء : وهذا المصراعُ التفاتٌ ، كأنَّه لما هَجَّن فِعلَهم وقرَّعهم ، وأطرى غيرَهم مؤثِراً عليهم . التفتَ إلى مَن حوله فقال : وهل ضُمَنَائِي مُستوُون في الوَفاء فأُجرِيَهم مُجرًى واحدا . وهذا أبلَغُ من كلِّ نكير ، ومن كلِّ هَجوٍ فظيع . و « سَوَاءٌ » وإن كانَ في الأصل مصدرًا ؛ فقد صار هنا كأسماء الفاعلين لنيابته عنها ، لذلك صَحَّ أن يَعمل في الظَّرفِ قبله وهو قوله « في الوفاء » ، لأنَّ المصادرَ لا تعمل فيما قبلَها إلّا إذا أُمِرَ بها ، كقولك : ضَرْبًا زَيْدًا ، أو إذا أُجرِيَ هذا المُجرَى[2] .

(١) هذا ما في ل ، وهو الموافق لما بعده . وفي الأصل : « العاب » بمعنى العيب .

(٢) ابن جني : « الظرف متعلق بسواء لا بكفلائي . ألا ترى أن معناه : وهل من يكفلني متساوون في الوفاء » .

وقوله «لهم أذرُعٌ» صفةٌ للعصبة المازِنيّة. وهم يتمدّحون بالهُزال. والنّواشر: عُروقُ ظاهرِ الذِّراع. وقوله «وبعضُ الرِّجال فى الحروب غُثاء»، تعويضٌ بالآخَرين، وهم بنو عدىّ. والغُثاء: ما يعلو السَّيل من الغُثَر والزَّبَد. والمعنى: بعضُهم لا غَنَاء عنده ولا كِفاية، فتَراه كيَبِيس النَّبات وقد احتمله الماء.

وقوله «كأنَّ دنانيرًا على قِسماتهم»، القِسمات: الوُجوه، وقيل هى مَجارى الدُّموع. ويقال: وَجْهٌ مُقَسَّمٌ، أى حسن، والقَسَامة: الحُسْن. ومرجعه إلى القِسْمة، كأنَّه مُسِحَ كلُّ جزء من الوَجه بقِسمٍ من الجمال، فتعادلت الأجزاء وحَسُنَت. وقوله «وإنْ كان قد شَفَّ الوُجوهَ لِقاء» تعريضٌ أيضًا، والمعنى أنَّ وجوهَهم تُشرِقُ فى الحرب وتُضىء، إذا صارتْ وجوهُ غيرِهم مشفوفةً متغيِّرة. ويقال: شَفَّهُ المَرَضُ، إذا أذابَه وهزَلَه. وذِكْرُ الدّنانير فى إثباتِ ماءِ الوجه ونَضارة الحُسْن قد جاء فى النَّسيب، ألا تَرى قوله:

النَّشْرُ مِسْـكٌ والوجوهُ دنا نيرٌ وأطرافُ الأكُفِّ عَنَمْ(١)

٦١١

وقال شَمْعَلَةُ بن الأخْضَرِ(٢)

١ — وَضَعْنا على الميزانِ كُوزًا وهاجَرًا فمالَتْ بَنُو كُوزٍ بأبناءِ هاجَرِ

٢ — ولو مَلأتْ أعفاجَها مِن رثيئةٍ بنو هاجِرٍ مالَتْ بِهَضْبِ الأكادِرِ(٣)

٣ — ولكنّما اغتَرُّوا وقد كانَ عندَهُم قَطِيبانِ شَتَّى مِنْ حَلِيبٍ وحازِرِ

هذا الكلامُ هُزْءٌ وسُخْرِيَّةٌ. فيقول: نظَرْنا ما بين كُوزٍ وهاجَرٍ بالمقياس

(١) البيت للمرقش الأكبر. وهو البيت ٦ من المفضلية ٥٤.

(٢) التبريزى: «وقيل: منذر بن الرقاد بن ضرار بن عمرو الضبى». وقد سبقت ترجمة «شمعلة» فى الحماسية ١٨٣ ص ٥٦٥. وأما منذر بن الرقاد فلم نعثر له على ترجمة.

(٣) ل والتبريزى: «ولو ملأت».

القائم ، والمِيزان الحاكم ، فوجدنا كِفَّةَ بنى كُوزٍ أرجحَ وأوزَن ، ولو عَلِمَتْ بنا وبفعلنا لملأَتْ بُطُونَها من الرَّثيئة ، فزادت زِنَتُها على هِضاب الأكادر ، لكنَّها أصيبت غَفْلَتها ، وفُوجِئوا بالوَزْنِ قبل الشُّرب والامتلاء ، والتجرُّد للأمر والاستعداد ، وكانت الحالُ مُساعِدَةً ، وأنواعُ الحليبِ ممكِنةً ، وذلك أجْلَبُ لحسْرَتِهم ، وأدعى إلى نَدامتهم .

والأعفاج : الأمعاء ، والواحد عَفَجٌ(١) . ويقال : اغْتَرَّ فلانٌ ، أى أخذَ على غِرَّة . والقَطيب : الممزوج . والحازرُ : الحامض . والرَّثيئة : المجموع من الحازِرِ والحليب . وقد رماهم بأنَّ طعامَهم ذلك لا غير .

٦١٢

وقال قِرْوَاشُ بن حَوْطٍ الضَّبِّيُّ(٢) :

١ — نُبِّئْتُ أنَّ عِقالاً ابْنَ خُوَيْلِدٍ بِنِعَافِ ذِى غُذُمٍ وَأنَّ الْأَعْلَمَا(٣)

٢ — يَنْمِى وَعِيدُهُمَا إلَىَّ وَبَيْنَنَا شُمٌّ فَوَارِعُ مِنْ هِضابِ يرَمْرَما

الأجود فى العَلَم وقد وُصِف بالابن أو الابنة ، إذا كانا مضافين إلى عَلَمٍ ، أو ما يجرى مجراه ، تَرْكُ التنوين فيه . وقد نَوَّن هذا الشَّاعرُ عِقَالاً ، وإذْ قد فعلَ ذلك فالأجود فى ابن خويلد أن يجعل بدَلاً ، ويجوز أن يُجعَل صفةً على اللغة الثانية(٤) .

---

(١) العفج ، بالفتح ، وبالكسر ، وبالتحريك : وككتف .

(٢) ذكره المرزبانى فى المعجم ٣٣٩ وقال : قرواش بن حوط بن أنس بن صرمة بن زيد بن عمرو بن عامر بن ربيعة بن كعب بن ثعلبة بن ضبة . جاهلى » .

(٣) الأبيات ١ ، ٢ ، ٥ فى معجم البلدان (غذم) و ١ ، ٤ ، ٥ ، ٣ فى الحيوان (٦ : ٣٨٣) و ٣ ، ٤ ، ٥ فى معجم المرزبانى . التبريزى : « علم » بالعين المهملة ، تحريف . وذو غذم : موضع من نواحى المدينة .

(٤) أضف إلى هذا ما ورد فى الحماسية ٥٩٥ ص ١٤٣١ ، وهو نص نادر .

والنِّعاف : جمع نَعْفٍ ، وهو المكان المرتفع فى اعتراضٍ ، وأعلى كلِّ شىء ؛ ومنه مَناعِفُ الجبل . والأعلم : اسم رَجُل ، وأعادَ «أنَّ» معه توكيدًا ، والخبر قوله « ينمى » ، والعامل فيه أنَّ الأولى ، لأنّ الثّانيةَ لا يُعتَدُّ بها عاملا وإن كانَ مؤكِّدا . ومثل هذا قولُ الحُطَيْئَة :

* إنَّ العَزَاءَ وإنَّ الصبرَ قد غُلِبَا[1] *

ويكون على هذا الألف فى «غُلِبَا» ضمير المثنَّى . والشُّمُّ : الجبال المرتفعة . والفوارع : العوالى . ويَلَمْلَمَ : عَلَمٌ لجبل[2] ، ويروَى : « يَرَمْرَمُ » .

٣ — غُضَّا الوَعِيدَ فما أكونُ لِمُوعِدِى ... قَنَصًا ولا أُكلاً له مُتَخَضِّما[3]

٤ — ضَبُعًا مُجَاهَرَةٍ ولَيْثَا هُدْنَةٍ ... وثُعَيْلِبَا خَمَرٍ إذا ما أَظْلَمَا

٥ — لا تَسْأَما لِى من دَسِيسِ عَدَاوَةٍ ... أبَدًا فليس بِمُسْتَيِى أن تَسْأَمَا

يقول : أقْصِرَا إليكما من تهدُّدِكما ، فإنِّى لا أحتفل بكما ولا بوعيدكما ، ولا أُصطاد بإرعادِكما وإبراقكما ، ولا أَصِير مأكَلَةً لأحدٍ فيأكلنى بفمه كُلِّه خَضْما كما يُؤكل الرُّطَب اللِّين ، لا قَضْماً . ثم أخَذَ يُعدِّد مخازيَهما فقال : عند المكاشَفة والملاقاة تَخْبُثَان وتَحْمُقان ، خُبْثَ الضَّبُع وحَمَاقَتَهُ ، وعند الاصطلاح والهُدُوِّ تَشْجُعان وتُقْدِمان إقدامَ الأسَد وشجاعتَه ، وفى ظلام الليل تسرقان وتحتالان على الناس ، وتُراوِغان مُرَاوَغةَ الثَّعلب وسَرِقَتَه . والخَمَرَ : ما واراك من شجر

(١) صدره فى ديوان الحطيئة ص ٥ :

* قالت أمامة لا تجزع فقلت لها *

(٢) على ليلتين من مكة .

(٣) روى بعده الجاحظ فى الحيوان .

فمتى أُلاقِكُمَا البِرازَ تُلاقِيا ... عرِكاً يَفُلُّ الحدَّ شاكاً مُعْلِما

وغيره . و « إذا ما أظلما » أى دخلا فى الظلام . والعامِلُ فى إذا ما دلَّ على جوابه وقد تقدَّمه .

وقوله « لا تسأما » يقول : لا تَمَلاَّ مُدَاجاتى وطَلَبِ الفوائل لى فى السِّرِّ وبظهر الغيب ، فإنِّى لكما على مثل حالتكما لى ، ولا تفترا عنه فإنِّى لا أفتر ولا أملّ وإن مَلِلْتما أيضاً ، فإنّ مَلاَلَكما لا يُكسِبُنِي فتورًا ولا إمساكا . والدَّسُّ : إدخالُك شيئاً تحت شىء ، وهو الإخفاء[1] . وفى القرآن : ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ والدَّاسوس والجاسوس يتقاربان . ويُروى : « من رَسِيسِ عداوةٍ » ، ويكون مثلَ رَسيس الحُمَّى والهوَى ورَسِّهما ، لما يبدأ منهما . وموضع « أن تَسْأما » من الإعراب رفعٌ على أن يكون اسمَ ليسَ ، كأنَّه قال : ليس بمِسِيئى سآمَتُكما فهو كقولك : ليس بمنطلِقٍ عَمْرٌو .

٦١٣

وقال سُوَيْدُ بن مَشْنُوءٍ[2] :

١ — ذَرِى عَنْكِ مَسْمُودًا فلا تَذْكُرِنَّه إلىّ بسوء واغرِضِى لِسبيلِ

٢ — نَهَيْتُكِ عنه فى الزمان الذى مَضى ولا يَنْتَهِى الغاوِى لأوَّلِ قِيلِ

قوله « ذَرِى » : أى دَعِى . والأمر يُبْنَى على المستقبل ، وهو يَذَر ، وقد استُعمل . فأما وَذَرَ فمِن المرفوض استعماله استغناءً عنه بتَرَك . وقوله : « لا تذكرِنَّه إلىّ » كسَرَ الراء معه لأنه مخاطبةُ مؤنّث ، والأصل تذكُرِينَنَّ ، فحَذَف النون الأولى للجزم ، ثم حذف الياء لالتقاء الساكنين ، فصار تَذْكُرِنَّ .

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « وهو فى خفاء » .

(٢) ذكره أبو الفرج فى الأغانى (١٦ : ٣٨) فى خبر مع الحطيئة ، وقال : إنه حليف بنى عدى بن جناب الكلبيين .

والمعنى : لا ينتهينَّ ذِكرُه إلىّ ، ولا يتجاوزَنَّ ذكرُه إلىّ بسوء . فعُدِّى تَذْكُرِنَّ تعديةَ تتجاوَزِنَّ إلىَّ ، حَملاً على المعنى . ومما جاء على هذا قوله :

إذا تَغَنَّى الحَمامُ الوُرْقُ هَيَّجَنِي ولو تَعَزَّيْتُ عنها ، أُمَّ عَمَّارِ[1]

عَدَّى هَيَّجَنِى تعديةَ ذَكَّرَنى ، لأنه فى معناه . وهذا كما يحملون فى التَّعدية النَّقيضَ على النَّقيض ، كقوله :

إذا رَضِيَتْ عَلَيَّ بنُو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللهِ أعجبَنى رِضاها[2]

عَدَّى رَضِيَتْ تعدية غَضِبَتْ لأنه نقيضُه ، كما عَدَّى هَيَّجنى تعديةَ ذَكَّرَنى لأنه نظيره . وكما حُكِى :

* قد قَتَل اللهُ زياداً عنِّى[3] *

عَدَّى قَتَل تعديةَ صرَف .

وقوله « نَهَيْتُك عنه » ، يقول : كنت أحذِّرُكِ عنه فيما سلَفَ من الزَّمان وتقضَّى ، لكنَّ الجاهلَ لا يرتدع للزَّجْرَةِ الأولى حتَّى يُرْدَع مرةً بعد أخرى . وهذا مَثَلٌ ، أعنى قولهُ :

* ولا ينتهى الغَاوِى لأوَّلِ قيلِ *

وقوله « واعْرِضى لسبيل » أى اعرِضى إلى طريقٍ غيره ، واذكريه بسُوء . ويقال : لا تعْرِضْ عِرْضَهُ ، أى لا تذكرْه بسوء .

---

(١) للنابغة الذبيانى فى جمهرة أشعار العرب ص ٥٣ وكتاب سيبويه (١ : ١٤٤) . وقد سبق فى ٣١٥ .

(٢) للقحيف العقيلى فى الكامل ٣٤٢ ، ٤٨٨ .

(٣) للفرزدق فى ديوانه ١٨١ ، واللسان (قتل) ، قاله حين خرج من المدينة بعد موت زياد ، وكان زياد قد نفاه وآذاه ونذر قتله . وقد سبق فى ٣١٥ .

٦١٤

وقال مَعْدَان بن عُبَيْد [١] :

١ — عَجِبْتُ لِعُبْدَانٍ هَجَوْنِى سَفَاهَةً   أَنِ اصطَبَحُوا مِنْ شائِهِم وتَقَيَّلُوا [٢]

٢ — بِجَادٌ ورَيْسَانٌ وفِهْرٌ وغالِبٌ   وعَوْنٌ وهِدْمٌ وابنُ صِفْوَةَ أَخْيَلُ

٣ — فأمّا الذى يُحْصِيهِم فمُكَثِّرٌ   وأما الذى يُطرِيهِم فمُقَلِّــلُ

يقال : عَبْدٌ وأعْبُدٌ وعِبَادٌ وعبيدٌ وعِبِدَّى وعِبْدَانٌ ومَعْبُوداء ومَعْبَدَةٌ وعُبُدٌ . فبعضُ هذه الأسماء مِمَّا صِيغَ للجمع ، وبعضها جَمعٌ فى الحقيقة . وانتَصَبَ « سَفَاهَةً » لأنه مفعولٌ له . وهم يَكْنُون عن اللِّئام بالعَبِيد والعِبْدَان ، وبالقَزَم والقُزْمَان [٣] . و « أن اصْطَبَحُوا » يريد لأن اصطبحوا ، أى شَرِبوا الصَّبُوحَ ، وهو ما يُشرب صباحا . والقَيْل ، وهو شرب نِصف النَّهار . وكما قال تقيَّلُوا ، يقال تصبَّحوا أيضاً . والمعنى عَدَوْا طَورَهم فهجَوْنى ، لأنهم رأوا بأنفسهم ما لم يعهدوه . فطغَوْا عِند الغِنَى ، وأصابوا مِن شائهم الصَّبُوح والقَيْل ، بعد أن كانوا كَلاًّ على غيرهم . ثم ذكرهم بأسمائهم تخضيعاً [٤] وتشنيعا . ويرتفع بجادٌ إن شئتَ على الاستئناف ، يريد : هم بِجادٌ ورَيْسانٌ ؛ وإن شئت على البَدَل من المضمرين فى قوله اصطبَحوا .

وقال مِن بَعْدُ : مَنْ يَعُدُّهم يُكثِّر لوفور عددهم ، ومن يُثنى عليهم يقلِّلُ لقلة من يستحق الثناءَ فيهم ومنهم . ويجوز أن يكون أن من قوله أن اصطبحوا أن المفسِّرة ، كأنه فسَّر لِمَ طَغَوْا فهَجَوْا .

(١) هو معدان بن عبيد بن عدى بن عبد الله بن خيبرى بن أفلت الطائى ثم المعنى . شرح التبريزى ومعجم المرزبانى ٤٠٧ .

(٢) ضبطت « عبدان » فى النسختين والتبريزى بكسر العين ، ويقال فيها أيضا « عبدان » بظم العين .

(٣) لم تذكر المعاجم المتداولة هذا الجمع . والمعروف أقزام : وقزامى ، وقزم بضمتين .

(٤) ل : « تخصصا » :

٦١٥

وقال يزيد بن قُنافة[1] :

١ — لَعَمْرِى وما عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ ... لَبِئْسَ الفَتَى المَدْعُوُّ باللَّيلِ حاتِمُ[2]

٢ — غَدَاةَ أَتَى كالثَّورِ أُحْرِجَ فاتَّقَى ... بِجَبْهَتِهِ أقتالَهُ وهو قائمُ

٣ — كأنَّ بِصَحْرَاءِ المُرَيْطِ نَعامَةً ... تُبَادِرُها جِنْحَ الظَّلامِ نَعائمُ

٤ — أَعَارَتْكَ رِجْلَيْهَا وهَافِى لُبِّهَا ... وقد جُرِّدَتْ بِيضُ المُتُونِ صَوَارِمُ

قد مَضَى الكلام فى قوله لَعَمْرِى . وقوله « وما عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ » تحقيق لليمين ، وأنَّ عُمرَه ليس يَهُون عليه فيحلفَ به كاذبا . وفى الكلام إزراء بالمُخْبَرِ عنه . وقوله « المَدْعُوُّ باللَّيل » كثير من النحويِّين يذهبون فى مثلِه إلى

---

(١) التبريزى : « وقال يزيد بن قنافة بن عبد شمس العدوى ، من بنى عدى بن أخزم ابن أبى أخزم ، من ثعل بن عمرو بن الغوث ، رهط حاتم بن عبد الله » . وقال ابن جنى : « القنف صغر الأذنين وغلظهما ، رجل أقنف وامرأة قنفاء ، وبه سمى الرجل قنافة ، إذا كان ضخم الأذن ، ويقال : هو الطويل الجسم . فقد يجوز أن تكون الهاء فى قنافة لحقت للمبالغة ، ويجوز أن يكون أيضا لحاقها ضربا من ضروب تغيير الأعلام ، كما أن الهاء فى رواحة قد يجوز أن تكون كذلك . وقد يجوز أن يكون قنافة علما مرتجلا من غير طريق الصنعة التى ذكرت » .

(٢) قال أبو رياش : كان من خبر هذه الأبيات أنه عمد رجل من بنى السيد بن مالك ابن بكر بن سعد بن ضبة ، يقال له زيد بن ثابت ، فجاور فى طى وكانت له نعمة فيهم ، وكان جيرانه منهم بنو معن ، فقتلوه وأخذوا ماله : فبلغ ذلك بنى السيد فركبوا فيمن تبعهم من بنى ضبة حتى لقوا رجلا من طيىء فقالوا له : من أنت ؟ فكتمهم فعرفوا لغته ، فقالوا له : أنت آمن إن دللتنا على أقرب أبيات بنى معن منك . فدلهم على بنى ثور بن ود من بنى معن ، وذلك من العشى ، فقتلوهم إلا قليلا ، وانفلت منهم رجل حتى أتى حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج ، وهو حاتم طى ، وهو فى قبة له أدم فى دار ليس معه فيها أحد غير أهل بيت أو بيتين من بنى عدى ، فيهم يزيد بن قنافة ، وهو بمكان يقال له صحراء المريط ، فأخبره الخبر فأمر أمته أن توقد فى قبته واحتمل تحت الليل فنجا ، وبقى يزيد بن قنافة لم يعلم الخبر حتى صبحته الخيل غدوة ، وكانت امرأته لا تكلمه فدعته باسمه فأخبرته الخبر ، فثار إلى قوسه فمنع بناته وابنيه وامرأته وذهب بماله . وإنما كان القوم أرادوا حاتما فأفلت » . وفى ذلك يقول يزيد بن قنافة هذا الشعر هاجياً .

أنه بدل لا صفة ، لأنَّ نِعْمَ وبئس يرفعان من المَعارِف ما فيه الألف واللام ودَلَّ على الجنس ؛ وما يدلُّ على الجنس [لا[1]] يتأتَّى فيه الوصفيّة . والصواب عندى تجويز كونه وصفاً ، بدلالة أنه يثنَّى ويُجمع ، فيقال : نعم الرجلان الزَّيْدَانِ ، ونعمَ الرِّجالُ الزَّيْدُون ، والتثنية والجمعُ أبعد الأشياء من أسماء الأجناس ، إلا إذا اختلفت ، فكما يجوز تثنيةُ هذا وجمعُه لدخول الاختلاف فيه ، كذلك يجب أن يجوز وَصفُه لمثل هذه العِلّة ، ولا فَصْل . وإذا كان كذلك كان قولُه المدعُوُّ بالليل صفةً للفتَى ، كأنه قال : مذمومٌ فى الفِتيان المدعوِّين باللَّيل حاتم . وهذا ظاهِرٌ .

وذَكَر اللَّيلَ لشدَّة الهَوْل فيه .

وقوله « غداةَ أَتَى كالثَّور » يعنى حاتما ، وإنَّما يَهزأ به . ومعنى أُحرِج : ضُيِّق عليه وأُخرِج مِن عادته فأُحوِج إلى أن يَعيثَ . والأَقْتالُ : الأقرانُ والأعداء ، والواحد قِتْل . فيقول متهكِّما : جاء كالثَّور المائج غَضَباً وحَمِيَّةً ، وقد بَانَ له من طُلاَّبه تَركُ الإبقاء عليه ، فجعل بينه وبين أقرانه قَرْنَيْه يتَّقيهم بهما ، ويَعِـدُهم الشَّرَّ بإعمالهما ، فهو ثابتُ القدَم متهيِّئٌ للقِتال . هذا كان حالَه فى المجىء ، فلمَّا جاء وقتُ الدِّفاع والمصادَمة ، والقِراع والمكافَحة ، انهزمَ فكأنَّ نعامَةً سابَقَها حينَ جَنَح الظَّلامُ نَعَائمُ إلى أَداحِيِّها ، أعارَتْ حاتِماً رجلَيها وطائرَ قلبِها ، وهو يَعْدُو مذعوراً ، ويطلب النَّجاءَ مفلولا ، وقد جُرِّدت السُّيوفُ من أغمادِها ، وصار الأمر فى الطَّلب والهَرَبِ جِدًّا . وإنما قال « أعارَتْك رجلَها » لأنَّه نقَلَ الكلامَ عن الإخبار إلى الخطاب .

(١) التكملة من ل والتبريزى .

٦١٦

وقال عَارِقٌ ، وهو قَيْسُ بن جِرْوَةَ الطائىّ[(١)] :

١ — من مُبْلِغٌ عَمْرَو بنَ هِنْدٍ رِسالَةً إذا استحقبَتْها العيسُ تُنْضَى من البُعْدِ

٢ — أَيُوعِدُنِى والرَّمْلُ بَيْنِى وبَيْنَهُ تَبَيَّنْ رُوَيْدً ما أُمَامَةُ مِنْ هِنْدِ

٣ — ومن أَجَإٍ حَوْلِى رِعَانٌ كأنَّها قَنابِلُ خَيْلٍ من كُمَيْتٍ ومن وَرْدِ

كان عمرُو بنُ هند غَزَا اليمامة على ما حَكَيتُ من قصته فيما تقدَّم[(٢)] ، فأخفَقَ ورجع مُنْفِضاً . فمرَّ بطيِّئٍ ، وكانوا فى ذمته بكتاب عَقْدٍ اكتتبه لهم ، وعَهْدٍ أحكمه معهم ، فقال زُرارة بن عُدُسٍ له : أبَيْتَ اللَّعنَ ، أصِبْ من هذا الحيِّ شيئاً . قال : ويلكَ إنَّ لهم عَقْدا لا يجوزُ لنا تخطِّيه . فأخذ زُرارةُ يهوِّن أمر العهد عليه ، ويحسِّن الإيقاعَ بهم ؛ فلم يزلْ يَفْتِل فى الذِّرْوَةِ والغارِب معه لشىء كان فى نفسه على طيِّئٍ حتَّى أصابَ أذواداً ونساء ، فهجا عارقٌ عَمْرو ابنَ هندٍ بأبياتٍ يَعصِبُ رأسَه فيها بالغدر الذى كان منه ، فوقعت الأبياتُ إلى عمرِو بن هند ، فتوعَّدَ عارقا وحلفَ أنَّه يقتلُه ، فاتَّصلتْ مقالتُه بعارِقٍ فقال هذه الأبيات . ومعنى « استَحقبَتْها » حملَتْها فى الحقائبِ . وجعلَ الفِعل للعيس اتِّساعاً . ومعنى تُنْضَى : تُهْزَل ، لبُعْدِ المسافة .

وقوله « أيُوعِدُنى » استفهام على طريق التَّقريع لعمرو ، واستعظامٌ منه للأمر . والمعنى أنَّه لا يَنالُنى مع حَصانة حَبْلى ودارى ، ولا يَتمكَّن منِّى على بُعد طُرُقى وأرضى ، فلينظُرْ برفقٍ ، وليُميِّلْ بينَ أمِّه وأمِّى ، وليكن التعلى والتوعُّدُ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٦٠٤ ص ١٤٤٦ .

(٢) فى الحماسية ٦٠٣ ص ١١٤٧ .

بمقدار فَضْله وقُدرته . وذِكر الأمِّ إظهارٌ لقلَّة المبالاة ، وأنَّه يجسُر على تناوُل الحُرَم منه باللِّسان .

وقوله « ومن أجأ حَوْلِى رِعَان » أَجأٌ : أحد جبلَيْهم(١) . والرِّعَانُ : جمع رعْنٍ ، وهو أنفٌ يتقدَّم من الجبل . والمرادُ بيانُ حالِ جبلَىْ طيِّءٍ فى وَثاقتهما وحَصانتهما ، وأَمْنِ مَن يَنزِل بهما ، وأنَّ رِعَانَهُ كأنَّها جماعاتُ خَيْلٍ أحاطت بالجَبَل وأحدَقَتْ ، فهى تَذُبُّ عنها(٢) كُمْتاً ووُرْدًا(٣) . وذكَرَ القنابلَ فى التَّشبيه ، والعِزُّ بأربابها يحصُل .

٤ — غَدَرْتَ بأمرٍ كُنْتَ أنتَ اجتذبْتَنَا إليه وبِئْسَ الشِّيمَةُ الغَـدْرُ بالعَهْدِ
٥ — وقد يَترُكُ الغَدْرَ الفَتَى وطعامُه إذا هو أَمْسَى جُلُّهُ من دَمِ الفَصْدَ

يُرْوَى : « أنت احتَدَيْتَنا » ، وهو افتعَل من الحَدوِ : السَّوْق . واجتذبتنا ، من الجَذْب . ويُروَى : « أنتَ دعَوْتَنا » .

والشَّاعر يشير إلى ما كان فى يد طيِّءٍ من عقد الجِوار وكِتاب العَهْد ، فيقول : كنتَ أنتَ البانىَ لذلك ، والمؤسِّسَ لِمَنارِه ، فأبَيتَ إلاَّ أن تنقُضَه ، وبئس العادةُ الغَدرُ مع العُقود ، ونكْثُ عُرَى العُهود . والفتَى قد يؤْثِر الإقامةَ على الوفاء مع الإضافة ، وشدَّة الفاقة ، ويَطلُب اكتسابَ المحمدةِ ، وإن كان مسكيناً ذا متْرَبةٍ ، حتَّى إذا أمسى يكون جُلُّ طعامه فَصِيدَ الدّم . ويُروَى : « إذا هو أمسَى حَلْبَةٌ من دَمِ الفصْدِ » ؛ والأول أحسن . ويرتفع « جُلّه » على

(١) والآخر « سلمى » .
(٢) أى عن طيىء القبيلة .
(٣) التبريزى : « وجعلها مختلفة الألوان لاختلاف ألوان الجبال » .

أنه مبتدأ ثان ، والجملة خبر المبتدأ الأوّل ، وهو طعامه . وينتصب إذا من قوله « جُلهُ من دَمِ الفَصْدِ » ، لأنَّه الدالُّ على جوابِه[1] .

٦١٧

وقال آخر :

١ — لعَمْرِى وما عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ ... لقد ساءَنِى طَوْرَيْنِ فى الشِّعرِ حَاتِمُ

٢ — أيَقْظَانُ فى بَغْضَائِنَا وهِجائِنَا ... وأنتَ عنِ المعروفِ والبِرِّ نَائِمُ

٣ — بِحَسْبِكَ أنْ قدسُدْتَ أَخْزَمَ كُلَّهَا ... لِكلِّ أُنَاسٍ سَادَةٌ ودَعَائِمُ

٤ — فهذا أوانُ الشعرِ سُلَّتْ سِهَامُهُ ... مَعَابِلُهَا والمُرْهَفَاتُ السَّلاجِمُ

أقسم بحياة نفسه ، وخبر المبتدإ محذوف ، والمراد : لعَمْرِى ما أُقْسِمُ به ؛ لأنَّ اللامَ منه لامُ الابتداء ، وجواب القَسَم لقد ساءنى . وقوله « ما عَمْرِى » اعتراض ، وقد مرّ القول فى فائدته[2] . والطَّوْرُ : التَّارَةُ . أى تعرَّضَ لى مرّتين بما سَاءَنِى . ثم أقبل عليه فقال : أيقظانُ ؟ والمعنى : أأنت يقظانُ ، أى مُنْتَبِهٌ فى هَجْوِنا وبُغضنا وعداوَتِنا ، ونائم عن الخيرِ والإحسان ، وإسداء المعروف والبرّ والإفضال ؟! ثمّ أخذَ يهزأُ به فقال : بِحَسْبِكَ . والمراد حَسْبُكَ ، لكنَّهم يَزيدون الباء فى المبتدإ ، نحو قولك : بِحَسْبِكَ أن تفعل كذا ، وفى الخبَر أيضاً يزيدون ، نحو قوله :

* ومَنْعُكَهَا بشىء يُستطاعُ[3] *

---

(١) ابن جنى : « يصح أن ينصب إذا شىء مما قبلها ، طعامه ولا غيره ، من حيث كان الشرط لا ينصبه ما قبله ، لكن العامل ما دات عليه حلبة ، أى إذا هو أمسى يحلب له من دم الفصد . ولا يجوز أن يتعلق بحلبة ، من حيث كان مصدرا فلا تتقدم صلته عليه . يعنى أن المصدر لا يعمل فيما قبله — فإن قلت : فإن الحلبة هنا بمعنى المحلوبة واسم المفعول يتقدم عليه ما عمل فيه ، فذلك وجه مستقيم ، يجوز انتصاب إذا عليه بنفس الحلبة » .

(٢) انظر البيت الأول من الحماسية ٦١٤ ص ١٤٦٤ .

(٣) لعبيدة بن ربيعة بن قحفان ، كما سبق فى حواشى الحماسية ٤٨ ص ٢٠٩ . وصدره :

* فلا تطمع أبيت اللعن فيها *

وانظر الخزانة (٢ : ٤١٣) .

أى شىء يُستطاع . وهذا أحدُ ما قِيل فيه ، وقال آخر[١] :

بِحَسْبِكَ فى القَوْمِ أن يعلموا   بأنَّك فيهم غَنِىٌّ مُضِرْ[٢]

والمعنى : كافِيكَ أَن ترأَّستَ على أَخْزَمَ ، وأَخزمُ : رَهْطُ حاتم . ثم أزرَى برياسته وبهم ، فقال : ولكلِّ طائفةٍ من طوائف النَّاس رؤساء وعَمَدٌ ، وهذا يَجرِى مَجرى الالتفات . كأنَّه بَعْدَ ما قال ذلك التَفَتَ إلى مَن حوله يؤنِّسهم ويقول : ليس ذا بمُنْكَرٍ ، فلكلِّ قومٍ مَن يَسُوسُهم ويدعَمُهم .

وقوله « فهذا أوانُ الشعر سُلَّت سِهَامُهُ » ، يعنى شعره . فيقول : لكلِّ زمانٍ شَىءٌ يظهر فيه ويَغْلِب ، وزمانُنا هذا مع قَرْضِكَ للشِّعر زمانُ الشعر ، وقد انتُزِعت سهامُه من كنائنها بعد أن نُثِرَتْ ، فجُرِّدَتْ للرَّمى بها معابِلُها ، وهى العِرَاض ، وسَلاَجِمُها وهى الطِّوال . والمُرهَفَات : المُرَقَّقَات الحدّ . والمراد بهذا التَّنويع فنونُ الشِّعر وأساليبُه . أى أنتَ فيه ذو فنون ، والمُعَبِّل[٣] : الذى مَعَه مَعَابِلُ[٤] . وعَبَلْتُهُ : أَصَبْتُهُ بِمِعْبَلَة .

٦١٨

وقال رَجُلٌ من طَيِّئٍ :

١ — إنّ امْرأً يُعْطِى الأَسِنَّةَ نَحْرَهُ   وَرَاء قُرَيْشٍ لا أَعُدُّ له عَقْلا

٢ — يَذُمُّونَ لِى الدُّنْيَا وقد ذَهَبُوا بها   فما تَرَكُوا فيها لمُلْتَمِسٍ ثُعْلا[٥]

(١) هو الأشعر الرقبان الأسدى . اللسان (ضرر) .

(٢) المضر : الذى له قطعة من الإبل أو الغنم .

(٣) وردت فى القاموس ، ولم ترد فى اللسان .

(٤) فى الأصل : « فيه معابل » ، صوابه فى ل .

(٥) مثل هذا المعنى لعبد الله بن همام السلولى ، قال يهجو العلماء فى شعر يخاطب به النعمان ابن بشير الصحابى :

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها   أفاويق حتى ما يدر لها ثعل

اللسان (٩ : ٤٨٤ / ١٣ : ٨٨) والأغانى (١٤ : ١١٦) . وانظر مجالس ثعلب ٥١٥ ومقاييس اللغة (٢ : ٤٠١) .

وَصَفَ الأمراءَ الذين أشار إليهم بسُوء المحافَظة، وذَهابِهم عن مَعرفة الحقوق ومراعاتها، وإنزال الموَالِينَ منازِلَهم فيها فقال: إن مَن يغترَّ بكم بعد هذا الوقتِ واعتَمَدكُم، فبذَلَ نَفْسَهُ وراءكم للمَتالف، ورَكِب في هواكم المعاطب، لا عَقْلَ له ولا رأى.

ثمَّ بَيَّنَ ما أشكاهُ مِنهم، وسوءَ معاملتَهم فقال: يذُمُّون الدُّنيا لى، ويزهِّدونني فيها وفي الأخذِ منها، وقد فازُوا بها حتَّى لم يُبقُّوا فيها فُضالَةً لأحَد، أي تَغَبَّرُوا كلَّ مَحاوب فيها، ولم يُبقُّوا في ضروعها شيئاً حتَّى لم يترُكوا ثُعلاً فيها. وهذا مَثَل، والثعْل هو الطِّبْيُ الزائد، والسنُّ الزائدة. ويقال: ثَعِلَت سِنُّه. وشاةٌ ثَعُولٌ: لها ثُعلٌ[1]. وذكر بعضُ أهل اللُّغة أنَّ الثُّعْلُول من الشَّاء: التي يُمكن أن يُحلَبَ من ثُعلِها أيضاً.

وقوله «وراء قُرَيش» يكون وراء بمعنى خلفَ وقُدّامَ، والأولى به هنا أن يكونَ بمعنى قُدّامَ. ومثلُه في القرآن: ﴿ وكان وراءهُم مَلِكٌ ﴾.

٦١٩

وقال رُوَيْشِدٌ[2]:

١ — ومُوقِعُ تَنطِقُ غيْرَ السَّدَادِ ... فَلاَ جيِدَ جِزْعُكِ يا مُوقِعُ

٢ — فما فَوقَ ذِلَّتِكُمْ ذِلةٌ ... ولا تحتَ مَوضِعِكم مَوْضِعُ

مُوقع[3]: قبيلة. يريد أنهم يتكلَّمون بالفُحشِ وغيرِ الصَّواب، لسفهها

(١) يقال ثعل، بالضم، وبالفتح، وبالتحريك.

(٢) هو رويشد بن كثير الطائي، الذي سبقت له الحماسية ٣٢ ص ١٦٦.

(٣) موقع، بضم الميم، كما في الأصل والتبريزي. وفي القاموس: «وموقع بالضم: قبيلة» لكن ضبطت في ل بفتح الميم والقاف.

وسُوءِ تمييزها ، ثمّ دَعَا عليها ، فقال : لا مُطِرَ جانِبُكِ وفِناءِ واديك بالجَوْدِ ، ولا أصابكم خِصْبٌ .

وقوله « فما فوق ذِلّتكم » طَابَقَ بتحتَ وفوقَ فيه ، وهو غريبٌ حَسَنٌ . يريد : لا مَرْتبةَ فى الذُّلّ أعلى من مرتبتكم ، فإنّها الغايةُ القُصوى ؛ ولا موضِعَ أشَدُّ تأخُّراً وانحطاطًا فى العزِّ من موضِعكم ، فإنّه المنزلُ الأخسُّ الأدنى . وقوله « غيرَ السَّدادِ » ، يريدُ به تَنْطِق النُّطقَ غيرَ السَّداد . ويقال : جِيدَ جَوْدًا ، فى المطر ، وتُوُسِّعَ فيه فقيل :

* ومَجُودٍ مِن صُبَاباتِ الكَرَى(١) *

ويقال جِيدَ جُوَادًا(٢) ، إذا عَطِش .

٦٢٠

وقال جَابِرٌ(٣) :

١ — أَجِــدُّوا النِّعَالَ بأقدامِكمْ أَجِــدُّوا فَوَيْهًا لَــكُمْ جَرْوَلُ
٢ — وأَبْلِــغْ سَلَامَانَ إن جِئْتَهَــا فــلا يَكُ شِبْهًا لَهَــا المِغْزَلُ
٣ — يُــكَسِّى الأَنامَ ويُعْرِى اسْتَهُ ويَفْسَلُ مــن خَلْعِهِ الأَسْــفَلُ

يقول : استجِدُّوا النِّعال لأقدامِكم ، أو فى أقدامكم استجدُّوها يا جَرْوَلُ ، وَيْهًا لـكم . وإنّما كرّر الأمرَ تأكيداً للقول عليهم . ويُقالُ فى الدُّعاء : أَبْلِ وأَجْدِدْ . وَوَيْهًا : اسْمٌ من أسماء الأفعال يُعرَى به ، ولا يجىء إلاّ مُنوّنًا ،

(١) البيت للبيد فى اللسان (جود) . وعجزه :
* عاطف النُّمرق صدق المبتذل *

(٢) وجودة أيضا بفتح الجيم ، وفيه قول ذى الرمة :
تعاطيه أحياناً إذا جيــد جودة رضابا كطعم الزنجبيــل المعسل

(٣) كذا ورد اسمه بدون نسبة .

وذاكَ علامةٌ لتنكيره . وإنَّما قلنا هذا لأنَّ فى أسماء الأفعال ما يُنَكَّر ويعرَّف . ومنه ما لا يجىء إلاَّ منكورا . ومثل وَيْهًا إيهًا ، ويُستعمَل فى الكفّ ، ووَاهًا وهو التعجُّب ، وكل ذلك يجىء منوّنةً منكَّرةً . وجَرْوَلُ : اسم رَجُل . وجعلَ أوّلَ الكلام خِطاباً لجماعتهم ، ثم خَصَّ بالنِّداء واحداً منهم وجعله المأمور بما أراد . ألاَ ترى أنَّه قال : « وأَبْلِغْ سَلامَانَ إن جئتها » . وسَلامانُ : قبيلةٌ . ومثل هذا التخصيص قول الهذلىّ(١) :

* أحْيَا أبا كُنَّ يا لَيْلَى الأمَادِيحُ(٢) *

فقال : أبا كُنّ ، ثم قال : يا ليلى ، وهذا التَّخصيص مثل التَّخصيص الذى فى قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلَاةِ الوُسْطَى ﴾ ، وما أشبهه . وقوله « فلا يَكُ شِبْهاً لَهَا المِغْزَلُ » ، لو قال لكم لساغ ، لأنَّهم يفتنّون فى مثل هذا الموضع بين الخطابِ والإخبار ؛ على هذا قولُ الله تَعالى : ﴿ وإذْ أخَذْنا مِيثَاقَ بَنِي إسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إلاَّ الله ﴾ ، قُرِئَ : ﴿ لا يَعْبُدُون ﴾ بالياء والتاء(٣) فالتَّاء للخطاب ، والياء للإخبار . والرِّسالة التى يريد إبلاغَها قولُه :

* فلا يكُ شِبْهاً لها المِغْزَلُ *

والمعنى لا يكونَنَّ سبيلُكم سبيلَ مَن يتْبَع الغَيَّ ويضرُّ نفسه ، كالمِغزل الذى يُكسِّى الخَلْقَ ويجعل استَه عُريان . وهذا مثَل . وكما ضُرِبَ المَثَلُ بالمِغزل ضُرِبَ أيضاً له بالسِّراج فقيل :

ولا تَكُونَنْ ذُبَالَةً نُصِبَتْ تُضِيءُ للنَّاسِ وهْيَ تَحترِقُ

فأمَّا قوله « وينسلّ من خلفِه الأسفل » ، فإنَّه كان يُرْوَى : « مِن خلفِه »

---

(١) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ١١٣) . وقد سبق فى ٢٤٨ .

(٢) صدره : * لو كان مدحة حى أنشرت أحداً *

(٣) قرأ بالياء التحتية ابن كثير وحمزة والكسائى . وقرأ أبي وابن مسعود : « لا يعبدوا » ، على النهى . تفسير أبي حيان (١ : ٢٨٢) .

وليس يصحّ له معنًى . والمستقيمُ كما روينا : « مِن خَلفِه الأسفل » . وذاك أنَّ المِغزلَ ينسلُّ أسفلَه بأن يُختَلم كُبَّتُهُ ، وهذا ظاهر . وكأنّ سَلاَمَان كانت تقتحم أموالاً غنمُها يصيرُ لغيرِها ، وغُرْمُها يكونُ لها ، فلذلك جَعل المِغْزل مثلاً له .

٤ — فإنْ بُجَـيْرًا وأشياعَـهُ كما تَبْحَثُ الشـاةُ إذْ تَذْأَلُ[1]

٥ — أثارَت عن الحتْفِ فاغْتَالَها فمَرَّ على حَلْقِهـــا المِغْوَلُ

٦ — وآخِرُ عَهْـدٍ لهـا مُونِقٌ غَـديرٌ وجِزْعٌ لها مُبْقِــلُ

قوله « كما تَبحث الشاة » محمولٌ على المعنى ، لأنَّ المعنى أنَّ بحثَ بُجَيْرٍ وأشياعِه كبَحث الشّاةِ فى ذَأَلاَتِها ، وهو جِنسٌ من عَدْوِها ، وذاك لأنَّه يُشَبَّهُ الحدَثُ بالحدَثِ ، والذّاتُ بالذّات ، وإذا كان كذلك فقوله إنّ بُجَيْرًا حَذفَ المضافَ منه ، لأنّ القَصْدَ تشبيهُ البحث بالبحث . وفى المَثَل : « حَتْفَها تحمِلُ ضانٌ بأظلافِها » ، و « كما تَبحث الشّاةُ عن مُدْيَتِها » و « لا تكنْ كالباحثِ عن الشَّفرة » ، وإنَّما ينهى بهذا مَن يَجنِي على نفسه فيما يأتيه ، ويَسعَى فى إهلاكه برِجاله ، فيقول : لا يكونَنَّ سبيلُه سبيلَ الشّاة التى كشفت عن المُدية ، وقد استَتَرت عن الذّابح ، بِظلفها ، حتَّى ذُبحت بها . ومعنى أثارت عن الحتفِ ، أثارَتْ عن المُدْيَة ، ثمَّ كان الحتْفُ فيها . ففيه توسُّع . وهم يُقِيمون السَّببَ مَقامَ المسبَّب كثيراً . واغتال : افتَعَلَ من الغَوْلِ ، وهو الهَلاك . والمِغْوَل : السِّكّين ، وقد اشتهرت بها إذا جُعِلت فى وسَط السَّوْط فصار كالغِلاف لها .

وقوله « وآخرُ عَهْدٍ لها مُونِقٌ غديرٌ[2] » ، يعنى الشّاةَ بعد إثارتها السِّكّين .

---

(١) فى النسختين : « وأشياعها » ، صوابه عند التبريزى . قال : « بجير : اسم رجل » .

(٢) ابن جنى : « أراد أن يقول غدير مونق ، إلا أنه قدم وصف النكرة عليها فأعربها إعرابها وأبدلها منها ، كقولك : مرت بظريف رجل . ولو نصبه لأنه نكرة تقدم عليها فنصب حالا منها لجاز على قولك : فيها قائماً رجل . غير أن سيبويه قال : هذا كلام أكثر ما يجيء فى الشعر وقلما يجيء فى الكلام » .

وهو إظهارُها إيَّاها . فيقول : كان آخرُ عهدها المُعْجِبُ لها روضةً قد أبقلَتْ ، وغديرًا امتلأ ماءً وكان شِبَعه وريه منهما ، فبَطِرت وأثارت عن حَتْفِها حتَّى هلَكت . ولك أن تروى « مُونِقٌ » بالرفع ، فيكون صفة لآخرُ عَهْدٍ ، و « مُونِقٍ » بالجرِّ فيكون للعَهد . وجَعل الإيناق للعَهْد لأنّ المرادَ بالعهد المعهود ، وهو المَرْعَى المُعْجِبُ . ويجوز أن يجعل المُونِقُ من صفة الغدير وقد قُدِّم عليه ، وجُعِل هو بَدَلاً منه ، ويكون التَّقدير : وآخرُ عهدٍ لها غديرٌ مونِقٌ وجِزْعٌ مُبْقِل . ويقال : أبقَلَ المكانُ فهو باقِلٌ ومُبْقِلٌ . وأَفْعَلَ فهو فاعِلٌ شاذ ليسَ بكثير .

٦٢١

وقال إياس بن الأرَتِّ[1] :

١ — كأنَّ مَرْعَى أمِّكُمْ إذْ بَدَتْ عقْرَبةٌ يَكُومها عُقْرُبانْ

٢ — إنَّ كليلُها زَوْلٌ وفى شَوْلِها وَخزٌ أليمٌ مِثْلُ وَخزِ السِّنانْ

٣ — كلُّ عُدوٍ يُتَّقَى مُقْبِلاً وأمُّكُمْ سَوْرَتُها بالعِجانْ

قوله « كأنَّ مَرْعَى أمِّكم » ، يجوز أن يكون « مَرْعَى » اسماً لها ، وأمِّكم بَدَلاً منه ، ويجوز أن يكون لقَّبها الشاعر به . وسُئل الأحنف عن شىء من أمور النساء ، فقال : « الرِّجالُ حِمًى والنِّساء مَرْعًى » ، فعُدَّت من سَقَطاته . ومثل قوله « عَقْرَبة يكومُها عُقْرُبانْ » قولُ الآخر :

كالجُعَلَيْنِ رَكِبَا دُحْرُوجا دَمامَةً ومنظرًا سَميجا

والعُقْرُبان : ذكَر العقارب . والكَوْم : السِّفادُ . وقوله « إنَّ كليلُها زَوْلٌ »

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٧ ص ١٠٢٨ .

(٢) انظر الحيوان (٢ : ٤/٢٨٦ : ٢٥٩ — ٢٦٠) .

كنى عن قَرْنَى العَقربة بالإكليل. والزَّوْل: الخفيف الظَّريف. وقوله «وفى شولها وَخزٌ» أى فيما تَشُولُ العقربةُ من ذنَبها. وزاد الماء فى عقربَةٍ توكيدًا للتَّأنيث. وهذا كما قالوا: جَمَل وناقة، وكبش ونعجة، ووَعِلٌ وأُرْوِيَّةٌ ألحقوا الهاءَ توكيدًا وتحقيقًا للتَّأنيث؛ ولو لم تُلْحَق لم تَحْتَج إليها. وحُكِيَ: عَجُوزَةٌ. والوَخْزُ: الطَّعن الشَّديد المُوجِع. وإنما يعنى شوكتَها إذا ضَرَبَ بها، فشبَّهَ تأثيرَها بتأثير السِّنان.

وقوله «كلُّ عَدُوٍ يُتَّقَى مُقْبِلاً»، أراد أن يذكر السَّوْءَةَ فيها استهزاءً واستهانةً بذكرها، فقال: كلُّ عدُوٍ يُتَّقَى شَرُّهُ إذا أقبلَ، وأُمُّكُمْ يُتَّقَى شرُّها إذا أدْبَرَتْ. والعِجَان يريدُ الدُّبُرَ به[1]. وهو فى الأصل ما بين الخُصْيَةِ إلى سَمِّ الدُّبُر. والسَّوْرَةُ: الوَثْبَة.

٦٢٢

وقال أدهَمُ بنُ أبى الزَّعراء[2]:

١ ـ بَنِى خَيْبَرِيٍّ نَهْنِهُوا من قَنَاذِعٍ ... أتَتْ مِنْ لَدُنْكُم وانظُروا ماشُؤُونُها[3]

٢ ـ فكائِنْ بهامِنْ فاشِصٍ قد عَلِمْتُمُ ... إذا نَفَرَتْ كانَتْ بَطِيئًا سُكُونُها

هذا الكلام منه توعُّدٌ واستهزاء. فيقول: يا بنى خَيبرىّ، كُفُّوا عن أبيات هِجاءٍ وفَخْرٍ جاءتنا مِن عندِكم، وانظُروا كيف تُرْسِلُونَها وماذا شؤونُها حتَّى اهتاجت وجاءت. والقَنَاذِعُ، أصلُه الفُحْش. ويقال للدَّيُّوثِ: القُنْذُع.

(١) ل: «يزيد به الدبر».
(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٠٠ ص ٦١٣.
(٣) التبريزى: «عن قناذع».

وقوله « فكائنْ » بناء كأيْنْ لغةٌ في كمْ. و « بنا » أي عندنا. « ناشِصٌ » أصلُه في المرأة، يقال: نَشَصَتِ المرأةُ على زَوجها ونَشَزت، إذا تمنَّعت. فاستعاره للشِّعر والهجو. يريد: كم من قافيةٍ إذا نَفَرَتْ كانت بطيئاً سكونَها. وهذا توعُّد، والمراد: إنّما نُمْسِكُ عن القول ما أمكنَ، فإذا تكلَّمْنا استمرَّ القولُ بنا فيبطؤُ سكونُنا؛ لأنَّ للاحتمال غايةً وللسُّكون نهاية، إذا بلَغناها فقد أقْمنا العُذْرَ، وما وراءَ ذلك نبلغُ فيه الأقصَى، ولا نرضَى بالمنزلِ الأدنَى. والكِناية عن القصائد والقوافي بالهَدِيِّ والعَرُوس مشهورة. وقد قيل: المراد بالنّاشِص الحرب، وقيل: أراد به امرأةً سيِّئة الخُلُق والعِشرة، لعُجْبها بنَفْسها. كأنّه لمّا جاءهم خاطبًا زهَّدَهم في نسائهم ترفُّعاً عنهم. والصَّواب فيما بدأتُ به.

٣ — وبالحَجَلِ المَقْصُورِ حَوْلَ بُيُوتِنا ... نَوَاشِئُ كالغِزْلانِ نُجْلٌ عُيُونُها[١]

٤ — وإنّا لَمَحْقُوقُونَ حِينَ غَضِبْتُمُ ... بأَيْمَةِ عَبْدِ اللهِ أَنْ سَنُهِينَها[٢]

٥ — فَلَسْتُ لِمَنْ أُدْعَى له إن تفقّأَتْ ... عليْهَا دَمامِيلُ اسْتِهِ وحُبُونُها

الحَجَل: جمع حَجَلَة. والمقصور: المُرسَل عليه السُّتور. والنَّواشِئُ: النِّساء الشَّوابّ. وقَصْدُ الشّاعِر إلى أن يحسِّرَهم ويقصِّرَ بشأنهم ويُهينَهُمْ حينَ عَدَوْا طَوْرَهُم، فخَطَبُوا غيرَ كُفْوِهم، فقال: إنّ عندنا نساءً كالغزلان في جِيَدِها، وبقر الوَحش في عَيَنِها[٣]، مخدَّراتٌ في الحِجال، مُمَنَّعاتٌ حوالَيْ بيوتنا، تَربأُ بأقدارِها عن مُواصَلَتِكم بهنَّ، فتحسَّرُوا وارجِعوا عنّا مقذوعين مذلَّلين؛ فإنّا

(١) التبريزي: « خلف ظهورنا ».

(٢) التبريزي: « ويروى: حين غضبتم بلحية عبد الله ».

(٣) الجيد، وبالتحريك: طول العنق وحسنه. والعين، وبالتحريك أيضا: سعة العين وحسنها.

أَحِقّاء حينَ غضِبتم بسبب أيمةِ عبدِ الله ، وترفَّعنا عن مناكحته ، بأنّا لا نَستعظمها بل نهوّنها(١) ، ونُقِلُّ فِكرَنا فيها . وقوله « أَنْ سنُهِينُها » أن مخفّفة من الثّقيلة . والمعنى : إنّا لحقوقون بأنّا سنُهِينُها لا محالة . ومثل هذا قولُ الآخر(٢) :

فما أكْبَرُ الأشياءِ عِندِي حزَازَةً بأنْ أُبْتَ مَزْرِيًّا عليكَ وزَارِيا

وقوله « فلست لمن أُدْعَى له » يجرى مجرى اليمين ، أى للوالد الذى أُنسَبُ إليه ، أن أُنكِحَ عبدُ الله فينا ، وتشقَّقتْ خُرَاجاتُ استِهِ عليها . وهذا الكلامُ إزراء به ، واحتقارٌ له ، بذكر السَّوْأة منه . وذِكرُ الدَّماميل تشنيعٌ للحال ، وأنَّ العُزْبَةَ(٣) بلغَتْ به هذا المبلغَ لزُهد النَّاس فى مُناكحتهم . وقال « دماميل » لأنّه أشبع كسرة الميم فأحدث عنها ياء . ومثله :

* نَفْيَ الدَّراهيمَ تنقادِ الصَّياريفِ(٤) *

والأصل الدَّراهم والصَّيارف .

٦٢٣

وقال حُرَيْثُ بنُ عَنَّابٍ(٥) :

١ — بَنِي ثُعَلٍ أهْلَ الخَنَا ما حديثُكُمْ لَكُمْ مَنطِقٌ غاوٍ وللنَّاسِ مَنطِقُ

---

(١) ل : « بل نهينها » .

(٢) هو جزء بن كليب الفقعسى . والبيت فى الحماسية ٦٢ ص ٢٤٢ .

(٣) العزبة بالضم : العزوبة .

(٤) للفرزدق ، فى خزانة الأدب (٢ : ٢٥٥) وكتاب سيبويه (١ : ١٠) . والبيت جاء شاهداً على الفصل بين المتضايفين بالمفعول ، فإن أصله « نفى تنقاد الصياريف الدراهيم » ، وروى أيضا بجر الدراهيم على الإضافة ورفع تنقاد ، فيكون من إضافة المصدر إلى مفعوله . وروى أيضا برفع الدراهيم ونصب تنقاد على القلب .

(٥) سبقت ترجمته فى الحماسية ٦٩ ص ٢٥٥ . وفى النسختين : « عتاب » ، صوابه فى التبريزى .

٢ — كأنَّهُمُ مِعزَّى قَوَاصِعُ جِرَّةٍ من العِيِّ أو طيرٌ بخفَّانَ تَنْغِقُ(١)

٣ — دِيَافِيَّةٌ غُلْفٌ كأنَّ خَطِيبَهُم سَرَاةَ الضُّحَى فى سَلْحِهِ يَتَمَطَّقُ(٢)

قوله « بنى ثُعَل أهلَ الخنا » يجوز أن يكون أهل الخنا انتصابُهُ على الذَّم والاختصاص ، كأنه قال : يا بنى ثُعَلٍ ، أَذْكُرُ أهلَ الخنا . وقوله « ما حديثُكم » يريد : ما لغتكم . ويفسِّره قوله بعده « لكم منطقٌ غاوٍ وللنَّاسِ مَنطق » ، ينسبُهُم إلى أنَّهم نَبَطٌ ، وأنَّ لغتهم ذاتُ غَوَايةٍ وزَيْغٍ . ويعنى بقوله « وللناس منطقُ » العربَ . ويجوز أن يكون معنى ما حديثكم : ما شأنكُمُ المستحدَثُ وما أمرُكم ؟ ينسبُهُم إلى أنَّهم لا قديمَ لهم ولا حديث .

وقوله « كأنَّهم مِعزَّى قواصِعُ جِرَّةٍ » ، يقول : إنَّهُم لِعِيِّهم إذا تكلَّموا كأنهم مِعْزَّى تجترّ ، أو طيرٌ بخفَّان(٣) تنغِق . يعنى بالطَّير الغُرابَ ، ليكونَ أشأم ، والقلوب مِن ذكرها أنفَر . ويقال : قَصَع البعيرُ بجرّتَه ، إذا دَفَعها من جَوفه .

وقوله « ديافِيّةٌ » ، دِيافٌ : أرضٌ بالشّام . وقصده إلى أن يُخرجهم من أن يكونوا عَرَبًا ، وجعلَهم غُلْفًا إلحاقًا لهم بالعَجَم والغُلْفَةُ والغُرْلَةُ والقُلْفَةُ تتقارب . ورجلٌ أغْرَل وأغلف وأقْلَفُ . وقوله « كأنّ خطيبَهم » أى الفصيحَ منهم ، والمُعَدّ يومَ فِخَارِهم ، والنِّيابةِ عنهم فى نِفارِهم ، كأنَّه يتمطّق فى سَلْحِهِ . والتمطُّق : تَذَوُّقُ الشَّىء بضمٍّ إحدى الشَّفتينِ على الأخرى مع صوتٍ بينهما . وجعَلَهم كذلك فى سَرَاة الضُّحى ، أى إنَّهم يتباطؤون فى كلِّ حالٍ ، حتَّى لا يقوموا من فُرُشهم إلاَّ فى ذلك الوقت .

---

(١) التبريزى : « كأنكم » . و « معزى » يجوز أن ينون وألا ينون ، بجعل ألفه للإلحاق أو للتأنيث .

(٢) التبريزى : « قلف » ، بدل « غلف » .

(٣) خفان : أجمة قريبة من مسجد سعد بن أبى وقاص بالكوفة .

٦٢٤

وقال شُعَيْثٌ، من كِنَانة(١) :

١ــأتَرْجو حُيَيٌّ أن تجيء صِغَارُهَا بِخَيْرٍ وقد أعْيَا عَلَيْكَ كِبَارُها(٢)

٢ــإذَا النَّجْمُ وَافَى مَغْرِبَ الشَّمْسِ أجْحرَتْ مَقَارِي حُيَيٍّ واشتكَى الغَدْرَ جَارُها

أجود الروايتين « أترجو حُيَيًّا » ، كأنّه يخاطِب إنساناً ويلومه فى تعليقه الرّجاءَ برشادِ صِغار حُيَيّ ، وقد أعياهُ كِبارُها . والمعنى أنّهم لا يُفلِحون أبداً ، وإذا كان رؤساؤُهم وأهلُ الحلِّ والعَقْد منهم معجِزين فى دُعائكِ إيّاهم إلى الخير والصّلاح فرُذالُهم أَوْلى بذلك . وإذا رويت « أترجو حُيَيٌّ » كأنّه جعل الفِعلَ للقبيلة بأسرها ، أى إنّهم وحالُهم ذلك فى ضَلالٍ إذا رجَوْا مِن صغارِهم فَلاَحًا وحالُهم مع كبارهم ذلك .

وقوله « إذا النّجمُ وَافَى » أشار بالنّجم إلى الثُّرَيّا . وهم يقولون :

طَلَعَ النَّجْمُ غُدَيَّهْ وابْتَغَى الرّاعِى شُكَيَّهْ

فهذا يكونُ فى الصَّيف وعند اشتداد الحر .

و : طلع النَّجم عِشَاءَ وابتغَى الرّاعِى كِسَاءَ

(١) التبريزى : « وقال شعيث بن عبد الله ، وهو من كنانة بلقين ، يهجو رجلا من بلقين يقال له عقال بن هاشم . وعقال يقول فيهم :

فما كنانة فى خير بخائرة ولا كنانة فى شر بأشرار

وشعيث : تحقير شعث ، وإن شئت كان تحقير أشعث على الترخيم » .

(٢) التبريزى : « وروى أبو هلال : أترجو حيى ، قال : حيى : قبيلة : وروى غير أبى تمام هذه الأبيات لحريث بن عناب ، أحد بنى نبهان بن عمرو بن الغوث من طيىء . وأخذ الفرزدق منه فقال :

أترجو ربيع أن تجيء صغارها بخير وقد أعيا ربيعا كبارها

وأخذه أيضا البعيث فقال :

أترجو كليب أن يجىء حديثها بخير وقد أعيا كليبا قديمها

فقال الفرزدق :

إذا ما قلت قافية شروداً تنحلها ابن حمراء العجان » .

وهذا يقالُ في شِدّة البرد . فيقول : إذا طَلَع النَّجم عند غُروب الشَّمس ، — يشير إلى تجرُّد للمَحْل ، وتكشُّف الجَدْب — أُخْرِتْ مَقَارِي هذه القبيلة وسُتِرتْ ، تفادياً من الضِّيافة ، وهرباً من الضِّيفان . والمَقَارِي : جمع مِقْرَاةٍ ، وهي ما يُطْعَمُ فيه الضَّيفُ من الجفان . والمراد أنَّه لا مِقْرَاةَ ثَمَّ ؛ لأنَّهم في الشِّتاء يُضيفون ويستضيفون ، فإذا عُطِّلت جِفانُهم في ذلك الوقتِ فلأنَّه لا قِرَى عندهم ولا مَقارى . وقوله « واشتكى الغَدْرَ جارُها » ينسُبهم إلى أن إساءتهم مقصورة على الجار ، وطمعَهم فيه وفيمن جَرَى مَجراه ؛ فعند الحاجة لا يَشْقَى بهم إلاَّ جارُهم . وجواب إذا النَّجم « أُجْحِرَتْ » . و « مَغْرِبَ الشَّمس » يجوز أن يكون مفعولاً ، وأن يكون اسماً لموضع الغروب ، ويكون وَافَى من الموافاة . ويجوز أن يكون ظرفاً[1] ، ويكون معنى وافَى طَلَع .

٦٢٥

وقال آخر[2] :

فما كِنانَةُ في خَيْرٍ بخائرَةٍ   وما كِنانَةُ في شَرٍّ بأَشْرَارِ

يقال : خايرْتُه فخِرته خَيْرًا . وأنا خائِرُهُ ، إذا كنتَ خيْرًا منه . واستَخَرْتُ الله فخَارَ لِي . وهذه خِيَرَتِي[3] ، أي التي أختارُه . والمعنى لا يَرجِعون إلى حالٍ يُعْتَدُّ بهم لها ، ويُعتَمَد بمكانهم عليها ، فلا عِندَ الخَيْر وتَعدادِ أهله يفوزون بسُهْمَةٍ ، ولا في الشَّرِّ وتَعداد أهلِه يحصُلون على خُطَّة .

---

(١) ويجوز أن يكون ظرفا ، ساقط من ل .

(٢) هو عقال بن هاشم ، كما سبق في حواشي الحماسية السابقة . وهذا البيت لم يعده التبريزي في عداد الحماسات ، بل ذكره استطرادا كما سبق في النقل عنه .

(١) تقال بكسر ففتح ، وبكسر فسكون ، والأولى أفصح .

٦٢٦

وقال حُرَيْثُ بن عَنَّابٍ[(١)]:

١ ـ قُولاَ لصَخْرَةَ إذْ جَدَّ الهجاء بها ... عُوجِى علينا يُحَيِّيكِ ابْنُ عَنَّابِ

٢ ـ هَلاَّ نَهِيْتُمْ عُوَيجًا من مقاذَعَتى ... عَبْـدَ المَقذِ دَعِيًّا غيرَ صُـيَّابِ

٣ ـ مُسْتَحْقِبِينَ سُلَيْمَى أُمَّ مُنْتَشِرٍ ... وابْنَ المُـكَفَّفِ رِدْفًا وابْنَ خَبَّابِ

قوله « يحيِّيكِ » ، يجوز أن يكون فى موضع الحال ، أى عُوجِى محيِّيًا لك هذا ، ومثله : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ ﴾ أى وارثًا . ويجوز أن يكون فى موضع الجزم جوابًا لقوله عُوجِى ، وأجرى المُعتَلَّ مُجْرَى الصحيح .

ومثله :

أَلَمْ يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِى ... بما لاَقَتْ لَبُونُ بنى زِيَادِ[(٢)]

وهذا الكلام تهكُّمٌ وسخريّة . وإنما يخاطب صاحبَين له يبعثُهما[(٣)] على أن يبلِّغا بنى صَخْرَةَ ويبعثاها وقتَ تهيُّجها بالهجاء وكونِ تصرُّفهم فيه جِدًّا منهم وهَمًّا لهم على أن يَعطِفوا عليهم ، ليُسَلِّمَ عليهم ابنُ عَنَّابٍ ، يعنى نفسَهُ . وذِكْرُ التحية هاهنا هُزْءٌ منه . وهذا كما قال الآخر[(٤)] :

* تحيَّةُ بينِهم ضَرْبٌ وَجِيعُ[(٥)] *

إلاَّ أنَّ هذا فى الأفعال ، وابنُ عنّاب جعلها فى الأقوال .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٦٩ ص ٢٥٥ .

(٢) لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، فى الخزانة (٣ : ٥٣٦) وكتاب سيبويه (١ : ١٥ – ٢ : ٥٩) .

(٣) ل : « فبعثهما » .

(٤) هو عمرو بن معديكرب . الخزانة (٤ : ٥٣) .

(٥) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

وقوله «هَلاَّ نَهَيْتُم» تقريعٌ ولَوْمٌ وتذكيرٌ بسُوء تأتِّيهم، وقُبْحِ فِعلهم. فيقول: هلاَّ كففتم عن مفاحشتى عُوَيْجًا — وهو رجل منهم — وجعلَه عبدَ المَقَذِّ، أى لئيمًا ودَعِيًّا فيهم غيرَ خالص النَّسب. المقاذَعة: المفاحَشة. ويقال: أقذَعَ الرَّجلُ، إذا أتى بفُحش. وانتصاب «عبدَ المَقَذِّ» يجوز أن يكون على البَدَل، ويجوز أن يكون على الذّم، ويجوز أن يكون على الحال. والمقذّ: مَنبِت الشَّعر من مقدَّم الرأس ومؤخَّره. ويقال: فلانٌ عبدُ القفا، وعبدُ المَقَذّ، ويراد بالمَقَذّ القفا. وهذا كما يقال فى ضدِّه: هو حرُّ الوجه، وكريم المُحَيَّا. والصُّيَّاب: الخالصُ، كأنَّه يهجِّنه. وقال الخليل: الصُّيَّاب والصُّيَّابة: أصلُ كلِّ قوم. وقال أيضًا: الصُّيَّاب: الخِيار من كلِّ شىء[(1)]. وأنشد:

* يَخْتَلُّ من كِنْدَةَ فى الصُّيَّابِ *

وقوله «مستحقِبين سُليمَى»، أفحَشَ فيه؛ أى جئتم لمهاجاتى وقد استحقبتم هذه المرأةَ وابنَ المكفَّفِ مَعَها رِدْفًا وابنَ خَبَّاب. كأنه يَرمِي سُليمَى بهما أو يَعُدُّهم جميعًا من مخازيه. فهذا هُزْءٌ أيضًا. أى جازيتمونى بمن هو شَيْنُكم، وجعلتم عيوبَكم بمرأًى ومَسْمَع إذا كان غيرُكم يُخفِى أمرَه ويستُرُه. يريد: استهدفتم لى بهؤلاء. وسُليمَى كانت لها قصة. والاستحقاب: شدُّ الحقيبة من خَلف، وكذلك الاحتقاب: وكَنَى عن العَجُز بالحقيبة لذلك.

٤ — يا شَرَّ قومٍ بنى حِصْنٍ مُهاجِرَةً وَمَن تَعرَّبَ منهم شَرُّ أعرابِ

٥ — لا يَرْتَجِى الجارُ خَيْرًا فى بيوتِهِمِ ولا مَحالةَ مِن شَتْمٍ وألقابِ

ينسُبهم إلى أنهم شرُّ قومٍ هاجَروا إلى الأمصار أو بقوا فى البَدْو. و «بنى

(١) ابن جنى: «وذلك أنها فعال من صاب يصوب، أى اطمأن واستقر. يقولون: فلان من صيابة قومه، أى ثابت راسى القدم فيهم. وقياسه صوابة، غير أنهم آثروا الياء استحسانًا لا وجوبًا».

حصن » يجوز أن يكون انتَصَب على النِّدَاء ، كأنه قال : يا شَرَّ قومٍ يا بَنى حِصْنٍ . وانتَصَبَ « مُهاجِرَةً » على الحال ، ناداهم فى هذه الحالة . أى أنتم شرُّ قوم فى مهاجَرتكم . ومثله :

* يا بُوسَ للجَهْلِ ضَرَّارًا لأقوامِ[1] *

ويُؤَنِّسُ بوقوع الحال بعد النِّدَاء قولهم : يا زَيْدُ دعاءً حقًّا . فإذا ساغَ أن يقع المصدرُ بعدَه تأكيداً ، فكذلك الحال . قوله « ومن تَعَرَّبَ » فيه معنى التكلف ، لأنّ تفعّلَ يجىء لذلك كثيراً . وصرَفَ الكلامَ عن السَّنَن الأول وجعله استئناف خبرٍ . ويجوز أن يكون انتَصَب بنى حصنٍ على الذّمّ والاختصاص .

وقوله « لا يَرتَجِى الجارُ » يريد أنَّ جارَهم مبتَذَلٌ فيهم ، يائسٌ من خيرهم مادام معهم ، وملقًّى مِنْ جهتهم بالاستخفاف والتلقيب[2] ، والشَّتم القبيح . وأجرى قوله « لا مَحَالَةَ » مَجرى قولِهم لا بُدّ ، كأنّه أراد : الجارُ لا يرجو خيراً فيهم ، ولا بُدَّ له من شَتْمٍ يُقْصَدُ به ، ولَقَبٍ يُعَرَّفُ بذكره . وقال الخليل : « يقولون فى موضع لا بُدَّ : لا محالة » . ويقال : حَالَ حَوْلاً وحِيلةً ، أى احتال .

٦٢٧

وقال آخر :

١ — بَنِى أَسَدٍ إلاَّ تَنَحَّوْا تَطَأْكُمُ   مَنَاسِمُ حَتَّى تُحْطَمُوا وحَوَافِرُ

٢ — ومِيعادُ قومٍ إنْ أرادُوا لِقَاءَنا   مِيَـــاهٌ تَحامَتْهَا تَمِيمٌ وعامِرُ

---

(١) للنابغة الذبيانى فى ديوانه ٧١ واللسان (خلا) والشعراء ٤٢ ، ١٢٥ والخزانة (١ : ٢٨٥) . وصدره :

* قالت بنو عامر خالوا بنى أسد *

(٢) أي الرمي بالألقاب . وهذا ما فى ل . وفى الأصل : « والتقليب » ، تحريف .

٣ — وما نَامَ مَيَّاحُ البِطَاحِ ومَنْعِجٍ ولا الرَّسِّ إلاّ وهو عَجْلانُ سَاهِرُ

يقول : يا بنى أَسَدٍ ، خَلُّوا الطَّريقَ وتباعَدوا عنها ، فإنَّكم إنْ لم تفعلوا ذلك وطِئَتْكم الإبلُ والخيل فحطَمَتْكم . ينسُبهم إلى القِلَّة والضَّعف ، ويتهكَّم مع ذلك بهم .

وقوله : « وميعادُ قَومٍ » يعنى بنى أسدٍ وأنصارَهم ، والميعاد والوَعد واحد ، وإذا كان كذلك كانَ المعنى : ومَوضعُ الوعدِ لمن أراد الالتقَاء معنا مياهٌ تتحاماها بنو تميم وبنو عامرٍ — يعنى أحِمَيتَهم — فلا تَجْسُرُ على وُرودِها وإن كثُروا . فحذَفَ المضافَ ، وهو الموضع .

وقوله « وما نام مَيَّاحُ البِطاح ومنعجٍ » ، فالمَيَّاح : الذى يَميح ماءَ الركيَّة . وأراد بالبِطاح ومَنعِج والرَّسّ مواردَ المـاء . والرَّسّ : البئر القديمة . جعَلَ المستقِي من هذه الآبار يَميحُ . وأراد بمَيَّاحٍ الكثرةَ ؛ لأنَّ لكلِّ موضعٍ من المواضع المذكورة ماحَةً . والمَيْح : الدُّخول إلى أسفَلِ البئر ليغرفَ المـاءَ فى الدِّلاء ، إذا قَلَّ المـاء . والمَيْح : الاستِقاء ، يريد : مَتَحُوا أوّلاً ثمَّ ماحوا ، لكثرة الوارِدة . وإنَّما وصَفَ سُكَّانَ هذه المواضع — وهم جيشُهم — بوُفور العدد ، وأنّ سُقَاتَهم بهذه الصِّفة من العَجَلة والسَّهر . وقوله : وما نام إلاَّ وهو عجلان ساهر ، يريدُ : نَومُهم تَرْكُ النَّوم ، والاستعجالُ فى السَّقْى . وهذا كما قال الآخر(١) :

* فإنّ المُندَّى رِحْلَةٌ فرُكوبُ(٢) *

وكقول أبى تمام :

* تعليقها الإسراجُ والإلجامُ(٣) *

---

(١) لعلقمة الفحل فى المفضلية ١١٩ واللسان (ندى) .

(٢) صدره : * ترادى على دمن الحياض فإن تعف *

(٣) صدره فى ديوانه ٢٨١ :

* بسواهم لحق الأياطل شزب *

٤ـ تضــاءلتُمْ مِنَّا كما ضَمَّ شَخْصَهُ أمامَ البُيوتِ الخارئُ المُتَقاصِرُ
٥ـ تَرَى الجَوْنَ ذا الشِّمْرَاخ والوَرْدَ يُبْتَغَى لَيالِيَ عَشْرًا وَسْطَنَا وهو عائرُ(١)

قوله « تضاءلتم » أن تصاغرتم منا وانزويتم ، لفشلكم وذهاب مُنَّتكم ، كما يفعله المتغوِّط أمامَ البُيوت إذا استولَى عليه الخَجَل لما يريده من قضاء الحاجة ، فهو يَتقاصَرُ ويُخفِي شخصَه لئلاَّ يُرَى . وهذا التشبيه فى المُنْخَزِل وقد مَسَّه الحياء والخجَل غايةً .

وقوله « ترى الجَونَ ذا الشِّمراخ » يريد به ذا الغُرّة السّائلةِ على الأنف . والشِّمراخ من الجَبَل : المُستَدِقُّ الطّويل ، على التشبيه . والعائرُ : المختلف ، والسَّهم العائرُ من هذا . يقول : إنَّا لكَثْرتِنا واتِّساع منادِحنا وأقطارنا ، لو أفْلَتَ فينا فَرسٌ أدْهَمُ ذو غُرَّةٍ سائلة — وجعلَه كذلك ليكونَ أشهرَ أمْرًا وأقلَّ خفاء — وفَرَسٌ وَرْدٌ أغرُّ أيضاً ، ثمّ طُلِبَ عَشْرَ ليالٍ فيما بيننا لما ظُفِرَ به .

٦ــ ولمَّا رأيناكم لِئامًا أدِقَّةً وليسَ لكم مولًى من النَّاسِ ناصِرُ
٧ــ ضَممناكُمُ مِنْ غَيْرِ فَقْرٍ إليكُمُ كما ضَمَّتْ السّاقَ الكسيرَ الجبائرُ

وصف حالَهم القديمة معهم ، وكيفيّةَ اتِّصالهم بهم وانعطافهم عليهم حتَّى أبطرهم ذلك ، فاستَعْصَوا عليهم ، وَوَسْوَسَتْ نفوسُهم إليهم بالاستغناء عنهم ، والاكتفاء من دونهم . فيقول: لمّا رأيناكم أدنياءَ فى أنفُسكم ، أدِقَّاءَ فى أحوالكم لا ناصرَ لكم ، ولا مُدافعَ دونكم ، تعطَّفنا عليكم لنرفع خسيستَكم ، رحمةً لكم ، وضممناكم إلى أنفُسنا من غير حاجةٍ إليكم ولا تكَثُّرٍ بكم ، لنَجبُرَ كسرَكم ، ونوفِّر نقصَكم كما تَضمُّ العصائبُ التى يُعْصَبُ بها الكسرُ ، والجبائرُ التى يُسَوَّى بها العظمُ الكسيرَ المجبور . وهذا من التشبيه الصَّائب ، والكلام المتخيَّر . والأدِقَّةُ : جمع الدَّقيق ، وهو الرَّجل القليل الخير . والفعل دَقَّ دِقَّةً . وقال : الكسير ،

(١) التبريزى : « عشرا بيننا » .

والسَّاقُ مؤنَّثة لأنَّه فَعِيلٌ فى معنى مفعولة . وعند أصحابنا البَصريِّين هذا لا ينقاس ، بل يُتْبَع فيه المحكىُّ عنهم .

٦٢٨

وقال أبو صَعْتَرَة[1] :

١ ـ أتَهْجُونَا وكُنَّا أَهْلَ صِدْقٍ وتَنْسَى ما حَبَاكَ بَنُو بَرَاءِ

٢ ـ هُمُ نَتَجُوكَ تَحْتَ اللَّيلِ سَقْبًا خَبِيثَ الرِّيحِ مِن خَمْرٍ ومَاءِ

٣ ـ وهُمْ جَهِلُوا عليكَ بغيرِ جُرْمٍ وبَلُّوا مَنْكِبَيْكَ مِنَ الدِّماءِ

يخاطب رجلاً من عشيرته ، ويقرِّعُه على ما كان منه من ثَلْبِه وهَجْوِه ، فيقولُ : أتذمُّنا مع إحساننا إليك ، وكَوْنِنا أهلَ صدقٍ لك ، ورهطَ صفاء ووِدادٍ معك ، وتَنسى ما كان منك حتى تعرَّضْتَ لبنى بَرَاء بمثلِ تعرُّضِك لنا ، وما قابَلُوكَ به من عطِيَّةٍ وحِباء ، وحُسن مكافأةٍ وجزاء على فعلك ، وقد كان فى الحكم أن يؤدِّبك ذلك ويَرْدعك ، وينبِّهَك على رَشادِك وصَلاحك ، ويمنعَك من مُعاوَدة شِبْهِه ويقمعك . ثم أخذ يصف الحِبَاءَ الواصِلَ إليه من جهتِهم ، والجزاءَ المُعَدَّ له ، فقال : هم نَتَجُوكَ تحتَ الليل سَقْبًا ، أى ولَّدوك ليلاً سَقْبًا خبيثاً . وهو فى الأصل المذكَّر من أولاد الإبل . ويقال : أسْقَبتِ الناقةُ وهى مِسْقابٌ . والمعنى : ضربوكَ حتى سلحْتَ شيئا منكَرًا . والذَّكَر أرْذَلُ النِّتاجَيْن ، فلذلك خصَّه . وقال « تحتَ اللَّيل » لأنَّ الليل أخْفَى للوَيْل .

وقوله « وهم جَهِلوا عليك [بغير جُرم[2]] » ، يعنى أنهم فعلوا ذلك بك ، ومن قبلِ ذلك كانوا أسلموك ، بلا جِنايةٍ كانت منك عندهم ، ولا جريرةٍ سبَقت عنك إليهم ، أنْ جرَحُوكَ حتى بلُّوا مَنْكِبَيْك من الدِّماء السائلة عليك .

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٩ ص ١٠٢٣ .

(٢) التكملة من ل .

٦٢٩

وقال الطِّرِمَّاح[١] :

١ — إنَّ بمَعْنٍ إنْ فَخَرْتَ لَمَفْخَرًا ... وفى غيرِها تُبْنَى بيُوتُ المكارِمِ[٢]

٢ — مَتَى قُدْتَ يا بْنَ الحنْظَلِيَّةِ عُصْبَةً ... مِنَ الناسِ تَهْدِيها فِجَاجَ المَخَارِمِ[٣]

هذا الكلام هُزْءٌ وسخريَّة ، يقول : لك أن تفتخرَ ببنى مَعْنٍ ، فإنهم فى موضع ذاك ، لكونهم مَجْمَع الفضائل ، لكن مبانى الكَرَم تؤسَّس فى غيرهم . ثم أقبلَ عليه فقال : أخبِرنى متى حدَّثْتَ نفسَك بأن تكون قائدَ طائفةٍ من الناس فتقدُمَهم[٤] وتَهديَهم الطُّرُق ، وهم يطؤون عقِبَكَ ، ويدورون على مُرادِك ؛ لقد رأيتَ ما لم تؤمِّله ، ونِلْتَ ما لم تَرْتقِ إليه همَّتُك .

والفِجاجُ : الطُّرُق . والمخارِم : جمع مَخْرِم ، وهو مُنقطَع أنفِ الجبَل . وهذا مثلٌ ، أى تُصرِّفهم حيثُ أردت ، وتوجِّههم كيفَ شئت .

٣ — إذا ما ابنُ جَدٍّ كانَ ناهِزَ طَيِّئٍ ... فإنَّ الذُّرَى قد صِرْنَ تحتَ المَناسِمِ

٤ — فَقُدْ بزِمامٍ بَظْرَ أُمِّكَ واحْتَفِرْ ... بِأَيْرِ أبيكَ الفَسْلِ كُرَّاثَ عاسِمِ[٥]

« ابن جَدٍّ » يريدُ به صاحبَ جَدٍّ وحظٍّ فى الدنيا . فيقول : إذا اتَّفق

---

(١) التبريزى : « وقال الطرماح بن جهم السنبسى ، لنافذ بن سعد المعنى » . وهو أحد بنى سنبس بن معاوية بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيئ ، كما فى المؤتلف ١٤٨ . وهو غير الطرماح الشاعر المشهور ، فذاك الطرماح بن حكيم بن نفر ، الذى سبقت ترجمته فى الحماسة ٥٦ ص ٢٢٧ .

(٢) أنشد ياقوت هذه الأبيات فى معجمه فى رسم (عاسم) ، وهو رمل لبنى سعد .

(٣) ياقوت : « يا ابن العنبرية » .

(٤) ل : « تتقدمهم » .

(٥) قال ياقوت : « قيل : كان أحد جديه جمالا والآخر حراثا ، فلذلك قال : فقد بزمام بظر أمك واحتفر الكراث » .

لمتقدِّم بنفسِه مجدودٍ، لا أوَّليةَ له، خارجيٍّ، أن يكون ناهِزَ مائِيٍّ، أى مدْرَهَهُم وكبيرَهم والذى يَنْهَزُ الدَّلْو من البئر، أى ينزعها، كأنَّهُ أراد: الذى يَقومُ بأمرِهم عند السُّلطان، ويتنجَّزُ عليه حاجاتِهم ومُهِمَّاتِهم، فقد انقلَبَ الدهرُ، وانحطَّ الأعالي، وصارت الأشراف أذِلاَّء، لأنه لا يتقدَّم الوضيعُ إلاّ بتأخر الرَّفيع. وحكى غيرُ واحدٍ من أهل اللغة أنَّه يقال: هو ناهِزُ القوم، أى كاسِبُهم والساعى لهم.

وقوله «فَقَد بزمامٍ» استهزاء وإزراء بهم، وقلَّة احتفال، بتناوُلِ القبيح مِن ذكرهم. لذلك سمَّى السَّوءةَ من طرفيه[1]. والفَسْلُ: الرَّذْلُ. والفَشْلُ: الضعيف، وهما روايتان. وعاسم: موضِعٌ.

٦٣٠

وقال الكَرَوَّسُ بن زَيْدٍ[2]:

١ — أَلاَ لَيْتَ حَظِّى مِنْ عطائِكَ أنَّنى عَلِمْتُ وَراءَ الرَّمْلِ ما أنتَ صانِعُ

٢ — فقَدْ كانَ لى عمَّا أرَى مُتَزَحْزَحٌ ومُتَّسَعٌ مِنْ جانِبِ الأرضِ واسِعُ

٣ — وهَمٌّ إذا ما الجِبْسُ قَصَّرَ هَمَّهُ طَلُوعٌ إذا أعيا الرِّجالَ المَطالِعُ[3]

يقول: تمنَّيتُ أنْ يكون الذى حَظِيتُ به من عطائِكَ لى أنِّى عَلِمْتُ وأنا وراءَ الرَّملِ ما أنت صانعُه وقد قَدِمْتُ عَلَيْك. فقوله «وراءَ الرَّملِ» ظرف لعلمْتُ، وأنَّنى علمتُ خبر ليت، كأنَّه وَدَّ أن يكونَ بَدَلَ حَظِّه من العطاء علمَه بما يفعلُه، فكان اختيارُه بحسبه. ولا يجوز أن يكون وراءَ الرَّمل يتعلَّق بصانع،

(١) أى صرح بذكر سوءة طرفيه: أبيه وأمه.

(٢) التبريزى: «وقال الكروس بن زيد بن حصن بن مصاد بن مالك بن معقل ابن مالك». وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٢١٠ ص ٦٣٩.

(٣) التبريزى: «قصر نفسه».

لأنَّك إن جعلتَ ما موصولا فالصِّلة لا تتقدَّم هى على الموصول ، ولا شيءٌ ممَّا يتعلّق بها[1] . وإن جعلت ما موصوفا فالصِّفة لا تتقدَّم على الموصوف ولا ما يتعلَّق بها ، وإن جعلت ما استفهاماً فما بعدَ الاستفهام لا يعملُ فيما قبلَه . وإذا كان كذلك ظهرَ فسادُ تعلُّقِه به على الوجوه كلِّها ، من طريق الإعراب ومن طريق المعنى[2] ، فالصَّحيح ما قدّمتُه . ألاَ ترى أنّه قال : فقد كان لى عمّا أرى مُتزحزَحٌ ومدّسَع . والمتزَحْزَح : المَبْعَد . أى كانَ لى جانبٌ من الأرض واسع أتزحزحُ فيه عمّا أراه وأَرِدُ عليه ، وكان لى هَمٌّ طويلٌ ممتدُّ الشأوِ يذهب صُعُدًا ، إذا كان هَمُّ الجِبْس قصيراً . طَلوعٌ إلى أعالى العزِّ وذُراهُ إذا أعجزَ الرِّجالَ مَطالِعُ العزّ . والجِبْس هو الثَّقيل الجافِى . أى يقصِّر همُّ نفسِه فيرضَى بالحاصِل له . وقوله « إذا ما الجِبْسَ » ظرفٌ لما دلّ عليه هَمٌّ ، و « إذا أعيا » ظرفٌ لطَلوع . ولا يمتنع أن يكون إذا ما الجبسُ ظرفاً لطَلوع ، ويجعل إذا أعيا بدلاً منه ؛ لأنّ المعنيين يتقاربان . والأوّل أقربُ وأجوَد .

---

(١) أى ولا شىء مما يتعلق بالصلة يتقدم على الموصول . وفى النسختين : « ولا على شىء مما يتعلق بها » وليس بصواب . وعبارة ابن جنى فى التنبيه : « لاستحالة جواز تقديم الصلة أو شىء منها على الموصول » .

(٢) أما ابن جنى فيرى أن التعليق صحيح من جهة المعنى ويقول : التقدير ما أنت صانع وراء الرمل » . وأما التعلق من جهة الإعراب فيراه غير جائز فى الأوجه الثلاثة المتقدمة . ثم يقول : « فإذا كان المعنى عليه — أى على التعليق — وسبيل الإعراب ضيقه عنه — أى لا تحتمله فى الصناعة — أضمر له ما يتناوله مما يدل الظاهر عليه » ، فيرى أن الظاهر تفسير لعامل مقدر يشبهه . ثم قال بعد أن ذكر هذا الوجه : « ويجوز أن يكون وراء الرمل متعلقاً بنفس ، أى علمت علمت فى هذا الموضع كذا وكذا ، على صغر معناه ويجوز وجه ثالث غير هذين ، وهو أن ينصب وراء نصب المفعول به بعلمت ، أى لبتنى عرفت هذا الموضع ، وتبدل منه ما أنت صانع ، أى الذى أنت صانع فيه ، كقولك : عرفت هذا الذى تجدد من أمرها . ويجوز إذا أبدلت ما أنت صانع أن تجعل ما استفهاما ، كقولك : قد عرفت زيدا أبو من هو ، فتبدل أبو من هو ، من زيد ، فتصير إلى أنك كأنك قلت ، قد عرفت أبو من زيد . ويجوز أيضاً إذا جعلت وراء مفعولا به أن تجعل علمت المتعدية إلى مفعولين وتجعل ما بعدها من الاستفهام فى موضع المفعول الثانى ، كقولك علمت زيدا كم ما له » .

٦٣١

وقال وضّاح بن إسماعيل[1] :

١ — مَنْ مُبْلِغُ الحجّاجِ عَنِّى رِسالةً ... فإنْ شِئْتَ فاقطَعْنى كما قُطِعَ السَّلا[2]

٢ — وإنْ شِئْتَ أقبلْنا بمُوسَى رَميضَةٍ ... جَميعًا فقَطَّعْنا بها عُقَدَ العُرَى[3]

٣ — وإنْ قلتَ لا إلاَّ التَّفرُّقَ والنَّوَى ... فبُعْداً أدامَ اللهُ تَفرِقَةَ النَّوَى[4]

٤ — فإنى أرَى فى عَيْنِكَ الجِذْعَ مُعْرِضًا ... وتَعْجَبُ أنْ أبصَرْتَ فى عَيْنِى القَذَى[5]

هذه أبياتٌ ذهبَ النّاسُ مِن طريق الرِّواية والمعنى فيها مذاهبَ طريفة ، والصَّحيح ما أُورِدُهُ . وذاك أنَّه رتَّب ما بينَه وبين الحجّاج مراتبَ ثلاثًا ، خبَّره فيها بالشُّروط المبيَّنة .

---

(١) التبريزى : « وضاح بن إسماعيل بن عبد كلال بن داود بن أبى أحمد » . والصواب « بن داذ بن أبى جمد » . كما أسلفنا فى ترجمته فى الحماسية ٢١٢ ص ٦٤٣ . يؤيد ذلك مارواه أبو الفرج فى الأغانى (٦ : ٣١) من قوله فى بنات عمه :

من بنات الكريم داذ وفى كنـ ... ـدة ينسبن من أباة اللعن

وقوله يفتخر بجده أبى جمد :

بنى لى إسماعيل مجدا مؤثلا ... وعبد كلال بعده وأبو جمد

(٢) فى الأغانى (٦ : ٤٢) أن هذه الأبيات يقولها وضاح فى أخيه « سماعة » وقد عتب عليه فى بعض الأمور . وقد روى البيت الأول هكذا :

فمن مبلغ عنى سماعة ناديا ... فإن شئت فاقطعنا كما يقطع السلى

(٣) التبريزى وابن جنى : « فاقتلنا بموسى » و « فقطعنا » بصيغة الأمر . وقال التبريزى فى تفسيره : « ونصب عقد العرى على المصدر ، أى فقطعنا تقطيع عقد العرى ، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه » . نحو هذا الكلام لابن جنى .

(٤) الأغانى :

وإن شئت صرما للتفرق والنوى ... فبعدا أدام الله تفرقة النوى

(٥) مقتبس من قول عيسى عليه السلام : « لماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك ، وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها » . إنجيل متى ٧ : ٣ ولو ٦ : ٤١ . وفى عيون الأخبار (٢ : ٢٧١) : « كيف تبصر القذاة فى عين أخيك ولا تبصر السارية فى عينك » .

فالشَّرْط الأول قوله « إن شئت فاقطَعْنى كما قُطِـعَ السَّـلا » وهذا يحتمل معنيين : أحدهما أن يريد إن شئتَ خُصَّنِي بقطيعةٍ لا وِصَالَ يتعقَّبُها ، كما أنَّ السَّـلاَ ، وهو الجِلدة التى يلتفُّ فيها الولد عندَ خروجِه من بَطنِ أمِّه ، إذا قُطِـعَ عنه لم يَعُد إليه . ويجوز أن يكون المعنى : اقطَعْنِي قطيعةً لا يُرْجَى معها وَصْلٌ ؛ لأن السَّـلاَ إذا انقطعَ فى بَطن الحامل لم يمكن استخراجُه ، ولا يُرجي الخَلاصُ معه . ولهذا ضُرِبَ المَثَلُ به فى الشَّدائد فقيل : « انقطَع السَّـلا فى البطن » . والمراد فى هذه القطيعةِ المذكورة أنْ تبقَى العلائقُ التى بينهما على ما حَصَلَتْ وثبتَت لا يُغيَّر منها شيء .

والشَّرْط الثانى : « وإنْ شئتَ أقبَلْنا بمُوسَى رَميضَةٍ » ، يقول : وإن شئتَ أخذَ كلٌّ منَّا مُوسَى محدَّدة ، فقَطَّعنا بها الأواصرَ التى بيننا . وهذا مَثَل ، والمعنى أنَّ لنا الأسبابَ التى تَوَاصَلْنَا بها فصارت مِثلَ الأنساب ، وحَلَلْنَا عُقَدَ العُرَى الوثيقةِ فيما تواشَجْنَا فيه حتى نَصِيرَ كالأجانبِ لا وُصَلَ تجمعُنا ، ولا أواخِيَّ تَنظِمنا ، إلاَّ ما طَوَى البعادُ بيننَا من قُرْب الجِوار والدَّار .

والشرط الثالث : وإنْ قلتَ لا إلاَّ التفرُّقَ بالأبدان معها ، فيكونُ النَّوَى مُبَدِّدةً شملَنا ، فلا نلتقى فى شَعْبٍ ومَسْلَكٍ ، ولا نتحاذَى فى منزلٍ ومَجمعٍ ، ولا نتجاورُ فى مَحَلٍّ ومَقرٍّ(١) ، فإنَّا نَبْعُدُ بُعْدًا كما تختار ؛ وأدامَ اللهُ تفرقةَ النَّوى بيننا ولا جَمع ما تشتَّت منها .

ويقال : سِكِّينٌ رَمِيضٌ : حادٌّ . وكل حادٍّ رَمِيضٌ ، ومنه ارتَمَض مِن كذا ، إذا اشتدَّ عليه وأغضبَه .

وقوله « فإنِّى أرى فى عينِك الجِذع » ، يقول : إن العداوة بيننا رسخَتْ

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « وسفر » .

وثبتَتْ واستحكمتْ مِن جهتِك ، فلا استبقاء معك ، ولا صبرَ على أذَى مضضٍ منك ، حتَّى تعجبَ لأدنى شيء يَحُول ، وتَستعظِم أصغرَ ما يحدُث ويدور ، وأنا أرَى الجِذع يمترض فى عينك فلا أنكر ، ولا أحاسِبُ عليه ولا أضايِق . وهذا كما يُقال فى المثل : « تُبصِرُ القَذَاةَ فى عين أخيك ، وتَدَعُ الجِذْعَ المعترضَ فى حلقِك »[1] .

٦٣٢

وقال جَوَّاسٌ الكَلْبِيّ من بنى عَدِيّ بن جَنابٍ[2] :

١ — ضَرَبْنَا لكم عن مِنْبَرِ المُلْكِ أهْلَهُ ... بِجَيْرُونَ إذْ لا تَستطيعُون مِنْبَرَا

٢ — وأيَّامَ صِدْقٍ كُلُّها قد عَلِمتُمُ ... نَصَرْنا ويَوْمَ المرجِ نَصْرًا مُؤَزَّرَا[3]

٣ — فلا تَكْفُروا حُسْنَى مَضَتْ مِنْ بلائنا ... ولا تَمْنَحُونَا بَعْدَ لِينٍ تَجَبُّرَا

يخاطب بهذا الشِّعرِ بنى مروانَ ممتنًّا عليهم ، وذاك أنّ معاويةَ بنَ أبى سفيانَ لمّا هَلك استعمل ابنَه يزيد ، فتابعَهُ النَّاسُ ما خلا بنى قيس فإنَّهم قالوا : لا نبايع ابنَ الكلبيّة ، فوقعت الحربُ بين أميَّةَ وقيس . وجَيْرون : بابٌ من أبواب دِمَشْق ، وأولئك كان مستقرُّهم بالشَّأم . ويعنى بقوله «أهلَهُ» بنى هاشم ، وبالمُلْكِ الخلافة .

وقوله « إذْ لا تستطيعون مِنبرا » ، أى ارتقاءَ مِنبرٍ وصعودَه ، فحذَفَ المضافَ . والمراد : إنَّا نصرناكم فى طَلَبِ أمرٍ كان لغيركم لا لكم بجَيْرُون ،

---

(١) أصله من كلام عيسى عليه السلام . إنجيل متى ٧ : ٣ — ٤ ولوقا ٦ : ٤١ ، ٤٢ . وانظر ١٤٩٠ .

(٢) التبريزى : « وقال عمرو بن مخلاة الحمار الكلبى » . وقد سبقت ترجمة عمرو بن مخلاة الحمار فى الحماسية ٢١٤ ص ٦٤٧ . وأما جواس ، فهو جواس بن القعطل بن سويد بن الحارث بن حصن بن عدى بن جناب الكلبى . وهو شاعر إسلامى كان معاصرا لزفر بن الحارث الكلابى . المؤتلف ٧٤ .

(٣) التبريزى : « قد عرفتم » .

حين لا تقدرون على صُعود منبر ، ولا تستقيم لكم قناةُ مُلْكٍ ونصَرْنا أيضاً[1] يوم مَرْجِ راهطٍ ، وأياماً أُخَرَ قبلَه وبعده ، صادَقْناكم فيها ونَصرناكم نصراً قويًّا ، فلا تجحَدُوا نِعَمنا فيها ، فكُفران النِّعَم ذميم ، ولا تتكبَّرُوا علينا بعد ملاءَمتكم لنا ، فإنّ التكبُّر منكم عظيم . وقوله « حُسْنَى مضت » مصدر في معنى الإحسان ، وليست بتأنيث الأحسَن ، لأنّ تلك تلزمُه الألِف واللام .

٤— فكم مِن أميرٍ قَبْلَ مَرْوان وَابْنِهِ كشَفْنا غِطاءَ الغَمّ عنهُ فأَبْصَرَا

٥— ومُسْتَسْلِمٍ نَفَّسْنَ عنه وقد بَدَت نَوَاجِذُهُ حَتَّى أَهَلَّ وكَبَّرَا

٦— إذا افتخَر القَيْسِيُّ فاذْكُرْ بلاءَهُ بِزَرّاعَةِ الضَّحَّاكِ شَرْقِيَّ جَوْبَرَا

٧— فما كان في قيسٍ مِنِ ابْنِ حَفيظَةٍ يُعَدُّ ولكنْ كُلُّهُمْ نَهْبُ أَشْقَرَا

قوله « كم مِن أمير » أراد به معاويةَ وأشياعه . أي ذبَبْنا دونَه وأزلْنا ما كان تراكم عليه من رواكِد الظُّلَم حتى أبصرَ رُشدَهُ ، وعادت إليه بصيرتُه ، بعد أن كان تحيَّرَ في أمرِه ، والتبسَ عليه ما يتنقَّل فيه ، فلا يعرِف ما عليه ممّا له .

وقوله « ومستسلِمٍ » عطفه على « مِن أميرٍ » ، والضمير في « نَفَّسْنَ » للخيل ولم يَجْرِ لها ذِكر ، ولكن عُرِف منه المراد . يريد : وكم من مُنقادٍ لما دَهِمَهُ ، مُستسلِمٍ للشرِّ المفاجِئ له والمحيطِ به ، نفَّسَت خيلُنا عنه بعد أن يَبِسَ ريقُه ، وتقلَّصَت شفتاه فظهرَت نواجذُه ، لما مُنِيَ به من شدَّة البلاء ، وجَهْدِ البأساء ، حتى أهلَّ ، أي رفَعَ بالحمدُ لله صوتَه ، وأظهر شكرَه ، وعَظَّمَهُ وكبَّره لما أُعقِبَ من الأمن عقِيبَ الخوف ، والسلامة بعد الهُلْك . ويروى : « كشَفْنا غطاءَ الموت » . ويروى : « ومُستَلحَمٍ نَفَّسْتُ عنه وقد بَدَت مَقاتِلُه » والمعنى فيهما ظاهر .

(١) هذا ما في ل ، وهو الأوفق . وفي نسخة الأصل : « ونصرنا نصراً » .

وقوله « إذا افتخر القيسيُّ فاذكُرْ بلاءه » ، يعيِّرهم ما كان منهم من التقصير والقُصورِ فى ذلك الموضع . وأخرج الكلامَ مَخْرج الهُزْء ، لأنهم قصَّرُوا ولم يُبْلُوا ؛ لذلك قال : اذكُر بلاءه . والزَّرَّاعات : مواضع الزرع ، كالملاَّحات . والزِّرِّيع : المَثَرِئُ الذى يُسقَى من السماء ، فكلُّ ناعم زِرِّيعٌ تشبيهاً به . وجَوْبَرُ : نَهر . وانتَصَب « شرقىَّ » على الظَّرف ، يعنى ما وَلِىَ المشرِقَ منه . والضَّحاك[1] كان على شُرطة معاوية ، ثم صار مع ابن الزُّبير بعد موت يزيد[2] .

وفى جملة هذه الأبيات :

فلو كنتُ من قَيْسِ بن عَيْلَان لم أَجِد فَخاراً ولم أعدِلْ بأن أتقصَّرا

يقبِّح صورتهم كما ترى .

وقوله : « فما كان فى قَيْسٍ من ابنِ كَريهة يُعَدُّ » ويروى : « فما كان فى قيسِ بن عيلان سَيِّدٌ يُعَدُّ » ، ويَعنِى بنَهْب أشقرَ فرسَ طُفَيْل بن مالك ، وكان فرّارًا[3] . يقول : كأنَّما انتهبهم طفيلٌ فى ذلك اليوم . وكان اسمُ فرسِ طُفيلٍ قُرْزُلاً ، لذلك قال الآخر[4] يصف قوماً منهزمين :

يَعْدُو بهم قُرْزُلٌ ويستمعُ النَّا سُ إليهمْ وتخفِقُ اللِّمَمُ

جعل فرس كلٍّ منهم كقُرزُلٍ لمَّا هربوا .

---

(١) هو الضحاك بن قيس الفهرى ، ولد فى زمان الرسول بعد الهجرة ، وولاه معاوية الكوفة ثم عزله ، ثم ولاه دمشق ، ولما مات معاوية بن يزيد بن معاوية دعا إلى نفسه فقاتله مروان بن الحكم ، فقتل بمرج راهط سنة ٦٤ . الإصابة ١٦٤ ؛ والطبرى (٧ : ٣٧ – ٤١) .

(٢) الحق أنه كان يتظاهر بالدعوة لابن الزبير ، واستغل هذا فى استعداد أنصار ابن الزبير ليقوى بهم على محاربة مروان .

(٣) وقال ابن الكلبى : أشقر : رجل من كلب ، أصاب صندوقا فى إغارة لكلب على إياد ، فظن أن فيه خيراً كثيراً ، فإذا فيه عظام ، فضربته العرب مثلا لما لا خير فيه . وقيل : إنه أراد بالأشقر العبد . والعرب تسمى العجم «الحمراء» لأن الغالب على ألوان الفرس الصهبة . وعلى هذا معناه : كلهم نهب من لا قدرة له ولا هيبة . عن شرح التبريزى .

(٤) هو الجميح الأسدى . المفضليات ٤١ الطبعة الثانية بالمعارف .

٦٣٣

وقال جوّاسٌ الكلبيُّ أيضا :

١ – أَعَبْدَ المَلِيكِ ماشَكَرْتَ بلاءنا فكُلْ فِي رَخاءِ الأمْنِ ما أنْتَ آكِلُ

٢ – بجابِيَةِ الجوْلاَنِ لولا ابنُ بَحْدَلٍ هَلَكْتَ ولم يَنْطِقْ لِقَوْمِكَ قائلُ

يعاتبُ عبدَ الملكِ بنَ مروان ، وذلك أنّه لما قُتِل ابنُ الزُّبير وسكنت الحربُ وصفا له الأمر : أقبلَ يتألّف قيساً وهم أعداؤه ، ويُوحِشُ بنى كَلْبٍ وهم أنصارُه ، حتّى انتهى الحالُ به إلى أن عَزَل كثيراً ممّن استعمله من كَلْبٍ على أعماله ، وجعل أبدالَهم من قيس ، فقال جوّاسٌ : يا عبدَ الملك ، ما حَمِدتَ بلاءنا فى نُصرتِك ، ولا قابَلْتَ انقطاعَنا إليك وسعيَنا لك ببعضِ ما وجب لنا عليك ، فكُلْ من دُنْيَاكَ فى سَعَةِ الأَمْنِ وظلِّ الهُدُوِّ ما أنتَ آكلُه ، لا مُدافِعَ لك ولا معترِضَ عليك ، فلولا ابنُ بَحْدَل وقيامُه بأمرك بجابية الجوْلان لهلَكْتَ ولم يَنْطِقْ لقومك قائل ، أى لم يكن فيهم خليفةٌ يخطُب على مِنبرٍ فيدعو ويُدْعَى له . وتعلّق قوله « بجابية الجَوْلان » بقوله ما شَكَرْتَ بلاءنا . وهلَكْتَ جواب لولا ، وخبر المبتدأ محذوف ، وقد مرّ أمثالُه.

٣ – فلمّا علَوْتَ الشَّأمَ فى رأسِ باذِخٍ مِن العِزِّ لاَ يَسْطِيعُهُ المتناوِلُ

٤ – نَفَحْتَ لنا سَجْلَ العَداوَةِ مُعْرِضاً كأنك مما يُحْدِثُ الدَّهرُ جاهِلُ

يقول : فلما مَلَكْتَ المطلوبَ وأدركتَ المأمول ، واستويْتَ على الشّأم فى عزٍّ باذخٍ وجَدٍّ صاعدٍ ، لا يَقدِر على تناوُلِ مثلِه أحدٌ بأَمَلٍ أو همّة ، اطّرحْتَنا وأعرضتَ عنّا ، معطِياً سَجْلَ العداوة لنا ، كأنك جاهلٌ بالدّهر وفَعَلاته وحوادِثه ومُلِمّاته . ومن رَوَى : « كأنكَ مما يُحْدِثُ الدهرُ » ، يريد كأنكَ مما أحدثَهُ الدهرُ لك من الرِّياسة جاهل . أى اغتررتَ فكأَنك استحدثتَ جهالة .

ويُرْوَى : «كأنَّكَ عَمَّا يُحْدِثُ الدهرُ [غافل[1]] » فجاهلٌ يجرى مجرى غافلٍ . وهذا يجرى مَجْرَى الوَعيد . أى لا تأمَنْ غيرَ الأيَّام ومعاودتَك ما يَخْتِمُ عليك بالفقْر إلينا ثانياً .

وفى هذه الطريقة ما أنْشِدْتُه لمحمَّد بن غالب :

فتى مِسْمَعٍ أنتَ من مِسْمَعٍ ... بحيثُ السُّوَيداء والناظرانِ
مَلَكْتَ فأسْجِحْ وزُعْ بالزِّمامِ ... وخَفْ ما يَدُور به الدائرانِ

٥ – وكنتَ إذا أشرفْتَ فى رأسِ رَامَةٍ ... تضاءلْتَ إنَّ الخائفَ المتضائلُ[2]
٦ – فلو طاوَعُونى يوم بُطْنانَ أسْلمَتْ ... لِقَيْسٍ فُرُوجٌ منكم ومَقَاتِلُ[3]

رامةُ : هضبة . يذكِّره ضِيقَ أقطارِ الأرض عليه ، فيقول : إنك حينئذٍ متَى أشرفتَ فى رأسِ هذه الهضْبةِ تخاشَعْتَ وتذلّلت ، لاستشعارِك الخوفَ الشديد ، واستظهارك بالاتِّقاء من أعدائك البليغ . والخائف هذا دأبُه وعادتُه . على أنهم – يعنى أصحابه – لو طاوَعونى فى هذا اليوم وقَبلوا نُصْحى ، وعَمِلوا برأيى ، لأُسلِمَتْ لقيسٍ فُرُوجُكم ، وهى مواضع المَخَافةِ ، ومَقاتِلُكم . والمعنى : كنَّا نَخْذُلُكم ونُسلِمُكم حتى يتمكن القَتْلُ منكم ، وتعلوَ سِمةُ الذُّلِّ على أحوالكم . وإنما قال هذا لأن القيسيَّة كانت تدعو إلى ابن الزُّبير ، وكلبٌ تدعو إلى المَرْوَانيّة ، وكان الناسُ يومئذٍ إنَّما يُعرَفون بالبَحْدليَّة أصحاب مروان ، والزبيريّة ، وهم أنصار ابن الزُّبَير . لذلك قال عبدالرحمن بنُ الحكم أخو مروان :

وما الناسُ إلا بَحْدَلِىٌّ على الهُدَى ... وإلاّ زُبَيْرِىٌّ عَصَى فتزَبَّرا[4]

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وبدلها فى ل : « جاهل » ، والوجه ما أثبتنا ، لما يقتضيه سياق الكلام .

(٢) التبريزى : « من رأس هضبة » .

(٣) التبريزى : « ويروى : أسلمت فروج نساء منكم » .

(٤) سبق البيت محرفا بدون نسبة فى ص ٦٥٠ .

٦٣٤

وقال جَوَّاسٌ أيضاً :

١ ـ صَبَغَتْ أُمَيَّةُ بالدِّماءِ رِماحَنَا وطَوَتْ أُمَيَّةُ دُونَنَا دُنياها

٢ ـ أأُمَىَّ رُبَّ كَتِيبةٍ مَجهولةٍ صِيدِ الْكُماةِ عَلَيْكُمُ دَعْواها

٣ ـ كُنَّا وُلاةَ طِعَانِها وضِرَابِها حتَّى تَجلَّتْ عنكُمُ غُمَّاها

يقول : استنصرَنَا أُمَيَّةُ ودافعَ الأعداء بنا ، وعرَّضَنا للقَتْل والقِتال ، والضِّراب والطِّعان ، حتى رَوِيَت قناتُنا من دِماء مُجاذِبِيهم ، والمتكرِّهين لأيَّامِهم ودِوَلِهم(١) ، فلما وضَعت الحربُ أوزارَها ، وارتفع الهَيْجُ والفِتَنُ من أنحائها ومَقاصِدِها ، استبدُّوا بِطِيِّ الدنيا وزِيِّها(٢) ، والفَوز بها وبأعراضها مِن دُونِنا . ثم أخذ يخاطبها فقال : يا أُمَيَّة(٣) ، رُبَّ كتيبةٍ مجهولةِ الشان ، لم نَدْرِ كيف يُدفع في وجهها . ولا من أين يُصرَف شَرُّها ، متكبِّري الأبطال ، بُهَم الشُّجعان ، دعواها عليكم لا لكم ، ودفاعُها فيكم لا عنكم ، تولَّيْنا مطاعنتَها ومُكافحتَها ، وافترضْنا على أنفسنا دَفْعها. ويجوز أن يكون المرادُ بقوله «مجهولةٍ» أنَّا لا نَعرِفُها ، ولا مُجاذبةَ بيننا وبينهم ولا مُعامَلة ، فهي مجهولةٌ لنا ، اتخذنا كالأعداءِ لنا في هَواكُم ونُصرتِكم .

فأمَّا قوله «صِيدِ الكُماة» فإنما جمع فقال صِيداً ، حَملاً على معنى الكتيبة ، ولو حَمَل على اللفظ لقال : رُبَّ كتيبةٍ صَيْداءِ الكُماةِ .

والصَّيَد يُستعمَل على وجهين : يقال : مَلِكٌ أصْيَدُ ، أي متكبِّرٌ لا يلتفت

(١) كذا ضبطت في النسختين بكسر ففتح . ويقال أيضا « دول » بضم ففتح ، كلاهما جمع دولة »

(٢) الطي ، بالكسر : واحد الأطواء ، وهي من الثوب والشحم طرائقه ومكاسر طيه .

(٣) ل : « أأمى » .

إلى الناس يميناً ولا شِمالاً. وحَكَى الخليل أن الصَّيَد ذُبابٌ يدخُل فى أُذُن البعير فيَقلَقُ له، فيظلُّ رافعاً رأسَه. فشُبِّه الملِكُ ذُو الزَّهْو به. فهذا وجهٌ. والوجه الآخر: أن يُرادَ بالأصيَدِ الذى لا يستطيع الالتفاتَ من دائه.

وقوله: «حتى تَجلَّتْ عنكُم غُمَّاها»، يقال: هم مِن أمرِهم فى غُمَّاءُ، أى فى شِدَّةٍ والتباسٍ شديدٍ عليهم. ومعنى حتى: إلى أنْ. والوُلاة: جمع الوالِي، وهو المتولِّى للشَّىْءِ والفاعلُ له. ولا يَمتنِع أن يريدَ به المُلاَّك، كأنهم مَلَكوا تدبيرَ الحىِّ فصاروا كالوُلاة لها وفيها.

٤ — واللهُ يَجْزِى لا أُمَيَّةُ سَعْيَنا وعُلَى شَدَدْنَا بالرِّماح عُرَاها[1]

٥ — جئتمْ من الْحَجَر البَعيدِ نِياطُه والشَّأْمُ تُنكِر كَهْلَها وفَتاها

٦ — إذْ أقبلَتْ قَيسٌ كأنَّ عُيونَها حَدَقُ الكِلاَبِ وأظهَرَت سِيماها

يقول: الآنَ وقد جَحَدَت أميَّةُ نِعمتَنا عندَها، وبَعُدَت عن الصَّلاح بكُفرانها، فإنَّ الاعتماد على الله تعالى جَدُّه فى أن يتولَّى جزاءَ سَعْيِنا، ويَعرِفَ لنا ما أنكرَتْه أميَّةُ من بَلائنا، وعُلَى مَعَالٍ أحكمْنا وثائقَها، وشَدَدنا عَقْدَها وعلائقَها، فتُوجِبَ لنا من إثابة الله عزَّ وجلَّ ما يكون فيه عِوَضٌ من كلِّ فائت.

وقوله «جئتم من الْحَجَر» أراد بالحجَر الجنس. والمراد: جئتم من المكانِ الكثير الحجَر، ومن بلاد الحجَر، يعنى الحجاز. ومعنى «البعيدِ نياطُه» البعيد مُعلَّقُه. ويقال: نُطْتُ الشيءَ أنُوطه نِياطًا ونَوْطًا، إذا علَّقته. ورَوَى بعضُهم:

---

(١) التبريزى: «فالله».

« من الحجَز » ، بالزاء ، وقال : يريد الحِجاز . فهذا كما قيل فى تِهامة : التَّهَم . قال :

* نظرتُ والعَيْنُ مُبِينَةُ التَّهَمْ[1] *

والحاجز والحِجاز والحَجَز ، واحد . قال : وسُمِّى الحجازُ حجازاً ، لأنه يَفصِل بين الغَور والشام وبين البادية . وقوله « والشأمُ تنكِر كهلَها وفتاها » ، أى لم يكونوا من أهلِها فاستغربَتْهم . وهذا كما قال فى المقطوعة الأولى[2] : « رُبَّ كتيبةٍ مجهولةٍ » .

وقوله « إذ أقبلَتْ قيْسٌ » ، إذ ظرفٌ لقوله جئتم من الحجَر ، أى جئتم وقتَ إقبال قيس . ويجوز أن يكون ظرفاً لقوله « تُنكِر كهلَها » أى تنكر فى ذلك الوقت . ويُروَى : « وتزبَّرَت قَيْسٌ كأنَّ عُيونها » ، أى صار هواها زُبَيْرِيًّا .

وقوله « كأنّ عيونَها حَدَقُ الكلابِ وأظهرَت سِياها » قصْدُه إلى الذَّمّ وإلى أنّ نظرَهم نظَرُ الكلاب ، لكنَّه جرَّد التَّشبيهَ أوّلا ، ثم قال : « وأظهرَت سِياها » أى أظهرَت سِيا الكلاب فى إقبالها ، فترَكَ لفظَ التشبيه ، وصار كأنه يُخبِر عن حقيقةٍ .

٦٣٥

وقال عبدُ الرحمنِ بنُ الحكَم[1] :

١ – لَحَا اللهُ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلَانَ إنَّها أضَاعَتْ ثُغُورَ المُسلِمينَ وَوَلَّتِ

---

(١) بعده فى اللسان (تهم) :

إلى سنا نار وقودها الرتم شبت بأعلى عاندين من إضم

(٢) كذا . وإنما يعنى ما ورد فى البيت الثانى من نفس هذه المقطوعة .

(٣) هو عبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، شاعر إسلامى ، وهو القائل لمعاوية حين استلحق زيادا :

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة من الرجل الهجان

أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زان

٣ — فشَاوِلْ بِقَيْسٍ فى الرَّخَاء ولا تَكُنْ   أخاها إذا ما المَشْرَفِيَّةُ سُلَّتِ [١]

قوله « لَحا اللهُ » ، يجوز أن يكون بمعنى قشر الله ، ويجوز أن يكون بمعنى سَبَّ الله . وقوله « أَنَّها أضاعت ثُغورَ » ، يروَى بفتح الهمزة ، والمعنى لأنَّها ، ويروى بالكسر على الاستئناف . ومعنى وَلَّت انهزمَتْ وأعرَضَتْ .

وقوله «فشاوِلْ بقَيس» ، أى خاطِرْ غيرَك ورافِقهم بهم فى الرَّخاء والسَّعة ، والأمن والدَّعَة ، وإياكَ والاعتمادَ عليهم ومؤاخاتَهم فى الحرب وعندَ استلال السُّيوف ؛ فإنَّهم يُسلِمُونك وينهزمون ، ويَخذُلونك ولا يَنصُرون . ويقال : شَاوَل الفَحْلَ وخاطَرَه ، إذا هايجَه .

٦٣٦

وقال أبو الأسد [٢] فى الحسن بن رجاء [٣] :

١ — فلأنظُرنَّ إلى الجِبالِ وأهلِها   وإلى مَنابِرِها بِطَرْفٍ أخْزَرِ [٤]

٢ — ما زِلْتَ تَركَبُ كلَّ شىء قائمٍ   حتَّى اجترأتَ على رُكوبِ المِنبَرِ

= الأغانى (١٢ : ٦٩ ضـ ١٣/٧٣ : ١٤٤ — ١٤٨) . وفى تاريخ الطبرى (٧ : ٤٢) أن هذه الأبيات يجيب بها زفر بن الحارث فى قوله :

أبى الله أما بحدل وابن بحدل   فيحيا وأما ابن الزبير فيقتل

كذبتم وبيت الله لا تقتلونه   ولما يكن يوم أغر محجل

وهى الحماسية ٢١٥ . انظر ص ٦٤٩ .

(١) التبريزى : « بقيس فى الطعان » . الطبرى : « فباه بقيس فى الرخاء » .

(٢) هو أبو الأسد نباتة بن عبد الله الحمانى ، شاعر من شعراء الدولة العباسية من أهل الدينور ، وكان طيبا مليح النوادر مداحا خبيث الهجاء . الأغانى (١٢ : ١٦٧) .

(٣) التبريزى : « الحسن بن رجاء ابن أبى الضحاك » . وهو أحد ولاة الدولة العباسية كان واليا على الجبال ، وكان هذا علماً لما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والرى وما بين ذلك . وهو ممن مدحهم أبو تمام ومحمد بن وهيب . الأغانى (١٧ : ١٤٢) .

(٤) البيتان مع ثالث برواية أخرى فى البيان (١ : ٢٩٦) بدون نسبة .

قوله « بطرفٍ أخزر » تعلّق الباء منه بقوله فلأنظرن ، والمراد بنظرٍ يميلُ إلى ناحيةٍ ، أى نَظَارِ بُغْضٍ وشَنَآنٍ ، لكونه متوليّاً لها . والمعنى : هانت فى عينى وصَغُر قدرُها عِندى ، فصرتُ أتكرّهها ، وأبغِض أهلَها وكُورَها ، ومَواضعَ الدّعوة منها ، مَذْ صِرْتَ أميرَها ومُدَبِّرها .

وقوله « ما زلتَ تركب » معناه ظاهر .

٦٣٧

وقال آخر(١) :

١ — عَجِبْتُ مِنَ السَّارِينَ والرِّيحُ قَرَّةٌ ... إلى ضَوْءِ نَارٍ بَيْنَ فَرْدَةَ والرَّحَى(٢)

٢ — إلى ضَوءِ نَارٍ يَشْتَوِى القِدَّ أَهلُها ... وقَد يُكْرَمُ الأضيافُ والقِدُّ يُشتَوَى

٣ — فلَمَّا أَتَوْنَا فاشتَكَيْنَا إليهِمُ ... بَكَوْا وكِلاَ الحَيَّيْنِ مما بِهِ بَكَى

٤ — بَكَى مُعْوِزٌ مِنْ أنْ يُلامَ وطَارِقٌ ... يَشُدُّ من الجوعِ الإزارَ عَلَى الحَشَا

يقول : تعجَّبْتُ مِن العُصبة التى سرَتْ ليلاً إلى ضوءِ نارٍ أُوقِدَتْ فى مكانٍ يتوسَّط فَردة والرَّحَى؛ وهما موضعان . والرِّواية المستقيمة على كلّ وجهٍ : « بين فِردَة فالرَّحَى » وهذا هو ما كان الأصمعىُّ يُنكره فى بيت امرئ القيس ، وهو

* بِسقْطِ اللِّوى بين الدَّخُول فحوملِ(٣) *

وقد مرّ القولُ فيه وفى أشباهه(٤) ، وفى حكم بَينَ ومقتضاه أنّ الاسمَ الذى

---

(١) هو الراعى ، كما ذكر التبريزى . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٨٠ ص ٢٧٥ . قال التبريزى : « ونزل بالراعى النميرى رجل من بنى كلاب فى ركب معه ليلا فى سنة مجدبة وقد عزبت عن الراعى إبله ، فنحر لهم ناقة من رواحلهم ، وصبحت الراعى إبله فأعطى رب الناب نابا مثلها وزادها ناقة ثنية ، فقال ... » .

(٢) التبريزى : « فالرحى » .

(٣) صدره مشهور ، حتى قيل : « أشهر من قفا نبك » .

(٤) انظر ما سبق فى ص ٧٩٨ ، ١٢٤١ .

يليه يجب أن يكون كاسم الجمع فى تناوُلِه أكثرَ من واحد، حتَّى يصحَّ ترتيبُ الفاء عليه فى العطف .

وقوله «والريح قرَّة» أى تهبُّ شَمَالاً ببردٍ شديد. والواو منه واو الحال .

وقوله «إلى ضوءِ نار يَشتوِى القِدَّ أهلها» ، أبدلَ إلى ضوء نار ممَّا فى البيت الأوّلِ بإعادة حرف الجرّ معه . ويعنى ناراً لقومٍ مضرورين مجهودين لا خيرَ عندهم، ولا طعامَ بِفنائهم، مضطرِّين إلى شىء القِدّ، لأنَّهم أعوزَهم ماهو خيرٌ منه . فتعجَّبَ وقد استضافَهم هؤلاء السَّارُون ، ثمَّ قال : وقد يُكرَم الأضيافُ مع مجاهَدة الفقر ، ومزاوَلة الضُّرّ ، إذا كان الُمضيفُ لطيفَ الحِيلة ، رفيعَ الهمة .

ويقال : شويتُ اللَّحمَ واشتويتُه ، فانشوَى هو . وحكى سِيبويهِ فى بناء المطاوعة اشتوَى أيضاً . ومثله نَظَمْتُ الشىء وانتظمتُه فانتظمَ هو .

وقوله «فلما أتونا» يقول : فلمَّا حصَلُوا عِندنا تباثَثْنا وتباكَينا ، وكلٌّ واحدٍ من الحَيَّيْنِ شكا إلى الآخَر دهرَه وأنْهى إليه فى إضاقتِه أمرَه .

وقوله «بكى مُعْوِزٌ» ، هذا بيانُ وجهِ العِلَّة فى البُكاء . يقول : بكَى فقيرٌ مخافةَ أن يُتَّهَم ولا يُصَدَّقَ ظاهرُ حالِه فيما يَنطِق به من ضُرِّه ، وأن تَلحقَ به اللَّائمةُ إذا ذُكِر واجباتُ ضَيفِه ؛ والضَّيفُ الطَّارقُ بكَى لِما مَسَّه من نائباتِ دهرِه ، ولِمَا يَظهر من مِسَاس حاجته ، ويُقيم به العُذرَ فى إلمامه ، حتَّى شَدَّ حَشَاهُ لخلاءِ جوفِه

٥ — فأَلْطَفْتُ عَيْنِى هَلْ أَرَى مِنْ سَمِينةٍ   ووطَّنْتُ نَفسِى للغَرَامةِ والقِرَى

٦ — فأبصَرْتُها كَوْمَاءَ ذاتَ عَرِيكةٍ   هِجَانًا مِنَ اللَّائِى تمتَّعْنَ بالصُّوَى

٧ — فأَوْمَأْتُ إيماءً خَفِيًّا لحَبْتَرٍ   ولِلهِ عَيْنَا حَبْتَرٍ أَيَّما فَتَى

٨ — وقلتُ لَهُ أَلْصِق بأَيْبَسِ سَاقِها   فإنْ يُجْبَرِ العُرقوبُ لا يَرْقَأِ النَّسا

قوله « ألطفْتُ عَينِي » أى نظرتُ بعينى نظراً لطيفا ، هلْ أرى فى إبلِ المُستضيفِين ورواحلِهم ناقةً سمينةً أنحرُها لهم ، وإذا رُدَّت إبلى إلى مَباءتِها أعوِّض صاحبَها خيراً منها ، وأُغْرَمُ من بعد ذلك له ما ارضيه به . ويقال : ألطَفْتُ أخِي بكذا ، إذا أتحفتَه بما يُعرف به بِرُّك ولُطْفُك . وألطفت الأمُّ بالولَد ، وأمٌّ لطيفةٌ ، أى أكرمَتْهُ وبَرَّتْه .

وقوله « أبصَرتُها كوماء » ، الكوماء : الطَّويلة السَّنام الغَايظة ، وقيل : الكَوَم : العِظَم من كلِّ شيء : والعَريكة : السَّنامُ إذا عركه الحِمْل . وناقةٌ عَرُوكٌ : لم يكن فى سَنامها إلاَّ اليَسيرُ من الشَّحم . والهجان : الكريمة . ويقال : ناقةٌ هِجَانٌ ونُوقٌ هِجان . وقد مرَّ القولُ فى وقوعِه للواحِد والجمع على صُورةٍ[1] .
وقوله « تَمَتَّعْنَ بالصُّوَى » فالصُّوَى : الأعلام والحجارة . أى رعت الحَزْن والسَّهْل . ومعنى تمتَّعْن ، أى أقمنَ بها وبَقِين حتَّى استمتعْنَ . ويقال : مَتَّعَ الماءُ الشَّجرةَ ، إذا أنشأها . ونخلةٌ ماتعة ، أى طويلة .

ويروى :

. . . مِن سمينــةٍ تدارَكَ فِيها نَىُّ عامَيْنِ والصَّرَى

والنَّىْءُ[2] : الشَّحم . والصَّرَى : حَبسُ الإبلِ فى الرِّعْى[3] ، ومنه سمِّى الماء الذى قد طال إنقاعُه فى موضعٍ : الصَّرَى . ويُروى : « والصَّوَى » ، وهو الإحسان إليها والإبقاء عليها .

وقوله « فأومأتُ إيماءً خَفِيًّا لحبترٍ » لحبترٌ : اسم ابنِه ، وإنَّما رسم له

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٩٤ .
(٢) النى ، بفتح النون وكسرها ، وضبط فى النسختين بالفتح ، وهما لغتان فيه .
(٣) الرعى ، بالكسر : الكلأ والمرعى . وفى ل : « المرعى » .

عرْقبتَها فى السِّرّ بعد أن اختارَها مخافةَ أن يمتنع صاحبُها مما همَّ به فيها . وقوله « عينا حَبْتَر » اعتراض . وانتصَب « أيّما فَتًى » على الحال ، كأنّه أحْمَدَه حين حَسُنَتْ فطنتُه وتسرَّع إلى مُراده . ويقال : مررتُ برجلٍ أىِّ رجلٍ ، فتجعله صفةً للنَّكرة ؛ وبزيدٍ أىَّ رجل ، فيصير حالًا المعرفة . وعَلَّقَ المَدحَ بعينيه ، لأنّه بهما أدركَ إيماءه . وإذا عظَّموا الشَّىء نسبوا مِلْكَه إلى الله عزّ وجلّ .

وقوله « ألصِقْ بأيْبَسِ سَاقِها » الأيبَسُ : ما قلَّ عليه اللّحْمُ من الساقِ وغيرِها . والسَّيفُ أعمَلُ فيه . وقوله « فإنْ يُجبَرِ العُرْقُوب » العرقوب : عَقَبٌ مُوَتَّرٌ خلفَ الكعبين فُويقَ العَقِب من الإنسان ، وهو مَوصِلُ الوظيف والسَّاقِ من ذوات الأربع . والمعنى : أصِبْ ساقَها فإنَّ العرْقوبَ إن أمكن التَّلافى منه بالجبْر والعِلاج والشَّدّ ، فإنْ نَساه لا ينقطعُ الدَّم منه ، فصاحبُها يَيْئَسُ منها عند ذلك . والمعنى : اضربْها ضربةً ليس فى البُرء منها مَطمع ، ليَرْضَى صاحبُها بالتَّعويض منها ، ويستقيمَ أمرُ الضَّيف والضيافة ، وإنْ لِحَقَنا غُرمٌ فيها .

٩ — فَأَعْجَبَنِى مِنْ حَبْتَرٍ إنَّ حَبْتَرًا ... مَضَى غَيْرَ مَنْكُوبٍ ومُنْصُلَه انتَضَى
١٠ — كأنِّى وقد أشبَعْتُهُمْ مِنْ سَنَامِها ... جَلَوْتُ غِطاءً عنْ فُؤَادِىَ فانجَلَى
١١ — فبِتْنَا وباتَتْ قِدْرُنا ذاتَ هِزَّةٍ ... لَنا قَبْلَ ما فيها شِوَاءٌ ومُصْطَلَى

قوله « غير منكوب » أى غير مدفوعٍ فى صدره . ويقال : حافرٌ منكوب ونَكيب ، إذا أثَّر فيه ما يطؤه من حَصًى أو حجر . وقوله « وَمُنْصُلَهُ انتَضى » أى جَرَّدَ سيفه . وانتصب مُنصُلَه لأنه مفعول مقدَّم . وقوله « جلوتُ غِطاءً » ، يقول : كنتُ مهتمًّا قلقًا ، فلما شبعُوا ممّا أعددتُ لهم وتحمَّلت من أجلهم سكنْت فكأنه كان على قلبى غطاءٌ من الغم رانَ عليه ، فانجلى وذهب .

وقوله « فبِتْنَا وباتت قِدْرنا » خبر بِتْنا قوله « لنا قبلَ ما فيها شِوَاءٌ » ،

وشِوَاءٍ ارتفع بالابتداء . يريد : بِتْنَا لنا قَبْلَ ما أُودع القِدرَ شِوَاءٍ واصطلاء بالنّار ، كأنّه طال عليهم انتظار القِدْرِ ، فعُمِدَ إلى أطايب الجَزور وشُوِيَ . وقوله « ذاتَ هِزَّةٍ » خبر بانت قدرنا ، أى لها هزيزٌ بالغَلَيان . ويجوز أن يريد : لقِدر اللَّحم فيها اهتزازٌ واضطراب ، كما قال :

* قُرَشِيَّةٌ يهتزُّ موكبها *

وهذا الذى اقتصَّه من حاله وحالهم ، بيانُ اهتمامه بأمر الضيف وحسن التأتِّى فى تفقده .

١٢ — وأَصْبَحَ رَاعِينا بُرَيْمَةُ عِنْدنَا بِستِّينَ أَنْقَتْها الأَخِلَّةُ والخَلَا

١٣ — فَقُلْتُ لربِّ النَّابِ خُذْهَا ثَنِيَّةً ونابٌ عَلَيْنَا مثلُ نابِكَ فى الحَيا

يقول : أصبَحْنا وراعينا بُرَيمةُ رَدَّ إبلَنا مِن مَرعاها ، وهى ستُّونَ قد أنقَتْها — أى جعل لها نِقْياً — الأخِلَّةُ ، وهى جمع خِلال ، وهو ما اختُلَّ واجتُزَّ من العُشْب وهو أخضر . والخَلَا : الرُّطْب . وقال بعضُ أصحابِ المعانى : لا يقال أنْقَتِ النّاقةُ ، إذ سمِنَت ؛ ولكنْ لمّا سَمِنَّ من الحشيش ، وكان الحشيشُ والخلا سببَ سِمَنِها جَعَلَ الفعلَ لها على سعة الكلام ، والأصل أنقَتْ هى . قال :

لا يَشتكِينَ ألمًا ما أنْقَيْنْ ما دام مُخٌّ فى سُلَامَى أو عَيْنْ[1]

وقال غيرُه : يجوز أن يكون أنقى ها هنا مُعدًّى ، ويكون على غير ما فسَّرتموه ، وهو أنه يقال : أنقيته فأنقَى ، كما يقال : أمْأَيْتُ الدَّراهم فأمْأَت هى[2] . والمعنى سَمَّنْتُه وجعلتُ له نِقْيًا فَسَمِنَ واحتمل .

قال البَرْقِيُّ : الرِّواية الصحيحة عندى : « أبقَتْها الأخِلَّةُ » ، أى أبقتها على البَرْد والجَدْب ، لأنَّا كَنَنَّاها وخلَينا لها. ورواه بعضُهم : « الأَجِلَّة » بالجيم .

(١) الرجز لأبى ميمون النضر بن سلمة ، كما فى اللسان (نقى) . وانظر مقاييس اللغة (١ : ٢٠٦) .

(٢) أى صارت مائة .

قال : ويقال : جُلٌّ وجِلَال وأجِلَّة ، أى لم نَدَعْها ولم نُهمِلْها ، بل ألْبَسْناها وتفقَّدناها .

وقوله « وقلتُ لربِّ النابِ خُذْها ثَنِيَّةً » ، أى حَكَّمْتُ صاحبَ الذيب التى عَقَرْتُها فى أن يختار من إبلى ثَنِيَّةً على ما يشتهيه ، وتصطفيه عينُه وتنتقيه ، وقلتُ مُضيفاً إلى العِوَض الواجبِ له : لك علينا نابٌ مثل نابِكَ فى السِّمَن . والحيا من باب ما سُمِّىَ باسمِ غيرِه إذ كان منه بسبب . فالحيا : المطر ، لأنه يُحْيِى العِباد والبلاد ، ثم يسمَّى النَبْتُ حَيًا لأنه بالمطر يكون ، ويُسمَّى الشَّحمُ حيًّا لأنه عن النَّبت يكون . وهذا البابُ كثيرٌ واسع[1] .

٦٣٨

فقال فى [ذلك[2]] خَنْزَرُ بن أَقرَمَ[3] :

١ — بَنِى قَطَنٍ ما بالُ ناقةِ ضَيفِكُم ... تَمَشَّوْنَ منها وهْىَ مُلْقًى قُتُودُها

٢ — غَدَا ضيفُكُم يَمشِى وناقةُ رَحْلِهِ ... على طُنُبِ الفَقْمَاءِ مُلْقًى قَدِيدُها

٣ — وباتَ الكِلابىُّ الذى يَبْتَغِى القِرَى ... بلَيْلةِ نَحْسٍ غابَ عنها سُعُودُها

أخذ يُسائلُهم عمَّا غيَّرَهم به تهكُّمًا [وسُخْرِيَة[4]] . ومعنى الكلام الإنكارُ . يقول : لِمَ تتمشَّوْنَ من ناقةِ ضيفِكم ؟ وكيف استجزتم ذلك حتى صارت قد

(١) التكملة من ل والتبريزى ، وهذا نص على علاقة هذه الأبيات بسابقتها .

(٢) قال التبريزى فى آخر شرحه لهذه القصيدة : « وليس هذا من الهجو فى شىء ، وإنما أورده أبو تمام لما يتبعه من قصيدة خنزر بن أرقم » .

(٣) كذا فى نسخة الأصل . وفى ل والتبريزى « أرقم » وأشير فى ل إلى أنه فى نسخة « أقرم » . وخنزر ، قال التبريزى : « واسمه الحلال ، وهو أحد بنى بدر بن ربيعة بن عبد الله بن الحارث بن نمير . والراعى من بنى قطن بن ربيعة » ، فهما بنو عمومة . وقد سبقت ترجمة الراعى فى الحماسية ٨٠ ص ٢٧٥ .

(٤) التكملة من ل .

أُلْقِيَ قُتُودُها وهى مطبوخةٌ مأكولة ؟ والقَتُود لا واحدَ لها عند أصحابنا البَصريِّين . ثم قال مقبِّحاً الصورة : ابتَكَر ضيفُكم يمشى وراحلته قد نُحِرَت وقُدِّدت لحومُها ، وشُمِّسَت على طُنُبِ الفَقْماء . وهذا تفظيعٌ للشأن . والطُّنُب : حبلٌ من حبال الخيمة . والفَقْماء يَعنى بها امرأةَ الراعى ، لقَّبها بذلك .

وقوله « وناقةُ رَحْلِهِ » ، رواها المفضَّل : « وناقةُ رِجْلِهِ » كأنه لمَّا قال غدًا ضيفُكم يمشى ، قال : وناقة رجلِهِ ، يريد الناقة التى كانت تَحمل رِجله . ومن روى : « وناقةُ رَحلِهِ » له أن يقول : كما قال(1) : وهى مُلْقًى قتُودُها ، قال : وناقة رَحْلِهِ ، أى الرَّحل المُلْقَى .

وقوله : « وباتَ الكِلاَبِىُّ » يعنى به باتَ المستضيفُ الطالبُ للقِرَى عندكم بلَيلةِ شؤمٍ قد فارَقَها السُّعود ، لأنكم غصبتم ناقتَه ، ولم يَنَل القِرَى عندكم .

٤ — أمَن ينقُصُ الأضيافَ أكرَمُ عادةً إذا نَزَلَ الأضيافُ أم مَن يَزيدُها
٥ — كأنَّكُمُ إذْ قُمْتُمُ تَنْحَرُونَها بَرَاذِينُ مشدودٌ عليها لُبُودُها
٦ — فما فَتَحَ الأقوامُ مِن بابِ سَوْءَةٍ بَنِي قَطَن إلاَّ وأنتم شُهودُها

يقرِّرهم على تقبيح ما كان منهم ، فيقول : خبِّرونى أىُّ العادتين أقربُ إلى الكرم ، وأحْرَى(2) فى وَفاء الشِّيَم : أعادةُ مَن يَستنزل الأضيافَ عن أموالهم وينقُصُ ما توفَّرَ لهم ، أم عادةُ مَن يزيدُهم ويُثمِّر حظوظَهم .

وقوله « عادةً » انتصبَ على التمييز . وإذا نزلَ ظرفٌ لقوله « أمَن ينقُصُ الأضياف » . وكرَّر لفظَ الأضياف ولم يأتِ بالضمير على عادتِهم فى تكرير الأعلام والأجناس ، وقد مَضَى مثلُه .

وقوله « كأنكم إذْ قمتمُ تَنحرونها بَرَاذِينُ » شبَّهم فى العَجْز والثِّقل وقِلّة

(١) ل : « لما قال » .
(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « أجرى » بالجيم .

الغَناء ، والتباطؤ والبلادة ، بالبراذين ، وهم يضْربونها مثلاً للمذموم . وجعَلها شُدَّت اللُّبودُ عليها تقبيحاً لصُوَرها .

وقوله : « فما فتَح الأقوام من باب سَوءة » ، يريد : لا يسبقُ طوائفُ الناس وفِرَقُهم إلى خَصْلةٍ مذمومة أو سَوْءة مشوَّهة منكَرة إلاّ وبنو قَطَنٍ حضُورُها ؛ أى لا يمكن الإغراب فى المخازى عليهم ، لأنّهم السابقون فى البِدَار إلى كلّ عار ، والأوّلون عند الولوج فى كل باب ، والحاضرون لكلّ نُكْرٍ وعاب .

٦٣٩

فأجابه الرّاعى(١) :

١ — ماذا ذكَرْتم مِن قلوصٍ عقَرتُها بسَيْفِى وضِيفانُ الشِّتاء شُهودُها(٢)

٢ — فقد علِمُوا أنِّى وفَيْتُ لِرَبِّها فَرَاحَ على عَنْسٍ بأُخْرَى يقودُها

٣ — قَرَبْتُ الكِلابىّ الذى يبتغِى القِرَى وأمَّكَ إذ تَخْدِى إلينا قَعُودُها(٣)

الرواية الجيدة : « ماذا نكِرتم » . ويقال : نَكِرْتُ الشىءَ وأنكرتُه واستنكرته بمعنًى . فأمّا « ذكرتم » فمراده ماذا عيَّرتم فذَكَرتم من ناقةٍ لغيرِى عقرتُها حين عَزَبَتْ إبِلِى لضيفانِ الشِّتاء بحَضْرتهم ، وبمرأًى منهم . وقد جرى رسمُ الكِرام بمثلِ ذلك إذا دَعَت الحالُ إليه ، موطِّنين أنفسَهم للغرامة ، وردِّ الاثنين بدلَ الواحد على الخصم فيه .

وقوله « فقد علموا » يستشهد بالضِّيفان فيقول : حضَروا وتيقَّنوا أنى وفَيْتُ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٨٠ ص ٢٧٥ .

(٢) التبريزى : « ويروى : من كزوم عقرتها » . والكزوم : الناقة المسنة التى مشفرها الأعلى أطول من الأسفل » .

(٣) التبريزى : « يحدى إلينا » .

لربِّها بمثلها وزدتُه أخرى ، فراح راكباً إحداها وقائداً الأخرى معها . ثم اقتصَّ ما دعاه إليه فقال : قَرَيْتُ الكِلاَبِيَّ المبتَغِىَ للقِرَى وقَرَيْتُ أُمَّكَ ، يعنى أُمَّ خَنزَر بن أفرَم[1] المعيِّرِ المنكِر . والخَدْى : ضَرْبٌ من السَّير . والقَعُود : البَكْر إذا بلغ الإثناء ؛ والذى يَقتعِده الرّاعى فيركبُه ويَحمِل زادَه عليه قَعودٌ أيضاً . وفى ذكر الأمّ وأنه أضافَها مع الكلابىِّ بعضُ الغَضِّ والإيهام .

٤ — رَفَعْنَا لَهَا نارًا تُثَقَّبُ للقِرَى ولِقحةَ أضيَافٍ طَوِيلاً رُكُودُها

٥ — إذَا أُخْلِيَتْ عُودَ الهَشِيمةِ أرزَمَتْ جَوَانِبُهَا حَتَّى نَبِيتَ نَذُودُها

٦ — إذَا نُصِبَتْ للطَّارِقِينَ حَسِبْتَهَا نَعامَةَ حِزْبَاءَ تقَاصَرَ جِيدُها

ويروى : «رفعنا لها مشبوبةً يُهتدَى بها» . ومعنى «تثقَّبُ» تُذْكَى وتضاء . وقيل : الكوكب الثّاقبُ والحسَب الثاقب ، للضَّوء والتلألؤ . ومعنى «للقِرَى» لإقامة القِرى ، و « اللقحة » يراد به القِدر ها هنا ، وأصله فى النَّاقة الحَلُوب . وجعلَ رُكودَها طويلاً لِثقَلها وكِبَرِها ، ولأنَّها لا تُنزَلُ[2] إلا للغَسْل ثم تُعاد ، والجَفْنةُ الرّكود : الثَّقيلة الممتلئة .

وقوله «إذا أُخْلِيَتْ» أى جُعِل الحطَبُ لها بمنزلة الولَد ، فهو لها كالولد ، وهى له كالنَّاقة الخليَّة[3] ، وهى التى تَعطِف على ولدِها وترْأَمُه . والهَشِيمَةُ : اليابس من الشَّجرِ وغيره . وأَرْزَمَتْ : صاحت بغَلَيانها ، لكِبَرها ، حتَّى نَبِيتَ نُسَكِّن منها . وإذا نُصِبَتَ على الأثافِى لزُوَّار اللَّيل — يعنى الأضياف — حسِبْتَها لإشرافها نعامةَ حِزْباءَ . والحِزْباء[4] : الأرض الصُّلبة المرتفعة . شَبَّهَ القِدر

(١) ل : « أرقم » ، وقد سبق التنبيه .

(٢) فى الأصل : « تترك » ، صوابه فى ل .

(٣) التبريزى : « إذا أخليت ، أى جعل الحطب لها بمنزلة الخلا للناقة فأوقد تحتها . ويروى : إذا خليت ، أى جعل الحطب لها بمنزلة الولد ، فهو لها كالولد وهى له كالناقة الخلية » .

(٤) هى جمع حزباءة .

بالنّعامة ، لأنّها تُكثِر رفعَ رأسِها ووضْعَه ، لجُبْنها ونُفورِها ، فكذلك القِدر ترفَعُ المَحَال وتخفضها ، لشِدَّة غلَيانها . وقال « تقاصَرَ جيدُها » ليتبيَّنَ وجهُ التَّشبيه منه ويصحّ . ومثله قولُ الآخر[١] :

* غُضوبٌ كحيزوم النَّعامَةِ أحمِشَتْ[٢] *

٧ ـ تَبيتُ المَحَالُ الغُرُّ فى حَجَرَاتِها شَكَارَى مَرَاهَا ماؤُها وحَدِيدُها

٨ ـ بَعَثْنَا إليها المُنْزِلَيْنِ فَحَاوَلاَ لِكَىْ يُنزِلاهَا وَهْىَ حامٍ حُيُودُها

٩ ـ فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فى مُسْتَحِيرَةٍ سَريعٍ بأيدى الآكِلينَ جُمُودُها[٣]

المَحَال : فِقَرُ الظَّهر ، والواحدة مَحَالَة . وجعلها غُرًّا لِسِمَنها . والحَجَرَات : النَّواحى ، وجعلها شَكَارَى لامتلائها وَدَكاً . ويقال : شاةٌ شَكِرَةٌ ، إذا كانت غزيرةَ اللَّحم ، وضَرَّةٌ شَكْرَى ، أى ممتلئة . وشُكْرُ النِّعَم من ذلك ، لأنّه به تُستدام وتُمْتَرَى الزِّيادة[٤] . ويُروى : «سَكَارَى» بالسّين غير معجمة ، والمراد مثلُ ذلك لأنَّ السُّكر من الامتلاء يكون . ومعنى مَرَاها استخرَجَ دَسَمَها . ماؤُها ، أى مرقَتُها . وحديدُها أى مِغْرَفَتُها .

وقوله « بعثنا إليها المُنْزِلَيْن » إنّما ثَنَّى ليُرِىَ أنَّ الواحدَ لا يُطيقُها ولا يَنهضُ بتحريكها لِثقَلها . واللام من قوله « لِكى يَنزلاها » يجوز أن يتعلّق بقوله بَعَثْنَا ،

(١) هو الفرزدق ، كما فى الحيوان (٤ : ٣٣٢) وما سيأتى فى الحماسية ٧٥٣ .

(٢) عجزه : * بأجذال خشب زال عنها هشيمها *

(٣) بعده عند التبريزى :

فلمّا سقَينا العَكِيسَ تَملَّأَتْ مَذاخِرُها وارفضَّ رشحًا وريدُها

ولمّا قَضَتْ من ذى الإناءِ لُبانةً أرادت إلينا حاجةً لا نريدُها

والبيت الأول منهما منسوب فى اللسان (عكس) إلى أبى منظور الأسدى . والعكيس : الحليب تصب عليه الإهالة والمرق ثم يشرب .

(٤) ابن جنى فى التنبيه : « والشكر موضع زيادة اللفظ الإطناب فى حسن القول .... ومنه الشكير لصغار الورق والريش ، وذلك أنه زيادة على الجسم » .

كأنَّه قال : بَعَثْنَا المُنزِلِين إليها لـكى يُنزِلاها فحاولاه ، وحذَف مفعول حاول . وكَىْ هذه هى النَّاصبة للفعل ، لذلك دخلها اللامُ الجارّة . والمحاولة : مطالبَة الأمر بالحِيَل ، ويجوز أن يتعلّق بحاولا . والحُيُود : الجوانب ، أى إذا أراد إنزالَهَ وفى جوانبها بَعْدُ حَمْىٌ ، استعجالاً .

وقوله : «فباتت تَعُدّ النَّجْمَ» إخبار عن أم خنزر بن أقرَم[1] . والمستحيرة : المتحيِّرة لامتلائها . أى فى مرَقَة أو قِدرٍ قد تحيَّرت ، فهى مِنْ صَفائها وكثرة دَسَمِها ترَى فيها نُجومَ السَّماء . وقيل : شبَّه الرَّاعى النُّفّاخات التى كانت على رأسها مِن كثرة الدَّسَم بالنُّجوم ، ويجوز أن يكون أراد أنَّ هذه القِدرَ مرتفعةُ الشَّأن ، عاليةُ الأمْر ، فأمُّه كانت تَعُدُّ النُّجومَ فيها لما أُطعِمَتْ منها كأنّها بلغت النُّجومَ فى علوِّها ، لأنّها لم ترَ مثلها قطّ[2] . وهذا هو الوجهُ عِندى ، ليكونَ قد غَضَّ مِن أمِّه جزاءً على ما قاله وأنكره . وقوله « حُيُودُها » ارتفع بحامٍ ، وكذلك « جُمُودُها » ارتفع بسريع . ويجوز أن يروى : « سريعٌ » بالرفع على أن يكون خبراً للمبتدإ وقد قدّم عليه ، والمبتدأ جُمودُها .

٦٤٠

وقال رجلٌ من بنى أسَد :

١ — دَببْتَ لِلْمَجْدِ والسَّاعُونَ قد بَلَغُوا ... جَهْدَ النفُوسِ وأَلْقَوْا دونَهُ الأُزُرَا

٢ — فكَابَرُوا المَجْدَ حَتَّى مَلَّ أكثَرُهُمْ ... وعَانَقَ المجدَ مَنْ أوفَى ومَنْ صَبَرَا

---

(١) فى هذه اتفقت النسختان . وانظر الحاشية الأولى لهذه الحماسية .

(٢) قال أبو محمد الأعرابى : « لا يجوز أن يكون النجم هنا إلا الثريا ، وذلك أن فى البيت خبيئة لم يخرجها أبو عبد الله — يعنى النمرى — وذلك أن الثريا لا تكاد ترى فى قعر الجفنة وغيرها من الأوانى إلا أن يكون قم الرأس ، ولا يكون قم الرأس إلا فى صميم الشتاء ، ويقال حينئذ : أقمر النجم ... وقوله تعد النجم . أى لصفاء الودك فى الجفنة تعرف عدد الثريا فيها . وهذا معنى مليح ؛ وذلك أن نجوم الثريا لا تكاد يعدها إلا ذو بصر حديد ، ولذلك يقول القائل :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ... يراها حديد العين سبعة أنجم » .

٣ — لاَ تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْراً أنتَ آكِلُهُ   لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حَتّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

يقول : تباطأَ سَعْيُك لِلمَجْدِ ، ولمّا سعيتَ كان سعيُك دبيباً وطُلاَّب المجد قد جَهَدوا أنفسَهم، وألقوا الأُزُرَ دونَه ، تخفيفاً عن أنفسهم ، وتشهيراً فى طلبهم وهذا مثل . والمراد أنَّ ما يفعلُه الساعى فى سَعيِه إذا طلبَ شيئاً من التجرُّد والتخفُّف ليُدْرِكَ مطلوبَهُ [قد فعلوه[١]] . ثم أخذ يفصِّل مجهودَهم من بَعْدُ ، فقال : كابَرُوا المجد ، أى جاهدوه ليَبلُغوه قَسْرًا لا خَتْلاً ، فمَنْ صَبَرَ وأوفَى نالَه واحتواه ظافراً به ، معانِقاً له ، ومن مَلَّ وقَصَّرَ — وهم الأكثر — خاب وأخفق ورجع نادماً لاهياً عنه .

وقوله « لا تَحسَب المجدَ » تقريع ، والمراد : لا تظنَّنَّ المجدَ يُدرَك بالسَّعى القصير ، واستعمالِ التَّعذير ، وعلى ملازَمة الرّاحة دونَ توطينِ النّفْس على الـكدّ الشديد والمجاهدة ؛ فإنّه لن يُنالَ إلاّ بتجرُّع المراراتِ دونه ، واقتحام المعاطب بسببه . ويقال : لعِقْتُ الصَّبِرَ لَعْقاً . واسمُ ما يُلعَق هو اللَّعُوق .

٦٤١

وقال آخر :

١ — ومُستَعْجِلٍ بالحربِ والسِّلْمُ حَظُّهُ   فلمّا استُثيرَتْ كَلَّ عنها مَحافِرُهْ

٢ — وحاربَ فيها بامرئٍ حِينَ شَمَّرتْ   مِنَ القوم مِعْجَازٍ لئيمٍ مَكاسِرُه

٣ — فأَعطَى الّذى يُعطِى الذَّليلُ ولم يَكن   له سَعْىُ صِـدْقٍ قَدَّمَتْهُ أكابِرُه

يقال : استعجل بالشّىء ، إذا طَلَبَ عجلتَه ولم يَصبِر إلى وقته وإناه . فيقول : ربَّ امرئٍ يُعْجِلُكَ فى هَيْجِ الحَرْبِ له ، ونَصْبِ الشرِّ بينَك وبينه ، فتراه يرتقِى فى الإيذاء والمكاشَفة إلى أعلى درجات القصْد ، وحَظُّه فى أن يُسالِمَ ،

---

(١) التكملة من ل .

لكنَّه بسُوء تأتّيه ونقصِ اختياره ، أبَى لنفسِه إلاَّ تعريضَها لما يَستوخِم عاقبتَه ، ويَتعجَّل شرَّه ، فلما هُيِّجت الحربُ له وأُجيب فى إثارتها ، وإيقاد نائرتها ، إلى مراده منها ، عَجَز فيها عن الإيفاء والاستيفاء ، وكلَّ عن مُباشَرة الوِرْد والصَّدر ، واستعان فيها برجلٍ رَكَّابٍ لرواحل العَجْز ، لئيم المَكسر والمختبَر ، ضيِّقِ العَطَن والمَبْرَك ، ويعنى به نفسه ، وهذا كما يقال : لقيتَنى لقيتَ بى قِرناً باسلا . ويعنى بالقِرْن نفسَه . وقوله « حين شمَّرتْ » يريد حين كشَفَت الحربُ عن ساقها ، وأبدتْ أعجازَها وهوادِيَها ، ففعَل فِعلَ الذَّليل ، وأعطى من الانقياد ما يُعطيه الضَّعيفُ الفريد ، ولم يكن سَعْيُه سعياً مصدوقاً فيه ، ولا وقوفُه وإمساكُه إمساكاً يُعذَرُ له ، فتراه عند الأماثل من جملة الأراذل ، وعندَ طُلاَّب الخير مقتحِما فى الشَّرِّ . ومعنى «قَدَّمَتْهُ أكابره» أسلافُه وأماثلُ قومِه .

٦٤٢

وقال إسماعيل بن عَمَّار (١) :

١ – بَكَتْ دارُبِشْرٍ شَجْوَها إذ تَبدَّلَتْ هلالَ بنَ مرزوقٍ بِبِشْر بن غَالبِ

٢ – وهَلْ هِيَ إلاَّ مِثْلُ عِرْسٍ تَحَوَّلَتْ على رَغْمِها ، مِنْ هاشمٍ فى مُحارِبِ (٢)

« شَجْوَها » انتصَب على أنه مفعول له ، والشاعر يفضِّل بشرًا على هلال ، ويقول : إن الدار التى كان يستوطنها بشرٌ لمّا ارتحل عنها وصار فيها بدلاً منه هلالٌ بكتْ وتحسَّرَتْ ، وحُقَّ لها ذلك ، فما هى فى استبدالها إلا كعروسٍ زُوِّجت

(١) التبريزى : « إسماعيل بن عمار الأسدى » ثم قال : « قال دعبل بن على : هى للوليد بن كعب قالها لما مات بشر بن غالب واشترى داره هلال بن مرزوق » .

وإسماعيل بن عمار الأسدى : شاعر مقل مخضرم من شعراء الدولتين الأموية والعباسية . وأخباره فى الأغانى (١٠ : ١٢٨ – ١٣٥) .

(٢) التبريزى : « مثل عرس تبدلت » .

فى هاشم ، ثم انتقلت إلى محارِب . ومُحارِبٌ قبيلة فيها ضَعَةٌ وخمول ، حتى قال بعض الشُّعَراء وهو يَحْلف :

* فَصَيَّرنى ربّى إذًا من مُحَارِبِ *

٦٤٣

وقالت امرأةٌ قُتِلَ زوجُها[1] :

١ — مَتَى تَرِدُوا عُكَاظ تُوافِقُوها بأسْمَاعٍ مَجَادِعُهَا قِصَارُ
٢ — أجيرانَ ابنِ مَيَّةَ خَبِّرُونِى أعَيْنٌ لابنِ مَيَّةَ أم ضِمَارُ
٣ — تَجَلَّلَ خِزْيَها عَوْفُ بنُ كَعْبٍ فليسَ لخَلْفِها مِنهُ اعتذارُ
٤ — فإنَّكُمْ وما تُخْفُونَ مِنْها كذاتِ الشَّيبِ ليسَ لها خِمارُ

عُكاظ : وادٍ للعرَب فيه سوقٌ لهم يجتمع فيها طوائفُ الناس من [جميع[2]] الأحياء ، فيتعارفون فيها ويتعلّقون بالأخبار بعد التذاكر بها والتنسُّم لها ، وبينهم المواعَدات والمقايَضات ، والإحَنُ والتراتَ ، والمنافَراتُ والمناقَضات ، فكلُّ فِرقةٍ تتجمّل لِلأخرى[3] وتودّ أن تسمع فيها ما ليس عندَها من حَسَنٍ وقبيح ، ومحمود

---

(١) التبريزى : « قتل زوجها فى جوار الزبرقان فلم يطلب بثأره ... وخبر هذه الأبيات أن رجلا من عبد القيس كان يقال له ابن مية ، وكان جاراً للزبرقان بن بدر ، قتله رجل من بنى عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة فى جوار الزبرقان ، وكان الذى قتله يقال له هزان ، قتله بموضع يقال له ذو شبرمان ، فحلف الزبرقان ليقتلن هزالا . وقالت امرأته هذه الأبيات . ثم سعت بنو سعد فى القصة حتى أصلحوها وفدى ابن مية ، ثم مكثوا هنيئة من الزمان وخطب هزال إلى الزبرقان أخته خليدة فزوجه إياها ، فلما هاجاه المخبل نعى ذلك عليه فقال :

وأنكحت هزالا خليدة بعدما زعمت برأس العين أنك قاتله
وأنكحته وهوى كأن عجانها مشق إهاب أوسع السلخ ناجله
يلاعبها تحت الفراش وجاركم بذى شبرسان لم تزيل مفاصله » .

(٢) التكملة من ل . (٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « تتحمل الأخرى » .

ومذموم ، إلى غير ذلك من الأنباء السائرة ، والأوابد العائرة[1] ، التي يُتَهادى بها، ويُستطرَف وُقوعُها ، ويُقبلَّغُ باستماعها وأدائها. فيقول : متى وردتم عُكاظ وافَيتموها أذلاَّء قد اكتسيتم عاراً يُخزيكم ويُلازمكم ، فتصير كالمُثْلةِ عليكم ، فكأنّ آذانكم قد استُوعِبَ صَلْمُها ، عقوبةً لكم بما عاملتم به جارَكم من إحفار وإسلام ، حين[2] قُتل في جواركم ، واستُبيح مُحرُماتُه في ذِمَمكم . ثم قال مستهزِئاً ومعيِّرًا : يا جيرانَ ابنِ مَيَّةَ ، أنبئوني أنُصْرَتَكم له عَيْنٌ أم ضِمارٌ ، ووفاؤكم بما عقدتم له حَقّ أمْ كِذَاب . والعَينُ : ما يُحضَر ويُشاهَد ، لذلك قيل في المثل : « يَدَعُ العينَ ويتبَعُ الأثَر » . والضِّمار : الغائب الذى لستَ منه على ثقة . قال الأعشى :

تَرانا إذا أضْمَرَتْكَ البلادُ نُجْفَى وتُقْطَع منا الرحِمْ

وقوله « تجلَّل خِزْيَها عَوْفُ بن كعب » ، يريد : لَبِسَ خِزْيَ هذه الغَدْرَةِ وتغطَّى بذمِّها قبائلُ عَوْفِ بن كعب كلُّها لا أنتم فحَسْب ، فليس لأعقابها بعدها عُذْرٌ يُقبل ، ولا تَنصُّلٌ يُسمَع .

وقوله « وإنَّكم وما تُخْفُون منها » ، يريد مَثَلَكم في سَتركم أمرَها ، وتقديرِكم إخفاءها ، على انتشارها وذَهابها في الناس ، وعلى تَغَشِّيكم بدَرَنِها ، واستقذار الناس لكم لوسخها ، مَثَلُ امرأة شابَ رأسُها ولا خِمار لها فتختمر ، مع مَيلها إلى أن لا يُرَى شيبُها . والمعنى : الأمرُ أظهر مِن أن يُكتم أو يُدفن.

---

(١) العائرة : السائرة .
(٢) ل : « حتى » .

٦٤٤

وقال آخر :

٥ـ تَوَلَّتْ قُرَيْشٌ لَذّةَ العَيْشِ وَاتَّقَتْ　　　بِنَا كُلَّ فَجٍّ مِنْ خُرَاسَانَ أَغْبَرَا

٦ـ فَلَيْتَ قُرَيْشًا أصبَحَتْ ذَاتَ لَيلةٍ　　　تَؤُمُّ بها مَوْجًا من البحر أَكْدَرَا

هذا كلامُ رَجُلٍ قد جَمَّرَهُ الوالِي[1] ، وتبرّمَ بغُربتِه ، وشَقِيَ بالتّباعُدِ عن أهله ووطنه ، فيقول : تفرَّدَ قريشٌ بالتنعُّم والتلذُّذ ، واستأثرَ بالعيش الطَّيّب والرَّتعةِ الهنيئة[2] ، ورمَتْ بنا مرَامِيَ مُنْكَرَةً لا راحةَ معها ، ولا طائلَ فيها ، وسَدَّتْ طُرُقَ المَفَاوز الغبْر التي لا تُسْلَكُ ولا تُعْبَرُ ، بينها وبين أهلِ المشرق . وبوَدِّي[3] أن ثبُتت قريشٌ على ليلةٍ تُفضِي بها صبيحتها إلى أنْ تُسْلِمَها إلى مَوْجٍ أكدَرَ ، يجرُفُها إلى البحر ويغرّقها . وهذا مثل ، والمعنى : أتمنَّى أن تشملها بليّةٌ تُفنيها وتُرِيحُ العِبادَ والبلادَ منها . والكَدَر : نقيض الصَّفاء . ويقال : عيشٌ أكْدَرُ ، وقد كَدِرَ . وجعل الموجَ كذلك تهويلا ، وتكثيراً لماءِ بحرِه . وقوله « ذاتَ ليلةٍ » يريد السَّاعةَ التي يكون فيها الليلةُ المطلوبة . وعلى هذا قولك : فعلْتُ كذا ذات العشاء ، يريد الساعةَ التي فيها العشاء . والمعنى : أصبحَتْ منّا على هذه الحالة قُرَيْشٌ ، أي حصلَتْ من ليلتها على صَبَاحٍ هكذا .

---

(١) تجمير الجند : أن يحبسهم في أرض العدو ولا يقفلهم من الثغر .

(٢) ل : « والنعمة الهنيئة » .

(٣) كذا ضبطت بالفتح في النسختين . والود والوداد متاشتان ، كما في القاموس .

٦٤٥

وقالت امرأةٌ (١) :

١ — حَلَفْتُ وَلَمْ أَكْذِبْ وإلاَّ فَكُلُّ ما مَلَكْتُ لِبيتِ اللهِ أُهديه حافِيَهْ
٢ — لَوَ اْنَّ المَنايا أَعْرَضَتْ لاقْتَحَمْتُها مَخَافَةَ فيه إنَّ فَاهُ لَداهِيَهْ (٢)
٣ — فَمَا جِيفَةُ الخِنزيرِ عِنْدَ ابنِ مُغْرِبٍ قَتَادَةَ إلا ريحُ مِسْكٍ وغَالِيَهْ
٤ — فكَيفَ اصطبارِي يا قَتَادَةُ بعدما شَمِمْتُ الذي مِنْ فِيكَ أَثْأَى صِمَاخِيَهْ

قولها « ولم أكذب » في موضع الحال أي حلفتُ صادقةً في خَبَرِي ، وإلاّ فما أملكه لبيتِ الله — تعني لمن حول بيت الله ، فحذَف المضافَ — أُهديه إليه بنفسي حافيةً لاحِذَاءَ لي . فقولُها «أُهْدِيه» ، يجوز أن يكون في موضع خبر المبتدأ ، كأنَّها قالت : وإلاّ فما أملكه أهديهِ لبيت الله حافية ، أي في هذه الحال . ويقال : أهديْتَ إلى البيتُ وللبيت هَدْياً ، إذا تقرَّبْتَ فيه بقُربان . واللام من «لبيت الله» على هذا يتعلَّق بأهْديه . ويجوز أن يكون لبيت الله خبر المبتدأ . وأهديه إن شئتَ كان مستأنفاً ، وإن شئت كان خبراً ثانياً ، وإن شئت كان بدَلا .

وقولها « لو أنَّ المنايا أعرَضَت » أي مكَّنت من النَّظر إلى عُرضِها ، أي إلى الجانب الذي تجيء منه «لاقتحمْتُها» ، أي لوَقَعتُ فيها وصرت في قُحمَتِها . وانتصب « مخافَةَ فيه » على أنّه مفعول له .

وقولها « فما جيفة الخِنزير » تُريد : ما رائحة جِيفة الخنزير إلاَّ ريحُ مِسك لأنَّ الحدَث يشبَّه بالحدَث ، والعينَ بالعين .

---

(١) التبريزى : « وقالت امرأة تهجو قتادة بن مغرب البشكرى ، وهو زوجها » . وقتادة بن مغرب : شاعر من شعراء الدولة الأموية كان معاصرا لزياد الأعجم ، وكانت بينهما مهاجاة . انظر الأغانى (١٠ : ١١٢ / ١٤ : ١٠٠ ، ١٠٣) والشعراء ٣٩٦ . ومغرب بضم الميم وسكون الغين ، ويقال بفتح الغين وكسر الراء المشددة ، كما ذكر ابن قتيبة فى الشعراء .
(٢) التبريزى : « إن فيه » ، فإن صحت كان معناها إن فى فيه .

وقولها « فكيف اصطبارى يا قتادةُ » ، يريد : كيف أتكلَّف صَبْراً على مجاورتك والسكونِ معك . بعد ما بُليتُ به من بَخَرِكَ ونتْن فَمك، الذى أفسَد علىّ آلةَ الشَّمّ والسّمع . ومعنى أثأى صِمَاخِيَه ، أى أفْسَدَه . والصِّماخُ : ثَقْب الأذن الذى يُفْضِى إلى الرَّأس . وآلة الشَّمّ الأنفُ دونَ الأذن ، ولكن تريد أنّه فَسَدَ بمجاوَرته .

٦٤٦

وقال عبد الله بن أوْفَى الخُزاعِى (١) :

١ — نَكَحْتُ ابنةَ المُنْتَضَى نَكْحَةً ... على الكُرْهِ ضَرَّتْ ولم تَنْفَعِ (٢)

٢ — ولم تُغْنِ مِن فاقةٍ مُعْدِمًا ... ولم تُجْدِ خيْرًا ولم تَجْمَعِ (٣)

٣ — مُنَجَّذَةٌ مِثْلُ كَلْبِ الهِرَاشِ ... إذا هَجَعَ الناسُ لم تَهْجَعِ

٤ — مُفَرِّقَةٌ بينَ جِيرانِها ... وما تَسْتَطِعْ بينهم تَقطَعِ

٥ — بقولِ رَأَيْتُ لِمَا لاَ تَرَى ... وقِيلِ سَمِعْتُ ولم تَسْمَعِ

قوله « على الكُره » فى موضع الحال من نَكَحْتُ . وقوله « ضَرَّتْ » من صفة نَكْحَةً ، وكذلك ما فى البيت الثانى من الجُمَل كلٌّ فى موضع الصِّفة

---

(١) التبريزى: « فى امرأته » . ثم قال فى نهاية تفسير الأبيات : «ويقع فى بعض النسخ هذه الأبيات منسوبة إلى أبى الهندى ، قالها فى امرأته . وأول البيت :

* نكحتُ بشَهْبَيْذَقٍ نكحةً *

وشهبيذق ، ذكرت فى القاموس ، ولم تذكر فى اللسان ولا فى معجمى البلدان ، قال فى القاموس : « شهبيذق : بلد » . وعبد الله بن أوفى الخزاعى لم نعثر له على ترجمة . والأبيات ٣ ، ٧ ، ٩ فى اللسان (قعد) منسوبة إلى عبد الله .

(٢) التبريزى : « المنتصى » بالصاد المهملة . و « ولم تنفع » هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « فلم تنفع » .

(٣) ولم تغن ، كذا فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « فلم تغن » .

لها . فيقول : نكَحْتُ هذه المرأةَ مُكْرَهًا نكْحَةً ضارَّةً غير نافعةٍ فى شىء من الوجوه ، فما أغنَتْ من عُدْمٍ عديمًا ، ولا أنالت خيراً ، ولا جمَعَت شملاً . وحذَف مفعول « ولم تجمع » ، لأنّ المراد مفهوم .

وقوله « منجَّذَة » من الناجذ ، وهو ضِرْس ٱلْحِلْم . والنواجذ : أربعةُ أضراس ، وقال بعضهم : هى الضَّواحك ، محتجًّا بحديث النبىّ صلى الله عليه وسلم « أنه ضحك حتى بدَت نواجذُه » . ويقال : نَجَّذَ فلاناً الخطوبُ ، إذا أحكمَته . وقال :

* ونَجَّذَنى مداوَرةُ الشُّؤُونِ[1] *

فيقول : إنها قد جُرِّبَتْ ومُلَّ منها ومَلَّتْ . وقوله « مثل كلب الهِرَاش » يعنى فى خَلْقها وخُلُقها . ومعنى « إذا هجع الناس لم تهجع » ، يصفُها بأنها تمشى بالنَّمائم . ولذلك قال الآخر[3] :

قومٌ إذا دَمَسَ الظلامُ عليهمُ حَدَجوا قَنافذَ بالنميمةِ تَمزَعُ

لأنَّ القُنفُذَ لا ينام بالليل . فيقول : هى بوشايتها تفرِّق بين الخُلَطاء ، وتُقطِّع الوُصَل والأواصرَ بينهم .

ولك أن تنصِبَ « منجذة » و « مفرقة » على الحال ، ولك أن ترفعهما على الاستئناف . وقوله « وما تستطع » شرطٌ وجزاء ، والمفعول محذوف ، فهو كقولك : ما تُطِقْ تَفْعل .

فأمَّا قوله : يقولٍ رأيتُ وقيلٍ سمعتُ ، فالباء تتعلق بقوله تَقْطَع . والمعنى أنها تُباهِتُ وتُكابِر ، وتتزيَّد فى القول وتُجاهِر ، فتدَّعِى مشاهدةَ ما لا تشاهدُه ،

(١) لسحيم بن وثيل الرياحى فى الأصمعيات ٦ طبع المعارف .
(٢) صدره : * أخو خمسين مجتمعاً أشدى *
(٣) هو عبدة بن الطبيب ، فى المفضلية ١٤٧ .

وسَماعَ ما لا تدركُه . وهذا زائدٌ على ما قاله الآخر حين نفى هذه الطريقةَ ، وهو :

وليست مِن اللائى يكون حديثُها أمام بُيوتِ الحىِّ إنَّ وإنَّما[1]

ورواه بعضهم :

تقول رأيتُ لما لا ترَى وقالت سمعتُ ولم تسمعِ

والذى رويناه أحسنُ تلاؤمًا وأقربُ .

٦ – فإنْ تَشْرَبِ الزِّقَّ لا يُرْوِها وإنْ تأكُلِ الشاةَ لا تَشْبَعِ

٧ – ولَيْسَت بتارِكَةٍ مَحْرَمًا ولو حُفَّ بالاسَلِ الشُرَّعِ[2]

٨ – ولو صَعِدَتْ فى ذُرَى شاهِقٍ تَزِلُّ بها العُصْمُ لم تُصْرَعِ[3]

٩ – فبِئسَت قِعادُ الفتَى وحدَها وبِئْسَت مُوَقِّيَةُ الأَرْبَعِ

مَحْرَمًا ، أى حَرَامًا . والحُرْمة : ما لا يَحِلُّ انتهاكُه ، وكذلك المحارم . وفى المثل « لا بُقْيا للحَميّة بعدَ الحرام » أى عند الحُرمة . وهو ذو مَحْرَم وحُرْمةٍ فى القرابة . والشُّرَّع : جمع شارع ، ويقال : أشرَعت الرُّمحَ قِبَلَهُ فشَرَع . وصفها بالنميمة وشِدّة الحِرص على تناول المحرَّم ولو انتزعَتْه من بين الأسِنَّة . ثم وصفها بالتجليح[4] ، وحُسن التنقيح[5] ، والحِذْق فى التوصُّل إلى الممنوع ، ولو احتاجت إلى أن تترقّى فى مَصاعِد الجبال ، ومدارج الهضاب المُعْجِزة للعُصْم .

وقوله « فبِئست قِعَادَ الفَتى وحْدَها » انتصب قِعَادَ وموَفِّيَة على التمييز ،

(١) لحميد بن ثور ، فى ديوانه ١٨ طبع دار الكتب .

(٢) فى اللسان : « المشرع » .

(٣) بها ، أى بالذرى . وفى الأصل : « نزل به » ، وأثبتنا ما فى ل والتبريزى .

(٤) التجليح : الإقدام الشديد ، والتصميم فى الأمر والمضى .

(٥) فى اللسان : « كل ما نحيت عنه شيئاً فقد نقحته » . والتنقيح أيضاً : الإصلاح وإزالة العيوب . وهذا ما فى ل . وفى الأصل : « وحسن التقبيح » .

لأنه وإن كان معرفةً فى اللفظ ، فلا اختصاصَ فيه. ويُروَى بالرَّفع فى الموضعين . فإذا نصبْتَ فهو كقولك : بئست رَبَّةَ البيت هِنْدٌ . وإذا رفعْتَ فهو كقولك : بئست دارُ الكافرِ النارُ . وفى القرآن : ﴿ ولَنِعْمَ دارُ المُتَّقين ﴾ . والمذمومة بئست فى الوجهين محذوفة . وانتَصَب «وحدَها» على المصدر. فيقول : هى مذمومة فى النساء تفرَّدت أو اجتمعت مع ثلاثٍ أُخر . والقِعادُ والقَعِيدة واحدةٌ ، ويقال : ليست له قَعيدةٌ تقْعِدُه ، أى امرأة تعزِّبُه ، أى تزيل عُزْبتَه .

وحُكى أنَّ الأصمعى ألقَى على أصحابه يومًا هذا البيت ، وهو :

واحدةٌ أعضَلَكم شأنُها فكيفَ لو قُمتَ على أربَعِ

[أربع[٢]] يعنى النساء .

٦٤٧

وقال بعضُ آل المهلَّب[٣] :

١ — قومٌ إذا أكلوا أخفَوْا كلامَهُمُ واستَوثَقوا مِن رِتاجِ البابِ والدارِ

٢ — لا يَقبِسُ الجارُ منهم فَضْلَ نارِهِمِ ولا تُكَفُّ يَدٌ عن حُرْمةِ الجارِ[٤]

معناهما ظاهر ولا إعراب فيهما . والقَبَس : الشُّعلة من النار . والقابِس طالب النار وآخذها ، ويقال: قبَسْتُ النار واقتبستها وأقبستَها وأقبسَنيها فلان . والمِقباس نحوٌ من القبَس . والرِّتاجُ : الغَلَق . ويقال : رتجت الباب وأرتجته .

(١) ابن جنى : « وذلك تعريف الجنس ، لا يخص واحداً بعينه ، فضارع بشياعه النكرة ، ولأجل ذلك ما كان أسد وهو نكرة كأسامة وهو معرفة ، وغدوة وهو معرفة كغداة وهى نكرة وكذلك ثعلت وثعالة . وهو كثير فاعرفه لطيفاً » .

(٢) التكملة من ل . وفى التنبيه لابن جنى : « أى لو تزوجت أربع نسـوة » . وانظر مجالس العلماء ٣٣ وطبقا ، الزبيدى ٢١٦ والمزهر ٢ : ٣٧٩ .

(٣) اسمه عبد الله بن عبد الرحمن ، و لقبه أبو الأنواء ، كما ذكر التبريزى رواية عن دعبل . (٤) تكف ، بالتاء فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « يكف » بالياء .

٦٤٨

وقال آخر :

١ — كاثِرْ بِسَعْدٍ إنَّ سَعْدًا كثيرةٌ ولا تَبْغِ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءً ولا نَصْرا

٢ — ولا تَدْعُ سَعْدًا للقِراعِ وخَلِّها إذا أَمِنَتْ ونَعْتَها البَـلَدَ القَفْرا

٣ — يَرُوعُكَ من سَعْدِ بن عَمْرٍو جُسُومُها وتَزْهَـدُ فيها حِينَ تَقْتُلُها خُبْرا

كاثِرْ : أمرٌ من كاثرتُه ، إذا غلبتَه بالكَثْرة ، ويقال : كاثرته فكَثَرتُه أكثُره بضم العين . وعلى هذا يجئ هذا البناء ، سواء كان مفتوحاً في الأصل أو مضموماً أو مكسوراً ، إلاَّ أن يكون البناء معتلاًّ ، فإنَّه يُترك على حاله . يقال باكيته فبكَيْتُه أبكيه لا غير . وذلك لئلاَّ يلتبس بناتُ الياء ببنات الواو . وقولُه : « ونَعْتَها البَلَدَ القَفْرَا » ، يصفُهم بالسَّلامة في حال الأمن ، وبحُسنِ تَصرفهم في فُنون القول ، وأنَّ لهم المنظرَ الحسن دون المَخْبَرَ ، ثم لا وفاء لهم في الذِّمم والعُقود ولا نصرةَ في الدفاع عند الحروب . ومعنى يَروعُك يُعجبك . يريد : اعطُوا البَسْطَةَ في الأجسام ، فإذا خَبَرْتَهُمْ صَغَّرَهُمُ الخُبْرُ ، فأورثَكَ الزُّهدَ فيهم .

ويقال : لي بهم خُبْرٌ وخِبْرَةٌ .

٦٤٩

وقال آخر :

١ — أَعاريبٌ ذَوُو فَخْرٍ بإفْكٍ وأَلْسِنَةٍ لِطَافٍ في المَقَالِ

٢ — رَضُوا بصفاتِ ماعَدِمُوهُ جَهْلاً وحُسْنُ القَوْلِ مِنْ حُسْنِ الفَعَالِ

يقول : إنَّهم يفتخرون بمفاخِرَ مأفوكة مكذوبة[1] ، ولهم ألسنةٌ يلطِّفون بها

(١) مأفوكة ، من الإفك ، وهو الكذب .

ويصوِّرون الباطل من مفاخِرِهم بصُورة الحق، فهم أصحابُ مَقَالٍ لا فعالٍ، وأربابُ كَذِبٍ وزُورٍ، لا حَقٍّ وصِدْقٍ، ولجهلهم يرضَوْن من أنفسهم ولها بأنْ يصِفُوها بما هو معدومٌ فيهم، وقَنِعُوا بحُسْن الصِّفات من أنفسهم بقولهم، وإنْ عَدِمُوا شهادةَ الأشهاد على دعواهم، اعتقاداً منهم أنَّ القولَ يغنى عن الفعل، وأن الخَبر يُكتفَى به عن الخِبرة، وأنَّ الكرم فى الدَّعاوِى لا فى الحقائق.

٦٥٠

وقال مالكُ بنُ أسماء[1]:

١ـ لو كُنْتُ أَحْمِلُ خَمْراً حِينَ زُرْتُكُمُ ... لم يُنْكِرِ الكَلْبُ أَنِّى صاحِبُ الدَّارِ[2]

٢ـ لكنْ أتَيْتُ ورِيحُ المِسْكِ تَفْغَمُنى ... وعَنْبَرُ الهِنْدِ مَشْبُوباً على النَّارِ[3]

٣ـ فأنْكَرَ الكَلْبُ رِيحِى حِينَ أبْصَرَنى ... وكانَ يَعرِفُ رِيحَ الزِّقِّ والقَارِ

قوله «تفغمنى»، أى تسدُّ خَياشيمى وتملؤها. ويقال: الرِّيح الطيِّبة تَفغَم المزكوم[4]. وقوله «مشبوبا على النَّار»، يقال: رأيتُ شَبَّةَ النَّار، أى اشتعالها، وقد شَبَبْتُها. وتوسَّعوا فيه فقالوا: فلانة يَشُبُّها فَرْعُها، إذا أظْهَرَ بياضَ وجهها سوادُ شعرها. وانتصب «مشبوبا» على الحال. ومعنى الأبيات ظاهرٌ.

---

(١) قال دعبل: بل قالها عيينة بن أسماء بن خارجة، وكان زار صديقا له فلما بلغ باب دار بينه شد عليه كلب صديقه فعضه. عن شرح التبريزى. والشعر ورد فى الحيوان (١: ٣٨٠) والبخلاء ٢٠٢ بدون نسبة معينة، وفى البيان (٣: ٣١١) لبعض الحجازيين. ومالك بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاوى: شاعر إسلامى غزل، وأخته هند بنت أسماء، زوج الحجاج، وهو ممن عرف بالجمال فى العرب. ترجم له الأغانى (١٦: ٤٠ — ٤٦) ومعجم المرزبانى ٣٦٤ — ٣٦٥ واللآلى ١٥ — ١٨ والشعراء ٧٥٦ — ٧٥٨.

(٢) التبريزى والجاحظ: «يوم زرتكم».

(٣) التبريزى والجاحظ: «والعنبر الورد أذكيه».

(٤) الريح بمعنى الرائحة مؤنثة.

٦٥٠

وقال آخر :

١ ـ هجوتُ الأَدْعِيَاءِ فناصَبَتْنِي مَعَاشِرُ خِلْتُهَا عَرَباً صِحَاحا
٢ ـ فقلتُ لَهُمْ وقَدْ نَبَحُوا طَوِيلاً عَلَيَّ فَلَمْ أُجِبْ لَهُمُ نُبَاحا
٣ ـ أَمِنْهُمْ أَنْتُمُ فأَكُفَّ عَنْكُمْ وأدفَعَ عنكُمُ الشَّتْمَ الصُّرَاحا[1]
٤ ـ وإلاَّ فاحْمَدُوا رَأْيِي فإنِّى سَأَنْفِي عَنْكُمُ التُّهَمَ القِباحا
٥ ـ وحَسْبُكَ تُهْمَةً بِبَرِىءِ قَوْمٍ يَضُمُّ على أَخِي سَقَمٍ جَنَاحا

هذه الطَّريقة فى ذَمِّ الأدعياء غريبةٌ حسنةٌ جدًّا . وفيما قال أبو العَتَاهية فى والِبَةَ بنِ الحُبَابِ ما هو مُستَبدَعٌ أيضا ، وهو :

ما بالُ مَن آباؤهُ عَرَبُ الـ ألوانِ أصْبَحَ مِنْ بنِي قَيْصَرْ[2]
أكَذا خُلِقْتَ أَبا أُسامَةَ أمْ لَوَّنْتَ سالِفَتَيْكَ بالعُصفُرْ[3]

وأخذه أبو نواس[4] فقال أيضا :

وابنُ الحُبَابِ صليبةً زَعَمُوا ومِن المُحَالِ صليبةٌ أشْقَرْ

ومصدر الدَّعِيّ الدِّعوة والدِّعاوة . وناصبَتْني ، أى عادَتني ؛ ويقال : ناصَبْتُ فلاناً الحربَ والعداوةَ ، ونصَبْنا لهم حَرْباً . ويقال : العَرَبُ العارِبة

---

(١) فى نسخة الأصل : « فأكف عنهم » ، تحريف .
(٢) فى الأغانى (١٦ : ١٤٤) : « يحسب من بنى قيصر »
(٣) أبو أسامة : كنية والبة بن الحباب ، وفيه يقول على بن ثابت :

بكت البرية قاطبه جزعا لمصرع والبه
قامت لمــــوت أبى أسا مــة فى الرفاق النادبه

وكلمة « أبا » ساقطة من الأصل ، وهى والكلمة التى بعدها ساقطتان من ل . والتحقيق يقتضى ما أثبتنا .
(٤) كذا . والبيت التالى فى الأغانى منسوب إلى أبى العتاهية مع البيتين السابقين وأبيات أخرى .

والعَرْباء ، أى الخُلَّص . والعرب المستعرِبَةُ : الذين دخلوا فيهم بَعْدُ .

وقوله « عَرَبُ الألوان » مثل قولهم: سُرُوجٌ خُزُّ الصُّفَّاتِ[1] .

و « عرَباً صِحاحا » أى صِحَاحَ الأنسابِ . والنُّباح يُستعمَل فى صَوت التَّيْس عند السِّفاد ، وفى الهُدْهُد والظَّبْى . ويستعمل فى الشَّاعر على طريق الذم . ويقال : نَبَحَه ونَبَح عليه . قال الهُذلىُّ[2] :

* ولو نبحَتْنِى بالشَّكاةِ كِلابُها[3] *

والمراد بقوله « لهُمْ نُباحا » : لم أُجِبْ نُباحَهم . « ولهم » تبيينٌ .

وقوله «أَمِنْهُمْ أنتمُ » فى موضع المفعول من قلتُ ، وانتصَبَ « فأَكُفَّ » بإضمار أن ، وَهو جواب الاستفهام بالفاء . والصُّرَاح : الخالصُ من كلِّ شىء ، وكذلك الصَّرِيحُ والصُّرَاحُ . ورجُلٌ صريحٌ : ضدُّ هَجِينٍ ، من قومٍ صُرَحاء . وخَمْرٌ صُرَاحٌ : لم تُشَبْ بمِزاج

وقوله « حَسْبُكَ تُهَمَةً » ارتفع على الابتداء ، ويُكتفَى به لأنَّ فيه معنى الأمر ، أى اكْتَفِ . وانتصَب تُهمةً على التَّمييز ، ومعنى الأبيات ظاهر .

٦٥٢

وقال مُدْرِكٌ[4] :

١ ــ لقد كنتُ أَرْمِى الوَحْشَ وهْىَ بِغِرَّةٍ وتَسْكُنُ أحيانًا إلىَّ شَرُودُها

٢ ــ فقد أمكَنَتْنِى الوَحشُ مُذْ رَثَّ أَسْهُمِى وما ضرَّ وَحشاً قانِصٌ لايَصِيدُها

(١) الصفة للسرج بمنزلة الميثرة من الرحل .

(٢) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ٨٠) ، وقد سبق فى ص ٣٧٦ .

(٣) صدره : * ولا هرها كلبى ليبعد نفرها *

(٤) التبريزى: « مدرك ، أو مفلس بن حصن الفقعسى » . وفى معجم المرزبانى ٣٩١ : « مدرك أو مفلس بن حصن الفقعسى إسلامى » . قال أبو محمد الأعرابى : « وليس لواحد منهما ، وإنما هو لحماد بن المحلف – وهو الربيع – بن عبد الله ، أبو مايل اليربوعى . يقوله لبنى زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى » .

٣ — فأعرَضْتُ عن سَلْمَى وقلتُ لصاحبي سواءٌ علينا بُخْـلُ سَلْمَى وَجُودُها

جعلَ الوَحشَ كنايةً عن النساء . وإنما يذكُر أيامَ شبابِه ، ووقتَ صِبَاه ولهوِه ، فيقول : كنت أتعرَّض للنساء وهي مغترّة وفي غفلةٍ عنّي ، فأصيبُها بمحاسني وأصطادُها . والشاردةُ منها النافرةُ من الرِّيَب تَسكُنُ إليّ وتميل نحوي وقتاً بعد وقت ، وحالاً بعد حال . هذا فيما مضَى من عمري ، والآنَ قد شِخْتُ فسهامي قد رَثَّت ، وآلاتي كلَّت . وإنما يريد محاسنه عندهُنّ من قبلُ ، وأنها قد بارَت ، وما كان يُنفِّقُه عندهنّ من نفوذِ نصالِه عِند الرِّماء فيهنّ كلت . قال : فالوَحش تُمْكِنُني وأنا لا أرميها وتُكْثِبُ لي وأنا غافلٌ دونها . ومعنى تمكنني أنّ النساء تنبسط إليّ فلا تَنقَبِضُ ، وتستفيم فلا تَنفِرُ لأمْنِها من توجُّه الرِّيبة . قال : والصائد لا يَضُرُّ الوَحشَ إذا لم يَصِدْها ، يعني نفسَه . وهذا الكلامُ يجري مَجرى الأمثال . والمعنى أنهنّ لا يَنفِرْن مني ، وقد سَكَنّ إليّ وأَمِنّ رَمْيي .

وقوله « فأعرَضْتُ عن سَلمَى » ، يقول : تركتُ صاحبتي التي كنتُ أولَعُ بها ؛ وأستلذُّ ذِكرَها ، زاهداً فيها ، وقلت لقَرِيبَتي وأَلِيفي : بُخْلُها وجودُها يَستويانِ عليّ مع إعراضي وضعف حاجتي ، وكَلالِ حَدِّي ، وعجْز قُدْرتي ، وتسلُّط رَثَيَاتِ الشَّيب عليّ[1] ، وتمكُّنِ أبدال اللّهو مِنّي . وقوله « سواءٌ علينا » سواء مصدرٌ في الأصل ، وقد وُصِفَ به .

٤ — فلا تَحسُدَنْ عَبْساً على ما أصابَها وذُمَّ حَياةً قد تَوَلَّى زَهِيدُها

٥ — تَشَبَّهَ عبسٌ هاشِماً أَنْ تَسَرْبَلَت سَرَابيلَ خَزٍّ أنكَرَتْها جُلودُها

كان الوليد وسليمان ابنا عبد الملك أمهما عبسيَّة[2] ، فارتفع شأنُ بني عَبْس

(١) الرثية : الضعف ، وانحلال الركب والمفاصل .

(٢) وكذا قال المرزباني في معجمه ٣٩١ . قال أبو محمد الأعرابي : « هذا غلط ، لأن أم الوليد وسليمان هي ولادة بنت خليد بن جزء بن الحارث بن زهير » .

بها ، واختلطوا بمُدبّري الخلافة وسُوَّاس الرعيّة ، والقائمين عن المملكة . فيقول مخاطباً لصاحب له : لا تحسدنّ بني عبس على ما نالته من الملك والرياسة ، وذمّ زماناً ساعدها على ذلك وأهّلها له ، وحياةً قد تولّى زهيدها في الشقاء بها ، ومكابدة الأوابد منهم فيها . والزهيد : القليل الخير ، ويقال : رجل زهيد وامرأة زهيدة ، وهما القليل الطُّعم ، يريد أنّ أمرهم خلسة من خلس الدهر ، وسينقطع منكره ويعود إلى دون ما يحبّ له .

وقوله « تشبّه عبسٌ هاشماً » ، يقال : شبّهته كذا وبكذا ، وتشبّه زيد بكذا وكذا . يقول : تنعّموا بلذات الدنيا وزخارفها ، وشاركوا أرباب الخلافة وولاتها في ملابسهم التي تنكّرها جلودهم ، ومطاعمهم التي لم تذقها لهواتهم ، وحدّثوا أنفسهم بأنهم أمثالهم ، ووسوس الشيطان إليهم مماثلة حالهم لأحوالهم عند الحفل ، وفي الخلوات . وقوله « أن تسربلت » يريد : لأن تسربلت . كأنهم لمساعدة الأحوال لهم فعلوا ما فعلوا . وإنما قال « أنكرتها جلودها » لأنها لم تعتدها من قبل . ومثله قول الآخر :

بكى الخزّ من عوفٍ وأنكر جلده   وضجّت ضجيجاً من جذام المطارف

٦ — فلا تحسبنّ الخير ضربة لازب   لعبس إذا ما مات عنها وليدها

٧ — فسادة عبس في الحديث نساؤها   وقادة عبس في القديم عبيدها

هو ذا يسلّي صاحبه عما تداخله من الغيظ على زمان بلغ ببني عبس ما بلغ ، فيقول : لا تظنّن أنّ هذه الأمور تجري على ما تشاهدها سليمة من الحوادث ، وأنّ الدولة تمتدّ لبني عبس وتصير كالواجب لها ، بريئة من الصوارف ، نقيّة من الشوائب ؛ فإنّ كلّ ذلك بعرض الزوال والتغيّر ، متى مات من تقدّموا به ، وهو الوليد بن عبد الملك .

وحُكِى عن الحُضَيْن[1] بن المُنذِر أنّه قال لبعض بنى عَبْسٍ وقد تنازعا فى شىء : « إنّما أنتم يا بنى عَبْسٍ بحرٍ[2] ، فإن ابتلّ ابتللتم ، وإن يَبِس يبستم » .

وقوله فسادةُ عَبسٍ نساؤُها ، يعنى أمَّ الوليد والمتّصلاتِ بها . هذا فى الحديث زَعَم . قال : وفى القديم كانوا بالعبيد ، يعنى به عَنترةَ بنَ شدّاد ، لأنّه عَبْسِىٌّ ، وكان هجيناً ، ولذلك قال :

إنّى امرُؤٌ من خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِباً ⁂ شَطْرِى وأَحْمِى سَائِرى بالمُنْصُلِ

وقال أيضا :

أنا الهَجِينُ عَـنْتَرَهْ ⁂ كلُّ امرِئٍ يَحْمِى حِرَهْ[3]

أسودَهُ وأحمرَهْ

وهو أحَدُ الفُرسانِ الذين جلَّ أمرُهم ، وعظُم شأنُهم .

٦٥٣

وقال آخر :

١ — أقولُ حِينَ أَرى كَعْباً ولِحْيَتَهُ ⁂ لا بَارَكَ اللهُ فى بِضْعٍ وسِتِّينِ

٢ — مِنَ السِّنِينَ تَمَلّاهَا بِلاَ حَسَبٍ ⁂ ولا حَيَـــاءٍ ولا قَدْرٍ ولا دِينِ

أجْرَى جمعَ السلامة فى أن أعرب آخِرَهُ مَجرى جموع التّكسير ، وقد جاء ذلك كثيراً . على هذا قولُ الآخر[4] :

* وقد جاوزْتُ حَدَّ الأَربَعِينِ[5] *

---

(١) فى النسختين : « الحصين » بالصاد المهملة ، وصوابه بالمعجمة ، كما فى التبريزى والمؤتلف ٨٧ وتهذيب التهذيب ، والخزانة (٢ : ٨٩ — ٩٠) والقاموس (حضن) .

(٢) يعنى أن قدرهم ومنزلتهم ، إنما هو بنسائهم وصهرهم فى الخلفاء .

(٣) الحر : حر المرأة . والرجز فى اللسان (حرح) .

(٤) هو سحيم بن وثيل الرياحى . الأصمعيات ٦ طبع المعارف .

(٥) صدره : * وماذا يدرى الشعراء منى *

وقوله :

* وابنُ أَبِىّ أبىّ مِن أَبِيِّينِ(١) *

وقوله « من السِّنين » تعلّق بقوله فى بِضْعٍ . والبِضْعُ مُختلفٌ فيه ، فمنهم من يقول : يتناول ما بين الثّلاثة إلى العشرة كُلَّه ، ومنهم من يجعله متناولاً للنّصف من ذلك . والأوّل هو الصحيح . وقيل فى قوله : ﴿ بِضعَ سِنِينَ(٢) ﴾ إنّها سبعة ، وقد حُكِىَ الفتحُ فى الباء منه أيضاً ، وأصله من القَطْع .

وقوله « تَمَلَّاها » عاش مُلَاوَتَها . والمَلَاوَةُ تُكسر ميمهُ وتُضَمّ . ومنه المَلِىُّ من الدّهر ، وقولُهُم : تملَّيْتُ حَبِيبًا .

٦٥٤

و قال عُرَيْفُ القَوافى(٣) :

١ — وماأُمُّـكُمْ تَحْتَ الخَوافِقِ والقَنَا ... بِثَـكْلَى ولا زَهْراء من نِسْوَةٍ زُهْرِ

٢ — أَلَسْتُمْ أَقلَّ النَّاسِ عِنْدَ لِوائِهِمْ ... وأَكْثَرَهُمْ عِنْدَ الذَّبِيحَةِ والقِدْرِ

وصفهم بأنّهم يتصوّنون ، فلا يبتذلون أنفسهم فى الحروب ، فأمّهاتهم تَثْكَلهم تحتَ الأعلام إذا خفقت ، والرِّماح إذا أُشرِعت . وقوله « ولا زهراء » ، أى ليست هى بكريمةٍ فى نفسها . وهذا ضدُّ قول الآخر(٤) :

* أُمُّكَ بيضاء من قُضَاعَـةَ(٥) *

(١) البيت لذى الإصبع العدوانى فى المفضليات ١٦٠ طبعة المعارف الثانية . وصدره :
* إنى أبى أبى ذو محافظة *

(٢) من الآية ٤٢ فى سورة يوسف : « فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين » .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٧٢ ص ٢٦٢ .

(٤) هو ابن قيس الرقيات . ديوانه ٨٣ . وقد سبق فى ١٥٠ ، ٤١٩ .

(٥) تمامه : أمك بيضاء من قضاعة فى الـ * بيت الذ يستكن فى طنبه .

يريد بياض الكَرَم لا بياضَ اللون .

وقوله : «ألسْتم أقلَّ النّاس» ، ويقرِّرُهم على لؤمِهم وتأخرهم في الحروب ، وقلّتِهم عند خَفْق البُنُود ، وعند عقدِها للرِّياسات ؛ وعلى أنّهم يَكثُرون في المآدب ، ويتزاحمون على الذّبائح . وإنّما يُقرَّر بألَيْس وبألَمْ وما أشبهه في الواجب ، لأنّ الاستفهامَ كالنّفي ، والنّفيُ إذا دخلَ على النّفي صار واجبا ، وقد مرّ الكلامُ فيه فيما تقدّم .

٦٥٥

وقال آخر :

١ ــ وَنُبِّئتُ رُكبانَ الطَّريقِ تَنَاذَرُوا ... عَقِيلاً إذا حَلُّوا الذِّنَابَ فَصَرْخَدا

٢ ــ فَتًى يَجْعَلُ المَحْضَ الصَّرِيحَ لِبَطْنِهِ ... شِعَارًا ويَقْرِى الضَّيْفَ عَضْبًا مُهَنَّدا

قوله « تناذروا » ، أي أنذر بعضُهم بعضا ، وموضعه من الإعراب نصبٌ على أن يكون مفعولا ثالثاً لنُبِّئتُ . والذِّناب وصَرْخَدٌ : موضعان . والمعنى أنّ السَّفْر والسّابلةَ والمارّةَ قد عرَفوا عقيلا بالغَدر والخِيانة ، والطّمعِ في مال الضّيف والجار والحَليف ، فإذا نزَلوا هذين الموضعَين وهما مما يقاربُ محلَّ عَقِيلٍ ومأواه ، حذّر بعضُهم بعضاً ، وتواصَوا بالاحتراز منه ، ثم قال : هو فتًى يملأُ بطنَه من خالص المحض ، فالمحضُ شِعارُ بطنه ، يليه ويَشحَنه ويلتَبِس به ، ويُعِدُّ لقِرَى ضَيْفِه سيفاً قاطِعاً . والأصل في الشِّعار ما يَلِي الجَسَدَ من الثياب ، ثم تُوُسِّعَ فيه فقيل : أَشعرَ قلبي همًّا أي أبطَنَهُ . وحكى بعضُهم : هَنَّدتُ السَّيفَ : شحذته وأحْددتُه . والمشهور نسبته إلى هِنْدٍ(١) .

(١) كذا في النسختين . وفي اللسان أيضا : « وهند : اسم بلاد » . ومن عجب أنه لم يعقد للهند رسم في معجمي البلدان .

وقد استعمَلَ القِرَى على هذا غيرُه فقال ، وهو أبو وَجْزَةَ :

ذاكَ القِرَى لا قِرَى قَوْمٍ رأيتُهُم يَقْرُونَ ضَيْفَهُم الملوِيَّةَ الجُدُدَا(١)

يعنى السِّياط .

٦٥٦

وقال آخر :

١ــ أناخَ اللُّؤْمُ وَسْطَ بَنِي رِياحٍ مَطِيَّتَهُ فأقْسَمَ لا يَرِيمُ

٢ــ كَذَلِكَ كلُّ ذِى سَفَرٍ إذا ما تَنَاهَى عِنْدَ غَايَتِهِ مُقِيمُ

يقال : أنَخْتُ البعير فبرك ، ولا يقال فناخَ . وهذا من باب ما استُغنى به عن غيره ، ومعنى لا يريم لا يبرح .

وقوله « كذلك » فى موضع الحال ، لأنّ « كلُّ ذى سَفَرٍ » مبتدأٌ ، ومُقيمٌ خَبَرُهُ ، كأنه قال ، وكلُّ مسافر إذا ما انتهى إلى غايته يُلْقِى عَصاهُ ، ويَحُطّ رَحْلَهُ . كذلك ، أى مثل إقامة اللُّؤم فيهم .

وهذا المعنى قد نقله البحتُرِىُّ إلى المدح فيهم :

أوَ ما رأيتَ المجدَ ألقى رحْلَهُ فى آلِ طلحةَ ثم لم يتحوّلِ(٢)

٦٥٧

وقال آخر :

١ــ إذا بَكْرِيَّةٌ وَلَدَتْ غُلَاماً فَيَا لُؤماً لِذَلِكَ مِنْ غُلَامِ

٢ــ يُزَاحِمُ فى المَآدِبِ كُلَّ عَبْدٍ ولَيْسَ لَدَى الحِفَاظِ بِذِى زِحَامِ

(١) كذا فى ل والكامل ١٠٧ ليبسك ، وهى جمع جديد . وفى الأصل : « الحددا » .
(٢) فى الأصل : « طلحة لم يتحرك » ، صوابه فى ل .

قوله « يا لُؤْمًا » لفظه لفظ النّداء والمعنى معنى التعجُّب ، أى ما أشَدَّه من لؤم . ومثله : ﴿ يا حَسْرَةً على العِباد ﴾ ، وقولُ الشَّاعر(١) :

فيا شاعِراً لا شاعِرَ اليومَ مثلَهُ جريرٌ ولـكن فى كُلَيْبٍ تَوَاضُعُ

وقوله « يُزاحم فى المآدب » يشبه قول عُوَيف :

أَلَسْتُمْ أقلَّ النّاسِ عند لوائِهم وأكثَرَهُمْ عند الذَّبيحةِ والقِدْرِ(٢)

وإن كانَ زاد عليه لمّا جَعَل مزاحمتَه على الطَّعام مع العبيد . وقوله « من غُلَامٍ » أى لذلك الغُلام من بين الغِلْمانِ . وواحد المآدِب مأدُبة(٣) ، والفِعْلُ منه أَدَبْتُ .

٦٥٨

وقال آخر :

١ـ رِدِى ثُمّ اشْرَبِي نَهَـلًا وعَلًّا ولا يَغْرُرْكِ أقوالُ ابنِ ذِيبِ(٤)

٢ـ فلو كانَ القَليبُ على لِحَاهُمْ لَأَسْهَـلَ وَطْؤُها شَـفَةَ القَليبِ

يشجعها على الورود والصَّدَر ، وشرب العلل بعد النَّهَـل . وعلى ألّا تحتفل بتهدُّد ابنِ ذئبٍ وإرعادِهِ وإبراقِه ، فإنّه قولٌ لا فِعلَ معه ، وقعقعةٌ لا وَقْعَ بعْدَها . وكانَ التَّخاصُمُ فى بئر ، فلذلك قال ما قال .

وقوله « فلو كان القليب على لِحَاهم » استخفافٌ بهم وإهانة . ومعنى أسهل : وجدَها سهلا ، ويعنى بوطئها وَطءَ الإبل ، ولم يَجرِ لها ذكر ، ولـكنّ المرادَ مفهوم : والمعنى : كانت تَجِدُ حَرفَ البئرِ سهلاً لاحَزْناً . يقول: لو كان موضع البئر

(١) هو الصلتان العبدى . الخزانة (١ : ٣٠٤ ـ ٣٠٨) . وقد سبق فى ٥٣٨ .
(٢) البيت الثانى من الحماسية ٦٥٣ ص ١٥٢٩ .
(٣) المشهور فى « المأدبة » ضم الدال ، وأجاز بعضهم الفتح .
(٤) التبريزى : « ولا تغررك » .

لِجامُهم ما جَسَروا على المنع ، ولا على التمانع ، ولا كان يتعقّب ورودَها إنكارٌ ولا وَبال .

٦٥٩

وقال آخر :

١ ــ إنْ تُبغضونى فقدْ أسْخَنتُ أعيُنَكُمْ وقَدْ أتَيْتُ حَراماً ما تَظُنُّونَا[(١)]

٢ ــ وقد ضَمَمْتُ إلى الأحْشَاءِ جارِيَةً عَذْباً مُقَبَّلُهَا مِمَّا تَصُونُونَا

يقول : لا مَلامَ عليكم فى بَغضائكم لى ، فقد نِلْتُ منكم ما استحققتُ به ذاك . وانتصَبَ «حراماً» على الحال من أتيتُ ، وما تظنّونا فى موضع المفعول ، والضمير العائد من الصِّلة محذوف . وقوله «مما تصونونا» ولم يَقُل ممَّن ، لأن القَصْد إلى الجنس و «ما» للصِّفات والأجناس ولما دون النَّاطقِين . فأمَّا قوله «تظنُّون» فيجوز أن يكون من غالب الظَّنّ ، ويجوز أن يكون من اليقين .

٦٦٠

وقال آخر :

١ ــ يا قَبَّحَ اللهُ أقواماً إذا ذُكِرُوا بَنِى عُمَيْرَةَ رَهْطَ اللُّؤْمِ والعَارِ

٢ ــ قَوْمٌ إذا خَرَجُوا مِنْ سَوْءَةٍ وَلِجُوا فِى سَوْءَةٍ لم يُجِنُّوها بأسْتَارِ

المنادَى فى قوله «يا قَبَّحَ الله» محذوف ، كأنه قال : يا قوم ، أو يا نَاسُ قبّح الله أقواما ، أى أبعدَهم الله . و «بنى عُمَيرة» انتصَبَ على البدل مِن أقواماً ، والمعنَى فى قوله «إذا ذُكِروا» أىَّ وقتٍ ذُكِرُوا فأبعدَهُم الله . و «رَهْطَ

(١) تبغضون ، هو ما فى ل والتبريزى . وفى نسخة الأصل : «تبغضونا» .

اللُّؤم » انتصَبَ على الذمّ والاختصاص ، والعامل فيه فِعلٌ مُضمَرٌ ، كأنّه قال : أذكُر رَهْطَ اللُّؤمِ .

وقوله « قومٌ » ارتفَعَ على أنّه خبر المبتدإ ، أى هم قوم إذا خَرجُوا مِن سَوءةٍ ومَخْزِيَةٍ ، أى من اكتسابهما وفِعلهما ، دخَلُوا فى مِثلِها أو أسوأَ منها وأُخرى لا يتستّرون فيها ولا يستَحيون منها .

٦٦١

يَهْجُو الحَضَرِىَّ ويَمْدَح البدوىّ :

وقال آخر :

١ — جوَّابُ بَيْدَاءَ بها عَرُوفُ[(١)]
٢ — لا يأكُلُ البَقْلَ ولا يَرِيفُ
٣ — ولا يُرَى فى بَيْتِهِ القَلِيفُ
٤ — إلاَّ الحَمِتُ المُفْعَم المكشوفُ
٥ — للجارِ والضَّيْفِ إذا يَضِيفُ
٦ — والحَضَرِىُّ مُبْطَنٌ مَمْلُوفُ[(٢)]
٧ — لِلفَسْوِ فى أَثْوَابِهِ شَفِيفُ
٨ — أَعْجَبُ بَيْتَيْهِ له الكَنِيفُ
٩ — أَوطَايَةٌ مُبْقِلَةٌ وسِيفُ[(٣)]

(١) رواه التبريزى : « عزوف »، وقال: « يقال رجل عزوف وعزوفة وعزيف » . وفى اللسان (ريف) : « غروف » ، تحريف .

(٢) التبريزى : « بطنه معلوف » .

(٣) التبريزى : « أوطانه » ، ثم قال : « ويروى : أوطاية مبقلة وريف » .

قوله « جوَّابُ بيداء » يصف به البدوى ، أى قطَّاع المَفاوز بليغ المعرفة بها . ويقال : رجل عَرُوفٌ وعَرُوفَةٌ وعَرِيفٌ ، أى عَارِفٌ . ويقال من العِرْفِ بكسر العين ، وهو الصبر : عارِفٌ وعَرُوفٌ أى صَبُورٌ ؛ فيجوز فيه الوجهان . ويُرْوَى : « جَوَّابُ بيدٍ أَيِّهٌ عَرُوفُ » ، والأَيِّهُ : الصَّيِّت المتيقظ الحىُّ القلبِ والنّفس : والبِيد : جمع بيداء .

وقوله « لا يأ كل البَقل » ، أى هو قَوِىٌّ صُلْبُ العُروق ، لأنَّ البقول تَرخِى الأعصاب . و « لا يريف » أى لا يدخل الحَضَر . والرِّيفُ : الخُضْرة . وقال الدُّرَيْدىّ : الرِّيف : ما قَارَبَ السَّوَادَ من أرض العرب ، والجميع أرياف ورُيُوف . وتَرَيَّفَ القومُ ورافوا : دَنَوْا من الرِّيف .

وقوله : « ولا يُرَى فى بيتهِ القَلِيفُ » أى طعامُه طعام البدويِّين : اللبنُ والتَّمر ، لا الخُبز . وقُلَافَةُ الخُبز وقَليفه : الذى يَلزَق منه بالتَّنُّور .

وقوله : « إلا الحَميتُ » بدلٌ من القَليف ، وهو نِحْىُ السَّمْن . والمُفْعَم : المملوء . وجَعَلَهُ مكشوفاً للجار والضَّيف ليدلَّ على سَخائه بما فيه ، ولا سِتْرَ عليه ولا حجابَ دونه ، فاللام مِن قوله للجَار يتعلق بالمكشوف .

وقوله « والحَضَرِىُّ مُبْطَنٌ مَعلُوف » ، أى يُطيعُه ما يأ كله ، ويَرتَع فيه فَيَنهَمُ فيه ويتجاوز حدودَ أكلِ النّاس حتَّى يصيرَ معلوفاً كما تُعلَف الدّوابُّ للسِّمَن . والمُبْطَن : المُوسَعُ البَطْن . وقد بَطِن بَطَناً ، أى عَظُم بَطْنُه ، وأصابتْه البِطْنَةُ . وفى المَثَل : « البِطْنة تُذهِبُ الفِطنة » ، أى كثرةُ الأكلِ تُحدِث البَلادة ؛ ورجلٌ بطينٌ ومِبْطَان : عظيم البَطْن . والمُبطَّن : الخَميص البطن . قال :

* فأتَتْ به حُوشَ الفؤادِ مُبَطَّنَا(١) *

(١) البيت لأبى كبير الهذلى ، كما سبق فى ص ٨٨ . وعجزه :

* سهدا إذا ما نام ليل الهوجل *

وقال مُتمِّمٌ :

* فَتًى غيرَ مِبْطَانِ العَشِيَّاتِ أرْوَعَا(١) *

والشَفيف : بَرْد ريحٍ فى نُدُوَّةٍ ، واسمُ تلك الرِّيح الشَّفَّانُ .

وقوله « أعجَبُ بَيتَيْهِ » أى الذى يأكل فيه والذى يُحْدِثُ فيه . والكَنيفُ جعلَه أعجبَ إليه لكثرة اطِّيافه(٢) .

والطايةُ : الأرض الفضاء الواسعة . والسِّيفُ : ساحل البحر . وأبْقَلَ المكانُ : كثُر بَقْلُه .

٦٦٢

وقال رَبْعان :

١ — إذَا كُنتَ عَمِّيًّا فكُنْ فَقْعَ قَرْقَرٍ ... وإلاَّ فكُنْ إنْ شئتَ أيْرَ حِمَارِ(٤)

٢ — فما دَارُ عَمِّيٍّ بِدَارِ خَفَارَةٍ ... ولا عَقْدُ عَمِّيٍّ بعَقْدِ جِوَارِ

يعنى بالفَقْع الكَمْأة . ويضربُ المثل بهذا فى الذُّلّ فيقال : « أذَلُّ مِنْ فَقْعٍ بِقَاعٍ » ، وذلك لأنه يَجْتَنيها من يشاء ، وأضافَهُ إلى قَرْقَرٍ منبِتِه . ويقال : قاعٌ قرقر ، أى مستوٍ . وأتَى بالصِّفة لأنَّ المرادَ مفهوم ، والمعنى : إذا كنتَ عمِّيًّا فكنْ ذليلاً كالفَقْع ، أو شيئاً يُتحامَى ذكره ومنظرُه كذلك العضو . وأخفرتُه ، إذا نقَضْتَ عهدَه . والمعنى ظاهر . وجعل لا من قوله « ولا عَقْدُ » بدلاً من ما ، ولذلك أدخَلَ الباء فى بعَقْدِ .

(١) صدره فى المفضليات ص ٢٦٥ طع المعارف :

* لقد كفن المنهال تحت ردائه *

(٢) أطاف يطاف اطيافا : تغوط وذهب إلى البراز .

(٣) التبريزى : « وقال ريعان ، ويقال ربعان » .

(٤) العمى : نسبة إلى بنى العم ، وهم بنو مرة بن مالك بن حنظلة . اللسان (عم) . وانظر الأغانى (٣ : ٧٣) .

٦٦٣

وقال آخر :

١ – أَرَانِي في بَنِي حَكَمٍ غَرِيبًا ... على قُتُرٍ أَزُورُ ولا أُزَارُ

٢ – أُناسٌ يأكلونَ اللَّحْمَ دُونِي ... وتأتيني المَعَاذِرُ والقُتَارُ

قوله « على قُتُرٍ » أى على حرف . ويقال قُتْرٌ وقُتُرٌ . يقول : ليس فيهم تمكنٌ ، لغربتى . والقُتُر والقُطر والحَرْف والجانب تتقارب . وقد استعمل الحرف استعمال القُتُر ، بل هو أشهر فى هذا المعنى ، وأكثرُ تصرُّفًا ، يقال : هو على حَرْفٍ من أمْرِه ، أى انحراف ، وانحرفَت بهم دُنياهم ، ومالى عن كذا مُحْرَفٌ ، أى مَصرِفٌ ومُتنحَّى . وفى القرآن : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ : وإنما وصفهم بأنّ من جاورهم يسيئون عِشرتَه ولا يرَوْن له ما يَراه لهم مِن قضاءِ ذِمَامٍ ، وإيجاب حق ، بل يطَّرِحونه ويُهملونه . وقوله « وتأتيني المعاذرُ » ، أراد ريح عَذِراتهم وأفنيتهم ، فحذف المضاف . « والقُتار » ، أى وتأتينى ريحُ اللحم المشوىّ . وقيل فى المعاذِر : إنها جمع مَعذِرة . والأوّل أبلغ . والعاذر والعاذرة والعَذِرَةُ : الحَدَث ، وقد أَعْذَرَ ، أى أحدث . ويرتفع أناسٌ على أنه خبر مبتدإٍ محذوف ، كأنَّه أراد : هم أناس ، وقد وُصِفوا بجملتين . وقد كان يجب أن يقول : وتأتينى المعاذِر والقُتارُ منهم ، فحذف الضمير ، ويجوز أن يكون « وتأتينى » على الاستئناف .

٦٦٤

وقال آخر :

١ – ما إنْ فى الحَرِيش ولا عُقَيْلٍ ... ولا أولادِ جَعْدَةَ مِنْ كَرِيمِ(١)

(١) كذا بالخرم فى النسختين . وفى التبريزى : « وما إن » .

٢ — ولا البُرْصِ الفِقَاحِ بَنِي نُمَيْرٍ ولا العَجْلَانِ زائِدَةِ الظَّلِيمِ
٣ — أولَئِكَ مَعْشَرٌ كبَنَاتِ نَعْشٍ رواكِدَ لا تَسِيرُ مع النُّجومِ

يعنى بزائدةِ الظَّليمِ الخفَّ ، لأنَّه لا يكون للطَّير . أى هم زيادةٌ فى النَّاس بمنزلةِ تلك الزائدة فى الظَّليم .

وقوله «أولئك معشرٌ كبناتِ نعش» ، يريد أنَّهم لا ينهضون لاكتساب مكْرُمَةٍ . ولا يقومون لاجتلاب مَنْقَبَةٍ ، فهم لا خيرَ فيهم يلزمون مضاجعَهم كَسَلاً وقِصرَ همةٍ ، ورِضًى بأدنى الهِمَّتين وأسقطِ العيشتَيْن . والعرب تسمِّى مَن كان كذلك ضاجِعاً وضُجْعِيًّا[1] وضُجَعة . وبنات نعشٍ ليستْ من النُّجوم السَّيَّارة ، فلذلك شبَّهَه بها .

٦٦٥

وقال رجلٌ من بنى جَرْمٍ[2] :

١ — دَلَفْتُ إلَى صَمِيمِكَ بالقَوَافِي عَشِيَّةَ مَحْفِلٍ فَهَتَمْتُ فَاكَا
٢ — وصَدَّقَ ما أقُولُ عَلَيْكَ قومٌ عَرَفْتَ أباهُمُ ونَفَوْا أباكَا

الصَّميم : الخالصُ من النَّسب والفخر . وجعل له ذلك على طريق الهُزْء ، فهو كقول الله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ . يقول : ما كان من حسَبك خالصا ، ومن نسبك صافيًا لا شَوْبَ فيه ولا لَبْسَ دونه ، أبطلته بقوافيَّ ، وزيَّفته حينَ اختلفنا فى المَجمعة بمراميَّ ، فهتمْتُ أسنانَك ، وأخرسْتُك فى دَعاوِيك . والهتْمُ : كسر الثَّنيَّة من الأصل ، وجعلَ الفمَ كناية عن الأسنان .

(١) بضم الضاد وكسرها . ومثله « القعدى » بكسر القاف وضمها .
(٢) التبريزى : « وقال رجل من جرم لزياد الأعجم ، وقيل إنه لزياد الأعجم » . وستأتى ترجمة زياد الأعجم .

أى جعلتُك بحيثُ لا مَعَضَّ لك ، ومَشهَدُنا مشهود[1] ، وأهل التمييز حضورٌ ، وصَدَّقَنى مَن له القِدْمَةُ والسَّابِقة عليك ، وأنت تعرفهم وتَعْرِف أَوَّلِيَّتهم ، وهم ينكرون سلَفَك ، ويُبطِلون دعاوِيَك .

٦٦٦

وقال زيادٌ الأعْجَم[2] :

١ — ومَنْ أنتُمُ إنَّا نَسِينا مَنَ انْتُمُ ... وريحُكُمُ مِنْ أَىِّ ريحِ الأعاصِرِ

٢ — وأنتمْ أُولَى جِئْتُم مَعَ البَقْلِ والدَّبَا ... فَطارَ وهَذَا شَخْصُكُم غيْرُ طائرِ

٣ — فلَمْ تَسْمَعُوا إلَّا بِمَنْ كانَ قَبْلَكُم ... ولم تُدرِكُوا إلَّا مَدَقَّ الحَوافِرِ

قوله « إنا نسينا مَن أنتمُ » يجوز أن تجعل مَنْ استفهاما ، وقد كرَّره ، وعَلَّقَ نسينا قبله ، وإنْ لم يكن من أفعال الشَّكّ واليقين ، لأنه أجراه مَجرى نقيضِه ، وهو عَرَفْتُ وذَكَرْتُ ؛ وهم يجرون النظير [مَجرى النَّظير[3]] ، والنَّقيضَ مَجرى النَّقيض . وقد مرَّ له نظائر . ويجوز أن نجعل مَنْ بمعني الذى . وقد حُذِفَ صلتُه[4] ، كأنّه قال : إنّا نسينا الذين هم أنتم . والأوّل أوجَهُ . ونظيرُ الأول[5] عند أصحابنا البَصريِّين قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَىُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا ﴾ . وفى باب الذى قوله تعالى : ﴿ تَمَاماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنُ[6] ﴾ لأنَّ المعنى مَن

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « لا يشهدنا مشهود » .

(٢) زياد الأعجم : أحد شعراء الدولة الأموية ، وقد شهد فتح إصطخر مع أبى موسى الأشعرى وطال عمره ووفد على هشام بن عبد الملك . وفى الاشتقاق ٢٠١ عند الكلام على عبد القيس : « ومنهم زياد بن سلمى الذى يقال له زياد الأعجم الشاعر » . ويقال له أيضا : زياد بن سلميان . انظر البيان (١ : ٧١) والخزانة (٤ : ١٩٣) ومعجم المرزبانى ١٣٣ والشعراء لابن قتيبة والأغانى (١٤ : ٩٨ - ١٠٥) .

(٣) التكملة من ل .

(٤) كذا فى النسختين . والمراد « حذف صدر صلته » .

(٥) فى النسختين : « الثانى » والتنظير للأول ، وهو التعليق بالاستفهام .

(٦) هذه قراءة يحيى بن يعمر ، وابن أبى إسحاق ، وهى القراءة التى يستقيم بها الاستشهاد وقراءة الجمهور : « أحسن » بفتح النون ، على أنها فعل . وقال بعض نحاة الكوفة فى =

هو أحسن . وقوله « مِن أيِّ ريحِ الأعاصر » ، والأعاصر : جمع الإعصار ، وهو الغُبار السَّاطع المستدير ، وفى المَثَل: «إنْ كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً » . وإنَّما خصَّها بالذِّكر لأنَّها تَسُوقُ غَيْثاً ، ولا تَدُرُّ سَحابا ، ولا تُلْقِحُ شَجَراً ، فضُرِب المَثَلُ بها لقلَّة الانتفاع بهم . وهذا كما قال الآخر(١) :

وأنتَ على الأدنَى شَمالٌ عَرِيَّةٌ   شآمِيَةٌ تَزْوِى الوُجوهَ بَلِيلُ

وهم يجعلون الرِّيح كنايةً عن الدَّولة ، فيقال : فلانٌ هَبَّتْ له ريحٌ ، فكأنه جعل دولتهم لا تُجدى ولا تردّ نفعا ، بل تُتْوِى(٢) وتجرّ شرّا ، وقوله « وأنتم أولَى جئتم » ، يريد الذين جئتم مع البَقْلِ . والمعنى أن شرَفكم حديث .

ومثله قول الآخر :

تموتونَ هَزْلَى فى السِّنين وأنتمُ   أساريعُ تحيا كُلَّما نبتَ البَقْلُ

وقوله «فطارَ وهذا شخصُكم غير طائر تضجُّر بهم وتعجُّب من بقائهم ، وعَتْبٌ على الزمان فى استبقائهم .

وقوله «فلمْ تَسمَعوا إلاّ بمن كان قبلكم» يريد أنَّ كلَّ من يُذكَر لكم(٣) وعِنْدَكم فهو سابِقٌ لكم ، مقدَّم عليكم بالزمان والفضل ، فأنتم على السّاقة لم تُدرِكوا ممَّن أحْرَزَ قصباتِ السَّبْقِ إلّا مَدَقَّ الحوافر ، ومواطئ الأقدام . جَعَلَهُمْ فَسَاكِلَ ، ومتأخِّرين عند الفضائل .

ـ تخريجها : يصح أن يكون أحسن هذه اسما ، وهو أفعل تفضيل مجرور بالفتحة صفة للذى وإن كان نكرة ، من حيث قارب المعرفة إذ لا يدخله « أل » ، كما تقول العرب : مررت بالذى خير منك ، ولا يجوز مررت بالذى عالم . تفسير أبى حيان (٤ : ٢٥٥) .

(١) هو طرفة بن العبد ، كما سبق فى الحماسية ٦٠١ ص ١٤٤١ .

(٢) أتواه : أهلكه . وفى الأصل : «تنوى» تحريف . وفى ل : « توبى » .

(٣) فى الأصل : « من يدلكم » ، صوابه فى ل .

٦٦٧

وقال عَمْرو بنُ الهُذَيل[١]:

١ — نحنُ أقَمْنا أمْرَ بَكْرِ بنِ وَائِلٍ   وأنْتَ بِثَأْجٍ ما تُمِرُّ وما تُحْلِي[٢]

٢ — وما تَسْتَوِي أحْسابُ قَوْمٍ تُوُرِّثَتْ   قديمًا وأحسابٌ نَبَتْنَ مع البَقْلِ

ثَأْجٌ: اسم ماء. وما تُمِرُّ وما تَحْلِي، أي لا تأتى بحُلْوٍ ولا مُرٍّ. يصف عَجْزَه وضَعْفَه، وقُعودَه عن المعونة أوَانَ الحاجة. وقول زُهَير:

* علَى صِيرِ أمْرٍ ما يُمِرُّ وما يَحْلُو[٣] *

فأمَرَّ فيه بمعنى صار مُرًّا. ويقال فى هذا مَرَّ أيضاً. وقولُهم فى المَثَل: «ما أمَرَّ فلانٌ وما أحْلَى» فهو مِثْلُ المعنى الذى فى البيت. والمعنى: ما أتَى بحلوٍ ولا مُرٍّ. ومرادُ الشَّاعر فى هذا البيتِ ظاهر، وهو المعنى المتقدِّم.

وقوله «وما تستوى أحسابُ قومٍ» تستوى بمعنى تُساوِى وتُماثِل، وقد يكون استَوَى بمعنى استعلَى. على ذلك قولهم:

* قد استَوى بِشْرٌ على العِرَاقِ[٤] *

---

(١) التبريزى: «وقالى عمرو بن الهذيل العبدى. وقال أبو رياش: هى لرجل من بنى عجل». وفى معجم المرزبانى ٢٤١ «عمرو بن الهذيل الربعى». قال المرزبانى: «يقوله لأبى غسان مالك بن مسمع حين فر أيام العصبية، فنزل بأجا حتى تجات العصبية».

(٢) المرزبانى: «لا تمر ولا تحلى». وقبله عند التبريزى:

لا تَرجُ خَيراً عِنْدَ بابِ ابنِ مِسْمَعٍ   إذا كُنْتَ مِنْ حَيَّيْ حَنيفةَ أو عِجْلِ

(٣) ثانى بيت له من القصيدة التى مطلعها:

صحا القلب عند سلمى وقد كاد لا يسلو   وأقفر من سلمى التعانيق والثقل

وصدره: * وقد كنت من سلمى سنينا ثمانيا *

(٤) بعده فى اللسان (سوى):

* من غير سيف ودم مهراق *

٦٦٨

وقالت كَنْزَة فى مَيَّة[1] :

١ — أَلاَ حَبَّذَا أَهلُ المَلاَ غيْرَ أَنَّهُ إذا ذُكِرتْ مَىٌّ فلا حَبَّـذَا هِيا
٢ — عَلَى وَجْهِ مَىٍّ مَسْحَةٌ مِن مَلاَحَةٍ وتَحْتَ الثِّيابِ الخِزْىُ لو كانَ بادِيا
٣ — أَلَمْ تَرَ أَنَّ الماء يُخلِفُ طَعْمُه وإنْ كانَ لَونُ الماءِ فى العَينِ صافيا[2]
٤ — إذا ما أَتاهُ وارِدٌ مِنْ ضَرُورَةٍ تَوَلَّى بأَضعافِ الذى جاء ظَامِيا
٥ — كذلِكَ مَىٌّ فى الثِّياب إذا بَدَتْ وأَثوابُها يُخْفِينَ مِنْها المَخَازِيا
٦ — فَلَوْ أنَّ غَيْلانَ الشَّقِىَّ بَدَتْ لَهُ مُجَرَّدَةً يوماً لمَــا قالَ ذَا ليا
٧ — كَقَولِ مَضَى مِنْهُ ولـكنْ لرَدَّهُ إلى غَيْرِ مَىٍّ أو لأَصْبَحَ سَاليا

قوله ذا من لفظة «حبَّذا» أُشيرَ به إلى الشَّىء ، وهو مع حَبَّ بمنزلة الرجل مِن نِعْم الرَّجل ، إلاَّ أنَّه أُجْرِى معه مَجْرَى الأمثال ، لا يغيَّرُ ولا يُفصَلُ بينهما . والمعنى : محبوبٌ فى الأشياء أهل الملا غَيْرَ مَىٍّ ، فإنَّها إذا ذُكِرتْ لا تستحقُّ مدحاً ولا اختصاصا ، ولا ثناء ولا إطراء ، فلا تُعْطَى هذا القولَ ، ولا تُذْكَرُ عند الدُّعاء بالسُّقيا ، ولا تَدخُل عند الحمد أو الحُبِّ فى الذِّكرى . وقولها « فلاَ حبَّذا هى » جَعَل أَلِفَ ذا على انفصالها تأسيساً ، لأنَّ الرَّوِىَّ من اسم مُضْمَرٍ وهو هِىَ .

[1] التبريزى : « كنزة أم شملة المنقرى فى مية صاحبة ذى الرمة . وقيل : هى لذى الرمة ، وذلك أنه كان يشبب بمية وكانت من أجمل الناس ولم تره قط ، فجعلت لله عليها أن تنحر بدنة أول ما تراه . فلما رأته ورأت رجلا دميما أسود ، فقالت : واسوءتاه ! فقال ذو الرمة فيها » . وقد سبقت ترجمة « كنزة » فى الحماسية ٢٤٠ ص ٧٠١ . وفى الأغانى (١٦ : ١١٤) وأمالى الزجاجى ٥٧ أن تلك الأبيات قيلت على لسان ذى الرمة بغية الإفساد بينه وبين صاحبته . وانظر ملحقات ديوان ذى الرمة ٩٦ — ٩٧ .

[2] التبريزى : « أبيض صافيا » .

وقولها « على وجْهِ مَىّ مَسْحَةٌ » تريدُ أنّ ظاهِرَها حَسَنٌ ، كأنّ اللهَ عزّ وجلّ قد مسها بالجمال مَسْحًا ، ويكون أصله من المَسْحِ باليد ، وقد استُعمِل فى الدُّعاء فقيل للمريض : مَسَحَ اللهُ ما بكَ من علّة ، وقيل أيضاً : هو ممسوح الوَجه أى مستوِى الخِلْقة . وقولها « وتَحْتَ الثِّياب الخِزْى » تريدُ أنّ ما سِوَى المعارِى منها ممّا هو مُوَارًى من بدَنها ، ومَسْتُورٌ بثيابها ، قبيح . وقولها « لو كان بادياً » جواب لو مُقَدّمٌ عليه . أرادت : لو ظَهَرَ الخافِى منها كان خِزْياً . ثم شبَّهَتْها بالماء يتناهَى صفاؤُه ولونه ، ويَتراءى للنّاظر زُرْقتُه ، ويُحْسَبُ عَذْباً سَلسالاً فإذا هو مِلْحٌ أُجاجٌ ، حتَّى إذا ورَدَه الواردُ فنظَر إليه صار كأنه يَعِدُه من نفسِه بظاهِرِه عُذُوبةً ، فإذا طَعِمَهُ يُخْلِفُ ولا يَفِى ، بل يُعطيه مرارةً . هذا إذا رُوِى « يُخْلِفُ » لأنَّه من الخُلْف فى الوعد ، وقد رُوِى « يَخْلُفُ » فيكون من الخُلُوف : التَّغيُّر . وفى الحديث « خُلُوفُ فَمِ الصَّائِم أطيَبُ عند الله مِنْ رِيحِ المسك » والمراد أنّ ظاهرَ هذه المرأة كظاهر هذا الماء ، وباطنَها كباطِنه فكما أنّ وارد هذا الماء وقد اضطرّه العَطَشُ وساقَهُ حرارةُ الجَوْف والغُلّة يَصدُر عنه وقد تضاعَفَ ظموُه وتزايدت حرّته ، كذلك هذه المرأةُ للكاشف عن أمْرِها ، والذّائق بعدَ الاغترارِ بها . وقولها « بأضعاف الذى جاء » ، [تريد جاء[1]] عليه ، فحذف حَرفَ الجَرّ وَوَصَل الفِعلُ بنفسه ، فصار جاءَهُ ، ثم حَذَفَ الضَّمير من الصِّلة استثقالاً واستطالةً لكون أربعة أشياء شيئاً واحداً : الموصول ، والفعل ، والفاعل ، والمفعول . ومَنْ جَوّزَ حذفَ الجار والمجرور من الصِّلة فالأمرُ عنده أقربُ . وانتصب « ظامئا » على الحال .

وقولها « فلو أنّ غيلان الشّقىّ » تعنى به ذا الرُّمّة ، لأنه كان ينسُبُ بميَّة[2] ، وكان يسمِّيها مرّة مَيًّا ومرةً مَيّة . فتقول : لو أنّها تجرّدَت له لتبرّأَ منها وتقدّمَ

(١) التكملة من ل . (٢) فى الأصل : « يشبهها » صوابه فى ل .

على ما سَيَّرهُ من النَّسيب فيها . وانتَصَب « مُجَرَّدَةً » على الحال . وأشارت بذا من قولها « لما قال ذالياً » إلى مُجَرَّدِ مَيَّةَ ، أى ما حَدَّثَ نفسَه بأنه له . ويُروَى : « لما قال آلياً » وهذا يتعلَّق بما بعده . أرادت : لما قال كقوله فيما سَلَف ذاليا . وآليا ، أى مقصِّرًا عندَ نفسه في دعواه ، ولَصَرَف تشبيبَهُ[1] إلى غيرها ، ولَتَسَلَّى من النِّساء رأسا . وزَهِد فيهنَّ استِبْشاعًا لهاَ. وآليا ، من قولك : لا آلو في كذا ، أى لا أقصِّر ، وينتصب على الحال . وقولها : «لرَدَّهُ» ، اللام جواب يمين مضمرة . وذكر بعضهم أنَّ معنى آليًا حالفًا ، أى كان لا يُقْسِمُ بها ، وهذا خطأ ، لأنَّه كان يَجبُ أن يكون مُوليًا . ألا تَرَى أنَّه يقال : آليْتُ في اليمين إيلاء . وقيل : آا : توجُّعٌ فهو كأَوْهِ ، والمعنى : لم يَقُل لما يَستجِدُّ من الزُّهد فيها آا لِى ، متأوِّهًا ومتوجِّعا — وهذا كما يُقال في الأمر وقد نَكأً في متولِّيه : شقاء لى ، بكاء لى ، وأشْقَى لى ، وأبكَى لى — وجْدًا بها ، فعلى هذا يكونُ آا لى حكايةَ صوتٍ موضعُه رفعٌ بالابتداء ، ولى خبَرُه ، والأوّلُ أقرب عندى .

٦٦٩

وقال أبو العَتاهِيَة[2] :

١ ـ جُزِىَ البَخيلُ عَلَىَّ صالِحَةً ... عَنِّى بخِفَّتِـهِ عَلَى ظَهرى
٢ ـ أَعْلَى وأَكْرَمَ عَنْ يَدَيهِ يَدِى ... فَعَلَتْ وَنَزَّهَ قَدْرَهُ قَدْرِى
٣ ـ وَرُزِقتُ مِنْ جَدْوَاهُ عَافِيَةً ... أَلَّا يَضيقَ بشُكرِهِ صَدْرِى
٤ ـ وَغَنِيتُ خِلْوًا مِنْ تَفَضُّلِهِ ... أَحْنُو عَلَيهِ بأَحسَنِ العُذْرِ
٥ ـ ما فاتَنِى خَيْرُ امرِئٍ وَضَعَتْ ... عَنِّى يَدَاهُ مَؤُونَةَ الشُّكرِ

(١) ل : « نسيبه » .

(٢) لقب له ، واسمه إسماعيل بن القاسم ، شاعر عباسى منشؤه بالكوفة . وأكثر شعره في الزهد . توفى سنة ٢٠٥ . الأغانى (٣ : ١٢٢ – ١٧٦) والشعراء ٧٦٥ – ٧٦٩ .

يقول : جزى اللهُ البخيلَ عَلَىَّ بماله خَصْلَةً صالحةً ، فقد خفَّ تحمله على ظهرى ، لسقوط مِنَّته عنى ، وذاك أنه أجلَّنى عن صنيعته ، وأكرمَ محلّى إذْ أخلانى من عارفته ، وصان قدرى حين لم يبتذله لعطيّته ، ورفع يدى وكرّمها حين لم يَشِنْها بمرزيته ، فرزقنى الله عافيةً من ضيق الذَّرْع بشكره ، والتَّطوُّق بأفضاله ، واستغنيتُ عنه خالياً من برِّه ، مُنصرفاً من تفضُّله ، متعطفاً عليه ببسط عُذره حين لم يجُدْ عَلَىَّ ، ولم يتلقَّ إقبالى عليه بقبوله لى .

ولما قال : أعلَى يدى فعلَت ، كان الأحسنُ فى مقابلته أن يقول : وَنزَّهَ قَدْرى فنزُهَ . ويقال : فلانٌ نزيهٌ كريمٌ ، إذا كان بعيدًا من اللؤم . وقوله « ألاَّ يَضِيق » لك أن ترفعه وأن تنصبه ، فالنَّصْب على أن يكون أنْ النَّاصبة للأفعال ، والرفع على أن تكون أنْ مخفَّفة من الثَّقيلة ، ويكون اسمُهُ مُضْمَرًا ، كأنه قال: أنَّه لا يَضِيقُ ، والجملة خَبَره . والعافيَةُ : مصدر كالعاقبة ، ومثله ما أُباليه بالِيَةً ، وقم قائماً ؛ لأنَّه لا خِلافَ أنَّ اسم الفاعل يكون اسماً للمصدر وإن اختلفوا فى بناء المفعول . وموضع « ألاَّ يضيق » نَصبٌ بكونه بدلاً من قوله عافيَةً . وانتصَبَ « خِلوًا » على الحال . وجملة المعنى : أنَّه لم يَفتْنى إحسانُ رجلٍ لم يلزمْنى له شُكرُ إفضالٍ ، ولم يجب بفعله بى عَلَىَّ اعتداء .

٦٧٠

قال ابن عَبْدَلِ الأسدىّ(١) :

١ – أضحَى عُرَاجَةُ قَدْ تَعوَّجَ دِينُهُ بَعْدَ المَشِيبِ تَعوُّجَ المِسْمَارِ

٢ – وإذَا نَظَرْتَ إلى عُرَاجَةَ خِلْتَهُ فُرِجَتْ قَوائِمُه بأَيرِ حِمارِ

أراد أنْ يُظهِر أنَّه يجسُرُ على تشبيهه بالسَّوْءة . وضربَ الخَنَا والفُحْش مَثَلاً

(١) سبقت ترجمة الحكم بن عبدل فى الحماسية ٤٥٠ ص ١٢٠٤ .

له فى هجوه ، فأما المعنى فظاهر ، وإنما شَبَّهَ تعوُّجَ دينه على كِبْرَتِه وسِنِّه بتعوُّج المِسمارِ فى العَمَل ، وقد عَجَزَ عمَّا حُمِّل ، فإن أُكرِه على النَّفاذ انكَسَرَ ؛ وإن طُلِبَ نَزْعُهُ ليُجْعَل أَقْوَى منه بَدَلَهُ تَعَسَّرَ ، فكذلك عُرَاحَةُ فى اعوجاج دِينِهِ والتوائه ، لا صَرْفُه ورَدْعُه ممكن ، ولا احتمالُه عليه مُسَوَّغ .

٦٧١

وقال أم عمرٍو بنت وَقْدَان :

١ ـ إنْ أَنتُمُ لم تَطْلُبُوا بأخِيكُمُ فَذَرُوا السِّلاحَ ووَحِّشُوا بالأَبْرَقِ

٢ ـ وخُذُوا المَكَاحِلَ والمَجَاسِدَ والبَسُوا نُقَبَ النِّسَاءِ فبِئْسَ رَهْطُ المُرْهَقِ

٣ ـ أَلهاكُمُ أنْ تطلبوا بأخيكُمُ أَكْلُ الخَزِيرِ ولَعْقُ أَجْرَدَ أَمْحَقِ

تقول : إن ضيَّعتم دمَ أخيكم ، وقعدتم عن الانتقام له ، لتقصيركم فى طلب ثأره ، فضعوا السِّلاح واطْرحوه بالأَبرَق . ويقال : وَحَّشَ بثوبه وبسيفه ، إذا رَمَى به بعيداً . وفى الحديث : «وَحِّشُوا برماحهم[1]» ، أى رمَوْا بها . ويجوز أن تريد توحَّشُوا ، أى صِيرُوا مع الوَحْشِ حياءً من فعلكم ، وهاجِرُوا الناسَ وجانِبُوهم . والعرب تقول : إذا أظلمَ الليلُ تأنَّسَ كلُّ وحشيّ ، وتوحَّش كلُّ إنسيّ . يريدون بتأنَّسَ استأنس ، وبتوحَّش استوحَش . ومثلُ وَحَّشَ بمعنى توحَّشَ قَدَّمَ بمعنى تَقَدَّمَ ، ونبَّه بمعنى تنبَّه . وعلى هذا يُحمَلُ قولُ امرئ القيس :

وأَنَا المُنَبِّهُ بَعْدَ ما قد نَوَّموا وأَنَا المُعَانُ صَفحةَ النُّوَّامِ

لأنه إن لم يجعل منبِّه بمعنى متنبِّه يصير عجزُ البيت كصَدرِه فى أنَّهما بمعنًى

(١) هو من حديث على رضى الله عنه ، أنه لقى الخوارج فوحشوا برماحهم واستلوا السيوف . اللسان (وحش) . وفيه أيضاً : « ومنه الحديث : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم من حديد ، فوحش به بين ظهرانى أصحابه ، فوحش الناس بخواتيمهم » .

واحد . وقال بعضهم : وحِّشوا معناه اطلبوا صَيدَ الوحش وتَقَوَّتُوه . وهذا يرجع معناه إلى ما ذكرناه ؛ لأن معناه فارِقوا الناسَ والكَونَ معهم .

وخَصَّتِ الأبرقَ لأنه كان مما وَلِيَهم ، وهو المكان فيه حجارةٌ سُودٌ وبِيض . ويقال : جبلٌ أبرق ، إذا كانت طاقاتُه سُوداً وبيضاً .

وقولها « وخُذُوا المكاحِل » ، تريد : اجعَلوا بدلَ السِّلاح آلاتِ النساء : والمَجاسد : جمع المُجْسَدِ ، وهو الثَّوْبُ المُشْبَع صِبْغاً . والجِسَادُ : الزَّعفران . والنُّقَبُ : جمع نُقْبَةٍ ، وهى إزارٌ تُجعل له حُجْزَةٌ كحُجْزة السَّراويل تلبسُه المرأة . قال :

بيضاء مثل القلْبِ[1] فى نُقْبَـــةٍ وإتْبِ

والإتْب : القميص .

والمعنى : إن لم تثأروا لصاحبكم فتزيَّوا بزِيِّ النساء فإنكم إناث ، وبئس رهط المُرهَق : المضيَّق عليه أنتم . وحذَفَ المذموم ببئس ، وهو أنتم ، لأن المراد مفهوم . وهذا الكلام بَعثٌ وتحضيض على طلَب الدّم ، فهو كقول أختِ عمْرٍو حين بعثَتْ عَمْراً على طلب دَمِ أخيه عبدِ الله فقالت :

فإنْ أنتمُ لم تثأرُوا بأخيكُمُ فمشُّوا بآذانِ النّعامِ المُصَلَّمِ[2]

ولا تَرِدُوا إلاّ فُضولَ نِسائكم إذا ارتمَلَتْ أعقابُهنّ من الدَّمِ

وقولها « ألها كُم أن تَطلُبوا » تهييج وإغراء . والخزير : حَساءٌ يُحسَى . والأجرد : الأمحق ، يرادُ به نِحْيٌ أو زِقُّ دِبْسٍ . والأمْحَق : القليل ، كأنه يصير لكم مَحْقاً لا يُبارِكُ الله فيه ، وأمحَقُ من باب أفعَل الذى لا فَعْلاءَ له . واللّامُ ، هو لِما فى النِّحى لا لَه ، فتُوُسِّعَ فيه .

(١) القلب ، بتثليث القاف : قلب النخلة ، وهو جمارها .

(٢) سبق البيتان فى الحماسية ٥٢ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

٦٧٢

وقالت امرأةٌ من طيءٍ[١] :

١ – فلَوْ أنَّ قَوْمِي قَتَّلَتْهُمْ عِمَارةٌ   من السَّرَوَاتِ والرُّءوسِ الذَّوائبِ[٢]

٢ – صَبَرْنَا لِمَا يأْتِي به الدَّهرُ عامِداً   ولكنَّما أثْآرُنَا فى مُحَارِبِ

٣ – قَبِيلٌ لِئامٌ إن ظَفِرْنَا عليهِمُ   وإن يَغْلِبونا يُوجَدُوا شرَّ غالِبِ[٣]

العِمارةُ : الحىُّ العظيم يُطيق الانفراد ، وقد يُفتح العين منه فيقال : العَمارةُ ، لُغةٌ . ومثله العَمِيرَةُ ، وقيل : هما جميعاً البطن . والسَّرَوَاتُ : الرُّؤساء . والذَّوائب : الأعالى ، وهو جمع ذُؤابة ، واستعملوا الذنائب فى خلافه ، وهو جمع ذُنابة ، وهما اسمانِ فى الأصل وُصِفَ بهما . وأثآرٌ : جمع الثَّأر . يقول : هم الذين أصابونا عن ذِلتهم وخِسَّتهم ، فالبَلاء أعظم ، وقَرْحُ القَلبِ أوجَع ، ولو أصابنا غيرُهم كان الخطْبُ أيسَرَ ، والصبرُ عليه أوسَع . وهذا كما يقال فى المثَل السائر : « لو ذاتُ سِوَارٍ لطمَتْنِي » .

وقولها « قَبِيلٌ لئامٌ » ، هو تفصيلُ ما أجمَلَهُ . وقولها « إن ظَفِرنا عليهم » عَدَّى ظَفِرنا تعديةَ علَوْنا ، لأنه فى معناه ، وهم يَحمِلون الضمير على الضمير . والمعنى : لا اشتفاء فى الانتقامِ منهم إذا نِيلُوا ، ولا يُنِيمون طلَّابَ الأوتارِ إذا ثأَروا . وجواب الشرط ، وهو قوله إن ظَفِرنا ، متقدِّم يشتمل عليه قوله « قَبِيلٌ لئامٌ » ، لأن فيه معنى الفعل .

(١) التبريزى : « وهى عاصية البولانية » .

(٢) روى قبله التبريزى :

أعاصِيَ جُودِى بالدُّموع السَّوا كبِ   وبَكِّي لكِ الويلاتُ قتلَى مُحَارِبِ

(٣) التبريزى : « إن ظهرنا » .

ومثل قولها « وإن يَغلِبونا يوجَدُوا شَرَّ غالب » قولُ امرئ القيس :

* ولم يَغلِبْكَ مثلُ مُغلَّبِ[1] *

إلا أنه فى النَّسيب .

٦٧٣

وقال آخر[2] :

١ ـ إذا ما الرِّزْقُ أَحجَمَ عن كَرِيمٍ فألجأَهُ الزَّمانُ إلى زِيادِ[3]

٢ ـ تَلَقَّاهُ بوجْهٍ مُكْفَهِرٍّ كأنَّ عليهِ أرزاقَ العِبادِ

الإحجام : النكوص عن القِرْن هيبةً له . وقد تُوسِّعَ به هنا . وضدُّه الإقدام . ويقال : نكَصَ على عَقِبَيه . والمكفهِرّ : المستقبِل بكراهةٍ وتغَضُّنِ وَجْهٍ . ويقال : سَحَابٌ مكفهِرٌّ ، إذا تراكَمَ ، ووجهٌ مكفهِرٌّ . ويُروى : « بوجهٍ مقشَعِرٍّ » ، والأصل فى الاقشعرار تقبُّض الجلد وانتصابُ الشَّعَر ، ثم يُتوسَّعُ فيه فيقال : اقشعرَّت الأرضُ والنباتُ والسَّنة . والمعنى ظاهرٌ ، وهو أنَّ العافِيَ إذا وَرَدَ عليه تلقَّاه بعُبوسٍ ، كأنه اجتمع عليه لوُرود واحدٍ من الناس أرزاقُ الخَلْقِ كلِّهم . وجوابُ إذا « تلقّاه » .

٦٧٤

وقال أبو محمدٍ اليزيديّ[4] :

١ ـ عَجَبًا لأَحمَدَ والعجائبُ جَمَّةٌ أَنَّى يَلُومُ على الزَّمانِ تبذُّلِى

(١) تمامه :

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

(٢) التبريزى : « وقالت غيرها » .

(٣) التبريزى : « وألجاه » .

(٤) هو يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوى ، أبو محمد اليزيدى النحوى المقرئ اللغوى =

٢ ــ إنَّ العَجيبَ لِمَا أُبِثُّكَ أَمرَهُ مِنْ كلِّ مَثلوجِ الفؤادِ مُهَبَّلِ
٣ ــ وَغْدٍ يَلُوكُ لسانَه بلَهَاتِهِ وترَى ضَبَابةَ قَلْبِه لا تَنْجَلِى
٤ ــ مُتَصرِّفٍ للنُّوكِ فى غُلَوَائِه زَمِرِ المُرُوءةِ جامحٍ فى المِسْحَلِ
٥ ــ وإذا شَهِدْتَ به مَجالسَ ذى النُّهَى وَبَلَتْ سَحَابتُهُ بنُوكٍ مُسْهِلِ(١)
٦ ــ غلَبَ الزَّمانُ بجَدِّهِ فَسَمَا به وَكَبَا الزمانُ لوجْهِه والكَلْكَلِ

قوله « والعجائبُ جَمَّةٌ » اعتراضٌ بين أحمد وقصَّته التى عَجَّبَ منها . ويقال : أَمْرٌ عَجَبٌ وعُجَابٌ وعَجِيبٌ وعاجِبٌ . وأبلغ هذه الأبنية العُجاب . وانتَصَب « عَجَبًا » على المصدر . يقول : أتعجَّبُ لأحمد كيف أنكَرَ خلُقِى وطريقتى ، حتى لامَنِى فى تبذُّلى على تنكُّرِ الأيام وتغيُّرِها ، ومن أينَ استطرَفَ مارأى من حالى وقِصَّتى ، ومُقتضَى الوقتِ وموجَبُ حكمه لايَدْعُوَان إلى غيره . ثم أقبلَ يخاطِب أحمدَ بعد الإخبار عنه فقال : إنّ العَجَب ما أُطلِعك عليه وأُباثُّك فيه ، وأُكشِفُ لك مستورَه وخافِيَه ، مِن كلِّ رجلٍ بطىءِ الفهم ، ميِّت الخاطر ، مَدْعُوٍّ عليه بالهَبَل لثِقَله وعَجْزِه غَبِىٍّ ، عَيِىٍّ ، إنْ حَدَّثَ أدار لسانَهُ فى فيه يَمضَغُ كلامَه ، وإن أُتُمِنَ خانَ ، وكان ذا لونين لنِفاقِه ، وكأنَّ قلبَه قد رِينَ عليه لما يضمِرُه من غِلٍّ ، فعلَيه لكلِّ أحدٍ ضَبَابةٌ ، فلا تصفو نيتُه ، ولا تخلُص طوِيَّتُه ، متصرفٍ فى غُلَوَاءِ الْحمقِ وارتفاعِه وانتهائه ، قليلِ

= مولى بنى عدى بن عبد مناة . بصرى سكن بغداد ، وحدث عن أبى عمرو والخليل ، وأدب أولاد يزيد بن منصور الحميرى خال المهدى ، ونسب إليه ، ثم أدب المأمون . قال المرزبانى : « وكانت مرتبته أن يدخل إليه مع الفجر ، ويصلى معه ، ويدرس عليه المأمون ثلاثين آية » . وسأله مرة عن شىء فقال : لا وجعلنى الله فداك ! فقال المأمون : لله درك ، ما وضعت الواو فى مكان أحسن من موضعها هذا ! توفى بخراسان سنة ٢٠٢ . بغية الوعاة ٤١٤ – ٤١٥ ومعجم الأدباء (٢٠ : ٣٠ – ٣٢) وابن خلكان (٢ : ٢٣٠ – ٢٣٣) ومعجم المرزبانى ٤١٩ وتاريخ بغداد ٧٣٦٥ .

(١) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « بنوء » .

المرُوءة ، زَمِر الحميَّة ، يركبُ رأسَه فيما يَعِنّ ، ويَغْفُل عن القَصْد فيما فيه يَجِدُّ ، ويمضى قُدُمًا فى الشرّ فلا يرتدع ، ويعلو على زاجرِه فلا يَرْجعُ ، ولا يقف وإن كُبِحَ بلجام المَنع ، ولا يرْعَوِى وإن أُوذِن بالهُلْك ؛ ثمّ إنْ حضَرْتَ به مجالسَ الفَضْل والعَقْل ، سالَتْ سحابةُ جهله بِحُمْق تلتطم أمواجهُ ، وتتدافعُ بصَوْبه أركانُه ؛ وعلى ما بِهِ من النَّذالة والجهالة رُزِقَ جَدًّا فحَظِىَ ، وغَلَبَ على أهلِ زمانِه بما قُسِمَ له فَعَلِىَ ، وذَلّ له الدَّهرُ فكبا لصدره ووجهه ضارعاً ، وانقاد لأمرِه ونَهيِه صاغراً ، حتى أدرك ما شاء ممتدًّا فى شأوِه ، مُشترِفاً فى شأنِه ، آخذاً قَصَبَ السَّبْق فى مَيدانه ، فإن تعَجَّبْتَ فالعجيبُ هذا ، وإن استنكرت فالنَّكير هذا .

ويُروَى :

غَلبَ الزّمانُ بجَدِّه وسَمَا به فكبَا الزّمانُ . . . . . .

فيُجعل الفعل للزمان ويكون معنى سَمَا به رفَعَه . ثم أخذ يدعو على الزّمان فقال : سقَط لوجهِه وكلكلِه ، حين اختارَ مثلَه لإحسانه ، وهذا حَسَنٌ جدًّا . والوَغْدُ : الدَّنِئ ، مِن قولك : وغَدتُ القومَ إذا خدَمتَهم(١) . والنُّهَى : العُقول ، والواحدة نُهْيَة . والنُّوكُ : الُحمق . والمِسْحَلان : حَلْقتَا شَكِيم اللّجام ، والجميع المَساحل . ومعنى « على الزّمان » ، على تصاريف الزّمان ؛ فحذَف المضاف .

وقوله « أُبِثك أمرَهُ » أى أجعل أمرَهُ مما تَبثُّ وتَحزَن له . والمَثلُوج الفؤاد : البليد الخالى من الذّكاء والحِدّة . واللَّوْك : المَضغ .

(١) فى الأصل : « إذا دنوتهم » ، صوابه فى ل . وفى اللسان : « والوغد : خادم القوم ، وقيل الذى يخدم بطعام بطنه » .

٧ – ولقد سَمَوْتُ بِهِمَّتِي وَسَمَا بِها طَلَبِي المَكارِمَ بالفَعالِ الأفضَلِ
٨ – لِأنالَ مَكْرُمَةَ الحياةِ وَرُبَّما عَثَرَ الزمانُ بِذِي الدَّهاءِ الحُوَّلِ
٩ – فلئن غُلِبْتُ لَتُمْضِيَنَّ ضريبَتِي كَلَبَ الزَّمانِ بِعِفَّةٍ وتَجَمُّلِ

رجع إلى صفة نفسه على تنكُّر(١) الزمانِ له، فقال: إنى وإن لم تساعدْنى الحالُ، ولا يَقوم لما أنويه المال، فلى هِمّةٌ رفيعةٌ، ونفسٌ أبيّةٌ، يسمو بهما ارتقائى فى درجاتِ الفضل، وطلبى المعالىَ بأحسن الفعل، لأعيش مكرَّمًا مَصُونًا، فلا يَفوتُنى سَلامة الدِّين والمروءة، وإن فاتَتْنى الزِّيادة فى الحال والمَقْدُرَةِ؛ والدَّهر قد يَعثرُ بالرَّجُلِ التامِّ النُّكر، المرير القُوَّة والحَوْل، لجهلِهِ بموضع الصَّنيعة، فإن غلَبَنى على حَظِّى، وتخطّانى عند القَسْمِ إلى غيرى، فطبيعتى تُسَلِّينى وتُرْضِينى، ومعرفتى بمن عندَه المالُ والعَتادُ تَصرِفُ الهمَّ عنِّى، فتَنْمحى آثار الحَدَثان، وعَرامةُ الليالى والأيّام(٢)، بعفافٍ أستعمِله، وتجمُّل ألتزِمُه، لئلّا يَشْمَتَ عَدُوٌّ، أو يفرَحَ حَسودٌ.

تم باب الهجاء بحمد الله وعونه(٣)

والحمد لله على تظاهر آلائه، والصلاة على سيِّدنا محمدٍ وآله.

[تم القسم الثالث من شرح المرزوقى للحماسة]

(١) فى الأصل: «شكو»، صوابه فى ل.
(٢) العرامة: الشدة والشراسة. وفى ل: «غرامة» تحريف.
(٣) ل: «ومنه»، وما بعده من الكلام ليس فى ل.